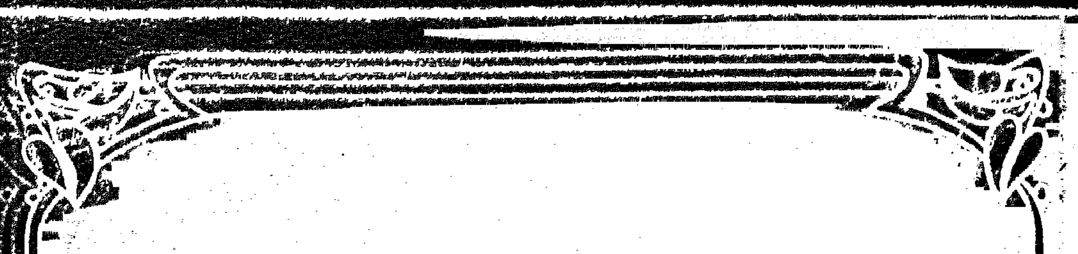


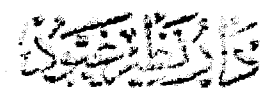
المطران يوسف الدبس

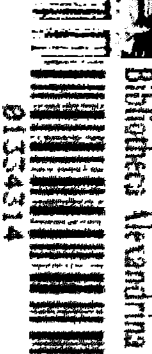
تاريخ سورية الدنيوي والديني

يتضمن تاريخ سورية من أواخر القرن الحادي عشر
إلى أوائل القرن السادس عشر

راجعه ودققه
الدكتور مارون رعد

إشراف
نظير عبود









تاريخ سورية



المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الديني والدنيوي

الجزء السادس

يتضمن تاريخ سورية من أواخر القرن الحادي عشر
إلى أوائل القرن السادس عشر

راجعه ودققه
الدكتور مارون رعد

إشراف
نظير عبود

دار نظير عبود



فهرس

عد | صفحة

الباب الثاني عشر

تاريخ القرن الثاني عشر

القسم الاول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

فاتحة الكتاب

الفصل الاول

قدوم الفرنج إلى سورية واستحوازهم على بعض مدنها وما كان من الحروب في هذا القرن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدنيويين في القرن الثاني عشر

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثاني عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم ومن نعرفهم من الاساقفة في هذا القرن

الفصل الثاني

مشاهير العلم الدينيون في القرن الثاني عشر

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثاني عشر

الباب الثالث عشر

تاريخ سورية في القرن الثالث عشر

القسم الاول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

الاحداث التي كانت في القرن الثالث عشر

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم الدنيويين بسورية في القرن الثالث عشر

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثالث عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم من الشرقيين والغربيين

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون في القرن الثالث عشر

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثالث عشر

الباب الرابع عشر

تاريخ سورية في القرن الرابع عشر

القسم الاول

تاريخها الدنيوي

الفصل الاول

من تولوا سورية بهذا القرن وما كان من الاحداث في ايامهم

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم في القرن الرابع عشر

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الرابع عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الرابع عشر

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الرابع عشر

الباب الخامس عشر

تاريخ سورية في القرن الخامس عشر

القسم الاول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

السلاطين الذين تولوا سورية في هذا القرن وما كان من الاحداث في ايامهم

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم في القرن الخامس عشر

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الخامس عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الخامس عشر

الفصل الثالث

اخص الاحداث الدينية في هذا العصر
اي اتحاد كنيسة الروم بالكنيسة الرومانية

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الخامس عشر

الباب السادس عشر

تاريخ سورية في القرن السادس عشر

القسم الاول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

فصل

ما كان من الاحداث إلى ان فتح السلطان سليم سورية ومصر

المجلّد السادس

تـاريخ سوريـة

الباب الثاني عشر

تاريخ القرن الثاني عشر

القسم الأوّل

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

فاتحة الكتاب

إن تاريخ سورية، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مثالات يتمثل بها كل عاقل ليلزم السلام والوفاق، وينكب عن الخصام والخلاف. فجلّ أحداث تاريخ هذين القرنين أو كلها حروب ومغالبات على مدن سورية، خاصة بين الفرنج الذين أكثروا من الحملات حينئذٍ على بلادنا، وبين المسلمين الذين كانوا يلون هذه البلاد. ولو اقتدى بعض المسلمين بأبي بكر الصديق في الرفق بالنصارى، كما أوصى غزاته الأولين، أو بعمر بن الخطاب، إذ لم يشأ أن يصلي في كنيسة القدس، لئلا يقول المسلمون بعده هنا صلى عمر، أو تركوا النصارى وما يدينون كما أمروا، لنجا المسلمون والنصارى من غوائل الحروب التي خرَّبت هذه البلاد

مدة قرنين. ولكن قام في مصر الخلفاء العلويون الفاطميون، ونازعوا الخلفاء العباسيين الولاية على سورية، وأذاقوا النصارى الأمرّين بعد أن كانوا يترفون بعدالة هرون الرشيد وأولاده وأحفاده، وقام من العلويين الحاكم بأمر الله فعذّب النصارى واليهود وبعض المسلمين أيضاً، ودكّ معابدهم حتى أحرق كنيسة قبر المسيح، ومنعوا النصارى من أن يحجّوا إلى القدس إلا أن يدفعوا ضريبة فاحشة. فلم يصبر أحبار رومة، رؤساء الدين المسيحي، وملوك النصارى بالغرب، على هذا الاعتداء، ودعتهم فروضهم الدينية إلى العناية بتأمين النصارى بسورية ومصر، وأخذ مذ ذاك الحين في الاهتمام بتأمينهم من الاضطهاد، ووقاية معابدهم من الخراب، إلى أن تألّبت في آخر القرن الحادي عشر جموع نصارى الغرب وسارت إلى المشرق.

ولولا الخلاف الذي كان بين المسلمين في ذلك العصر أعني بين الملوك السلجوقيين وخلفاء مصر العلويين، وبين حكام الأعمال بأنفسهم، كما كان بين ولاة بغداد والموصل وحلب ودمشق وحمص وغيرها لما قدر الفرنج أن يدخلوا هذه البلاد، ولا جسروا أن يكون لهم بها مطمع. ولو لم يكن بين النصارى مثل هذا الخلاف بين ملوك الروم في قسطنطينية وملوك الغرب، وبين أصحاب تلك الحملات بأنفسهم أيضاً، لما استطاع المسلمون أن يخرجوهم من هذه البلاد عنوة. والحق يقال إن هذه الحروب الشديدة المديدة أرتنا بسالة المسلمين، وصبرهم على القتال، وعصبيتهم الشديدة. فلم يتركوا الفرنج يستريحون في بلادهم سنة واحدة دون حرب. فكانت في القرنين سلسلة حروب تتصل إحدى حلقاتها بالأخرى كما سترى. وكشفت هذه الأحداث من جهة الفرنج عن ورعهم وتحمّسهم في الدين في ذلك العصر، وتحمّلهم مضض مشاق السفر وأخطار الحرب. ولكن كان في جانب ذلك المحاسدة والخلاف، حتى ألجئوا أن يجلوا عن هذه البلاد صاغرين، ويورثوا سكانها غوائل الخلاف. ونالنا نحن الموارنة نصيبنا من هذه المصائب، وهو إحراق عمل كسروان بجملته، وخراب جبة بشري، على أثر جلائهم، لأنهم أنسوا بنا، واستوطنوا بين ظهرانينا لجامعة الدين بيننا وبينهم. وسترى في كل فصل من تاريخنا لهذين القرنين موعظة ناطقة بوجوب الموالاة والوفاق في أمور هذه الدنيا، بين الملل ولو اختلفت ديناً ومذهباً وطقساً، ووجوب التنكيب عن العداوات والخصام طلباً لراحة كل فريق، والسير في طريق التمدن والتراقي في مدارج النجاح والفلاح. هدى الله كلّ ضال إلى سراط الحق المستقيم.

الفصل الأوّل

قدوم الفرنج إلى سورية واستحوازهم على بعض مدنها وما كان من الحروب في هذا القرن

عد ٨١٢

تألب الفرنج في بلادهم ومسيرهم إلى قسطنطينية

كان المسلمون قد ضايقوا ملك الروم الكسيس كومنانس، وانتزعوا أكثر أملاكه، وأوشكوا أن يحصروه في قسطنطينية عاصمة ملكه. فلجأ إلى ملوك أوروبا وأوفد إليهم وفوداً ورسائل منها رسالة إلى روبرتس كونت فلاندرا الملحقة يومئذٍ بفرنسة، وإلى جميع الأمراء المسيحيين من الاكليريكيين والعامة، يستجير بهم، ويبالغ في مضايقة المسلمين له، وفي احتقارهم الدين المسيحي، وسطوهم على الكنائس والأديار، ويسألهم الأخذ بناصره، والانتصار لدينهم، واستنقاذ قبر المخلص من أيديهم. ويزين لهم كسب ما في المشرق من الكنوز والذخائر المقدسة والآثار الجليلة. وكان في أبرشية اميان بفرنسة وقتئذٍ، حبيس اسمه بطرس، عزم أن يحجّ إلى أورشليم فأمّها، وأقام فيها أياماً، وزار سمعان بطريرك هذه المدينة، وحدثه سائلاً إياه عن حالهم، فنم إليه البطريرك ما يقاسون خاصة من جراء مغالبة دول المسلمين على مدينتهم، فسأله بطرس أليس من علاج لهذه الشؤون؟ فقال البطريرك آثامنا أبعدت بيننا وبين إلهنا فلا يستجيب دعاءنا، وكأن عقابنا لم يكن بعد. فأشار عليه السائح أن يرفع رسائل إلى الحبر الروماني وأمراء النصارى في المغرب، وهو يوصل رسائله إليهم، ويصنع ما يقدّره الله عليه لإجابة سؤاله. فراق هذا الكلام للبطريرك، وكتب رسائله، ودفعها إلى السائح الذي قام في ذهنه أن الله يدعوه للجهاد في هذه المهمّة الجلّى. فأتى إلى رومة، ورفع رسالة البطريرك إلى البابا أوربانس الثاني،

فأجله وأبدى ارتياحه إلى مساعدة نصارى المشرق. فمضى بطرس السائح يفري الفيافي بايطاليا وفرنسا، حافي القدمين، مكشوف الرأس، حاملاً صليباً، مغرياً الكبراء والعامة أيضاً لنجدة نصارى الشرق. أما الحبر الروماني فعقد مجمعاً في بلاسنس بنرمندية، جمع فيه أساقفة إيطاليا وبوركونيا وفرنسة وألمانيا وبفيارا وغيرها، حتى اجتمع حينئذٍ مئتا أسقف ونحو من أربعة آلاف إكليريكي، وأكثر من ثلاثين ألفاً من العامة، فلم تسعهم كنيسة، فتألبوا في ساحة في اليوم الأول من آذار سنة ١٠٩٥، وشهد المجمع نواب بعض الملوك، ووفود الكسيس ملك الروم الذين تضرعوا باخبات إلى الحبر الروماني وأمراء الغرب، أن يمدوا ملكهم وينجدوه على أعدائه، حباً بخير الكنيسة والدين الذي كاد يزهق في الشرق، فحثّ البابا المؤمنين على أن يمدوا ملك الروم، وأقسم كثيرون من الحاضرين أن يسيروا إلى قسطنطينية لإمداد الملك. وعزم الحبر الروماني أن يسير إلى فرنسة، ويعقد فيها مجمعاً، فسار بحراً واستدعى الأساقفة إلى الاجتماع في كلرمون باوفرنيا في الثامن عشر من تشرين الثاني سنة ١٠٩٥، فاجتمعوا في اليوم المعين وكان عدد رؤساء الأساقفة ثلاثة عشر، وعدد الأساقفة والرؤساء الكبار مئتين وخمسة، وعدد الباقين من الإكليريكيين نحواً من أربع مئة، وحشد يشذّ عن العد من الأمراء، والسفراء، والوجهاء، والعامة، حتى ضاقت عنهم المدينة وضواحيها. وبعد أن بحث آباء المجمع عن بعض المسائل المتعلقة بالدين والتهذيب البيعي قرّروا عقد المجلس العاشر في ساحة فسيحة في المدينة. فقام بطرس السائح وخطب في الجامعة خطبة حماسية رنانة، وكان فصيحاً، بليغاً، سديد الحجة، وكان لخطبته وقع شديد في قلوب سامعيه، حتى كادوا يحاولون أن يطيروا من كلرمون إلى أورشليم. وخطب بعده البابا اوربانس وكان فرنسياً مولداً حاضاً أبناء وطنه المسيحيين أجمع على استنقاذ الأرض المقدسة، بفصاحة عجيبة، حتى نهض السامعون بأجمعهم، وضجوا صارخين كأنه بفم واحد: Dieu Le Veut ! Dieu Le Veut إن الله يريد ذلك. إن الله يريد ذلك. فقال البابا فليكن هذا الكلام شعاراً لكم في كل عمل صالح تأتونه. وكان لكلامه تأثير شديد، حتى عزم للحال أكثر السامعين من الاكليروس والعالميين على المسير إلى الشرق. وكان اويمر أسقف بوي أول من أخذ من يد البابا الصليب شعار الصليبيين في حملاتهم إلى المشرق، وتبعه كثيرون. وأقام البابا براي الأساقفة اويمر أسقف بوي رئيساً روحياً للمتجندين وسفيراً من قبله، وريموند

كونت تولوز وسان جيل رئيساً مدنياً. وطاف البابا في كثير من كنائس فرنسة مدبراً شؤونها وحاثاً على المسير إلى المشرق، وموزّعاً بيده الصلبان. وجال بطرس السائح في كل فجّ داعياً إلى التجند، وأَكثَرَ الأساقفة من الحض على ذلك. فعظم الإقبال على هذا التجنّد في فرنسة وإيطاليا وألمانيا، وتبارى فيه الأكابر، والأصاغر، الرجال، والنساء، والأحداث، والكهول، حتى اضطر البابا أن يضع نظاماً لذلك؛ وفي جملته أن لا تسافر المرأة إلّا مع زوجها أو إخوتها. وكان بين الكبراء المجنّدين ريموند كونت تولوز المارّ ذكره، وروبرتس الثاني كونت فلاندرا وقد سمي بعداً كونت أورشليم، وروبرتس الثاني كونت نرمندية، وغودفروا دي بويّون دوك لوران، وأخواه بودين واستاش، وبيوموند أمير تريدتو. وأما عدد الصليبيين فلا يحصى، وقال فوجر من شرتر الذي كان معهم إن عددهم لا يقل عن ستة ملايين، ولكن عاد بعضهم من إيطاليا، وبعضهم من غيرها، وبعضهم مات، وبعضهم قتل. والمؤكد أن الذين بلغوا قسطنطينية كانوا نحو ستماية ألف مقاتل. وقالت الأميرة حنه كومنانس التي كتبت تاريخ أبيها الكسيس كومنانس: «من شاء إحصاء عدد الصليبيين فليحص عدد رمال البحر، أو نجوم السماء، أو أوراق النبات، أو أزهار الربيع». هذه مبالغة تشير إلى الكثرة.

وقد اتفق الصليبيون أن لا يسيروا في طريق واحد، أو حشداً واحداً، بل أن يسيروا متفرقين، وموعد اجتماعهم قسطنطينية. فسار جيش منهم مقدامه بطرس السائح في طريق ألمانيا، وكان عدد هذا الجيش نحو تسعين ألفاً. وفي جملتهم نساء وأحداث وشيوخ. وأخذ إمرة فريق من هذا الجيش رجل اسمه كوتيار Sans Avoir أي الفقير، أو الذي لا يملك شيئاً. واسمه دالّ على ما كان عليه من المسكنة والفقر. وكان عسكره كذلك، وكان المؤمنون يقومون بأودهم ما ساروا في أرض فرنسة. وقد تبعهم بعض الالمان في طريقهم، ولم يعترض لهم أحد، وبلغوا إلى بلغاريا. وقد عازهم الزاد وأبى واليها أن يمدّهم بشيء منه، فتشتتوا في المزارع والقرى، وسلبوا الماشية، وأحرقوا بيوتاً، وقتلوا بعض من قاومهم. فتألب البلغاريون عليهم، وقتلوا منهم كثيرين، وانهزم كوتياغر سائراً في الأحراج والمغاور بمن بقي من جنده، إلى أن بلغوا نيسا. فشفق عليهم واليها، وأحسن إليهم بأزودة وأسلحة وملابس، وبلغوا أسوار قسطنطينية بعد شهرين مضنيين بالتعب والجوع.

وأما الفريق الآخر من هذا الجيش، الذي كان بإمرة بطرس السائح، فسار في طريق بغيارا واوستريا فأباحهم قولمان ملك اونغريا (المجر) أن يجتازوا بأرضه آمنين، بحيث لا يضرّون بأحد، ويشترون ما يحتاجون إليه، وبلغوا مدينة سملين، فرأوا على أبوابها بعض أسلحة كان أهل المدينة قد انتزعوها من الصليبيين، فضربوا المدينة وفتحوها وقتلوا من أهلها أربعة آلاف. ولكن جيّش الانغاريون عليهم، فانهزم بطرس السائح بعسكره، وساروا في الأحراج وأنتهوا إلى نيسا، فقدم لهم واليها الزاد. ولكن وقع خصام بين بعض الأهلين وبعض الجند، فأحرق بعض الألمانيين من الصليبيين سبع مطاحن، فثار أهل المدينة بالصليبيين، فقتلوا كثيرين، وأخذوا منهم ألفي عربة، وأسروا كثيرين. وعاد بطرس السائح الذي كان قد سار في مقدمة جيشه إلى والي نيسا يسأله تخلية الأسرى، وردّ العربات، فأبى واستأنف القتال، ودارت الدائرة على الصليبيين، فقتل منهم عشرة آلاف، وانهزموا في البرية نحو تراسة نادمين على ما جنوا على أنفسهم وعلى غيرهم. ولما علم الملك الكسيس بوصولهم إلى تراسة أرسل يعتبهم على سطوهم، ويعدهم بالصفح، فساروا حتى انتهوا إلى أسوار قسطنطينية.

وحشد كاهن ألماني اسمه كوتسكال عسكراً نحو خمسة عشر ألفاً وكان أكثرهم من السباريت الجانين، فأفرطوا في السطو بانغاريا، فقتلوا هناك عن آخرهم. وتألّب عسكر آخر من ألمانيا فسطا على اليهود، ونكل بهم فشتتهم الاونغاريون والبلغاريون شذر مذر. وأما الجيوش المنظمة فسار فريق كبير منها بإمرة غودفروا دي بويّون. فلم يتعرض لهم الاونغاريون والبلغاريون. وسار فريق آخر بإمرة بوبرتس دوك نرمندية، وروبرتس كونت فلاندوا، وغيرهما، في طريق إيطاليا. وسار فريق آخر بإمرة بيوموند إمير تريدنتو بحراً إلى بلاد اليونان. وسار الصليبيون من جنوب فرنسة برئاسة اويمر أسقف بوي سفير البابا وإمرة ريموند كونت تولوز، وكان عدد هذا الجيش نحواً من مئة ألف مقاتل، وساروا في طريق إيطاليا وبلاد اليونان بأحسن نظام وبكل عبادة وورع، واجتمعوا جميعاً في ضواحي قسطنطينية سنة ١٠٩٦. وكان معسكر قادتهم في قرية بيوكدرا إحدى ضواحي قسطنطينية. وقد كان عدد من قتل ومات منهم في طريقهم ألوفاً مؤلفة (ملخص عن تاريخ روهر بخر عن تاريخ غوليلمس أسقف صور وغيره من مؤرخي ذلك العصر).

عد ٨١٣

ما كان بين الفرنج وملك الروم ومسيرهم إلى أنطاكية

إن الكسيس ملك الروم الذي كان قد استمدّ أمراء الغرب، ارتاع لما رأى كثرة عديدهم، ووجس من انقلاب ناجديه عليه، وأسف لأنه أراهم ضعفه باستمداده لهم. فعوّل على الحيلة والمكر بهم، فرحب بهم، وأنسهم، وقدم لهم هدايا وتقادم نفيسة، وأكثر من الوعود بمجاراتهم على كل ما يبتغون، لكنه بالغ في تجسس أحوالهم واستطلاع ما كنّت سرائرهم. وكان الكونت دي فرمندوا أخو ملك فرنسة قد ألقاه عاصف على شواطئ الابير، فدسّ الكسيس من أحضره وحاشيته إلى قسطنطينية بهيئة أسير، آملاً أن يكون أخو ملك فرنسة رهينة عنده لحفظ الأمانة له، فكان عكس ما أمل. فإن ذلك كشف للافرنج خبث نيته، وأراهم لزوم الحذر منه، وأخذ رؤساؤهم يعاملون الروم معاملة أعداء. فندم الكسيس على قبح فعلته، واستعطف أسيره، وطلب عفوه، وبالغ في إكرامه، وفي تقدمة الهدايا له. لكنه لم يلبث أن منع الفرنج الزاد. فانتشروا في القرى وضواحي المدينة ينهبون ويسلبون، واستمروا على ذلك أياماً، فكان لهم ما يكفيهم. وأتت أيام عيد الميلاد فكفّوا عن السلب تديّناً، وصالحوا الملك، فعاد يجري الأرزاق عليهم. وكان الملك لا يدخّر وسيلة من وعد ووعيد ليحلف له غودفروا يمين الأمانة والطاعة، وغودفروا لا يغتر بوعده ولا يرهب وعيده، وأوشكا أن يتعاركا، وبلغ الخبر بيوموند، واستبشر بأن تلك وسيلة لإسقاط ملك الروم واقتسام مملكته. وكاشف غودفروا في ذلك فلم يحسن له. وعلم الملك بذلك فازداد رهبةً وتوجّساً، وأرسل ابنه ليكون في معسكر الفرنج، فاغتروا بخدعته، وصيدوا بأحبولته، وأتى رؤساؤهم إلى قصره، فبالغ في تكريمهم، وتبنّى غودفروا، ووضع مملكته تحت حمايتهم، فحلفوا له على أنهم لا يخلّون بحرمة الضيافة، وأنهم يسلّمون إليه ما كان يخصّ مملكته من المدن التي يفتحونها. ووعدهم الملك أن ينجدهم براً وبحراً بجنده وسفنه، وأن يقدم لهم الأزودة، ويشاطرهم الكفاح والمخاطر والفخر في حملتهم.

وكان أول من عبر البوسفور منهم واحتلّ آسيا غودفروا، وسار على أثره باقي الأمراء، وكان جيشهم حينئذٍ ست مئة ألف مقاتل. وأول مدينة حصروها وافتتحوها كانت مدينة نيقية المشهورة بالمجمعين الأول والثامن اللذين عقدا فيها،

وكان تولاها حينئذٍ قليج أرسلان بن سليمان سلطان قونية من السلجوقيين، وسماه أبو الفداء قليج. فلاقى الفرنج بجموعه، فقاتلوه، وهزموه في رجب سنة ٤٩٠هـ وهي سنة ١٠٩٧م. هذا ما رواه ابن الأثير وأبو الفداء. وقد ذكر المؤرخون الفرنج أخذ نيقية بأكثر تفصيل فقالوا إن مهاجمات الفرنج لهذه المدينة في الأيام الأولى من حصارهم لم تجدهم نفعاً، ورجعوا عنها خاسرين لأنها كانت محصَّنة منيعة، وأتى السلطان قليج لنجدتها بستين ألف فارس، فتأججت نار الوغى بينه وبين الفرنج من الفجر إلى المساء، فانكسر، وتشتّت جمعه، وقتل من عسكره كثيرون. وبعد هذه الوقعة شدوا الحصار على المدينة، ولم يبقَ آلّا أن يدخلوها. فأرسل الملك الكسيس كتيبة من جنده بإمرة قائدين معروفين بالدهاء. فدخل أحدهم المدينة وأرهب أهلها بما سيجريه الفرنج عليهم من الانتقام، وزين لهم أن يستسلموا إلى الملك ففعلوا. وإذ كان الفرنج يتحفزون للدخول إلى المدينة رأوا أعلام الملك الكسيس تخفق على أسوار المدينة وقلاعها، فدهشوا واحتدموا وكادوا يتمزقون غيظاً، إذ منعوا من أن يدخلوا المدينة إلا عشرة عشرة بعد إراقة دماء كثيرين منهم في فتحها، وأوشكوا أن يثيروا بملك الروم لولا أن يتدارك هو الأمر، باعتذاره عن فعلة قائديه، وبسخائه على الجنود، وتقديم الهدايا النفيسة لرؤسائهم. فأغضى الفرنج على سوء صنيعه وحذروا الاركان إليه.

وفي ٢٥ حزيران من سنة ١٠٩٧ سار الفرنج بجيوشهم من نيقية منقسمين إلى عسكرين؛ أحدهما بإمرة بيوموند وتنكراد وروبرتس دوك نرمنديه، والآخر بإمرة غودفروا دوك لوران. وبينما عسكر بيوموند على مقربة من دوريلا المعروفة الآن باسكي شهر، وثب عليهم في غرة تموز قليج ارسلان سلطان قونية السلجوقي، بجيش جرّار لا ينقص عن ثلثماية ألف رجل. واستعرت نار الحرب بين الفريقين منذ الصباح، وانتهى جنود السلطان في إحدى كراتهم إلى معسكر الفرنج. فقتلوا النساء، والأطفال، والشيوخ، والمرضى، واتصلوا إلى أن أحاطوا بالفرنج من كل جهة، وسدّوا عليهم باب الهرب. وكاد اليأس يستحوذ عليهم، فإذا طلائع العسكر الآخر الذي بإمرة غودفروا مشرفة عليهم من أعلى جبل قريب منهم. فانتعشت قلوب إخوانهم، وارتاع أعداؤهم، وانكشفوا مرتدين، فتتبّع الفرنج خطاهم يقتلون منهم. فتحصن السلطان قليج في قمة جبل ظاناً أن الفرنج لا يلحقونه إلى هناك. فأحدقوا بالجبل وضيقوا على من تحصّنوا به، وقتلوا منهم كثيرين، وغنموا ازودتهم

وسلاحهم وخيمهم ودوابهم. وقد سرتهم رؤية الجمال التي لم يكونوا يعرفونها في أوروبا. وكان عدد القتلى من الفرنج في هذه الوقعة نحو أربعة آلاف. وقد أطرى المؤرخون النصارى المعاصرون لهذه الأحداث بسالة المسلمين وثبوتهم في القتال. أما السلطان قليج فانهزم بمن بقي من جيشه، وأخرب كل البلاد التي رأى أنه لا يستطيع الدفاع عنها.

وفي ٣ تموز سار الفرنج جيشاً واحداً، مفكرين أن سيرهم معاً يقيهم الغدر ومباغتة أعدائهم فريقاً منهم، لكنهم عرّضوا نفوسهم بذلك للهلاك جوعاً في الأعمال التي أخربها قليج. ولما توغّلوا بهذه البلاد المقفرة الخربة، عازهم الزاد، وأصابتهم مجاعة ألجأتهم إلى الاقتيات بحب الأشجار وأصول النبات. فهلك كثير من الجنود والدواب جوعاً وعطشاً، واضطرّ الفرسان أن يترجّلوا، وبعضهم أن يركبوا الحمير والبقر، وأن يستخدموا الغنم والماعز والخنازير والكلاب لنقل أمتعتهم وملابسهم. وروى غوليلمس الصوري في كتاب تاريخه لهذه الحرب أنه مات في يوم واحد خمس مئة نفس من الفرنج. واستمروا على هذه الحال التعيسة المضنكة إلى أن انتهوا إلى أنطاكية بيسيدية. ففتح أهلها أبوابها لهم، واستراحوا في هذه المدينة المخضلّة الزاهية أياماً. وقد ذاع خبر انتصارهم وكثرة جيشهم، فتوارد إليهم وفود من أعمال كثيرة يرحبون بهم، ويعدون بالطاعة لهم، وإمدادهم بما يبتغون. وجاهر النصارى في آسيا الصغرى بالانقياد إليهم.

وسار جيش الفرنج من أنطاكية بيسيدية نحو قونية عاصمة ملك قليج السلجوقي، وبلغوا هرقلية، حيث أقاموا أربعة أيام، واستأنفوا مسيرهم في أوعار جبل طورس مقاسين من المشاق ما حملهم على أن يسموا هذا الجبل جبل الشيطان، حتى انتهوا في خاتمة مطافهم إلى مارينريا وهي مرعش وكان سكانها نصارى، وفي قلعتها حامية من قبل الحكومة انهزمت عند دنوّهم من المدينة. ومضى حينئذٍ بودوين أخو غودفروا بكتيبة أولاندية، وتنكراد بكتيبة إيطالية لتجسّس الطرق، وتهزيم الأعداء عنها، ولتأمين النصارى في كيليكيا، وللامتيار. فانتشروا في هذه البلاد وملكوها. واستسلم أهل ترسيس إلى تنكراد، ثم استحوز عليها بودوين فكان بينهما نزاع كاد يفضي إلى القتال لولا ترفع تنكراد ونزاهته، واستحوز على ادنه فارس من بوركونية اسمه كوالف، وتولى تنكراد المصيصة، وانتهى إلى اسكندرونة. وكان يطوف في هذه البلاد بثلاث مئة فارس فيفرّ كل عدوّ منها رهبة من جيوش الفرنج.

وعاد بودوين إلى المعسكر العام في مرعش، فونبه أخوه غودفروا على سوء معاملته تنكراد وطمعه بأخذه ترسيس. وكان رجل أرمني اسمه بنكراس يلي مملكة صغيرة. فثار به أهلها فخلعوه، وانقلب عليه الدهر حتى ألقي في السجن في قسطنطينية، ثمّ فرّ منه، وانضمّ إلى الفرنج تحت إمرة بودوين، وكان يزين له الاستيلاء على أرمينية والجزيرة (ما بين النهرين). فأذعن بودوين لرأيه لكن لم يشأ أن يصحبه من الفرنج إلّا نحو من ألف رجل ومائتا فارس، فسار بهم في أرمينية فلم يلف معارضاً، وانفصل عنه بنكراس مستحوذاً على بعض أماكن. ولم ينبئنا التاريخ ما آل إليه أمره. وأما بودوين فاستولى على بعض المدن على عدوة الفرات، فذاع اسمه، وعظمت سطوته ورهبته. وكانت الرها ألحقت بولاية ملك الروم كما رأيت، وكان عليها يومئذٍ أمير رومي اسمه توادورس يفي الجزية للسلاطين السلجوقيين، وقد اجتمع فيها كثيرون من النصارى. فاجتمع رأي الأمير والشعب على أن يستدعوا بودوين ويملكوه فيهم، وسار إليه أسقف المدينة واثنا عشر وجيهاً من الشعب، وسألوه أن يسرع إلى مدينتهم ويحكم عليهم، فلبى دعوتهم. ولما دنا من المدينة خرج الشعب كله لملتقاه حاملين أغصان الزيتون ومترنمين بالتسابيح. وكان الأمير شيخاً لا ولد له، فتبنّى بودوين وجعله وارثاً له، ثم اغتال الأمير بعض الناقمين عليه، واستبد بودوين بالولاية على الرها، ووسع تخوم ولايته بما ناله من إرث الأمير، فأخذ سمياط وغيرها من المدن، ثم ماتت امرأته فتزوج بنت اخي أحد أمراء أرمينية، وسهّلت له هذه الصلة بالنسب توسيع نطاق حكومته إلى جبل طورس، حتى دان له قسم كبير من الجزيرة وسكان عدوتي الفرات، وأسّس هناك للافرنج كنتية الرها سنة ١٠٩٨، واستمر يدبر شؤونها إلى أن استدعي ليخلف أخاه غودفروا بعد وفاته في مملكة أورشليم كما سيجئ. وتخلى بودوين حينئذٍ عن كونتية الرها لبودوين كونت بورج أحد أنسبائه. وأما جيش الإفرنج فسار من مرعش نحو قنسرين، وكان في طليعة الجيش روبرتس كونت فلاندرا في ألف رجل، فاستحوذ على قنسرين بإمداد، النصارى سكانها، فأسرع عسكر المسلمين الذي كان في أنطاكية لإنجاد المدينة، لما رأى الفرنج تبوأوها عدل عنها إلى جسر الحديد الذي على العاصي ليصدوا الفرنج عن العبور إلى أنطاكية، وكان في جانبي الجسر قلعتان مصفحتان بالحديد، واجتمع هناك جيش كبير من المسلمين. وكان روبرتس المذكور أول من أوقد نار الحرب بطلائع جيش الفرنج، فردّ عن الجسر خاسراً نحو

ألف رجل، ثم أدركه الجيش العام فشتتوا جيش المسلمين، وانهزم من في القلعتين، واستحوذ الفرنج على ضفتي العاصي وساروا نحو أنطاكية. (ملخص عن غوليلمس الصوري في تاريخ الحرب وغيره من المؤرخين المعاصرين كما روى أقوالهم روهر بخر في كتاب ٦٦ من تاريخه).

عد ٨١٤
حصار الفرنج أنطاكية وفتحها

نلخص أولاً ما ذكره المؤرخون العرب في هذا الشأن نقلاً عن ابن الأثير، وابن خلدون، وأبي الفداء وغيرهم. قالوا لما انتهت جيوش الفرنج إلى أنطاكية حاصروها تسعة أشهر، وكان واليها يومئذٍ باغي سنان (وقد مرَّ ذكره) من قبل الملوك السلجوقيين فأحسن الدفاع عنها، وظهر من شجاعته وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره، وأخرج رجال النصارى من المدينة بحجة احتفار خندق، ثم منعهم من العود إليها، وأبقى أطفالهم ونساءهم فيها، وهلك أكثر الفرنج من الجوع والبرد والوباء، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد المسلمين. ولما طال مقام الفرنج على أنطاكية راسلوا أحد المستحفظين للأبراج، وبذلوا له أموالاً وأقطاعاً، فدلّهم على بعض المخارج ودخلوا منه، ونفخوا البوق، فخرج باغي سنان هارباً حتى إذا كان على أربع فراسخ من المدينة راجع نفسه وندم. فسقط مغشياً عليه، وأراد أصحابه أن يركبوه، فلم يكن فيه مسكة. وقد قارب الموت فتركوه وساروا عنه، واجتاز به رجل أرمني، كان يقطع الحطب، وهو بآخر رمق، فقتله وأخذ رأسه إلى الفرنج بأنطاكية. وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لا نقصد إلّا البلاد التي كانت بيد الروم، لا نطلب سواها، مكراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية. وسنذكر تالّبهم على الفرنج، بعد أخذهم أنطاكية، وحصارهم لهم فيها نقلاً عن المؤرخين العرب أيضاً.

وأما ما ذكره المؤرخون الفرنج في حصار أنطاكية وفتحها، فنلخصه عن المؤلفين المعاصرين لهذه الأحداث، كريموند دي اجيل أو القريبين منهم، كغوليلمس أسقف صور وغيره. قالوا إنّ هذا الحصار استمرّ ثمانية أشهر، من أوائل تشرين الأوّل سنة ١٠٩٧ إلى أواخر حزيران سنة ١٠٩٨. وتقلبت فيها عليهم الأحوال تارة تسوء،

وتارة تحسن. وكان المسلمون في داخل أسوار المدينة، لا يسمع لهم جلبة، ولا صياح. فتوهم الفرنج أنهم مرتعدون فشلون. فلم يحتاطوا كما كان ينبغي، وانتشروا في ضواحي المدينة وقراها، لاهين بما لاقوا هناك من المؤن، والثمار، والجنات، والمياه، والمواشي التي لم يتمكن أهل المدينة من حرزها. وفشا فيهم الفتور، والانكباب على الطرب والملاذ، وحمل ذلك أهل المدينة على الأمل، ونعّش فيهم الشجاعة والنخوة، فخرجوا على الفرنج، فقتلوا، وأسروا كثيرين ممن كانوا مشتتين في البساتين، أو لاهين بما طاب لهم. فندم الفرنج على سوء تصرفهم، وعزموا على أن يأخذوا بثأر من قتل من اخوانهم، ولكن لم تكن لهم الأدوات اللازمة للحصار. فطال مكثهم خارج المدينة ونفد اذخارهم، وأتت أيام الشتاء، فتمزقت خيمهم، وتعسر مسيرهم من قبل الارحال، وضربت المجاعة أطنابها فيهم. فاجتمع رؤساؤهم، وتشاوروا وأرسلوا نحواً من عشرين ألف رجل منهم بإمرة أمير تريدنتو، وكونت فلاندرا إلى الاعمال المجاورة لهم، ليمتاروا طعاماً. فمضى هؤلاء، وانتصروا في مسيرهم على عدة شراذم اعترضت لهم، وعادوا موقرين ازودة وذخائر كثيرة. وفي مدة غيابهم، خرج المسلمون على عساكر الفرنج المخيمة حول مدينتهم، فأكثروا من القتل والتنكيل بهم. وذكر ريموند دي اجيل المؤرخ الذي كان في جملة الفرنج حينئذٍ، انخذالهم، وما قاسوه في ذلك اليوم. وعزا انكسارهم إلى انتقام الله منهم لآثامهم. وقد أدركهم تعالى، بنجاتهم من المجاعة، وبما وفق غزاتهم إلى جلبه من المؤن، سداً لجوعهم إلى وقت فشت فيهم الأمراض، وتوافر عدد الموتى، حتى روى بعض الشهود العيانيين، ان الكهنة، لم يكفهم الوقت للصلوات على الأموات. وضاقت سهول أنطاكية عن المدافن، وعاودتهم المجاعة حتى أكلوا الجيف، وماتت خيولهم لقلة العلف، فكان لهم في بدء الحصار ستون ألف فرس، ولم يبق منها إلّا ألفان. وكثر الاباق فيهم، فقد حمل اليأس بعضهم على الفرار إلى الرها، حيث ولي بودوين، وبعضهم إلى كيليكيا، حيث تولى تنكراد، وبعضهم أنسل مستخفياً إلى بلاده. وانحاز دوك نرمندية نفسه إلى اللاذقية، ولم يعد إلّا بعد مناشدته مرات. وغادر تاتيس قائد عسكر ملك الروم بجنده المعسكر، بحجة أن يستنجد ويمتار حتى اضطرّ قادة الجيش، أن يقضوا بالموت على من يفر. وطفق أويمر أسقف بوي وغيره من الأساقفة والكهنة، يعظون في الجيش، ويحضونهم على التوبة والتكفير عن آثامهم، ليرأف الله بهم. وفرضوا أصواماً وصلوات، وأقاموا محكمة

تقضي على المجرمين. وكان بعض النصارى يتجسسون أخبار الفرنج، ويكشفون للمسلمين أحوالهم، فشنق بيوموند بعض هؤلاء عبرة لغيرهم.

وكان غودفروا قد جرح، والتأم جرحه، وخرج بين الجنود، فأنعش فيهم الأمل. وأرسل أخوه بودوين كونت الرها وبعض أمراء أرمينية، مالاً وذخائر لجيش الفرنج. وأتتهم المؤن من قبرص، وساقس وردس، فكان لهم كفافهم، وقلت الأمراض فيهم، فعاودتهم الشجاعة والنخوة. وقدم إليهم حينئذٍ وفد من قبل خليفة مصر العلوي، فاستقبلوهم بالاجلال، فقالوا إنّ مولانا يرغب في التقرب إلى الفرنج على ما بين الفريقين من اختلاف الدين، وانه مستعد أن يدخل بجنده إلى فلسطين وسورية ليخرج منها أعداءهم الذين كانوا على ممر الأيام أعداء الداء لذرية أهل علي. وانه يعلم أن جل ما يقصدونه، انما هو أورشليم، فهو يعد بأنه يجدد كنائس النصارى فيها، ويذب عن دينهم، ويفتح أبواب المدينة لكل من رغب في الحج إليها، بحيث أن يدخلوا اعزالاً، لا سلاح معهم، وأن لا يقيموا فيها أكثر من شهر. فان قبلوا هذا الشرط كان الخليفة مناصراً ومنجداً لهم. وإن أبوا موالاته قامت على قدم، وساق شعوب مصر والحبشة وجميع سكان آسيا وإفريقيا من بوغاز جبل طارق، إلى بغداد لمناوأة الفرنج وكبتهم. فساء كلامهم رؤساء جيش الفرنج، وقام أحدهم، وقال للوفد المصري: «قولوا لمولاكم أن ديننا بعثنا على انقاذ الأرض التي ولد فيها رب هذا الدين، ولا نحتاج في ما عزمنا عليه إلى نجدة من دول الأرض، ولا ننسى ما أجراه المصريون من وقت قريب على حجاج الغرب، ولا يمحى من ذكرنا ما أنزله الحاكم بأمر الله على النصارى، ودكه كنائسهم، ولاسيما كنيسة القبر المقدّس. فنحن لا نقصد زيارة أورشليم بل أقسمنا على أن نملكها ونستحوذ على كل ما هنالك. فقولوا لمن أرسلكم أن يختار السلم أو الحرب، قولوا له ان الفرنج المخيمين حول أنطاكية لا يروعهم شعب مصر ولا سكان الحبشة ولا أهل بغداد». وعند انصراف الوفد المصري، صحبه مفوضون من قبل الفرنج إلى مصر كيلا يجاهروا خليفة مصر بالعدوان.

وقد حشد في هذه الأثناء، أمير حلب وأمير دمشق وغيرهم من الأمراء، عشرين ألف فارس، ليمدوا أنطاكية، ودنوا منها فخرج من معسكر الفرنج نخبة من جنودهم، فقاتلوا اولئك الأمراء، وهزموهم وقتلوا منهم ألفي رجل، وألف حصان. وقد ذكر المؤرخون المسلمون هذه الوقعة، بعد أخذ الفرنج أنطاكية كما سيجيء.

وقد قدم حينئذٍ أسطول من جنوا ودخل المرفأ المعروف بمرفأ القديس سمعان على مقربة من أنطاكية، فسرّ الفرنج خبر قدومهم، ومضى من معسكرهم كثيرون إلى ذلك المرفأ ليرحبوا بهم، ويستطلعوهم أخبار أوروبا، ويمتاروا لهم أقواتاً. وبينما هم راجعون وأكثرهم اعزال لا سلاح معهم، فاجأهم أربعة آلاف رجل من المسلمين وقتلوا كثيرين منهم وشتتوا الباقين. وبلغ الخبر إلى الجيش فأسرع غودفروا بغيره من الرؤساء والجند، لانقاذ اخوانهم، فهزموا المسلمين. فأرسل باغي سنان والي المدينة نخبة من رجاله لامدادهم مهدداً إياهم بأنه لا يفتح لهم أبواب المدينة، إلى أن ينتصروا، فانتصر الفرنج على الفريقين معاً، وأبدى غودفروا وروبرتس دوك نرمندية آيات البسالة. ودام القتال النهار كله، وانهزم المسلمون، وغرق منهم نحو ألفين في العاصي. ولم تكن خسائر الفرنج قليلة، وطفق باغي سنان يضطهد النصارى الذين لبثوا في المدينة، وحبس البطريرك يوحنا، وأذاقه مر العذاب. وضربت المجاعة أطنابها في أنطاكية، فسأل باغي سنان الفرنج أن يعقد هدنة معهم، فأجابوه إليها، ولو لم تكن لهم مصلحة فيها. وكان بعض الفرنج في مدة الهدنة، يدخلون المدينة وبعض أهلها يخرجون إليهم. فسنحت الفرصة لبيموند أن يصادق أميراً اسمه فيروز، كان رئيس الحرس في ثلاثة أبراج، وكان مسيحياً أرمنياً، فأسلم وكشف ذات يوم لبيموند تونيب ضميره له، وانه يريد أن يصالح النصارى، وأن يؤديهم خدمة ما. فحضّه بيوموند على اتمام ذلك، فوعده فيروز أن يسلم إليه الأبراج الثلاثة التي في حراسته، ولمح بيوموند إلى انه اهتدى إلى وسيلة تضمن فتح المدينة، وطلب أن يكون الوالي عليها، فخالفه بعضهم. وإذا بمخبر يقول إنّ كربوغا (وسماه بعضهم كربوقا) أمير الموصل، قادم بمئتي ألف مقاتل لنجدة أنطاكية. فوعد أكثر رؤساء الجيش بيوموند، أن يكون أميراً على أنطاكية، وسألوه أن يسرع ما أمكن باتخاذ الوسيلة التي أشار إليها لفتحها قبل وصول كربوغا. فأرسل بيوموند للحال إلى فيروز يطالبه بانجاز ما وعد فأرسل فيروز ابنه إلى بيوموند ليكون رهينة عنده، معيناً الغد ميقاتاً لتسليم الأبراج. فأذاع الفرنج ان جيشهم سائر لقتال كربوغا، وقبل المغيب اصطفت صفوفهم وسارت في الطريق، ولما سدل ستار الظلام رجعوا نحو أسوار المدينة. فدرى أخو فيروز بخيانة أخيه وأراد كشف سره، فطعنه فيروز بمدية نفذت إلى قلبه، وكان الظلام حالكاً والريح شديدة والحرس نياماً آمنين فدلى فيروز سلماً على الأسوار، فأصعد بيوموند على السلم ضابطاً اسمه بيان، فقال له فيروز:

«كل شيء معد فتعالوا»، واراه جثة أخيه للتوثّق بقوله. ومع ذلك اعترى الجنود الهلع، فترددوا عن التسلق، فتسلق بيوموند آملاً أن يتبع غيره آثاره. فلم يقتفوه ولامه فيروز على ابطائهم، فأسرع نازلاً محققاً لأصحابه أنّ لا خوف. فأخذوا يصعدون على السلالم، فسلم فيروز إليهم الأبراج الثلاثة التي كانت بحراسته، ثمّ استولوا على سبعة أبراج أخرى ودلهم فيروز على مدخل المدينة، فدخلوا وانتشرت صفوفهم في شوارعها تصيح Dieu Le Veut (هكذا أراد الله) ولما طلع الصباح أبصروا علم بيوموند يخفق على أعلى أبراج المدينة، وانسل باغي سنان مستخفياً، ولهان يصحبه بعض خدمه إلى خارج المدينة، حيث غشي عليه، ولم يعد يستطيع أن يستمسك على جواده، وخاف خدامه فتركوه وفيه رمق، فمرّ به رجل أرمني احتز رأسه، وأتى به إلى الفرنج في المدينة كما روى المؤرخون العرب. وكان فتح أنطاكية في غرة حزيران سنة ١٠٩٨. انتهى ملخصاً عن ريموند دي اجيل الذي كان في هذه الحرب، وعن غوليلمس الصوري وغيرهما ممّن كتبوا تاريخ هذه الحرب.

عد ٨١٥
حصار المسلمين للفرنج في أنطاكية

نذكر أولاً ما دونه المؤرخون المسلمون ثم نردفه بما قاله المؤرخون النصارى في هذه الحرب، ولا يخفى ما في هذه الطريقة من تحقيق الأخبار، فلا يبقى سبيل إلى الريب في ما اتفق عليه فريقان مختلفان غرضاً ونزعة وموطناً، وتيسير ترجيح الصحيح على الفاسد في ما اختلفا فيه. وناهيك من تفصيل الأخبار مأخوذة عن عدد من الرواة.

فنلخص حصار المسلمين للافرنج في أنطاكية بعد فتحها، عن ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفداء قالوا «لما بلغ كربوغا صاحب الموصل، ما فعله الفرنج بأنطاكية جمع عسكره وسار إلى الشام، وأقام بمرج دابق، واجتمع إليه دقاق بن تتش (وسماه بعضهم تنش بالنون، وبعضهم تتش بالتاء ونظن هذه الرواية أصح) صاحب دمشق وطغتكين اتابك (هذه الكلمة بمعنى أبي الأمراء، وكان الملوك السلجوقيون يلقبون بها بعض عمالهم، وخلع بعض هؤلاء العمال الطاعة لمواليهم،

واستقلوا في أعمالهم، ومنهم الاتابكة الذين أنشأوا دولة في سورية، وسيجيء ذكرهم)، وجناح الدولة صاحب حمص، وهو زوج أم الملك رضوان (وقد مرّ بنا ذكرهم) وغيرهم من الأمراء والقواد وساروا حتى نازلوا أنطاكية. وانحصر الفرنج بها بعد أن كانوا ملكوها اثني عشر يوماً، وعظم خوفهم ولم يكن لهم ما يأكلونه، وتقوت الأقوياء منهم بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر. فأرسلوا إلى كربوغا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم ما طلبوا وقال لا تخرجوا إلّا بالسّيف. وأساء كربوغا السيرة في من معه من المسلمين، وأغضب الأمراء، وتكبّر عليهم، فخبثت نياتهم عليه، وأضمروا له في نفوسهم الغدر. ولما ضاق على الفرنج الأمر وقلت الأقوات، خرجوا من أنطاكية، واقتتلوا مع المسلمين، فولى المسلمون هاربين، وكثر القتل فيهم، ونهب الفرنج خيامهم، وتقووا بالأقوات والسلاح. وعن ابن الأثير خاصة انهم خرجوا من الباب متفرقين من خمسة أو ستة ونحو ذلك. فقال المسلمون لكربوغا ينبغي أن تقف على الباب، فتقتل كل من يخرج. فقال لا تفعلوا امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم جميعاً. ولما تكامل خروج الفرنج، ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوغا. أولاً من الاستهانة والاعراض عنهم. ثانياً من منعهم عن قتل الفرنج. وتمت الهزيمة عليهم ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم، وانهزم كربوغا معهم وظنّ الفرنج ذلك مكيدة، إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة، فقتل الفرنج منهم ألوفاً، وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم.

وأنبأنا ابن الأثير أيضاً، بما ذكره كثيرون من مؤرخي النصارى كما سيأتي. وهو وجدان الفرنج حينئذٍ الحربة التي طعن بها جنب المسيح. فقال وكان مع الفرنج راهب مطاع فيهم، وكان داهية من الرجال. فقال لهم ان المسيح عليه السلام، كانت له حربة مدفونة بالقسيان الذين بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فان وجدتموها ظفرتم، وان لم تجدوها فالهلاك محقق. وكان قد دفن قبل ذلك حربة فيه وعفا اثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع حفروا في جميع الأماكن، فوجدوها كما ذكر فقال: أبشروا بالظفر. فخرجوا في اليوم الخامس الخ.

وأما ما رواه المؤرخون النصارى، فهو أن الفرنج بعد أن دخلوا أنطاكية، عكفوا على الطرب والقصف، وأقام الكبراء مراقص ونسوا الله الذي اسبغ عليهم احسانه. ولكن ما لبث الطرب أن تولاه الكرب، فانهم مذ اليوم الثالث، بعد دخولهم المدينة، شاهدوا من أعلى الأسوار، فرساناً ترمح نحو المدينة، ومن ورائهم حشد غطت خيامه شواطئ العاصي. وكانت القلعة المنيعة ما برحت بيد المسلمين، فخيم هذا الجيش حول أنطاكية، وقائدهم كربوغا أمير الموصل. ولم يكن للافرنج وقت لاعداد الأقوات، فكانت فيهم مجاعة أكلوا بها الحمير والخيل والبغال والجمال بل الجلود العتيقة أيضاً. وكان عند الدوك غودفروا، قليل من المؤن، وزعه على الآخرين، ولما نفد لم يبق له إلّا أن يعزيهم ويشجعهم بكلامه، وفرّ بعضهم، وأسلم بعضهم طلباً للقوت، ومات بعضهم جوعاً، وقتل المسلمون بعضهم، وفرّ أسطفانس كونت بلوا (بفرنسة) وسار بطريق أوروبا، فالتقى بالكسيس ملك الروم قادماً لنجدة الفرنج بمئة ألف جندي، يصحبه عشرة آلاف لاتيني بأمرة كوى أخو بيوموند. فأخبره بحصار كربوغا أنطاكية، وبكثرة جيشه. وقال ليبرئ ساحته من عار الهزيمة انه لو دفع جيش الملك قوتاً لجيش كربوغا، لما ناب كل جندي منه فلذة صغيرة. فارتاع الكسيس، أو تظاهر بالارتياع. فعدل عن مسيره، وعاد إلى قسطنطينية، ولم يوقفه عن العود تضرعات أخي بيوموند إليه. واستحوذ اليأس والقنوط على الفرنج بأنطاكية، حتى اضطرّ بيوموند أن يحرق بمضض البيوت، ليخرج الرجال منها. وقال غوليلمس الصوري ان كثيرين منهم أوشكوا أن يكفروا به تعالى، ويتذمروا من أنه كافأ تحملهم المشاق حباً به باهماله لهم في هذه الشدائد المبرحة. وظهر بينهم من يدعي أنه كانت لهم مناظر سماوية، رأوا فيها يسوع المسيح ووالدته والقديس امبروسيوس ونفوس من قتلوا في الحرب، يحققون لهم النصر والظفر قريباً. واستنطقهم اويمر سفير البابا بالإيمان عن صحة ما يزعمون، فحلفوا وعزا بعض المؤلفين الحدثاء النصارى هذه المناظر إلى مخيلتهم التي قام فيها ان الله لا يترك من تجنّدوا حباً به، وقاسوا هذه المشاق والمخاطر، دون آية سموية تفرج ضيقتهم وتزيل بؤسهم. وحقق آخرون ان ما هذه المناظر، إلّا رؤى سماوية لا تستغرب على قدرة من هو على كل شيء قدير، أو على رأفته بعباده في هذه الضيقة القصوى. ونرى حالهم تغيرت بعد هذه المناظر، وأقسم رؤساؤهم ألّا ينفكوا عن القتال والجهاد إلى أن ينقذوا أورشليم.

وأتى كاهن من أبرشية مرسيليا اسمه بطرس برتلمي إلى مجلس رؤساء الجيش، فقرر أن القديس أندراوس الرسول، ظهر له ثلاث مرات، وأمر قائلاً اذهب إلى كنيسة أخي بطرس في أنطاكية، واحفر في جانب المذبح الكبير، فتجد الحربة التي طعن بها جنب المخلّص، وهي تنجي هذا الجيش، وتنصره كلما جعلوها علماً في مقدمة رجالهم. واستحلف سفير البابا هذا الكاهن، فحلف على صحة قوله، وفرض الصوم والصلوة ثلاثة أيام. ثم عيّنوا اثني عشر رجلاً من الكهنة والفرسان الثقاة في جملتهم ريموند دي اجيل المؤرخ الذي كتب هذا الخبر مفصّلاً للعناية بهذا الكشف. فاشغلوا عدة من الفعلة في الحفر في المكان المعين، فحفروا أكثر من اثني عشر قدماً. وعند المساء ظهرت تلك الحربة. قال ريموند المذكور لما ظهرت هذه الحربة، بادرت انا كاتب هذه الخبر إلى تقبيلها بكل عبادة وورع، وانتشرت البشرى في الجيش، فأنستهم الجوع وأزالت الخوف من قلوبهم، وأصبح الضعيف منهم بطلاً، والوغد كمياً، وأرسلوا بطرس السائح إلى كربوغا يقول له: «انصرف عن المدينة ولك ثلاثة أيام تستعد فيها للرحيل وإن أبيت وأصررت على الحصار، فجنود النصارى لا يباغتون عدوهم، ولا يسترقون النصر بالخديعة، فيبيحونك اختيار الحرب إن شئت وان أحببت حجب اراقة الدم الكثير، فاختر عدداً من شجعان جيشك، وهم يختارون عدداً يوازيه من جيشهم، وقاتل أنت إن شئت أحد أمراء النصارى، والله يولي النصر من شاء، وان شئت الحرب عامة فنبه إلى ذلك بإشارة» فلما سمع كربوغا هذا الكلام، لبث مدة صامتاً مدهوشاً محتدماً من هذه الجسارة، ثم قال قل لمن أرسلك، أن على المغلوب أن يقبل الشروط التي توضع عليه، لا أن يفترض شروطاً، فمثلهم من الصعاليك الأوغاد يروعون النساء بخزعبلاتهم، وأما رجال الحرب في آسيا، فلا يهولهم سقط الكلام. وسيعلم النصارى أنّ هذه الأرض أرضنا، ومع ذلك سأرأف بهم إن أسلموا، وأتناسى أنّ هذه المدينة جعلتها المجاعة في حوزتنا. فقل لأصحابك أن يسرعوا باغتنام عفوي، والّا أخرجتكم بالسيف من أنطاكية. وأراد بطرس السائح أن يجاوب، فمدّ كربوغا يده إلى سيفه وأمر أن اطردوا هؤلاء الأوغاد، فعاد بطرس يخبر قومه بما كان في وفادته واستعدوا للقتال.

وصرف الجيش ليلته بالصلوة، وتقدم منهم في الصباح، مائة ألف إلى مائدة الخلاص، وخرجوا منقسمين إلى اثني عشر صفاً، وفي مقدمتهم ريموند المؤرخ

حاملاً الحربة التي وجدوها وساروا الهوينا. ولما رآهم كربوغا ظنّ أنهم خرجوا طالبين عفوه، لكنهم رأوا علماً أسود على قلعة أنطاكية، وكان علامة لا يعتمد عليه الفرنج فعلم انهم خرجوا محاربين. وكان من جيشه ألفا رجل يحرسون معبر العاصي، فهزمهم الفرنج عند دنوهم من المعبر، فأوقعوا الرعب في قلوب سائر الجيش، فأخذوا بالفرار. فقطع كربوغا رأس أحد الفارين علّه يوقفهم، وأرسل يقول لأمراء الفرنج أن يحجبوا الدماء، ويختاروا عدداً منهم، وهو يختار عدداً موازياً، فيقتتل الفريقان. وكان أبى هذه الطريقة في الأمس، فأنكرها عليه الفرنج اليوم، واستعرت نار الحرب، ولم تكن ساعة إلّا وانهزم جيش كربوغا، وسابقهم هو إلى الفرار، واستمرّ ولهاناً إلى أن عبر الفرات. وكان في معسكره كثير من المؤن والملابس فظلوا أياماً ينقلونها إلى أنطاكية. وقتل من الفرنج في هذه الوقعة أربعة آلاف رجل. ولما رأى من كان في القلعة من رجال المسلمين ما كان في جيش كربوغا، استسلموا إلى رؤساء الجيش، وتنصّر بعضهم، وذهب بعضهم يروون ما رأوا من سطوة الفرنج، وكثرة عديدهم في أنحاء سورية حتى تملك الرعب قلوب السوريين. وقال ريموند دي اجيل لو مشى الصليبيون نحو أورشليم على أثر انتصارهم، لما وجدوا من يعترضهم، أو يناوئهم، لكنهم صرفوا اهتمامهم إلى إعادة البطريرك يوحنا إلى كرسيه وكرامته وفتحوا الكنائس وأقاموا الكهنة فيها، وخصوا نصيباً من غنائمهم من معسكر كربوغا، بشراء آنية للكنائس، وتجهيزها، وأنفذوا رسائل إلى أصحابهم في الغرب، يبشرونهم بما كان لهم من توفيق الله، ويحضونهم على اللحاق بهم لمشاطرتهم الفخر والأجر، وكان الكثيرون منهم يرون أن يسيروا للحال إلى أورشليم، ومن هؤلاء الدوك غودفروا. على أنّ الكثيرين من رؤساء الجيش ارتأوا أن ينتظروا مرور أيام الحر اذ كانت الوقعة المذكورة في حزيران، ويرجئوا سفرهم إلى أيام الخريف، فأصابهم وباء مات به في شهر واحد خمسون ألف نفس. وأعظم من أسفوا عليه حينئذٍ أويمر أسقف بوي سفير البابا، ودفنوه في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية، في المحل الذي وجدوا فيه الحربة المذكورة. انتهى ملخصاً عمّن كتبوا تاريخ هذه الحروب من المؤلفين المعاصرين لها، أو شهدوها كريموند دي اجيل وغوليلمس الصوري.

عد ٨١٦

ذيل في أقوال العلماء في الحربة التي وجدت حينئذٍ في أنطاكية

إنّ كثيرين من المؤلفين الذين كانوا في جملة الفرنج الصليبيين أو المعاصرين لهم وغيرهم، أثبتوا أنّ هذه الحربة هي الحربة نفسها التي طعن بها الجند جنب المخلّص وهو على الصليب، معتمدين على أنّ الكشف عنها كان بوحي، ومؤيدين رأيهم بالآيات التي أجراها الله بواسطة هذه الحربة، على أنّ بعض أهل النقد منهم بايل وجول سيمون وتيار وغيرهم ممن هم على شاكلتهم من علماء هذا العصر، قد أنكروا أنّها الحربة نفسها التي طعن بها جنب المخلّص. فلم نرى أن نغضي عن هذا البحث صامتين، بل أن نورد في هذا الذيل أقوال المؤرخين والعلماء في هذا الصدد.

إنّ أندراوس أسقف كريت الذي كان في القرن السابع، أنبأنا (في مقالته في ارتفاع الصليب فصل ٥) أنّ الحربة التي طعن بها جنب المخلّص، دفنها اليهود مع الخشبة التي صلب عليها وغيرهما من أدوات الصلب. وقد حقق كثيرون أنّ القديسة هيلانة والدة الملك قسطنطين الكبير، وجدت عند تنقيبها عن خشبة الصليب، ثلاث صلبان والحربة والمسامير. ولم نعد نعلم ما كان من أمر هذه الحربة، إلى أن تكلم فيها القديس غريغوريوس أسقف طور (بفرنسة)، في القرن السادس وعدها (في كتابه في مجد الشهداء فصل ١٧) من جملة الذخائر الموجودة في أيامه. وأنبأنا بيدا المكرم، في القرن التاسع (في كتابه في الأماكن المقدّسة) انها كانت محفوظة في أورشليم في صليب من خشب بكنيسة القبر المقدّس، ثمّ وجدت هذه الحربة في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية، كما رأيت، وحقق وجدانها وأثبت أنها الحربة نفسها التي طعن بها جنب المخلّص، ريموند دي اجيل الذي كان في جملة الموكول إليهم الكشف عنها، والذي كان يحملها عند حملتهم على جيش كربوغا. وقد أكّد ذلك روبرتس كونت فلاندرا في رسالة إلى امرأته، موصياً إياها أن تبني ديراً إكراماً للقديس أندراوس، لأنه هداه إلى المحل الذي كانت فيه الحربة التي طعن بها المخلّص وهذه الرسالة مثبتة في تواريخ فلاندرا، وحقق ذلك كاهن اسمه تودابودس Tudebudus، كان شاهداً عيانياً لوجدان هذه الحربة، ولحملها كعلم في القتال وانتصارهم. وأودع ذلك كتابه

الموسوم بتاريخ السفر إلى أورشليم، وقد أثبت تاريخه هذا دوشان في المجلّد الرابع من مؤلفي تاريخ فرنسة. وقد ذكر وجدان هذه الحربة أنسلموس دي ريبامون Ribemont الذي توفي في حصار عرقا. فانه كتب رسالة إلى مناسا رئيس أساقفة رنس (بفرنسة) قال فيها ما ترجمته «بينا كنا في حالة تعيسة جداً، مدّ الله يد عونه لعبيده، وهداهم بحنوه إلى الحربة التي طعن بها جنب المخلّص، وكانت مخبأة تحت بلاط كنيسة القديس بطرس، وطولها يوازي طول رجلين. ولما سعدنا بوجدان هذه الدرة الثمينة، أحيى الرجاء قلوبنا». وقد كتب رؤساء الجيش رسالة إلى البابا اوربانس الثاني، ومما قالوه فيها: «قد ضايقنا الجوع وغيره من المحن الكثيرة، حتى نحر كثيرون منا خيلهم وحميرهم التي كانت معهم واقتاتوا بها. على أنّ رحمة الله لطفت بنا ونجدتنا. فان القديس أندراوس أوحى إلى أحد عباد الله، وهداه إلى المحل الذي كانت الحربة التي طعن بها لونجيلس جنب المخلّص مخبأة فيه. فوجدنا هذه الحربة المقدّسة في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية. فهذا الاكتشاف واوحية أخرى كثيرة أعادت إلينا قوتنا وشجاعتنا، حتى ان كان اليأس والرعب قد استحوذا عليهم عادوا موعبين نخوة وجسارة، وأخذ يحرض بعضهم بعضاً على القتال. وبعد أن بقينا محصورين ثلاثة أسابيع وأربعة أيام، اعترفنا بخطايانا يوم عيد القديسَين بطرس وبولس، وخرجنا من المدينة مصطفين للقتال وكنا أقل عدداً من جيش أعدائنا العرمرم، حتى ظنونا نحاول الهرب لا اننا نستنزلهم للقتال».

وقد أنبأنا ريموند دي اجيل المذكور، والبر المؤرخ من اكس وغوليلمس أسقف صور أنّه وقع في جيش الصليبيين عند حصار عرقا خلاف في ما إذا كانت هذه الحربة هي الحربة التي طعن بها جنب المخلّص فان ارنول خودى دوك نرمندية أخذ يذيع بينهم أنّ هذه الحربة ليست الحربة التي طعن بها جنب المخلّص، واستمال بعضهم إلى رأيه. ولما سمع ذلك بطرس برتلمي الذي كان الوحي إليه بوجدانها، احتدم وأخذ يقسم على صحة ما كان من الوحي فانقسم الشعب فعرض عليهم بطرس المذكور أن يضرموا ناراً فيدخل هو فيها حاملاً الحربة فان نجا من النار ولم يمسه ضر تحتم عليهم أن يصدّقوا أنّ هذه الحربة هي الحربة التي طعن بها المخلّص، وإن أهلكته النار، فيريد أن يموت ضحية لكذبه. فأضرموا ناراً عظيمة، واجتمع العسكر والشعب وأخذ هذا الكاهن الحربة وجثا فصلى. ثمّ دخل النار المتأججة حافياً حاملاً الحربة، ولبث مدة ثمّ خرج سالماً، ولم يمسه ضرر ولا حرق

بجسمه أو ثوبه. فتهافت الشعب عليه، بعضهم للتبرك به وبعضهم ليمتحنوا حقيقة حاله، فآذوه أكثر من أذية النار له. وقد ذكر بعضهم شهادات الكثيرين ممن شهدوا هذه الآية بأنفسهم. وقد أخذ الصليبيون هذه الحربة معهم من أنطاكية إلى أورشليم، ثمّ نقلت هذه الذخيرة الثمينة من أورشليم إلى قسطنطينية، ثمّ باع بودوين الثاني فلذة منها إلى البنادقة بمبلغ عظيم من المال، كان في أقصى الحاجة إليه. ثمّ شرى منهم القديس لويس ملك فرنسة، هذه الذخيرة ووضعها في المعبد المعروف بالمعبد المقدّس بباريس La Sainte Chapelle. وأما ما بقي من هذه الحربة، فاستمرّ محفوظاً في قسطنطينية في كنيسة القديس يوحنا، إلى أن فتح هذه العاصمة، السلطان محمّد الثاني الفاتح سنة ١٤٥٣م، فأمر أن تحفظ خزينة الملك وزينة الكنائس والذخائر. وبعد وفاة السلطان محمّد الثاني، اختصم ابناه بايزيد وزيزيم، وتغلّب بايزيد على أخيه، فتنحى أخوه في رودس عند رئيس الفرسان المسمى بطرس أبوسون، فرغب بايزيد في أن يصادق الرئيس المذكور ليمنع أخاه من العود إلى منازعته الملك. وروى بوسيوس في تاريخ فرسان القديس يوحنا في أورشليم (ك ٧ فصل ٨)، انّ الرئيس المذكور حثّ السلطان بايزيد أن يهدي إلى البابا أينوشنسيوس الثامن، الحربة المقدّسة فأرسلها إليه بايزيد مع سفير. ورافق هذا السفير كويدو بلانكفور ابن أخي بطرس الرئيس المذكور. فبلغا إلى رومية سنة ١٤٩٢م، فأرسل البابا كردينالاً لملاقاة هذا السفير. ولما انتهوا إلى رومة، لاقى البابا هذه الذخيرة مصحوباً بالكرادلة، وحشد من الكهنة والشعب، إلى الباب المعروف بباب الشعب، وأخذ الذخيرة بيده، ووضعها في كنيسة القديس بطرس. وهذه الأخبار مأخوذة عن مذكرة كتبها ثلاثة علماء من الرومانيين دونوا فيها كل ما كان هناك في أيامهم. وقد روى ذلك أيضاً الكردينال مرقس فيكوريوس الذي كان بانكونا (بإيطاليا)، عندما مرَّ سفير بايزيد حاملاً هذه الهدية النفيسة إلى الحبر الروماني. وقد فند الأب اونورا الكرملي كل ما ورد على هذه الذخيرة من الاعتراضات في مؤلفه في قواعد الانتقاد في المجلّد الثالث منه. انتهى ملخصاً عن معجم التاريخ لكوردان، وعن معجم الصليبيين لاولت دومسنيل من طبعة الأب مين.

عد ٨١٧

سير الفرنج من أنطاكية إلى أورشليم

لم يذكر المؤرّخون الفرنج، فتح المعرة وحمص وشيزر بعد انتصارهم بأنطاكية. ولكن ذكره ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفدا، فقالوا ما ملخّصه: «لما انهزم المسلمون أمام الفرنج إلى معرة النعمان، فنازلوها، وحصروها وقاتلهم أهلها قتالا شديداً. فعمل الفرنج برجاً من خشب يوازي سور المدينة، ووقع القتال عليه، فلم يضر ذلك المسلمين، ولكن تداخل بعضهم الفشل والهلع، وظنّوا أنّهم إذا تحصّنوا ببعض الدور امتنعوا فيها. فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه، ورآهم غيرهم، ففعلوا كفعلهم، فخلا مكانهم أيضاً من السور وتتبعهم غيرهم حتى خلا السور. فصعد الفرنج على السلالم، ودخلوا المدينة وأعملوا سيوفهم في أهلها ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف، وسبوا السبي الكثير وملكوه، وأقاموا أربعين يوماً، وساروا إلى عرقا فحصروها أربعة أشهر ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها، وأرسلهم منقذ صاحب شيزر، فصالحهم عليها. وساروا إلى حمص وحصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة وخرجوا على طريق النواقير إلى عكا فلم يقدروا عليها. هذا ما ذكره المؤرخون العرب المذكورون.

وأمّا ما رأيناه في كتب المؤرخين الفرنج التي لدينا فهو انّهم استمرّوا متربّصين في أنطاكية ينتظرون حلول أجل سفرهم إلى أورشليم في الربيع سنة ١٠٩٩م. وكان بعض رؤساء الجيش يحملون حملات خصوصية على بعض المدن، فربّما كان من ذلك فتحهم المعرة، ومصالحة واليي شيزر وحمص لهم على هاتين المدينتين، كما روى المؤرخون العرب. ولما حلّ أو فات أيضاً الميقات المضروب للسفر إلى أورشليم، كثر التذمّر في الجيش الفرنجي من هذا الابطاء، ولاسيما إذ بلغهم أنّ خليفة مصر الفاطمي سيّر جيشاً، فاستحوذ على أورشليم قبل أن يسبقهم الفرنج إليها. فعولوا على السير ومشى في مقدّمة الجيش كونت تولوز، ويصحبه من الرؤساء تنكراد وروبرتس كونت نرمندية، وكان الرعب من سطوتهم وانتصاراتهم قد تولى قلوب سكان البلاد، فبادروا إلى ملاقاتهم النصارى ليستمدوا عونهم والمسلمون ليسألوهم العفو والرضى عنهم. وكان الفريقان يقدمان للجيش ما يحتاجون إليه من المؤن والمأوى وغيرهما، وزادهم سروراً أنّ كثيرين من اخوانهم

الذين كانوا يظنونهم قتلوا، قد عادوا إليهم إذ كان المسلمون قد أسروهم، فخلوا حينئذٍ سبيلهم، وسافر غودفروا من أنطاكية في أوائل آذار سنة ١٠٩٩م بما بقي من الجيش، ورافقه أخوه بيوموند إلى اللاذقية، وودعه وعاد إلى إمارته في الرها. خائفاً أن يسطو عليها أحد، ولحقهم في اللاذقية من كانوا قد اعتزلوا في الرها وكيليكية واتّصل بهم هناك كثير من فرسان الانكليز وهم من الاشراف، واجتازوا من اللاذقية بجبلة وطرطوس فدانتا لهم وخيموا حول عرقا جميعاً. وهناك كان بينهم الخلاف الذي مرّ ذكره على الحربة التي وجدوها في أنطاكية، ولما فصل هذا الخلاف بالآية التي ذكرناها في العدد السابق وعادوا إلى الوفاق، أقبل عليهما وفدان أحدهما بعد الآخر الأوّل من قبل الكسيس ملك الروم يجدد مواعيد الملك بانجاده لهم ويعتبهم لاهمالهم ما وعدوه به. فازدروا رسله وأبلغوهم عدم ثقتهم بكلام مولاهم وانه نقض وعوده السابقة بتقاعده عن امدادهم في أنطاكية، وكانوا قد كتبوا إليه أنّهم لا يرون أنفسهم ملتزمين بحفظ وعودهم له لاخلاله بوعودهِ. والوفد الثاني كان من قبل خليفة مصر الفاطمي، يبلغهم أنّ هذا الخليفة استحوذ على أورشليم وفلسطين، ويحقق لهم أنّه لا ينوي بهم إلّا خيراً، لكنّه لا يستطيع أن يفتح مذ الآن فصاعداً أبواب أورشليم، إلّا لحجاج اعزال لا سلاح معهم. فلم يجاوب رؤساء الجيش وفد الخليفة المصري إلّا برفعهم الحصار عن عرقا وحرق معسكرهم واسراعهم بالسير إلى أورشليم، فمروا بجانب طرابلس، وقد أراد واليها أن يعترض لمسيرهم، فهزموه وأصحابه، واضطرّ أن يدفع إليهم غرامة، وكثيراً من المؤن، وأن يخلي سبيل السجناء النصارى الذين كانوا في محبسه، وقد راقهم ما شاهدوه لأوّل مرّة من قصب السكّر، ورطب النخل والليمون وغيرها من الثمار والأشجار التي لا توجد في أوربا، وأقبل إليهم جمع من النصارى سكان لبنان، وهدوهم إلى ثلاثة طرق يسيرون بها إلى أورشليم. طريق على ساحل البحر وطريق في وسط البلاد وطريق في سورية المجوفة. فاثروا طريق الساحل لقربها كل وقت من أسطول بيزا وجنوا الذي كان يمدهم في طريقهم. فمروا بالبترون وجبيل وكان نصارى لبنان يلتقونهم مقدّمين لهم الازودة وكل ما يحتاجون إليه من المؤن لجامعة الدين بين الفريقين، حتى كان الحبساء يخرجون من محابسهم في الجبل ويأتون إليهم داعين الله أن يتيح التوفيق لهم. وعند اجتيازهم ببيروت وصيدا وصور، قدّم لهم المسلمون ما يحتاجون إليه كيلا يسطوا على بساتينهم وجناتهم. ولما انتهوا إلى

عكا خرج إليهم واليها واعداً ومقسماً على أنّه يسلم لهم المدينة متى استحوذوا على أورشليم، فجاوزوها إلى قيصرية المعروفة بقيصرية فلسطين، ووقعت في معسكرهم حمامة وأخذوها، فوجدوا تحت جناحها رسالة من والي عكا يخبر بها ولاة المدن المجاورة له بسير الفرنج ويحضّهم أن يجمعوا من استطاعوا من الرجال لمناوأتهم فقرئت هذه الرسالة في مجتمع الرؤساء فشكروا الله واستبشروا بأنّ الله معتنٍ بهم اذ سخر طير السماء لتأتيهم بالكشف عما تكنه سرائر أعدائهم.

وأقاموا بهذه المدينة أربعة أيام، احتفلوا بها لعيد العنصرة، ثمّ ساروا فاستحوذوا على اللد المسماة قديماً ديوسبولي، والمشهورة باستشهاد القديس جيورجيوس شفيعهم فيها وأقاموا أسقفاً في هذه المدينة، ونصبوا له عدة كهنة واتّفقوا أن يخصُّوا كنيسة هذه المدينة بعشر ما يغنمونه في حملتهم هذه. ثمّ ساروا إلى الرملة، فانهزم سكانها خوفاً منهم إلى جبيل، فتولوها ووجدوا فيها ما سدّ حاجاتهم من مؤن وغيرها وأقاموا فيها أسقفا فرنسياً مولداً اسمه روبرتس مشهوداً له بعلمه وفضيلته.

ولما عرف المسلمون بدنوهم من أورشليم، هاج من كان ساكناً منهم على عدوتي الأردن وتخوم بلاد العرب ونابلس، وتألبوا وساروا نحو أورشليم فنكّلوا بالنصارى في طريقهم وغللوا بعضهم بالقيود وانتهبوا الكنائس والمعابد وأحرقوها، وسار جيش الفرنج من الرملة في وادٍ بين جبلين صعب المسلك مستوعر ولكن لم يعترضهم أحد في طريقهم فاستبشروا بأنّ الله معتنٍ بهم، وبلغوا عند المساء إلى قرية تسمى عنانوت، وسماها غوليلمس الصوري عمواص وهي المعروفة الآن بعيناتا (طالع عد ٢٧٦ في المجلّد الثاني من هذا التاريخ)، فباتوا تلك الليلة هناك، فأقبل عليهم بعض النصارى المنهزمين يخبرونهم بأنّ المسلمين تألّبوا على قرى الجليل ونابلس وما جاور الأردن فنهبوا وأحرقوا وقتلوا كثيرين من النصارى. وأوفد أهل بيت لحم إلى الفرنج رسلاً يستغيثون بهم ويستمدونهم فسير تنكراد بمائة فارس مدرع، فاستقبلهم الأهلون بالاحتفاء والتكريم وذهبوا توًّا لزيارة المذود الذي ولد به المخلّص ونشر تنكراد علمه على كنيسة المذود في الساعة التي ولد المسيح فيها.

ولما كان الصباح، سار جيش الفرنج من عيناتا نحو أورشليم، ولما أشرفوا على

أورشليم صاحوا يا أورشليم يا أورشليم، وبكوا لفرط سرورهم. قال المؤرخ روبرتس الراهب الذي كان في جملتهم (كتاب ٨ من صفحة ٧٤) يا يسوع كم من الدموع انهمرت من عيون جنودك عند رؤيتهم أسرار أورشليم الأرضية فانهم اجمع خروا سجداً، وحيوا بهتافهم، وأجسادهم قبرك المقدَّس، فأنت دفنت هناك وهم يسجدون لك جالساً عن يمين الآب، وسوف تأتي لتدين الأحياء والأموات. ثمّ نهضوا وكرروا الهتاف Dieu Le Veut Dieu Le Veut، وجدّدوا حلف اليمين على إنقاذ أورشليم، ومشوا حفاةً نحو أورشليم مترنمين بقول النبي: «إنهضي يا أورشليم وارفعي الحاظك وانظري إلى المخلِّص الذي أتى ليكسر أغلالك». إلى أن خيموا حول المدينة. انتهى ملخصاً عمّن ذكرنا من المؤرخين المعاصرين لهذه الأحداث.

عد ٨١٨

حصار أورشليم وفتحها

نذكر أوّلاً جرياً على عادتنا أقوال المؤرخين المسلمين ملخصة عن ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفداء قالوا: «كان بيت المقدس لتاج الدولة تتش، ملكه من يد العلويين أصحاب مصر، وأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني. ولما توفي صارت القدس لولديه ايلغازي (وعن ابن خلدون ايلغاري بالراء) وسقمان. فلما وهن الأتراك في موقعة أنطاكية طمع المصريون في استرجاعها فسيروا إليها جيشاً في مقدِّمته الأفضل بن بدر الجمالي فحاصرها وفيها الأميران ايلغازي وسقمان أخوه وابن عمهما سونج (ويروى سونخ) وابن أخيهما ياقوتي ونصبوا عليها نيفاً وأربعين منجنيقاً، فعطّلوا بعض مواضع من سورها ودام القتال والحصار نيفاً وأربعين يوماً، وملكوها بالأمان في شعبان سنة ٤٨٩هـ سنة ١٠٩٧م، وأحسن الأفضل قائد جيش مصر إلى ايلغازي وسقمان ومن معهما وساروا إلى دمشق، ثمّ عبروا الفرات، فأقام سقمان ببلد الرها وسار ايلغازي إلى العراق، واستناب المصريون في القدس رجلاً يعرف بافتخار الدولة، فلما وصل الفرنج إليه حصروه نيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا على المدينة برجين أحدهما من ناحية صهيون والآخر من جهة الشمال، فأحرق المسلمون البرج الأوّل، وقتلوا كل من به فأتاهم المستغيث بأنّ المدينة قد ملكت من جهة الشمال، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً

يقتلون فيه المسلمين، واختفى جماعة منهم بمحراب داود فاعتصموا به وقاتلوا فيه ثلاثة أيام. فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموا إليهم، ووفى الفرنج لهم، فخرجوا ليلاً إلى عسقلان، فأقاموا بها وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على خمسين ألفاً منهم جماعة كثيرة من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستماية درهم، وماية وخمسين قنديلاً من الصغار وتنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي ونيفاً وعشرين قنديلاً من الذهب إلى غير ذلك من الغنائم. وكان فتح القدس سنة ٤٩٢هـ سنة ١٠٩٩م، وورد المنهزمون من الشام إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهراوي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب. وقاموا بالجامع فاستغاثوا، وبكوا وأبكوا، ولشدّة ما أصابهم، أفطروا في رمضان، فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمّد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي، وأبو القاسم الزِّناجي، وغيرهم إلى السلاطين السلاجقة. فوقع الخلف بين هؤلاء السلاطين، فتمكّن الفرنج من البلاد. وقال في ذلك المظفر الابيوردي أبياتاً منها:

مزجنا دماء بالدموع السواجمِ	فلم يبق منا عرضة للمراحمِ[1]
وشر سلاح المرء دمع يفيضه	اذا الحرب شبت نارها بالصوارمِ
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات ايقظت كل نائمِ
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعمِ
يسومهم الرومُ الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالمِ
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى	توارى حياء حسنها بالمعاصمِ
اترضى صناديد الاعاريب بالاذى	وتغضي على ذل كماة الأعاجمِ
فليتهم اذ لم يذودوا حمية	عن الدين ضنوا غيرة بالمحارمِ

(١) ويروى عرصة للمراجمِ.

أما الذي رواه المؤرخون النصارى ممن شهدوا هذه الحرب أو عاصروها، فهو انّ الفرنج أخذوا مذ بلوغهم إلى أسوار أورشليم، يستعدون لحصارها. فخيّم غودفروا وروبرتس كونت نرمندية وروبرتس كونت فلاندرا، في شمالي المدينة في ناحية جبل الزيتون، وتنكراد في ميمنتهم، وبجانبه ريموند كونت تولوز، تجاه الباب المغربي. ثمّ أقام فريقاً من عسكره في جنوب المدينة بجانب جبل صهيون، واستمرّت جهة المدينة المشرقية خالية من عسكر، لكنّهم أقاموا مخفراً على جبل الزيتون، وخرج بعض النصارى من المدينة يشكون إلى الفرنج سوء حالهم، وتضييق المصريين، وما أجروه من العذاب عليهم، وما نهبوه من كنائسهم، ودورهم. فزاد ذلك الفرنج حمية وحماسة، وفرّ البطريرك سمعان إلى قبرص، وكان في المدينة من جيش المصريين أربعون ألفاً، وتجنّد من سكانها عشرون ألفاً. فكان هذا العدد يربو على عدد الفرنج المقاتلين الذين بلغوا أورشليم ولم يكن معهم سلالم، ولا أدوات للحصار ومع ذلك هاجموا المدينة فنقضوا السور الخارجي، وكان السور الداخلي منيعاً، فلم يقووا عليه ولم يكن معهم إلّا سلّم واحد يوازي علو السور فتسلّق عليه بعض الشجعان وقاتلوا المصريين وجهاً لوجه، فتراكم المصريون عليهم وقتلوا بعضاً وحذفوا بعضاً إلى أسفل فماتوا وأرسل الفرنج شراذم منهم تفتش على أخشاب، لاصطناع سلالم وأدوات للحصار فعثروا في مغارة على أخشاب ضخمة، فأتوا بها إلى المعسكر ونقضوا بعض البيوت وأخذوا أخشابها وكان بعض المتحمّسين يدنون من الأسوار، ويقبلون أحجارها باكين وقائلين يا أسوار أورشليم أسقطي علينا وليغطّ غبارك عظامنا. وانتهى إليهم وهم على هذه الحال السيئة انّ أسطولاً من جنوا بلغ مرفأ يافا مشحوناً ذخائر ومعدات للقتال. فسار للحال منهم ثلاث مائة رجل بامرة ريموند بالت فالتقاهم شرذمة من الأعداء في اللد فهزموها وشتّتوا شملها وبلغوا يافا فوجدوها خالية من السكان، ورأوا أنّ أسطولاً مصرياً سطا على الأسطول الجنوي وألقى النار فيه. على أنّهم استطاعوا بجهدهم أن يخرجوا من السفن المؤن وكثيراً من الأدوات اللازمة لاصطناع المناجيق وغيرها من أدوات الحرب، فأتوا بها إلى أورشليم يصحبهم عدد من المهندسين والنجارين، ثمّ أخذ تنكراد كتيبة من جنده فجال بها فعثر على بعض أميال عن أورشليم على غابة جلبوا منها ما لزمهم من الأخشاب، وانكبّوا ليلاً ونهاراً على اصطناع الأدوات حتى كان الأمراء أنفسهم يبارون الفعلة في عملهم، وفي جملة ما صنعوه، ثلاثة أبراج تحرّكها آلات، وهي

منقسمة إلى ثلاث طبقات يقوم في الأولى العملة الذين يحركون البرج، وفي الثانية المحاربون، وكانت هذه القلاع المتحركة أرفع من أسوار المدينة. وقبل أن يشرعوا بحصار المدينة حضّهم الأساقفة والكهنة على التضرّع إلى الله بالصوم والصلوة والتصدّق. ثمّ هاجموا المدينة في اليوم الثالث عشر من تموز سنة ١٠٩٩م، فكانت الحرب سجالاً. وفي اليوم التالي بكروا إلى القتال وأشغلوا الرجال وأدوات الحرب ودنت الأبراج المتحرّكة من أسوار المدينة وكان غودفروا في أعلى أحدها يصحبه أخوه أوستاش وبودوين دي بورج فلا يخطئ سهم لغودفروا، وأبدى سائر الرؤساء آيات البسالة محاربين في مقدّمة جنودهم غير مبالين بالخطر. ودامت الحرب متسعرة اثنتي عشرة ساعة إلى أن فصل الظلام بين المتحاربين. ثمّ عاد الفريقان إلى القتال صبح اليوم التالي بعزيمة أشد من الجلمود، واقتحم الفرنج أسفل الأسوار غير مبالين بما يقذفه المسلمون من النار من أعلاها، وحاول بعضهم نقض الأسوار وبعضهم التسلّق عليها فازداد المسلمون حماسة وحمية وأكثروا من قذف النار عليهم وعلى أبراجهم الخشبية وسائر أدواتهم حتى التهبت ولا ماء ولا خل لهم لاطفائها، فمات من الفرنج كثيرون بالنار والسهام وتولاهم اليأس وظنوا أنّ الله أهملهم. وقيل إنّ القديس جيورجيوس ظهر لهم بهيئة فارس يرمح برمحه ويشير إليهم أن يدخلوا المدينة وقد يكون غودفروا وريموند قالا ذلك للجنود ليوقظا بهم الشجاعة. فانتعشوا وعاودتهم الحمية وأسرعت النساء والاحداث والمرضى أنفسهم إلى مكان المعركة حاملين الماء والزاد والسلاح ومعاونين الجنود على ادناء ما سلم من الأبراج المتحركة إلى الأسوار وأخذوا يرمون منها الأحجار والنار على أدوات أعدائهم وعلى جوالق التبن وأكياس العشب الموضوعة وراء الأسوار فالتهبت وأثار الهواء لهيبها نحو المسلمين فهرعوا عن النار والدخان وأمسوا عرضة لسهام الفرنج وسيوفهم، فنزل غودفروا وكثير من الرؤساء والشجعان من أبراجهم إلى الأسوار ثمّ إلى المدينة وتتبعوا المصريين في الأسواق فقتلوا كل من وصلوا إليه. ولما رأى تنكراد وروبرتس ما كان دخلا ببعض الشجعان إلى المدينة من نافذة فتحاها وبتسلّقهم الأسوار وفتح غودفروا وتنكراد الباب المعروف بباب القديس أسطفانس فدخل به فريق آخر من الصليبيين فانهزم المسلمون فتشتتوا في كل ناحية. وتعاظم في أورشليم الهتاف Dieu Le Veut, Dieu Le Veut واعتصم بعض المسلمين ببرج داود مع أميرهم ولجأ بعضهم إلى جامع عمر فتبعهم الفرنج وقتلوهم. وقال ريموند دي اجيل الذي كان شاهداً

عياناً انّ الدم الجاري في رواق الجامع كان يبلغ لركبة الرجال. وقالوا إنّ عدد القتلى في ذلك اليوم وما بعده بلغ إلى سبعين ألف قتيل. وقد رأيت قول المؤرخين المسلمين انّ عدد القتلى في المسجد الأقصى يزيد على خمسين ألفاً. وعن أبي الفداء سبعين ألفاً. وكان فتح أورشليم في ١٥ أو ١٦ تموز سنة ١٠٩٩م.

وبعد الظفر ساروا حفاةً مكشوفي الرؤوس إلى كنيسة القيامة باحتفاء واخبات وخشوع وانصات يشكرون الله على ما أولاهم وصرفوا قسماً من الغنائم التي أخذوها في إغاثة الفقراء والأيتام وفي زينة المذابح التي أقاموها. وقناديل الفضة والذهب التي غنموها من الجامع الأقصى وقعت في نصيب تنكراد فصرفها بعد المفاوضة مع غودفروا في سبيل عمل المبرات. وكان نصارى أورشليم أخفوا ما كان فيها من خشبة الصّليب ثمّ أظهروها للصليبيين، فطيف بها في أورشليم بصنوف التجلة والخشوع.

وبعد عشرة أيام من فتحهم أورشليم أخذوا يتفاوضون في من يملكونه في أورشليم وعولوا على أن يختاروا عشرة رجال من نخبة الاكليروس والجند وفرضوا صوماً وصلوات وصدقات ليلهمهم الله إلى انتخاب ملك يدبر شؤون هذه المملكة الحديثة. وحلف المختارون العشرة أمام الجنود على أنّهم لا يراعون في انتخابهم إلّا المصلحة نابذين كل غرض خاص وكل ميل أو نفع شخصي. واستطلعوا أولاً آراء الجنود في كل من رؤسائهم. وقال غوليلمس الصوري إنّهم سألوا أسرات الرؤساء وخدّامهم واستحلفوهم ليبثوا لهم ما يرونه في آداب كل من المرشّحين وما يعتقدونه في سيرتهم وخصالهم وأميالهم وأطوارهم. وبعد التنقيب والتروي المديد نادوا بغودفروا دوك لوران ملكاً على أورشليم، فتقبّل الجنود هذه التسمية بالبهجة والسرور وشكروا الله، وأخذوا الملك بالاحتفاء إلى كنيسة القبر المقدّس حيث أقسم على أن يرعى سنن الشرف والعدل وأبى أن يكلل بتاج من ذهب في مدينة كلل فيها المخلّص بإكليل الشوك، واقتصر أن يسمي نفسه بارون وحامي القبر المقدّس كما صنع كرلس الكبير الذي هو من سلالته، إذ دعا نفسه حامي كنيسة الله ومعاوناً حقيراً للكرسي الرسولي.

انتهى ملخّصاً عن كثير من كتب المؤرخين الفرنج الذين اعتمدوا على تواريخ المعاصرين.

عد ٨١٩

وقعة عسقلان وغيرها إلى وفاة غودفروا ملك أورشليم

ذكر ابن الأثير وقعة عسقلان فقال: «في هذه السنة (أي سنة ٤٩٢هـ سنة ١٠٩٩م) في رمضان كانت وقعة بين العساكر المصرية والفرنج وسببها أنّ المصريين لما بلغهم ما تمّ على أهل القدس، جمع الأفضل أمير الجيوش العساكر وسار إلى عسقلان وأرسل إلى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهدّدهم. فأعادوا الرسول بالجواب ورحلوا على أثره وطلعوا على المصريين إذ لم يكن عندهم خبر من وصولهم ولا من حركتهم ولم يكونوا على أهبة القتال. فنادوا إلى ركوب خيلهم ولبسوا أسلحتهم وأعجلهم الفرنج فهزموهم وقتلوا منهم من قتل وغنموا ما في العسكر من مال وسلاح وغير ذلك. وانهزم الأفضل فدخل عسقلان ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه وقتلوا من خرج منه. وعاد الأفضل في خواصه إلى مصر ونازل الفرنج عسقلان وضايقوها فبذل لهم أهلها قطيعة اثني عشر ألف دينار وقيل عشرين ألف دينار. ثمّ عادوا إلى القدس». وقد عثرنا على أخبار هذه الوقعة من جهة الفرنج في الرسالة التي رفعها غودفروا ملك أورشليم وغيره من رؤساء الجند والاكليرس إلى البابا بسكاليس الثاني سنة ١١٠٠م. وإليك ملخّص ما قالوا عن هذه الوقعة : «انتهى إلينا أنّ ملك بابل (يريدون ملك مصر) أتى إلى عسقلان في جيش يشذ عن العد متهدداً أن يأسر الفرنج الذين يحمون أورشليم ويستولي على أنطاكية. ولما تيقنا صحة الخبر سرنا لملاقاة المصريين، وتركنا في أورشليم جرحانا وحامية كافية. ولما التقى الجيشان، جثونا وابتهلنا إلى الله لينصرنا على أعدائنا ويرفع شأن كنيسته. فاستجاب الله دعواتنا وخوّلنا الشجاعة حتى كنا نرى جنودنا يتسارعون إلى اقتحام نار الوغى كغزلان ظمأى وأمامها ماء قرا. ولم يكن عسكرنا يجاوز خمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل وجيش العدو لا يقل عن مئة ألف فارس وأربع مئة ألف راجل. فشمل الله عبيده بقدرته فانهزم أمامنا هذا الجيش العرمرم قبل أن يقاتلنا وكأنّهم اعزال لا سلاح معهم، فاستحوذنا على خزائن ملك مصر وتتبعنا أثر جنوده فقتل منهم نحو مئة ألف وغرق كثيرون

منهم بالبحر وكان رعبهم شديداً حتى مات منهم ألفا رجل لازدحامهم على الدخول بباب عسقلان، ولو لم يتشاغل جنودنا بانتهاب معسكرهم لما تركوا منهم من يخبر. ومما يدعو إلى العجب، أننا كنّا في الأمس أخذنا ألوفاً من الجمال والبقر والغنم فأمر رؤساء الجنود أن يتركوها ويتفرغوا للقتال. فتركوها لكن هذه الماشية لم تتركنا فكانت تقف حيث وقفنا وتسير حيث سرنا وكان الغمام يقينا حرَّ الشمس والنسيم يروح قلوبنا. فشكرنا الله على هذا الظفر وعدنا إلى أورشليم». وقد ذكر المؤرخون العيانيون هذا الظفر واعتدوه عجيباً وقالوا إنّ قطعان الجمال والبقر والغنم المار ذكرها توهمها المصريون جنوداً في ساقة عسكر النصارى. وقال ريموند دي اجيل أنّ جنودنا كانوا حينئذٍ يزدادون حمية وسروراً كلّما دنوا من جيش المصريين. وقال البر من اكس أنّهم مضوا إلى هذه الحرب كمن يمضي إلى عرس أو إلى مأدبة طرب، وكأنّ أمير الرملة المسلم يعاون عسكر النصارى. فدهش من حمية الفرنج وجذ لهم في اقتحامهم المخاطر وأباح بدهشته إلى غودفروا وأقسم على أنّه يتنصّر حبّا بهذا الدين الذي يولي مثل هذه الشجاعة.

وعزم بعض رؤساء الصليبيين على العود لأوطانهم فعادوا واثقين بأنّ حكمة غودفروا وبسالة تنكراد تستتم مهمّتهم. وجزم غودفروا أن يؤمّن مملكته ويبسط تخومها فسيّر تنكراد إلى الجليل فاستولى على طيبارية وعدّة مدن على ضفّتي الأردن. فنصب حاكماً فيها وحاصر غودفروا مدينة اسوف على شاطئ البحر فأقبل للسلام عليه أمراء من جبال نابلس والسامرة وقدَّموا له هدايا من التين والزبيب، ورأوا ملك أورشليم جالساً على جولق محشو بالتبن ولا حرس حوله فأبدوا تعجّبهم من ذلك. فأجابهم غودفروا: « من الأرض جبلنا، وفي قلبها مسكننا بعد الموت فكيف نأنف أن نجلس عليها في هذه الحياة». فازدادوا عجباً من هذا الجواب أيضاً.

وبلغ غودفروا أنّ أخاه بودوين كونت الرها وبيوموند أمير أنطاكية قادمان إلى زيارة الأماكن المقدَّسة في أورشليم يصحبهما عدد غفير من الفرسان والجنود وزائرون آخرون من المغرب بلغ عددهم العشرين ألفاً، فاحتفى غودفروا بأخيه وبمن رافقوه وأبدى لهم صنوف التكريم مدة الشتاء كلها، وكان في جملة الزائرين وايمبر

أسقف بيزا أرسله البابا بسكاليس الثاني قاصداً خلفاً لأويمر الذي توفي في أنطاكية. ومات حينئذٍ سمعان بطريرك الروم في أورشليم وكانت وفاته بقبرص فانتخب أويمر بطريركاً. فلم يقبل البطريركية إلّا مكرهاً كما قال عن نفسه في رسالة كتبها إلى بيوموند. فخلع هذا البطريرك على غودفروا خلعة الملك على أورشليم وعلى بيوموند خلعة الامارة في أنطاكية.

واغتنم غودفروا فرصة وجود الأمراء اللاتينيين في أورشليم ليسن دستوراً ونظاماً لتدبير مملكته. فجمع رجالاً علماء وأتقياء وعهد إليهم أن يفرضوا سنناً للمملكة على منهاج سنن الفرنج فوضعوا هذه السنن، منها أن يكون للعدلية مجلسان أحدهما يرؤسه الملك وأعضاؤه من الشرفاء، ويفصل الدعاوي التي تقوم بين كبار العمال. والثاني يتولى إدارته حاكم أورشليم وأعضاؤه من وجوه كل من المدن، وينظر في دعاوى أصحاب الأملاك والعامة وحقوقهم. وأقيم مجلس ثالث ينظر في دعاوى النصارى الشرقيين فكان قضاته ممن ولدوا في سورية ويتكلّمون بلغة أهلها والحكم فيه بموجب شرائع البلاد وعاداته. فشرائع غودفروا هذه قد زاد عليها ونقحها من خلفوه في الملك ووضعت في كنيسة القيامة، وسموها مجالس أورشليم وبمقتضى هذا النظام كان الملك واحداً غير متجزئ، يتّصل إليه بالارث ولو كان الوارث انثى، واذا لم يكن وارث فلعليّة الاكليرس ورؤساء أصحاب الاقطاعات أن يختاروا ملكاً ويلزم الملك أن يقسم على رعاية النظام قبل أن يقر له بالملك أصحاب الاقطاعات وان يتوجّه البطريرك.

وكان غودفروا يأتي متواتراً لنجدة تنكراد في حروبه مع أمراء الجليل واتَّصل أحياناً بحملاته إلى ما وراء لبنان حتى دمشق وغزا حوران وعاد ظافراً وآسراً كثيرين وغانماً خيولاً وجمالاً. واشتهر في سطوته وحكمته حتى كان القوم يشبهونه بيهوذا المكابي غيرة وبشمشون قوة وبسليمان حكمة. وقضى الفرنج والروم والمسلمون أنّ مملكته سوف تدوم أدهاراً، على أنّ الله لم يفسح بأجله فقد مرض عند عوده من احدى حملاته ولازمه مرضه خمسة أسابيع لم ينقطع فيها عن تدبير مهامه وبلغه وهو محتضر أخذ مدينة حيفا. فكان ذلك خاتمة انتصاره وآخر مسراته في هذه الدنيا واعترف اعترافاً عاماً بخطاياه ونال سائر أسرار الكنيسة ومضى للقاء ربه في ١٧ تموز سنة ١١٠٠ بعد فتح أورشليم بسنة واحدة، ودفن في كنيسة القبر المقدَّس في أسفل الجلجلة.

عد ٨٢٠

انتخاب بودوين ملكاً وبعض الأحداث في أيامه

بعد وفاة غودفروا لم يخلُ أمر الخلافة له من مصاعب فقد كان غودفروا تخلى في حياته للبطريرك وايمبر المار ذكره عن حي كنيسة القبر المقدَّس في أورشليم وعن ربع في مدينة يافا. فادعى البطريرك أنّ الملك المتوفى تخلى له في آخر حياته عن أورشليم كلها وخالفه رؤساء الجنود والشعب، واختاروا بودوين أخا غودفروا الذي كان أميراً في الرها فتخلى بودوين عن امارة الرها لابن عمه بودوين دي بورج وسار إلى أورشليم في سبعمائة فارس وسبعماية راجل فالتقاه عسكر في مضايق فينيقيا وأرادوا قطع الطريق عليه فانتصر عليهم. وعن ابن الأثير إنّ الذي التقاه الملك دقاق صاحب دمشق ومعه الأمير جناح الدولة صاحب حمص. وعن البطريرك أسطفانس الدويهي، أنّ محل اعتراضهم له كان معبر نهر الكلب. ولما دنا من أورشليم خرج إلى لقائه الشعب والاكليرس ومعهم النصارى الشرقيون بالمصابيح والصلبان يسبحون الله ويعظّمون ملتقى ملكهم الجديد وأخذوه بعظيم الاحتفاء إلى كنيسة القبر المقدَّس.

ولم يلبث بودوين في أورشليم إلّا أسبوعاً والب فرسانه ونخبة جنده وسار طالباً عدواً يبكته أو أرضاً يملكها، ونكل ببعض المسلمين الذين يهينون حجاج أورشليم أو يسلبون مالهم، ثمّ توجّه نحو حبرون (الخليل) والبحر الميت واجتاز في الجبال إلى أن انتهى إلى المحل الذي ضرب فيه موسى الصخرة فجرت المياه، وإلى البرية التي بين بلاد ادوم ومصر وعاد إلى أورشليم فصالح البطريرك وايمبر فألبسه البطريرك التاج ومسحه مسحة الملوك في بيت لحم بكنيسة المولد يوم عيد الميلاد. ولما كان بعض العذال والأعداء يعيبون غودفروا بعدم لبسه تاجاً من ذهب ويسمونه ملك الحجاج وأمير العباد لم يشأ بودوين أن يحذو حذو أخيه بلبسه تاجاً حقيراً تشبهاً بالمخلّص بل لبس تاج الملك مرصعاً قاضياً بلزوم ذلك في مملكة يحدق بها الأعداء من كل جهة.

وأوّل ما صرفه بودوين من العناية بملكه بعد تتويجه كان جلوسه للقضاء بحسب نظام أورشليم المار ذكره. فكان يصرف كل يوم ساعات بسماع دعاوي مسوديه وفصلها، وكان من أهم هذه الدعاوي خلاف كان بين تنكراد وغوليلمس

دي مالون على حيفا التي كان تنكراد قد فتحها وكان غودفروا قد وهبها لغوليلمس المذكور. فصالح بودوين بينهما وسلم إلى تنكراد تدبير إمارة أنطاكية لأمر بيوموند أميرها. فترك دعواه على حيفا بل تخلى لبودوين عن إمارة طيبارية أيضاً. ولم يكن اشتغال بودوين بتدبير شؤون مملكته يعوقه عن حملاته على بلاد المسلمين. وبينما كان عائداً من احدى غزواته إلى ما وراء الأردن موقراً غنائم، وقد دنا من النهر سمع صراخاً، فاقترب، فوجد امرأة مسلمة مطلوقة (اصابها مخاض الطلق)، فطرح رداه عليها ليسترها، وفرش لها طنفسة، وأمر أن يؤتي إليها بتمار وزقي ماء وبناقة ترضع طفلها، وأقام جارية تخدمها، وأن تسير معها إلى زوجها. وكانت هذه المرأة من نساء وأعيان المسلمين. ولما وصلت إلى زوجها بكى لسروره برؤية امرأته التي كان يظنّها ماتت، أو سبيت، وأقسم أنّه لا ينسى مدى الدهر ما صنعه بودوين إليها.

وفتح بودوين أرسوف وقيصرية، وأقام الفرنج في قيصرية أحد الكهنة الآتين معهم أسقفاً عليها. وفي السنة الثانية للملك بودوين حارب المصريين في سهول حيفا، فانتصر عليهم نصراً مبيناً ولكن ساءه ما ورد إليه من الأخبار أنّ حشداً كبيراً من الحجاج الغربيين وثب بهم الأعداء في جبال آسيا الصغرى، فأهلكوهم، ونجا منهم غوليلمس كونت بواتيا، وأسطفانس كونت بلوا وغيرهما مع قليلين. فسار بودوين لملتقاهم حتى بيروت.

ولمّا بلغوا أورشليم صحبهم إلى القبر المقدّس فأقاموا أشهراً في أورشليم وساروا بعد الفصح إلى يافا ليعودوا إلى أوروبا ورافقهم بودوين فورد عليه نبأ أنّ المسلمين خرجوا من عسقلان وأخرجوا اللد والرملة، فجمع بودوين ما تيسّر من الجنود وركب أولئك الزائرون الشرفاء خيولهم وأخذوا سلاحهم وخرجوا معه للقتال. فإذا عدد الأعداء لا يقل عن عشرين ألفاً، وليس مع بودوين إلّا مايتا فارس وقليل من الرجالة، ومع ذلك اقتحم القتال فأحاط الأعداء به وبمن معه فلم يبق لهم إلّا أن ينتظروا الموت وقتل من الزائرين كونت بلوا وكونت بوركونيا، وأسر هربين كونت بورج وكونراد أحد أعيان جرمانية، وانهزم بودوين واختبأ بين القصب، فألقى الأعداء النار فيه، فكاد يحترق واسعده كده فهرب إلى الرملة، ولم تكن هذه المدينة الحقيرة كفؤاً لرد وثبة الأعداء فأيقن الهلاك، وإذا برجل غريب أقبل عليه وهداه إلى طريق آمن خفي. فسار به ونجا، وكان هذا الغريب الذي أنقذ ملك

أورشليم رجل المرأة التي أحسن إليها بودوين عند ولادتها، فأراد أن يكافئه على احسانه.

وبعد فرار بودوين، وثب المسلمون على الرملة، وجميع من كانوا فيها من النصارى قتلوا أو أسروا. ولما سمع الفرسان الذين كانوا بأورشليم بأخبار ما كان هبّوا لمناصبة الأعداء. واتّفق حينئذٍ أن رسا في مرفأ يافا، مئتا سفينة من المغرب تقل جمعاً كبيراً من الزائرين، وفي جملتهم كثيرون من الانكليز والجرمانيين الذين اشتهروا بالحرب، وعاد بودوين بسفينة إلى يافا، فانضوى إليه عسكر شديد العزيمة محنك بالحرب هائم بالقتال. فخرج على الأعداء الذين كانوا يتأهبون لحصار يافا فظهر عليهم وبدّد شملهم. فاستراحت مملكة أورشليم مدة من القتال. وقد ذكر ابن الأثير الوقعة الأولى في تاريخ سنة ٤٩٥هـ سنة ١١٠٢م فقال: «في هذه السنة في رجب، خرجت عساكر مصر إلى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في أيديهم من البلاد الشامية. فسمع بهم بردويل (كذا يسمى بودوين) صاحب القدس. فسار إليهم في سبعماية فارس وقاتلهم. فنصر الله المسلمين وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم وانهزم بردويل واختفى في أجمة قصب فاحترقت تلك الأجمة، ولحقت النار بعض جسده ونجا منها إلى الرملة، فتتبعه المسلمون وأحاطوا به فتنكّر وخرج منها إلى يافا وكثر القتل والأثر في أصحابه». إنّ أخبار أخذ الصليبيين أورشليم وإقامتهم مملكتهم فيها وما يؤتيهم الله من التوفيق، بعثت كثيرين ممّن كانوا قد رجعوا إلى الغرب قبل فتح أورشليم أن يعودوا ثانية إلى المشرق. وحملت الغيرة كثيرين من أعيان فرنسا وإيطاليا وألمانيا على أن يؤموا الأرض المقدّسة وانضمّ إليهم كثيرون من العامة رجالاً ونساءً واحداثاً حتى قيل إنّ عددهم لم يكن يقل عن أربعماية ألف على أنّهم لم يتّعظوا بالتجربة فساروا إلى قسطنطينية. وكان كونت تولوز قد مضى بعد حرب عسقلان إلى اللاذقية ثمّ إلى قسطنطينية فعهدوا إليه بقيادة هذا الجيش في آسيا الصغرى. فهلك هذا الجيش في الطريق لشن الأتراك الغارة عليهم. ومن نجا منهم عاد إلى قسطنطينية ووصل بعضهم إلى أنطاكية ولم يبق من النساء امرأة. وعظمت شكاوي اللاتينيين من الروم وتذمّرهم من ملكهم الكسيس كومنانس لأنّه كان من جهة يسعى لتخلية سبيل الأسرى من النصارى ومن جهة أخرى يجهز أسطولاً ويؤلب جيشاً ليأخذ أنطاكية ويستحوذ على المدن التي تولاها الفرنج في سواحل سورية، وأراد أن

يدفع مالاً يفدى به بيوموند الذي كان أسره الأتراك في وقعة عند ملطية لا ليخلي سبيله بل ليأخذه إلى قسطنطينية ويكرهه أن يتخلى له عن إمارته في أنطاكية. على أنّ بيوموند افتدى نفسه بعد أن بقي أسيراً أربع سنين وعاد إلى أنطاكية يرد مهاجمات الكسيس.

عد ٨٢١

فتح بودوين عكا وحربه في يافا، ووقعة حرّان

ذكر المؤرخون المسلمون حصار عكا وفتحها سنة ٤٩٧هـ سنة ١١٠٤م فقالوا ما ملخّصه: «في هذه السنة سار صنجيل (نظنّ أنّ المراد بهذا الاسم ريموند كونت تولوز المسمّى Saint Giles سان جيل) وقد وصله مدد الفرنج من البحر إلى طرابلس وحاصرها براً وبحراً فلم يجد فيها مطمعاً فعاد عنها إلى جبيل وحاصرها وتسلّمها بالأمان، ثمّ سار إلى عكا ووصل إليه من الفرنج جمع آخر من القدس وحصروا عكا في البر والبحر، وكان الوالي بعكا من جهة خليفة مصر اسمه بنا ولقبه زهر الدولة الجيوشي نسبة إلى أمير الجيوش. وجرى بينهم قتال حتى ملك الفرنج عكا بالسيف وفعلوا بأهلها الأفعال الشنيعة وهرب من عكا بنا المذكور إلى دمشق ثمّ سار إلى مصر وملوك الاسلام إذ ذاك مشتغلون بقتال بعضهم بعضاً. وقد تفرّقت الآراء واختلفت الأهواء وتمزّقت الأموال». هذا ما ذكره ابو الفداء. وذكر مثله ابن الأثير وابن خلدون.

والذي رواه المؤرخون الفرنج هو أنّ الملك بودوين استعان بالزائرين الذين كانوا قد أتوا من بيزا وجنوا ومعهم أسطول كبير فتولّى عنوة على عكا وهي مدينة مهمة وبمنزلة مرفأ لسورية، وراع هذا الفتح المسلمين في دمشق وعسقلان ومصر وطفق سلطان مصر يؤلب الجنود ويجهز أسطولاً ليكبح جيش النصارى ويقي من غزواتهم ما بقي من بلاده، وما لبث بعد فتح عكا أن ظهر أسطول مصري تجاه يافا وزحف جيش من عسقلان إلى صحارى الرملة فهبّ لمناوأتهم النصارى من الجليل ونابلس، وجبال اليهودية، وخرج بودوين من يافا في خمس مئة فارس وألفي راجل، لمناصبة الأعداء، وكانوا ألوفاً مؤلفة، فأوقد بودوين نار الوغى عليهم فقتل أمير عسقلان وخمسة آلاف رجل من المسلمين وغنم النصارى من خيولهم

وحميرهم وجمالهم ومالهم وعادوا إلى يافا. فلما رأى ذلك أصحاب الأسطول يئسوا من الفوز وأقلعوا في البحر وأبعدوا فثار بهم عاصف فغرق بعض سفنهم وحطّم بعضها على الصخور.

أمّا وقعة حران في الجزيرة (ما بين النهرين) فذكرها المؤرخون المسلمون فقال ابن الأثير: «لما استطال الفرنج بما ملكوه من بلاد الاسلام قصدوا حران وكانت للملوك من مماليك ملك شاه اسمه قراجه، واستخلف عليها محمّد الأصبهاني ثمّ عصا مولاه فسار الفرنج إليها وحصروها، واتّفق أمراء المسلمين وتحالفوا وساروا إلى لقاء الفرنج والتقوا على نهر بليخ فاقتتلوا. فأظهر المسلمون الانهزام فتتبعهم الفرنج نحو فرسخين ثمّ عاد المسلمون عليهم فقتلوهم كيف شاءوا وغنموا أموالهم. وكان بيمند صاحب أنطاكية وطنكري (كذا يسمون تنكراد والي اللاذقية حينئذٍ) صاحب الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم. فلمّا خرجا رأيا الفرنج منهزمين فأقاما إلى الليل وانهزما فتبعهما المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيراً وأثروا كذلك وأفلت بيمند وطنكري في ستة فرسان وكان القمص (الكونت) بردويل (بودوين أمير الرها) انهزم مع جماعة من قمامصتهم وخاضوا نهر البليخ فوحلت خيولهم فأخذ بودوين أسيراً وسار المسلمون إلى الرها فحاصروها خمسة عشر يوماً ثمّ افتُدي بودوين بخمسة وثلاثين ديناراً ومائة وستين أسيراً من المسلمين وكانت عدّة القتلى من الفرنج تقارب اثني عشر ألف قتيل».

وأمّا المؤرخون الفرنج فقالوا في هذه الوقعة «في ربيع سنة ١١٠٤م عزم بيوموند أمير انطاكية وتنكراد والي اللاذقية وابامیا حينئذٍ وبودوين دي بورج كونت الرها وابن عمه جوسلان أن يجتازوا الفرات ويستحوذوا على حران فحاصروا المدينة خمسة عشر يوماً فاستسلمت إليهم فاختلفوا على من يتولى أمرها ألبودوين كونت الرها تكون أم لبيوموند أمير أنطاكية؟ وإذا بجيش عرمرم فاجأهم من الموصل فدهش الفرنج وأخذ الرعب في قلوبهم كل مأخذ فانهزموا أمام أعدائهم فأسر بودوين وجوسلان وأفلت بيوموند وتنكراد منفردين.

واستمرّ بيوموند بعد هذه الوقعة محصوراً في أنطاكية يهدّده الروم من جهة والمسلمون من اخرى. ولم يبق عنده ما يقوم بحاجته من أموال ورجال فدار في خلده أن يلجأ إلى نصارى الغرب، وكان يخشى أن يغتاله الروم في مسيره.

فأشاع أنّه توفي وحبس نفسه في نعش فجاوز أسطول الروم وهم جذلون ويلعنون ذكره، ولما وصل إلى إيطاليا انبعث من موته الموهوم وسار تواً إلى الحبر الروماني يشكو له ما عاناه حباً بالدين ويسأله كبح الكسيس ملك الروم الذي كان يسميه آفة الشرق. فاعزه البابا وقدّر شهامته حق قدرها وأصغى إلى شكواه ووعد بالمساعدة لاصلاح شؤون الشرق. ثمّ مضى إلى فرنسة فعظم فيليب الأوّل مثواه وزوجه قسطنسا بنته وخطب في كثير من المحافل يحضّ على معاونة النصارى في الشرق، وطاف في كثير من مدن فرنسة ثمّ اجتاز منها إلى إسبانيا ثمّ إلى إيطاليا. فتجنّد معه كثيرون، فسافر في جيشه من مدينة باري بإيطاليا قاصداً ثل عرش ملك الروم، وحاصر مدينتهم دوراتزد (على بحر الادرياتيك في جنوب سكوتاري وطال زمان الحصار وفشا الوبا بعسكره وأبق منهم كثيرون فاضطرّ إلى عقد صلح مذل له مع ملك الروم سنة ١١٠٨ وعاد يتجهّز لقتال هذا الملك فعاجلته المنية سنة ١١١١م في تريدنتو. وأمّا بودوين دي بورج والي الرها وجوسلان ابن عمه، فأخذا إلى بغداد واستمرا مأسورين خمس سنين على ما روى المؤرخون الفرن،ج خلافاً لما يظهر مما رويناه عن ابن الأثير عن فداء بودوين. وربّما كان هذا الفداء بعد مرور السنين الخمس التي ذكرها المؤرخون الفرنج. وكان تنكراد في هذه المدّة يدبر حكومة أنطاكية ويرد عنها حملات الأعداء. انتهى ملخصاً عن كثير من المؤرخين الفرنج.

عد ٨٢٢

فتح الفرنج طرابلس وغيرها

قد روى المؤرخون المسلمون، حصار الفرنج طرابلس في عدة سنين فقال أبو الفداء في تاريخ سنة ٤٩٥هـ ١١٠٢م: «في هذه السنة سار صنجيل الفرنجي في جمع قليل وحصر ابن عمار بطرابلس ثمّ وقع الصلح على مال حمله أهل طرابلس إليه. فسار صنجيل إلى انطرطوس (طرسوس) ففتحها، وقتل من بها من المسلمين ثمّ سار وحصر حصن الأكراد فجمع جناح الدولة صاحب حمص العسكر ليسير

إليه. فوثب باطني على جناح الدولة وهو بالجامع فقتله. ولمّا بلغ صنجيل قتله رحل عن حصن الأكراد إلى حمص ونازلها وملك أعمالها». وروى كذلك ابن الأثير في تاريخ السنة المذكورة، ثمّ ذكرا في تاريخ سنة ٤٩٧هـ سنة ١١٠٤م: «في هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة لاذقية وفيها التجار والأجناد والحجاج واستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس فحصروها معه براً وبحراً وضايقوها وقاتلوها أياماً. فلم يروا فيها مطمعاً فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل، فحصروها وقاتلوا عليها قتالاً شديداً. فلمّا رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أماناً وسلّموا البلد إليهم. فلمّ تف لهم الفرنج بالأمان وأخذوا أموالهم واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب. فلمّا فرغوا من جبيل ساروا إلى مدينة عكا وقالا في تاريخ سنة ٤٩٩هـ سنة ١١٠٦م «كان صنجيل قد ملك مدينة جبلة ثمّ سار وأقام على طرابلس فحصرها وبنى بالقرب منها حصناً وبنى تحته ربضاً وهو المعروف بحصن صنجيل، فخرج الملك (الأمير) أبو علي بن عمار صاحب طرابلس فأحرق الربض ووقف صنجيل على بعض سقوفه المحروقة فانخسف به فمرض صنجيل من ذلك وبقي عشرة أيام ومات وحمل إلى القدس ودفن فيه ودام الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين، وظهر من صاحبها ابن عمار صبر عظيم وقلت الأقوات فيها. وسار ابن عمار صاحب طرابلس من الشام إلى بغداد قاصداً باب السلطان محمّد (السلجوقي) مستنفراً على الفرنج طالباً تسيير العساكر لازاحتهم، وانّه استناب ابن عمه ذا المناقب في طرابلس ورتّب معه الاجناد براً وبحراً وأعطاهم جامكية ستة أشهر سلفاً. وان ابن عمه أظهر الخلاف له والعصيان عليه ونادى بشعار المصريين. فكتب إلى أصحابه يأمرهم بالقبض عليه وحمله إلى حصن الخوابي ففعلوا ما أمرهم. وكان ابن عمار استصحب معه هدايا نفيسة قدّمها للسلطان محمّد فأكرمه وعامله معاملة الملوك وعرض عليه ابن عمار ما يقاسيه وقوة عدوه وطول حصره وطلب غيرة السلطان فوعده السلطان بذلك. وحضر دار الخلافة وذكر ما ذكره عند السلطان. فلم يجد ذلك نفعاً كما سترى وعاد ابن عمار إلى دمشق سنة ٥٠٢هـ سنة ١١٠٩م وتوجّه منها مع عسكر إلى جبلة فدخلها وأطاعه أهلها. وأمّا أهل طرابلس فانهم راسلوا الأفضل أمير الجيوش بمصر يلتمسون منه والياً يكون عندهم ومعه الميرة في البحر. فسيّر إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب ومعه الغلة وغيرها مما يحتاج إليه في الحصار. فلمّا صار فيها قبض على

جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه وأخذ ما وجده من ذخائره وآلاته، وحمل الجميع إلى مصر في البحر».

وقال ابن الأثير، وأبو الفداء في تاريخ سنة ٥٠٣هـ سنة ١١١٠م: «في هذه السنة في حادي عشر ذي الحجة ملك الفرنج مدينة طرابلس لأنّهم ساروا إليها من كل جهة وحصروها في البر والبحر وضايقوها من أوّل رمضان وكانت في يد نواب خليفة مصر العلوي. وأرسل الخليفة إليها أسطولاً فردّه الهواء ولم يقدر على الوصول إلى طرابلس ليقضي الله أمراً كان مفعولاً وملكوها بالسيف، وقتلوا ونهبوا وسبوا. وكان بعض أهل طرابلس قد طلبوا الأمان وخرجوا منها إلى دمشق قبل أن يملكها الفرنج». ثمّ قال في سنة ٥٠٤هـ سنة ١١١١م: «ملك الفرنج مدينة صيدا في ربيع الآخر وملكوها بالأمان وفيها سار صاحب أنطاكية مع من اجتمع عليه من الفرنج إلى الأثارب، بالقرب من حلب وحصره ودام القتال بينهم ثمّ ملكوه بالسيف وقتلوا من أهله ألفي رجل وأسروا الباقين ثمّ ساروا إلى زردنا فملكوها بالسيف، وجرى لهم كما جرى لأهل الاثارب. ثمّ سار الفرنج إلى منبج وبالس فوجدوهما قد خلاهما أهلهما فعادوا عنهما وصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار يحملها إليهم مع خيول وثياب، ووقع الخوف في قلوب أهل الشام من الفرنج فبذلت لهم أصحاب البلاد أموالاً وصالحوهم فصالحهم أهل مدينة صور على سبعة آلاف دينار وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار وصالحهم على الكردي صاحب حماه على ألفي دينار».

وإليك خلاصة ما قاله المؤرخون الفرنج بهذه الأحداث: «في سنة ١١٠٨م وقال بعضهم سنة ١١١٠م (وهو الأوجه) سار برتران بن ريموند كونت سان جيل إلى المشرق ومعه سبعون سفينة من جنوا بقصد أن يتولى بعض مدن فينيقيا، فهاجم أولاً جبيل فملكها بعد مهاجمات ثمّ سار لحصار طرابلس، وأتى بودوين ملك أورشليم في خمس مئة فارس يعاونه على هذا الحصار. فضايقوا المدينة ولم ينجدها أحد فاستسلمت إلى الفرنج بشرط أن يكون أهلها أحراراً. فمن شاء الخروج منها خرج بما أمكنه حمله ومن شاء البقاء فيها لزمه أن يؤدي الجزية. فأمست طرابلس وعرقا وطرطوس وجبلة عملاً رابعاً من أعمال الفرنج في سورية وتولاه برتران بن ريموند كونت سان جيل، وحلف يمين الأمانة لملك أورشليم. وبعد أخذ طرابلس

بأشهر جمع بودوين ملك أورشليم عساكره حول بيروت وحاصرها شهرين وأرغم أهلها أن يستسلموا إليه. ولم يبق للمسلمين على شاطئ البحر المتوسّط إلّا عسقلان وصور وصيدا. ولم يكن أهل صيدا نجوا إلى حينئذٍ إلّا باظهارهم الخضوع وتقديمهم التقادم. فكانوا يؤجلون خراب مدينتهم من سنة إلى أخرى ببذل أموالهم. واتّفق أنّه عند عود ملك أورشليم من حملة على شواطئ الفرات بلغه أنّ سيكور ابن ملك نورفج حلّ في يافا يصحبه عشرة آلاف رجل من مملكته. فسار بودوين إلى لقاء هذا الأمير وكلّفه أن يمدّه في حروبه فأجابه إلى ذلك ولم يتطلّب اجرة إلّا أن يعطى فلذة من ذخيرة عود الصليب. وأتى معه إلى أورشليم فعجب سكّانها من طول قامات هؤلاء الزائرين ومن عدَّة حربهم وقرّر مجلس الملك حينئذٍ أن يحاصروا صيدا. فسار أسطول سيكور للحال إلى تجاه صيدا وخيّم بودوين ملك أورشليم وكونت طرابلس حذاء أسوارها فحاصروها ستة أسابيع وأكرهوا والي المدينة ووجهاءها أن يسلموا مفاتيح مدينتهم إلى ملك أورشليم. ولم يطلبوا إلّا أن يخرجوا من المدينة في ما يمكنهم حمله على رؤوسهم ومناكبهم. فخرج من سكان صيدا خمسة آلاف واستمرّ الباقون فيها خاضعين لملك أورشليم. وعاد أمير نورفج إلى بلاده جذلاً بما ناله من ذخيرة خشبة الصليب ووضع هذه الذخيرة في احدى مدن بلاده.

عد ٨٢٣

ذكر مسير عساكر السلطان محمّد السلجوقي إلى قتال الفرنج

روى ابن الأثير في تاريخ سنة ٥٠٥هـ سنة ١١١٢م أنّه في هذه السنة اجتمعت العساكر التي أمرها السلطان بالمسير إلى قتال الفرنج، وكان من قوادهم الأمير مورود صاحب الموصل، والأمير سكمان صاحب تبريز، والأمير ايلغازي صاحب ماردين. وساروا إلى بلد سنجار ففتحوا عدة حصون للافرنج وحصروا مدينة الرها، ثمّ رحلوا عنها وعبروا إلى جانب الفرات الشامي، وطرقوا أعمال حلب وحصروا قلعة تل باشر خمسة وأربعين يوماً. ولم يبلغوا منها غرضاً. فرحلوا عنها، ووصلوا إلى حلب فأغلق رضوان صاحبها أبواب المدينة ولم يجتمع فيهم. فرحلوا إلى معرة النعمان واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق ونزل على الأمير

مودود فأطلع من الأمراء على نيات فاسدة في حقه. فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الفرنج سراً وكانوا قد تكلّموا عن قتال المسلمين فلم يتم ذلك، فتفرقت عساكر المسلمين لأنّ الأمير برسق الذي هو أكبر الأمراء كان به نقرى ويحمل في محفة. ومات سكمان أمير تبريز، واتابك طغتكين صاحب دمشق خاف على نفسه فتفرّقوا وبقي طغتكين ومودود في المعرّة. فساروا منها ونزلوا على نهر العاصي. ولمّا سمع الفرنج بتفرّق عساكر المسلمين طمعوا وكانوا قد اجتمعوا وساروا إلى افاميا (اباميا قلعة المضيق). وسمع بهم ابن منقذ صاحب شيزر فسار إلى مودود وطغتكين، وهون عليهما أمر الفرنج فرحلوا إلى شيزر ونزلوا عليهما ونزل الفرنج بالقرب منهم فضيق عليهم عسكر المسلمين الميرة فلم يعطوا مصافاً للحرب، ورأوا قوة المسلمين فعادوا إلى افاميا وتبعهم المسلمون فتخطّفوا من أدركوه في ساقتهم وعاد المسلمون إلى شيزر.

وفي سنة ٥٠٦هـ سنة ١١١٣م سار مودود صاحب الموصل إلى الرها فنزل عليها ورعى عسكره زروعها ورحل عنها إلى سروج وفعل بها كذلك وأهمل الفرنج ولم يحترز منهم فلم يشعر إلّا وجوسلين صاحب تل باشر قد كبسهم. وكانت دواب العسكر منتشرة في المرعى فأخذ الفرنج كثيراً منها وقتلوا كثيراً من العسكر. فلمّا تأهّب المسلمون للقاء جوسلين عاد عنهم إلى سروج. وفي سنة ٥٠٧هـ سنة ١١١٤م اجتمع الأمراء المذكورون وطغتكين صاحب دمشق ليردوا غارات ملك الفرنج على بلاد دمشق وقطعوا المواد عنها فراسل طغتكين الأمير مودود، فسار بعسكر جرار ولاقاه طغتكين إلى سلمية وساروا جميعاً إلى الأردن ودخلوا بلاد الفرنج والتقوا معهم عند طبرية واشتدّ القتال وصبر الفريقان. ثمّ انهزم الفرنج وكثر القتل فيهم والأسر، وممن أسر ملكهم بفدوين (بودوين) فلم يعرف وأخذ سلاحه وأطلق فنجا، وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثيرون وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ووصل الفرنج إلى مضيق دون طبرية فلقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية فقويت نفوسهم بهم وعاودوا الحرب، فأحاط بهم المسلمون من كل جهة وصعد الفرنج إلى جبل غربي طبرية فأقاموا به ستة وعشرين يوماً والمسلمون بازائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم ومنعوا الميرة عنهم لعلّهم يخرجون إلى قتالهم فلم يخرجوا، فسار المسلمون إلى بيسان ونهبوا بلاد الفرنج من عكا إلى القدس وخربوها وقتلوا من ظفروا به من النصارى،

وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم. ثمّ عاد الأمراء عن القتال وأذنوا للعساكر بالعود والاستراحة وبقي مودود في خواصه ودخل دمشق ليقيم عند طغتكين إلى الربيع لمعاودة الغزو، ودخل مودود الجامع يوم الجمعة ليصلي مع طغتكين. ولمّا خرجا وثب باطني على مودود، فجرحه أربع جراحات، وكان صائماً فحمل إلى دار طغتكين واجتهد به ليفطر، فقال لا لقيت الله إلّا صائماً. فمات من يومه. وقيل إنّ الباطنية بالشام خافوه، فقتلوه وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله. قال ابن الأثير «حدّثني والدي قال كتب ملك الفرنج إلى طغتكين بعد قتل مودود كتاباً قال فيه: إنّ أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها.»

وإليك خلاصة ما جاء في كتب المؤرخين الفرنج عن ذلك، قالوا في سنة ١١١٣م أقبل عسكر جرار من خراسان والموصل ودمشق وانتشر في الجليل. فسار الملك بودوين لمناوأتهم واغترّ بحيلة صنعها المسلمون، فأقدم على قتالهم دون تروٍ. فكان يوم أوشك فيه عسكر النصارى أن يهلك عن آخره وملكهم ان يزول وملكهم أن يقتل. إلّا أنّه قد تيسّر لهم في آخر الصيف انصراف جيش أعدائهم ولكن عقب ذلك جراد رعى الزروع، ومجاعة جشأت بها نفوس أهل كونتية الرها وامارة أنطاكية وزلزال انبسط من جبل طورس إلى برية أدوم فأخرب مدناً كثيرة. فتاب النصارى إلى الله وخشعوا ونادوا بأصوام وواظبوا الكنائس والتضرّع إلى الله إلى أن انقشعت ظلمات هذه المحن والمصائب.

ولما رأى بودوين نفسه مستريحاً من غارات أعدائه غزا في بلاد العرب حتى البحر الأحمر ودار في خلده أن يحمل على مصر فحمل عليها سنة ١١١٨م ووصل إلى جهة الغرما ظافراً غانماً، ولكن أصاب بودوين الملك مرض فلم يعد له ولقومه حيلة إلّا بأن يعود إلى أورشليم. فحملوا بودوين في محفة إلى العريش، ولمّا شعر بدنو المنية علم خدامه كيف يحنطون جثّته ويحملونها إلى أورشليم وأوصى بأن يخلفه في الملك إمّا أخوه أوسطاش أو بودوين دي بورج كونت الرها، وتناول أسرار الكنيسة ومضى إلى لقاء ربّه. فاستخرج أصحابه أحشاءه ودفنوها بالقرب من العريش وحملوا جثّته إلى القدس. فدفنوها به في ٢٦ آذار سنة ١١١٨م يوم عيد الشعانين. وكان تنكراد والي أنطاكية قد توفي سنة ١١١٢م في أنطاكية ودفن بها في كنيسة القديس بطرس هامة الرسل. وأوصى بأن يخلفه روجه بن ريشار، أحد

أنسبائه بشرط أن يتخلّى عن إمارة أنطاكية إلى أميرها الشرعي ابن بيوموند الذي كان حينئذٍ عند امّه في إيطاليا.

عد ٨٢٤

خلافة بودوين الثاني وما كان في أيامه

بعد وفاة بودوين الأوّل ودفنه اهتمّ اكليرس أورشليم وشعبها بانتخاب ملك يخلفه. فأراد بعضهم أن يملكوا أخاه أوسطاش، وقال غيرهم إنّ أوسطاش بعيد والأخطار حافة بهم. فرشّحوا بودوين دي بورج كونت الرها من أنسباء الملك المتوفي. وكان حينئذٍ بأورشليم فأجمع رأيهم عليه ونادوا به ملكاً في كنيسة القيامة يوم عيد الفصح وأقام في كونتية الرها عوضاً عنه جوسلان دي كورتناي.

ولم ينتهوا من حفلات الملك الجديد إلّا تألّبت جموع من المسلمين من فارس والجزيرة وسورية، وزحفوا إلى عدوة العاصي بإمرة ايلغازي بن ارتق والي ماردين الذي كان تولى على حلب. وقال المؤرخون المسلمون في ذلك في هذه السنة (أي سنة ٥١٣هـ وهي سنة ١١٢٠م) كانت وقعة بين ايلغازي بن ارتق، وبين الفرنج بأرض حلب فانهزم الفرنج وقتل منهم عدة كثيرة وأسر عدة، وكان في من أسر سرجال صاحب أنطاكية. ثمّ سار ايلغازي، وفتح عقيب الاثارب، وزردنا. وكانت الوقعة في منتصف ربيع الأوّل عند عفرين. وممّا مدح به ايلغازي بسبب هذه الوقعة قول العظيمي:

قل ما تشاء فقولك المقبولُ — وعليك بعد الخالق التعويلُ
واستبشر القرآن حين نصرته — وبكى لفقد رجاله الانجيلُ

وقال المؤرخون الفرنج في ذلك اجتمع المسلمون من بلاد فارس والجزيرة وسورية بإمرة ايلغازي، وعلم بتجمعهم روجه بن ريشار أمير أنطاكية، فاستمدّ ملك أورشليم وكونت الرها وكونت طرابلس ولم ينتظر وصولهم بل عاجل المسلمين بالقتال. فقتل هو وتشتت عسكره كل التشتت وأسر كثيرون وكان في جملتهم غوتيار المسجّل. وهو وصف ما عاناه الأسرى حينئذٍ من العذاب المبرح. وقال إنّه

لم يصف كل ما رأى خشية أن يقتدى النصارى يوماً بما أنزله أعداؤهم بهم. وقد انتشرت عساكر ايلغازي بعد هذا الظفر في أعمال الفرنج وبلغ حينئذٍ ملك أورشليم إلى أنطاكية. وقد قتل أكثر من كان يذب عنها، ولزم أن يقام الاكليرس والرهبان في حراسة الأبراج إذ لم يكونوا على ثقة من الروم والأرمن لاستثقالهم فأنعش وصول الملك رجاء الأهلين وزار كنائس أنطاكية وعليه ثياب الحداد وطلب بركة البطريك له ولجنوده وسار لقتال المسلمين وعلمهم خشبة الصليب. والتحم القتال فظهر النصارى وانهزم أيلغازي ودبيس قائد العرب. وبعد أن أمّن بودوين أنطاكية وأعمالها عاد إلى أورشليم قصبة ملكه.

وقال المؤرخون المسلمون في تاريخ سنة ٥١٥هـ سنة ١١٢٢م في هذه السنة عصا سليمان بن ايلغازي على أبيه بحلب وحسن له العصيان رجل من أهل حماة من بيت قرناص كان ايلغازي قد قدّمه على أهل حلب فجازاه بذلك. فسار أيلغازي من ماردين وهجم على حلب وقطع يدي ابن قرناص ورجليه وسمل عينيه فمات ولحقته رقة الوالد على ولده سليمان فاستبقاه وهرب إلى طغتكين بدمشق. فاستناب أبوه على حلب ابن أخيه واسمه سليمان أيضاً ابن عبد الجبار. وقالوا أيضاً في السنة المذكورة كانت حرب بين بلك بن بهرام ابن أخي أيلغازي، وبين جوسلين صاحب الرها. فان بلك حصر هذه المدينة وبها الفرنج وبقي على حصرها مدة فلم يظفر بها فرحل عنها. فقصده جوسلين صاحب الرها وسروج فانتصر بلك على الفرنج وقتل منهم كثيرين وأسر جوسلين وابن خالته كليام وجماعة من فرسانه، وبذل جوسلين فداء نفسه أموالاً كثيرة فلم يقبلها بلك وسجنهم في قلعة خرتبرت. وتوفي ايلغازي في سنة ٥١٦هـ سنة ١١٢٣م وملك بعده ابنه تمرتاش بماردين، وأخذ بلك حلب من ابن عمه سليمان المار ذكره. فسلم سليمان حصن الأثارب إلى الفرنج ليهادنوه على حلب. واستولى الفرنج على خرتبرت وخلصوا جوسلين ثمّ سار بلك إليها واسترجعها من الفرنج.

ثمّ توفّي بلك سنة ٥١٨هـ سنة ١١٢٥م وسبب وفاته انّه قبض على الأمير حسان البعلبكي صاحب منبج وسار إلى هذه المدينة فملكها وحصر القلعة فأصابه سهم لا يدري من رماه فقتله. فحمله ابن عمه تمرتاش بن ايلغازي إلى حلب وتسلّم المدينة ورتّب أمورها وعاد إلى ماردين مركز ولايته. واجتمعت الفرنج

وانضمّ إليهم دبيس بن صدقة وحاصروا حلب وأخذوا في بناء بيوت لهم بظاهرها فعظم الأمر على أهلها ولم ينجدهم صاحبها تمرتاش لايثاره الرفاهة والدعة. فكاتب أهل حلب اقسنقر البرسقي صاحب الموصل في تسليمها إليه فسار إليهم، فلمّا قرب من حلب رحلت الفرنج عنها وسلّم أهل حلب المدينة والقلعة إليه واستقرّت في ملك البرسقي مع الموصل وغيرها. وفي سنة ٥١٩هـ سنة ١١٦٢م سار البرسقي إلى كفرطاب وأخذها من الفرنج ثمّ سار إلى عزاز، وكانت لجوسلين فاجتمعت الفرنج لقتاله واقتتلوا فانهزم البرسقي وقتل من المسلمين خلق كثير.

وممّا قاله المؤرخون الفرنج في هذه الأحداث أنّه في سنة ١١٢٢م، كبس بلك ابن أخي ايلغازي جوسلين كونت الرها فأسره ومعه كاليران أحد أنسبائه الادنين وغللهما وساقهما إلى أطراف الجزيرة. ولمّا بلغ خبرهما إلى بودوين ملك أورشليم سار مسرعاً إلى الرها ليعزي أهلها ويفكّ الأسيرين. فاستفزّه كرم أخلاقه واعتماده على شجاعته أن يقتحم المخاطر. فوقع أسيراً بيد بلك وصار شريكاً لمن عني بتخليصهما. فحملت النخوة والحمية خمسين رجلاً من أرمينيا على إنقاذ الملك والأميرين فدخلوا القلعة متنكرين وقتلوا الحامية التي كانت بها. ولكن أحاط المسلمون بالقلعة واستطاع جوسلين أن يفرّ منها وأسرع إلى أورشليم فوضع قيوده على قبر المخلّص وعاد في عسكر من أورشليم والرها لينقذ الملك الأسير. ولمّا انتهى إلى الفرات علم أنّ المسلمين دخلوا القلعة وقتلوا الخمسين رجلاً وأخذوا الملك إلى قلعة حران.

واغتنم المصريون فرصة أسر ملك أورشليم فتألّبوا وساروا إلى صحراء عسقلان قاصدين أن يزيحوا الفرنج عن فلسطين. واستعدّ الفرنج للدفاع متقوين كشعب نينوى بالتوبة والصوم، وقرع الجرس الكبير في أورشليم ايذاناً بالحرب فخرج النصارى وعسكرهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل وأميره أوستاش دي اكران كونت صيدا ومدبّر المملكة في غيبة الملك. وحمل البطريرك خشبة الصليب في طليعة العسكر ومن ورائه كاهن حامل الحربة التي طعن بها جنب المخلّص وكانوا اكتشفوها بأنطاكية. وكان المصريون يحاصرون حينئذٍ يافا بحراً وبراً. ولمّا رأى أصحاب الأسطول الفرنج بعدوا عن الشاطئ، وتسعّرت نار القتال بين العسكرين في البر فظهر النصارى وانهزم المصريون وتتبّع الفرنج آثارهم في صحراء عسقلان إلى أن دخلوا أسوار عسقلان. وعاد الفرنج إلى أورشليم مترنمين بأناشيد التسبيح والشكر

لله. وأمّا بودوين الملك فافتدى نفسه بمال، ولمّا خُلّي سبيله جمع عسكراً وزحف إلى حلب وكان بين أمراء المسلمين اختلاف أدّى إلى أنّ دبيس أمير العرب وغيره من أمراء تلك النواحي انضمّوا إلى الفرنج فضايق بودوين حلب وأوشك أهلها أن يستسلموا إليه فتسارع أمير الموصل لنجدة حلب في عسكر جرّار فاضطرّ بودوين أن يرفع الحصار ويعود إلى أورشليم. فشكر ذووه الله على نجاته. ثمّ انتهى إليه أنّ جيش المسلمين الذي أتى لنجدة حلب قد انتشر في إمارة أنطاكية فنكّل بأهلها ونهب وحرق. فهبّ راجعاً في نخبة من فرسانه وجنوده فهزم الأعداء من أملاك الفرنج. ثمّ هجم طغتكين صاحب دمشق على أملاك الفرنج فأسرع بودوين لقتاله فأرغم أن ينكص على عقبه إلى دمشق.

وقد بقيت صور كلّ هذه السنين في يد الخلفاء العلويين أصحاب مصر فأخذها الفرنج من يدهم سنة ١١٢٥م. وإليك ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك: «كانت صور في يد الخلفاء العلويين وشرع الفرنج في الجمع والتأهّب للنزول عليها وحصرها. فسمع الوالي الذي بها من قبل المصريين خبر تأهّبهم وعلم ان لا قوة له ولا طاقة على دفع الفرنج عنها. فأرسل إلى الآمر بذلك فرأى أن يرد ولاية صور إلى طغتكين صاحب دمشق وأرسل إليه بذلك. فملك طغتكين صور ورتّب بها من الجند وغيرهم ما ظنّ فيه كفاية، وسار الفرنج إليهم ونازلوهم وضيّقوا عليهم ولازموا القتال. فقلّت الأقوات وسئم من بها القتال وضعفت نفوسهم وصار طغتكين إلى بانياس ليقرب منهم ويذب على البلد. ولعلّ الفرنج إذا راوه قريباً منهم نم يتحرّكوا ولزموا الحصار فأرسل طغتكين إلى مصر يستنجدهم فلم ينجدوه. وتمادت الأيام وأشرف أهلها على الهلاك. فراسل حينئذٍ طغتكين الفرنج وقرّر الأمر على أن يسلّم المدينة إليهم ويمكّنوا من بها من الجند والرعية من الخروج بما يقدرون على حمله من أموالهم ورحالهم. فاستقرّت القاعدة على ذلك وفتحت أبواب المدينة وملكها الفرنج وفارقها أهلها وتفرّقوا في البلاد وحملوا ما أطاقوا وتركوا ما عجزوا عنه. ولم يعرض الفرنج على أحد منهم ولم يبق إلّا الضعيف. وملك الفرنج البلد في ٢٢ من جمادي الأوّل سنة ٥١٨هـ (سنة ١١٢٥م)، وكان فتحه رهناً عظيماً على المسلمين. فانّه من أحصن البلاد وآمنها». والذي قاله المؤرخون الفرنج: انّه في تلك الأثناء قدم إلى شواطئ سورية أسطول بندقي أميره دوغ (أي والي) البندقية فافترض الفرنج قدومه لحصار صور، وأتى المسلمون من دمشق إلى محل

قريب من المدينة لنجدة أهلها وخرج عسكر مصري من عسقلان، فأخرب بلاد نابلس وهدّد أورشليم فلم يُثنِ ذلك عزيمة الفرنج عن الحصار، واتّفق حينئذٍ قتل بلك في منبج وكان جوسلان هو القاتل له، وقد طير خبر قتله إلى مدن النصارى وأرسل رأسه إلى صور فازداد الفرنج حماسة وحمية. فيئس الصوريون من الدفاع فاستسلموا إلى الفرنج بعد حصار خمسة أشهر ونصف. فخفقت أعلام ملك أورشليم ودوغ البندقية على أسوار صور. فدخل إليها الفرنج ظافرين وخرج منها الصوريون في نسائهم وأولادهم صاغرين. وانتشر خبر الظفر فسمع صدى التهليل والشكر لله في كل من مدن النصارى ولاسيما أورشليم حيث أقيمت حفلات باهرة ذكراً لهذا الانتصار وشكراً لله عليه.

وقد توفي بودوين في ٢١ آب سنة ١١٣٠م، ويروى سنة ١١٣١م في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة لملكه اذ استوى على منصّة الملك سنة ١١١٨م في عيد الفصح ودفن في كنيسة القيامة. وكان متزوجاً بابنة أمير من أرمينيا ورزق منها أربع بنات إحداهنّ زوجة فولك دي انجو الذي خلفه والثانية امرأة بيوموند أمير أنطاكية والثالثة امرأة ريموند كونت طرابلس والرابعة ترهّبت. وكان تقياً ورعاً هماماً زاد مملكته بغزواته.

عد ٨٢٥
ملك فولك دي انجو، وما كان من الأحداث في أيامه

بعد دفن بودوين الثاني، اجتمع الرؤساء والأعيان فاختاروا خليفة له في مملكة أورشليم فولك كونت انجو. وكان قد حضر إلى سورية سنة ١١٢٠م، وعاد إلى فرنسة سنة ١١٢٥م، وتزوّج بابنة بودوين الثاني كما مرّ. وتوجّه البطريرك الأورشليمي اللاتيني في ١٤ أيلول سنة ١١٣١م. وتوفي في ١٣ تشرين الثاني سنة ١١٤٢م. ومما كان في أيامه أنّ البرسقي الذي كان قد ولي حلب كما مرّ قتله باطنية بالموصل، وكان مملوكاً تركياً شجاعاً. وكان قد أقام ابنه مسعوداً والياً بحلب. فلمّا قتل أبوه سار إلى الموصل وملك بها مكان أبيه واستخلف على حلب أميراً اسمه قيماز، ثمّ استخلف بعده رجلاً اسمه قتلغ وأساء السيرة فخلعه

أهل حلب وولوا عليهم سليمان بن عبد الجبار الذي كان قد تولى حلب أولاً كما مرّ. وعصا قتلغ في القلعة. ولمّا سمع الفرنج باختلاف أهل حلب سار إليهم جوسلين فصانعوه بمال فرحل عنهم. ومات مسعود بن البرسقي أمير الموصل فولى السلطان محمود السلجوقي عماد الدين زنكي على الموصل وما يليها. فزاد إمارته وأرسل عسكراً إلى حلب ومعه توقيع السلطان محمود بالشام، فأجاب أهل حلب إليه. وسير قائد العسكر سليمان بن عبد الجبار وقتلغ إلى زنكي فأصلح بينهما ولم يرد احدهما إلى حلب. ثمّ سار عماد الدين زنكي بنفسه إلى حلب وملك منبج في طريقه واستبشر أهل حلب بقدومه فرتّب أمور حلب وسمل عيني قتلغ فمات. وكان في دمشق أن مات طغتكين أميرها سنة ٥٢٢هـ سنة ١١٢٩م وهو من مماليك تتش بن الب ارسلان السلجوقي. وملك دمشق بعده ابنه تاج الملوك نوري (ويروى بورى بالباء ونوري بالنون). وفي سنة ٥٢٣هـ سنة ١١٣٠م سار رجل من الاسماعيلية يسمى بهرام إلى دمشق ودعا الناس إلى مذهبه وأعانه طاهر بن سعد المزدعاني وزير نوري أمير دمشق وسلّم إليه قلعة بانياس فعظم أمره وملك عدة حصون بالجبال. وجرى بينه وبين أهل التيم مقاتلة قتل بهرام فيها وقام مقامه بقلعة بانياس رجل منهم يسمى اسماعيل. وأقام الوزير في دمشق رجلاً منهم أيضاً يسمى أبا الوفا. فعظم أمره حتى صار الحكم له بدمشق وكاتب الفرنج على أن يسلّم دمشق إليهم ويسلّموا إليه عوضها مدينة صور واتّفقوا على ذلك. وعلم الأمير نوري بذلك فقتل وزيره المزدعاني وأمر بقتل الاسماعيلية الذين بدمشق. فثار بهم أهل دمشق وقتلوا منهم ستة آلاف نفر، ووصل الفرنج إلى الميعاد وحصروا دمشق فلم يظفروا بشيء فرحلوا عنها. وخرج نورى بعسكر دمشق في أثرهم فقتلوا منهم عدة كثيرة. وأمّا اسماعيل الذي كان بقلعة بانياس فسلّم هذه القلعة إلى الفرنج وصار معهم.

وأمّا عماد الدين زنكي فكان قد أرسل من حلب يستنجد نورى صاحب دمشق على الفرنج فأرسل نوري إلى ابنه سونج الذي كان نائباً عن أبيه بحماة يأمره بالمسير إلى عماد الدين زنكي فسار إليه، فغدر زنكي به وقبض عليه ونهب خيامه واعتقله وجماعة من مقدمي عسكره بحلب، وسار زنكي إلى حماة فملكها لخلوها من الجند. ثمّ رحل عنها إلى حمص وحاصرها مدّة، وكان قد غدر بصاحبها أيضاً الذي يسمى قيرخان بن قراجا، وقبض عليه وأحضره معه إلى حمص وأمره أن يأمر

ابنه وعسكره بتسليم حمص إليه فأمرهم فلم يلتفتوا إلى أمره. فلمّا آيس زنكي منها رحل عنها عائداً إلى الموصل واستحصب سونج وأمراء دمشق معه، وبذل نوري صاحب دمشق مالاً في ابنه فلم يجب إلى طلبه.

وفي سنة ٥٢٤هـ سنة ١١٣١م، عاد زنكي من الموصل إلى الشام وقصد حصن الاثارب القريب من حلب وكان أهله الفرنج يضايقون أهل حلب وجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وقصدوا زنكي فرحل عن الاثارب وسار إلى ملتقاهم فاقتتل الفريقان أشدّ القتال فانهزم الفرنج وقتل منهم كثيرون وأسر بعض فرسانهم، ثمّ عاد إلى الاثارب وأخذه عنوة وقتل وأسر كل من فيه وخرّب زنكي حينئذٍ الحصن المذكور وبقي خراباً إلى الآن.

وفي سنة ٥٢٦هـ سنة ١١٣٣م، توفي تاج الملوك نوري صاحب دمشق بسبب جرح أوقعه به بعض الباطنية وعهد بالملك بعده إلى ولده شمس الملوك اسماعيل وأوصى ببعلبك وأعمالها لولده شمس الدولة محمّد. ثمّ استولى محمّد على حصن الرأس وحصن اللبوة فكاتبه أخوه اسماعيل في إعادتها إليه فلم يقبل محمّد ذلك. فسار اسماعيل وفتح الحصنين وحصر أخاه محمّد ببعلبك وملك المدينة وحصر القلعة، فسأله محمّد في الصّلح فأجابه إليه وأعاد إليه بعلبك وأعمالها. وفي سنة ٥٢٧هـ سنة ١١٤٣م سار شمس الملوك اسماعيل على غفلة من الفرنج فملك مدينة بانياس وقتل وأسر من كان بها من الفرنج. ثمّ سار في هذه السنة إلى حماة وهي لعماد الدين زنكي كما مرّ وحصرها فملكها عنوة وطلب أهلها منه الأمان فأمنهم وملك قلعتهم أيضاً. ثمّ سار إلى شيزر وبها صاحبها من بني منقذ فنهب بلدها وحاصر القلعة فصانعه صاحبها بمال فعاد عنها إلى دمشق. وبعد عوده وثب عليه بعض مماليك جده طغتكين فضربه بسيف فلم يعمل به. فقبض على الضارب فقتله وقتل من أقرّ عنهم وألحق بهم أخاه سونج الذي كان زنكي قد أسره كما مرّ، فعظم ذلك على الناس ونفروا منه.

وفي سنة ٥٢٨هـ سنة ١١٣٥م سار شمس الملوك إلى حصن الشقيق في وادي التيم. وكان بيد الضحاك بن جندل رئيس هذا العمل وكان الفرنج راضين عن الضحاك فأخذ شمس الملوك هذا الحصن وعظم ذلك على الفرنج وقصدوا بلاد حوران وجمع شمس الملوك الجموع وناوشهم. ثمّ أغار على بلادهم من

جهة طبرية ووقعت الهدنة بينهم وبينه، فعاد الفرنج إلى بلادهم. وفي سنة ٥٢٩هـ سنة ١١٣٦م اتّفق جماعة على قتل شمس الملوك فقتلوه على غفلة بايعاز امه. قيل إنّ الناس كرهوه لفرط جوره وظلمه وشكوه إلى امه فاتّفقت مع من قتله. وقيل بل أنّ أمّه اتّهمت لشخص يقال له يوسف بن فيروز فأراد شمس الملوك قتل امّه فاتّفقت مع من قتله. ولما قتل ملك بعده بدمشق أخوه شهاب الدين محمود. ولمّا بلغ زنكي مقتل شمس الملوك أسرع إلى دمشق وحصرها وضيّق على أهلها فقام برفع الحصار مملوك لطغتكين اسمه معين الدين اتز واستولى على الأمر بسبب ذلك. ولمّا لم يرَ زنكي مطمعاً في أخذ دمشق اصطلح مع أهلها ورحل عنها إلى بلاده.

وفي سنة ٥٣٠هـ سنة ١١٣٧م، تسلّم شهاب الدين محمود صاحب دمشق مدينة حمص وقلعتها. فانّ أصحابها أولاد الأمير قيرخان بن قراجا المار ذكرهُ ضجروا من كثرة تعرّض عماد الدين زنكي إليها وإلى أعمالها فراسلوا شهاب الدين في أن يسلّموا إليه ويعطيهم عوضها تدمر. فأجابهم إلى ذلك فتسلّمها وأقطعها لمملوك جده معين الدين اتز المار ذكره. فلما رأى عسكر زنكي بحلب وحماة خروج حمص إلى صاحب دمشق تابعوا الغارات على بلدها. فأرسل شهاب الدين إلى زنكي في الصلح فاستقرّ بينهما وكفّ عسكر زنكي عن حمص، ولم يكن ذلك إلّا لمدّة وجيزة فان زنكي نازل حمص سنة ٥٣١هـ سنة ١١٣٨م فلم يمكنه معين الدين اتز من فتحها. فرحل عنها إلى بعرين وهي للافرنج وضيق عليها. فاجتمع الفرنج ليدفعوه عن بعرين، وجرى بينهم قتال شديد آخره انهزام الفرنج ودخول بعضهم إلى حصن بعرين فحصر زنكي الحصن وضيّق عليهِ. فطلب الفرنج الأمان فقرر عليهم تسليم حصن بعرين وخمسين ألف دينار فأجابوه إلى ذلك. فأطلقهم وتسلّم الحصن وفتح حينئذٍ المعرة وكفرطاب وأخذها من الفرنج.

وفي سنة ٥٣٢هـ سنة ١١٣٩م، سار زنكي إلى حماة وسار منها إلى بقاع بعلبك فملك حصن المجدل، وكان لصاحب دمشق وأرسله مستحفظ بانياس وأطاعهُ. وسار إلى حمص فحصرها ثانية ثمّ رحل عنها إلى سلمية بسبب نزول الروم على حلب كما سيأتي. ثمّ عاد إلى منازلة حمص. فسلمت إليه المدينة والقلعة، وأرسل فخطب أم شهاب الدين محمود صاحب دمشق وهي التي قتلت

ابنها شمس الملوك اسماعيل بن نوري كما مرّ وإنّما تزوجها طمعاً بالاستيلاء على دمشق. ولما خاب أملهُ من ذلك أعرض عنها. انتهى ملخصاً عن ابن الأثير وأبي الفداء وابن خلدون.

عد ٨٢٦
حملة يوحنا كمنانس ملك الروم على سورية

هاك خلاصة ما قالهُ المؤرخون المسلمون في هذه الحملة، كان ملك الروم قد خرج سنة ٥٣١هـ (سنة ١١٣٨م) من بلاده متجهزاً فاشتغل بقتال الأرمن وصاحب أنطاكية وغيرهُ من الفرنج. فلما دخلت سنة ٥٣٢هـ (سنة ١١٣٩م) سار إلى بزاغة وهي على ستة فراسخ من حلب وحاصرها وملكها بالأمان ثمّ غدر بأهلها وقتل فيها وأسر وسبى، فتنصّر قاضيها وقدر أربع مئة نفس من أهلها، وأقام فيها عشرة أيام ثمّ رحل عنها بمن معه إلى حلب ونزل على قويق (نهرها) وزحف إليها وجرى بينهُ وبين أهلها قتال كثير فقتل من الروم بطريق عظيم القدر عندهم. فعادوا خاسرين وأقاموا ثلاثة أيام ورحلوا إلى الأثارب وملكوها وتركوا فيها سبايا بزاغة، وتركوا عندهم من الروم من يحفظهم، وساروا نحو شيزر فخرج الأمير أسوار نائب زنكي بحلب وأوقع بمن في الأثارب من الروم واستفك أسرى بزاغة وسباياها. وسار ملك الروم إلى شيزر وحصرها ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً، وأرسل صاحب شيزر أبو العساكر بن منقذ الكناني إلى زنكي يستنجدهُ فسار زنكي ونزل على العاصي بين حماة وشيزر. وكان زنكي وعسكره يشرفون كل يوم على الروم وهم محاصرون شيزر بحيث يراهم الروم. وأقام ملك الروم محاصراً شيزر أربعة وعشرين يوماً ثمّ رحل عنها من غير أن ينال منها غرضاً. وسار زنكي في أثر الروم فظفر بكثير ممن تخلّف منهم. ومدح الشعراء زنكي بسبب ذلك. من هذا ما قالهُ مسلم بن خضر الحموي من أبيات أوّلها:

بعزمك أيّها الملك العظيمُ تذلّ لك الصعاب وتستقيمُ

ومنها:

ألم ترَ أنّ كلب الروم لمّا تبيّن أنّهُ الملك الرحيمُ
فجاء فطبق الفلوات خيلاً كأنّ الجحفل الليلُ البهيمُ
فحين رميتهُ بك في خميس تيقن فوت ما أمسى يرومُ
كأنك في العجاج شهاب نور توقد وهو شيطان رجيمٌ

وممّن ذكروا هذه الحملة من المؤرخين النصارى دي لارو في موجز تاريخ الملك السافل قال في سنة ١١٣٧م عاد الملك يوحنا كومنانس إلى مطامعه بالاستيلاء على أنطاكية. وكانت هذه الإمارة بعد مقتل بيوموند الثاني أميرها في حرب مع زنكي قد وقعت في يد ابنة عمرها ثلاث سنين اسمها قسطنسا وقد خطبت لريموند ابن كونت بواتيا. ولما علم بيوموند أنّ ملك الروم يجهز حملة على أنطاكية استنجد رئيس عصابة من الأرمن وجهز بعض الجنود فلم يجدِهِ ذلك نفعاً بل فتح ملك الروم ترسيس وأدنه وما جاورهما. ثمّ حاصر عين زربه فقاومه أهلها شديد المقاومة. ولكن ألجئوا أن يستسلموا إليه فأمنهم وهزّم الأرمن من المواضع التي كانت بيدهم. وبعد أن استحوذ على كيليكيا كلّها خيّم على أبواب أنطاكية. فارتاع بيموند صاحبها واستنجد فولك ملك أورشليم لكنّ هذا الملك كان أحوج منهُ إلى من ينجدهُ على زنكي أمير الموصل وحلب. فلم يرَ ريموند مناصاً من أن يسلّم المدينة إلى ملك الروم ويقرّ بسيادتهِ. ووعده الملك يوحنا أن يلحق بإمارة أنطاكية كل ما يأخذهُ من المسلمين. وبعد التوقيع على معاهدة بهذا المعنى خفقت أعلام ملك الروم على قلعة أنطاكية ومضى الملك يصرف فصل الشتاء في ترسيس.

ثمّ افتتح الملك بعض المدن في الفرات وسار إلى حلب ومعه أمير أنطاكية وكونت الرها، وكانت حلب محصّنة وفيها حامية كثيرة شديدة البأس. فوثبوا على الفرنج وردوا مرات فلم توهن عزيمتهم ، وتعرّض الملك نفسهُ عدة مرات لفقد حياتهِ فلم ينثنِ عن عزمهِ، لكنّهُ خشي أخيراً حصول مجاعة في عسكره فأرغم أن يرفع الحصار عن حلب ويكتفي بأخذه بعض القرى المجاورة لها، ويرحل إلى شيزر آملاً أي يستعيض عما خسره. وقبل أن يعبر العاصي عبره فرسان المسلمين ووثبوا على عسكره فهزمهم الروم وغرق كثيرون منهم في النهر وعاد البقية إلى شيزر،

واعتصموا بأسوارها يدافعون عن بلدهم مدافعة الأبطال فلم يتمكّن الروم من فتح المدينة واستحوذوا على بعض ضواحيها فقط وقتلوا سكانها. وخاف سكان المدينة فراسلوا الملك يوحنا بالصلح وقدّموا له تقادم نفيسة فرحل عنهم إلى أنطاكية.

وقد دخل الملك يوحنا أنطاكية باحتفاء عظيم وكان معه أمير أنطاكية وكونت الرها يضبطان عنان جوادهُ فاجلهُ الأهلون إجلال ملكهم وكانت له السلطة المطلقة في المدينة، على أنّهُ سأل أمير أنطاكية أن يقيم فيها حامية من قبله. فوجس الأمير من ذلك وحسبه تخلية للملك عن إمارته، فلجأ إلى حيلة سيئة العاقبة فدسّ إلى سكان المدينة أي يثوروا ويحملوا سلاحهم. فعمّت الثورة المدينة وتألّب سكانها وأخذوا يهددون ويصيحون في الأسواق الويل لأنطاكية فقد بيعت للروم، وهجموا على بعض حاشية الملك فقتلوا كثيرين وأتبعوا أثر من هرب إلى قصر الملك. فدعا الملك الأمراء وقال لهم أرى هذه الجموع لم تفهم ما قصدتهُ وقد نسبوا إليّ من السوء ما لم أتعمّدهُ. فسيّروا واخمدوا روع هؤلاء الثائرين وأكّدوا لهم أنني غداً أبين لهم سوء ظنّهم بي بارتحالي عن أنطاكية. فأثنى من حضر على سداد الملك وأصالة رأيه، ومضى الأمير وكونت الرها، فطيّبوا قلوب الثائرين. وفي الغد خرج الملك من المدينة وخيّم عند أبوابها، ثمّ سار إلى قسطنطينية وفي قلبهِ حزازات من أهل أنطاكية.

فبعد أربع سنين أي سنة ١١٤٢م عاد إلى سورية ومعهُ عمانويل أصغر أبنائهِ وبلغ إلى أسوار أنطاكية واستأنف ما كان قد طلبهُ من ريموند أن يقيم حامية في قلعة أنطاكية، فأبى ريموند الإجابة إلى مطلوبهِ فأوعز الملك إلى جنودهُ أن ينهبوا بلاد أنطاكية، فاندفعوا ينهبون ويقطعون الأشجار ويتلفون الحصاد والثمار ويحرقون المزارع والقرى. وكان يؤمل أن يستحوذ على أنطاكية بهذه الوسيلة السيئة فزاد الناس كرهاً له ودار في خلده أن يسير إلى أورشليم ويقضي بها فصل الشتاء. فسيّر رسلاً إلى فولك ملك أورشليم يستأذنه بأن يزور الأماكن المقدّسة ويعده بأنّه ينجده على أعدائهِ. فلم يثق الملك باخلاص ملك الروم ووجس من دخولهِ أورشليم، فأجابهُ أنّهُ يسرّ بقبولهِ لكنه يخشى أنّ القحط الحاصل في بلادهِ لا يمكنهُ من تقديم الازودة الكافية لجيشه. فان شاء أن يحضر بعشرة آلاف رجل فقط احتفى بلقائه وتكريم مثواه. فأدرك ملك الروم سبب رفض قبولهِ مع جيشهِ ولم يشأ أن ينفصل عن جيشهِ فأعاد رسل ملك أورشليم إليه وأرسل إليه معهم هدايا نفيسة، وقفل إلى

كيليكية متوقعاً سنوح فرصة لإتمام ما نوى، إلا أنه بينما كان يوماً يروّح نفسه بالصيد جرح بسهم مسمّ من جعبته لدى عراكه لأحد الضواري ومات من جرحه في ٨ نيسان سنة ١١٤٣م، وأوصى رؤساء جيشه أن يملّكوا بعده ابنه عمانويل المذكور فملّكوه وعاد إلى قسطنطينية.

وتوفي فولك ملك أورشليم سنة ١١٤٤م وفي رواية أخرى سنة ١١٤٢م وله ابنان بودوين وأموري.

عد ٨٢٧

ملك بودوين الثالث على أورشليم وأخذ المسلمين الرها

بعد وفاة فولك ملك أورشليم انتخب لخلافته ابنه بودوين وهو الثالث بهذا الاسم والخامس من ملوك أورشليم، ولم يكن له من العمر عند ارتقائه إلى سدّة الملك إلا ثلاث عشرة سنة، وقد أثنى غوليلمس أسقف صور على حسن أخلاقه وحميد صفاته. ومن أهم الأحداث في أيامه فتح عماد الدين زنكي صاحب الموصل وحلب مدينة الرها. قال المؤرخون المسلمون في ذلك في سنة ٥٣٩هـ (سنة ١١٤٥م) فتح أتابك عماد الدين زنكي مدينة الرها من الفرنج، وفتح غيرها من حصونهم في الجزيرة أيضاً. وكانت مملكتهم بهذه الديار من قرب ماردين إلى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وغيرها. وكانت هذه الأعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين، وكان صاحب رأي الفرنج والمقدّم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر. وكان زنكي يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذّر عليه فتحها، فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير قاصد بلادهم فرأوا أنه منشغل بغيرهم فاطمأنوا، وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات وبلغ زنكي الخبر فنادى في عسكره بالرحيل وأن لا يتخلّف أحد عن الرها في غد يومه، فساروا إلى الرها ونازل زنكي المدينة وقاتل أهلها ثمانية وعشرين يوماً، وأمر بنقب أسوار المدينة ، ولجّ في قتالها خوفاً من اجتماع الفرنج والمسير إليه فأخذها عنوةً وقهراً وحصر قلعتها فملكها أيضاً ونهب الناس الأموال وسبوا الذريّة وقتلوا الرجال. وأعجبت المدينة زنكي فلم يشأ خرابها وأمر بردّ ما أخذ منها، وجعل فيها عسكراً يحفظها، وتسلّم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي

الفرات إلا البيرة فإنه حاصرها ولم يقدر أن يأخذها حينئذ (ملخّص عن الكامل لابن الأثير).

وإليك ما قاله المؤرخون النصارى ملخّصاً عن معجم تاريخ الصليبيين: «بعد وفاة جوسلين الأول خلفه في كونتيّة الرها ابنه جوسلين الثاني وكان عاكفاً على ملاذه، متقاعداً عن الاهتمام بشؤون إمارته، ترك الإقامة في قصبتها الرها وأقام في طوربال على عدوة الفرات لاهياً بما يلذّ له. وكان زنكي هائماً بفتح الرها فخادع جوسلين بما ينوي وهاجم الرها بغتة سنة ١١٤٤م وأقام عليها الحصار ولم تنجدها أرملة فولك ملك أورشليم التي كانت تدبّر المملكة لصغر ابنها. وكان ريموند أمير أنطاكية عدواً لجوسلين فلم يشأ أن يناصره، فانفرد أهل الرها بمناصبة زنكي آملين أن تنجدهم أمة الفرنج واستمروا على ذلك ثمانية وعشرين يوماً فلم يكن منجد ولا معين، وفتح عسكر زنكي منافذ في أسوار المدينة، ودخلوها فقتلوا كثيرين من سكانها رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً ونهبوا بيوتها وكنائسها، وجرّوا أسقفاً أرمنيّاً في شوارعها ثم جلدوه، وقتلوا الأسقف اللاتيني واكليروسه وأرسلوا رؤوس بعض القتلى إلى بغداد وأسروا مَنْ بقي من الأهلين». وقال أبو الفرج بن العبري في تاريخه السرياني: «إنّ أهل الرها كباراً وصغاراً حتى الرهبان أيضاً تسارعوا إلى أسوار المدينة للذبّ عنها. وكانت النساء يحملن إلى المحاربين الحجارة والماء والزاد، وعرض زنكي عليهم عند ثقب الأسوار والأبراج أن يستسلموا إليه فأبوا معلّلين نفوسهم بوصول جوسلين وملك أورشليم إليهم. وكان في أسفل بعض الأبراج أخشاب ألقى زنكي النار فيها فتداعت فتسارع الناس إلى ذاك المحل ليمنعوا دخول الأعداء منه وخلت الأسوار من عددٍ كافٍ لصدّ المهاجمين فنقب جنود زنكي السور ودخلوا المدينة فانهزم سكانها إلى القلعة فلم يفتح لهم الفرنج حرّاسها الأبواب إلى أن يرجع رئيسهم الذي كان قد سار للذبّ عن المدينة، ولما عاد ازدحم الناس في الباب حتى هلك منهم خلق كثير وأصيب الرئيس بسهم فمات. وبعد أن استحوذ زنكي على المدينة والقلعة أمر جنوده أن يغمدوا سيوفهم وسمح لبعض السريان والأرمن أن يعودوا إلى السكنى بالرها. وأطلق الناس والأولاد. ولما قتل زنكي سنة ١١٤٧م عند حصاره حصن جعبر أغرى جوسلين سكانها النصارى بأن يسلّموها إليه فدخل إليها وملكها وحاصر قلعتها فدهمه نور الدين بن زنكي من حلب في عسكر جرّار وأرغمه على ترك الرها ونهب المدينة

وأسر أهلها وانهزم بعضهم إلى أماكن أخرى. وأما جوسلين فقبض عليه نور الدين بحيلة وسجنه بحلب حيث توفي سنة ١١٤٩م وبذل عمانويل كومنانس ملك الروم مالاً جزيلاً لأرملة جوسلين فتخلّت له عن طوربال وغيرها من المدن التي بقيت لها على عدوة الفرات. ورأى ملك أورشليم أن لا طاقة له على حفظ كونتية الرها فارتضى بتركها لملك الروم وأحضر أرملة جوسلين إلى أنطاكية مع أسرات الفرنج التي كانت في الرها. على أنّ ملك الروم لم يستطع أيضاً أن يبقى لنفسه على الرها وهي في وسط أملاك المسلمين فأمست فريسة لنور الدين ابن زنكي وقد عادت إلى ملك الولاة المسلمين بعد أن ملكها الإفرنج نحواً من نصف قرن».

عد ٨٢٨

حملة الصليبيين الثانية على سورية

في سنة ١١٤٥م سار أسقف جبلة إلى البابا أوجانيوس الثالث وهو في فيتربو بإيطاليا يلتمس المساعدة لكنيسة المشرق، وكان يروي أخبار أخذ المسلمين مدينة الرها وتنفجر من عينيه ينابيع الدموع، فأنفذ البابا أوجانيوس الثالث رسالة إلى لويس السابع ملك فرنسة يحضّه بها على إمداد الإفرنج الذين بسورية. ومما قاله في هذه الرسالة: «لا نستطيع أن نقول دون أسفٍ شديد وذرف الدموع السخينة إنّ مدينة الرها وقعت في يد الأعداء هي وغيرها من المدن وإنّ رئيس أساقفة الرها قتل وأتبعوا به إكليرسه كلّه وذخائر القديسين أهينت ودنّست والخطر يحفّ بكنيسة الله في المشرق». فعزم الملك لويس أن يسير إلى المشرق وكاشف بقصده بعض الولاة والأعيان فأشاروا عليه أن يستدعي القديس بربردس ويستشيره فأجابه القديس أنه لا يجزم بشيء قبل أمر البابا له. ولما حثّه الحبر الروماني على أن يخطب مبيّناً لزوم إنجاد الإفرنج في الأماكن المقدسة اندفع يخطب وصنع الله آيات كثيرة على يده وأكثر من الرسائل إلى أنحاء كثيرة فتألبت جموع وافرة العدد وفي رأسها الملك لويس السابع ومعه كثيرون من ولاة فرنسة وأعيانها، وكونراد ملك المانيا ومعه كثيرون من ولاة مملكته وأعيانها. ولما بلغ الملكان في جيشهما إلى أرض مملكة الروم أكثر الملك من بعث الوفود لملتقاهم، وكان هؤلاء

الوفود يغالون في إطرائهم للملكين حتى كان كل سامع من الإفرنج يشمئزّ من هذا الغلوّ ويملّ من سماعه. وقد روى أوردون دي دويل الذي كان مرافقاً الملك لويس وكتب تاريخ رحلته هذه أنّ غودفروا أسقف لانكر الذي كان في معية الملك احتدم من كثرة التعظيم للملك بخطب وفود ملك الروم فقاطعهم الحديث قائلاً: حسبكم اخواني ما جئتم به تكراراً في مجد الملك وعظمته وحكمته وورعه، فهو عالم بنفسه ونحن عالمون به، فقالوا الآن سريعاً ما تريدون. وكان ملك الروم يخشى أن يثل الملكان عرشه، فأراد أن يلتقيهما بالترحاب والتجلّة، ويضمر لهما الخديعة والمكر مقتدياً بجده ألكسيس كومنانس وأبيه يوحنا. وقد روى نيقيطا المؤرخ اليوناني (في كتاب تاريخه السنوي ك١ من مجموعة التاريخ البيزنطي الذي طبع في البندقية) أخبار معاملة الروم للملكين لويس وكونراد. منها أنّ الملك كونراد مرض أحد أنسبائه عند مروره بأدرنة فتركه بها فدخل بعض جنود الروم إلى مخدعه فأحرقوه فعاد ابن أخي الملك فأحرق الدير الذي حرق به نسيبه وجزى المجرمين بما جنت أيديهم. وكان الروم يكمنون للإفرنج في طرقهم ويغتالون مَنْ تخلّف منهم. ولما كان الإفرنج يأتون المدن ليمتاروا طعاماً كان الروم يوصدون الأبواب وكانوا يدلون من أعلى الأسوار حبالاً فيأخذون ما يتطلبون من الثمن ثم يعطونهم ما يحسن لهم من الخبز أو الطعام وكانوا أحياناً يأخذون الثمن ويغيبون عن الأسوار دون أن يعطوهم شيئاً، ويخلطون الدقيق أحياناً بكلس فيؤذي آكليه. ولا أعلم إن كان ذلك كله بعلم الملك، والذي أعلمه علم اليقين أنّ الملك سكّ نقوداً مزيفة ليعطاها الفرنج إذا باعوا شيئاً. كل هذا من كلام نيقيطيا المذكور.

ولما بلغ ملك فرنسة إلى قسطنطينية خرج للقائه جميع الشرفاء من الإكليرس والشعب وسألوه متذلّلين أن يتعطّف ويزور الملك فهو واجد لرؤيته. فسار بعدّة قليلة من حاشيته فلاقاه الملك بنفسه وعانقه ثم دخلا القصر فجلسا على كرسيّين لا يمتاز أحدهما عن الآخر. وأكثر ملك الروم من الملاطفة والمجاملة والوعود وليتها صادقة، ثم سار ملك فرنسة ومعه أشراف المملكة إلى القصر المعدّ له. وكان ملك الروم يأدب المآدب الفاخرة له ويصحبه لزيارة كنيسة القديسة صوفيا وغيرها من غرائب القسطنطينية. وأما كونراد ملك المانيا فلم يشأ أن يحلّ في قسطنطينية واقتصر أن يقابل عمانويل ملك الروم وكلّ منهما على جواده مع النسابة بينهما، لأنّ عمانويل

كان متزوّجاً بأخت زوجة كونراد. وسار كونراد في طريق الأناضول قبل ملك فرنسة وأصحبه ملك الروم بكتائب من جيشه ليهدوهم الطريق، والأولى أن يقال ليضلّوهم الطريق ويغدروا بهم. ولما بلغوا إلى بلاد المسلمين أعلم هؤلاء الخونة قادة الألمان أن يعدّوا زاداً يكفيهم بعض أيام لأنهم سوف يعبرون برية قاحلة ليأخذوهم في طريق أقرب إلى قونية المدينة النضرة الفاخرة، واقتادوهم في طرق وعرة خشنة. ولما لم يبلغوا غاية سفرهم بعد أيام عتبهم الملك كونراد ولامهم فتركوا المعسكر ليلاً ولم يبق مَنْ يهديهم السبيل فتوغّلوا في بلاد صعبة المسالك وليس مَنْ يهديهم إلى طريق للخروج منها.

وروى كثيرون من المؤرخين منهم ابن العبري: أنّ الملك عمانويل أخبر سلطان قونية بمسير الفرنج وحسن لهم اغتيالهم، فجمع السلطان جموعاً ودهم الألمانيين من كل جهة وهم تائهون، تعبون، لا زاد معهم ولا علف لخيلهم، فرجعوا القهقرى، فتتبّعهم الأتراك يقتلون مَنْ تخلّف عنهم أو عجز عن لحاقهم، واقتحم بعض شجعانهم الخطر مدافعين عن الضعفاء، ودخلوا في مضيق، فاكتنفهم الأتراك، وفتكوا بأولئك الشجعان ومَنْ تصدّوا للدفاع عنهم، وأصاب كونراد نفسه سهمان وهو بين فرسانه، وظلّ القتلى والجرحى والمرضى على قارعة الطريق. وكان جيش المحاربين من الألمانيين نحو سبعين ألفاً عدا مَن اتّبعهم، فلم ينجُ منهم إلا عشرهم، وانهزم الملك كونراد وعاد إلى نيقية فالتقى هناك بلويس ملك فرنسة، فعانق أحدهما الآخر وبكيا، وقصّ كونراد ما جرى له منتحباً، ورافق ملك فرنسة إلى افسس، وعاد إلى قسطنطينية يقيم فيها فصل الشتاء.

وأما ملك فرنسة وجيشه فساروا في طريق افسس، وكانت بينهم وبين الأتراك مناوشات ظهروا بها عليهم إلى أن انتهوا إلى طريق حجر معلّق بين مهاوٍ من جهة وصخور متراكمة من أخرى. وكان الجيش الإفرنسي مقسوماً إلى مقدمة وقلب وساقة، وكانت الملكة اليونورا في مقدمة الجيش فلم تشأ أن تنتظر باقيه، ولما تملّصت من ذاك المضيق رأت سهلاً رحباً أسرعت إليه في مَنْ معها لتخيم به، فوثب الأتراك على قلب الجيش حيث كان الضعفاء والأعزال وجهاز العسكر، وأعملوا سيوفهم بأولئك الضعفاء. وكان الملك في ساقة الجيش، وسمع الصراخ فأسرع بفرسانه وألحم القتال مع الأتراك فنجا مَنْ بقي من قلب الجيش، واستمرّ الملك والأعداء مشتبكين بالقتال إلى أن أخذ الملك بأغصان شجرة من على جواده،

ورمى بنفسه على صخر، وكان يردّ النبال المرشوقة عن بعد بترسه وسيفه عامل بمن دنا منه، فأنقذته شجاعته وظلام الليل ولحق عسكره وهم يبكون عليه. ثم ساروا نحو ساتالية وهي أضالية، فكانت مناوشات بينهم وبين أعدائهم كان الظفر للفرنسيس بها، ولكن أخرب الأعداء القرى في طريقهم فأصابتهم مجاعة ذبحوا فيها خيولهم واغتذوا بلحمها، وانتهوا بعد مسيرة اثني عشر يوماً إلى أضالية وكان سكانها من الروم وهي من أملاك ملكهم، فأغلقوا أبواب المدينة، ومنعوا الفرنج من الدخول إليها. فكثر التذمّر بينهم لأنهم لم يتولّوا قسطنطينية عند مرورهم بها كما كان رأي بعضهم وهمّوا أن يأخذوا أضالية فأتى واليها يعرض على الملك أنه يقدّم لهم سفناً يسيرون بها إلى انطاكية فقبل الملك ما عرضه الوالي. ولكن مرّت خمس أسابيع ولم يحضر السفن وأخيراً أحضر منها ما لا يكفي لشحن العسكر كلّه. فسار الملك وجماعته بهذه السفن، وترك الملك للوالي مبلغاً عظيماً من المال ليصرفه على المرضى وتسيير جند يصحبون الإفرنسيين إلى أن يعبروا كيليكية، على أنه في غداة سفر الملك رأى الفرنج الأتراك مقبلين إليهم عوضاً عن الجنود الذين وعد الوالي أن يسيّرهم ليهدوا الفرنج الطريق ويؤمنوهم به. فدافع الفرنج عن نفوسهم مدافعة الأبطال أياماً، ولكن أنهكهم التعب والجوع فسألوا الوالي أن يسمح لهم بالدخول إلى المدينة فأبى وانهزم بعض رؤسائهم. والله يعلم كم قتل منهم وهرب وبقي منهم تائهين في كيليكية.

وأما الملك ومَنْ سار معه إلى انطاكية فلما وصلوا إليها نسوا ما أصابهم ولم يبالوا بمن خلفوهم في أضالية وعكفوا على الحفلات والملاهي، وكانت الملكة اليونورا علة ذلك، فهي كانت بنت أخي ريموند دي بواتيا أمير انطاكية ومحبّة للقصف واللهو وغير راسخة في الأدب، وكان ريموند عمّها يريد بقاء الملك في انطاكية ليساعده على فتح حلب، فأجابه الملك أنه يحبّ قبل كل شيء أن يبلغ أورشليم ليفي نذره بالحجّ إليها، فتغيّر ريموند وجاهر بمقاومة الملك حتى همّ أن يفصل الملكة ابنة أخيه عن زوجها، ودرى الملك بذلك فأسرع بالخروج من انطاكية. وكان ملك أورشليم وأعيانها يخشون طول إقامة الملك بانطاكية فأرسلوا يسألونه أن يعجّل مسيره إليهم، فعبر الملك سورية وفينيقيا ولم يجب إلى سؤال كونت طرابلس أن يمكث مدة عنده ليعاونه على توسيع تخوم ولايته. ولما انتهى الملك إلى أورشليم خرج لملتقاه الأمراء والشعب والإكليرس حاملين سعف النخل والزيتون محيّين الملك بالتسابيح

التي حيّي بها المخلّص، وطابت القلوب بقدومه وانتعش بهم الرجاء والأمل. ثم بلغ إلى هناك كونراد ملك المانيا متنكّراً مع جماعته بهيئة حجّاج. وبعد أن أتمَّ الملكان زيارتهما عقد اجتماع في عكا شهده الملكان وملك أورشليم وكثيرون من الأساقفة والأمراء والأعيان. واتفق رأيهم في هذا الاجتماع أن يحاصروا دمشق، وعيّن موعداً لذلك اليوم الخامس والعشرين من أيار سنة ١١٤٨م في طبرية (ملخّص عن كثيرين من المؤرخين ولاسيما غوليلمس الصوري في تاريخ الحرب).

عد ٨٢٩
حصار دمشق

عزا المؤرخون المسلمون حصار دمشق إلى ملك الألمان فقالوا ما ملخّصه في سنة ٥٤٣هـ (سنة ١١٤٨م أو سنة ١١٤٩): «سار ملك الألمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج. فلما وصل إلى الشام قصده مَنْ بها من الفرنج وخدموه وامتثلوا أمره فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق ليحصرها ويملكها، فساروا معه وحصروها، وكان صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن نوري بن طغتكين، وليس له من الأمر شيء، وإنما الحكم لمعين الدين انز مملوك جده طغتكين، فجمع العساكر وحفظ البلد وأقام الفرنج يحاصرونه، ثم زحفوا بفارسهم وراجلهم فخرج إليهم أهل البلد والعسكر فقاتلوهم وصبروا لهم وقوي الفرنج وضعف المسلمون، فتقدّم ملك الألمان حتى نزل بالميدان الأخضر فأيقن الناس بأنه يملك البلدة. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازي بن زنكي يدعوه إلى نصرة المسلمين وكفّ العدوّ، فجمع عساكره وسار إلى الشام واستصحب معه أخاه نور الدين محموداً من حلب، فنزلوا في حمص وأرسل إلى الفرنج يهدّدهم إن لم يرحلوا عن دمشق، فكفّ الفرنج عن القتال فقوي أهل البلد على حفظه واستراحوا من ملازمة الحرب، وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء يهدّدهم بحضور سيف الدين وإلى فرنج الشام يقول بأيّ عقل تساعدون هؤلاء علينا، وإن ملكوا دمشق أخذوا ما بيدكم من البلاد؟ وأما أنا فإن رأيت ضعفي عن حفظ دمشق سلّمتها إلى سيف الدين، وأنّ ملك الشام فلا يبقى لكم معه مقام. فأجابوه إلى التخلّي عن ملك الألمان، وبذل لهم حصن بانياس، وحسنوا لملك الألمان ترك دمشق. فرحل عنها

وعاد إلى بلاده. هذا ما قاله المؤرخون المسلمون وهم غير عالمين بداخلة الفرنج.

وأما المؤرخون الفرنج فقالوا: «إنّ عساكرهم قصدت دمشق وحاصرتها وإنّ ملك أورشليم كان في طلائع الجيش ومن خلفه نصارى المشرق ومن بعدهم عسكر لويس ملك فرنسة. وأما ملك ألمانيا فكان في مَنْ جمعهم من عسكره في ساقة الجيش ليحفظ المحاربين من وثوب عدوّ من الوراء. وصبر المسلمون على القتال ببسالة عند عدوة النهر الذي يخترق البساتين. ولما رأى كونراد ملك الألمان ذلك أسرع بفريق من رجاله إلى مقدّمة الجيش وانقضّ على المسلمين كصاعقة فوثب عليه رجل من المسلمين طويل القامة شديد البأس فعاجله ملك الألمان بضربة سيف بين العنق والكتف فشقّه نصفين، فارتاع المسلمون وانهزموا إلى المدينة وبقي الإفرنج مالكين عدوة النهر وأيقن سكان دمشق بعجزهم عن الدفاع وهمّوا أن يخلوا المدينة، وألقوا على أبواب المدينة ومداخل الإفرنج حجارة ضخمة ليتيسّر لهم الفرار بعيالهم وأموالهم قبل أن يدركهم الفرنج.

وتيقّن الإفرنج امتلاك المدينة ولم يبق همّ لرؤسائهم إلا بأن يعرفوا لمَنْ تكوْن الولاية على دمشق بعد فتحها. ورجح كونت فلاندرا على مزاحميه فأخذت الغيرة أشراف الفرنج في سورية من تفضيله عليهم، وأخذ بعضهم يعاملون على حبط مسعاهم وأشاروا على رؤساء الجيش أن يتركوا موقفهم في البساتين ويرتحلوا إلى جهة أخرى قاحلة والأسوار تجاهها منيعة. وورد الخبر بأنّ أميرَي حلب والموصل قادمان بجيش جرّار، وتجنّد عشرون ألف من المسلمين وطلبوا المصاف. فلم يخجل الفرنج وملك فرنسة والمانيا أن يرحلوا عن دمشق إلى فلسطين وهناك تحادثوا بأن يحاصروا عسقلان فلم يتّفق رأيهم على شيء وعاد ملك المانيا إلى بلاده خجلاً آسفاً. وبقي ملك فرنسة في أورشليم إلى عيد الفصح سنة ١١٤٩م ثم عاد إلى فرنسة دون أن يصنع شيئاً يذكر. فلم تكن نتيجة صالحة من هذه الحملة بل كان منها اشتداد الضغينة بين ملوك الفرنج وملك الروم وزيادة قوة المسلمين وجرأتهم وذلّ النصارى ووهن قوتهم؛ وعلة كل ذلك الحسد والطمع واختلاف الآراء الناشيء عن ذلك الحسد. وقد تعزّى وتأسّى القديس برنردوس الذي دعا الناس إلى هذه الحملة وغيره من المتورّعين بأنَّ مَنْ توفّوا من أهل هذه الحملة ماتوا في سبيل الله وكفروا عن آثامهم وآثام غيرهم.

عد ٨٣٠

أخذ الفرنج مدينة عسقلان

كانت مدينة عسقلان قد استمرت كل هذه المدات تحت ولاية الخلفاء العلويين بمصر وكان بقاؤها كذلك وبالاً على الفرنج وعلى ملك أورشليم خاصة إذ لم يكن حاجز يصدّ المصريين عن مهاجمة مملكة أورشليم في طريق عسقلان بل كانوا كل ما شاؤوا يرسلون عسكراً إلى عسقلان فينكّل بالفرنج، وقد قصدها الفرنج مرات فلم يتيسّر لهم فتحها إلى أن استغنموا فرصة الخلاف بين الوزراء في مصر وشنّوا الغارة عليها فملكوها، وقد روى ذلك ابن الأثير في الكامل فقال في تاريخ سنة ٥٤٨هـ سنة ١١٥٤م: «في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جملة مملكة الظافر بالله العلوي المصري وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون إلى ملكها سبيلاً. وكان للوزراء بمصر الحكم في هذه البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته، وكان الوزراء يرسلون إليها كل سنة من الذخائر والأسلحة والأموال والرجال مَنْ يقوم بحفظها. فلما كان في هذه السنة أن قتل ابن السلار الوزير واختلفت الأهواء في مصر وولي عباس الوزارة اغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان فاجتمعوا وحصروها فصبر أهلها وقاتلوهم قتالاً شديداً وردّوا بعض الفرنج إلى خيامهم مقهورين، وتبعهم أهل البلد إليها فأيس الفرنج من فتح المدينة. فبينا هم على عزم الرحيل إذ قد أتاهم الخبر أنّ البلد قد وقع بين أهله خلاف لادّعاء كل طائفة منهم أنّ النصرة كانت من جهتهم، وعظم الخلاف حتى قتل من الفريقين قتلى فطمع الفرنج وعادوا إلى حصار المدينة ولم يجدوا مَنْ يمنعهم فملكوها».

وقال المؤرخون الفرنج في ذلك إنّ عسقلان كانت باباً لملوك مصر يدخلون منه كلما شاؤوا إلى مملكة أورشليم برّاً وبحراً. وكان هؤلاء الملوك يرسلون كل سنة إليها أموالاً وأسلحة ويدفعون أرزاقاً لكثيرين من أهلها، فهمّ بودوين بأن يريح نفسه ومملكته من شرّ أهل هذه المدينة ويفتح بأخذها سبيلاً إلى مصر فحصّن قلعة غزة التي كانت خربة ومهملة وعهد بحراستها إلى فرسان الهيكل (وهم جماعة تألبوا في ذلك العصر). وكانت غزة بين عسقلان ومصر وبها محطّ نجدات ملوك مصر لعسقلان فحاول المصريون أن يملكوا تلك القلعة فلم يتيسّر لهم أخذها ولم يبق لهم

سبيل إلى شنّ الغارات على بلاد الفرنج أو إلى إنجاد عسقلان إلا بالبحر. وفي سنة ١١٥٢م أتى كثيرون من الأمراء الذين يدّعون حقّ الولاية على أورشليم في جمع كبير وخيّموا في جبل الزيتون فخرج النصارى إليهم وظهروا عليهم وتتبّعوا آثارهم إلى الأردن، وعاونهم الفرنج من نابلس وغيرها فقتلوا كثيرين وعادوا إلى أورشليم غانمين شاكرين لله، وحملهم هذا الظفر أن يسيروا إلى ضواحي عسقلان وجنّاتها فارتاع منهم أهل عسقلان وهربوا إلى المدينة فعزم الفرنج أن يحاصروها. ودعا الملك بودوين أكابر الفرنج والفرسان وأساقفة اليهودية وفينيقيا فساروا وبطريرك أورشليم يحمل أمامهم خشبة الصليب، وحاصروا المدينة برّاً وبحراً وكان لجيرار كونت صيدا إمرة أسطول مؤلف من خمس عشرة سفينة، واستمرّ الحصار شهرين وقدم نحو الفصح جمع من الحجاج فحلّ في عكا ويافا فاستنجدهم الملك فأسرعوا إلى معسكر النصارى وانضمّ بعضهم إلى جنود جيرار في الأسطول، فشدّوا الحصار على عسقلان وأتتها نجدة في البحر من مصر فلم توهن عزم الفرنج بل ازدادوا حميّة ونخوة وصنعوا برجاً من خشب أعلى من الأسوار، فألقى العسقلانيون ليلاً بين البرج والسور كثيراً من المواد المحرقة فألهبوها، فهبّ هواء حول اللهيب نحو المدينة حتى أصبحت حجارة السور كلساً، فسقط بعض السور وتسارع فرسان الهيكل ودخلوا المدينة وأقاموا خفراً على الثلمة في السور كيلا يدخل غيرهم فيشاطرهم الغنيمة والفخر. ولما رأى حامية المدينة وأهلها عدد الداخلين قليلاً وقد اشتغلوا بالنهب عن القتال وثبوا بهم فقتلوا منهم وهزموا باقيهم وسدوا الثلمة، فاستولى الكدر والأسف على الفرنج وعادوا إلى معسكرهم. واستدعى الملك والأعيان والأساقفة للمشاورة فرأى بعضهم الرحيل عن الحصار، ورأى غيرهم العود إليه فعادوا في الغداة إلى الحصار واستمرّ القتال النهار كله وكثر القتلى في الفريقين فطلب العسقلانيون هدنة لدفن موتاهم ثم طلبوا الصلح على شريطة أن تفتح لهم أبواب المدينة ويباح لهم الخروج منها وإخراج أموالهم وأثقالهم مدة ثلاثة أيام، فقبل الملك شرطهم وعمل به فخرجوا وأصحبهم الملك بمن يخفرهم إلى تخوم مصر. ودخل في ١٢ آب سنة ١١٥٤ الملك والبطريرك والأساقفة وأعيان الفرنج وعسكرهم إلى عسقلان (ملخّص عن تاريخ غوليلمس الصوري لهذه الحرب).

عد ٨٣١

ذكر غير ذلك من الحوادث في أيام بودوين الثالث

مما ذكره المؤرخون المسلمون في تاريخ سنة ٥٤٤هـ سنة ١١٥٠م أنّ نور الدين محمود بن زنكي غزا بلاد الفرنج من جهة انطاكية وقصد حصن حارم وهو للفرنج، فجمع البرنس صاحب انطاكية الفرنج وسار إلى نور الدين فاقتتلوا فانتصر نور الدين وقتل البرنس وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم. وملك بعد البرنس ابنه بيموند وهو طفل وتزوّجت أمه برجل آخر وتسمّى البرنس. ثم أنّ نور الدين غزاهم غزوة أخرى فهزمهم وقتل فيهم وأسر بيموند وكان من أسر البرنس الثاني زوج أم بيموند فتمكّن حينئذٍ بيموند في ملك انطاكية.

ومما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك إنّ ريموند دي بواتيا أمير أنطاكية هاجم نور الدين بن زنكي على غير رويّة لأنّ الشجاعة به كانت تتصل إلى الجسارة والتهوّر وأصلى الحرب وليس معه إلا قليل من الفرسان ينتظر وصول باقي العسكر، فقتل في هذه الحرب وترك أرملة وابنين وبنتين، فعني ايميريكس بطريرك انطاكية اللاتيني بالذبّ عن البلاد وأتى ملك أورشليم لنجدة أهل انطاكية، وأوقف تمادي نور الدين وسلطان قونية السلجوقي عن مدّ سلطتها في بلاد الفرنج.

ومما رواه المؤرخون المسلمون في تاريخ سنة ٥٤٩هـ سنة ١١٥٥م أنّ نور الدين محمود بن زنكي أخذ دمشق من صاحبها حينئذ مجير الدين انز بن محمد بن نوري بن طغتكين، وكان سبب حرصه على ملكها أنّ الفرنج لما ملكوا عسقلان في السنة السالفة لم يكن لنور الدين طريق لإزاحتهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان، وقويت شوكة الفرنج بعد ملكهم عسقلان حتى استعرضوا كل مملوك وجارية من النصارى بدمشق. فمن أراد المقام بها تركوه ومن أراد العود إلى وطنه أخذوه قهراً شاء صاحبه أم أبى، وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة يأخذونها منهم فكان رسلهم يدخلون البلد ويأخذونها منهم. فلما رأى نور الدين ذلك خاف بأن يملكها الفرنج فلا يبقى للمسلمين بالشام مقام فراسل نور الدين مجير الدين واستماله وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتى وثق إليه، وكاتب مَنْ بها من الأحداث واستمالهم فوعدوه أن يسلّموا المدينة إليه. وسار نور الدين إلى دمشق، فأرسل مجير الدين إلى الفرنج يبذل لهم الأموال، وتسليم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه

ويُرحّلوا نور الدين عنه، فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم ليرحّلوا نور الدين عن دمشق. فقبل أن يجتمع لهم ما يريدون تسلّم نور الدين البلد فعادوا بخفّي حنين، لأنه لما حاصر نور الدين دمشق ثار الأحداث الذين راسلهم وسلّموا البلد إليه، ودخل من الباب الشرقي وحصر مجير الدين في القلعة وراسله في تسليمها وبذل له أقطاعاً في جملته مدينة حمص، فسلّم القلعة إليه وسارا إلى حمص فأعطاه عوض حمص بالس فلم يرضها مجير الدين، وسار عنها إلى العراق وأقام ببغداد وابتنى بها داراً (عن الكامل لابن الأثير).

وفي سنة ٥٥٢هـ وهي سنة ١١٥٨م كان بسورية زلازل كثيرة شديدة خرّبت كثيراً من البلاد وهلك فيها ما لا يحصى فخرب منها بالمرة حماة وشيزر وكفرطاب والمعرة وافاميا وحمص وحصن الأكراد وعرقا واللاذقية وطرابلس وانطاكية، وخربت أماكن كثيرة في باقي البلاد وتهدّمت أسوار وقلاع. ومما حكاه ابن الأثير في وصف هذا الخراب قوله كان بمدينة حماة معلم للأولاد وذكر أنه فارق المكتب وجاءت الزلزلة فخربت البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

وفي سنة ١١٦٢م سار بودوين الثالث ملك أورشليم إلى جهات انطاكية فأصابته حمّى شديدة فحملوه إلى طرابلس ثم إلى بيروت فتوفي بها في ١٣ من شهر شباط وأخذت جثته إلى أورشليم فدفنت في مدفن أسلافه الملوك وحزن عليه الفرنج كثيراً لأنه كان عادلاً حليماً شجاعاً صبوراً على الأتعاب، ورعاً مكرّماً لخدمة الدين محبّاً لمنادمتهم، ولم يكن له ولد فخلفه أخوه أموري.

عد ٨٣٢

اموري الاول وما كان في ايامه

بعد وفاة بودوين الثاني اختير للملك في أورشليم أخوه أموري ويسمّى الماريك أيضاً، وتوّج في ١٨ من شهر شباط سنة ١١٦٢. وقد أثنى غوليلمس أسقف صور في تاريخه على كثير من مناقبه وفضائله ولم يغض على ذكر بعض معائبه ونقائصه. ومن الأحداث في أيامه أنه في سنة ٥٥٨هـ وهي سنة ١١٦٤م قصد نور

الدين بن زنكي طرابلس ونزل في البقيعة تحت حصن الأكراد فكبسه الفرنج فانهزم منهم إلى بحيرة حمص وتلاحق به مَنْ سلم من المسلمين، وكان هرب إليه شاور وزير العاضد لدين الله الخليفة العلوي واستنجده ليعود إلى وزارته، وبذل لنور الدين ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده إلى الوزارة، فأرسل نور الدين شيركوه بن شاذي أحد أمرائه ومعه عسكر من سورية وشاور المذكور إلى الديار المصرية فقتلوا ضرغام الذي كان قد تغلّب على الوزارة بمصر بعد انهزام شاور، وأعادوا شاور إلى الوزارة. ثم غدر شاور بنور الدين ولم يَفِ له بشيء مما وعد، فأعاد شيركوه إلى مصر واستولى على بلبيس والمشرقية فاستنجد شاور بملك الإفرنج على إخراج شيركوه من البلاد، فأرسل الملك أموري عسكراً من الفرنج إلى مصر واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ودام الحصار ثلاثة أشهر. وحاصر نور الدين حارم وهي بيد الفرنج، وأخذ وقتل وأسر من الفرنج وكان في جملة الأسرى البرنس صاحب انطاكية والكونت صاحب طرابلس. ولما بلغت هذه الأخبار الفرنج وهم محاصرون بلبيس راسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له فخرج من بلبيس بمن معه وعادوا إلى سورية. ورجع الفرنج أيضاً ثم سار نور الدين إلى بانياس وفتحها وكانت بيد الفرنج من سنة ١١٤٩م إلى هذه السنة. وفي سنة ١١٦٦م فتح نور الدين حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الفرنج. وفي سنة ١١٦٨م جهّز نور الدين عسكره وسيّره إلى مصر مع شيركوه فاستولى على بعض أعمالها وأرسل شاور المذكور يستنجد الفرنج فساروا في أثر شيركوه إلى جهة الصعيد والتقوا على بلد يسمّى إيوان فانهزم الفرنج والمصريون، واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلّها ثم سار إلى الإسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب. وعاد شيركوه إلى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والفرنج وحصروا صلاح الدين بالإسكندرية مدة ثلاثة أشهر فسار شيركوه إليهم فاتفقوا على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلّم إليهم الإسكندرية ويعود إلى الشام. فتسلّم المصريون الإسكندرية وعاد شيركوه بابن أخيه صلاح الدين المذكور وعسكره، واستقرّ الصلح بين الفرنج والمصريين على أن يكون للفرنج بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة ماية ألف دينار. وفي السنة المذكورة فتح نور الدين صافيتا والمغربية ويروى العربية.

وفي سنة ١١٦٩م سار شيركوه بعسكر إلى مصر وسبب ذلك تمكّن الفرنج من

البلاد المصرية وتحكّمهم على المسلمين بها حتى ملكوا بلبيس قهراً ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم ونزلوا على القاهرة وحاصروها، فأحرق شاور مدينة مصر القديمة خوفاً من أن يملكها الفرنج، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً، فأرسل العاضد الخليفة الأموي إلى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم، وحمل إليهم ماية ألف دينار، وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال، فرحلوا وجهّز نور الدين العسكر مع شيركوه وأنفق فيهم المال وأعطى شيركوه ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه. أحبّ نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب الملك من بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه. «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم». ولما قرب شيركوه من مصر رحل الفرنج إلى بلادهم واجتمع شيركوه بالعاضد الخليفة فخلع عليه وأجرى عليه وعلى عسكره الإقامات الوافرة. وشرع شاور يماطل شيركوه في إنجاز ما وعد من المال لنور الدين وإفراد ثلث البلاد له. وعزم شاور على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمراء عسكره ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل من ذلك وعزم عسكر نور الدين على الفتك بشاور واتفق على ذلك صلاح الدين وغيره من الأمراء فنهاهم عن ذلك شيركوه واتفق أنّ شاور قصد شيركوه ليزوره على عادته فلم يجده بل لقي صلاح الدين فوثب صلاح الدين ومَنْ معه على شاور وألقوه إلى الأرض عن فرسه وأمسكوه وهرب أصحابه. وسمع العاضد الخليفة بذلك فأرسل يطلب من شيركوه إنفاذ رأس شاور فقتله وأرسل رأسه إلى العاضد. ودخل شيركوه بعد ذلك القصر فخلع عليه العاضد خلعة الوزارة ولقّبه الملك المنصور أمير الجيوش وقتل شيركوه بعد ذلك الكامل بن شاور واستتب له الأمر.

على أنّ شيركوه لم يَلِ الوزارة إلا شهرين وخمسة أيام وأتاه أجله فأحضر العاضد صلاح الدين وولّاه الوزارة وسمّاه الملك الناصر، وثبّت قدم صلاح الدين على أنه نائب لنور الدين، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله فأرسلهم نور الدين إليه وأعطاهم صلاح الدين الإقطاعات بمصر، وتمكّن بالبلاد وضعف أمر الخليفة العاضد. وفي سنة ١١٧٠م سار الفرنج إلى دمياط وحاصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وخرج نور الدين وغار

على بلاد الفرنج فاضطروا أن يرجعوا على أعقابهم ولم يظفروا بشيء. وفي سنة ١١٧٢م أمر نور الدين صلاح الدين أن يقطع الخطبة العلوية ويخطب للخليفة العباسي فقطعها صلاح الدين وخطبوا للمستضيء بالله العباسي، ثم توفي العاضد العلوي فاستولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر وأخرج جميع مَنْ فيه من عبد وأمة فانقرضت بالعاضد دولة العلويين الفاطميين بعد أن قام منهم أربعة عشر خليفة، وكان ابتداء خلافتهم سنة ٢٩٦هـ سنة ٩٠٩م إلى أن انقرضت دولتهم سنة ٥٦٧هـ سنة ١١٧٢م فمدة خلافتهم ٢٧١ قمرية و ٢٦٣ شمسية. وسبحان من لا يتغير ولا يزول.

أما صلاح الدين الأيوبي فالأظهر والأصح ما قاله فيه المؤرخون المسلمون. قال ابن الأثير إنّ شيركوه وأيوب ابني شاذي أصلهما من الأكراد الروادية وقصدا العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد، وكان أيوب أكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظاً لقلعة تكريت. ولما انكسر عماد الدين زنكي خدمه أيوب وشيركوه فأحسن إليهما وأعطاهما إقطاعات جليلة. ولما ملك زنكي قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظاً لها، ولما حاصره عسكر دمشق بعد موت زنكي سلّم القلعة إليهم على إقطاع كبير شرطوه له، وبقي أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق وبقي شيركوه مع نور الدين بن زنكي وأرسله إلى مصر مرات إلى أن تسلّم وزارتها، وكان ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب معه ثم خلفه بعد موته كما رأيت.

وبعد خلافة صلاح الدين لعمّه شيركوه وموت العاضد وقطع الخطبة للعلويين والخطبة للمستضيء من العباسيين وإرسال الخليفة العباسي الخلع لصلاح الدين والأعلام السوداء شعار العباسيين، أظهر صلاح الدين الامتثال لنور الدين وأنه يلي مصر من قبله، ولكن وقعت بينهما وحشة باطنة، فإنّ صلاح الدين ساعد ونازل الشوبك وهي للفرنج، ثم رحل عنها خوفاً من أن يأخذها فلا يبقى ما يعوق نور الدين عن قصد مصر وبلغ ذلك نور الدين فكتمه وتوحّش باطنه لصلاح الدين وجمع صلاح الدين أقاربه وكبراء دولته وقال بلغني أنّ نور الدين يقصدنا فما الرأي؟ فقال عمر ابن أخيه نقاتله ونقصده. فأنكر أيوب أبوه ذلك وقال أنا أبوكم لو رأيت نور الدين نزلت وقبّلت الأرض بين يديه، بل أكتب إلى نور الدين لو

جاءَني من عندك إنسان واحد وربط المنديل في عنقي وجرَّني إليك سارعت إلى ذلك. وأخذ صلاح الدين خلوة وقال له لو قصدنا نور الدين أنا كنت أول مَنْ يمنعه، ولكن إذا أظهرنا نحن كذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندري ما تكون العاقبة، وإذا أظهرنا له الطاعة تمادى الوقت بما يحصل ما به الكفاية عند الله فكان كما قال أيوب.

وفي سنة ٥٦٨هـ سنة ١١٧٣م سار صلاح الدين من مصر إلى الكرك وحصرها وكان قد واعد نور الدين أن يجتمعا عليها، وسار نور الدين من دمشق حتى وصل إلى الرقيم وهو بالقرب من الكرك وخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين فرحل عن الكرك وأرسل تحفاً إلى نور الدين، واعتذر أنّ أباه مريض ويخشى أن يموت فتذهب مصر، فعلم نور الدين مقصده وقبل عذره في الظاهر. وكان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين واتفق رأيهم على أخذ مملكة غير مصر حتى إذا هزمهم نور الدين عن مصر التجأوا إلى تلك المملكة، فجهّز صلاح الدين أخاه توران شاه إلى اليمن فاستولى عليها واستقرت في ملك صلاح الدين. وثار عليه بعض أعيان مصر فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم. واتفق أن قد توفي نور الدين هذه السنة بدمشق وكان قد شرع يتجهّز للدخول إلى مصر وأخذها من صلاح الدين، فأتاه أمر الله الذي لا مردّ له وهو الذي بنى أسوار مدن الشام مثل دمشق وحمص وحماه وحلب وشيزر وبعلبك وغيرها لما تهدّمت بالزلازل، وقام بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل وعمره إحدى عشرة سنة وتولّى تدبير الملك الأمير شمس الدين محمد المعروف بابن المقدم، وأظهر صلاح الدين الطاعة له. انتهى مأخوذاً عن أبي الفداء في تاريخ السنين المذكورة.

وبعد موت نور الدين قلق أصحاب الإقطاعات بسورية وهمّ كل منهم أن يستبدّ بعمله ويزيده ما أمكن، فراسلوا الإفرنج وعقدوا معهم عهدات على أن يفوهم جزية إن حاربوا صلاح الدين. وحارب أموري ملك أورشليم بانياس التي كان نور الدين قد أخذها فاسترضاه الأمراء المتولّون دمشق بمال وبإطلاق بعض الأسرى النصارى فعاد إلى أورشليم وبعد أيام توفي بها في ١١ تموز سنة ١١٧٣م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عد ٨٣٣

بودوين الرابع وبعض ما كان في أيامه

وبعد وفاة أموري ملك أورشليم قام بالملك بعده في ١٥ تموز سنة ١١٧٣م ابنه وسمّي بودوين الرابع ولم يكن عمره وقتئذ إلا ثلاث عشرة سنة، وقال فيه غوليلمس أسقف صور الذي كان أبوه قد عهد إليه في تربيته وتثقيفه أنه كان منذ صغره يعشق المعالي والحق والعدل، على أنه اعتراه البرص ثم العمى فلم يدبّر الملك بنفسه واختلف في مَنْ يدبّر الملك، فاختار بعضهم مليون دي بلانسي والي ناحية من بلاد العرب، واختار غيرهم ريموند أحد أحفاد ريموند دي سان جيل كونت طرابلس، فتغلّب هذا وسلّم إليه تدبير شؤون المملكة. وكان الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صغيراً أيضاً مقيماً في دمشق يتنازع كثير من الأمراء في حاشيته تدبير مملكته، واتفق أنّ شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل يستدعي الملك الصالح بن نور الدين إلى حلب ليكون مقامه بها، فسار إليها وأخذ سعد الدين كمشتكين مدبراً لملكه. فلما تمكّن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية وعلى غيره من أعيان حلب واستبدّ بتدبير الملك فخافه ابن المقدم الذي كان يدبّر الملك في دمشق واتفق مع غيره من الأمراء بدمشق وكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليملك عليهم، فسار من مصر في سبع مئة فارس. ولما بلغ إلى دمشق خرج كل مَنْ كان فيها من العسكر والتقوه ونزل بدار والده أيوب المعروفة بدار العقيقي، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فاستماله صلاح الدين فسلّم القلعة إليه، فصعد إليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال. وبعد أن قرّر أمر دمشق واستخلف فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين سار إلى حمص فملكها وعصت عليه القلعة، فترك حولها مَنْ يضيّق عليها ورحل إلى حماه فملكها، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك فامتنع في القلعة فأرسل صلاح الدين يقول له إنّ لا غرض له سوى حفظ البلاد للملك الصالح بن نور الدين وإنما هو نائبه ويريد إرسال جرديك في رسالة له إلى حلب. وسار جرديك بتلك الرسالة إلى حلب واستخلف أخاه في قلعة حماه. فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين مدبّر الملك وسجنه. وعلم أخوه بذلك فسلّم القلعة إلى صلاح الدين، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح، فاجتمع أهل حلب

وقاتلوا صلاح الدين وصدّوه عن المدينة، وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدّم الإسماعيلية أموالاً ليقتلوا صلاح الدين فقتلوا دونه. واستمرّ صلاح الدين محاصراً لحلب إلى أن نزل الفرنج على حمص فسار إليها ورحل الفرنج عنها وملك حينئذ قلعتها التي كانت قد عصت عليه أولاً، وسار إلى بعلبك فملكها وأرسل الملك الصالح من حلب إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين، فجهّز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، فوصل هذا الجيش إلى حلب وانضمّ إليهم عسكر حلب وقصدوا صلاح الدين، فأرسل هو يبذل حمص وحماه وأن تقرّ بيده دمشق وأن يكون فيها نائباً للملك الصالح فلم يجيبوه إلى ذلك، وساروا إلى قتاله واقتتلوا عند قرون حماه فانهزم عسكر الموصل وحلب وغنم عسكر صلاح الدين أموالهم وتبعوهم حتى حصروهم في حلب، وقطع حينئذٍ صلاح الدين خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة واستبدّ بالسلطنة، فراسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام وللملك الصالح ما بقي بيده منه، فصالحهم على ذلك ورحل عن حلب سنة ٥٧٨هـ سنة ١١٧٥م. انتهى ملخّصاً عن تاريخ أبي الفداء (مجلد ٣ صفحة ٥٩ وما يليها).

وما ذكره المؤرخون الفرنج في هذه الأثناء أنّ الفرنج غزوا الأعمال الواقعة وراء لبنان بإمرة كونت طرابلس والملك بودوين، واتصلوا في الغزوة الأولى إلى داريا على خمسة أميال من دمشق، ثم غزوا ثانية من صيدا فدخلوا البقاع وبلغوا إلى بعلبك التي سمّاها غوليلمس الصوري في تاريخه اميكارا وهو غلط. وقد التبس عليه اسم بعلبك باسم تدمر وعادوا إلى صيدا غانمين وكانوا يقصدون بهذه الغزوات إيقاف نجاح صلاح الدين الذي كان يتولّى على حمص وحماه ويحاول فتح حلب أيضاً كما رأيت ويعنى بتشييد أركان دولة الأيوبيين.

وفي سنة ٥٧١هـ سنة ١١٧٦م كانت وقعة بين صلاح الدين وسيف الدين غازي المذكور بتل السلطان، وكان مع سيف الدولة صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما، فانهزم سيف الدولة ومَنْ معه مرعوبين واستولى صلاح الدين على أثقال عسكرهم وسار إلى بزاعة فحاصرها وتسلّمها، وإلى منبج فحاصرها وفتحها عنوة، وكان فيها نيال بن حسان المنبجي فأسره ثم أطلقه ثم سار صلاح الدين إلى اعراز فتسلّمها ووثب عليه إسماعيليّ فضربه بسكين في رأسه فجرحه، فأمسك

صلاح الدين يدي الإسماعيليّ وبقي يضرب بالسكين فلا تؤثر حتى قتل الإسماعيليّ ووثب آخر عليه فقتل أيضاً. ولما ملك اعزاز رحل عنها إلى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين، وسأله أخيراً أهل حلب في الصلح فأجابهم إليه وأخرجوا إليه بنتاً صغيرة لنور الدين أخت الملك الصالح، فأكرمها صلاح الدين وأعطاها شيئاً كثيراً وقال لها ما تريدين؟ فقالت: أريد قلعة اغراز وكانوا قد علّموها ذلك فسلّمها إليهم سنة ١١٧٧، واستقرّ الصلح بين صلاح الدين وبين الملك الصالح وسيف الدولة صَاحب الموصل وصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين، وتحالفوا على أن يكونوا كلّهم عوناً على الناكث الغادر. ورحل صلاح الدين عن حلب وقصد بلد الإسماعيلية فنهبه وخرّبه وأحرقه وحاصر قلعة مصياف، فأرسل سنان مقدّم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين يسأله أن يسعى في الصلح، فسأل صلاح الدين الصفح عنهم فصالحهم ورحل عنهم وعاد إلى مصر بعد أن استقرّ له ملك الشام، وأمر ببناء السور الدائري على مصر القاهرة والقلعة التي على جبل المقطم، ولم يزل العمل بهذا السور إلى أن مات صلاح الدين. (انتهى ملخّصاً عن ابن الأثير وأبي الفداء في تاريخ هذه السنين).

لما عاد صلاح الدين إلى مصر غزا الفرنج بعض الأعمال في ناحية انطاكية وعلم صلاح الدين بتوجيه عسكرهم إلى تلك الناحية فاغتنم الفرصة ليسطو عليهم في فلسطين. وإليك ما قاله المؤرخان المذكوران في هذه الحملة: «في سنة ٥٧٣هـ سنة ١١٧٨م سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى ساحل الشام لغزو الفرنج ووصل إلى عسقلان فنهب وتفرّق عسكره في الإغارات، وبقي السلطان في بعض العسكر فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعوا عليه فقاتلهم أشد القتال. وكان لتقي الدين ابن أخي صلاح الدين ولد اسمه أحمد من أحسن الشباب فأمره أبوه بأن يحمل على الفرنج فحمل عليهم وقاتلهم وأثّر فيهم أثراً كثيراً وعاد سالماً. وأمره أبوه بالعود إليهم ثانية فحمل عليهم فقتل وتمت الهزيمة على المسلمين. وقاربت حملات الفرنج السلطان فمضى منهزماً إلى مصر في البرية ومعه مَنْ سلّم، فلقيوا في طريقهم مشقّة وعطشاً شديداً وهلك كثير من الدواب. وأخذ الفرنج مَنْ كانوا متفرّقين في الإغارات أسرى أو قتلوهم». قال ابن الأثير رأيت كتاباً بخطّ يد صلاح الدين إلى أخيه توران شاه نائبه بدمشق يذكر له هذه الوقعة وفي أوله:

ذكرتك والخطّي[1] يخطر بيننا وقد نهلت[2] منا المثقفة[3] السمرُ

ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرّة وما نجانا الله منه إلا لأمر يريده سبحانه وتعالى. وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر.

وقال المؤرخون الفرنج في ذلك: «سار صلاح الدين إلى فلسطين ولما علم ملك أورشليم بذلك سار في مَنْ تيسّر له جمعه من الفرسان إلى عسقلان وبلغ صلاح الدين إليهاوخيّم في جوارها، ورأى عسكر المسلمين أنّ النصارى محاصرون في المدينة فتفرّقوا للإغارات والغنيمة في السهول، فأحرقوا الرملة وخرّبوا عمل اللد وانهزم الأهلون وعظم الرعب في جبل اليهودية حتى أورشليم، فخرج المحاربون النصارى وقصدوا عسقلان وتلال الرمل تحجب عنهم النظر حتى أشرفوا على المحل المخيّم به صلاح الدين واندفعوا للقتال. فاستدعى صلاح الدين عسكره المشتّت وهيّج مَنْ كان معه على القتال وكان بودوين الملك في طليعة جنده وأمامه خشبة الصليب ولم يكن معه إلا ثلاثمائة وخمسة وسبعون فارساً، فصبر المصريون على القتال وقتل كثيرون من مماليك صلاح الدين وحاشيته وتمّت الهزيمة على صلاح الدين وذويه، فتتبّع الفرنج أثرهم إلى جبل جرار وكان المصريون يلقون في الطريق دروعهم وخوذهم وضايقهم الجوع والعطش، فمات كثيرون منهم وغنم الإفرنج ما كان في معسكرهم من أثقال وسلاح وخيل وجمال وأسروا كثيرين ممن كانوا متفرقين وقتلوا كثيرين وانهزم صلاح الدين راكباً هجيناً إلى مصر». وعزا أبو الفرج بن العبري في تاريخه السرياني انغلاب المصريين إلى ريح عاصفة هبّت في وجوههم وأثارت الرمل على عيونهم. (انتهى ملخّصاً عن غوليلمس الصوري في تاريخ الحرب كتاب ٢٠ وبرنردس الخازن في مكتبة الصليبيين وغيرهما).

عد ٨٣٤

حروب وأحداث أخرى في أيام بودوين الرابع

بعد أن عاد صلاح الدين مدحوراً إلى مصر تقوّى الفرنج وساروا من جهة انطاكية وحاصروا مدينة حماة، وكان توران شاه أخو صلاح الدين ينوب عنه في

(١) الرمح (٢) شربت (٣) الرماح أيضاً.

دمشق وليس عنده كثير من العسكر وكان كثير الانهماك في اللذات مائلاً إلى الراحات ، وكان بحماه شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين لكنه كان مريضاً وشدّ الفرنج الحصار على هذه المدينة وكادوا يملكونها قهراً، ولكن جدَّ المسلمون في القتال وأخرجوا الفرنج إلى ظاهر السور وأقاموا كذلك أربعة أيام ثم رحلوا عن حماه إلى حارم وحاصروها أربعة أشهر فأرسل إليهم الملك الصالح صاحب حلب مالاً فصالحوه ورحلوا عن حارم، فأرسل إليها الملك الصالح عسكراً فسلّمها أهلها إليه وكانت لصلاح الدين، واستناب بها مملوكاً لأبيه اسمه سرخك.

وفي سنة ٥٧٤هـ سنة ١١٧٩م طلب توران شاه من أخيه السلطان صلاح الدين بعلبك وكان السلطان قد أعطاها لابن المقدم لما سلّمه دمشق كما مرّ، فأرسل إلى ابن المقدم ليسلّم بعلبك إلى أخيه، فعصا بها فأرسل السلطان وحاصره ببعلبك وطال الحصار إلى أن أجاب ابن المقدم إلى تسليمها بعوض، فعوَّضه السلطان عنها. هذا ما رواه أبو الفداء ولم نر من ذكر العوض الذي ناله ابن المقدم عن بعلبك.

وفي السنة المذكورة سيَّر السلطان صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر إلى حماه وابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص وأمرهما بحفظ بلادهما فاستقرّ كل منهما ببلده. وفي سنة ٥٧٥هـ سنة ١١٨٠م سار صلاح الدين إلى الشام وفتح حصناً كان الفرنج قد بنوه عند مخاضة الأحران وفي نسخة الأجران وفي الكامل الأخران بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب. وفي ذلك يقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي:

أتسكن أوطان النبيين عصبة　　تمين لدى إيمانها وهي تخلفُ

نصحتكم والنصح للدين واجبٌ　　ذروا بيت يعقوب فقد جاءَ يوسفُ

يريد صلاح الدين الذي هو يوسف ابن أيوب. هذا ما رواه أبو الفداء. وروى ابن الأثير الخبر بأكثر تفصيل فقال ما ملخّصه: سار صلاح الدين من دمشق إلى بانياس وبثّ الغارات على بلاد الفرنج، ثم سار إلى الحصن وحاصره ليخبره ثم يعود إليه عند اجتماع العساكر، فقاتل مَنْ به من الفرنج ثم عاد عنه إلى بانياس وخيله متكبّراً، وعاد صلاح الدين فأخذ الحصن ودكّه إلى الأرض. (انتهى ملخّصاً عن تاريخ غوليلمس أسقف صور كتاب ٢١).

وفي سنة ٥٧٧هـ سنة ١١٨٢م توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بحلب وعمره نحو تسع عشرة سنة بمرض القولنج، ولما اشتدّ عليه وصف له الأطباء الخمر فمات ولم يستعمله. وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل فسار إليها، وبعد أن استقرّ في ملكها كاتبه أخوه عماد الدين صاحب سنجار في أن يعطيه حلب ويأخذ سنجار فأجابه إلى ذلك فسار، عماد الدين إلى حلب وتسلّمها وسلّم سنجار إلى أخيه عز الدين.

وفي سنة ٥٧٨هـ سنة ١١٨٣م سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الشام ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة وخرج الأعيان لوداعه وكان كل منهم يقول شيئاً في الوداع وفراقه أنشده معلم بعض أولاده قول الشاعر:

تمتّع من شميم عرار[1] نجد ... فما بعد العشيّة من عرار

فتطيّر صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه لأنّ ذلك يُشعِر بأنه لا يعود إلى مصر وكان كذلك مع طول مدة حياته. وأغار صلاح الدين في طريقه على بلاد الفرنج وغنم واجتمع الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهز فرخشاه ابن أخيه ونائبه بدمشق الفرصة وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتحه وأغار على ما يجاوره من بلاد الفرنج وارسل يبشّر عمه السلطان بذلك.

وفي السنة المذكورة سار صلاح الدين من دمشق ونزل قرب طبرية وشنّ الإغارة على بلاد الفرنج مثل بانياس وجنين والغور فغنم وقتل. روى ذلك أبو الفداء. وقال ابن الأثير: «وجاءَ الفرنج ونزلوا بطبرية فسيّر صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه إلى بيسان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وأغار على الغور فأفعم أهله قتلاً وأسراً وقواته تغير على بلاد العدو، وأرسل جماعة من عسكره مع جالبيّ الميرة فلم تشعر إلا والفرنج مع ملكهم خرجوا عليهم. وعلم صلاح الدين فسار في العساكر مجدّاً حتى وافاهم وهم في القتال، فقاتل الفرنج قتالاً شديداً وكادوا يزيلون المسلمين عن مواقفهم، ولكن تغلّب المسلمون في آخر الأمر وقتلوا من الفرنج مقتلة كثيرة وأسروا كثيرين، منهم: ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلاً بعد الملك، ثم صاحب جبيل، وصاحب طبرية وغيرهم من كبار فرسانهم، ونجا

---

(١) بهار طيب الرائحة وقيل هو النرجس.

ملكهم. وروي أنّ هذه الوقعة كانت في مَرج عيون. ثم عاد صلاح الدين من محل المعركة وتجهّز لمحاصرة الحصن ونادى بالزحف إليه والجدّ في قتاله، فزحفوا واشتدّ القتال وكان الفرنج قد اجتمعوا بطبرية فألحّ المسلمون في قتال الحصن خوفاً من وصول الفرنج إليهم وأدركهم الليل فناموا في حياله. فلما كانَ الغد نقبوا الحصن وعمّقوا النقب وأشعلوا النار فيه ليسقط فلم يسقط لأنه كان عريضاً تسعة أذرع. وعاد النقابون فخرقوا السور وألقوا النار فيه فسقط ودخل المسلمون الحصن وأسروا كل مَنْ فيه وأطلقوا مَنْ كان به من أسرى المسلمين. وقتل صلاح الدين كثيرين من أسرى الفرنج وأدخل الباقين إلى دمشق، ولم يبرح صلاح الدين الحصن حتى هدم وعفا أثره وألحقه بالأرض.

والذي رواه المؤرخون الفرنج أنّ الملك بودوين بنى سنة ١١٧٨ حصناً على ضفة الأردن في المحل المسمّى معبر يعقوب ليصدّ غزوات العرب وغارات الأعداء، وقد سمّي هذا المحل بهذا الاسم لأنه يظنّ أنّ يعقوب عبر الأردن منه بعد عوده من ما بين النهرين، وسلم الملك هذا الحصن إل فرسان الهيكل. وحاصر صلاح الدين الحصن الحديث وأغار في مدة الحصار في فريق من عسكره إلى نواحي صيدا فكان هناك قتال شديد، فظهر المسلمون على الفرنج وقتلوا وأسروا كثيرين منهم: اودون دي سان امان رئيس فرسان الهيكل، وكان رجلاً شريراً وجاءت العرب فأغارت على جنين واللجون، وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا، وسار الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب (كوكبة). فتقدّم صلاح الدين إليهم وأرسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب، فلم يبرحوا ولم يتحرّكوا لقتاله فأمر ابني أخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الفرنج في مَنْ معهما، فقاتلوا قتالاً شديداً وانحاز الفرنج إلى حاميتهم، فلما رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم إلى دمشق.

وكان صلاح الدين قد أمر الأسطول المصري بالمجيء إلى بيروت فساروا إليها ونازلوها وأغاروا عليها وعلى بلدها، ووافاهم صلاح الدين ونهب ما لم يصل الأسطول إليه، وحاصرها عدة أيام وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها لكنه خاف اجتماع الفرنج عليه فتركها وعاد إلى دمشق.

ثم سار صلاح الدين نحو الجزيرة وعبر الفرات من البيرة فأخذ حران وحصن

كيفا والرها والرقة وقرقيسيا واستولى على الخابور جميعه وعلى نصيبين وحاصر الموصل، ولما رأى حصارها يطول رحل عنها إلى سنجار فملكها. وفي سنة ٥٧٩هـ سنة ١١٨٤م أخذ حصن آمد بعد حصار وقتال، ثم عاد إلى الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكه، ثم سار إلى عينتاب فحاصرها وملكها، ثم سار إلى حلب وبها صاحبها عماد الدين زنكي المارّ ذكره. وطال الحصار وكان أمراء حلب وعسكرها قد أكثروا من الاقتراحات عليه وقد ضجر من ذلك وكره حلب فسلّمها إلى السلطان صلاح الدين على شرط أن يعوّض عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقة وسروج، واتفقا على ذلك وسلّم حلب إلى صلاح الدين. وكان أهلها ينادون عليه يا حمار بعت حلب بسنجار، وشرط السلطان عليه أن يحضر بنفسه وعسكره إذا استدعاه ولا يحتجّ بحجّة وكان فتحه حلب في شهر صفر. ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة قال فيها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر ... مبشرٌ بفتوح القدس في رجب

فوافق فتوح القدس في رجب سنة ٥٨٣هـ سنة ١١٨٨م كما سترى. ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حارم وبها سرخك الذي كان الملك الصالح قد ولّاه إياها وجرت بينهمنا مراسلات فلم ينتظم بينهما حال. وكاتب سرخك الفرنج فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلّموا حارم إلى صلاح الدين وهو بعد أن قرّر أمور حلب وما جاورها وجعل في حلب ولده الملك الظاهر غازي عاد إلى دمشق ظافراً غانماً وقد دانت له مصر وبلاد العرب والجزيرة والقسم الأكبر من سورية، ولم يبقَ مَنْ يخالفه إلا الفرنج محصورين في وسط أملاكه وله أسطول في شواطىء مصر. (انتهى ملخّصاً عن ابن الأثير في الكامل وأبي الفداء في تاريخه).

عد ٨٣٥
سوء حال الفرنج في هذه المدة

قد عرفت مما مرّ ما آلت إليه حال السلطان صلاح الدين من العظمة والمهابة وانبساط ملكه واستفحال أمره. وأما الفرنج فكانوا حينئذٍ في أسوأ حال لأنّ الملك

بودوين الرابع كان مبلياً بالبرص وقد اشتدّ مرضه حتى لم يعد يستطيع حراكاً وأمسى أعمى وأصابته حمّى وهو بالناصرة واستمرّ متردّداً في التخلّي عن الملك، فاختار بحضرة أشراف مملكته والملكة أمه وهرقل بطريرك أورشليم كوي لوسنيان كونت يافا وعسقلان مدبّراً لملكه، وكان متزوّجاً بسبيلا بنت أخيه الملك أموري، وأبقى الملك لنفسه السلطة الملكية والحق على استيفاء عشرة آلاف ريال من ذهب، على أنّه رأى بعد مدة أنّ كوي ليس أهلاً لتدبير المملكة وقد أسخطه ببعض أعماله فخلعه من المنصب الذي كان قد عهد إليه به ورغب في أن لا يكون له أمل في الخلافة له بعد موته، فتخلّى عن الملك لابن أخته سيبيلا المذكورة وسمّاه بودوين الخامس، وتوّجه باحتفال. وكانت أخته المذكورة قد تزوّجت أولاً بالمركيز دي مونتي فراتا فرزقت منه هذا الولد، وتزوّجت ثانية بكوي دي لوسنيان، ولكن لم يكن عمر هذا الملك الحديث حينئذٍ إلا خمس سنين وكلّل في ٢٠ من شهر تشرين الثاني سنة ١١٨١م، فلم يثبت العقلاء خلع كوي لبقاء الملك دون مالك لعجز بودوين الرابع من قبل مرضه وصغر بودوين الخامس، فانزوى كوي دي لوسنيان في عسقلان وأبى الطاعة للملك جهاراً، وسمّى الملك ريموند كونت طرابلس مدبراً لملك ابن أخته.

وكان الملك يرى أنّ السلطان صلاح الدين يزداد كل يوم سلطة وعظمة وانبساطاً لملكه فأرسل إلى المغرب هرقل بطريرك أورشليم وأرنود رئيس الفرسان الهيكليين وروجه رئيس فرسان الاسبيتال (جماعة أو جمعية أسست للعناية بالحجاج والمرضى منهم) فمضوا أولاً إلى فارونا (بايطاليا) حيث كان الحبر الروماني البابا لوشيوس وفريدريك ملك المانيا فشرحوا مذرفين الدموع حالة النصارى الغربيين في سورية والتمسوا إمدادهم وإنجادهم برجال وأموال ليقووا على مناصبة أعدائهم، وقالوا إنّ القبر المقدس وغيره من الكنائس يحفّ بها الخطر، فرثى الملك لهم وأشفق عليهم ووعد بأنه عند عودته إلى المانيا يبذل قصارى جهده في إمدادهم ومساعدتهم. ودفع إليهم البابا رسائل توصية إلى ملكَي فرنسة وانكلترا، فمات رئيس الهيكليين في فارونا وسار البطريرك ورئيس الاسبيتاليين إلى فرنسة وبلغا إلى باريس في ١٥ كانون الثاني سنة ١١٨٥م فقبلهما رئيس أساقفة باريس بالترحاب والإجلال، ولما عرف الملك فيليب اغوسطس بقدومهما أبدى لهما صنوف التكريم وقدما له مفاتيح أورشليم وكنيسة القبر المقدس. وجمع الملك الأساقفة والأعيان في

باريس وأمر الأساقفة أن يعظوا في الكنائس محرّضين رعاياهم على السفر إلى أورشليم، وأمر عماله كذلك وأشار عليه أعوانه أن لا يسير بنفسه إلى أورشليم بل يرسل مالاً وفرساناً وجنوداً نجدة للصليبيين.

وسار البطريرك ورفيقه إلى انكلترا وبلغاها في أوائل شباط سنة ١١٨٥م فقبلهما الملك انريكس الثاني بالإكرام وقدّما له الراية الملكية ومفاتيح كنيسة القبر المقدس وبرج داود ومدينة أورشليم وسلّماه رسالة البابا حيث كان يبسّط له شرح الحال السيئة التي كانت وقتئذٍ في الأرض المقدسة. وذكر الوافد أنّ الملك بوعد كان قد أبرزه للحبر الروماني، وحَلَفَ على أن يسير إلى فلسطين وينجد الفرنج كفّارة عن سعيه بقتل توما أسقف كنتربَرَي، فوعد الملك بإمدادات عظيمة ولكنه اعتذر عن المضيّ بنفسه إلى فلسطين، وألحّ البطريرك عليه بالمسير حتى بكلام خشن جارح فبقي الملك يعتذر، فحنق البطريرك وهدّده بأنّ الله ينتقم منه. ورأى الملك قد استشاط فمدّ عنقه وقال للملك: اقتلني كما قتلت أخي توما، فخير لي أن تقتلني أنت في انكلترا من أن يقتلني المسلمون في سورية. ثم سكن جيش غضبهما واتفقا على أنّ الملك انريكس يسير إلى فرنسة. فيستشير فيليب ملك فرنسة وسار الملك بمعيّته إلى نرمنديا وسار ملك فرنسة إليها، وقد رأى الملكان أن يمدّا الصليبيين بمال ورجال على أنّ الذين ساروا من أوروبا إلى سورية لنجدة إخوانهم في هذه المرة كانوا قليلين. وعاد البطريرك هرقل إلى أورشليم حزيناً آسفاً على أنه لم يلق في الغرب حينئذٍ تلك الحميّة التي كانت لأهلها قبلاً في الذبّ عن الدين. وقد اغتمّ البابا لوشيوس لأنّ مسعاه لم يصادف النجاح الذي كان يأمله، فكتب إلى السلطان صلاح الدين رسالة يسأله بها أن يخلي سبيل الأسرى الذين في حوزته من النصارى. ولم تبقِ لنا الأيام رسالة البابا هذه ولكنها أبقت لنا جواب صلاح الدين للحبر الروماني ذكره رادولف دي ديشاتو في كتابه تاريخ العصور صفحة ٦٢١، وباجيوس في تاريخ سنة ١١٨٤م، وإليك ترجمة هذا الجواب عن الإفرنسية: «من الملك صلاح الدين أعظم ملوك المشرق إلى سيادة البابا رفعت إلينا رسالة قداستكم ونحن نعلم ونوقن أنّ لكم المحل الأول في هذا العالم ونعلم أنّ الله خوّلكم المجد والفخار لتكونوا في العظمة التي أنتم عليها، ونعرف أيضاً أنّ النصارى أجمعين يؤدونكم الطاعة ويهابونكم. وقد قدّم لنا هذه الرسالة سفيركم أوليفيه فيتال فأكرمناه وقابلناه في داخل قصرنا وأجبناه إلى كل ما طلبه حرمة لكم ولما لكم

عندنا من التوقير. وقد سررنا كثيراً بكل ما حوته رسالتكم وطلبه سفيركم من الصلح مع النصارى وتخلية سبيل الأسرى، فعلى الذين هم لكم مطيعون أن يرسلوا إلينا مَنْ كانوا من رعايانا أسرى عندهم، ونحن نرسل إليهم بكل طيبة خاطر مَنْ كانوا منهم أسرى عندنا وعظمتكم تعلم أنّ الأسرى الذين عندنا من النصارى هم من الأعيان والأشراف وجنودنا الذين أسرهم النصارى هم من عامّة الناس وسفلة القوم. فنحن نثمّن إن حسن لديكم الأسرى الذين عندنا والنصارى يثمّنون الأسرى الذين عندهم ومَنْ نقص له من الثمن يعوّض عنه بأسرى آخرين ويعلم الله أنه لما رأينا رسالتكم ووفود عظمتكم شملنا سرور لا مزيد عليه وحمدناه تعالى لذلك».

وكتب البابا أيضاً إلى أخي السلطان صلاح الدين فأجابه برسالة مؤرّخة في ٢٦ أيار سنة ١١٨٤م، ومما قاله فيها مترجماً عن الفرنسية: «قد علمت من كلام سفيركم أنكم ترغبون في المحافظة على المعاهدة التي عقدها الملك صلاح الدين مع سالفكم اسكندر ذي الذكر المقدس في شأن تخلية الأسرى بين النصارى والمسلمين. (يظهر من كلام الملك العادل أخي صلاح الدين أنه قد كانت معاهدة سابقة بين البابا اسكندر والسلطان صلاح الدين)، فإذا أراد النصارى الذين في أورشليم وملكهم وسكان بلاد صور أن يطيعوا أمركم مع جميع النصارى وأن يحافظوا بحسب إرادتكم على القرار الذي جرى بيننا على الصلح وتخلية سبيل الأسرى الذين في سجوننا فنعد نحن أيضاً بأن نتمّم كل ما ترغبون فيه لتوطيد هذا الصلح ونسأله تعالى أن يلهمهم ويلهمنا لنصنع بنعمته كل ما يكون عائداً لنفع النصارى والمسلمين آمين». ذكر هذه الرسالة أيضاً مَنْ ذكروا الرسالة الأولى.

إنّ الملك بودوين الرابع الأبرص توفّي سنة ١١٨٥م وترك خليفة له ابن أخته بودوين الخامس وعمره تسع سنين ولكن توفي سنة ١١٨٦م ودفن في كنيسة القبر المقدس وكان آخر ملك دفن فيها. فبعد وفاته جمع ريموند كونت طرابلس أعيان المملكة في نابلس وبقي البطريرك ورئيس الهيكليين فيٰ أورشليم وقالا لامرأة لوسينيان بنت الملك أموري أنهما يتوّجانها ملكة على رغم كل مخالف، وأرسلا يقولان للأعيان المجتمعين بنابلس أن يأتوا لتكليلها، فأبوا وأرسلوا للبطريرك أنهم لا يرضون أن تملّك عليهم امرأة. فأقفلوا أبواب المدينة، وسارت سيبيليا إلى كنيسة القبر المقدس فأخذ البطريرك من الخازن تاجين فوضع أحدهما على المذبح والآخر على رأس

سيبيليا ثم قال لها البطريرك: «مولاتي أنت امرأة فينبغي أن يكون معك رجل يدبّر شؤون المملكة فخذي هذا التاج وتوّجي به رجلاً أهلاً لتدبير المملكة، فأخذت التاج ودعت زوجها لوسينيان الواقف أمامها وقالت مولاي تقدّم إليَّ واقبل هذا التاج فإنني لا أرى أجدر منك به. فجثا أمامها فوضعت التاج على رأسه فنودي به ملكاً وبها ملكة. ولما بلغت هذه الأخبار إلى مسامع الأعيان المجتمعين بنابلس شقّ ذلك عليهم ولاسيما على بودوين كونت الرملة فقال خرب البلد فحرامٌ عليَّ أن أسكنه لئلا أُلام بخرابه وأنا فيه. فناشد ريموند كونت طرابلس كونت الرملة أن يشفق على النصارى وأن لا يبرح البلاد ليساعد الأعيان على نجاة المملكة من الأخطار المحدقة بها. وقال عندنا هنا همفروا دي تورون زوج ايزابال ابنة أموري الثانية فنسير إلى أورشليم بل هم يساعدوننا لأني عقدت هدنة معهم، فاتفق رأي الأعيان على ذلك، على أنّ همفروا أبى أن يكون ملكاً وتسارع إلى أورشليم فقال للملكة أؤثر راحتي وحياتي على تاج الملك، فاغتمَّ الأعيان. ولكن آثر السواد الأعظم منهم الإذعان للملك على خراب البلاد. وترك كونت الرملة عمله وسار إلى انطاكية وأقام فيها ومضى ريموند كونت طرابلس فأقام في طبرية التي له من جهة امرأته، واتفق مع صلاح الدين أن ينجده إذا مسّه لوسينيان بضرّ. فهذه كانت حال الفرنج وصلاح الدين واقف لهم بالمرصاد. (انتهى ملخّصاً عن كثيرين من مؤرّخيهم).

عد ٨٣٦
وقعة حطين الشهيرة

كان بين الفرنج وصلاح الدين هدنة كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وإليك ما كان بعدها على ما روى المؤرخون المسلمون، قالوا في سنة ٥٨٢هـ وهي سنة ١١٨٧م غدر البرنس صاحب الكرك وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرهم فأرسل السلطان صلاح الدين يطلب منه إطلاقهم بحكم الهدنة فلم يفعل، فنذر السلطان أنه إن أظفره الله به قتله بيده. وفي سنة ٥٨٣هـ سنة ١١٨٨م جمع السلطان عساكره وسار بفرقة منها وضايق الكرك خوفاً على الحجاج من صاحبها، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل فأغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية وغنموا شيئاً كثيراً. وسار السلطان ونزل على طبرية وحاصر مدينتها وفتحها عنوة

وتأخرت القلعة وكانت طبرية للقومص (الكونت) صاحب طرابلس، وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعته فأرسل الفرنج القسوس والبطريرك ينهونه عن موافقة السلطان ويوبّخونه، فصار معهم واجتمع الفرنج لملتقى السلطان فركب صلاح الدين من طبرية والتقى الجمعان في حطين واشتدّ بينهم القتال. ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على مَنْ قدامه من المسلمين وكان هناك تقي الدين صاحب حماه فأفرج له وعطف عليهم فنجا القومص ووصل إلى طرابلس وبقي مدة يسيرة ومات غبناً، وأحدق المسلمون بالفرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلاً وأسراً. وكان في جملة مَنْ أسر ملك الفرنج الكبير والبرنس ارنواط (ارنولد) صاحب الكرك وصاحب جبيل وجماعة من السبتارية (جماعة الاسبيتاليين) وما أصيب الفرنج من حين خرجوا إلى الشام إلى الآن بمصيبة مثل هذه الوقعة. ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته وأجلس ملك الفرنج إلى جانبه وكان الحرّ شديداً، فسقاه ماءً مثلّجاً فسقى ملك الفرنج منه البرنس ارنواط صاحب الكرك، فقال له السلطان هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني ووبّخ البرنس وقرعه على غدره وقصده الحرمين، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الفرنج فسكن السلطان جأشه وعاد إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان.

وهذا قاله المؤرخون الفرنج إنّ رانود دي شاتيليون والي الكرك كان قد غزا العربية قاصداً الحجاز ومكة المكرّمة فردّ عن غزواته. وفي سنة ١١٨٧م أخذ قافلة كانت سائرة من مصر إلى بلاد العرب وسجن المسافرين غير مبالٍ بالهدنة التي لم تكن قد انقضت مدتها. ولما علم صلاح الدين بذلك أرسل يسأله أن يطلق مَنْ أسرهم ويهدده بأن يعامل النصارى الذين يمرون بأرضه معاملته للمسلمين، فأبى رانود تخلية سبيل السجناء فحنق السلطان صلاح الدين وحلف على أن يبيد النصارى وأعلن انتقاض الهدنة، ونذر أن يقتل رانود بيده إن أظفره الله به. وجمع عساكره ودخل أرض النصارى في عسكر يزيد على خمسين ألف مقاتل وسارت فرقة من جيشه بإمرة أحد أولاده نحو الناصرة، فتسارع سكان القرى إلى الناصرة ينادون وصل المسلمون فهلمّوا للدفاع عن مدينتكم، فهبّ الفرسان الهيكليون والاسبيتاليون واجتمع مئة وثلاثون فارساً وثلاث أو أربع مئة راجل وصافوا عسكر المسلمين وكان نحواً من سبعة آلاف مقاتل. وقال مؤرّخو ذلك العصر إنّ هؤلاء الأبطال أبدوا في هذه الحرب آيات البسالة وأثنوا كثيراً على شجاعتهم وجهادهم.

وممن امتاز منهم مارشال من الهيكليين اسمه يعقوب ماليا كان راكباً جواداً أبيض فقتل أرفاقه وهو صابر يقاتل وحده بين جثثهم والنبال المصوَّبة إليه يتكسّر بعضها على بعض إلى أن وقع به جواده فقفز وسيفه بيده ودم جراحه يسيل، وهجم على صفوف الأعداء وما برح يقاتل إلى آخر نسمة من حياته حتى توهّم المسلمون أنه الخضر أي القديس جيورجيوس. وبعد مقتله كرَّموا جثّته وتبرَّكوا بأخذ فلذات من ثيابه وسلاحه، ولم ينجُ من هذه المعركة إلا رئيس الهيكليين وفارسان من فرسانه. وكانت هذه الوقعة اليوم الأول من أيار سنة ١١٨٨.

أما لوسينيان ملك أورشليم الذي يفكر أولاً بمحاربة ريموند كونت طرابلس فرأى من السداد أن يكتفي بتونيبه وأن يعوّل على رأيه، وعرف ذلك ريموند فأقسم على أنه نسي كل ما كان له من الإهانات وأتى إلى أورشليم، فخرج لوسينيان لملتقاه وأبدى له عواطف حبّه، فتعانقا على مشهد الشعب كله وتصافحا وتحالفا أن يقاتلا معاً إلى الممات.

وكان عسكر صلاح الدين يزداد كل يوم حتى صار معه في طبرية ثمانون ألف مقاتل وحاصر قلعة هذه المدينة وكانت فيها امرأة ريموند كونت طرابلس، واجتمع عسكر النصارى في الجليل في صحراء صفورية وصاروا نحواً من خمسين ألف مقاتل. وكان كونت طرابلس وطبرية من أملاكه يرى أن ترك طبرية لصلاح الدين خير من ما يعرّض عسكر النصارى للتهلكة في البرية الخشنة القاحلة الواقعة بين طبرية وصفورية. والأولى بالنصارى أن يصدموا المسلمين في هذه البرية وهم بعيدون عن الأزودة والماء من أن يعرّضوا نفوسهم للمخاطر بالخروج على المسلمين، فخالف بعضهم رأي ريموند هذا وأثبته الملك لوسينيان، ولكن ارتأى رئيس الهيكليين بأن لا يعمل برأي ريموند لأنه خائن وبأن يأمر العسكر بالمسير. فأمر وسار الجيش في الثالث من شهر تموز وبلغوا إلى معابر ضيّقة حجرة قبل أن يصلوا إلى بحر الجليل فالتقاهم المسلمون هناك والعطش أخذ منهم كل مأخذ والحر يصليهم، وكان كونت طرابلس في مقدمة الجيش فأرسل يقول للملك أن يسرع ليصل إلى شاطىء البحيرة، فوثب عسكر صلاح الدين بغتة على ساقة عسكر الفرنج فشتتوا الهيكليين والاسبيتاليين الذين كانوا يحرسون مؤخرة العسكر فلم يجسر الملك أن يتقدّم إلى ما قدم وما عاد يعلم ما يعمل، فأمر بضرب خيامه وسمعه الناس يقول ويلاه ويلاه خرب البلاد وأزف الأجل. ولم تبرح رحى الحرب دائرة إلى أن أسبل الليل ستاره

وألقى المسلمون النار في الهشيم المتراكم هناك، فصرف النصارى ليلهم معذّبين بالحر والدخان ورشق السهام والجوع والعطش. وفي الغد خرج صلاح الدين من طبرية وأوقد نار الحرب على النصارى وانحاز الرجالة من الفرنج إلى أكمة هناك بدلاً من أن يعضدوا الفرسان المجاهدين، وصبر الهيكليون والاسبيتاليون على القتال في ساقة الجيش ولكن كثر العدى عليهم وكانوا في كل ساعة يزيدون عدداً فدعوا الملك لنجدتهم، لكنه رأى أنّ الرجالة انقطع عليهم طريق العود إليه وأنه لم يبق حوله مَنْ يذبّ عنه، فأمر أن يرفعوا الخيام عساه أن يستطيع أن يوقف. وثوب الأعداء عليه، وترك كثيرون من الجنود صفوفهم واجتمعوا حول خشبة الصليب فتخلخلت الصفوف. ولما رأى كونت طرابلس ما حاق بالملك والفرسان والعسكر من سوء الحال والموقف رأى نفسه منفرداً والأعداء يحدقون به من كل جهة، فاخترق صفوفهم وفتح طريقاً بينهم عبر به مع طلائعه وما برحت النجدات تأتي المسلمين وأصاب سهم قاتل أسقف عكا الذي كان يحمل خشبة الصليب فترك الخشبة المقدسة إلى أسقف اللد ووثب فريق من المسلمين على الرجالة الذين كانوا قد انحازوا إلى الأكمة فلم يكن منهم غير قتيل أو أسير، ونجا باليان والي نابلس ومَنْ تمكّن من الانهزام واطئين الجثث، وتسارع عسكر المسلمين إلى المحل الذي كانت فيه خشبة الصليب وملك أورشليم فأخذوا هذه الخشبة المقدسة وأسروا أسقف اللد وكل مَنْ كان معه وقبضوا على الملك وغيره من الأعيان وقلَّ مَنْ سلم من الهيكليين والاسبتاليين من القتل أو الأسر. هذا ما رواه راول كوغسهال الذي كان شاهداً لهذه الحرب. وقد روى ابن الأثير أخبارها كما رويناها عن راول المذكور. وهذا ما قاله ابن الأثير في أخذ خشبة الصليب: «وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت ويذكرون أنّ فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عندهم وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك».

وفي الغداة أشخص صلاح الدين الفرسان الهيكليين والاسبتاليين الذين أخذوا أسرى فعفا عن رئيس الهيكليين لأنه برأيه عزم الفرنج على مهاجمة السلطان فكان هذا النصر له وكان حول صلاح الدين جماعة من الأمراء والفقهاء فأوعز إلى كل منهم أن يقتل فارساً من الفرسان الفرنج فأبى بعضهم تورّعاً وباقيهم أخذوا يقتلون أولئك الفرسان وهم مكبّلون بالأغلال، وقد أقبلوا على الموت بسرور وبشاشة بل

كان بعضهم يلحّون بإنزال العقاب بهم ويتسابقون على الموت. وفتح صلاح الدين قلعة طبرية بالأمان وأرسل امرأة ريموند كونت طرابلس إليه. (انتهى ملخّصاً عن كثيرين منهم ولاسيما ميثود وروهربخر).

عد ٨٣٧

ما فتحه صلاح الدين من بلاد الفرنج بعد وقعة حطين

هذا ما رواه المؤرخون المسلمون. لما فرغ صلاح الدين من طبرية سار إلى عكا وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع فعجب هو والناس من ذلك بعدما حلّ بالفرنج فصمّم صلاح الدين على الزحف ليفتح المدينة عنوةً إذ خرج كثير من أهلها يطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وخيّرهم بين الإقامة والظعن، فاختاروا الرحيل وساروا متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقي فغنمه المسلمون وكان من كثرته يعجز الإحصاء عنه لأنّ المدينة كانت مقصداً للتجار الفرنج والروم وغيرهم. وسلّم صلاح الدين البلدان إلى ولده الأفضل.

وفي مدة مقام السلطان بعكا تفرّق عسكره إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وأرسل تقي الدين ابن أخيه فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور، وسير حسام الدين عمر بن لاجين في عسكر إلى نابلس فأتى سبسيطية (السامرة) وبها قبر زكريا، فأخذه من أيدي النصارى وسلّمه إلى المسلمين، ووصل إلى نابلس فدخلها وحاصر قلعتها واستنزل مَنْ بها بالأمان وتسلّم القلعة.

وكتب إلى صلاح الدين ابن أخيه عن تبنين يقول إنّ أهلها امتنعوا عليه ويحثّه على الوصول إليه فسار إليه وحاصر المدينة وضايقها وهي من القلاع المنيعة على جبل. ولما اشتدّ الحصار أطلقوا مَنْ عندهم من الأسرى المسلمين فلم يرضَ السلطان ذلك وبقوا مصرّين إلى أن أرغموا على طلب الأمان فأمنهم ووفى لهم. وسار إلى صيدا واجتاز في طريقه إلى صرفند فأخذها صفواً عفواً بلا قتال. ولما سمع صاحب صيدا بمسيره نحوه رحل عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فتسلّمها صلاح الدين

ساعة وصوله إليها وسار عنها من يومه إلى بيروت وهي أحسن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها، ورأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد وقاتلوا على سورها قتالاً شديداً واغتروا بحصانة بلدهم. وبينما الفرنج يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة وأتاهم مَنْ أخبرهم أنّ المسلمين دخلوا المدينة من جهة أخرى فأرسلوا ينظرون ما الخبر وإذا ليس له صحة، وأرادوا تسكين مَنْ بالمدينة فلم يمكنهم ذلك وخافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع فأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم صلاح الدين على نفوسهم وأموالهم وتسلّم المدينة، وكانت مدة حصارها ثمانية أيام.

وأما جبيل فكان صاحبها من جملة الأسرى الذين سيروا إلى دمشق فتحدّث مع نائب صلاح الدين بدمشق في تسليم جبيل على شرط إطلاقه، وعرف بذلك صلاح الدين فأحضره مقيّداً عنده، ولما حضر سلّم إلى صلاح الدين حصنه وأطلق الأسرى المسلمين الذين كانوا به فأطلقه صلاح الدين كما شرط له، وكان صاحب جبيل هذا من أعيان الفرنج وأصحاب الرأي والمكر، وكان إطلاقه من الأسباب الموهنة للمسلمين.

وكان صلاح الدين لما هزم الفرنج بطبرية أرسل يبشّر أخاه العادل بمصر ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة مصر، فتسارع إلى ذلك ونازل حصن مجدل بابا وحاصره وغنم ما فيه وسار منه إلى مدينة يافا، فحاصرها وملكها عنوةً ونهبها وأسر الرجال وسبى الحريم وجرى على أهلها ما لم يجرَ على أحد من تلك البلاد. قال ابن الأثير: «كان عندي جارية من يافا وأنا بحلب ومعها طفل سقط من يدها فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيراً فأعلمتها أن ليس بولدها ما يوجب البكاء فقالت لست أبكي له بل أبكي لما جرى علينا. كان لي ستة أخوة هلكوا كلّهم وزوج وأختان لا أعلم ما كان منهم. هذا من امرأة واحدة».

وبعد أن ملك صلاح الدين ما ملكه كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده لأنهما على طريق مصر فيختار اتصال ولاياته ببعضها ليسهل خروج العسكر منها ودخوله إليها، ولما في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم له، فسار من بيروت إلى عسقلان واجتمع بأخيه العادل ونازلا عسقلان، وملك الفرنج مع صلاح الدين أسير فقال له إن سلّمت هذه البلاد إليّ فلك الأمان، فأرسل الملك إلى مَنْ

بعسقلان من الفرنج يأمرهم بتسليم المدينة فلم يسمعوا أمره، فلما رأى صلاح الدين ذلك جدّ في قتال أهل المدينة ونصب المنجنيقات وزحف مرة بعد الأخرى وتقدّم إلى السور وملكهم يكرّر المراسلات إليهم وهم لا يجيبون إلى ما يقول، ولكن رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفاً وأنّ لا نجدة لهم ينتظرونها فراسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اقترحوها، فأجابهم صلاح الدين إليها وسيّرهم صلاح الدين ونساءهم وأولادهم وأموالهم إلى بيت المقدس ووفى لهم بالأمان. (كل هذا خلاصة ما قاله ابن الأثير وغيره في هذه الأحداث).

وما قاله المؤرخون الفرنج لا يخالف ما قاله المؤرخون المسلمون فقد رووا ما ملخّصه أنّ صلاح الدين أراد أن يستثمر الظفر الذي ناله فسار للحال إلى عكا وحاصر هذه المدينة يومين فسلّمت إليه وغنم ما كان في هذه المدينة الموعبة بسلع التجارة، وما ألقاه انتصاره من الرعب في القلوب سهّل له فتح نابلس وأريحا والرملة وغيرها من المدن كقيسرية وارسوف ويافا وبيروت. ولم يبقَ من مدن ساحل البحر بيد الفرنج إلا صور وطرابلس وعسقلان، وكان فتح عسقلان أهم عند صلاح الدين من فتح غيرها من المدن فحاصرها فوجد بها مناعة لم تكن له في الحسبان وقاتله أهلها شديد القتال، وكان قد أحضر معه ملك أورشليم فأرسل يشير على أهل المدينة أن يستسلموا إلى صلاح الدين فلا يجديهم دفاعهم فائدة وأن يشفقوا على عيالهم ويحجبوا دماء النصارى، ولما ضايقهم صلاح الدين وأخذ النقابون يحفرون تحت الأسوار خرجت لجنة منهم فقالت لصلاح الدين لم نقدم إليك حبّاً بأنفسنا بل شفقة على نسائنا وأولادنا فما نفع حياة زائلة ونحن نتوقّع حياة خيراً منها ولا نصل إليها إلا بالموت، فقد أولاك الله النصر على النصارى لكنك لا تدخل البتة عسقلان إن لم تشفق على عيالنا وتخلي سبيل ملكنا. فكان لهذا الكلام وقع عظيم في قلب صلاح الدين وأجاب إلى شروطهم لكنه لم يخل سبيل ملك أورشليم إلا بعد سنة. (انتهى ملخّصاً عن ميشود وروهربخر).

عد ٨٣٨
فتح صلاح الدين أورشليم

إليك ما قاله المؤرخون المسلمون إنّ صلاح الدين فتح بعد عسقلان الرملة وغزة

والخليل وغيرها. وكان قد أخرج من مصر الأسطول الذي بها فأقام في البحر يقطع الطريق على الفرنج وكل ما رأوا مركباً غرّقوه، ثم سار إلى بيت المقدس وكان به البطريرك المعظّم عندهم وهو أعظم شأناً من ملكهم، وبه أيضاً باليان بن بيرزان (يسميه الفرنج باليان دي ايبالين) صاحب الرملة ومَنْ خلص من فرسانهم من حطين، وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحي وغيرها في القدس وكانوا كلهم يرون الموت أيسر من أن يملك المسلمون بيت المقدس، ويرون أنّ بذل أنفسهم ومالهم بعض ما يجب عليهم في سبيل حفظه، وقد حصّنوه في تلك الأيام وصعدوا على سوره وعزموا على المناضلة دونه. ولما قرب صلاح الدين من القدس تقدّم أمير من المسلمين في جماعة غير محتاط ولا حذر فلقيه جمع من الفرنج فقاتلوه وقتلوه وجماعة ممن معه، فأهمّ المسلمين قتله وساروا حتى نزلوا على القدس، فرأوا على أسواره ما هالهم وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتلها، وعمد إلى جهة الشمال نحو باب العمود أو كنيسة صهيون ونصب المنجنيقات ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها، واشتدّ القتال بينهم وكل يراه ديناً وحتماً وكان خيّالة الفرنج يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون، وحمل المسلمون حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقفهم وأدخلوهم بلدهم ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزوه والتصقوا إلى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار. ولما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكّم المنجنيقات بالرمي وتمكّن النقابين من النقب اجتمع مقدّموهم يتشاورون في ما يأتون فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم المدينة إلى صلاح الدين وأرسلوا جماعة من كبرائهم في طلب الأمان فامتنع السلطان من إجابتهم وقال لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهل هذا البلد حين ملكتموه. ولما رجع الرسل خائبين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فأجيب إلى ذلك وحضر ورغب في الأمان فلم يجبه صلاح الدين واستعطفه فلم يعطف واسترحمه فلم يرحم، ولما أيس من ذلك قال أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة خلق كثير وإنما يفترون عن القتال رجاء أنك تجيبهم إلى الأمان وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا الموت لا بدّ منه فوالله لنقتلنّ أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك

أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع، ثم نقتل مَنْ عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه، ثم خرجنا عليكم كلنا مقاتلين قتال مَنْ يحمي دمه ونفسه وحينئذٍ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراماً.

ولما سمع صلاح الدين هذا الكلام دعا أصحابه واستشارهم فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا تدرى عاقبته. فأجاب صلاح الدين إلى بذل الأمان للفرنج واستقرّ أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير غنيّاً كان أم فقيراً ومن المرأة خمسة دنانير والطفل ديناران. فمَنْ أدّى ذلك إلى أربعين يوماً نجا ومَنْ لم يؤدِّ ما عليه صار مملوكاً. فبذل باليان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار وسلمت المدينة ورفعت على أسوارها الأعلام الإسلامية ورتب صلاح الدين على أبوابها أمناء من الأمراء يأخذون من كل خارج منها ما فرض عليه، فقسم الأمناء الأموال وتفرّقت أيدي سبأ، ولو أدّيت في ذلك الأمانة لملأ الخزائن وعمّ نفعه. وادّعى جماعة من الأمراء أنّ جماعة من أقطاعه مقيمون بالقدس فأطلقهم وأخذ قطيعتهم وبعضهم كان يلبس الفرنج زي المسلمين ويخرجون ويأخذ قطيعتهم. واستوهب بعضهم من صلاح الدين عدداً من الفرنج فوهبهم لهم وأخذوا ما عليهم. وبالجملة فلم يصل إلى خزينته إلا القليل وأطلق صلاح الدين ملكة القدس وسارت إلى زوجها الذي كان محبوساً بقلعة نابلس وخرج البطريرك الكبير ومَنْ معه من أموال البيع منها الصخرة والأقصى ما لا يعلمه إلا الله، وكان له من المال مثل ذلك. وقيل لصلاح الدين أن يأخذ ما معه ويقوّي به المسلمين فقال لا أغدر به ولم يأخذ منه إلا عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم مَنْ يحميهم إلى مدينة صور.

وردّ صلاح الدين بعض أبنية القدس إلى ما كانت عليه في أيام المسلمين وأمر بتطهير المسجد والصخرة وبعمارة المسجد الأقصى واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه ومحو ما كان في تلك الأبنية من الصور، ونقل إلى الصخرة المصاحف الحسنة والربعات الجيدة. وباع الفرنج ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وأموالهم بأرخص الأثمان. وأما النصارى أهل القدس غير الفرنج فطلبوا من صلاح الدين أن يمكّنهم من الإقامة في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم إلى ذلك. (انتهى ملخصاً عن الكامل لابن الأثير).

وأما المؤرخون الفرنج فرووا أخبار فتح صلاح الدين أورشليم كما رويناها عن المؤرخين المسلمين وقلّ ما زادوا عليها وما زادوه كان المؤرخون العرب أولى منهم بذكره، فانهم أثنوا على سماحة صلاح الدين وكرم أخلاقه واشفاقه على الفقراء والمصابين بهذه النازلة. من ذلك قولهم أنّ صلاح الدين عند رؤيته جمعاً من النساء والأطفال خارجين من القدس يبكون والديهم وأولادهم وأزواجهم الذين قتلوا أو أسروا في وقعة حطين رق لهم وردّ إلى الأمهات أولادهن وإلى النساء أزواجهن الذين كانوا بين الأسرى، وقد رأى أيضاً كثيرين تركوا أمتعتهم وحملوا على ظهورهم بدلاً منها أنسباءهم أو أصحابهم العاجزين عن المشي فراقه عملهم وأكثر جوائزه لهم وسمح للاسبيتاليين أن يبقوا في المدينة للعناية بالزائرين وبمن أقعدهم مرضهم أو مانع آخر عن الرحيل من المدينة، ودفع الملك العادل أخو صلاح الدين فدية ألفي أسير فافتدى به السلطان أخوه وكسر أغلال كثيرين من الفقراء والأيتام. وقد أشار عليه بعض المسلمين أن يدك حينئذٍ كنيسة القبر المقدّس وسائر الكنائس ليمنع النصارى من الحج إلى القدس أو من يتذرعوا بتكريمها إلى الاستيلاء على هذه المدينة فأثر أن يخالفهم في بقاء الكنائس ولاسيما كنيسة القبر اقتداءً بعمر بن الخطاب إذ أبقى هذه الكنائس للنصارى في صدر الإسلام وقالوا لو نقضنا البناء فلا يبرح النصارى يحجون إلى محلها ونقضها يثير نصارى الشرق فينضمون إلى نصارى الغرب، وأباح النصارى أن يستمروا على زيارتهم لهذه المعابد كما كانوا على شرط أن يأتوا إلى القدس دون سلاح، وأن يفوا ضريبة ما. انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم.

عد ٨٣٩

حصار صلاح الدين لمدينة صور وفتحه بعض مدن غيرها

إنّ صلاح الدين بعد أن دبر أمور القدس سار إلى مدينة صور وهذا ما رواه المؤرخون المسلمون في ذلك. قالوا: انّ إنساناً من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيش (وهو كونراد ابن المركيز دي مونتا فراتا السابق ذكره) خرج في البحر بمال كثير للزيارة والتجارة وأرسى بعكا ولم يكن يعلم أنّ صلاح الدين أخذها، وبلغه أن صور ما برحت بيد الفرنج فقصدها، وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير ولم يكن

لهم رأس يجمعهم ولا مقدّم يقاتل بهم، فقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذله ما معه من المال، فولوه عليهم وكان شجاعاً بالحروب وقال في حقه ابن الأثير «كان من شياطين الانس حسن التدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة وشرع في تحصين صور فجدد حفر خنادقها وعمل أسوارها وزاد في حصانتها، واتفق من بها على حفظها والقتال دونها» وأتى صلاح الدين إلى عكا وأقام بها أياماً ولما سمع المركيش بوصوله إلى عكا جد في عمل سور للمدينة وعمق خنادقها ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر حتى صارت المدينة كالجزيرة ورحل صلاح الدين من عكا وخيّم بجانب صور وقسم القتال على عسكره فكانوا يتناوبون مثل ولده الأفضل وولده الظاهر وأخيه العادل وابن أخيه تقي الدين، وكان للافرنج شوانٍ وحرّاقات يركبون بها في البحر جانبي محل القتال فيقاتلون أهل البلد المسلمين من أمامهم ويرمى عليهم أصحاب الشواني من جانبيهم، فكثرت الجراحات والقتل في المسلمين ولم يتمكنوا من الدنو من البلد، فأرسل صلاح الدين عشر شوانٍ جاءته من مصر فكانت في البحر تمنع شواني أهل صور من الخروج إلى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذٍ من القرب إلى البلد، فقاتلوه براً وبحراً وضايقوه. حتى كادوا يظفرون فجاءت الأقدار بما لم يكن في الحساب وذلك أنّ خمساً من شواني المسلمين باتت ليلة مقابل ميناء صور ليمنعوا من الدخول إليها والخروج منها، ولما كان السحر ناموا وما شعروا إلّا وشواني الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم وقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم مينا صور، ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني فمنهم من سبح ونجا ومنهم من غرق. وأمر السلطان الشواني الباقية بالمسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت وتبعتها شواني الفرنج، ولما رأى المسلمون الفرنج مجدين في طلبهم ألقوا نفوسهم إلى البحر فنجوا، ونقض صلاح الدين هذه الشواني وعاد إلى مقاتلة صور في البر وكان ذلك قليل الجدوى. وفي بعض الأيام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين واشتدّ القتال بين الفريقين ودام إلى آخر النهار وأسر من الفرنج فارس كبير مشهور ولما رأى صلاح الدين أنّ أمر صور يطول رحل عنها إلى عكا. (انتهى ملخصاً عن ابن الأثير).

وإليك ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك أنّ صلاح الدين بعد أن فتح كثيراً من مدن الفرنج سار إلى صور وحاصرها وضايقها وكاد يملكها لو لم يكن فيها كونراد ابن المركيز دي مونتي فراتا الذي أسره صلاح الدين في وقعة حطين، وكان كونراد

هذا قد اشتهر بحروبه بإيطاليا مدافعة عن البابا من اعتداء الملك فريدريك بربا روسًا (ذي اللحية الحمراء) ثمّ سار في كثير من الفرسان إلى سورية سنة ١١٨٦م لمحاربة المسلمين، وعند مروره بقسطنطينية أخمد ثورة على اسحق ملك الروم وقتل رئيس العصاة فلقبه الملك بقيصر وزوجه باخته، فتركها في قسطنطينية وسار إلى فلسطين فوجد أهل صور عازمين على أن يستسلموا إلى صلاح الدين، فقوّى قلوبهم وشجعهم على القتال وولي أمرهم فراسله صلاح الدين بأنه يخلي سبيل أبيه ويقطعه ما شاء من الاقطاع بسورية إذا فتح له أبواب صور، وهدده بأن يقتل أباه إن لم يذعن لطلبه، فأجابه مزدرياً بكل هبة من قبله وان مصلحة النصارى أهم عنده من حياة أبيه، وإذا قتل المسلمون شيخاً استسلم في الحرب فيفتخر بأنّه ابن شهيد، وبهمة كونراد وشجاعته وتدبيره لم يتمكن صلاح الدين من فتح صور مع بذله كل جده في ذلك. وقد تمكن كونراد بعد ذلك أن يخلص والده من الأسر لأنّ أهل صور أسروا أحد الأمراء المسلمين فأطلقه على شرط إطلاق أبيه وكان كذلك. وكان صلاح الدين عند فتحه تبنين كما مرّ أقام جماعة من جنده على قلعة هونين يمنعون من حمل الميرة إليها فلما كان يحاصر صور أرسل من فيها يطلبون منه الأمان فأمنهم ونزلوا منها ووفى لهم بأمانهم.

وكان لما سار إلى عسقلان جعل على قلعة كوكب وهي مطلة على الأردن من يحصرها ويحفظ الطريق للمجتازين، وسيّر طائفة أخرى من العسكر إلى قلعة صفد فحصروها وكان بعض الفرنج قد لجأوا إلى هاتين القلعتين عند انكسارهم بحطين، ففي ليلة كثر فيها الرعد والبرق والريح والمطر وثب الفرنج على المسلمين المحاصرين قلعة كوكب فقتلوهم جميعاً وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا إلى قلعتهم، فقويوا بذلك وأمكنهم أن يحفظوا قلعتهم. وخُبِّر صلاح الدين بذلك فعظم عليه لأخذ شوانيه في صور واضطراره إلى الرحيل عنها، ورتب على حصن كوكب جماعة أخرى من الجنود فحصروها، وفي سنة ٥٨٤هـ سنة ١١٨٩م سار صلاح الدين من عكا إلى قلعة كوكب فحصرها ونازلها، وكان يظن أنّ ملكها سهل، فلما رآها منيعة والوصول إليها متعذر سار منها إلى دمشق وترك عليها من يستديم حصارها وحصار قلعة صفد والكرك لأنّه كان قد ملك كل البلاد الساحلية من عكا إلى الجنوب ما عدا هذه الحصون وكان يودّ أن لا يبقى في وسطها ما يشغل قلبه أما الكرك فاستمرّ الملك العادل أخو صلاح الدين محاصراً لها حتى

فنيت أزواد الفرنج بها وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال، فراسلوا الملك العادل يطلبون الأمان فأمنهم وتسلّم القلعة وما يجاورها كالشوبك وغيرها. وأما قلعة صفد فعاد إليها صلاح الدين بعد غزوته في الشمال وضايق أهلها وفرغ زادهم فأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم وتسلّم القلعة إلى صور ثمّ حاصر قلعة كوكب وصبر الفرنج فيها حتى أخذ النقابون ينقبون بسورها فاستسلموا إلى صلاح الدين فأمنهم وتسلّم القلعة منهم وساروا إلى صور. روى كل ذلك ابن الأثير وقال: «اجتمع بصور من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد فاشتدّت شوكتهم وحميت جمرتهم وتابعوا الرسل إلى المغرب يستغيثون ويستنجدون والأمداد كل قليل تأتيهم وكان ذلك بتفريط صلاح الدين في إطلاق كل من حصره حتى عض بنابه ندماً وأسفاً حيث لم ينفعه ذلك.

عد ٨٤٠

غزوة صلاح في شمالي سورية

نروي أخبار هذه الغزوة عن ابن الأثير الذي قال إنّه كان مع السلطان فيها. سار صلاح الدين من دمشق سنة ٥٨٤ هـ سنة ١١٨٩م ونزل على بحيرة قادس غربي حمص وطلب العساكر فأتته أولاً رجال عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين والخابور، ثمّ تلاحقت الرجال من الموصل والجزيرة وغيرها وسار حتى نزل تحت حصن الأكراد، فأقام يومين وسار بكتيبة من الفرسان فدخل إلى بلاد الفرنج وأغار على صافيتا والعريمة ويحمور حتى وصل إلى قرب طرابلس وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها وأين يسلك منها ثمّ عاد إلى معسكره تحت حصن الأكراد وأتاه قاضي جبله وهو منصور بن تبيل وكان مسموع الكلمة وله الحرمة البارزة عند بيموند أمير أنطاكية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبلة ونواحيها فاستدعى السلطان ليسلم جبلة إليه، فسار صلاح الدين معه ونزل بانطرطوس (طرسوس) فأخلى الفرنج المدينة واحتموا في برجين حصينين فخرّب المسلمون دورهم ومساكنهم ونهبوا ما وجدوا ودكّوا أحد الحصنين بعد طلب المحاصرين به الأمان وألقوا حجارته في البحر وترك صلاح الدين الحصن الآخر مخفوراً ورحل إلى مرقية وقد أخلاها أهلها وساروا إلى المرقب وفيها حصن لا تحدث أحداً نفسه

بملكه لعلوه ومنعته. واتّفق أنّ صاحب صقلية من الفرنج سيّر نجدة في ستين شانية وكانوا بطرابلس ولما سمعوا بمسير صلاح الدين أتوا ووقفوا في البحر تحت المرقب ليمنعوا من يجتاز بالسهام. وكان هناك مضيق لا يسلكه إلّا الواحد بعد الآخر ولما رأى ذلك صلاح الدين أمر بالطارقيات والجفتيات فصفت على الطريق مما يلي البحر من أوّل المضيق إلى آخره وجعل وراءها الرماة ليمنعوا الفرنج من الدنو إليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا إلى جبلة وتسلمها صلاح الدين وقت وصوله وتحصن الفرنج بقلعتها وما زال قاضي جبلة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بالأمان.

ولما فرغ السلطان من أمر جبلة سار عنها إلى اللاذقية فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها واحتموا بحصنين على الجبل فدخل المسلمون المدينة وحصروا الحصنين ونقبوا الأسوار وعظم القتال فأيقن الفرنج العطب ودخل قاضي جبلة فخوفهم فطلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين وكان أسطول صقلية الذي تقدّم ذكره وصل إلى اللاذقية ولما رأى تسليم أهلها سريعاً حنق عليهم وطلب مقدم الأسطول الأمان ليحضر عند صلاح الدين فأمنه وحضر وقال: إنّك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فذلوا فاتركهم يكونوا مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد وترد عليهم بلادهم وإلّا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به فأجابه صلاح الدين مزدرياً بكل ما يجيء من البحر وانّهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم.

وسار صلاح الدين عن لاذقية وقصد قلعة صهيون وهي منيعة شاهقة صعبة المرتقى فحصرها وضايق من فيها وتجلدوا بالقتال ولكن أرغموا أخيراً على طلب الأمان فلم يجبهم صلاح الدين إليه أولاً ثمّ قرروا على أنفسهم قطيعة كقطيعة أهل القدس فتسلم صلاح الدين الحصن فحصّنه وجعله أحصن الحصون ولما ملك قلعة صهيون تفرق جنده في تلك النواحي فملكوا حصن بالاطنوس وحصن العيد وغيرهما.

وسار صلاح الدين عن صهيون إلى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد أخلوها وتحصنوا بقلعة الشغر فملك قلعة بكاس ونازل قلعة الشغر فرآها منيعة وحصينة ورماها بالمنجنيقات فلم تصل الحجارة إليها وبقي المسلمون عليها أياماً لا يرون فيها مطمعاً. وكان الفرنج الذين بها قد راسلوا بيموند أمير أنطاكية يستمدونه

لأنهم محصورون فلم يمدهم فسلموا القلعة إلى صلاح الدين، فأقام بها أميراً اسمه قلج ورحل عنها إلى قلعة برزية وهي تقابل حصن أفاميا (أباميا) وتناصفها في أعمالها وبينهما بحيرة من ماء العاصي وعيون تتفجّر من الجبل. وكانت هذه القلعة منيعة جداً ولا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب إذ لا يمكن أن يُصعد على جبالها من هاتين الجهتين فنصب صلاح الدين عليها المنجنيقات من جهة المغرب فلم يؤثر بها، فأمر بالزحف وقسّم عسكره ثلاثة أقسام حتى كلما كل قسم استراح وزحف الآخر، فأتعب الفرنج النهار كله، وأخيراً اختلط المتقاتلون ودخلت طائفة من عساكر المسلمين مع الفرنج إلى القلعة فملكوها وقتلوا وأسروا من فيها.

ورحل صلاح الدين إلى جسر الحديد الذي على العاصي بالقرب من أنطاكية وسار إلى قلعة درب ساك ورماها بالمنجنيقات، ثمّ زحف جنوده إليها وكشفوا الرجال عن سورها ونقبوا برجاً منها، فسقط واستمدّ أهل القلعة بيموند فطال الوقت ولم يمدهم، فطلبوا الأمان من صلاح الدين فأمنهم على شرط أن لا يخرج أحد إلّا بثيابه بغير مال ولا سلاح ولا أثاث. ثمّ أخرجهم وسيّرهم إلى أنطاكية وسار إلى قلعة بغراس وهي بالقرب من أنطاكية فحاصرها وضايقها حتى طلب أهلها الأمان فأمنهم على شرط تأمين أهل درب ساك.

وعزم صلاح الدين على حصر أنطاكية وخاف بيموند من ذلك فأرسل إلى السلطان يطلب الهدنة وبدل إطلاق كل أسير مسلم عنده، فاستشار صلاح الدين عماله في النواحي وغيرهم فأشار أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود الجنود ليستريحوا ويجددوا ما يحتاجون إليه، واتّفق صلاح الدين وبيموند على هدنة ثمانية أشهر أولها أوّل تشرين الأوّل وآخرها آخر أيار وأطلق بيموند الأسرى المسلمين وكان صاحب أنطاكية حينئذٍ أعظم الفرنج شأناً وأكثرهم ملكاً لأنّ الفرنج كانوا قد سلّموا إليه طرابلس وجميع أعمالها بعد موت ريموند صاحبها، وأقام بها ابنه وعاد صلاح الدين إلى حلب ثمّ سار إلى دمشق فدخل أوّل رمضان، فأشير عليه بتفريق العساكر فقال العمر قصير والأجل غير مأمون وقد بقي بيد الفرنج حصون كوكب وصفد والكرك فلا بدّ من أخذها وسار إليها وأخذها كما مرّ في الفصل السابق.

عد ٨٤١

حملة الفرنج الثالثة على سورية

بعد أن ملك صلاح الدين أورشليم سيّر الفرنج وفوداً كثيرين إلى الغرب يستنجدون ملوكه، ولما بلغت هذه الأخبار الغرب عمّ الحزن والكآبة سكانه وكان البابا أوربانس الثالث في فرارا (بإيطاليا) وكان شيخاً فأخذ الحزن به كل مأخذ حتى مرض ومات في ١٩ تشرين الأوّل سنة ١١٨٧. وفي ٢١ من الشهر المذكور انتخب البابا غريغوريوس الثامن واهتمّ للحال بانجاد الفرنج في المشرق وأنفذ رسائل إلى ملوك الغرب وأساقفته يحضهم على إعانة إخوانهم، وأوفد رسلاً وقصّاداً إلى الممالك يعظون بذلك. وسار إلى بيزا ليصلح بين أهلها وأهل جنوا، وكانت هاتان المدينتان حينئذٍ متوفرة فيهما الثروة والقوة بحراً وبراً، ولكن دهمته المنية هناك في ١٦ كانون الأوّل تلك السنة فانتخب للكرسي الروماني البابا أكليمنضس الثالث. ومذ ارتقائه إلى السدة الحبرية العظمى أمر بتقديم التضرعات لله لإيقاع السلم والصلح بين ملوك الغرب ولنجاة كنائس الشرق وأرسل وفوداً إلى الملوك والأمراء دعاة يدعون الناس إلى التجند لانجاد الفرنج في المشرق وكان في جملة هؤلاء الدعاة أسقف اسمه غوليلمس قال بعضهم إنّه غوليلمس أسقف صور صاحب التاريخ، وقال غيرهم إنّ صاحب التاريخ كان قد مات من قبل وهذا غوليلمس آخر، وأسند هؤلاء رأيهم إلى قول أحد مكملي تاريخ غوليلمس الصوري. وأياً كان هذا فبعد أن أوقد نار الغيرة بإيطاليا سار إلى فرنسة وشهد اجتماعاً التقى به أنريكس الثاني ملك إنكلترا وفيليبوس أغوسطوس ملك فرنسة وكانت بينهما عداوة شديدة، فخطب هذا الداعي خطبة حملت المجتمعين على التفجع واستنزفت الدموع من جميع العيون، حتى قام الملكان المتحاربان وعانق أحدهما الآخر وبكيا واتفقا أن يسيرا إلى المشرق، وأخذا حينئذٍ الصليب شعار الصليبيين وتبعهما كثيرون من الأمراء والولاة والأعيان، وأجمع الأمراء والأساقفة على فرض ضريبة سموها عشور صلاح الدين يتحتم بها على من لا يسير بهذه الحملة أن يودي عشر مدخوله وعشر قيمة أثاثه إلى اللجان المقامة لجباية هذه الفريضة بموجب نظام سنوه لذلك. وأمّا ملك انكلترا فدعا أغنياء مملكته وأمرهم أن يؤدوا عشر دخلهم ومن تردد عن ذلك ألقاه في السجن، فنشأ عن ذلك بعض القلق. ثمّ استؤنفت العداوة بين ملكي إنكلترا وفرنسة واجتمعا بتحريض الأساقفة والأعيان في محل الإجتماع الأوّل فلم يتوافقا إلى أن مات

أنريكس الثاني ملك إنكلترا وخلفه ابنه ريشار الملقب بقلب الأسد سنة ١١٨٩م، وتذكر يمين أبيه على إنجاد نصارى الشرق فجدّ في التأهّب لهذه الحملة، فنشأت في الإنكليز حمية شديدة لتخليص الأرض المقدّسة، لكنهم ابتدأوا في اضطهاد اليهود فقتلوا جماً غفيراً في لندره ويورك. فالحاجة إلى المال في هذه المهام واحراز اليهود من ذلك العصر أكثر ثروة البلاد الساكنين بها كانا يحملان الناس متواتراً على الاستعانة بأموالهم لسد الفاقة الماسة. واجتمع ملك فرنسة وملك أنكلترا وقررا أن يكون سفرهما بحراً، وفرضا نظاماً يستسير الجنود بمقتضاه، وفي جملته منع النساء من السفر إلى فلسطين، وحلف أحدهما للآخر على حفظ الأمانة والصداقة ما داما حيين. وقررا أن يسافر ملك فرنسة من جنوا وملك انكلترا من مرسيليا، فسافر ملك فرنسا من جنوا في ٣٠ آذار سنة ١١٩١م وبلغ إلى شواطئ فلسطين في ١٣ نيسان من السنة المذكورة، وسافر ريشار ملك انكلترا من مرسيليا إلى مسينة في صقلية ثمّ سار من مسينة في ١٣ نيسان من تلك السنة، فثار بأسطوله عاصف شديد نسف ثلاث شوانٍ على ساحل لاميسون بقبرص، ومن نجا من الغرق وقع على الشاطئ بداهية أقسى من العاصف فان اسحق كومنانس ملك الروم كان هناك وكانت قبرص من أملاكه وقد حالف صلاح الدين، فقبض على أولئك المساكين عند خروجهم من الماء وألقاهم في السجن ليموتوا جوعاً. ووصل إلى هناك مركب آخر يقل أخت ريشار الملك وخطيبته بنت ملك نافرا فلم يؤذن لهما بالدخول إلى الميناء، وإذ أقبل الملك ريشار بعدة من شواني أسطوله خلصهما وطلب من ملك الروم إطلاق من سجنهم من الإنكليز فأبى بل هدد ملك الإنكليز بأن يعامله كذلك إن وضع رجله في جزيرته، فاستشاط ريشار وأمر بنزول عساكره إلى البر فقتلوا كثيرين من الروم وهزموا الباقين وفي جملتهم ملك الروم، ثمّ أوقعوا بالروم وقعة أخرى حتى اضطرّ ملك الروم أن يذعن لكل ما شرطه ملك الانكليز وحلف له يمين الأمانة، وأقرّ له بملك قبرص. ولما مان بيمينه أسره وكبله بقيود من فضة وملك الجزيرة كلها. ثمّ سار بحراً إلى سورية فالتقى بإحدى شواني المسلمين مشحونة بالرجال والأسلحة والزاد فغرقها بعد قتال شديد وبلغ إلى عكا في ٨ حزيران سنة ١١٩١م.

وأمّا ألمانيا فقد تكاثر وفود الفرنج من سورية إليها وأرسل الحبر الروماني كثيرين من الرسل والدعاة إلى نواحيها، وهبّت الحمية في أهلها بعد رقدتها وأخذ ملكها فريدريك برباروسّا (أي الأحمر اللحية) يتأهّب للمسير إلى الأرض المقدّسة، وينتقي

نخبة الرجال لمعيته. وقام قائد جيشه بجمع الآتين تحت رايته في راتيزبون من عيد الميلاد إلى نصف الصوم، وسار الملك بحاشيته قرب عيد العنصرة سنة ١١٨٩م. وقبل مسيره أنفذ وفوداً إلى الأمراء النصارى والمسلمين الذين سوف يمر ببلادهم حتى كاتب صلاح الدين، وكان قد سبق له مخابرة معه، فقال له في رسالته لا أقدر أن أبقى صديقاً لك ومملكتي ثائرة عليّ ان لم تتخلّ عن أورشليم وترد خشبة الصليب، فلم يكن جواب صلاح الدين إلّا إعلاناً للحرب. وكاتب أيضاً قليج إرسلان سلطان قونية وكان أصحابه يقولون إنّه تابع لبدعة الفلاسفة، ويظنّ في أوروبا أنّه تنصّر وقد حفظت رسالة من البابا اسكندر الثالث يشير عليه بها كيف يتدبر بأمر تنصره. وكان ملك الروم قد تزلف إلى ملك ألمانيا فأرسل يخبره بمسيره في عسكره، ويقال إنّ ملك الروم اتّفق حينئذٍ مع صلاح الدين على محاربة الفرنج. وعند اجتياز الملك فريدريك بجيشه بالنمسا والمجر لم يلق إلّا التكريم وتقدمة الأزواد لجيشه، ولكن لما بلغ بلغاريا اضطرّ جيشه أن يسير في الغابات ويتحمل المشاق والدفاع حتى قتل البلغاريون من تخلّف من الجيش أو وجدوه مريضاً. ولما بلغ الملك فريديريك إلى فيليبوبولي عرف أنّ الرسل الذين كان قد أرسلهم إلى قسطنطينية طرحوا في السجن ولم يخل سبيلهم إلّا بعد عدة أسابيع، وعند عودهم إلى المعسكر أخبروا بما رأوا من عزم الملك اسحق والروم على قطع الطريق على الصليبيين، فأخذ الملك فريدريك ادرنة وكاليبولي وكل مدن الساحل وطلب من البندقية وأنكونا وجنوا شواني كبيرة وصغيرة لحصر قسطنطينية، فذلّ حينئذٍ ملك الروم وتواضع ووقّع على معاهدة بينه وبين الملك فريدريك وأذعن لكل ما طلبه هذا الملك منه، وحلف اليمين في كنيسة القديسة صوفيا هو وأعيان مملكته على أنّه يحفظ كل ما وقع عليه من الشروط، وقدم رهائن لملك ألمانيا على صحة يمينه، لكنه كتب إلى صلاح الدين يقول أنّ حجاج الغرب أصبحوا عاجزين عن المضرة به وانه قطع أجنحة انتصارهم. وكان سلطان قونية قد أرسل رهائن لملك ألمانيا فأمسكهم في قسطنطينية واجتاز الألمانيون البحر عند كاليبولي وبلغوا اللاذقية بآسيا الصغرى.

وفي سفر الألمانيين من اللاذقية إلى قونية رسائل عديدة كتبها من كانوا في ذلك العصر واختار ميشود رسالة كتبها أحد المسافرين مع الملك فريدريك إلى الحبر الروماني وأثبت ملخصها، ومنها يتبين ما قاسوه من المشاق في هذا السفر وما عانوه من الحرب وكانوا فيها ظافرين، وما أصابهم من الجوع وحربهم مع قليج إرسلان

سلطان قونية وأخذهم مدينته، ولم يبقوا فيها إلّا يومين وساروا نحو بلاد النصارى. فأرسل أمير أرمينية إلى الملك فريدريك وفوداً يستعطفه ويعد بامداده وانجاده له، على أنّ مسيرهم في طرق جبل طورس الوعرة ومضايقه المحفوفة بالمخاطر من كل جهة قد انتهكهم وأضناهم وأنقص عديدهم وبلغوا بشق النفس إلى أطراف كيليكيا، وخيّموا في جانب نهر فقيل ان الملك نزل يستحم به فغرق، وقيل وقع في الماء وهو عابر النهر فنشل منه ولا روح فيه فعظم المصاب وعمّت الكآبة العسكر عن آخره وتولاهم اليأس فعاد بعضهم إلى بلادهم وتاه بعضهم في البرية وأسف جميع مؤرخي ذلك العصر كل الأسف على وفاة هذا الملك وأذهلتهم أسرار العناية الربانية.

وسار من بقي من العسكر والحزن ملء قلوبهم يحملون جثة من كان يحملهم على الشجاعة والنخوة واختاروا أميراً عليهم فريدريك دوك دي سواب، وانقسموا في سيرهم قسمين فريق أخذ طريق أنطاكية وبلغوا إليها فأصابهم وباء أهلك كثيرين، منهم وفريق سار في طريق حلب فوثب عليهم المسلمون وقلّ من نجا منهم حتى أنّ هذا الجيش الذي سار من أوطانه وهو لا يقل عن مئة ألف مقاتل لم يبلغ منه إلى فلسطين إلّا نحو خمسة آلاف مقاتل سنة ١١٩٠م. وأمّا جثة فريدريك ملكهم فمن قائل إنّها دفنت في أنطاكية ومن قائل بل دفنت في صور (انتهى ملخصاً عن كثيرين من مشاهير المؤرخين). واستعظم ابن الأثير حملة الفرنج هذه وشدة حميتهم وغيرتهم وتوافر عديدهم، وقال في ملك الألمان خاصة: «ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الألمان لما خرج على الشام والا كان يقال إنّ الشام ومصر كانتا للمسلمين». وأثبت أنّ ملك الروم أخبر صلاح الدين بقدوم الألمان ووعده أنّه لا يمكّنهم من العبور ببلاده، ولما وصل ملكهم عجز عن منعه ووجدت رسالة من صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد يتبين منها هلعه وشكواه من كثرة الفرنج الوافدين في كل يوم إلى الشام، وقال إنّه كلما قتل واحداً منهم أتى ألف.

عد ٨٤٢
حصار الفرنج عكا

إنّ صلاح الدين كان قد أبقى لوسينيان ملك أورشليم مكبّلاً بقيوده، ولما أخذ الكرك وحصني كوكب وصفد خلى سبيله بعد أن أكرهه على أن يحلف يميناً بالإنجيل على أنّه يتخلّى عن ملك أورشليم ويسير إلى أوروبا، فاستفتى لوسينيان

العلماء في يمينه فأفتوه أنّها لا تلزمه لصدورها عن اكراه، ولأنّ الحيلة تدفع بحيلة، ولأنّ صلاح الدين كان قد حلف لأهل عسقلان أن يطلق ملكهم فلم يطلقه حينئذٍ، وكان صلاح الدين نفسه يعلم أنّ ملك أورشليم لا يبرّ بيمينه ولم يطلقه إلّا لخوفه من أن يختار الفرنج ملكاً أشد بأساً منه، أو لأمله أن يختلفوا في إقامة ملك عليهم. وأتى لوسينيان إلى صور فلم يشأ كونراد الذي كان قد حفظها وملكها أن يعرفه ملكاً فطاف لوسينيان في ملكه يصحبه بعض الأمناء له فجهز نحواً من تسعة آلاف مقاتل وأتى فحاصر عكا. وهذا ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك في تاريخ سنة ٥٨٥هـ سنة ١١٩٠م. قد اجتمع في صور خلق كثير من الفرنج ووصل منهم في البحر عالم لا يحصون كثرة وساروا إلى عكا ونازلوها وضايقوها وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر ولم يبق للمسلمين إليها طريق فسار إليهم السلطان صلاح الدين وقاتلهم وحمل تقي الدين عمر صاحب حماة من ميمنة السلطان عليهم فأزالهم عن موقفهم والزق بالسور وانفتح الطريق إلى المدينة، فأدخل السلطان عسكراً إليها نجدة وبقيت الحرب سجالاً، ثمّ صافوا السلطان وحملوا على قلب جيش المسلمين فأزالوه وأخذوا يقتلون في المسلمين إلى أن بلغوا خيمة السلطان فانحاز إلى جانب وانضاف إليه جماعة وعطف على الفرنج الذين خرقوا القلب فأفنوهم قتلاً وكانت قتلاهم نحو عشرة آلاف نفس، وانهزم بعض المسلمين عند خرق القلب ووصل بعضهم إلى طبرية وبعضهم إلى دمشق وحصل للسطان قولنج فأشار عليه الأطباء بالانتقال من ذلك المحل فرحل عن عكا إلى الخروبة، فتمكن الفرنج من حصر المدينة وانبسطوا في تلك الأرض ووصل أسطول المسلمين إلى عكا وتمكّن من إنزال عسكر إليها ووصل الملك العادل أخو السلطان بعسكر مصر فقويت قلوب المسلمين.

ثمّ دخلت سنة ٥٨٦هـ سنة ١١٩١م وعاد السلطان من الخروبة إلى عكا وكان الفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبراج من خشب وشحنوها بالسلاح والمقاتلين، فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الأوّل وألحقوا به البرجين الآخرين، ووصل إلى السلطان العساكر من كل البلاد وكان ملك الألمان سار من بلاده بماية ألف مقاتل، واهتمّ المسلمون لذلك وايسوا من الشام بالكلية فسلط الله على الألمان الغلاء والوباء فهلك أكثرهم في الطريق، ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن نزل في نهر هناك يغتسل فغرق وأقاموا ابنه مقامه فرجع من عسكره جماعة إلى بلادهم ولم يصل منهم إلى عكا غير نقدير ألف مقاتل مع ابن ملك الألمان (الذي في كتب

الفرنج أنّ أنريكس السادس ابن فريدريك ملك ألمانيا لم يسر إلى فلسطين والذي سار في الألمان إلى عكا إنّما هو فريدريك دوك سواب) وكثرت المناوشات بين السلطان والفرنج على عكا وخرجوا ذات يوم من خنادقهم بالفارس والراجل وأزالوا الملك العادل عن موضعه فعطف عليهم المسلمون وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، فعادوا إلى خنادقهم ولولا مغص أصاب السلطان لكانت هذه الوقعة هي الفيصلة. وقوي الشتاء واشتدّت الرياح فأرسل الفرنج مراكبهم عن عكا إلى صور خوفاً عليها أن تتكسّر فانفتحت الطريق إلى عكا في البحر وأرسل البدل إليها فكان الخارجون منها أضعاف الداخلين إليها فحصل التفريط بذلك لضعف البدل.

وفي سنة ٥٨٧هـ سنة ١١٩٢ أحاط الفرنج بعكا من البحر إلى البحر وحفروا عليهم خندقاً فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم واشتدّ حصارهم لعكا وطال وضعف من بها عن حفظها، وعجز صلاح الدين عن كف العدو عنهم فخرج الأمير سيف الدين علي بن المشطوب وطلب الأمان من الفرنج على مال وأسرى يقومون به للفرنج فأجابوهم إلى ذلك، وظهرت أعلام الفرنج على عكا وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد، وقالوا إنّما نحبسهم ليقوموا بالمال والأسرى وصليب الصلبوت، (خشبة الصليب التي كان المسلمون أخذوها) وكتبوا إلى صلاح الدين فحصّل ما أمكن تحصيله من المال وطلب منهم إطلاق المسلمين فلم يجيبوه إلى ذلك، وقتلوا كثيرين منهم واستمرّوا بالباقين في الأسر. وبعد تقرير أمر عكا رحل الفرنج عنها إلى قيسارية. (انتهى ملخّصاً عن كثيرين منهم ولاسيما أبو الفداء).

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك. أنّ الفرنج أخذوا في حصار عكا في غاية آب سنة ١١٨٩م ودام الحصار نحو سنتين، وكان مع لوسينيان عند أوّل حصارها نحو تسعة آلاف مقاتل ثمّ وصلت شواني أهل بيزا (بإيطاليا) واحتلوا على شاطئ البحر، وفي اليوم الثالث بعد وصولهم هاجموا المدينة وأقاموا السلالم على الأسوار وأوشكوا أن يأخذوها حينئذٍ لولا شيوع الخبر بوصول صلاح الدين والانكفاف عن وثبتهم رهبةً وذعراً، ثمّ رأوا أسطولاً مقبلاً فإذا به اثنتا عشر ألف مقاتل من فريز والدانيمرك وأسلحة وأزواد، وتلا هذا الأسطول أسطول آخر يقل كثيرين من إنكلترا وفلاندرا، وعرف صلاح الدين بكثرة نجدات الفرنج فترك غزوته في فينيقيا وسار إلى عكا وحلّ على جبل قريب إليها، وهاجم المسلمون الفرنج مرات فلم يستطيعوا أن يزيلوهم عن مواقفهم فضرب صلاح الدين مصافاً عاماً

وأرغم الفرنج أن يتركوا موقفهم في شمال المدينة، واتّصل إلى أسوار المدينة وأخذ بعض حرسها، وحصر الفرنج في معسكرهم، ورتب المدينة وأقام فيها نخبة من رجاله وعاد إلى معسكره. وحفر الفرنج خنادق حول معسكرهم فهال ذلك المسلمين وروعهم وفود مراكب الفرنج كل يوم، وأتى حينئذٍ الصليبيون من مدن إيطاليا ثمّ من شمبانيا وغيرها من أعمال فرنسة، ثمّ من ألمانيا. وجهز كونراد مركيس صور أسطولاً وعسكراً وانضاف إلى الصليبيين حتى كان حول عكا أكثر من ماية ألف مقاتل، ولم يكن ملكا فرنسة وانكلترا وصلا بعد، فأشار على صلاح الدين بعض حاشيته أن يتنحى من وجه هذا الجيش العرمرم، وكان مصاف في السهل الفسيح الكائن بين المعسكرين، وكان الفرنسيون والفرسان الاسبتياليون بامرة ملك أورشليم وكتاب الإنجيل يحمله أربعة فرسان أمامه، وكان البنادقة واللمبرديون وعسكر صور على ميسرة الجيش وكان في القلب الألمانيون والبيزاويون والإنكليز، وكان رئيس فرسان الهيكل وغيره مع العسكر المستحفظ الذي يسير حيث تدعوه الحاجة، واصطفّ أمامهم المسلمون فكسرت في أوّل كرة ميسرة جيش المسلمين التي كانت بامرة تقي الدين ابن أخي السلطان وبلغ بعض الفرنج إلى خيمة صلاح الدين وانهزم كثير من المسلمين حتى طبرية، وفرّ العبيد من معسكر المسلمين وانتهبوا ما كان فيه. على أنّ الفرنج اشتغلوا بالنهب عن القتال وتشتتوا فعطف عليهم المسلمون وقتلوا كثيرين منهم. ودنا فصل الشتاء فأشار على صلاح الدين أمراء جيشه أن يريح عسكره ويستريح هو مدة فمضى صلاح الدين فأقام مع عسكره في المحل المدعو الخروبة.

فحسب الفرنج هذه العزلة عن الحرب خوفاً وانبسطوا في أنحاء عكا وحصّنوا في هذه المدّة مواقفهم واصطنعوا ثلاثة أبراج من خشب ولما انقضى الشتاء عاد صلاح الدين من الخروبة ومعه عساكر الجزيرة وسورية وعادت نار الحرب تتأجّج، فأحرق المسلمون الأبراج المذكورة، وبعد مغالبات كثيرة بين الفرنج والمسلمين ووصل ملك إنكلترا وملك فرنسة وبقايا عسكر ملك ألمانيا إلى عكا فارتاع المسلمون وضايقهم الفرنج وأصاب صلاح الدين مرض أعجزه عن أن يشهد الحرب مع جنوده، فطلب المسلمون الأمان فأجابهم الفرنج إليه وتسلّم الفرنج عكا في ١٣ تموز سنة ١١٩١م بعد حصارها نحو سنتين. وكان من شروط الصلح أن يطلق صلاح الدين الأسرى النصارى ويطلق الفرنج الأسرى المسلمين وأن يدفع إلى الفرنج مايتي ألف دينار، وأن يرد عليهم خشبة الصليب. وانقضى زمان ولم ينجز صلاح الدين

وعده فهدده الفرنج بقتل المسلمين الذين في حوزتهم إن أخلف وعده، ولما لم يجبهم إلى طلبهم أخذوا ألفين وسبعماية أسير وقتلوهم قرب محلة صلاح الدين، فخرج عليهم المسلمون وقاتلوهم ولم تكن جدوى من قتالهم. وقد ذكر المؤرخون المسلمون قتل هؤلاء الأسرى وسموهم شهداء. ولما رأى صلاح الدين أنّه لا بدّ من استئناف الفرنج الحرب وخشي زيادة الانخذال خلى سبيل ألفي أسير من الفرنج ودفع إليهم مئتي ألف دينار ورد عليهم خشبة الصليب.

وفي مدة حصار عكا ماتت سبيليا بنت أموري الملك وزوجة لوسينيان ملك أورشليم وتوفي ولداها فكان ذلك سبباً للخلاف بين الفرنج، فان كونراد والي صور تزوج بايزابال أخت الملكة خلافاً لرسوم الكنيسة لأنّها كانت مزوجة، وادّعى المُلك وأراد خلع لوسينيان وكان لكل منهما محازبون وكان في آخر الأمر أنّ ريشار ملك انكلترا أعطى لوسينيان قبرص وسماه ملكاً عليها وقام هو في مقام ملك أورشليم. وكان ملكا فرنسة وانكلترا يظهر أحدهما الوداد للآخر في أوّل الأمر ثمّ وقع بينهما التحاسد والغيرة، ومرض فيليب ملك فرنسة فحمله مرضه والتحاسد بينهما على العود إلى ملكه، فعاد في آخر تموز من السنة المذكورة وترك من جنوده عشرة آلاف مقاتل بامرة أوغو الثالث دوك بركونيا، فمات هذا الدوك في صور السنة التالية أي سنة ١١٩٢م وبقي ريشار ملك انكلترا وحده على إمرة الصليبيين. انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم).

عد ٨٤٣

المدن التي أخذها الفرنج من المسلمين بعد فتح عكا

هذا ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك إنّ الفرنج بعد تقريرهم أمر عكا ساروا نحو يافا فضايقهم المسلمون في مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس، ووقعوا على ساقتهم فأسروا جماعة وقتلوا جماعة، وعاد ملك الإنكليز إلى الساقة فحماها وجمعها فأخذ الفرنج قيسارية وساروا منها إلى أرسوف، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف وكان المسلمون قد سبقوهم إليها وحملوا عليهم عند وصولهم إليها حتى ألحقوهم بالبحر، فاجتمع الفرنج وحملت فرسانهم على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد، ووصلوا إلى سوق

المسلمين وقتلوا من السوقة وغيرهم خلقاً كثيراً، ثمّ سار الفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون فملكها الفرنج. ثمّ رأى صلاح الدين تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لهما ما حصل لعكا، فسار إليها وأخلاها وخربها ورتب الحجارين في تفليق أسوارها، فدكها إلى الأرض ثمّ خرّب حصن الرملة وخرب كنيسة اللد ثمّ سار إلى القدس ورتب أموره، وعاد إلى مخيمه بالنطرون ثمّ تراسل الفرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل أخو السلطان بأخت ملك إنكلترا، ويكون للملك العادل القدس وكل ما بيد المسلمين من الشام، ويكون لامرأته عكا وكل ما بيد الفرنج، فأنكر القسيسون على أخت الملك ذلك إلّا أن يتنصّر الملك العادل، فلم يتّفق بينهم حال. ثمّ رحل الفرنج من يافا إلى الرملة على عزم أن يفتحوا القدس وكان في كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات وعظم الخطب واشتدّ الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين باللقاء، وأقبل الشتاء وحالت الأوحال والأمطار بينهما، وأعطى صلاح الدين الدستور لعسكره ليستريحوا وسار هو إلى القدس وأخذ في تحصينها وتجديد ما رثّ منها، وكان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتدي به العسكر. وسار الفرنج من الرملة إلى النطرون قاصدين القدس، وكانت بينهم وبين المسلمين وقعات أسر في وقعة منها نحو خمسين فارساً من مشهوري الفرنج وعاد الفرنج، إلى الرملة لقطع المسلمين طريق الميرة عنها.

وفي سنة ٥٨٨هـ سنة ١١٩٣م رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا في عمارتها وكان صلاح الدين بالقدس، وكان قتال شديد بينهم وبين المسلمين فاستولى الفرنج على حصن الداروم فخرّبوه ثمّ ساروا إلى القدس وصلاح الدين فيه، فبلغوا بيت نوبة ولم يكن عند صلاح الدين إلّا بعض العساكر المصرية، ولما سمع صلاح الدين بقربهم فرّق أبراج البلد على أمرائه، وسار الفرنج من بيت نوبة إلى قلونية وهي على فرسخين من القدس، فصبّ عليهم البلاء فعلم الفرنج أنّه إذا نازلوا القدس كان الشر إليهم أسرع والتسلط عليهم أمكن، فرجعوا القهقرى. ولما بعد الفرنج عن يافا سيّر صلاح الدين سرية من عسكره إليها وقاربوها وكمنوا عندها فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم فقتلوا منهم وأسروا وغنموا، وعلم الفرنج أنّ بعض أمراء صلاح الدين عادوا إليه ولحقتهم العساكر الشرقية عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار، واجتمعت العساكر بدمشق وأيقن الفرنج أنّ لا طاقة لهم بها إذا فارقوا البحر، فعادوا نحو عكا يظهرون العزم على فتح بيروت فأمر

صلاح الدين ولده الأفضل أن يسير إليها في العساكر الشرقية معارضاً للافرنج في مسيرهم إلى بيروت، وخيّم الأفضل بمرج عيون فلما بلغ الفرنج ذلك أقاموا بعكا ولم يفارقوها.

ولما رحل الفرنج إلى عكا سار صلاح الدين إلى يافا في عسكر حلب وغيرها فنازلها وملكها عنوةً ونهبها المسلمون وغنموا ما فيها وقتلوا الفرنج وزحفت العساكر إلى القلعة وقاتلوا عليها آخر النهار وكادوا يأخذونها، فخرج البطريرك وعدة من الفرنج ووعدوا المسلمين أن يسلّموا إليهم القلعة بكرة غد، ولما كان الصباح أتتهم نجدة وأدركهم ملك إنكلترا فأخرج من بيافا من المسلمين وبرز إلى ظاهر المدينة واعترض المسلمين وحمل عليهم فلم يتقدم إليه، وعاد صلاح الدين إلى الرملة لينظر ما يكون من الفرنج فلزموا يافا ولم يبرحوا منها.

وفي هذه السنة قتل كونراد صاحب صور. والذي رواه ابن الأثير أنّ صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيلية وهو سنان ليرسل من يقتل ملك الإنكليز، وان قتل المركيز صاحب صور فله عشرة آلاف دينار، فلم يمكنهم قتل ملك الانكليز أو لم يره سنان مصلحة لئلا يخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ للاسماعيلية، فعول إلى قتل المركيس وأرسل رجلين بزي الرهبان فقتلاه، ولما قتل ولي صور بعده كند (كونت) من الفرنج في داخل البحر يقال له الكند هنري.

وأما رواية المؤرخين الفرنج لأخبار هذه الأحداث فلا تختلف جوهراً عن رواية المؤرخين المسلمين لها، مع ذلك نورد ما رووه بما أمكن من الإيجاز تحقيقاً للأخبار وطمعاً بالفائدة من زيادة التفصيل. قالوا إنّ النصارى بعد أن قرروا أمر عكا ساروا نحو يافا وعدد جيشهم نحو مابة ألف مقاتل بإمرة ريشار ملك إنكلترا، وكان لهم في مسيرهم مناوشات مع المسلمين الذين ما انفكوا يرمونهم بالسهام ويقطعون الطرق عليهم، ولم يكن عسكر الفرنج يتمكّن من أن يسير أكثر من ثلاثة فراسخ في اليوم، ولما دنوا من قيسارية أصاب سهم الملك ريشار بفخذه وكان مسيرهم والبحر على يمينهم وعن شمالهم الجبل مشحون بجنود المسلمين، وبعد أن عبروا غابة أرسوف وجدوا في الصحراء هناك مئتي ألف مقاتل من المسلمين فاستعدّ الملك ريشار لقتالهم دون أن يتوقف عن المسير، فأمر جنده أن لا يتجاوزوا حد الدفاع إلّا أن يعلمهم بالهجوم، ثمّ ألحم بعض الفرسان الكماة الحرب فحمي وطيسها بين

الجميع وكان الملك ريشار يتسارع إلى حيث يرى حاجة إليه، وكان القتال شديداً والقسطل حالكاً وقد دنا المتحاربون بعضهم من البعض حتى قتل كثيرون من الفرنج بأيدي الفرنج أنفسهم لظنّهم أنّهم مسلمون. ودارت الدوائر على المسلمين حتى روى بهاء الدين المؤرخ المسلم الذي كان في هذه الحرب أنّه لم يجد حول صلاح الدين إلّا سبعة عشر مملوكاً من مماليكه، وسار الفرنج نحو أرسوف فأتى بعض المسلمين ووثبوا على ساقة جيشهم فعاد ريشار إليهم وشتّت شملهم وخسر صلاح الدين في هذه الحرب ثمانية آلاف مقاتل والفرنج ألفاً. ولما رأى صلاح أنّ بعض الحصون الباقية بيده لا تتحمّل شدّة وثبات الفرنج وأنّ الرعب استحوذ على قلوب جنوده فلا يمكنهم حفظها عمد على دكها كما رواه المؤرخون المسلمون.

ووقع في هذه الأثناء ريشار ملك إنكلترا بخطر، ذلك أنّه سار للصيد في غاب سارون ونام في ظلّ شجرة، فأسرعت شرذمة من المسلمين لقتله أو أسره، فعلا جواده وأخذ يدافع عن نفسه، واحتاطه الأعداء من كل جهة، فصاح أحد الفرسان من تبعته سماه المؤرخون غوليلمس براتل باللغة العربية: أنا الملك فانقذوني فانكفّ الأعداء عن الملك وأحاطوا بهذا الفارس وأسروه وأتوا به إلى صلاح الدين فأرسله إلى دمشق ففداه الملك بعشرة أمراء من أمراء صلاح الدين كانوا أسرى عند الفرنج.

وبعد أن ملك الفرنج يافا وجدّدوا أسوارها قصدوا أورشليم لكنّهم رأوا أنّه لا بدّ لهم قبل ذلك من أن يحصّنوا أسوار بعض المدن وشرعوا في تحصين عسقلان. وصادق هؤلاء المؤرخون على ما رواه المؤرخون المسلمون من محاولة الفرنج حينئذٍ فتح أورشليم واكراههم على الرجوع عن قصدهم وعودهم إلى يافا ثمّ مسيرهم إلى عكا واستيلاء صلاح الدين على يافا وعود الملك ريشار بحراً إليها وطرده المسلمين من المدينة وانتصاره على صلاح الدين في ظاهرها.

ومما رواه المؤرخون الفرنج أنّه بينما كان الملك ريشار في عسقلان أتته الأخبار بأن أخاه يوحنا يغدر به ويريد أخذ ملكه منه، فجمع رجال مشورته وأنبأهم بما كان وعالنهم بأنّ مصلحة ملكه تضطره إلى ترك الشرق، وقال إن تركت فلسطين تركت فيها ثلاث مئة فارس وألفي رجل من نخبة جيشي، فأسف جميعهم لاضطراره أن يبرح فلسطين في هذه الحال وسألوه أن يختار قبل سفره ملكاً لأورشليم يجمع القلوب إليه ويزيل الخلاف، فقال من ترون أهلاً لذلك فأجمع رأيهم على المركيس

كونراد والي صور، ولم يكن الملك يحبه بل كان يقدّر شجاعته ودربته حقّ قدرهما، فرضيه وأرسل ابن أخيه كونت شمبانيا يبشره بذلك. وكان كونراد عقد سراً مع صلاح الدين معاهدة واتفقا معاً فدهش من اختيار ريشار له ملكاً، ولم يقدر أن يخفي سروره، ولكي يبرئ نفسه ويظهر ورعه رفع عينيه إلى السماء فقال: «إلهي ملك الملوك مر بتتويجي ملكاً إن رأيتني أهلاً وإلّا فابعد عن رأسي هذا الإكليل». وبعد أيام قليلة كان مقتل كونراد كما ذكره المؤرخون العرب ووقعت أنظار أهل صور على هنري كونت شمبانيا. وكان هنري نسيباً لريشار ملك إنكلترا وفيليب ملك فرنسة وسألوه أن يملك فيهم وأن يتزوج أرملة كونراد إيزبال بنت الملك أموري، وقدّمت له إيزبال نفسها مفاتيح مدينة صور فتزوجها وعرفه الفرنج ملكاً عليهم، وأثبته ريشار وتخلى له عن كل ما أخذه في فلسطين. ورأى ريشار أنّ مصلحة مملكته تقضي عليه بالرجوع إليها، ورأى صلاح الدين أنّه لا طاقة لهُ على حرب الفرنج وريشار الملك فعزم الفريقان على عقد هدنة بالشروط الآتي ذكرها، وسار ريشار عائداً إلى بلاده وكان نجاحه في الشرق وإساءته إلى كثيرين من الفرنج في سورية قد جعلا له أعداء في كل مملكته. ولذلك لما قذفت الريح شوانيه في دلماسيا قبض عليه ليوبولد دوك النمسا وأراد أن يبيعه وتقدّم أعداؤه لشرائه ولاسيما أنريكس السادس ملك ألمانيا، فانتصر له الحبر الروماني وحرم كل من يهينه فخلى سبيله وعاد إلى ملكه. (انتهى ملخصاً عن كثيرين وبعضهم من الشهود العيانيين).

عد ٨٤٤

الهدنة التي عقدت بين الفرنج والسلطان صلاح الدين

هذا ما قاله المؤرخون المسلمون. في ٥٥٨هـ سنة ١١٩٣م عقدت هدنة بين السلطان صلاح الدين وملك الفرنج وسبب ذلك أنّ ملك الانكليز كاتب الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح فلم يجبهم السلطان إلى ذلك ثمّ اتفق رأي الأمراء على ذلك لطول البيكار وضجر العساكر ونفاذ نفقاتهم، فأجاب السلطان إلى ذلك واستقرّ أمر الهدنة في يوم السبت ثامن عشر شعبان الموافق أوّل أيلول وتحالفوا على ذلك في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان (٥ أيلول)، ولم يحلف ملك الإنكليز بل أخذوا يده وعاهدوه، واعتذر بأنّ الملوك لا يحلفون

وقنع السلطان بذلك وحلف الكند (الكونت) هري (هنري) ابن أخيه وخليفته في الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الفرنج واستحلفوا الملك العادل أخا السلطان والملك الأفضل والظاهر ابني السلطان، والملك المنصور صاحب حماه محمّد بن تقي الدين عمر، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص، والملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك وغيرهم من الأمراء والمقدّمين الكبار. وعقدت هدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدّتها ثلاث سنين وثلاث أشهر. وعن ابن الأثير ثمانية أشهر وكانت الهدنة أن يستقر بيد الفرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها وارسوف وعملها وعكا وعملها وحيفا وعملها وأن تكون عسقلان خراباً، واشترط السلطان دخول بلاد الاسماعيلية في عقد هدنته واشترط الفرنج دخول صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس في عقد هدنتهم وان تكون اللد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، فاستقرّت القاعدة على ذلك وأذن السلطان للفرنج في زيارة بيت المقدس فزاروه وتفرقوا، ثمّ رحل السلطان إلى القدس وتفقد أحواله وأمر بتشييد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصند (سانت) حنه يذكرون أنّ فيها قبر حنه أم مريم، ثمّ صارت في الإسلام دار علم قبل أن يملك الفرنج بالقدس، ولما ملكوا القدس أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد، ولما استقرّ أمر الهدنة أرسل مابة حجار لتخريب عسقلان وأن يخرج من بها من الفرنج ورحل السلطان عن القدس إلى نابلس ثمّ إلى بيسان ثمّ إلى كوكب ثمّ إلى طبرية ثمّ إلى بيروت ووصل إلى خدمته بيموند صاحب أنطاكية فأكرمه السلطان وسار إلى دمشق وفرح الناس به وأقام العدل والإحسان بدمشق وأعطى العساكر الدستور (انتهى ملخصاً عن ابن الأثير وأبي الفداء).

وقد وافق المؤرخون الفرنج المؤرخين المسلمين على ذلك، وقالوا إنّ مدّة الهدنة ثلاث سنين وثمانية أشهر كما ذكرها ابن الأثير، وأنّ القدس يكون بابه مفتوحاً لزيارة الفرنج يحجون إليه دون سلاح وأنّ مدن الساحل من يافا إلى صور تكون بيدهم، وكان كل من الفريقين يدعي عسقلان، وقرّ الأمر أخيراً أن تكون خراباً وحلف رؤساء جيش المسلمين على القرآن ورؤساء جيش الفرنج على الإنجيل، وصادقوا على أنّ ريشار الملك لم يحلف بل أخذ يد المفوضين بعقد الهدنة. وبعد استقرار الهدنة سار من الفرنج من قصدوا العود إلى أوروبا يحجون إلى القبر

المقدّس الذي لم يتمكّنوا من إنقاذه، فدخلوا المدينة أفواجاً دون سلاح، وبذل صلاح الدين مجهوده في رعاية حق الضيافة لهم وأرسل الملك ريشار أسقف ساليسبوري ليحج عنه، فعامله صلاح الدين بالتجلة والتكريم وحدّثه ملياً في شأن الحرب المقدّسة.

عد ٨٤٥

وفاة السلطان صلاح الدين ومن ملك بعده

كان صلاح الدين بعد عقد الهدنة مع الفرنج تحسن له نفسه أن يغزو إلى آسيا الصغرى ويأخذ ما فيها للمسلمين وللملك الروم ويفتتح قسطنطينية ويتطرق إلى الفرنج ببلادهم، فانّه كان يألف التعب ويأنف الراحة، وخرج إلى شرقي دمشق متصيداً وغاب خمسة عشر يوماً وعاد ثمّ خرج لملتقى الحجاج ورجع بين البساتين إلى القلعة وكانت هذه آخر ركباته فقد أصابته حمى وأخذ المرض في التزايد، وقصده الأطباء فلم تنجع به أدويتهم وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته وتوفي ليلة السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ سنة ١١٩٤م ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضاً فيها، ثمّ عمل الملك الأفضل تربة قبالة الجامع وكانت داراً لرجل صالح ونقل رفاته إليها سنة ٥٩٢هـ سنة ١١٩٧م، وكان مولد صلاح الدين بتكريت سنة ٥٣٢هـ سنة ١١٣٨م فيكون عمره عند وفاته ٥٧ سنة هجرية، وكانت مدّة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة وملكه الشام قريباً من تسع عشرة سنة، وخلّف سبعة عشر ولداً ذكراً وبنتاً واحدة، وكان أكبر أولاده الأفضل نور الدين ملك بدمشق بعده، والبنت تزوجها بعد وفاته ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر، ولم يخلف صلاح الدين في خزائنه غير سبعة وأربعين درهماً. وهذا دليل قاطع على فرط كرمه، ولم يخلف داراً ولا عقاراً وقيل إنّه قبل وفاته أمر أحد أمرائه أن يطوف بدمشق بكفنه منادياً هذا ما يأخذه صلاح الدين فاتح المشرق من فتوحه. وكان حسن الخلق صبوراً على ما يكره كثير التفاعل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد في مجلسه أحداً إلّا بالخير.

ولما توفي صلاح الدين استقرّ في الملك بدمشق وبلادها ولده الملك الأفضل نور

الدين علي، وبالديار المصرية ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان، وبحلب ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي، وبالكرك والشوبك والبلاد المشرقية العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وبحماة وسلمية والمعرة ومنبج الملك المنصور ناصر الدين محمّد بن الملك المظفر تقي الدين عمر، وبعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه من أنسبائه، وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمّد بن شيركوه إلى غير هؤلاء. والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان صلاح الدين والمعهود إليه بالسلطنة. واستوزر ضياء الدين ابن الأثير مصنف المثل السائر وهو أخو عز الدين ابن الأثير مؤلّف التاريخ السمّى بالكامل، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ففارقوه إلى أخويه العزيز بمصر والظاهر بحلب. ولما اجتمع أكابر الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد في السلطنة ووقعوا في أخيه الأفضل ملك دمشق فمال إلى ذلك وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز.

عد ٨٤٦
بعض الأحداث إلى نهاية هذا القرن

في سنة ٥٩٠هـ سنة ١١٩٥م استحكمت الوحشة بين الأخوين العزيز صاحب مصر والأفضل صاحب دمشق ابني صلاح الدين فسار العزيز في عسكر من مصر وحصر أخاه الأفضل بدمشق، فأرسل الأفضل يستنجد عمّه العادل وأخاه الظاهر صاحب حلب وابن عمه الملك المنصور صاحب حماه، فساروا إلى دمشق وأصلحوا بين الأخوين ورجع العزيز إلى مصر ورجع كل ملك إلى بلده، وأقبل الملك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الأغاني والأوتار ليلاً ونهاراً، وأشاع ندماؤه أنّ عمّه الملك العادل حسّن له ذلك وكان يعلمه خفية، وفوض الأفضل أمر المملكة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري يديرها برأيه الفاسد ثمّ أظهر الأفضل التوبة عن ذلك وأزال المنكرات وواظب على الصلوات وشرع في نسخ مصحف بيده.

وفي سنة ٥٩١ هـ سنة ١١٩٦م عاود الملك العزيز صاحب مصر قصد الشام ومنازلة أخيه الملك الأفضل فسار نحو دمشق فاضطرب عليه بعض عسكره وفارقوه، فعاد إلى مصر بمن بقي معه وكان الملك الأفضل قد استنجد بعمه الملك العادل، فلما رحل أخوه العزيز إلى مصر تبعه الملك الأفضل والملك العادل ومن انضمّ إليهما

طالبين مصر فساروا حتى نزلوا على بلبيس، وقد ترك العزيز فيها جماعة من الصلاحية فقصد الملك الأفضل مناجزتهم بالقتال فمنعه عمه الملك العادل، وقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيلاء عليها فمنعه عمه العادل أيضاً وقال بمصر لك متى شئت وكاتب العادل العزيز بالباطن وأمره بارسال القاضي ليصلح بين الأخوين فأصلح بينهما وأقام الملك العادل عند العزيز بمصر وعاد الأفضل إلى دمشق ولزم الزهد والقناعة وترك الأمر لوزيره المذكور فكثر شاكوه وقلّ شاكروه.

وفي سنة ٥٩٢هـ سنة ١١٩٧م بلغ الملك العادل والملك العزيز بمصر اضطراب الأمور على الملك الأفضل بدمشق فاتفقا على أن يأخذا دمشق من الأفضل ويسلمها العزيز إلى العادل لتكون الخطبة والسكة للملك العزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه صلاح الدين، فخرجا من مصر حتى نزلا على دمشق وكان الملك الأفضل قد حصّنها وكاتب الملك العادل بعض الأمراء من داخل البلد وصاروا معه ووعدوه بتسليم البلد، فدخلها الملك العزيز من باب الفرج والملك العادل من باب توما وأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة أيضاً وانتقل منها بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره ضياء الدين المذكور مختفياً بصندوق خوفاً عليه من القتل، وأعطى الملك الأفضل صرخد فسار إليها بأهله واستوطنها، وبعد أن دخل الملك العزيز دمشق سلمها إلى عمه الملك العادل فأبقى السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز.

وفي سنة ٥٩٤هـ سنة ١١٩٩م وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت وسار الملك العادل إلى يافا وأتته نجدة من مصر ووصل إليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس، وهجم على يافا بالسيف فملكها وقتل من كان يقاتله بها. ونازل الفرنج تبنين فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر واجتمع بعمه الملك العادل على تبنين فرحل الفرنج عنها إلى صور خائبين وعاد الملك العزيز إلى مصر وترك أكثر العسكر مع الملك العادل وجعل إليه أمر الحرب والصلح فطاول الملك العادل الفرنج فطلبوا الهدنة فاستقرت بينهم ثلاث سنين وعاد الملك العادل إلى دمشق.

وفي سنة ٥٩٥هـ سنة ١٢٠٠م توفي الملك العزيز صاحب مصر بحمى أصابته بأثر قنطرة عن جواده واشتدّت حماه، وحدث به يرقان وقرحة في إمعائه واحتبس

طبعه فمات في السنة المذكورة بعد أن ملك ست سنين إلّا شهراً. فأقام بالملك بعده ولده الملك المنصور محمَّد وكان عمره حينئذٍ تسع سنين. واتّفق الأمراء على إحضار أحد من بني أيوب ليقوم بالملك ووقع اختيارهم على الملك الأفضل وهو بصرخد وأرسلوا إليه فسار حثيثاً مختفياً خوفاً من عمه الملك العادل فصير اتابك أي أمير الأمراء عند الملك المنصور ابن أخيه، وأشار عليه أخوه الملك الظاهر صاحب حلب أن يقصد دمشق ويأخذها من عمه الملك العادل فسار الملك الأفضل في العساكر إلى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره وهو محاصر ماردين فسار إلى دمشق ووصل إليها قبل الملك الأفضل، ثمّ وصل الأفضل إلى دمشق وزحف إليها وجرى بينهما قتال، واتّصل الأفضل إلى باب البريد ولم يمده العسكر فتكاثر أصحاب العادل وأخرجوهم من البلد. ووصل الملك الظاهر صاحب حلب منجداً لأخيه الأفضل مضايقاً المدينة ودام الحصار وقلّت الأقوات فيها وعزم العادل على تسليم البلد، فحصل بين الأخوين الأفضل والظاهر خلاف أدّى إلى ترك حصار دمشق. (انتهى ملخصاً عن ابن الأثير وأبي الفداء).

وأما المؤرخون الفرنج فقالوا في فتحهم بيروت وغيرها ما ملخّصه أنّ البابا شالستينوس الثالث اغتنم فرصة وفاة صلاح الدين فدعا أمراء أوروبا ليهتموا باسترجاع أورشليم فلبى أنريكس السادس ملك ألمانيا دعوته مع أنّه كان محروماً لأنّه شرى ريشار ملك انكلترا وسجنه فتألّب عسكر في ألمانيا وإيطاليا وساروا بحراً إلى سورية وأخذوا بعض المدن الساحلية التي كانت بيد المسلمين، منها اللاذقية وجبلة وبيروت وصيدا واستفكوا نحو تسعة آلاف أسير ولكن وقع الخلاف بينهم إذ لم يكن ملك يجمع كلمتهم فانّ هنري دوك شمبانيا وملك أورشليم سقط به رواق أو سقط هو من شباك فانشج رأسه ومات وكان بعض الفرنج المتوطنين بسورية لا يريدون نقض الهدنة بينهم وبين المسلمين إلى أن نقضها الملك العادل بحصاره يافا وفتحها وبمنازلته الفرنج على تبنين وترحيلهم عنها، ثمّ تجدّدت الهدنة بين الفرنج والمسلمين إلى ثلاث سنين، وبعد وفاة ملك أورشليم تزوجت أرملته ايزبال بنت أموري الملك زيجة ثالثة باموري دي لوسينيان أخي كوي دي لوسينيان ملك قبرص وكلل ملكاً سنة ١١٩٧م.

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدنيويين في القرن الثاني عشر

عد ٨٤٧

المشاهير السوريون

محمّد بن الخضر المعرّي

ذكره الصلاح الكتبي في «فوات الوفيات» فقال هو ابن الحسن بن القاسم أبو اليمن بن أبي مهزول التنوخي المعروف بالسابق من أهل المعرة. قال ابن النجار كان شاعراً مجيداً مليح القول حسن المعاني رشيق الألفاظ دخل بغداد وجالس ابن باقيا والأبيوردي والخطيب التبريزي وأنشدهم شعره وعمل رسالة لقّبها تحفة الندمان أتى بها بكل معنى غريب يشتمل على عشر كراريس ومما ذكره من شعره:

واغيد واجه المرآة زهواً … فحرّق بالصبابة كل نفسِ

وليس من العجائب أن تأتى … حريق بين مرآة وشمسِ

ومنه أيضاً

حلمت على السفيه فزاد بغياً … وعاد فكفه سفهي عليه

وفعلي الخير من شئمي ولكن … أتيت الشر مدفوعاً إليه

وقال وكانت وفاته بعد الخمسماية. فسنة الخمسماية للهجرة هي سنة ١١٠٧ للميلاد فلا نعلم في أية بعدها كانت وفاته.

ابراهيم الغزي الشاعر

قال في حقه ابن خلكان هو أبو اسحق ابراهيم بن يحيى إلى محمّد الأشهبي. وقال ابن النجار في تاريخ بغداد هو ابراهيم بن عثمان بن عباس إلى عبدالله الأشهبي الكلبي الغزي الشاعر المشهور ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق فقال دخل دمشق وسمع بها من الفقيه نصر المقدسي سنة ٤٨١هـ (١٠٩٨م) ودخل إلى بغداد وأقام بالمدرسة النظامية سنين كثيرة، ومدح ورثى غير واحد من المدرسين بها وغيرهم، ثمّ رحل إلى خراسان وامتدح بها جماعة من رؤسائها وانتشر شعره هناك وذكر له عدة مقاطيع من الشعر واثنى عليه. انتهى كلام الحافظ. وله ديوان شعر اختاره بنفسه وذكر في خطبته أنّه من ألّف بيت، وله قصيدة لناصر الدين بن العلا وزير كرمان ومما قاله فيها:

حملنا من الآثام ما لا نطيقه   كما حمل العظم الكسير العصائبا

وقال في قصر الليل:

وليل رجونا أن يدب عذاره   فما اختط حتى صار بالفجر شائبا

وله أيضاً:

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة   باب الدواعي والبواعث مغلق

خلت الديار فلا كريم يرتجى   منه النوال ولا مليح يعشق

ومن العجائب أنّه لا يشترى   ويخان فيه مع الكساد ويسرق

وقد توفي سنة ٥٢٤هـ سنة ١١٣١م ما بين مرو وبلخ من بلاد خراسان ونقل إلى بلخ ودفن فيها ونقل عنه أنّه كان يقول لما حضرته الوفاة أرجو أن يغفر لي ربي لثلاثة أشياء: كوني من بلد الإمام الشافعي، واني شيخ كبير جاوزت السبعين، واني غريب.

ابن منير الطرابلسي

قال فيه ابن خلكان هو أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي الملقّب مهذب الدين الشاعر المشهور، له ديوان شعر وكان أبوه ينشد الأشعار ويغني في أسواق طرابلس، وحفظ القرآن الكريم وتعلّم اللغة والأدب، وقال الشعر وقدم دمشق وسكنها، وكان رافضياً كثير الهجاء، ولمّا كثر ذلك منه سجنه بوري بن أتابك طغتكين صاحب دمشق مدة وعزم على قطع لسانه، ثمّ شفعوا فيه فنفاه وكان بينه وبين ابن القيسراني (الآتي ذكره) مكاتبات وأجوبة ومهاجاة، وكانا مقيمين بحلب ومتنافسين في صناعتهما كما جرت عادة المماثلين ومن شعره من جملة قصيدة:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله ... في منزل فالحزم أن يترحلا

فالبدر لما ان تضاءل جدّ في ... طلب الكمال فحازه متنقلاً

ساهمت عيشك مرّ عيشك قاعداً ... أفلا فليت بهنّ ناصية الفلا

فارق ترق كالسيف سل فبان في ... متنيه ما أخفى القراب واخملا

لا تحسبن ذهاب نفسك ميتة ... ما الموت إلّا أن تعيش مذللا

للفقر لا للفقر هبها إنّما ... مغناك ما أغناك أن تتوسلا

لله علمي بالزمان وأهله ... ذنب الفضيلة عندهم أن تكملا

طبعوا على لوم الطباع فخيرهم ... إن قلت قال وان سكت تقولا

وكانت ولادته سنة ٤٩٣هـ سنة ١١٠٠م بطرابلس وكانت وفاته سنة ٥٤٨هـ سنة ١١٥٤م بحلب ودفن بجبل جوشن بقرب المشهد الذي هناك. قال ابن خلكان زرت قبره ورأيت عليه مكتوباً:

من زار قبري فليكن موقناً ... إنّ الذي ألقاه يلقاهُ

فيرحم الله أمرءاً زارني ... وقال لي يرحمك الله

ولكن وجدت في ديوان أبي الحكم عبيد الله أنّ ابن منير توفي بدمشق سنة ٥٤٧هـ أي سنة ١١٥٣م، ورثاه بأبيات تدل على أنّه مات بدمشق، منها وهي هزلية على عادته:

أثوابه فوق أعواد تسير به وغسلوه بشطي نهر قلوط
واسخنوا الماءَ في قدر مرصصة وأشعلوا تحته عيدان بلوط

وعلى هذا التقدير فيحتاج إلى الجمع بين هذين الكلامين فعساه أن يكون قد مات في دمشق، ثمّ نقل إلى حلب فدفن بها والله أعلم.

ابن عساكر الدمشقي

هو الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمّد الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر الدمشقي، كان محدث الشام في وقته ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غلب عليه الحديث فاشتهر به وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره، وجاب البلاد ولقي المشايخ ثمّ عاد إلى دمشق ثمّ رحل إلى خراسان وصنف التصانيف المفيدة، وكان حسن الكلام على الأحاديث صنف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلداً أتى فيه بالعجائب، وهو على نسق تاريخ بغداد. وقد استعظمه العلماء وقال بعضهم أنّ العمر يقصر عن أن يجمع الانسان فيه مثل هذا التأليف وله شعر لا بأس فيه ومنه قوله على ما قيل:

إلّا أنّ الحديث أجل علم وأشرفه الأحاديث الأعالي
وانفع كل نوع منه عندي وأحسنه الفوائد والامالي
وانّك إن ترى للعلم شيئاً تحققه كأفواه الرجالِ
فكن يا صاح ذا حرص عليه وخذه من الرجال بلا ملالِ
ولا تأخذه عن صحف فترمى من التصحيف بالداء العضال

ومن المنسوب إليه أيضاً:

أيا نفس ويحك جاء المشيب فماذا التصابي وماذا الغزل
تولى شبابي كأن لم يكن وجاءَ مشيبي كأن لم يزل
كأني بنفسي على غرة وخطب المنون بها قد نزل
فيا ليت شعري ممن أكون وما قدر الله لي في الأزل

وكانت ولادته أول سنة ٤٩٩هـ سنة ١١٠٥م وتوفي سنة ٥٧١هـ سنة ١١٧٥م بدمشق ودفن بها وحضر الصلاة عليه السلطان صلاح الدين.

ابن الذكي الدمشقي

هو أبو المعالي محمّد بن أبي الحسن إلى ابان بن عثمان بن عفان الأموي القرشي الملقب يحيي الدين إبن زكي الدين الدمشقي الفقيه الشافعي، كان ذا فضائل عديدة من الفقه والآداب وغيرهما، وله النظم المليح والخطب والرسائل، وتولى القضاء بدمشق سنة ٥٨٨هـ سنة ١١٩٣م وكانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة العالية والمكانة المكينة، ولما فتح السلطان صلاح الدين حلب أنشده القاضي المذكور قصيدة منها البيت المتداول وقد مرّ ذكره:

وفتحك القلعة الشهباء في صفرٍ مبشر بفتوح القدس في رجبِ

وفوضه السلطان حينئذٍ الحكم والقضاء بحلب فاستناب بها زين الدين بنا البانياسي وله خطبة مشهورة القاها بامر السلطان صلاح الدين بالقدس في اول جمعة بعد الفتح، وكانت ولادته سنة ٥٥٠ هـ سنة ١١٥٦م ووفاته سنة ٥٩٨هـ سنة ١٢٠٢م.

ابن القيسراني

هو ابن عبد الله محمد بن نصر إلى خالد بن الوليد المخزومي الخالدي الحلبي الملقب شرف المعالي المعروف بابن القيسراني. وكان من الشعراء المجيدين والادباء المتقين، وكان هو وابن منير الطرابلسي شاعري الشام في ذلك العصر وجرت بينهما وقائع ونوادر وملح. وكان ابن منير ينسب إلى التحامل على الصحابة ويميل إلى التشيع فكتب اليه ابن القيسراني:

ابـن مـنـيـر هـجـوت مـنـي   خـبـرا افـاد الـورى صـوابـه

ولم تـضـيـق بـذاك صـدري   فـان لـي اسـوة الـصـحـابـة

ومن محاسن شعره قوله:

كم ليلة بت من كاسي وريقته   نشـوان امزج سلسالا بسلسال

وبات لا تحتمي عني مراشفه   كـأنمـا ثـغـره ثـغـر بـلا والـي

قال ابن خلكان قد ظفرت بديوانه وانا يومئذ بحلب ونقلت عنه اشياء منها قوله في مدح خطيب:

شـرح المنـبـر صـدرا   لـتـلـقـيـك رحـيـبـا

اتـرى ضـم خـطـيـبـا   مـنـك او ضـمـخ طـيـبـا

ومن معانيه البديعة:

هذا الذي سلب العشاق نومهم   أما ترى عينه ملأى من الوسن

وكانت ولادة القيسراني سنة ٤٨٧هـ سنة ١٠٨٦م بعكا، وتوفي سنة ٥٤٨هـ سنة ١١٥٤م بمدينة دمشق، ودفن بمقبرة باب الفراديس. والقيسراني منسوب إلى قيسرية فلسطين وله كتاب في الكلمات المتشابهة لفظا من الاسماء المنسوبة طبع في لندن سنة ١٨٦٥م.

محيي الدين الشهرزوري

هو ابن حامد محمد القاضي كمال الدين الشهرزوري الملقب محيي الدين. وقد دخل بغداد فتفقه على الشيخ ابي مصور ابن الرزاز ثم صعد إلى دمشق وولي قضاءها نيابةً عن والده، ثم انتقل إلى حلب وحكم نيابةً عن ابيه ايضاً سنة ٥٥٥هـ سنة ١١٦١م، وبعد وفاة والده تمكن عند الملك الصالح اخي نور الدين المذكور قبلاً صاحب حلب غاية التمكن، وفوض اليه تدبير مملكة حلب سنة ٥٧٣هـ سنة ١١٧٨م، ثم وشى به اعداؤه وحساده إلى الملك الصالح واقضت الحال انه لزم بيته، ثم رأى المصلحة مفارقة حلب فانتقل إلى الموصل وتولى قضاءها ودرس بمدرسة والده والمدرسة النظامية بالموصل، وتمكن عند صاحبها مسعود ابن مودود بن زنكي. واستولى على جميع الامور وكان محيي الدين جواداً سريّاً قيل انه انعم على فقهاء بغداد وادبائها وشعرائها ومحاويجها عند رسالته اليها بعشرة آلاف دينار اميرية. ويقال انه في مدة حكمه بالموصل لم يعتقل غريماً على دينارين فما دونهما بل كان يوفيهما عنه وله اشعار جيدة منها قوله في وصف جرادة:

لها فخذا بكرٍ[1] وساقا نعامةٍ — وقاومتا[2] نسرٍ وجؤجؤ[3] ضيغمِ
حبتها افاعي الرمل بطناً وانعمت — عليها جياد الخيل بالرأس والفمِ

وله في وصف نزول الثلج من الغيم:

ولما شاب رأس الدهر غيظاً — لما قاساه من فقد الكرام
اقام يميط عنه الشيب غيظاً — وينثر ما اماط على الانام

وكانت ولادته سنة ٥١٠هـ سنة ١١١٧م وتوفي سنة ٥٨٦هـ سنة ١١٩١م.

---

(١) الناقة (٢) الريشتان اللتان في أعلى الجانح (٣) صدر.

تقية ابنة الصوري

هي امُّ علي تقية ابنة ابي الفرج ابي جعفر السلمي الارمنازي الصوري، كانت فاضلة ولها شعر جيد قصائد ومقاطيع، وصحبت الحافظ احمد ابن محمد السلفي الاصبهاني زماناً بالاسكندرية، وذكرها في بعض تعاليقه واثنى عليها وكتب بخطه. عثرتُ في منزل سكناي فانجرح اخمصي فشقت وليدة في الدار خرقةً من خمارها وعصبته فانشدت تقية للحال:

لو وجدت السبيل جدت بخدي عوضاً من خمار تلك الوليدة

كيف لي ان اقبل اليوم رجلاً سلكت دهرها الطريق الحميدة

ولها غير ذلك اشياء حسنة ورووا ان تقية نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن اخي السلطان صلاح الدين، وكانت القصيدة خمرية ووصفت آلة المجلس وما يتعلق بها بالخمر، فلما وقف عليها الملك المظفر قال الشيخة تعرف هذه الاحوال من زمان صباها. فبلغها ذلك فنظمت قصيدة اخرى حربية ووصفت آلة الحرب وما يتعلق بها احسن وصف، ثم صيرت اليه تقول علمي بهذا كعلمي بذاك وكان قصدها تبرئة ساحتها مما نسبه اليها. وكانت ولادتها سنة ٥٠٥هـ سنة ١١١٢م وتوفيت سنة ٥٧٩هـ سنة ١١٨٤م. والارمنازي نسبة إلى ارمناز هي قرية من اعمال دمشق وقيل من اعمال انطاكية وقيل من اعمال حلب بينها وبين عزاز اقل من ميل ثم توطن اهلها في صور.

ابن بري المقدسي

هو أبو محمّد عبدالله بن أبي بري بن عبد الجبار بن بري المقدسي الأصل المصري المقام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية، كان علّامة عصره ونادرة دهره وله على كتاب الصحاح الجوهري حواشٍ فائقة أتى فيها بالغرائب، واستدرك عليه بها في مواضع كثيرة وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه، وصحبه خلق كثير واشتغلوا عليه، ومن جملة من أخذوا عنه أبو موسى

الجزولي، وكان عارفاً بكتاب سيبويه وعلله وكان عليه التصفح في ديوان الانشاءات، ولا يصدر كتاب الدولة إلى ملك من ملوك النواحي إلّا أن يتصفّحه ويصلح ما به من خلل خفي. ويحكى أنّه كانت فيه غفلة ولا يتقيد بالاعراب بل يسترسل في حديثه كيف ما اتفق حتى قال يوماً لبعضِ تلامذته اشترِ لي قليل هندبا بعروقو فقال التلميذ هندبة بعروقه فقال له لا تأخذه إلّا بعروقو وان لم يكن بعروقو فلا أريده. قال ابن خلكان ورأيت له حواشي على درة الغواص في أوهام الخواص للحريري وله جزء لطيف في أغاليط الفقهاء وله الرد على ابن الخشاب في الكتاب الذي يبيّن فيه غلط الحريري في المقامات فانتصر ابن بري للحريري وما قصّر في ما عمله وكانت ولادته بمصر سنة ٤٩٩هـ سنة ١١٠٦م وتوفي سنة ٥٨٢هـ سنة ١١٨٧م وبريّ علم يشبه النسبة.

اسامة بن منقذ

هو أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد إلى منقذ الكناني الكلبي من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر، وأوّل من ملك هذه القلعة منهم سديد الملك ابن منقذ وكانت بيد الروم فنازلها وتسلمها بالأمان سنة ٤٧٤هـ سنة ١٠٨٢م ولم تزل في يده ويد أولاده إلى أن جاءت الزلزلة سنة ٥٥٢هـ ١١٥٨م. وكان سديد المُلك موصوفاً بالذكاء وقوة الفطنة. وحكي عنه أنّه جرى له أمر خاف منه على نفسه من محمود بن مرداس صاحب حلب، فرحل إلى طرابلس عند ابن عمار صاحبها فتقدّم ابن مرداس إلى كاتبه ابن النحاس الحلبي أن يكتب لسديد الملك كتاباً بتشوقه، ويستدعيه إليه. وفهم الكاتب أنّ ابن مرداس يقصد له شراً فكتب كما أمر وكتب أخيراً إن شاء الله تعالى. فشدّد النون وفتحها فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك عرضه على ابن عمار ومجلسه فاستحسنوه واستعظموا رغبة ابن مرداس في التقرب إليه فقال هو، أرى في الكتاب ما لا ترون فكتب الجواب وفي آخره أنا الخادم المقر بالإنعام وكسر الهمزة من أنا وشدّد النون ولمّا وصل الكتاب إلى ابن مرداس وقف عليه الكاتب وسرّ بما فيه وطابت نفسه إذ علم أنّ سديد الملك أدرك المعنى فكان قصد الكاتب من تشديد النون في قوله انّ شاء الله الإشارة

إلى قوله تعالى: «إنّ الملأ يأتمرون عليك ليقتلوك». وقصد سديد الملك بتشديد النون قوله انّا الخادم الاشارة إلى قوله تعالى «إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها. وقد توفي سديد الملك سنة ٤٧٥هـ سنة ١٠٨٣م، ومخلص الدولة ابن منقذ الذي ذكرنا ترجمته في القرن الحادي عشر هو والد أسامة الذي نكتب ترجمته هنا كما يؤخذ عن ابن خلكان في ترجمة سديد الملك المذكور.

ولأسامة بن منقذ تصانيف عديدة في فنون الأدب وقد أثنى عليه العلماء وقد سكن دمشق ثمّ انتقل إلى مصر ثمّ عاد إلى دمشق ثمّ رماه الزمان إلى حصن كيفا، فأقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين دمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين وله ديوان شعر في جزئين موجود في أيدي الناس. قال ابن خلكان قد رأيته بخطه ونقلت منه، ومما نقله عنه قوله في ابن طليب المصري وقد احترقت داره:

أنظر إلى الأيام كيف تسوقنا ... قسراً إلى الإقرار بالأقدارِ
ما أوقد ابن طليب قط بداره ... ناراً وكان خرابها بالنار

وقوله يصف ضعفه:

فأعجب لضعف يدي من حملها قلماً ... من بعد حكم القنا في لبة الأسدِ

وما كتبه إلى أبيه جواباً عن أبيات كتبها أبوه إليه:

وما أشكو تلون أهل ودي ... ولو أجدت شكيتهم شكوتُ
مللت عتابهم ويئست منهم ... فما أرجوهم في من رجوتُ
إذا أدمت قواصرهم فوادي ... كظمت على اذاهم وانطويتُ
ورحت عليهم طلق المحيا ... كأني ما سمعت وما رأيتُ
تجنوا لي ذنوباً ما جنتها ... يداي ولا أمرت ولا نهيتُ
ويوم الحشر موعدنا وتبدو ... صحيفة ما جنوه وما جنيتُ

وكان مولد أسامة سنة ٥٨٨هـ سنة ١٠٨٦م بشيزر وتوفي بدمشق سنة ٥٨٤هـ

سنة ١١٨٩م (قد أخذنا أكثر ما في هذا الفصل ملخصاً عن ابن خلكان في وفيات الأعيان).

عد ٨٤٨

بعض من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم في غير سورية

أبو حامد الغزالي

هو حامد بن محمّد زين الدين الغزالي الشافعي وقد ولد في طوس مدينة خراسان، ولذا يصفونه بالطوسي وكانت ولادته سنة ٤٥٠هـ سنة ١٠٥٩م ووفاته سنة ٥٠٥هـ سنة ١١١٢م، ولم يكن للشافعية في آخر عصره مثله. وقد اشتهر في علمه وزهده، ففي سنة ٤٨٨هـ سنة ١٠٩٦م ترك جميع ما كان عليه وسلك طريق التزهد والانقطاع وقصد الحج ورجع إلى دمشق فأقام مدة يذكر الدروس في زاوية الجامع، ثمّ انتقل إلى بيت المقدس واجتهد في العبادة ثمّ قصد مصر وأقام بالاسكندرية مدّة ثمّ عاد إلى وطنه بطوس وصنف كتباً مفيدة في عدة فنون منها ما هو أشهرها الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة في الفقه ومنها «إحياء علوم الدين» وهو من أنفس الكتب وأجلّها، وله في أصول الفقه «المستصفى» فرغ من تصنيفه سنة ٥٠٣هـ سنة ١١١٠م وله «المنحول والمنتحل في علم الجدل» وله «تهافت الفلاسفة» و«محك النظر» و«معيار العلم والمظنون به على غير أهله» و«المقصد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى» و«مشكاة الأنوار» و«المنقذ من الضلال» و«حقيقة القولين» إلى غير ذلك. ونسب إليه بعض الشعر ووزع أوقاته في آخر حياته على وظائف الخير إلى أن انتقل إلى ربه في السنة المذكورة. ورثاه الأبيوردي الشاعر المشهور بأبيات منها:

مضى وأعظم مفقود فجعت به   من لا نظير له في الناس يخلفه

(انتهى ملخصاً عن ابن خلكان).

وقد ذكره العلامة المطران أسطفان عواد السمعاني الشهير في كتابه فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية بفيرنسا وأثنى عليه في علمه وورعه وعدد كتبه

وقال إنّها نحو ستين مجلّداً خصّ بالذكر منها كتابه في علم الدين قسّمه إلى أربعة أجزاء وكل جزء إلى عشرة فصول تكلّم فيها على عبادة الله وأركان عقائد الدين ووصايا الإسلام والفضائل والرذائل، وكتابه في المعارف العقلية تكلّم به على صناعة القياس، وعلى ما وراء الطبيعة وعلى الغاية والمقاصد في الأعمال، وكتابه المنقذ من الضلال بيّن فيه ما ينافي أو يوافق دين الإسلام من أقوال الفلاسفة، وكتابه المظنون به على غير أهله يرد به ما يورده على سبيل الاعتراض على دين الاسلام، وكتابه مشكاة الأنوار تكلّم فيه على الله الذي هو النور الحقيقي ثمّ على الأنوار الثانية ويريد بها موسى وعيسى ومحمّد. وكتابه نصيحة الملك يخاطب به السلطان ملك شاه السلجوقي، وكتابه الخاتم تكلّم به على معنى الحروف العربية وعملها السحري وكتابه الموجز في علم النجوم، وكتابه الحاوي ما يعزى إليه من الأشعار الأدبية والفلسفية، ثمّ ذكر له كتاباً في ما وراء الطبيعة واللاهوت مقسوماً إلى سفرين، تكلّم في الأوّل على الذات والوجود والوحدة والجمع والضروري والممكن وفي حدوث الأشياء والجوهر والعرض، وتكلّم في الثاني على المعقولات والنفس البشرية وقواها، وعلى الأرواح الملائكة والشياطين، وعلى أسماء الله ووحدة ذاته وعلمه وخلقه السماء والأرض ووحيه وعنايته، وعلى النبوة ورسالة محمّد النبي وسمو مرتبة الأنبياء، وعلى الإيمان والفروض ويوم الدين والفردوس وجهنّم. وقد أخذ المطران المذكور كل هذه التعليقات عن كتبه الموجودة بالمكتبة المذكورة وجاء في كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع أنّ كتابه المنقذ طبع بباريس سنة ١٨٤٢م ثمّ في القسطنطينية ومصر، وأنّ كتابه مقاصد الفلاسفة طبع منه ما يتعلّق بالمنطق في لايدن سنة ١٨٨٨م وأنّ له كتاباً يسمى عمدة المحققين وبرهان الدين، طبع في القاهرة سنة ١٢٧٧م، وكتابه تهافت الفلاسفة طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣هـ وله كتاب احياء علوم الدين طبع مرتين في بولاق سنة ١٢٧٨ وسنة ١٢٨٢هـ وفي القاهرة مراراً وله أيضاً المقالة الولدية يخاطب فيها غلاماً بقوله يا ولد طبعت في فيانا سنة ١٨٣٨م مع ترجمة ألمانية، وله الدرة الفاخرة في أحوال الآخرة طبعت في سويسرا سنة ١٨٧٨م مع ترجمة فرنسية انتهى.

الطغراءي صاحب لامية العجم

هو على ما قال ابن خلكان العميد فخر الكتاب أبو اسمعيل الحسين الملقّب مؤيد الدين الأصبهاني المعروف بالطغرائي، كان غزير الفضل لطيف الطبع فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر وله ديوان شعر جيد ومن محاسن شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم يصف بها حاله ويشكو زمانه وأوّلها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطلِ   وزينة الفضل زانتني لدى العطلِ

وهي تنيف على ستين بيتاً وهي مشهورة تتداولها الأيدي. وذكر العماد الكاتب أنّه كان ينعت بالأستاذ وكان وزير السلطان مسعود بن محمود السلجوقي بالموصل، وانّه لما جرى بينه وبين أخيه السلطان محمود المصاف بالقرب من همذان وكانت النصرة فيه لمحمود قتل الطغرائي بمكيدة من وزيره لأنّه رأى إقبال السلطان محمود عليه، وكانت هذه الوقعة سنة ٥١٣هـ وقيل سنة ٥١٤هـ وقيل سنة ٥١٨ أي سنة ١١١٩م أو ١١٢١م أو ١١٢٥ وقد جاوز الستين. وفي شعره ما يدل على أنّه بلغ سبعاً وخمسين سنة لأنّه قال وقد جاءه مولود:

هذا الصغير الذي وافى على كبري   أقر عيني ولكن زاد في فكري

سبع وخمسون لو مرت على حجر   لبان تأثيرها في صفحة الحجري

والطغرائي هذه النسبة إلى من يكتب الطغراء وهي الطرة التي تكتب في أعلى كتب الملوك. وعن كتاب «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» أنّ ديوانه طبع في القسطنطينية في مطبعة الجوائب وانّ قصيدته لامية العجم طبعت في قسطنطينية سنة ١٣٠٠هـ وفي أكسفورد سنة ١٦٦١ وفي فرنكفورت سنة ١٧٦٩. ولصلاح الدين الصفدي الذي توفي سنة ١٣٦٢ شرح عليها سماه: «الغيث المسجم في شرح لامية العجم» طبع في القاهرة سنة ١٣٠٥هـ وبهامشه سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لجمال الدين بن نباتة المصري الذي توفي سنة ٨٦٨هـ.

أبو محمّد الحريري

هو أبو محمّد القاسم بن علي بن محمّد بن عثمان الحريري البصري الحرامي صاحب المقامات المشهورة كان أحد أئمة عصره ورزق الحظوة التامة في عمل المقامات واشتملت على شيء كثير من كلام العرب وأمثالهم ورموز أسرار كلامهم، فأتمّها خمسين مقامة وصنفها للوزير جلال الدين علي بن صدقة وزير المسترشد ونسجها على منوال بديع الزمان الهمذاني وأبي زيد السروجي الذي عزا إليه هو رجل بصري نحوي لغوي صحب الحريري واشتغل عليه بالبصرة. وأما تسميته الراوي بالحارث بن همام فانما عنى بها نفسه آخذاً عن الآية كلكم حارث وكلكم همّام قالوا كانت مقالته أربعين مقامة فأنكرها بعضهم عليه وقالوا هي لرجل مغربي مات بالبصرة ووقعت أوراقه إليه فادعاها فاستدعاه الوزير إلى الديوان واقترح عليه إنشاء رسالة فلم يفتح الله عليه فقام وهو خجل فقال فيه بعض عاذليه:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس

أنطقه الله بالمشان كما رماه في وسط الديوان بالخرس

وكان يزعم أنّه من ربيعة الفرس وكان مولعاً بنتف لحيته عند الفكرة ويسكن في مشان البصرة، ولما عاد إلى بلده عمل عشر مقامات أخرى وسيّرها إلى الوزير واعتذر من عيه وحصره بالديوان بما لحقه من المهابة. وللحريري تآليف حسان منها «درة الغواص في أوهام الخواص» و«ملحة الاعراب المنظومة في النحو». وله أيضاً شرحها وله ديوان رسائل وشعره كثير غير الذي في المقامات، ويحكى أنّه كان ذميماً قبيح المنظر فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ منه شيئاً، فلما رآه استزرى شكله وفهم الحريري ذلك فلما سأله أن يملي عليه قال له أكتب:

ما أنت أوّل سارٍ غرّه قمرٌ ورائد أعجبته خضرة الدمنِ

فاختر لنفسك غيري إنني رجلٌ مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل منه وانصرف عنه وقد ولد الحريري سنة ٤٤٦هـ سنة ١٠٥٥م وتوفي سنة ٥١٥هـ وقيل سنة ٥١٦هـ سنة ١١٢٢م أو سنة ١١٢٣م، وكان يسكن

في سكة بني حرام فنسبه الحرامي إلى هذه السكة والحريري نسبة إلى الحرير وعمله أو بيعه.

وقد طبعت مقامات الحريري مراراً وأحسن طبعة هي التي اعتنى بها العلّامة دي ساسي الفرنسي في باريس سنة ١٨٢٢م مع شرح وافٍ، ولما حصل في هذه الطبعة بعض الخطأ من مرتبي الحروف طبعت ثانية مصحّحة مع حواشٍ تاريخية ولغوية في باريس سنة ١٨٤٩م بعناية العلامة وارنبورغ، وطبعت أيضاً في كلكته سنة ١٨٠٩م وسنة ١٨١٢م وفي لابسيك سنة ١٨٥٦م وفي بولاق سنة ١٢٨٨م مع شرح عليها، وطبعت في بيروت مراراً ولأحمد الشريشي (توفي سنة ٦٣٩هـ سنة ١٢٢٣م) شرح لمقامات الحريري طبع في بولاق مراراً وأما كتاب الحريري درة الغواص فطبع في قسطنطينية ثمّ طبع في مصر على الحجر سنة ١٢٧٣م وكتابه «ملحة الإعراب» طبعت على الحجر مراراً.

الفتح بن خاقان

هو أبو نصر الفتح بن محمّد بن خاقان الاشبيلي صاحب كتاب «قلائد العقيان» وله عدّة تصانيف غيره. وقد جمع من شعراء المغرب قلائد العقيان طائفة كبيرة وتكلّم على ترجمة كل منهم بأحسن عبارة وألطف إشارة. ومن كتبه «مطمح الأنفس ومسرح التانس في ملح أهل الأندلس» وهو ثلاث نسخ كبرى ووسطى وصغرى وهو كتاب كثير الفائدة لكنه قليل الوجود في هذه البلاد، وكلامه في كتبه دال على فضله وغزارة مهارته. وكان كثير الأسفار سريع التنقل وتوفي قتيلاً في مدينة كراش سنة ٥٣٥هـ سنة ١١٤١م ويروى سنة ٥٢٩هـ سنة ١١٣٥م. قيل كان خليع العذار في دينه لكنّ كلامه في تأليفه كالسحر الحلال والماء الزلال (انتهى ملخصاً عن ابن خلكان).

وقد طبع كتابه قلائد العقيان في بولاق سنة ١٢٨٤هـ وطبعه الشيخ الكونت رشيد الدحداح في باريس سنة ١٨٦٠م وأمّا كتابه «مطمح الأنفس» الذي قال ابن خلكان إنّه كان قليل الوجود في أيامه فقد طبع في قسطنطينية في مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢هـ وعدد التراجم فيه خمس وخمسون ترجمة وهي غير المثبتة في قلائد العقيان.

الزمخشري

هو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري الامام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان، وكان إمام عصره وصنف التصانيف البديعة منها «الكشاف» في تفسير القرآن لم يصنف قبله مثله ومنها «المحاجات بالمسائل النحوية والمفرد والمركب في العربية»، و«كتاب الفائق في تفسير الحديث» و«أساس البلاغة في اللغة» و«ربيع الأسرار ونصوص الأخبار» و«متشابه أسامي الرواة» و«النصائح الكبار والنصائح الصغار» و«ضالة الناشد والرابض في علم الفرائض» وكتاب «المفصل في النحو»، وقد اعتنى بشرحه خلق كثير والانموذج في النحو والمفرد والمؤلف في النحو ورؤوس المسائل في الفقه وشرح أبيات كتاب سيبويه و«حميم العربية» و«المستقصي في أمثال العرب وسواير الأمثال»، و«ديوان التمثيل وشقائق النعمان في حقايق النعمان» و«شافي العمي من كلام الشافعي» و«القسطاس في العروض ومعجم الحدود» و«المنهاج في الأصول» ومقدّمة الأدب وديوان الرسائل وديوان الشعر والرسالة الناصحة والامالي في كل فن وغير ذلك. وقد سافر إلى مكة المشرفة وجاور بها زماناً فلقبوه جار الله وكان هذا علماً عليه، قال ابن خلكان الذي أخذنا هذه الترجمة عنه ان الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد متظاهراً به وأوّل ما صنف كتاب الكشاف افتتحه بقوله:

الحمد لله الذي خلق القرآن فقيل متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه فغيره بقوله الحمد لله الذي جعل القرآن وجعل عندهم بمعنى خلق ورأيت في كثير من النسخ الحمد الله الذي أنزل القرآن وهذا اصلاح الناس لا اصلاح المصنّف. ومن شعره يرثي شيخه أبا مضر منصور:

وقائلة ما هذه الدرر التي تساقط ما عينيك سمطين سمطينِ

فقلت لها هذا الذي كان قد حشى أبو مضر اذني تساقط من عيني

ويقال أنّه أوصى أن يكتب على قبره هذان البيتان:

إلهي قد أصبحت ضيفك في الثرى وللضيف حق عند كل كريم

فهب لي ذنوبي في قراي فانها   عظيم ولا يقوى بغير عظيم

وكانت ولادة الزمخشري سنة ٤٦٧هـ سنة ١٠٧٥م ووفاته سنة ٥٣٨هـ سنة ١١٤٤م، وزمخشر المنسوب هو إليها قرية كبيرة من قرى خوارزم (عن ابن خلكان).

وقد ذكر العلامة المطران أسطفان عواد السمعاني في فهرست المكتبة الماديشية في عد ٤٣٩ من كتبها المشرقية كتاب المفصل للزمخشري في النحو وقال إنّه قسّمه إلى أربعة أقسام: الأول في الاسماء، والثاني في الأفعال والثالث في الحروف والرابع في ما يكون منها مشتركاً.

وجاء في كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع أنّ للزمخشري معجم جغرافي يسمى كتاب الجبال والأمكنة والمياه طبع في لايدن سنة ١٨٥٦م وان كتابه الكشاف طبع في كلكته سنة ١٨٥٦م وفي بولاق سنة ١٢٨١هـ وطبع بالقاهرة سنة ١٣٠٧هـ، وعلى هامشه كتاب الانتصاف لناصر الدين المنير الاسكندري وشرح محب الدين افندي الأبيات الواردة في الكشاف، وسمى شرحه تنزيل الزيات على شرح شواهد الأبيات، وطبع كتابه ببولاق سنة ١٢٨١هـ. وللزمخشري كتاب «أطواق الذهب» طبع في فيانا سنة ١٨٣٥م مع ترجمة ألمانية ويشتمل على تسع وتسعين مقالة في المواعظ والنصائح ثمّ طبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٢٩٣هـ مع شرح لألفاظه اللغوية وضعه الشيخ يوسف الأسير وطبع في باريس سنة ١٨٧٦م مع ترجمة فرنسية. وله خمسون مقامة في المواعظ بعت مع شرحها في مصر سنة ١٣١٣هـ وقد طبع كتابه «المفصّل» في الاسكندرية سنة ١٢٩١هـ وطبع كتابه «الانموذج في النحو» في القسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ ثمّ في خرتستيانا سنة ١٨٥٩م وكتابه «اس البلاغة» طبع في مصر بعد ضبط المتن على أربع نسخ طبعه يوسف شيت البشراني سنة ١٢٩٩هـ. وطبع كتابه المسمى «مقدمة الأدب» في لابسيك سنة ١٨٥٠م وهو معجم عربي وفارسي وطبع كتابه «ربيع الأبرار ونصوص الأخبار» في القاهرة سنة ١٢٩٢هـ.

الادريسي

هو أبو عبدالله محمّد الشريف الادريسي من ولد ادريس العلويين الذين تولوا غربي إفريقية الشمالية من سنة ١٧٥هـ إلى سنة ٣١٤هـ أي من سنة ٧٩١م إلى سنة ٩٢٦م. وقد ولد سنة ٤٩٤هـ سنة ١١٠٠م في مدينة سبتا وكان جده قد لجأ إليها بعد أن خلع من الملك وأتى الادريسي هذا في صباه إلى قرطبة بالاندلس وتخرّج بالعلوم فيها ثمّ ساح في هذه البلاد وفي شمالي إفريقية وآسيا الصغرى، واستدعاه روجر الثاني ملك صقلية إلى ديوانه وكان قد جمع من كتب الجغرافيين القدماء ومن الرحالة المعاصرين مادة كبيرة، فصنع كرة من فضة رسم عليها خطوط البلاد وشرح ذلك في مقالته الجغرافية التي قسمها إلى سبعة أقاليم وسبعين بلاداً. وتكلّم فيها على حاصلات كل بلاد ومصنوعاته وحكومته واداب سكانه وبقي من هذا الكتاب موجز طبع في العربية سنة ١٥٩٢م برومة ثمّ ترجمه العلامة جبرائيل الصهيوني الماروني إلى اللاتينية وطبع ترجمته في باريس سنة ١٦١٩م وسماه «جغرافية النوبة» ثمّ وجد اماداي جوبر نسخة مخطوطة من هذا التأليف في مكتبة الأمة بباريس سنة ١٨٢٩م فطبعها مع ترجمة فرنسية بباريس سنة ١٨٣٧م إلى سنة ١٨٣٩. هذا ما أخذناه عن بعض كتب الفرنج إذ لم نرى ابن خلكان ذكره. وقد ذكر المطران اسطفان عواد السمعاني كتاب الادريسي في الجغرافية في فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية وقال إنّ هذا الكتاب طبع برومة بالعربية سنة ١٦١٧م بعناية الأمراء الماديشيين وعن هذه الطبعة ترجم جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصروني المارونيان هذه المقالة إلى اللاتينية، وطبعت بباريس. وجاء في كتاب اكتفاء القنوع أنّ كتاب الادريسي في وصف افريقيا وإسبانيا طبع بلايدن سنة ١٨٦٦م مع ترجمة فرنسية، وان العلامة امادي الإيطالي استخرج كل ما قاله الادريسي في وصف إيطاليا وطبعه على حدّته برومة سنة ١٨٨٣م مع ترجمة إيطالية وشروح. وللادريسي أيضاً وصف فلسطين وبر الشام طبع في بون سنة ١٨٨٥م وعندنا شرح للكرة الجغرافية التي صنعها الادريسي وضعه القس سمعان السمعاني وطبعه برومة.

ابن رشد

هو أبو الوليد محمّد بن أحمد بن رشد المالكي الفيلسوف الطبيب، ولد سنة ٥٢٠هـ سنة ١١٢٧م بقرطبه في الأندلس حيث تولى جده وأبوه القضاء، وكان متمكناً وضليعاً في علوم التوحيد والفقه والفلسفة والرياضيات ومعززاً عند ملوك مراكش والأندلس، وتقلّد مناصب عالية في اشبيلية وقرطبا ومراكش، ودسّ عليه بعض حسّاده من العلماء عند ملك مراكش فسخط عليه ونفاه، ثمّ رضي عنه سنة ١١٩٨م ودعاه إلى مراكش فتوفي تلك السنة وكان يشك باختلال عقيدته، وسمّوه المفسر لأنّه ترجم كتب أرسطو، وأوقن أنّه معصوم من الخطأ. فزعم أنّ ما الفلسفة إلّا ترجمة كتب أرسطو، لكنّه فسّرها بمعنى مؤذن لتشيعه لمذهب الحلول، وقد فنّد القديس توما الأكويني مذهبه هذا الذي نبذته أيضاً المدرسة الكلية بباريس سنة ١٤٢٠م وحرمه المجمع اللاتراني الذي عقد سنة ١٥١٢م، وقد طبع كتاب تفسيره لفلسفة أرسطو مترجماً إلى اللاتينية سنة ١٥٩٥م بالبندقية. وله كتاب سماه «الكليات في الطب» طبع في المدينة المذكورة مع ترجمته اللاتينية سنة ١٤٨٢م. وكان الناس في أوربا زماناً طويلاً لا يعرفون كتب أرسطو إلّا بترجمتها إلى اللاتينية عن كتب ابن رشد العربية، وكانوا ينزلون أقواله منزلة أقوال أرسطو إلى أنّ ترجمت كتب أرسطو عن اليونانية. قال المطران أسطفان عواد السمعاني عند ذكره كتابه في فلسفة أرسطو الموجود مخطوطاً في المكتبة الماديشية انّ هذا الكتاب نادر لأنّ ابن رشد لم يكن له عند العرب شهرة ابن سينا وغيره من الفلاسفة، ولأنّ المسلمين المتحمسين كانوا يشتبهون بصحة عقيدته، فكانت كتبه العربية نادرة حتى أنّ ما ترجم منها إلى اللاتينية مترجم أكثره عن الترجمات العبرانية لا عن الأصل العربي.

ولابن رشد أيضاً رسالة سماها «تهافت المتهافتين» رد بها كتاب الغزالي الموسوم بتهافت الفلاسفة كما مرّ، وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣هـ كتاب اشتمل على رسالة الغزالي تهافت الفلاسفة وعلى رسالة ابن رشد تهافت المتهافتين وعلى رسالة ثالثة لمصطفى بن خليل البرسوي الرومي توفي سنة ١٤٨٧م ألّفها على سبيل المحاكمة بين تهافت الغزالي وتهافت ابن رشد. ولابن رشد أيضاً رسالة «التوحيد والفلسفة» ردّ بها مذهب الأشعريين، طبعت في مونيخ قصبة بفيارا سنة ١٨٥٨م

مع ترجمة ألمانية وله شرح على «أرجوزة» ابن سينا في الطب لم يطبع ومقالة في «الدرياق» ومقالة في «الحميات» ومقالة في «حركة الأفلاك» إلى غير ذلك.

عد ٨٤٩

ذيل في الخلفاء العلويين وملوك الروم في القرن الثاني عشر

قد اشتغلنا بذكر ملوك الفرنج في هذا القرن الثاني عشر عن ذكر الخلفاء العلويين في مصر وسورية، فاثرنا تكملة لتاريخ هؤلاء الخلفاء أن نذيل تاريخ هذا القرن بذكر من كان فيه منهم إلى حين انقراض دولتهم بملك صلاح الدين الأيوبي وابتداء دولة الأيوبيين فيه.

فرغنا من كلامنا على هؤلاء الخلفاء في القرن الحادي عشر بذكر المستعلي بالله سنة ٤٩٥هـ سنة ١١٠٢م وقد بويع بالخلافة يوم وفاته ابنه أبو علي المنصور، ولقّب الآمر بأحكام الله، ولم يكن له من العمر حينئذٍ إلّا نحو خمس سنين. وقام بتدبير دولته الأفضل بن أمير الجيوش أحسن قيام، وفي سنة ٤٩٨هـ سنة ١١٠٥م أرسل الأفضل ابنه شرف المعالي فقهر الفرنج في الرملة، ثمّ نازلوا ابنه الآخر سناء الملك في عسقلان وكانت الحرب سجالاً، ثمّ قتل الآمر بأحكام الله سنة ٥٢٤هـ سنة ١١٣١م، إذ وثب عليه الباطنية فقتلوه لان كان سيء السيرة في رعيته.

ولما قتل الآمر لم يكن له ولد فبويع ابن عمه عبد المجيد الحافظ بن المستنصر، وفي رواية أخرى ابن المستعلي ولقّب بالحافظ لدين الله، واستوزر أبا علي أحمد بن الأفضل ابن بدر الجمالي، فاستبدّ وتغلّب على الحافظ إلى أن قتل هذا الوزير سنة ٥٢٦هـ سنة ١١٣٣م، فاستقامت أمور الحافظ وحكم في دولته، لكنه كان عرضة لتحكّم وزرائه به حتى أنّه استوزر ابنه حسناً وجعله وليّ عهده فحكم عليه، واستبدّ بالأمر دونه وقتل كثيرين من أمراء دولته، وصادر كثيرين. فلما رأى الحافظ ذلك سقاه سماً فمات ثمّ توفي الحافظ سنة ٥٤٤هـ سنة ١١٥٠م.

وبعد وفاة الحافظ ولي الخلافة بعده ابنه أبو منصور اسماعيل ولقّب الظافر بأمر الله واستوزر ابن مصال وبقي أربعين يوماً يدبر الأمور، فقصده العادل بن السلار من الاسكندرية ونازعه الوزارة وكان ابن مصال قد خرج من القاهرة فخالفه العادل

وصار وزيراً وأرسل عسكراً فقتل ابن مصال واستقرّ العادل ابن السلار حتى لم يبق معه حكم للظافر، لكنه قتل سنة ٥٤٨هـ سنة ١١٥٤م فأخذ الوزارة عباس بن باديس الصفاجي وكان ربيب ابن السلار، وأخذ الفرنج هذه السنة عسقلان من الظافر. وفي سنة ٥٤٩هـ سنة ١١٥٥م قتله وزيره عباس المذكور.

وبعد مقتل الظافر ولوا الخلافة ابنه أبا القاسم عيسى ولقب الفائز بنصر الله، وله من العمر خمس سنين، فحمله عباس الوزير المذكور على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايعه الناس، وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد، ولم يترك إلّا ما لا خير فيه. وتوفي الفائز سنة ٥٥٥هـ سنة ١١٦١م وعمره نحو احدى عشرة سنة، فقد اختاره عباس الوزير صغيراً كيلا يكون له شيء من الحكم.

وبعد وفاة الفائز بنصر الله دخل القصر الصالح بن درزيك من أكابر الأمراء وكان أرمنياً، واختار أبا محمّد عبدالله بن يوسف بن الحافظ وكان مراهقاً قارب البلوغ فبايعه الصالح بالخلافة ولقّب العاضد لدين الله وزوجه الصالح ابنته فكان ذلك سبب عداوة في القصر لصالح، وهو استطال على الناس وأرسلت عمة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين فجرحوه ومات من جراحه وأوصى أن تكون الوزارة لابنه العادل. ولكن وثب شاور عامل الصعيد على العادل الوزير فقتله وصار وزيراً للعاضد سنة ٥٥٨هـ سنة ١١٦٤م. ثمّ جمع الضرغام جموعاً فهزم شاور إلى الشام واستقرّ في الوزارة وقتل كثيرين من الأمراء. وفي سنة ٥٦٥هـ سنة ١١٧٠م حصر الفرنج دمياط وأرسل نور الدين بن زنكي أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين إلى مصر كما ذكرنا قبلاً وصار شيركوه وزيراً للعاضد ثمّ توفي وخلفه ابن أخيه يوسف صلاح الدين وأقام الخطبة العباسية بمصر. ومات العاضد وانقرضت به دولة العلويين سنة ٥٦٧هـ سنة ١١٧٢م وخلفتها دولة الأيوبيين أولاً في مصر ثمّ في سورية. وكان ابتداء دولة العلويين في المغرب سنة ٢٩٧هـ سنة ٩١٠م وانقرضت سنة ٥٦٧هـ سنة ١١٧٢م فكانت مدة ملكهم ميئتين وسبعين سنة قمرية وميئتين وستين سنة شمسية وعددهم أربعة عشر ملكاً منهم ثلاثة بالمغرب واحد عشر بمصر والشام.

وأما الخلفاء العباسيون فقد ذكرنا منهم من تولوا سورية إلى آخر القرن العاشر

ثمّ ذكرنا من ولي الخلافة منهم في القرن الحادي عشر عدد ٨٠٢ وسوف نذكر من بقي منهم إلى آخرهم في محل آخر إن شاء الله تعالى.

وبقي علينا أن نذكر ملوك الروم في هذا القرن الثاني لتعلق بعض أخبار هذا التاريخ بأخبارهم وقد ذكرنا في عدد ٨٠١ جميع من ملكوا في قسطنطينية من هرقل الملك الذي أخذ الخلفاء سورية منه إلى الكسيس كومنانس الذي كان في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل هذا القرن الثاني عشر. فنذكر الآن منهم من كانوا في هذا القرن.

إنّ الكسيس كومنانس أدركته الوفاة سنة ١١١٨م فخلفه ابنه يوحنا الثاني وحارب السربيين سنة ١١٢٥م وانتصر عليهم، وكان قد حارب أسطفانس الثاني ملك المجر سنة ١١٢٤م وحارب الأتراك سنة ١١١٩م وأخذ منهم اللاذقية وقسطموني بآسيا الصغرى، واتّفق مع ريموند دي اوتريش سنة ١١٣٨م وحارب الاتابك بسورية وأحسن سيرته في مملكته حتى لقبوه مرقس أورليوس البيزنطي. وتوفي سنة ١١٤٣م.

وخلفه في السنة المذكورة ابنه عمنوئيل الأوّل كومنانس مفضلاً على أخيه الأكبر اسحق كومنانس، وفي سنة ١١٤٧م غدر بالصليبيين الذين كانوا بامرة كونراد ملك ألمانيا ولويس السادس ملك فرنسة، وعاون باتفاقه مع المسلمين على انخذالهم وقهر عساكرهم، فعاقبه على غدره روجر ملك صقلية وحليف الصليبيين. فدخل في عساكره بلاد اليونان ونهب تاب وقرنثية وكان عمنويل في حرب متصلة مع المجريين والسربيين الذين ثاروا عليه وبدد عز الدين سلطان قونية عساكره في آسيا الصغرى سنة ١١٧٦م. وتوفي عمنوئيل سنة ١١٨٠م وقام بعده ابنه الكسيس الثاني وكان عمره اثنتي عشرة سنة، وكانت أمه تدبر الملك على أنّ سوء سيرتها كان سبباً للثورة عليه وعليها، فأقيم اندرونيكس كومنانس مدبراً للملك، فتوّج الكسيس وشاركه في الملك وما عتم أن قتله سنة ١١٨٣م وملك مكانه. وساء السيرة فثل عرشه اسحق الملقّب انج (أي الملاك) سنة ١٨٨٥م ووثب الشعب على أندرونيكس فشنقه وانقضت به سلالة كومنانس. وأقام الشعب مكانه اسحق الثاني انج المذكور فحارب البلغاريين وفاز ببعض النصر عليهم ولكن مقته الشعب لعكوفه على ملاذه وقسوته فثل عرشه أخوه الكسيس الثالث سنة ١١٩٥م وسمل عينيه، ولكن نهض

عليه الكسيس الرابع ابن أخيه وخلعه من الملك واستنجد بالصليبيين فأتوا لنجدته وملكوا قسطنطينية سنة ١٣٠٣م وأقروه، ولكن قتله بعد ستة أشهر دوكاس مرسوفل (الغليظ الحاجب) وأخذ الملك سنة ١٢٠٤م وسمي الكسيس الخامس، فثل الصليبيون عرشه وملكوا قسطنطينية وأقاموا فيها المملكة اللاتينية كما سيجيء.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثاني عشر

الفصل الأوّل

بطاركة أنطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من الأساقفة في هذا القرن

عد ٨٥٠
بطاركة أنطاكية في القرن الثاني عشر

فرغنا من كلامنا في بطاركة أنطاكية في القرن الحادي عشر بذكر يوحنا الرابع ولا نعلم علماً أكيداً من خلفه. فقد روى لكويان في كلامه عن هؤلاء البطاركة في كتابه المشرق المسيحي انّه يظهر من جدول لبطاركة أنطاكية قدّمه من مدّة أثناسيوس الرابع بطريرك أنطاكية ووضع في المكتبة الواتيكانية أنّ توادوسيوس أو توافيلس (يسميه بالاسمين) خلف يوحنا الرابع المذكور لكنّه قال أنّ الفرنج أخذوا في أيامه أنطاكية، وهذا غير صحيح ويبين بطلانه ما ذكرناه في ترجمة يوحنا الرابع

المذكور، وعليه فلا يمكن الاعتماد على ما جاء في الجدول المذكور عن توادوسيوس أو توافيلس.

وجاء في هذا الجدول أيضاً أنّ يوحنا الخامس خلف توادوسيوس المذكور في بطريركية أنطاكية، واستشهد مؤلف الجدول بنيكون ارشمندريت دير القديس سمعان العمودي وقال بعد ذلك أنّ يوحنا الخامس خلفه توادورس بلسامون فقال لكويان هنا خطأ غير مغتفر ولنا على إثبات عدم صحته بينات راهنة وأدلة دامغة وسنورد أسماء بطاركة كثيرين كانوا قبل توادورس بلسامون الذي قال صاحب الجداول إنّه خلف يوحنا الخامس. وقد أقام اللاتينيون على أنطاكية بعد ملكهم إياها بطاركة تتالوا خلفاً عن سلف، ولكن استمرّ الروم ينصبون بطاركة من أصحاب طقسهم فيقيمون بقسطنطينية حتى سعى بودوين الثالث ملك أورشليم (الذي كان متزوجاً بتوادورا بنت أخي الملك عمنوئيل كومنانس) لدى هذا الملك بأن لا يرسل إلى أنطاكية بطريركاً من قسطنطينية، ومع ذلك انتخب رجل اسمه سوتريكس. وقبل ارتقائه إلى بطريركية أنطاكية ابدع ضلالاً أنكر به أنّه يجوز تقدمة ذبيحة الصليب أو ذبيحة القربان لله الكلمة، بل يلزم تقدمة الذبيحتين للآب والروح القدس فعقد مجمع سنة ١١٥٥م حرم به سوتريكس وأُقصي عن البطريركية.

ولا نعلم خلفاً لسوتريكس المذكور إلّا أثناسيوس الذي كان مقيماً في قسطنطينية أيضاً، إذ قد روى الايتوس في الكتاب الثاني من مؤلفه في اتفاق الكنائس فصل ٤٢ انّه عقد مجمعاً سنة ١١٦٦م في قسطنطينية جلس فيه اتناسيوس بطريرك أنطاكية بعد لوقا البطريرك القسطنطيني.

وروى بعضهم أنّه كان في جملة البطاركة الذين باركوا زواج الملك عمنوئيل كومنانس بمريم ابنة ريموند أمير أنطاكية وهم لوقا بطريرك قسطنطينية وصفرونيوس بطريرك اسكندرية وأثناسيوس بطريرك أنطاكية المذكور.

وقام بعد أثناسيوس في الكرسي الأنطاكي سمعان الثاني فقد أثبت بارونيوس في تاريخ سنة ١١٧٨م رسالة من جيورجيوس متريبوليت كورشيرا إلى سمعان هذا عنوانها: «إلى بطريرك مدينة الله أنطاكية السيّد سمعان الكلي القداسة من جيورجيوس متريبوليت كورشيرا». وكان سمعان يشكو إلى المتريبوليت المذكور سوء حاله وما يقاسيه من المحن فأجابه بالرسالة المذكورة معزياً إياه ومثنياً عليه، وكان

جيورجيوس حينئذٍ في برنديسي بإيطاليا مرسلاً إلى روما من الملك عمنوئيل كومنانس تلبية لدعوة البابا اسكندر الثالث لعقد مجمع في رومة وهو المجمع اللاتراني الثالث الذي عقد سنة ١١٧٩، دعا إليه الأساقفة الكاثوليكيين وغير الكاثوليكيين. ولما وصل جيورجيوس إلى برنديسي مريضاً وكان الشتاء شديداً استمرّ في هذه المدينة ستة أشهر، وعاد منها إلى الشرق دون أن يصل إلى رومة، لكنه أرسل إليها نيابة عنه نكتاريوس الرئيس الذي كان يصحبه. فماحك في المجمع وكابر واستمر مصراً على رأيه، وعاد متفاخراً مدعياً الظفر، وهنأه جيورجيوس المذكور وغيره من المشايعين لهما. وكل هذا بيِّن من رسائل جيورجيوس المذكور التي أثبتها بارونيوس في تاريخ سنة ١١٧٨م وسنة ١١٧٩م، ويظهر من ذلك أنّ سمعان البطريرك الأنطاكي المذكور لم يكن كاثوليكياً لالتحامه مع جيورجيوس ونكتاريوس المذكورين. وفي سنة ١١٨٧م دعا الملك اسحق انج بطاركة القسطنطينية وأنطاكية وأورشليم الذين كانوا في مدينته مع غيرهم من الأساقفة وسنّوا شريعة أن لا ينتخب الأساقفة في قسطنطينية كالعادة بل لا بدّ من استدعاء غيرهم من أساقفة الأقاليم وذلك بين في كتاب الناموس اليوناني الروماني صفحة ٤٦٩، غير أنّه لا ذكر هناك لأسماء هؤلاء البطاركة.

وصيّر بعد أثناسيوس توادورس الرابع بلسامون بطريركاً على كرسي أنطاكية وكان حائزاً مناصب رفيعة في كنيسة القسطنطينية قبل ارتقائه إلى الكرسي الأنطاكي، وقد انتخب لهذا الكرسي في القسطنطينية واستمرّ فيها، ويظهر أنّه صيّر بطريركاً سنة ١١٨٦م. وروى بارونيوس في تاريخ سنة ١١٩١م أنّه في هذه السنة قدم بلسامون البطريرك الأنطاكي كتابه في القوانين البيعية لجيورجيوس كسيفيلينس البطريرك القسطنطيني وكتب إليه ما يأتي: «إلى البطريرك جيورجيوس كاسيفيلينس الكلي القداسة نظم توادورس بطريرك أنطاكية». ويلي ذلك أبيات شعر قال في آخرها: «هذا ما دوّنته إليك أنا توادورس بلسامون بطريرك أنطاكية الشريفة وسائر المشرق». قال بارونيوس بعد ذلك لم يكن بلسامون بطريركاً على أنطاكية إلّا بالاسم ولم يتمكّن أن يقيم بها بل كان بطريركها اللاتيني مستحوذاً على كرسيها، ولا يدع بطريرك الروم أن يدنو منه، بل كان يسمح بإقامة أساقفة للروم في غيرها من المدن للاهتمام بالروم الساكنين فيها. وقد شهد بلسامون نفسه بذلك في كتابه الثاني عند شرحه حالة الكنيسة المشرقية مفنداً القانون السادس عشر من المجمع

الأنطاكي حيث قال: «إنّ اللاتينيين لا يدعون الروم يضعون رجلهم في أنطاكية أو أورشليم أو طرسوس، فأورشليم استحوذ عليها المسلمون، وكرسي أنطاكية غصبه بطريرك اللاتين، وكرسي طرسوس غصبه الأرمن. وأما باقي الكنائس المتعلقة بأورشليم وأنطاكية وبعض الكنائس الشرقية المختصة بالقسطنطينية فلا تخلو من أساقفتها لأنّ السلطان واللاتينيين والمسلمين يبيحون أساقفة هذه الكنائس أن يدبروا كنائسهم ويهتموا بالمسيحيين المقيمين هناك».

ثمّ استطرد بارونيوس إلى انتقاد كتاب بلسامون وتبيين ما حواه من المطاعن بالكنيسة الرومانية، ومن الأغلاط التاريخية وتحريفه بعض قوانين المجامع ومراسيم الملوك، ثمّ روى في تاريخ سنة ١١٩٣م أنّ الملك اسحق انج عزل نيقيطا البطريرك القسطنطيني عن كرسيه، وكان بلسامون هائماً أن ينتقل من بطريركية أنطاكية إلى بطريركية قسطنطينية، وكان بعضهم يزعمون أنّ نقل البطاركة من كرسي إلى آخر محظور بقوانين البيعة، فأثبت بلسامون للملك ولبعض الأساقفة أنّ هذا النقل غير محظور، وأنّ بعض الملوك أثبتوه بمراسيمهم. ثمّ عقد الأساقفة المجتمعون هناك مجمعاً وأقرّوا هذا الأمر على أنّ بلسامون لم ينتفع بما أثبته لأنّ الملك اسحق فضّل عليه دوزيتاس البطريرك الأورشليمي فنقله إلى كرسي قسطنطينية. وقد أثبت ذلك نيقيطا كونياتس في ترجمة الملك اسحق المذكور، وقد استمرّ بلسامون بطريركاً على أنطاكية من سنة ١١٨٦م إلى سنة ١٢١٤م، وعن بعضهم أنّه توفّي سنة ١٢٠٣م. انتهى.

عد ٨٥١
بطاركة أورشليم في القرن الثاني عشر

آخر من ذكرنا من بطاركة أورشليم في القرن الحادي عشر هو سمعان الثاني لذي توفي سنة ١٠٩٩م وجاء في الجدول الذي وضعه دوزيتاوس لبطاركة أورشليم نّ أوتيميوس خلف سمعان المذكور، ولكن قد أبنّا أنّ هذا غير صحيح وأنّ المعتمد عليه أنّ أوتيميوس كان قبل سمعان، وأنّ الذي خلف سمعان إنّما هو أغابيوس. وفي تاريخ أورشليم في هذا القرن تشوش وغموض لا سبيل إلى إزالتهما. فقد جاء في كتاب الناموس الرومي اللّاتيني (فصل ٤) ذكر لاغابيوس أنّه انتقل من كرسي

سلوقية إلى كرسي أورشليم، ولكن قيل أنّ هذا النقل كان في أيام الملك باسيليوس أعني نحو سنة ٩٨٤م. وروى نيكوفور كاليستس (ك ١٤ من تاريخه فصل ٣٩) أنّ أغابيوس نقل إلى كرسي أنطاكية فلا يعلم متى كان أغابيوس هذا وهل كان في أنطاكية أو أورشليم.

وجاء في جدول دوزيتاوس المذكور أيضاً أنّ سابا خلف أغابيوس في أيام الكسيس كومنانس أي في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر، وانّه نقل من كرسي قيصرية فيلبس إلى بطريركية أورشليم، وانّه سار إلى قسطنطينية وخدم الأسرار الإلهية مع نيقولاوس بطريركها. وجاء في كتاب الناموس المذكور ما يشعر بذلك ولكن (روى نيكوفور كاليستس ك ١٤ فصل ٣٩) أنّ الذي سار إلى قسطنطينية في أيام نيقولاوس بطريركها إنّما كان أسقفاً على صور ولم يذكر اسمه. ونيقولاوس هذا البطريرك القسطنطيني هو المسمي الغراماطيقي وقد صيّر بطريركاً سنة ١٠٨٤م. فإن صحّ أنّ بطريركاً أورشليمياً سار إلى قسطنطينية واجتمع بنيقولاوس بطريركاً كان سمعان الذي ذكرناه في تاريخ القرن الحادي عشر ولا ذكر في الجداول اللاتينية لسابا في عداد بطاركة أورشليم بعد ولاية الفرنج عليها. قال لكويان لم نذكر سابا هذا إلّا لأنّه ربّما كان بطريركاً على أورشليم قبل سمعان أو بعده ولكن لا وسيلة لنا للقطع بذلك.

وجاء في جدول دوزيتاوس أيضاً أنّ أوخاريوس خلف سابا ولعلّه من سمّاه لاون الاتيوس (في ك ٢ من توفيق الكنائس فصل ١٨) مكاريوس، وقال إنّه كتب مقالة يخالف بها اللاتينيين، على أنّ دوزيتاس قال إنّ أوخاريوس كان بطريركاً على أورشليم يوم فتح بودوين ملك أورشليم عسقلان، وهذا الفتح كان سنة ١١٤٦م. قال لكويان ربّما تصحف على دوزيتاوس اسم فلكاروس بطريرك اللاتين على أورشليم حينئذٍ باسم أوخاريوس فقد أثبت كثيرون أنّ فلكاروس بطريرك أورشليم اللاتيني شهد حصار عسقلان ثمّ ذكر دوزيتاوس بعد أوخاريوس يعقوب ونعته بالثاني ولا نرى في غير جدوله أثراً ليعقوب هذا.

وذكر دوزيتاوس بعد يعقوب أرسانيوس ونعته بالأوّل وقد غفل عن أرسانيوس الآخر الذي ذكرناه قبلاً ثمّ قال في كتابه السابع فصل ٢٢ ما يؤخذ منه أنّ أرسانيوس هذا كان في سنة ١١٤٦م. وهذا يؤيد ما قلناه آنفاً من أنّ دوزيتاوس لم

يميز بين فلكارس البطريرك اللاتيني الذي كان سنة ١١٤٦م وبين أوخاريوس بطريرك الروم، وإلّا لكان للروم بطريركان لأبرشية واحدة في وقت واحد وهما أوخاريوس وارسانيوس.

وذكر دوزيتاوس بعد أرسانيوس يوحنا السابع وقال إنّه كان في أيام الملك عمنوئيل كومنانس وعزا إليه (في ك ٧ فصل ٢٢) مقالات في الفطير وانبثاق الروح القدس رداً على اللاتين وانّه شهد المجمع الذي عقد في قسطنطينية سنة ١١٥٦م بشأن ذبيحة القداس مع قسطنطين بطريركها في أيام الملك عمنوئيل كومنانس، لكن المعلوم أنّ هذا المجمع عقده حينئذٍ لوقا كريسبورج خليفة قسطنطين المذكور ووقّع عليه نيقولاوس بطريرك أورشليم، ودوزيتاوس يسميه يوحنا السابع. وقد اقترح بودوين ملك أورشليم حينئذٍ على عمنوئيل كومنانس ملك الروم أن لا يرقي بطريرك أنطاكية إلى كرسيها دون استشارة أساقفة بطريركيتها، ويظنّ أنّ ذلك شمل بطريركية أورشليم أيضاً. وقد رأينا توقيع نيقولاوس بطريرك أورشليم مع توقيع لوقا بطريرك قسطنطينية على حط سوتريكس البطريرك الأنطاكي المار ذكره عن كرسيه لما بثه من الضلال. والحاصل أنّ البطريرك الأورشليمي حينئذٍ كان نيقولاوس لا يوحنا السابع الذي لم يذكره أحد إلّا دوزيتاوس.

وذكر دوزيتاوس بعد يوحنا السابع نيكوفر الثاني وقد شهد المجمع الذي عقد في القسطنطينية سنة ١١٦٦م كما روى الاتيوس (ك ٢ في توفيق الكنائس فصل ١٢) وقال إنّ عنده من أعمال هذا المجمع نسخة مخطوطة. وقد بحث في هذا المجمع عما إذا كان اعتقاد بعض الألمانيين أنّ المسيح مساوٍ للآب من حيث اللاهوت ولا ينقص عنه بسبب الناسوت يطابق الإيمان القويم، وحكم بصحة معتقدهم. ثمّ أنّ توادورس بلسامون ذكر نيكوفور هذا في تفسير القانون السابع والثلاثين فلا مرية ببطريركيته ولكن لا يمكن القطع بسنة ترقيه أو سنة وفاته.

وصير بعد نيكوفور المذكور أثناسيوس الثاني، ولما فتح السلطان صلاح الدين الأيوبي أورشليم وطرد الفرنج منها رحل هرقل البطريرك اللاتيني عنها إلى عكا، فسار أثناسيوس هذا إلى أورشليم وأثبت بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٨م رسالة كتبها جيورجيوس متريبوليت كورشيرا المذكور آنفاً إلى أثناسيوس هذا بطريرك أورشليم عنوانها: «جيورجيوس متريبوليت كورشيرا إلى السيّد أثناسيوس بطريرك

أورشليم الكلي القداسة». والرسالة ودادية يذكره بها بمحبته له واشتياقه إلى رؤيته، ويعتذر له عن إتمام ذلك بامراضه وأثبت بارونيوس أيضاً جواب أثناسيوس إلى جيورجيوس المذكور وبه يرثي حالة أورشليم في ذلك الوقت، فنقد باجيوس كلام بارونيوس هذا قائلاً أنّ الروم يقيموا أثناسيوس بطريركاً على أورشليم قبل سنة ١١٩٣م كما يتبين مما سنقوله في تاريخ السنة المذكورة، وعليه فيلزم أن تكون رسالة جيورجيوس المذكورة إلى أثناسيوس وجواب أثناسيوس له قد كتبا في سنة ١١٩٣م لا سنة ١١٨٨م كما ذكرهما بارونيوس في تاريخ سنة ١١٩٣م أنّ انج اسحق ملك الروم عزل تلك السنة نيقيطا موندانس عن بطريركية قسطنطينية، ونقل دوزيتاوس بطريرك أورشليم إلى كرسي قسطنطينية. فقال باجيوس لم يكن عزل نيقيطا موندانس في هذه السنة بل في السنة السابقة، وخلف لاونتيوس الراهب نيقيطا المذكور ثمّ اعتزل في سنة ١١٩٣م، فخلفه دوزيتاوس متنقّلاً من كرسي أورشليم إلى كرسي قسطنطينية. وهذا يخالف ما قاله باجيوس في تاريخ سنة ١١٨٨م من أنّ الروم لم يقيموا أثناسيوس قبل سنة ١١٩٣ لأنّ أثناسيوس هذا كان قد توفي سنة ١١٨٨ وخلفه لاونتيوس، وخلف دوزيتاوس لانتيوس المذكور ثمّ نقل سنة ١١٩٣م إلى كرسي قسطنطينية كما قال باجيوس نفسه فبقي قول بارونيوس ثابتاً سالماً من النقد. وذكر السمعاني في المجلّد الأوّل من المكتبة المشرقية صفحة ٦٣٠ أنّ الكتاب السابع والسبعين من الكتب التي أخذها من الشرق إلى المكتبة الواتيكانية يشتمل على خمس وستين خطبة لأثناسيوس البطريرك الأورشليمي، وانّ الكتاب التسعين من تلك الكتب انطوى على ست وستين خطبة. قال لكويان لا يمكن القطع بأنّ هذه الخطب لأثناسيوس حقيقةً.

وروى بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٨م أنّ أثناسيوس توفي في هذه السنة وخلفه لاونتيوس في بطريركية أورشليم وقد وصفه نيقيطا كونياتس (ك ٢ من تاريخه عد ٤) انه كان رجلاً عالماً فاضلاً وتوفي سنة ١١٩٢م، ولا علم لنا بغير ذلك من أمره.

وقام بعد لاونتيوس دوزيتاوس وكان من البندقية مولداً وأتى إلى قسطنطينية لطلب العلم وأنبأ اسحق انج أنّه سوف يكون ملكاً، فلمّا استوى على منصّة الملك صرف عنايته إلى إقامة دوزيتاوس بطريركاً على أورشليم بعد وفاة لاونتيوس. وقد عزل هذا الملك لاونتيوس الآخر عن بطريركية قسطنطينية سنة ١١٩٣م وأقام

دوزيتاوس بطريرك أورشليم في مكانه بعد أن أفتى له توادورس بلسامون ان القوانين البيعية تجيز نقل البطاركة من كرسي إلى آخر طمعاً بأن ينقله الملك من كرسي أنطاكية إلى كرسي قسطنطينية. فأثار الملك دوزيتاوس بطريرك أورشليم عليه وكان الشعب يمقت دوزيتاوس ويسخر منه كما روى بارونيوس نقلاً عن نيقيطا كونياتس في تاريخ سنة ١١٩٣م حتى اضطرّ أن يترك بطريركية قسطنطينية ويعود إلى أورشليم. وجاء ذكر دوزيتاوس هذا في الجدول الذي نظمه دوزيتاوس الآخر البطريرك الأورشليمي في القرن السابع عشر لبطاركة أورشليم إلى أيامه.

وبعد أن نقل دوزيتاوس إلى كرسي قسطنطينية أقيم مكانه مرقس على كرسي أورشليم ويلقب فلورس. وقال فيه نيكوفور كاليستس (ك ١٤ من تاريخه فصل ٣٩) انه طرد من كرسيه ظلماً لأنّ دوزيتاوس ترك كرسي قسطنطينية وعاد إلى أورشليم، ولا يعلم ما كان لمرقس بعد ذلك ولا متى توفي دوزيتاوس. والمعلوم أنّ توافان الأوّل كان بطريركاً على أورشليم في آخر القرن الثاني عشر أو بدء القرن الثالث عشر، وهذا يظهر من رسالة أنفذها إليه مرقس البطريرك الاسكندري الذي كان معاصراً لتاودورس بلسامون ولم يذكر دوزيتاوس الثاني في جدول بطاركة أورشليم توافان هذا، بل روى أنّ غريغوريوس الآتي ذكره خلف دوزيتاوس الأوّل، ثمّ صيّر لاونتيوس بطريركاً على أورشليم خلافاً لما مر. (انتهى ملخصاً عن لكويان في المشرق المسيحي وعن تاريخ بارونيوس في السنين المذكورة).

عد ٨٥٢

بطاركة أنطاكية وأورشليم اللاتينيون في هذا القرن الثاني عشر

رأينا أنّ ذكر البطاركة اللاتينيين على أنطاكية وأورشليم في هذا القرن لا يخلو من الفائدة ولذلك أردنا ذكرهم هنا بما أمكن من الإيجاز نقلاً عن لكويان في المشرق المسيحي.

بطاركة أنطاكية اللاتينيون في القرن الثاني عشر

كان لبطريرك أنطاكية عند اللاتين من الكراسي الأسقفية: اللاذقية وجبلة وطرطوس وطرابلس وجبيل. وأوّل بطريرك أقيم فيها منهم برنردس سنة ١٠٩٩م

وكان فرنسياً من فالنس، وقد طلب الملك بودوين الأوّل من البابا بسكاليس الثاني أن يخضع لبطريركية أورشليم جميع المدن التي يفتحها فأجابه البابا إلى ذلك، فشكا برنردس بطريرك أنطاكية من أنّ هذا مجحف بحقوق كرسيه الأنطاكي، فأمر البابا سنة ١١١٣م أن تبقى الولاية لكلا الكرسيين على ما كانت عليه قبل استيلاء الفرنج على مدن سورية. وتوفي برنردس سنة ١١٣٥م على ما روى غوليلمس أسقف صور في تاريخه، وروى غيره أنّ وفاته كانت سنة ١١٣٢م، وخلفه رودلفس ويسمى الأوّل انتخبه الشعب وطاعه بعض الإكليرس وعصاه بعضهم، واتشح بالباليوم درع الرئاسة قبل أن يثبته الحبر الروماني مدّعياً أنّه خليفة بطرس في أنطاكية كخلافة البابا له برومة. فطرده أمير أنطاكية منها فسار إلى رومة فشفع به أصدقاؤه إلى الحبر الروماني البابا أينوشنسيوس الثاني فقبله وأمر أن يخلع الباليوم الذي أخذه من نفسه ويعطى باليوم آخر، وأن يعود إلى أنطاكية لتسمع دعواه فيها. ونصب البابا قاصداً لذلك فمات القاصد بعكا فنصب آخر، وعقد مجمعاً بأنطاكية سنة ١١٣٦م ودعي رودلفس إليه فلم يحضر فحط عن مقامه وحبس في دير، ففرّ منه إلى رومة مستغفراً، ثمّ أدركته المنية (قتل مسمماً) سنة ١١٤٢م. روي كل ذلك غوليلمس الصوري.

وخلف أيماريكس ويسمى أموري رودلفس المذكور واستمرّ في البطريركية زماناً طويلاً. قال لكويان زعم غوليلمس الصوري أنّ الموارنة ارعووا عن بدعة المشيئة الواحدة في أيام هذا البطريرك سنة ١١٨٢م، والصحيح أنّ هذا الارعواء لا يصدق على الموارنة بأجمعهم بل على فريق منهم كان قد اغترّ بكتاب توما الحاراني أسقف كفرطاب، كما ذكرنا في مقدّمة كلامنا على الموارنة. واستمرّ ايميريكس حياً إلى سنة ١١٨٧م كما يظهر من رسالة كتبها إلى أنريكس الثاني ملك انكلترا، وتوفي في آخر السنة المذكورة أو سنة ١١٨٨م، وخلفه رودلفس الثاني على ما روى العلّامة السمعاني في الجداول التي وضعها لبطاركة أنطاكية، وتوفي رودلفس هذا سنة ١٢٠٠م.

أما بطركية أورشليم اللاتينية فكانت تلي أربع متريبوليات أوّلها صور ويخضع لمطرانها أساقفة عكا وصيدا وبيروت وبانياس. والثانية قيصرية ويخضع لمطرانها أسقف سبسطية وهي السامرة، ولم يكن لحيفا أسقف بل كانت خاضعة لمطران

قيصرية. والثالثة الناصرة ويخضع لمطرانها أسقف طبرية، وكانت المطرنية لباسان فنقلت إلى الناصرة تبركاً. والرابعة بصرى ويخضع لمطرانها أسقف روم في جبل سينا وكان أساقفة بيت لحم وحبرون (الخليل) واللد يخضعون لبطريرك أورشليم رأساً.

وأوّل بطريرك لاتيني على أورشليم وايمبر، وكان سفير البابا مع الصليبيين فانتخبوه بطريركاً سنة ١٠٩٩م، وقاومه أرنولفوس مدبّر أعمال البطريركية. وسار وايمبر إلى رومة فردّه الحبر الروماني معززاً إلى كرسيه، ثمّ توفي سنة ١١٠٧م. هذا ما رواه لكويان وهو أولى بالتصديق مما ذكره بعضهم من أنّ وايمبر اعتزل البطريركية سنة ١١٠٣م أو سنة ١١٠٤م، وأقيم بعده ابرامار رئيس أساقفة قيصرية إلى سنة ١١٠٧م.

وخلف جيبالينس وايمبر على الأصح سنة ١١٠٧م فتغلّب على البطريركية أبرامان المذكور، فعزله الكرسي الرسولي، وأثبت جيبالينس الذي توفي سنة ١١١١م فخلفه أرنولفس الذي كان يدبر مهام البطريركية. وقد قاوم وايمبر كما مر ثمّ توفي أرنولفس سنة ١١١٨م وخلفه كورماندس وبقي في البطريركية عشر سنين وتوفي سنة ١١٤٥م، وخلفه فولكاريوس أو فولشر رئيس أساقفة صور، وتوفي سنة ١١٥٧م وخلفه الماريكس، وتوفي سنة ١١٨٠م، وخلفه هرقل وكان رئيس أساقفة قيصرية، فاعترض غوليلمس أسقف صور على انتخابه فحرمه البطريرك فلجأ إلى رومة ومات غوليلمس فيها. وفي أيام هرقل أخذ صلاح الدين الأيوبي أورشليم من الفرنج وتوفي هرقل سنة ١١٩١م ويقال أنّ البابا شالستينس الثالث انتخب للبطريركية كيرلس رئيس الكرمليين، فلم يقبل وانتخب شماس كنيسة باريس فانتخب إلى أسقفية أخرى ونصب بها فبقي كرسي أورشليم إلى سنة ١١٩٤م حين انتخب مونوماكس وسماه بعضهم أموري أو الماريك وكان أسقفاً على قيصرية وتوفي سنة ١٢٠٣م وقيل سنة ١٢٠٢م. انتهى.

عد ٨٥٣

أساقفة سورية في القرن الثاني عشر

توما أسقف كفرطاب

كان أسقفاً على كفرطاب كورة حلب يعقوبي المذهب اختلف مع رؤساء ملته فشايع أصحاب بدعة المشيئة الواحدة وكتب كتاباً سماه المقالات العشر، وافتتحه بقوله: «مخبركم يا إخوة لما كانت سنة ١٤٠٠م من تاريخ اسكندر بن فيلبس المكدوني (سنة ١٠٨٩م) جرت مكاتبات ومراسلات بين بطرك الروم في مدينة أنطاكية وهو الانبا يوحنا وبين توما مطران كورة حلب الماروني لأنّه جرى بينهما تصحيح المذهب المسيحي باعتقاد الإيمان المقدّس وكان الأمر في اعتقاد الملكيين بالمشيئتين لذي الطبيعتين، وفي تصحيح مذهب الموارنة بتأنّس ربنا من لاهوت وناسوت طبيعتين متّحدتين بمشيئة واحدة، فلما كثر التصحيح بينهما جعلت كتب الانبا يوحنا تتوارد إلى الانبا توما وكتب إلى الانبا يوحنا، فعند ذلك كتب الانبا يوحنا بطريرك أنطاكية رسالة طويلة الشرح كثيرة المعنى وأرسلها مع قاصد إلى الانبا توما مطران الموارنة إلى كفرطاب بلد كورة حلب، وهو يحتج عليه فيها ويقول إنّ كل من لا يعتقد أنّ لربّنا يسوع المسيح مشيئتين فهو ضال في مذهبه. ولما وصلت الرسالة إلى الانبا توما تأمّلها فوجد فيها تعاليم كثيرة مخالفة قوانين المجامع وكنيسة الله الجامعة الرسولية، فحزن أنبا توما حزناً شديداً... وجعل ينقض رسالة انبا يوحنا كلمة كلمة في تبطيل المشيئتين وإثبات المشيئة الواحدة: «إلى أن يقول لما وصلت هذه الرسالة إلى انبا يوحنا عجز عن جوابها وألقاها في النار كيلا ينتشر خبرها وعاد توما وكتبها ثانية أحسن ممّا كانت أولاً. كل هذا من كلام الكفرطابي الذي أثبتنا مرات أنّه لم يكن مارونياً وان لم يكن موارنة حينئذٍ في كفرطاب، بل سمّى نفسه مارونياً ليخدع الموارنة. ثمّ أخبر توما عن نفسه أنّه سار بعد ذلك إلى جبل لبنان وكان يظنّ أنّه لا يقيم به إلّا نصف سنة فحدث أنّ الفرنج حاصروا طرابلس حينئذٍ فلم يمكنه العود، فسار إلى جبة يانوح فأقام أربع سنين وعاد إلى جبة بشري وأقام بها سنتين، وانّه أتاه ذات يوم خوري ماهر قديس من أهل قرية فرشع وسأله أن يجدّد له تلك الرسالة التي كتبها إلى يوحنا بطريرك أنطاكية فجدّدها له، وكتابه

المقالات العشر يشتمل على تلك الرسالة. ويظهر من كتابه المذكور أنّه كتب رسالة إلى أرسانيوس مطران العاقورة سماها رسالة العدل ليعين له فيها أنّ القديس مارون وقدماء الموارنة كانوا يعتقدون المشيئة الواحدة مستنداً إلى أقوال سعيد بن البطريق، وانّه يلزم الموارنة أن يعودوا إلى معتقد أجدادهم. فأجابه المطران أرسانيوس ناقضاً زعمه ومبيناً ضلاله وكذلك قاومه البطريرك يوسف الجرجسي بطريرك الموارنة حينئذٍ حتى لم ينخدع بضلاله إلّا خوري فرشع أو كفرشع، ونفر قليل مع أنّه أقام بلبنان ست سنين جائلاً في جبة بشري وعملي البترون وجبيل، ومحرفاً كتب الموارنة أو زائداً عليها ما يوافق مقصده ويساعده على خدعة الموارنة. وقد صنع مثل ذلك خاصة في كتاب إيضاح الإيمان للقديس يوحنا مارون، وفي كتاب الهدى للمطران داود الماروني (كما أبنّا في الكلام على يوحنا مارون وعلى المطران داود المذكور) ومع ذلك عصم الله الموارنة من أحبولة خداعه. وقد صرّح بأنّه أراد تصحيح مذهب الموارنة ولم يذعن لزعمه إلّا خوري فرشع ونفر قليل فعاد بخفي حنين. فكلامه إذاً في كتابه المذكور وفي رسائله للمطران أرسانيوس العاقوري وغيره هو حجة قاطعة للموارنة على تشبّثهم حينئذٍ بعقيدة المشيئتين بالمسيح لا حجة عليهم بهذا الضلال. فلو كانوا متسكعين به حينئذٍ ما كانت حاجة إلى هذا التعب كله من قبله لتصحيح إيمانهم وردهم إلى هذا الضلال ولا من قبل بطريرك الموارنة ومطرانهم لمناصبته في ذلك. وقال فيه ابن القلاعي في قصيدة في ذوي البدع:

تبعهم توما من حاران — من قصته الصدق يبان
في كورة حلب كان مطران — وكرسيه ليس هو سمعاني
قلت لي إنّه من ماردين — زدتني به رغبة ذا الحين
ماردين مسكن الشياطين — نسطور ويعقوب سكاني
قلت إنّه جاء لجبل لبنان — شهدت أنّه جاء للطغيان
ومارون في سذاجة الآن — ينصت لمن هو سرياني

ومن قوله إنّه أتى لبنان عند حصار الفرنج لطرابلس يظهر أنّ إتيانه كان سنة ١١٠٤م أو سنة ١١٠٥م. ومن قوله إنّه أقام بلبنان ست سنين يظهر أنّ رجوعه منه

كان سنة ١١١٠م أو ١١١١م، ولم نعثر على ما ينبئنا ما كان من أمره بعدئذٍ ولا متى كانت وفاته.

غوليلمس الصوري

أقام الفرنج أساقفة لاتينيين لهم في كل من المدن الأسقفية وليس كبير فائدة في استقراء أسمائهم والبحث عن أعمالهم، وأشهر من كان منهم في هذا القرن غوليلمس رئيس أساقفة صور، وهو سوري مولداً وأصلاً على ما قال بعضهم، منهم نطاليس اسكندر وقد ولد في أورشليم نحو سنة ١١٢٧م وسار إلى المغرب فتخرّج هناك في العلوم، ولما عاد إلى أورشليم سنة ١١٦٢م أحبّه أموري ملك أورشليم واعتمد عليه وأقيم بعنايته رئيس شمامسة في كنيسة صور المتريبوليتية سنة ١١٦٧م، وعهد إليه بتربية ابنه بودوين الرابع، وأوفد مرات إلى قسطنطينية ورومة وسعى بعقد معاهدة بين عمنوئيل ملك الروم وملك أورشليم سنة ١١٦٨م، وصيّر أسقفاً على صور سنة ١١٧٤م، وشهد مجمع لاتران الثالث سنة ١١٧٧م، وأبى أن يخضع لسلطة هرقل بطريرك أورشليم اللاتيني معترضاً على انتخابه، وكان بينهما خلاف مشهور. واختلف في سنة وفاته فقال بعضهم سار إلى رومة سنة ١١٨٢م بسبب الاختلاف بينه وبين البطريرك وبقي في الغرب، وقد دعا بمواعظه وخطبه إلى حملة الفرنج الثالثة على سورية وتوفي سنة ١١٩٣م. وعن مكمل تاريخه على ما في مجموعة تاريخ الصليبيين المطبوعة في باريس سنة ١٨٥٩م أنّ غوليلمس رجع من صور إلى إيطاليا سنة ١١٨٠م، لأنّه اعترض على انتخاب هرقل البطريرك الأورشليمي واغتابه، فحرمه البطريرك فاستغاث بالحبر الروماني وسار إلى رومة وأرسل البطريرك خفية معه رجلاً رشاه بمبلغ من المال فدسّ له سماً مات به. على أنّ الواضح من خلاصة تاريخ غوليلمس المعلّقة في آخر المجلّد الثاني من المجموعة المذكورة أنّ وفاة أموري بطريرك أورشليم وانتخاب هرقل خليفة كانا في سنة ١١٨٠م، وانّ غوليلمس عاد من رومة وقسطنطينية إلى صور في ١٤ نيسان هذه السنة، وان البطريرك أموري توفي في ٨ تشرين الأوّل من هذه السنة، وانّ انتخاب هرقل واعتراض غوليلمس عليه كانا حينئذٍ في الشهر المذكور، وانّ حرم هرقل

البطريرك لغوليلمس أسقف صور كان بين سنة ١١٨٣م وسنة ١١٨٤م، وانّه حينئذٍ استغاث بالكرسي الرسولي وسار إلى رومة فمات فيها تلك السنة مسموماً. وقد قيل في مقدّمة المجلّد الثاني من المجموعة المذكورة المطبوعة في باريس بعناية جمعية الخطوط القديمة سنة ١٨٥٩م ما ترجمته: «إنّ غوليلمس كان قد سار إلى رومة ليبرئ ساحته من الشكايات التي أوردها عليه هرقل البطريرك الأورشليمي فمات هناك بغتة ضحية لبغض هرقل له. فهذا ما نعتقده بعد البحث الوافي ومراجعة كثير من كتب التاريخ الموثوق بصدقها وسوف نورد في نبذة مخصوصة بينات لا ترد تثبت صحة هذا الرأي».

قد كتب غوليلمس تاريخه الشهير في اثنين وعشرين كتاباً ضمّن الأوّل منها بعض إفادات تاريخية موجزة عن أخذ العرب أورشليم سنة ٦٠٦م، ثمّ أخذ الفرس لها ونقل خشبة الصليب منها إلى بلاد فارس، ورد الملك هرقل لها إلى أورشليم. وملك الخلفاء سورية وحرق الحاكم بأمر الله الخليفة العلوي كنيسة القبر المقدّس وتجديد نيكوفور بطريرك أورشليم لبنائها سنة ١٠٤٨م إلى غير ذلك، ثمّ شرع في كتابة تاريخ الصليبيين من رجوع بطرس السائح إلى رومة سنة ١٠٩٥م. وقالوا إنّ ما تضمّنه تاريخه في الكتاب الأوّل إلى الكتاب الخامس عشر أعني من سنة ١٠٩٥م إلى سنة ١١٤٤م لم يكن إلّا خلاصة ما كتبه غيره من المؤرخين، وأمّا ما كتبه من تاريخ سنة ١١٤٤م إلى سنة ١١٨٤م فقد كتبه بعلم نفسه، وقد قال في مقدّمة مؤلفه أنّ أموري ملك أورشليم اقترحه عليه وانّه دفع إليه بعض الكتب العربية، وانّه اعتمد منها على أقوال الرجل المحترم سعيد بن البطريق الملكي الاسكندري وقد أخذ عنه ما قاله في تهمته الشهيرة للموارنة التي سنردها إن شاء الله في الملحق الآتي في تاريخ الموارنة في هذا القرن. ويقال أنّ له تاريخاً للعرب أضاعته الأيام.

عد ٨٥٤

ديوانيسيوس بن صليبا

هو من ملاطية (بأرمينية الصغرى) واسم أبيه صليبا فيعزى إليه وكان اسمه قبل أسقفيته يعقوب فبدله بعدها بديونيسيوس، وهو يعقوبي مذهباً وقال فيه البطريرك أسطفانس الدويهي في فصل من كتابه «المنائر العشر»: ديوانيسيوس بن

صليبا من ميليطيني أسقف آمد له شرح على رتبة القداس أرسله إلى اغناطيوس مطران بيت القدس سنة ١٤٨٠ يونانية الموافقة سنة ١١٦٩م ليقاوم به الفرنج الذين كانوا قد ملكوا الأرض المقدّسة. وقال فيه ابن العبري في تاريخه السرياني ما ملخّصه: «إنّ أثناسيوس بطريرك اليعاقبة رقّاه إلى أسقفية مرعش سنة ١١٥٤م ثمّ عقد مجمعاً في دير برصوما سنة ١١٥٥م وألحق منبج بأسقفية مرعش فصار ديوانيسيوس أسقف مرعش ومنبج. وفي سنة ١١٦٦م نقله ميخائيل الكبير بطريرك اليعاقبة إلى أسقفية آمد فدبّرها خمس سنين وتوفي سنة ١١٧١م». انتهى كلام ابن العبري. وبعد أن رواه السمعاني رجع عمّا كان دوّنه في أوّل ترجمة ابن صليبا، وملخّصه أنّ ديوانيسيوس بقي حياً إلى سنة ١١٩٢م التي بها صيّر مخايل الكبير بطريركاً على اليعاقبة، وألقى خطبة عند ترقيته بل لم يمت قبل سنة ١٢٠٧م، لأنّه ذكر في كتابه في البدع فصل ٥٤ ارتقاء البطريرك ميخائيل الصغير ابن أخي البطريرك ميخائيل الكبير إلى بطركية اليعاقبة في السنة المذكورة أي سنة ١٢٠٧م. فقال السمعاني بعد ارتجاعه عن رأيه أنّ تاريخ ترقية ميخائيل الصغير لم يذكره ابن صليبا بل مكمل تاريخه، وقد اغتر نيرون الباني بقوله (في كتابه سلاح الإيمان) إنّ ديوانيسيوس هذا كان بعيد المجمع الخليكدوني، وقد كتب ابن صليبا باللغة السريانية الفصيحة كتباً كثيرة منها كتاب في تفسير أسفار العهدين القديم والحديث، واعتمد فيه على تفسيرات فم الذهب وكيرلس وموسى بركيفا ويوحنا أسقف دارا وغيرهم. وأورد السمعاني (مجلّد ٢ من المكتبة المشرقية صفحة ١٥٧ وما يليها) عدة فقر من تفسيره في مباحث ذات أهمية. وله كتاب في اللاهوت وكتاب في الرد على البدع، وشرح الميرون المقدّس، وشرح في الدرجات المقدّسة ومقالة في سر الاعتراف والتوبة، أثبتها السمعاني من المكتبة المشرقية. وله نافوران فاتحة أحدهما: ܠܟ ܐܠܗܐ ܕܒܚܘܒܐ ܡܬܪܥܐ ܐܢܬ اللهمّ يا من ترتضي بالمحبة، وفاتحة الثاني: ܗܒ ܠܢ ܚܘܒܐ ܘܫܝܢܐ ܘܫܠܡܐ ܓܡܝܪܐ أعطنا حباً واتفاقاً وأماناً كاملاً، وله نافوز ثالث بدؤه ܡܪܝܐ ܐܠܗܐ ܗܘ ܕܐܢܬ ܗܘ ܚܘܒܐ ܫܪܝܪܐ ܘܓܡܝܪܐ أيّها الرب الإله الذي أنت الحب الحقيقي والكامل . وهذا النافور مثبت في كتاب في مدرسة الموارنة برومة. وقد ذكر البطريرك أسطفانس الدويهي النافورين الأوّلين في كتابه المذكور، وقال إنّ

النافور الثاني طبع برومة سنة ١٥٥٤ وهو خطأ لأنّه لم يطبع برومة نافور لابن صليبا بل طبع برومة تلك السنة نافور معزو إلى ديونيسيوس الأروباجيتي في كتاب قداس الكلدان.

ولدى يوانيسيوس بن صليبا ثلاث صلوات تتلى الأولى في قداس اليعاقبة يوم خميس الأسرار، والثانية يوم السبت العظيم، والثالثة يتلوها اليعاقبة قبل كسر القربان في القدّاس. وله كتاب في شرح رتبة القداس وهو الذي ذكرناه أولاً نقلاً عن الدويهي وقد ذكره رينودوسيوس في المجلّد الثاني من كتابه في الليتورجيات المشرقية صفحة ٤٥٤، وذكره نيرون الباني في كتابه سلاح الإيمان، وقال إنّ نسخة منه في كتب الحاقلي ونسخة أخرى كانت في مدرسة الموارنة المقامة في رافنا، ويشتمل هذا الكتاب على عشرين فصلاً ذكرها السمعاني (في المكتبة المشرقية مجلّد ٢ صفحة ١٧٧ إلى ٢٠٨) فصلاً فصلاً مبيناً أهم ما حواه كل منها. وقد أبنّا في عد ٧٠٧ أنّ كتاب ابن صليبا هذا هو غير كتاب يوحنا مارون الموسوم بشرح القداس أيضاً، وذكرنا ما بين الكتابين من الاختلاف وأوضحنا أنّ ابن صليبا انتحل بعض كلام يوحنا مارون.

الفصل الثاني

مشاهير العلم الدينيون في القرن الثاني عشر

عد ٨٥٥

بعض المشاهير الشرقيين في هذا القرن

لم نهتد في ما لدينا من كتب التاريخ إلى ترجمة أحد من المشاهير الدينيين السوريين في هذا القرن فاقتصرنا على ذكر بعض المشاهير الشرقيين في هذا الفصل، وسنذكر في الفصل التالي المشاهير الغربيين في هذا القرن بما أمكن من الإيجاز.

البطريرك ميخائيل الكبير

هو أحد بطاركة اليعاقبة وقد اشتهر في أواخر القرن الثاني عشر فيؤخذ عن كتاب الأناجيل القديم الموجود في المكتبة الملكية في باريس أنّ هذا الكتاب خطّ في أيام هذا البطريرك سنة ١٥٠٣ يونانية الموافقة لسنة ١١٩٢م. وقد ذكره رينادوسيوس في المجلّد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٤٤٨ وقال في حقه ديوانيسيوس بن صليبا في جدول بطاركة اليعاقبة عد ١٠٠ إنّه كان راهباً في دير برصوما واشتهر في الفضائل وفي الكتاب الخامس من كتب الحاقلي الذي في المكتبة الواتيكانية خطبة لابن صليبا هذا ألقاها يوم ترقيته إلى المقام البطريركي. ومن مؤلفات هذا البطريرك نافور أي رتبة للصلوات التي تتلى في القداس ترجمه رينودوسيوس إلى اللاتينية في كتابه المذكور آنفاً وهو مثبت في الكتاب الثالث من الكتب السريانية المخطوطة المأتي بها من الصعيد إلى المكتبة الواتيكانية صفحة ١٢٦ وفاتحته: ܐܠܗܐ ܐܚܝܕ ܟܠ ܘܡܪܐ ܕܟܠ أي اللهمّ الضابط كل شيء وسيّد كل شيء وذكره البطريرك أسطفانس الدويهي في كتابه المنائر العشر في الفصل السابع في مؤلفي النوافير الهراطقة. فقال، ميخائيل البطريرك له نافور بدؤه ܐܠܗܐ ܐܚܝܕ ܟܠ ܘܡܪܐ ܕܟܠ وله مقالة في الاستعداد إلى تناول القربان الأقدس ذكرها رينودوسيوس في كتابه المذكور، ووصفها بلاهوتية وعلمية، وقال إنّه ضمّن كتابه هذا الجليل الكلام في فروض الإنسان المسيحي وفي الإيمان وكيف يستطيع الإنسان أن يكون تلميذاً كاملاً للمسيح، وفي لزوم التوبة والاعتراف إلى غير ذلك. وعدّه أبو الفرج ابن العبري في جملة المؤلفين الذين كتبوا في القوانين البيعية، وله كتاب في الرتب الحبرية والطقوس البيعية وهو مثبت في الكتاب الرابع من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية، ويعزى إليه كتاب قديم وجد في الرها مشتملاً على جداول في أسماء بطاركة اليعاقبة والأساقفة الذين رقاهم كل منهم من القرن الثامن إلى الثاني عشر، وقد ترجمه إلى الفرنسية المونسنيور شابو ونشره في المجلة الموسومة بالمشرق المسيحي. وتوفي هذا البطريرك في ٧ تشرين الثاني سنة ١٢٠٠م على ما روى ابن العبري في تاريخ بطاركتهم.

يوحنا زوناراس

قد استشهدنا بكلامه متواتراً وهو مؤرّخ يوناني كان في قسطنطينية في هذا القرن كاتباً للملكين يوحنا وعمانوئيل كومنانس، ثمّ ترك العالم واتّخذ السيرة الرهبانية على مقتضى قانون القديس باسيليوس وانفرد في جزيرة، وانكبّ على التأليف، فصنف تاريخه المشهور ابتدأ فيه من خلق العالم إلى سنة ١١١٨ للميلاد التي توفي فيها الكسيس كومنانسي. واثنى العلماء على هذا التاريخ ولاسيما ما كتبه في قسطنطين الكبير والأمراء آل بيته وقد طبع تاريخه مرات، منها طبعة الأب مين في جملة مكتبة الآباء المشرقيين وقد ترجمه الرئيس كوزن إلى الفرنسية وطبعت هذه الترجمة أولاً في باريس سنة ١٦٧٨م. وله أيضاً قصائد شعرية وشروح على قوانين الرسل والمجامع المقدَّسة وعلى الرسائل القانونية للقديسين ديونيسيوس وبطرس الاسكندريين وغريغوريوس المعروف بذي العجائب وباسيليوس، على أنّ العلماء رأوا أنّ هذه الشروح نفسها تعزى إلى توادرس بلسامون البطريرك الأنطاكي ولم يحققوا لأيهما هي حقيقة.

حنة كومنانس

هي ابنة الملك الكسيس كومنانس وزوجة نيقوفور القيصر، وكانت فقيهة عالمة ضليعة بعدة فنون كتبت تاريخ أبيها الكسيس كومنانس في خمسة عشر كتاباً، وانتقد كلامها كثير من العلماء ولاسيما اللاتينيون في مبالغتها في تعظيم أبيها وفي بغضتها للاتينيين وقد أثنى زوناراس في المجلّد الثالث من تاريخه صفحة ٢٤٢ وسماها القيصرة العلامة وقال نيقيطا كونياتس (في تاريخه صفحة ٧) إنّها كانت منصبّة على الفلسفة وضليعة في كل فن.

عد ٨٥٦

بعض المشاهير الغربيين في هذا القرن

نكتفي بأن نذكر من المشاهير الدينيين الغربيين في القرن الثاني عشر القديس برنردس وبطرس اللمبردي.

القديس برنردس

ولد القديس برنردس بفونتان له ديجون Fontaine les Dijon بفرنسة سنة ١٠٩٠م أو سنة ١٠٩١م، واتّخذ طريق الرهبانية وأنشأ رهبانية تسمى رهبانها البرنرديين نسبة إليه، وأقيم رئيساً عليها سنة ١١١٥م. وذاع صيت قداسته وفصاحته حتى تقاطر إليه الرجال من كل فج طالبين الأنضواء إلى رهبانيته وعظمت شهرته حتى كان الأساقفة والأمراء والملوك بل الأحبار الرومانيون أنفسهم يختارونه حكماً فيما يختلفون به من المسائل. ولما نازع اناكليتس أينوشنسيوس الثاني البابوية سنة ١١٣٠م استمال القديس برنردوس أنريكس الثاني ملك إنكلترا وغيره من الأمراء إلى المدافعة عن أينوشنسيوس البابا الشرعي واستدعاه هذا البابا إلى رومة ثلاث مرات ليتعزز به، وقد دعا إلى حملة الصليبيين الثالثة سنة ١١٤٦م فلبّى دعوته لويس السادس ملك فرنسة وكونراد ملك ألمانيا وكان شديد المدافعة عن الدين الكاثوليكي، فناصب من المبتدعين ابايلاردوس وبطرس برديس وادلدوس من براشيا وغيرهم وأخمد ثورة الراهب راول الذي حاول أن يهيج الناس على قتل اليهود جميعاً وأنشأ لرهبانيته نحو اثنين وسبعين ديراً منبثة في أنحاء أوروبا كلها، حتى قال بعضم أنّه كان حلية عصره وزينة دهره ومعلّم البابوات والأساقفة والملوك والأمراء برسائله وقداسته ومطرقة أصحاب البدع بتفنيده ضلالهم، وأجرى الله على يده آيات باهرة ونقله تعالى إليه سنة ١١٥٣م وأحصاه البابا اسكندر الثالث في مصاف القديسين سنة ١١٧٤م، وتعيد له الكنيسة اللاتينية في ٢٠ آب يوم وفاته، وتعيّد له طائفتنا المارونية في ذلك اليوم». وألّف كتباً كثيرة نشرها مابيلون في ستة مجلّدات بقطع كامل سنة ١٦٩٠م، ثمّ طبعت بعد ذلك مرات وهي مشتملة على مقالات لاهوتية ورسائل وخطب باللغة اللاتينية، وله مدائح رنانة للعذراء الكلية الطوبى، وهو الذي زاد على الصلوة السلام لك أيّتها الملكة أم الرحمة الفقرة الأخيرة وهي «يا شفوقة رؤوفة يا مريم البتول الحلوة اللذيذة صلي لأجلنا يا والدة الله القديسة» وباقي هذه الصلوة تأليف ويمبر نائب البابا في حملة الصليبيين الأولى الذي صيّر بعد ذلك بطريركاً لاتينياً على أورشليم. ومما حكي عن القديس برنردس أنّ البابا أمره يوماً أن يلقي خطبه عليه وعلى الكرادلة والأساقفة المجتمعين للمارسات الروحية فاعتذر، فلم يقبل البابا عذره فاستمهل، فأمهله ثلاثة أيام وأتى في الوقت المعيّن

وصعد على المنبر وأجال باصرتيه بالحاضرين وقال: «إعملوا بما تعلمون» وانسلّ عن المنبر وتوارى فكانت عبارته عظة كبرى أشغلت سامعيها بالتأمّل بها مدّة طويلة.

بطرس اللمبردي

ولد في نوفاريا بلمبرديا أحد أعمال إيطاليا في أواخر القرن الحادي عشر، وتخرّج في العلوم برنس بفرنسة ونال رتبة الملفنة في كلية باريس وعلّم فيها اللاهوت ثمّ رقي إلى أسقفية باريس سنة ١١٥٩م. وفي رواية أخرى سنة ١١٥٨م وتوفي سنة ١١٦٠م. وله مؤلّف في اللاهوت قسّم إلى أربعة كتب وسماها «كتب الآراء» جمع فيها آراء الآباء في كل مباحث اللاهوت، لكنّه أهمل القطع بصحة كثير منها فيورد أقوال الآباء في ذلك المبحث وقلّما يعنى ببتها، ولذلك كان كتابه موضعاً للجدال بين العلماء، وشرحه كثير من العلماء ولاسيما القديس توما الأكويني وانتقده كثيرون منهم في عدة مسائل، وأكسبه هذا التأليف لقب معلّم الآراء. ويسمى اللمبردي نسبة إلى لمبرديا مولده وله تفسير للزبور ولرسائل القديس بولس الرسول. انتهى.

ذيل

لم يكن في هذا القرن بدعة حديثة في الشرق بل كان في الغرب بعض المبدعين كبطرس أبايلاردوس وارنلدوس من براشيا وبطرس فالدوس وغيرهم ولم تكن بدعهم ذات أهمية أو لم تدم إلّا زمناً وجيزاً وقلّ من شايعهم عليها، ولذا لم نحفل إلّا بالإشارة إليها.

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثاني عشر

عد ٨٥٧

حالتهم الدنيوية في هذا القرن

ذكرنا في تاريخ الموارنة في القرن الثامن عد ٧٤٢ أنّ حلم الخلفاء وصعوبة مسالك لبنان وتعذر إحراز الثروة فيه جعلت الموارنة سكانه في مأمن من السطو عليهم والمزاحمة لهم على أراضيه، وان يظهر أنّ الخلفاء كانوا يولون عليهم ولاة مسيحيين، وأيدنا ذلك بشهادة العلامة السمعاني في مؤلفه «مكتبة الناموس» (مجلّد ٤ صفحة ٣٩٤). والآن نقول يظهر أنّ الموارنة سكان لبنان استمرّوا على ذلك إلى هذا القرن وما بعده أيضاً متنعمين بنوع من الاستقلال الإداري بفضل الخلفاء، ولما أتى الفرنج وملكوا السواد الأعظم من سورية لم ينزعوا عنهم هذه النعمة بل تركوهم واستقلالهم المذكور. وهذا تؤكّده لنا أدلّة كثيرة قاطعة فلم نعثر في كل ما قلّبناه من كتب التاريخ لأخذ تاريخ الخلفاء ما يؤذن بأنّ الخلفاء نصبوا عاملاً على لبنان أو على مدنه غير الساحلية، فقد ذكروا متواتراً عمال النواحي كطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحماه وحمص وبعلبك، ولكن لم نرَ ذكراً لعامل في لبنان أو إحدى مدنه أو قراه الجبلية، بل لم نجد أثراً لإقامة المسلمين في أنحائه إلّا بعد أواخر القرن الثالث عشر ولا في سواحله أو ما يقرب منها كإقامة أمراء الغرب من آل تنوخ في عمل الغرب القريب من بيروت، فانّ الملوك والأمراء المسلمين أقاموا في مدة حربهم مع الفرنج هؤلاء الأمراء في العمل المذكور، وبعد طردهم الفرنج من هذه البلاد أسكنوا عشائر من المسلمين في سواحل لبنان ليكونوا حاجزاً بين نصارى لبنان وبين الفرنجة إذا عادوا إلى سورية كما سيأتي.

ولما فتح الفرنج سورية وملكوا مدنها الساحلية لم يعترضوا النصارى سكان لبنان في تدبير أمورهم الداخلية، ولم يمسّوا ما كانوا عليه من الاستقلال، فلا نراهم نصبوا عاملاً على غير المدن الساحلية، ولا ألفينا ما يدل على أنّهم حاربوا سكانه أو أنّ سكانه استسلموا إليهم أو تركوا لهم تدبير شؤون بلادهم، كما لا نرى أنّ الحكام المسلمين استعانوا بهم على حرب الفرنج أو جنّدوا قوماً منهم لمحاربة الفرنج. ولو كانوا يلونهم كغيرهم من سكان السهول والمدن البحرية لما أهملوا تكليفهم إلى إنجادهم في حروبهم كما كانوا يصنعون مع باقي مسوديهم بل لو كان للولاة المسلمين الولاية المطلقة على سكان الجبل لما استطاع الفرنج أن يتمكّنوا في طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا لاكتناف الجبل هذه المدن ومن عرف موقعها قضى بما نحن مثبتون.

وقد جاء في كتاب تاريخ الموارنة المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٠م (صفحة ٢٧٩) ذكر أمراء لبنان مع تعيين أسمائهم وسني ولايتهم نقلاً عن رسالة للخوري يوسف مارون الدويهي الاهدني، فلا يمكن القطع بصحّة هذه الرواية ولاسيما في تعيين الأسماء والسنين، لأنّ صاحب الرسالة لم يسند ما كتبه إلى أحد المؤرخين أو أحد الكتب القديمة، وغموض التواريخ في تلك الحقبة معلوم مشهور فيتعذّر على الكاتب أن يحقق هذه الأسماء وهذه السنين. وإذا كان العلماء لم يستطيعوا أن يعرفوا أسماء بعض البطاركة وسني رياستهم في تلك القرون فلا يظن أنّه كانت وسيلة للعلم بأسماء أمراء منزوين في جبل وبسني ولايتهم. ولكن بقاء حكام أو أمراء في لبنان في تلك السنين لا ريبة فيه وكل ما مرّ آنفاً يؤيد أنّ هؤلاء الأمراء كانوا وطنيين ولنا شهادة قاطعة على أنّه كان في لبنان في القرن الثاني عشر ملك أو أمير ماروني في جبيل. وهذه الشهادة كتبها البطريرك أرميا العمشيتي بخط يده على كتاب الأناجيل الأربعة الذي خطّ سنة ٨٩٧ يونانية الموافقة لسنة ٥٨٦ للميلاد. وكان هذا الكتاب في بطريركية الموارنة في أيام البطريرك أرميا المذكور ثمّ اتّصل إلى المكتبة الماديشية في فيرنسا بإيطاليا، وذكره العلّامة المطران أسطفان عواد السمعاني في الفهرست الذي وضعه للكتب الشرقية في هذه المكتبة وقد صنع مثالاً للكلمات نفسها التي خطّتها يد أرميا بالسريانية وسنذكرها عند الكلام فيه. ونجتزئ الآن بذكر ما خصّ غرضنا منها، فانه بعد أن ذكر دعوة البطريرك له وتصييره أسقفاً في دير كفتون قال: «وبعد مضي أربع سنين طلبني ملك (أي أمير) جبيل

والأساقفة ورؤساء الكنيسة والكهنة وألقوا قرعة فأصابتني وأقاموني بطريركاً في دير حالات». فأمير جبيل الذي دعا أسقفاً مارونياً وشهد انتخابه بطريركاً لا يمترى في أنّه ماروني.

ونرى لويس التاسع ملك فرنسة لما كان في عكا في أواسط القرن التالي كتب في رسالته إلى الموارنة: «إلى أمير الموارنة بجبل لبنان وإلى بطريرك وأساقفة الطائفة المذكورة». وصرّح في رسالته بأنّ الأمير سمعان أتى إليهم وقدّم له هدايا فاخرة بل قد صرّح البابا بناديكتس الرابع عشر في خطبته في كرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م بأنّه لما ملك المسلمون أنطاكية وطردوا الفرنج منها ولّى هؤلاء فارين إلى جبل لبنان، فقبلهم بطريرك الموارنة بالايناس والترحاب فكتب إليه البابا اسكندر الرابع يشكر له صنيعه ولم تزل براءة البابا اسكندر الرابع التي أشار إليها بناديكتس الرابع عشر محفوظة في خزانة أوراق بطريركية الموارنة حيث يوصيه بهؤلاء الفرنج، ويخوّله الحق أن يسوسهم كشعبه. فلو لم يكن للموارنة حينئذٍ نوع من الاستقلال لما هرب الفرنج إليهم ولما استطاع بطريرك الموارنة أن يقبلهم ويضمّهم إلى شعبه وسوف ترى شيئاً كثيراً يثبت ذلك.

عد ٨٥٨
بطاركة الموارنة في القرن الثاني عشر

لما قدم الفرنج إلى سورية في آخر القرن الحادي عشر كان يوسف الجرجسي بطريركاً على الموارنة ولا نعلم في أيّة سنة قبل ذلك رقي إلى هذا المقام، بل علمنا أنّه لما فتح الفرنج أورشليم أقاموا غودفروا ملكاً عليهم واختاروا بطريركاً لاتينياً على أورشليم أرسلوا رسائل ووفداً إلى الحبر الروماني البابا أوربانس الثاني يبشرونه بما وفّقهم الله إليه، وأرسل يوسف الجرجسي مع وفدهم نائباً عنه ورسالة إلى الحبر الروماني يحقق بها طاعته له وتشبّثه بالإيمان الكاثوليكي فبلغت هذه الرسالة إلى البابا بسكاليس الثاني لأنّ سالفه البابا أوربانس الثاني كان قد توفي قبل فتح أورشليم بأربعة عشر يوماً فسرّ البابا بسكاليس بهذه الرسائل والوفد سروراً عظيماً وأرسل إلى بطريرك الموارنة تاجاً وعكازاً. وروى ذلك الأسقف جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي في رسالة كتبها إلى البطرك سمعان الحدثي سنة ١٤٩٤م

ومرهج بن نيرون الباني في كتابه (أفوبليا) سلاح الإيمان صفحة ٦٧، وأورد لكويان قوليهما في المشرق المسيحي (مجلّد ٣) في كلامه على بطاركة الموارنة وكان هذا البطريرك ساكناً في يانوح من عمل جبيل.

وروى لكويان في المحل المذكور ما رويناه في كلامنا على توما أسقف كفرطاب أنّه كان يعقوبياً وصار من أصحاب بدعة المشيئة الواحدة، وأتى إلى لبنان قاصداً أن يستغوي الموارنة وانّه قام لمناصبته يوسف بطريرك الموارنة وأرسانيوس مطران العاقورة وفندا تعليمه برسائلهما، فرذله الجميع ولم يضلل إلّا خوري كفرشع وبعض المغفّلين إلى أن قال لكويان إنّ هذا البطريرك بقي حياً إلى سنة ١١١٩م هذا إذا كان هو الذي كتب رسالة إلى البابا جيلاسيوس الثاني يهنئه بها بارتقائه إلى الحبرية العظمى ولما كان البابا جيلاسيوس لم يعش إلّا زماناً وجيزاً (سنة وخمسة أشهر) جاوبه البابا كاليستوس الثاني على رسالته سنة ١١١٩م كما روى ابن نيرون الباني في كتابه سلاح الإيمان صفحة ٦٨، وربّما كان البطريرك بطرس خليفة يوسف المذكور هو الذي كتب هذه الرسالة.

وصيّر بعد البطريرك يوسف الجرجسي البطريرك بطرس الأوّل ولا شكّ في أنّه كان بطريركاً على الموارنة سنة ١١٢١م، لأنّ الكتاب السابع من الكتب السريانية المخطوطة التي نقلها السمعاني إلى المكتبة الواتيكانية علق كاتبه على صفحة ٢٦٢ منه هذه الحاشية بالسريانية وترجمتها: «أنا الحقير الراهب سمعان كتبت هذه الأسطر في هذا الكتاب الذي نسخته لأبينا الطوباوي بطريركنا مار بطرس بطريرك الموارنة الساكن بدير ميفوق المقدّس في وادي ايليج من عمل البترون، إلى أن أمرني أن أكون رئيساً وناظراً على دير القديس يوحنا في أرض كوزبند. بجزيرة قبرص في أيام الرهبان الساكنين في دير القديس يوحنا المذكور وهذه أسماؤهم: الراهب داود القس موسى الراهب، يوسف النحتومي، والراهب جيورجيوس، والراهب دانيال. وهؤلاء كهنة يخدمون الله وكان ذلك سنة ١٤٣٢ يونانية (سنة ١١٢١م) في اليوم الثاني عشر». يريد من تشرين الأوّل الذي كان السريان يبدأون السنة منذ ذكر ذلك السمعاني في المجلّد الأوّل من المكتبة المشرقية صفحة ٣٧٠ ثمّ ذكره صفحة ٦١١ و ٦١٢ من المجلّد المذكور.

وقد ذكر الدويهي في تاريخه البطريرك بطرس هذا فقال: «وفيها (أي في سنة

١١٢١م) كان البطريرك بطرس قاطناً في دير سيدة ميفوق من أعمال البترون وبعث الرهبان القاطنون بدير مار يوحنا كزبند يخبرونه بوفاة رئيسهم ويسألونه أن يرأس عليهم القس سمعان الذي كان كاتباً عند قدسه، وله اليد الطولى في الخط، وفي تزويق التصاوير كما هو واضح من كتاب ميامر مار يعقوب السروجي الذي كتبه بخط استرنكالي على رق وهو مصان عندنا بدير سيدة قنوبين». انتهى كلام الدويهي ويظهر منه أنّ هذا الكتاب الذي كان في قنوبين نقله السمعاني إلى المكتبة الواتيكانية.

وخلف غريغوريوس الثالث من حالات بطرس الأوّل وقد ذكره الأسقف جبرائيل القلاعي في رسالته إلى البطريرك سمعان الحدثي ومرهج بن نيرون الباني في كتابه سلاح الإيمان، وقال إنّه أرسل سنة ١١٣٠م وفداً إلى البابا أينوشنسيوس الثاني يهنئه بارتقائه إلى الحبرية العظمى، ولما أرسل هذا البابا الكردينال غوليلمس إلى الشرق بسبب الخلاف الشهير الذي كان حينئذٍ إذ غصب البابابوية بطرس لاون وسمى أناكليتس الثاني، التقى البطريرك غريغوريوس الكردينال غوليلمس إلى طرابلس وقدّم صك طاعته للبابا أينوشنيوس الثاني البابا الشرعي. وقد ذكر ذلك البطريرك أسطفانس الدويهي في تاريخه، فبعد أن أورد خبر هذا الخلاف ورجوع الأكثرين إلى طاعة البابا الشرعي واقتداء الفرنج الذين بسورية بهم قال: «وعلى شبه من تقدّم ذكرهم نزل رؤساء الملة المارونية وعلماؤها إلى مدينة طرابلس وعلى يد الكردينال غوليلمس قاصد البابا زخيا (أينوشنسيوس) حلفوا له الطاعة وأعطوه خطوط أيديهم أنّهم لا يتمسكون بغيره ولا يكرزون إلّا باسمه».

وصيّر بعد غريغوريوس الثالث الحالاتي يعقوب الأوّل من رامات بيلاد البترون وقد روى العلامة السمعاني (في المجلّد ١ من المكتبة المشرقية صفحة ٣٠٧) انّه علق على أحد كتب القديس يعقوب السروجي (وهو السابع من الكتب السريانية التي نقلها السمعاني إلى المكتبة الواتيكانية) هذه الحاشية بالعربية: «لما كان تاريخ سنة ١٤٥٢ يونانية (توافق سنة ١١٤١م) في شهر تموز المبارك بعشرة أيام مضت منه حضر إلى عندي أنا بطرس بطريرك الموارنة الجالس على الكرسي الانطاكي باسم يعقوب من قرية رامات من عمل البترون الولد الراهب دانيال من رهبان دير كفتون وقد أعطيته سلطانا من الله، ومن حقارتي بأنّه يكون رئيساً ومديراً على دير مار يوحنا الكوزبند في جزيرة قبرص المحروسة من الله تعالى بحسب ما ورد من الأولاد

الرهبان وأوّلهم الراهب عيسى وإيليا والراهب موسى، والراهب يوحنا وأخوه يعقوب برضاهم وخاطرهم وخطّ أيديهم ولربّنا آمين». وقال البطريرك أسطفانس الدويهي في تاريخ سنة ١١٤٠م: «وفيها كانت وفاة الرجل الفاضل القس سمعان رئيس دير ما يوحنا الكوزبند بقبرص، وأرسل لهم بدله البطريرك يعقوب من رامات من عمل جبيل القس دانيال من رهبان سيدة كفتون الذي في كورة طرابلس، ومن بعد يعقوب الراماتي رقي إلى الكرسي البطريركي يوحنا السابع سنة ١١٥١م، وقد ولد في لحفد من عمل جبيل وسكن أولاً في دير مار الياس في قريته، ثمّ انتقل إلى دير السيدة بهابيل، وأقام هناك ديراً، ووصفه الدويهي في تاريخ بطاركة الموارنة بأنّه كان ذا مكارم وفصاحة كما يظهر من النافور الذي كتبه، وانّه في مدّة إقامته بلحفد رقى أربعة أساقفة لمعاونته على تدبير الشعب، فسكن أحدهم في دير القديس حوشب، والثاني في دير القديس سمعان، والثالث في دير القديس اليشاع والرابع في دير السيدة بلحفد. وانه لما كان عيد العنصرة حضر إليه شعب كثير ومعهم شمامسة وكهنة ورهبان ورؤساء كهنة فانتقل من ديره إلى دير السيدة الذي فوق هابيل حيث لم يكن ماء، فحفر بئراً وأنشأ ديراً كبيراً. وقد جاء في الآثار القديمة وفي الرسالة التي كتبها جبرائيل بن القلاعي إلى القس جرجس في الفصل الحادي عشر أنّ دير هابيل المذكور استمرّ كرسياً لبطاركة الموارنة إلى أيام البطريرك أرميا، إلّا أننا لم نعثر على أسماء هؤلاء البطاركة الذين أقاموا به لنثبت ذكرهم. انتهى كلام الدويهي وقد وجد مكتوباً على كتاب الأناجيل القديم الذي كان في بطريركية الموارنة ثمّ نقل إلى المكتبة الماديشية بفرنسا. وذكر المطران أسطفان عواد الخطوط المعلّقة عليه في كتابه فهرست هذه المكتبة فقال إنّه كتب على صفحة ١٨ سطر ٢٣ وما يليه ما يأتي بالعربية: «لما كان تاريخ سنة ١٤٦٥ يونانية توافق سنة ١١٥٤م) ثامن يوم مضت من شهر أيلول حضر إلى عندي أنا بطرس بطريرك الموارنة الجالس على الكرسي الأنطاكي القاطن بدير سيدة ميفوق في وادي ايليج الولد الراهب أشعيا من دير قزحيا وعملته رئيس على الرهبان القاطنين في دير ما يوحنا دير الكوزبندو في جزيرة قبرص حسبما ورد من الأولاد الرهبان بخط أيديهم وهم: الولد الراهب جبرائيل ورفيقه الراهب شمعون، والراهب حبقوق، والراهب ميخائيل، وللرب المجد آمين». فبطرس هذا هو يوحنا اللحفدي المذكور. ويظهر أنّ بطاركتنا كانوا منذ تلك الأيام يزيدون على إسمهم بطرس، ويظهر أيضاً أنّه كان يقيم بسيدة ميفوق أيضاً. وقد

ذكره السمعاني (في المجلّد الأوّل من المكتبة المشرقية صفحة ٥٢٢)، وقال إنّه ولد في لحفد، وأنّه خلف البطريرك يعقوب الراماتي، وانّه دبر الكنيسة المارونية من سنة ١١٥١م إلى سنة ١١٧٣م وانّه كتب نافوراً ذكره البطريرك أسطفانس الدويهي في كتابه المنائر العشر في الفصل الثاني في مؤلفي النوافير الكاثوليكيين فقال: «يوحنا اللحفدي جلس على الكرسي الأنطاكي بعد الالف والماية من سني السيد المسيح له نافور بدؤه ܟܠ ܩܕܝܫܐ ܘܡܩܕܫ ܐܠܗܐ ، إيّها الإله الكلّي القداسة وهو مثبت في كتب القداس الموجودة في دير قنوبين.

إنّ البطريرك أسطفانس الدويهي ذكر بعد البطريرك يوحنا اللحفدي البطريرك أرميا العمشيتي، لكن قال ما رويناه آنفاً أنّ دير هابيل استمرّ كرسياً لبطاركة الموارنة إلى أيام البطريرك أرميا، إلّا أننا لم نعثر على أسماء البطاركة الذين أقاموا هناك لنذكرهم، فظهر أنّه كان بين يوحنا اللحفدي وأرميا العمشيتي بطاركة آخرون. ولكويان في كلامه على بطاركة الموارنة جعل يوحنا اللحفدي الثامن والعشرين منهم، ثمّ وضع الأعداد ٢٩ و ٣٠ و ٣١ وبعدها بياضاً لأنّه لم يهتدِ إلى أسماء ثلاثة بطاركة ثمّ ذكر لوقا أيضاً قبل أرميا. وقال المطران أسطفانس دواد السمعاني في فهرست المكتبة الماديشية صفحة ١٦ متكلّماً في كراسي بطاركة الموارنة. «رابعاً في دير القديس الياس بلحفد من أبرشية جبيل حيث جلس يوحنا اللحفدي خليفة يعقوب وهو الذي نقل الكرسي إلى دير القديسة مريم بهابيل من أبرشية جبيل المذكورة وهناك جلس بطرس وبطرس الآخر ولوقا المسمى بطرس. خامساً نقل الكرسي البطريركي ثانية إلى دير القديسة مريم بيانوح من أبرشية البترون حيث جلس أرميا». ولا أشكّ البتة في أنّه كان بين يوحنا اللحفدي وأرميا العمشيتي بطاركة آخرون. وعلى ذلك دليل قاطع غير ما مرّ من شهادة المؤرخين. فقد ذكر السمعاني وغيره أنّ يوحنا اللحفدي توفي سنة ١١٧٣م كما رأيت وأنّ أرميا توفي سنة ١٢٣٠م، فلو كان أرميا خلف يوحنا للزم أن يكون أرميا استمرّ بطريركاً سبعاً وخمسين سنة وهذا لا يصدق. ومما لا ريب فيه أنّ أرميا العمشيتي شهد المجمع اللاتراني الرابع سنة ١٢١٥م، وانّ البابا أينوشنسيوس الثالث كتب إليه براءته المثبتة في سجلات البراءات تلك السنة، فلو كان قد صير بطريركاً سنة ١١٧٣م لكان له في البطريركية حينئذٍ اثنتان وأربعون سنة. فان فرضنا أنّه صيّر بطريركاً وعمره أربعون سنة فقط فيكون عمره سنة ١٢١٥م اثنتين وثمانين. سنة ومن يصدق أنّ

هرماً بهذا العمر يتحمّل مشاق السفر في تلك الأيام إلى رومة فإذاً لا بدّ من أن يكون بطاركة آخرون بين يوحنا اللحفدي وأرميا العمشيتي أفلم ننظر ما يقوله المؤرخون في ذلك؟

قال لكويان في المشرق المسيحي (متكلّماً في بطاركة الموارنة) روى مرهج بن نيرون الباني في مقالته في اسم الموارنة وأصلهم ودينهم نقلاً عن جبرائيل بن القلاعي في قصيدته في أصحاب البدع أنّ من اتبعوا ضلال توما أسقف كفرطاب (الذي كان قد توفي) أطغوا غيرهم من الموارنة ببدعة المشيئة وتوافر عدد المطغين حتى أنّ البطريرك نفسه لم يذكر اسمه جنح إلى ذلك فان ابن القلاعي يقول ما معناه أنّه بعد توما قام ابن شعبان وأخذ يكتب ويعلم الأحداث ويبذر الضلال بين الموارنة وملأ كتبهم من الزوان، وقام بعده ابن حسان من حدشيت وأطغى أهل كفر ياشيت وكتب وغيّر الصلوات وانبثّ سم الضلال في قرى أخرى حتى اتّصل إلى الرأس أيضاً إذ قال: «إنّ البطريرك ابتلع السم بقدر ما يسع الفم». ولذلك اجتمع رؤساء الموارنة وأعيانهم وكثيرون من الشعب وجزموا جميعاً برأي واحد على أن ينفصلوا من شركة البطريرك فلم يعودوا يؤدونه الطاعة ولا يقبلونه في البلاد بل حملتهم الحمية والغيرة الدينية على أنّهم حطوه عن مقامه وانتخبوا بطريركاً آخر، فحنق لذلك أصحاب البطريرك المعزول وقتلوا البطريرك الجديد. وبعد قتل هذا البطريرك تعاظم الخلاف والشغب بينهم فتدارك أمرهم أيميريكس البطريرك الأنطاكي على اللاتين، وسكن روعهم وخمد جزوة غضبهم ورد المغوين عن غيهم، فاتّفقوا جميعاً على انتخاب بطريرك صحيح المعتقد. قال لكويان هذا ما جاء في التاريخ المذكور: «إنّ ايميريكس ذا الذكر الصالح انتزع السم منهم وأرشدهم فطاوعوه واهتمّ بنيل البركة لهم من الكرسي الرسولي، واختاروا بطريركاً سكن في هابيل وحفظ كل ما في الإنجيل، وكان ضليعاً في تفسير الأسفار المقدّسة وألّف أشعاراً كثيرة في الإيمان». واختتم لكويان كلامه بقوله لا ريب عندي في أنّ هذا ما حمل غوليلمس أسقف صور على ما كتبه من أنّ الموارنة كلّهم رجعوا عن الضلال سنة ١١٨٢م على يد ايميريكس البطريرك الأنطاكي مع أنّ هذا لا يصدّق على الملة كلّها، بل على بعضها فقط ويؤيد ذلك ما جاء في التاريخ المذكور: «إنّهم ثبتوا في إيمان مارون وذلّ المعاندون وعاد الوفاق والسلم ثابتين بين من كانوا مختلفين». وكان لكويان قد قال في مقدّمات كلامه على الموارنة كما لم يعجب فرنسة إتباع

كثيرين من اكليرسها وأعيانها مذهب لوتارس وكلوينس هكذا لا يعيب الملة المارونية اتباع بعض أفرادها الضلال مدة ما.

وبعد إيراد لكويان خبر هذه الأحداث ذكر لوقا الأوّل قائلاً ما خمدت جذوة الاضطراب بين الموارنة إلّا وقام رجل يسمى ابن شعبان رومي أصلاً وعاونه مطران اسمه عيسى فبثا الضلال في بعض قرى لبنان، وكان البطريرك اسمه لوقا وكان في آخر القرن الثاني عشر أو بدء الثالث عشر، فانحاز إليهما واستشهد لكويان لذلك نيرون الباني (في مقالته في اسم الموارنة صفحة ٩٨) الذي قال إنّ المطران عيسى وابن شعبان علّما الناس أن يصنعوا إشارة الصليب باصبع واحدة، ونبذا المجمع الرابع. وأوجس الشيطان إلى راهبين أحدهما من يانوح والآخر من دير نبوح فزعما أنّ المسيح لم تكن له نفس ولا تألّم ولا كان يستطيع أن يشعر بالآلام، وان البابا أرسل قاصداً لم يقبله لوقا فحرم البابا أصحاب هذا الضلال ونشأ بين الموارنة شقاق بسبب ذينك الراهبين. إلى أن يقول لكويان أنّ هذا الشقاق استمرّ إلى أن قام البطريرك أرميا خليفة لوقا المذكور. انتهى.

إنّ العلّامة لكويان اعتمد في إيراد هذا الخبر وذكر البطريرك لوقا على قول نيرون الباني، ونيرون اعتمد على قول جبرائيل ابن القلاعي في بعض زجلياته على أنّ البطريرك أسطفانس أفرد الفصل التاسع من كتابه في رد التهم عن الموارنة لتفنيد قول ابن القلاعي المذكور مبيناً أنّ البطريرك لوقا من بنهوان لم يكن في القرن الثاني عشر أو أوّل الثالث عشر بل في آخر القرن الثالث عشر أو أوّل الرابع عشر، وانّه لم يعب بضلال، وانّ الحكّام الذين ذكر ابن القلاعي أنّ هذه الأحداث كانت في أيامهم لم يكونوا في ذلك العصر بل بعده بسنين كثيرة، وان جلّ مقصد ابن القلاعي كان يبين للمقدم عبد المنعم حاكم بشري الذي زاغ عن الإيمان القويم وشايع اليعاقبة أنّ كل من شذّوا عنه انتقم الله منهم، فلم يرع نظام تاريخ السنين إلى غير ذلك من الأدلّة القاطعة. فضلاً عن أنّ ابن شعبان الذي ذكره لكويان هنا كان ذكره قبلاً، وعن اننا سنبين أنّ أرميا العمشيتي كان بطريركاً في المدّة التي عيّنها لكويان للبطريرك لوقا.

قد أفضل علينا العلّامة المطران أسطفانس عواد السمعاني بنشره مثالاً لخط بيد البطريرك أرميا عثر عليه في كتاب الأناجيل القديم الموجود الآن في المكتبة الماديشية

بفرنسا، وكان قبلاً في بطريركية الموارنة، وطبع هذا المثال في كتابه فهرست الكتب المشرقية في المكتبة المذكورة، ومنه يتبين زمان ارتقاء أرميا إلى الأسقفية وسنة انتخابه بطريركاً والخط بالسريانية والأحرف المسماة استرنكلية وهذه ترجمته بحروفه:

«في سنة ١٥٩٠ يونانية في اليوم التاسع من شباط أتيت أنا الحقير أرميا من قرية دملصا المباركة إلى دير سيدتنا القديسة مريم بميفوق في وادي ايليج من عمل البترون إلى سيّدنا بطرس بطريرك الموارنة، ورسمني بيديه المقدّستين وجعلني مطراناً على دير كفتون المقدَّس الذي على ضفة النهر، وبقيت هناك أربع سنين. وكان سكان الدير المذكور الراهب حزقيال ورفيقه الراهب أشعيا والراهب دانيال والراهب يشوع ورفيقه إيليا والراهب داود واثنين وثلاثين راهباً آخرين. وبعد انقضاء السنين الأربع طلبني أمير جبيل والأساقفة ورؤساء الكنائس والكهنة وألقوا قرعة فأصابتني وصيّروني بطريركاً في دير حالات المقدّس، ثمّ أرسلوني إلى رومة المدينة العظمى وتركت أخانا المطران توادورس يدبر الرعية ويهتم بشؤونها».

إنّ في هذا الخطّ زلة قلم اما من الذي أخذ المثال أو من أرميا الذي كتب الخط فسنة ١٥٩٠ يونانية توافق سنة ١٢٧٩ مسيحية، وأرميا كان قبل هذه السنة بنحو قرن ويكفينا مؤونة بيان هذا الغلط براءة البابا اينوشنسيوس الثالث المنفذة إليه باسمه في سنة ١٢١٥م وقد أجمعوا على أنّه شهد المجمع اللاتراني الرابع، ولا يختلف اثنان في أنّ هذا المجمع عقد سنة ١٢١٥م وليس بين أسماء بطاركتنا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر اسم أرميا هذا، ولذلك روى المطران أسطفان عواد في ترجمته هذه العبارة إلى اللاتينية سنة ١٤٩٠م لا سنة ١٥٩٠م، وذكر موافقتها لسنة ١١٧٩م لا لسنة ١٢٧٩م. وعليه فلما كان أرميا رقي إلى درجة الأسقفية سنة ١١٧٩م كما في صحيح الخط، وقال إنّه انتخب بطريركاً بعد أربع سنين كان انتخابه بطريركاً سنة ١١٨٣م أي بعد حصول الوفاق بين الحزبين المختلفين من الموارنة بسنة واحدة أو ببعض أشهر فقط، لأنّ لا يحتمل أن يكون الوفاق حصل في آخر سنة ١١٨٢م وانتخاب البطريرك كان في أوّل سنة ١١٨٣م. ولما كان رأينا هذا مستنداً إلى ما خطّته يد أرميا قد اعتمدناه مفضلاً على غيره لهذا الاستناد.

قال لكويان في المشرق المسيحي قال البطريرك أسطفانس الدويهي في الجدول الذي وضعه لبطاركة الموارنة أنّ أرميا ارتقى إلى البطريركية سنة ١٢٠٩م وكان من

عمشيت من عمل جبيل، وكان رجلاً فاضلاً باراً ذا غيرة على الدين القويم، أقام بيانوح ودخل رومة العظمى بنفسه، وحضر المجمع الذي انعقد بلاتران في أيام البابا أينوشنسيوس الثالث. وقال نيرون الباني في مقالته المذكورة صفحة ١٠١ انه عندما صيّر بطريركاً مضى إلى رومة أغراه بذلك أمير جبيل، وترك المطران توادورس من كفرفو (بجبة بشري) نائباً له في البطريركية ليلتمس علاجاً للشؤون التي كانت في أيام سالفه. وهذا يظهر أيضاً من براءة البابا أينوشنسيوس الثالث حيث يقول إنّه شهد المجمع اللّاتراني. ولما بلغ إلى رومة خرّ على قدمي البابا وكلّمه متذللاً وسأله بركته له ولشعبه، فعزاه البابا وأجابه إلى كل ما سأله، وبقي هناك مسروراً خمس سنين وستة أشهر. وروى ابن القلاعي والبطريرك أسطفان الدويهي أنّ البطريرك أرميا كان يوماً يقدس بحضرة البابا، ولما انتهى إلى رفع القربان رفعه وبقي معلقاً فوق رأسه. فعظم البابا قداسته وأمر بنقش صورة هذه الآية على جدار الكنيسة. قال الدويهي بقيت هذه الصورة إلى أيامنا في كنيسة القديس بطرس القديمة، وبعد أن فرغ أرميا من مهامه برومة سأل البابا أن يرخّص له بالعود إلى بلاده فخرج من رومة مبتهجاً طيّب القلب، لأنّ البابا نوّله سلطان طلبه وأرسل معه الكردينال غوليلمس مفوضاً إليه أن يأخذ من شعب لبنان دستور اعترافهم بالإيمان، وكان خروج أرميا من رومة في ٣ كانون الثاني سنة ١٢١٥م. (قال لكويان في حسابنا سنة ١٢١٦م لأنّ المجمع اللاتراني عقد سنة ١٢١٥م وهو سافر في ٣ كانون الآخر) وبلغ إلى طرابلس في شهر آذار، ولما علم المطران توادورس نائبه بخبر قدومه جمع جمعاً غفيراً من الموارنة ولم يبدوا شعائر سرورهم إلّا بعدما بلّغهم البطريرك بركة الحبر الروماني وأنشأوا صكاً أثبتوا به بإيمانهم وأختامهم أنّهم متشبثون بإيمان بطرس لا يزوغون عنه وسلّموا ذلك الصك إلى الكردينال غوليلمس وكان عدد من وقّعوا عليه مائتين وسبعين رجلاً. وفي جدول بطاركة الموارنة الذي وضعه البطريرك الدويهي أنّ أرميا توفي سنة ١٢٣٠م في دير السيدة بميفوق. انتهت رواية لكويان.

وعندي في وفاة البطريرك أرميا سنة ١٢٣٠م نظر من قبيل أنّه كان صير بطريركاً سنة ١١٨٣م وهذا ثابت بخط أرميا نفسه، فيكون استمرّ بطريركاً سبعاً وأربعين سنة وهذا يصعب القطع به ولهذا أرى صيرورته بطريركاً سنة ١١٨٣م أثبت من أنّ وفاته كانت سنة ١٢٣٠م. لأنّ الأوّل مسنود إلى خط يده وأمّا الثاني فلا سند له كهذا ويضاده طول مدّة بطريركيته والله أعلم. وقد اتحف البابا

اينوشنسيوس البطريرك أرميا بتاج وعكاز وغيرهما من الملابس البيعية، وأخذ قدماؤها منذ ذلك الحين يقتربون من عادات اللاتينية في الملابس الكهنوتية وغيرها كما حقق السمعاني في المجلّد الرابع من مكتبة الناموس.

عد ٨٥٩

ما نعرفه من أديار الموارنة وكنائسهم إلى آخر القرن الثاني عشر

لا نقصد أن نتكلّم عن أديار الموارنة وكنائسهم القديمة مستندين إلى قدمها بهيئة بنائها، فهذا يستلزم معاينتها ولا حظ لنا في ذلك. ويقتضي علم الآثار القديمة ولا خبرة لنا فيه فكلامنا مقصور على ما ورد له منها ذكر في التواريخ.

فأوّل أديار الموارنة الدير الذي بناه أهل حماة على ضريح القديس مارون بين حماه وحمص على العاصي وسمي دير البلور لحسن بنائه وكثرة الرهبان فيه حتى كان به ثمانماية راهب، وكان أوّل الأديرة في سورية الثانية كما يظهر من توقيع رئيسه على العريضة التي رفعت إلى البابا هرمزدا وعلى غيرها من العرائض المعلّقة في ذيل أعمال المجمع الخامس، وقد دكّ هذا الدير الملك أنسطاس وقتل من رهبانه ثلاثماية وخمسين راهباً لسبب مدافعتهم عن رسوم المجمع الخلكيدوني المقدَّس، ثمّ جدّد بناءه الملك يوستنيانس الأوّل كما شهد بروكوب القيصري (في ك ٥ في ابنية يوستنيانس فصل ٩)، وعاد مزهراً برهبانه إلى أن نقضته عساكر يوستنيانس الثاني الأخرم سنة ٦٩٤م، وقتلوا من رهبانه خمس مابة راهب (طالع ما ذكرناه في تاريخ الموارنة في القرون الخامس والسادس والسابع).

والدير الثاني القديم للموارنة هو الدير الذي أنشأه القديس يوحنا مارون بطريركنا الأوّل على اسم القديس مارون في شرقي كفرحي من عمل البترون، ونقل إليه هامة القديس مارون، وكرّس كنيسته في الخامس من كانون الثاني، وأمر أن يعيد للقديس مارون في ذلك اليوم، واستمرّ الموارنة يعيدون له فيه قروناً. وقد عاد البطريرك دانيال الشاماتي إلى السكنى بهذا الدير في القرن الثالث عشر.

والثالث دير السيدة العذراء في يانوح أنشأه جبرائيل الثالث من بطاركة طائفتنا أو خليفته يوحنا الثاني المعروف بمارون وأقام هناك بطاركتنا إلى سنة ١١٢٠م، ثمّ

سكنوا في دير ميفوق، ودير لحفد، ودير هابيل الآتي ذكرها ثمّ عادوا إلى دير يانوح حيث أقام أرميا العمشيتي والبابا أينوشنسيوس الثالث يسمي كنيسة السيدة في يانوح كنيسة البطريركية في براءته إلى البطريرك أرميا المذكور ثمّ تركوا هذا الدير عدّة وعادوا إليه فسكنه البطريرك شمعون الموجهة إليه رسالة البابا اسكندر الرابع مؤرخة في أوّل شباط سنة ١٢٥٦م وفيها ذكر الكنيسة البطريركية في يانوح.

والرابع دير السيدة بميفوق وقد جاء في مجمعنا اللبناني (صفحة ٤٣١ من الطبعة الحديثة) انّه استقرّ في هذا الدير البطريرك بطرس خليفة، البطريرك يوسف الجرجسي، وغريغوريوس الحالاتي، ويعقوب الراماتي. وقد ذكرنا في العدد السابق خطّين مؤذنين بإقامة البطريرك بطرس المذكور في هذا الدير سنة ١١٢١م وفي الدير المذكور إلى الآن آثار دالة على ذلك منها خط منبئ بتجديد الدير المذكور ومشير إلى بنائه القديم وهو ܒܫܡ ܐܠܗܐ ܚܝܐ ܩܝܡܐ ܒܫܢܬ ܐܠܦ ܘܫܒܥܡܐܐ. ܘܐܪܒܥܝܢ ܘܫܬ ܐܬܚܕܬ ܗܝܟܠܐ ܗܢܐ ܒܝܕ ܬܪܝܢ ܐܚܐ ܟܗܢܐ ܐܡܘܢ ܘܡܢܝܥ ܘܗܘܐ ܒܢܝܢ ܒܝܕ ܐܪܒܥܐ ܦܛܪܝܪܟܐ ܦܛܪܘܣ ܘܐܪܡܝܐ ܘܝܥܩܘܒ ܘܝܘܚܢܢ ܒܫܢܬ ܐܠܦ - أي بسم الله الحي الدائم في سنة ١٧٤٦م جدد بناء هذا الهيكل أخوان كاهنان أمون ومينع وكان قد أنشأه أربعة بطاركة بطرس وأرميا ويعقوب ويوحنا سنة ١١٢١م. وهناك خط آخر ذكر البطريرك أسطفانس الدويهي في تاريخه (صفحة ١١٣) ولم يزل موجوداً وهو ܒܫܡ ܐܠܗܐ ܚܝܐ ܠܥܠܡ ܒܫܢܬ ܐܠܦ ܘܚܡܫܡܐܐ ܘܬܡܢܝܢ ܘܬܡܢܐ ܕܝܘܢܝܐ ܫܠܡ ܠܡܫܘܪܐ ܗܢܐ ܗܝܟܠܐ ܕܝܠܕܬ ܐܠܗܐ ܨܠܘܬܗ ܥܡܢ ܥܠ ܐܝܕܝ ܐܢܫܐ ܚܛܝܐ ܕܘܝܕ ܩܫܝܫܐ ܘܡܪܩܘܣ ܘܝܘܚܢܢ. أي بسم الله الحيّ الأبدي في سنة ١٥٨٨ من سني اليونان (وهي سنة ١٢٧٧م) كمل بناء هذا الهيكل على اسم والدة الله صلاتها معنا على يد أناس خطأة: داود القس ومرقس ويوحنا». وفي وسط هذا الخط صليب كتب حوله بك نقهر أعداءنا وباسمك نذلّ مبغضينا. والذي رواه الدويهي من هذا الخط نرى فيه كلمة ܠܝܥܩܘܒ بدلاً من كلمته ܠܡܫܘܪܐ أي كمل هذا الهيكل المنسوب إلى يعقوب أحد البطاركة وهو الثالث من البطاركة الأربعة المذكورين بالخط الأوّل، وقد ترك بطاركتنا السكنى بهذا الدير ثمّ عادوا إليه فاستقرّ

به البطاركة يعقوب ودانيال الحدشيتي ولوقا البنهراني وشمعون ويوحنا وجبرائيل من حجولا الذي توفي شهيداً سنة ١٢٦٧م.

والخامس دير القديس الياس في لحفد من عمل جبيل استقرّ فيه البطريرك يوحنا اللحفدي خليفة البطريرك يعقوب الراماتي وقد مرّ في كلامنا على البطريرك يوحنا المذكور أنّه كان في لحفد أربعة أديار أخرى: دير القديس حوشب، ودير القديس سمعان، ودير القديس اليشاع، ودير السيدة العذراء. أقام بها أربعة أساقفة على ما في الرواية المذكورة.

والسادس دير السيدة العذراء في هابيل أنشأه البطريرك يوحنا اللحفدي بعد أن انتقل من لحفد إلى هابيل في أواسط القرن الثاني عشر.

والسابع دير القديس أنطونيوس المعروف بدير قزحيا ويظهر أنّ هذا الدير قديم جداً لأنّه جاء في براءة البابا أينوشنسيوس الثالث إلى البطريرك أرميا في سنة ١٢١٥م ذكر دير قزحيا بمنزلة أوّل كرسي لأساقفة الموارنة، لأنّه عند تعداده كراسي الأساقفة الخاضعين لبطريركيته ذكر دير قزحيا أولاً. وكان بعض علمائنا لترجمتهم كلام هذا البابا عن اللغات الأجنبية تصحف عليهم قزحيا بمار اسيا وتبعناهم على ذلك عند ذكر كلام هذا البابا في بعض كتبنا إلّا أنّ العلّامة السمعاني يسميه في كتاب المجمع اللبناني باللاتينية HASSAYA فانتبهنا إلى أنّ المراد قزحيا.

وقد علق البطريرك بطرس وهو يوحنا اللحفدي على كتاب الأناجيل القديم الخط الذي ذكرناه في كلامنا في العدد السالف على هذا البطريرك منبئاً بأنّه حضر إليه سنة ١١٥٤م الراهب أشعيا من دير قزحيا ورأسه على دير الكوزبند في قبرص.

الثامن دير القديس يوحنا في كوزبند بقبرص فهذا الدير قد جاء ذكره في عدة خطوط منها خط الراهب سمعان المعلّق على الكتاب السابع من الكتب التي نقلها السمعاني من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية مبيّناً فيه أنّ البطريرك بطرس الذي كان سنة ١١٢١م جعله رئيساً وناظراً على دير القديس يوحنا في كوزبند، وقد ذكرنا هذا الخط بحروفه عند كلامنا على البطريرك المذكور. ومنها الخط الذي علّقه البطريرك يعقوب الراماتي على أحد كتب السروجي وفحواه أنّه قد رأس دانيال راهب دير كفتون على دير القديس يوحنا بكوزبند سنة ١١٤١م وقد ذكرنا هذا الخطّ أيضاً بحروفه في كلامنا على البطريرك المذكور. ومنها الخط

الذي ذكرناه آنفاً المؤذن بتسمية البطريرك يوحنا اللحفدي أشعيا راهب دير قزحيا رئيساً على دير كوزبند.

ومنها خط في القرن الثالث عشر علّقه البطريرك يوحنا الجاجي على كتاب الأناجيل المذكور بالسريانية وهذه ترجمته: «لما كانت سنة ١٥٥٠ يونانية (توافق سنة ١٢٣٩م) أنا بطرس بطريرك الموارنة الجالس على الكرسي الأنطاكي والمسمّى يوحنا من قرية جاج والساكن بالدير المبارك دير السيدة مريم بميفوق أتى إليّ من دير الكوزبند القس المسمّى متى وهو كاهن تقي بتول وأخذ مني ثلاث مئة دينار وحقاً للميرون للدير المذكور وأخذ معه كتاب التوراة لموسى بالعربية وكتاب الناموس وكتاب الإيمان ولله المجد آمين».

التاسع دير كفتون وقد جاء ذكره في ما خطته يد البطريرك أرميا العمشيتي على كتاب الأناجيل المذكور مراراً، قال إنّ البطريرك بطرس رقاه إلى الأسقفية على هذا الدير وأنّ رهبانه حينئذٍ كانوا اثنين وثلاثين راهباً وفي الخط الذي علّقه البطريرك يعقوب الراماتي المؤذن بأنّه رأس دانيال راهب دير كفتون على دير كوزبند وهذا الدير للموارنة انتقل في ما بعد إلى يد الروم الملكيين غير الكاثوليكيين كما سوف ترى.

وجاء في الكتاب المذكور أيضاً صفحة ٩٨ بسم الله الحي قد وقفت اشمونة ابنة الياس على دير القديس سركيس الكرم الذي لها عند العين ليخولها الله خلاص نفسها وصحة جسدها وكان هذا الوقف سنة ١٤٠٩ يونانية (توافق سنة ١١٩٨م) يوم عيد القديس سركيس ونشهد بذلك نحن الكهنة تادي وجيورجيوس وبولس.

الحادي عشر كنيسة القديسين نهرا وباسيليوس في سمار جبيل قال المطران أسطفان عواد السمعاني في كتابه المذكور أنّ كنيسة القديسين باسيليوس ونهرا التي تسميها العامة ماري نوهرا والتي يكرّمها من أقدم الأيّام الموارنة بل الهراطقة والمشاقون وغير المؤمنين أيضاً وهي في أبرشية جبيل (تحسب الآن من عمل البترون) حذاء القلعة الحصينة التي بناها حكام طرابلس من اللاتينيين في القرن الثاني عشر للذب عن هذه الناحية من غارات المسلمين، واطلالها الباقية إلى الآن دالة على عظمتها وقد اعتاد المؤمنون بل غير المؤمنين أيضاً أن يقدّموا البخور والشموع وغيرها من التقادم لكنيسة القديسين باسيليوس ونهرا بجانب هذه القلعة توسلاً بشفاعة هذين القديسين. وذكر

من الخطوط المعلّقة على كتاب الأناجيل الثاني المذكور خطاً علق على الصفحة الأولى منه بالسريانية هذه ترجمته «بسم علة كل مخلوق في سنة ١٥٨٠ يونانية (توافق سنة ١٢٦٩م) أقتسم بنو الخوري اقليمس خدمة كنيسة القديسين باسيليوس ونهرا بينهم مشاهرة، فأصاب برصوما كانون وكانون وحزيران وتموز وأصحاب أخويه سليمان وفيلبس الثمانية الأشهر الباقية». وخطاً آخر علّق على صفحة ٤ بالسريانية وهذه ترجمته: «بسم الله الحي في سنة ١٥٨٠ يونانية (توافق سنة ١٢٦٩م) قد وقف الشماس يوسف لكنيسة القديسين باسيليوس ونهرا جميع متروكات امرأته المتوفاة». وخطاً علق على صفحة ٩ بالعربية الا البسملة وهذا هو ܒܫܡ ܐܠܗܐ ܚܝܐ (بسم الله الحي) في سنة ألف وسبعماية كذا كتبت ولكن ترجمها المطران أسطفان المذكور سنة ١٥٦٥ لأنّه وفّقها إلى سنة ١٢٤٥م) وخمسة وستين يونانية سليمان ابن توما من حردو (لعلّها حردين) أوهب لكنيسة مار باسيليوس ومار نهرا حقلتي زيتون بقرب قرية بشري عن نفسه ونفس أخيه من يستخلصها يكون حظه مع يوضاس الاسخريوطي». فهذه الخطوط مؤرخة في القرن الثالث عشر لكنّها مشعرة بأنّ هذه الكنيسة أقدم من ذلك العصر. الثاني عشر كنيسة القديس ادنه في العاقورة فقد ورد مرات ذكر المطران أرسانيوس أسقف العاقورة الجالس في دير القديس ادنه في العاقورة، واطلال هذه الكنيسة ما زالت في العاقورة وتعرف بهذا الاسم الآن. وجاء في تاريخ سنة ١٢١١م من تاريخ البطريرك أسطفانس الدويهي: «في هذا الزمان أخذ أبناء ملّتنا بلبنان يقرعون نواقيس من نحاس بدل الخشب للصلاة والقداس، وفاضت نعم الله بين أيديهم فأنشأوا كنائس وأدياراً ومدارس يقصدها الناس لخدمة الله وخلاص نفوسهم. وكان للخوري باسيل من بشري ثلاث بنات أسماهن تقلا وصالومي ومريم نذرنَ لله عذريتهن وأنفقن جميع ما يملكنَ في بناء الكنائس وتجهيزها، فبنت تقلا في هذه السنة كنيسة القديس جيورجيوس والقديس دومط في بقرقاشا، وكنيستين للقديس لابي الرسول والقديس سرجيوس الشهيد في بشنين بالزاوية. وفي سنة ١١١٣م رقدت بالرب. وبَنَتْ أختها مريم كنيسة القديس سابا في بشري وأختها صالومي كنيسة القديس دانيال في الحدث».

وأما دير قنوبين فهو أقدم من هذه الكنائس، إذ يقال أنّ الملك توادوسيوس أمر ببنائه. وفي رواية أنّ توادوسيوس الذي بناه ليس هو الملك بل سائح يسمى توادوسيوس نسك في المغارة التي هناك وبنى شيئاً حولها، وسوف نتكلّم عليه في

ما بعد عندما نذكر نقل الكرسي البطريركي إليه في أواسط القرن الخامس عشر ا
قدّرنا الله على إيصال تاريخنا إلى ذلك القرن.

عد ٨٦٠
تفنيد زعم غوليلمس الصوري أنّ الموارنة ارعووا عن الضلال
سنة ١١٨٢م

روى غوليلمس أسقف صور اللاتيني في كتابه ٢٢ في الحرب فصل ٨ ،
ترجمته: «لما استراحت المملكة (مملكة أورشليم) من حرب صلاح الدين سرّ
سروراً موقوتاً في أنّ ملّة من السريان تسكن في عمل من فينيقيا في سفح لبنا
قريب من جبيل طرأ عليها تغير مهم لأنّهم بعد أن كانوا اتبعوا مدة خمسماية س
ضلال مارون المبتدع وتسموا موارنة نسبة إليه، وكانوا يتممون أسرارهم منفصلي
عن جماعة المؤمنين استفاقوا بالهام الله وهبوا من تقاعدهم وهلعوا إلى ايميريكم
بطريرك أنطاكية اللاتيني وهو الثالث من البطاركة اللاتين الذين تراسلوا هذه الكنيس
وارعووا عن الضلال الذي كانوا متسكّعين به ورجعوا إلى وحدة الكنيس
الكاثوليكية واعتنقوا الإيمان القويم، وحافظوا على تقليدات الكنيسة الرومانية بك
احترام واجلال، ولم يكن عدد هذا الشعب يسيراً بل كان يقال أنّهم يجاوزو
الأربعين ألفاً منتشرين في أسقفيات جبيل والبترون وطرابلس وسفح لبنان، وها
الجبل كما مرّ. وكانوا رجالاً أشدّاء مدرّبين بالحروب وكانوا نافعين لنا جداً ف
مهامنا الخطيرة، وفي اغاراتهم المتواترة على الأعداء. ولهذا سرّ قومنا كلّ السرو
برجوعهم إلى الإيمان القويم وأمّا ضلال مارون واتباعه فهو أنّه كان في ربنا يسو
المسيح مشيئة واحدة وفعل واحد كما يظهر من المجمع السادس أنّه عقد لنب
ضلالهم والذي حكم عليهم بالحرم، وزادوا على هذا المعتقد المرذول من الكنيس
الأرثوذكسية أشياء أخرى مضرة بعد أن انفصلوا من جماعة المؤمنين، ولما ندم
على هذه الأشياء جميعها كما قدمنا ارعووا إلى الكنيسة الكاثوليكية مع بطريركه
وبعض أساقفتهم الذين كما تقدّموهم بالضلال تقدّموهم بالعود التقوي إلى الاقر
بالحقيقة. انتهى مترجماً بكل دقّة عما رواه بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٢
بحروفه اللاتينية من كلام غوليلمس الصوري.

إنّ كلام غوليلمس هذا يتضمّن أمرين: الأوّل اخباره عن تسكّع الموارنة خمس مئة سنة في الضلال تبعاً لمارون المبتدع وانعقاد المجمع السادس لنبذ ضلالهم وحرمه لهم. والثاني خبره عن ارجاعهم على يد ايميريكس بطريرك أنطاكية. فالأوّل كاذب بجملته والثاني صادق في بعض الموارنة لا كلّهم وهاك البيان للأوّل ان غوليلمس يقول أنّ المجمع السادس عقد ضد الموارنة (كما هي حرفية العبارة) وانه حرمهم. فنراهن كل من شاء على أن يبين لنا كلمة أو إشارة في النص اليوناني لهذا المجمع أو في ترجمته اللاتينية القديمة تشعر بأنّ هذا المجمع عقد ضد الموارنة أو بأنّه حرمهم. فان ابانها سلمنا طائعين بكُلّما يتهمنا به خصومنا من هذا القبيل وان استحال عليه أن يجد مثل هذه الكلمة أو الإشارة فلينكف عن ثلبنا، ويوقن غوليلمس اغتر باعتماده على تاريخ سعيد بن البطريق الذي جعل البابا أنوريوس والملك هرقل وسرجيوس وبيروس وبولس وبطرس بطاركة قسطنطينية وقورش بطريرك اسكندرية جميعاً موارنة وهو أمر مضحك يسخر منه كل عالم، وانكره على ابن البطريق كل محقق حتى بوكوك أوّل من ترجم تاريخه وسلدانس الذي طبعه.

إنّ زعم غوليلمس أنّ الموارنة اتّبعوا ضلال مارون المبتدع وتسكّعوا به خمس مئة سنة لا اس له إلّا خرافة سعيد بن البطريق، وقد ذكرناها مراراً ولا بدّ الآن من مراجعة خلاصتها: «كان في عصر موريق ملك الروم راهب اسمه مارون كان يقول إنّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً ولما مات بنى له سكان حماه ديراً واتبعوا اعتقاده سموا موارنة». وقد أقرّ غوليلمس نفسه أنّه اعتمد على شهادة سعيد بن البطريق إذ صرّح في مقدّمة كتاب تاريخه أنّ أموري ملك أورشليم دفع إليه بعض كتب عربية في جملتها تاريخ سعيد المذكور واقترح عليه كتب تاريخ فاعتمد خاصة على تاريخ الرجل المحترم سعيد بن البطريق البطريرك الاسكندري. وقد أشار إلى ذلك البابا بناديكتس الرابع عشر في منشوره الآتي ذكره بقوله: «إنّ شهادة غوليلمس ليست بكافية لتأييد الرأي المضاد للموارنة. ولربّما عرف غوليلمس نفسه ضعف قوله ولذلك عزاه إلى المجلّد الثاني من تاريخ سعيد الاسكندري». وأمّا كون حكاية سعيد هذه هي التي اعتمد عليها غوليلمس من الترهات البسابس فقد أجاد ببيانه العلامة البابا بناديكتس الرابع عشر في منشوره إثبات قداسة القديس مارون الذي أثبتنا ترجمته في عدد ٧١١، أورد هذا البابا الجهبذ أدلة على ذلك يستحيل نقضها منها أنّ القديس مارون كان في آخر القرن الرابع وأوّل القرن الخامس، وبدعة المشيئة

الواحدة لم تظهر إلّا في القرن السابع فبينه وبين ظهورها قرنان فمن المحال أن يكون مارون ابتدعها ومنها أنّ دير القديس مارون الذي روى ابن البطريق أنّ سكان حماه بنوه على اسمه كان قبل ظهور هذه البدعة بقرنين أيضاً إذ كان ديراً مشهوراً برهبانه الأفاضل من القرنين الخامس والسادس، كما يظهر من رسائلهم إلى البابا هرمزدا وغيره المعلقة في ذيل المجمع الخامس. ولما دك هذا الدير أنسطاس الملك جدّد بناه الملك يوستنيانس الأوّل الذي توفي سنة ٥٦٥م كما حقق بروكوبيوس القيصري في الكتاب الخامس في ابنية يوستنيانس. وهذا المؤرّخ كان من رجال دولة يوستنيانس المذكور وعليه فمن شاء أن يكابر مدعياً صحّة شهادة غوليلمس المؤسسة على شهادة ابن البطريق فليرد ولو هذين الدليلين أوردهما البابا بناديكتس أو يثبت أنّ غوليلمس اعتمد على غير سعيد في زعمه هذا عن الموارنة فنسلم طائعين.

بقي أن يقال أنّ مارون الذي ذكره ابن البطريق وانتحل غوليلمس قوله ليس مارون الرئيس بل يوحنا مارون البطريرك الذي كان في القرن السابع. فنجيب أنّ هذا الزّعم أيضاً باطل بل محال لأنّ يوحنا مارون لم يكن في أيام موريق ولا بنى أهل حماه على اسمه ديراً كما قال ابن البطريق، بل صيّر أسقفاً على البترون سنة ٦٧٥م أو سنة ٦٧٦م وبطريركاً سنة ٦٨٥م وتوفي سنة ٧٠٧م. فاشتهر في عصر الملك قسطنطين اللحياني ويوستنيانس الثاني الأخرم لا في عصر موريق الذي كان في آخر القرن السادس. وقد صرّح البابا بناديكتس الرابع عشر في خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م انّ الموارنة إنّما انتخبوا بطريركاً خاصاً عليهم وهو يوحنا مارون ليقوا نفوسهم من بدعة المشيئة الواحدة، فما الذي يبقى من القوّة لزعم غوليلمس أو غيره من خصومنا أنّ يوحنا مارون ابتدع هذه البدعة فضلاً عن الاجتماع على أنّ يوحنا مارون توفي سنة ٧٠٧م، وانّ ظهور بدعة المشيئة الواحدة كان سنة ٦٢٨م. فلو فرضنا أنّه عاش ثمانين سنة لكان مولده سنة ٦٢٧م فكيف يبتدع بدعة وعمره سنة أو سنتان. وان قيل تبع هذه البدعة بدعاً فلِمَ لا نجد اسمه بين من حرمهم المجمع السادس وغوليلمس يزعم أنّ المجمع السادس عقد ضدّ الموارنة وحرمهم، ولا يستطيع هو أو غيره أياً كان أن يحجنا بكلمة أو إشارة من النص اليوناني لهذا المجمع أو من ترجمته اللاتينية يتبيّن بها اسم مارون أو الموارنة مع أنّ هذا المجمع عدّد أسماء كل منشئي هذه البدعة ومن شايعهم عليها فلِمَ صمت عن مارون أو يوحنا مارون أو الموارنة؟

إنّ كلّ ما أوردناه في المجلّد الخامس لاثبات براءة المارونيين والموارنة من هذه البدعة من شهادات الأحبار الأعظمين وكرادلة الكنيسة الرومانية وقصادها والعلماء المحققين والأدلّة القاطعة على ثبوت الموارنة في الإيمان الكاثوليكي منذ ظهور هذه البدعة إلى سنة ١١٨٢م كل ذلك يصلح أن يكون برهاناً قاطعاً على بطلان زعم غوليلمس أنّ الموارنة تشبثوا ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة وارعووا عنها سنة ١١٨٢م.

وقد فنّد هذه التهمة كثيرون من العلماء المغربيين والمشرقيين وزيفها من علمائنا كثيرون نخصّ بالذكر منهم البطريرك أسطفانس الدويهي في تاريخه، وفي كتابه ردّ التهم، والعلّامة السمعاني في مواضع كثيرة من المكتبة المشرقية ومن مكتبة الناموس وغيرهما من كتبه، والمطران أسطفانس عواد السمعاني في محاماته عن القديس يوحنا مارون وفي كتابه فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية، والبطريرك يوسف أسطفان في محاماته عن قداسة القديس يوحنا مارون والخوري أنطون القيالة في ردهِ رسالة القس يوحنا عجيمه والبطريرك بولس مسعد في كتابه «الدر المنظوم» وأنا أحقر هؤلاء العلماء الذي لا أستحق أن أذكر في عديدهم في كتابي «روح الردود» وفي كتيب رفعته في السنة السالفة إلى علماء مجتمع الآثار القديمة الذي التأم برومة سنة ١٩٠٠م وسأذكر شهادة بعض مشاهير المؤرخين اللاتينيين.

وأمّا القسم الثاني من شهادة غوليلمس الصوري وهو ما رواه عن ارتداد الموارنة على يد ايميريكوس بطريرك أنطاكية اللاتيني فلا نجحد صدقه على فريق من الموارنة فقد رأيت ما ذكرناه في الكلام على بطاركة طائفتنا في هذا القرن عدد ٨٥٨ عن انخداع فريق من الموارنة لمقالة توما أسقف كفرطاب وبثّ بعد وفاته ابن شعبان وابن حسّان ضلاله بين الموارنة حتى أطغوا سكان بعض القرى منهم أهل كفرياشيت وجنح البطريرك نفسه إلى ضلالهم فنهض لمقاومته باقي رؤساء الملة وأعيانها والسواد الأعظم من شعبها، وحملتهم الحمية والغيرة الدينية على حطه عن مقامه وإقامة بطريرك آخر صحيح المعتقد فلم يكن من الأغرار المغوين بالضلال إلّا انّهم جسروا على قتل البطريرك الحديث، فعظم الأمر على الأكثرين المتشبثين بالإيمان القويم وعزموا أن يهلكوا أولئك الشاذين عن آخرهم، فتدارك أمرهم ايميريكس بطريرك أنطاكية اللاتيني وأرشد أولئك الضالين فارتدّوا إلى محجة الدين القويم، وصالحهم مع اخوانهم وأدخلهم في طاعة رؤسائهم، فانتخبوا متّفقين بطريركاً

عوضاً عن البطريرك المقتول. وكل منصف يرى أنّ التّهمة بالضلال والارتداد عنه لا تصدق في هذا الحادث إلّا على ذلك الفريق القليل ولا تمسّ شأن الطائفة بجملتها، ولا يصدق عليها أتباع الضلال والرجوع عنه. فجنوح بطريرك إلى ضلال وقتل بعض الأغرار المتحمّسين للضلال بطريركاً من الكبائر الفظيعة، لكنّها من الأعمال الفردية المقصورة على فاعليها ولا تتعدى إلى الملة كلها ونهوض باقي رؤسائها وأعيانها وشعبها على البطريرك المغتر وحطّه عن مقامه بينة دامغة على براءة ساحة الملة بجملتها من شائبة الضلال، بل دليل قاطع على تشبثهم المتين بعروة الإيمان القويم. ونجتزيء بأن نورد إثباتاً لكل ما جئنا به في هذا الفصل شهادات باجيوس ولكويان وهما من كبار المؤرخين المدققين فالعلامة باجيوس انتقد تاريخ الكردينال بارونيوس امام المؤرخين ونقحه سنة فسنة. ولما كان بارونيوس ذكر رواية غوليلمس عن ارتداد الموارنة في تاريخ سنة ١١٨٢م الحق باجيوس بكلامه انتقاداً وتنقيحاً هذا ملخّصه: «عدد ١٠ غلط غوليلمس الصوري في كل ما رواغه عن ارتداد الموارنة ابنا في عد ٤ كم انخدع غوليلمس الصوري وما أشد بغضه للفرسان الأورشليميين إذ كتب أنّهم كانوا قبلاً ينتمون إلى حماية القديس يوحنا الرحوم ولما ازداد مالهم استبدلوه بالقديس يوحنا المعمدان. ونبين هنا كم أخطأ بنسبته بدعة المشيئة الواحدة إلى ملة الموارنة بجملتها. وقد ذكر بارونيوس كلامه بجملته فاكتفي أنا بإيراد ملخّصه». ولخّصه إلى أن قال: «عد ١١ إنّ غوليلمس الصوري اعتمد على حكايات كاذبة لا شكّ في أنّ الصوري انتحل في كتابة تاريخه أشياء كثيرة من تواريخ سعيد البطريرك الاسكندري، وهذا لم يكن مدققاً في تواريخه بل أدخل بها حكايات كثيرة وروى أموراً تخالف رأي المؤلفين، وهي عن الصدق بمراحل. وقد صرّح غوليلمس نفسه في مقدّمة كتابه بان أموري ملك أورشليم دفع إليّ كتباً عربية فكتبت تاريخاً آخر يبتدئ من ظهور الاسلام إلى هذه السنة التي هي سنة ١١٨٤ للميلاد فينطوي على تاريخ خمس مئة وسبعين سنة وقد تبعت خاصةً الرجل المحترم سعيد بن البطريق البطريرك الاسكندري»... فتاريخ الصوري هذا لم يصل إلينا وما بقي منه في تاريخ الحرب المقدّسة قال هو فيه: «لم يكن لديّ في هذا القسم ما يرشدني إليه من الكتب اليونانية أو العربية فاعتمدت فيه على التقليدات وحدها إلّا شيئاً يسيراً كونت فيه شاهداً عيانياً ونظمت سلسلة أخباره». على أنّ التقليدات التي اتبعها كانت غالباً غير صحيحة، ومما لا ريب أنّه اعتمد

في أكثرها على حكايات سعيد المذكور عن أصله العربي. فقال: «كان في أيام موريق راهب اسمه مارون» إلى آخر كلامه المعروف الذي رواه باجيوس هنا إلى أن قال: «عدد ١٢ أنّ تاريخ سعيد مشحون بالأقاصيص لأنّ بدعة المشيئة الواحدة لم تظهر في أيّام موريق هذا ولا في عصر فوقا خليفته بل في أيام هرقل، وهذا يعلمه جميعهم والدير الذي ذكره سعيد لم يكن بعد وفاة مارون هذا (أي يوحنا مارون) بل كان قبله بنحو مائتي سنة وكان مكرساً على اسم القديس مارون الرئيس. وقد استدلّ نيرون على هذا بشهادة بروكوبيوس القيصري في الكتاب الخامس من ابنية يوستنيانس حيث قال: «جدد واصلح فندق الفقراء على اسم القديس رومانس ودير القديس مارون فوق حماه». ومما لا يُمترى فيه أنّ يوستنيانس توفي سنة ٥٦٥م وموريق تسنّم منصّة الملك سنة ٥٨٣ وتوفي سنة ٦٠٢م فتجديد بناء الدير في أيام يوستنيانس يستلزم أن يكون حينئذٍ قديماً جداً. وتؤيد ذلك أعمال المجمع الخامس المسكوني الذي عقد سنة ٥٥٢م في عصر يوستنيانس المذكور إذ شهد هذا المجمع قصاد دير القديس مارون الذي كان طائر الشهرة، وكان أوّل جميع أديار سورية الثانية ورئيسها، وهذا بيّن أيضاً من توقيع سفراء هذا الدير على أعمال المجمع المذكور. وقد أبنّا أنّ مارون هذا (أي يوحنا مارون) كان راهباً في الدير المذكور نفسه وكان اسمه يوحنا فزاد عليه مارون آخذاً إياه من اسم دير القديس مارون الرئيس. وقد استوفينا رد هذه الحكاية باسهاب في تاريخ سنة ٦٣٥م» (نكتفي برده هنا عن رده في تاريخ السنة المذكور لئلّا يملّ القارئ): «عدد ١٣ إنّ بعض الموارنة زاغوا عن الإيمان». بقي لنا هنا أن نفند ما رواه بارونيوس عن الصوري من أنّ ملّة الموارنة بجملتها ارتدّت إلى الإيمان الكاثوليكي فلا ريب في أنّ المشيئة الواحدة انسربت في جبل لبنان واتّصل السم إلى البطريرك نفسه كما روينا في تاريخ سنة ١١٠٩م، وكان انسرابها في نحو أوائل هذا القرن بواسطة توما الحاراني أسقف كفرطاب كما قلنا في المحل المذكور.

«عدد ١٤ وفي هذه السنة ١١٨٢م أوقع أيميريكس البطريرك الأنطاكي الصلح في كنيسة الموارنة، أنّ الموارنة بعد ذلك وبعد ما ذكرناه في تاريخ سنة ١١٠٩م انتخبوا بطريركاً كاثوليكياً فقتله الشاذون عن الإيمان وتوافرت الانقسامات والقلق بين الموارنة على انتخاب بطريرك كما روى نيرون، فتسارع أيميريكس بطريرك أنطاكية اللاتيني وخمد جذوة حنقهم ورد من أوجدوا الشقاق أو أتبعوه إلى الطاعة

وحلّهم السلطان الحبر الروماني من الحرم الذي حلّ بهم لاقترافهم الجريمة الكبرى بقتل البطريرك واجتمعت كلمة الموارنة على انتخاب بطريرك حديث مشهور باستمساكه بالإيمان القويم». وأيّد باجيوس كلامه بما جاء في مقالة نيرون من انقياد الموارنة بواسطة أيميريكس وطلبه الحل لهم من الكرسي الرسولي وانتخابهم بطريركاً سكن في دير العذراء القديسة في هابيل وحفظ كل ما في الانجيل، وكان ضليعاً في تفسير الأسفارالمقدَّسة وألّف ميامر كثيرة في الإيمان، ولم ينبذ إيمان مارون بل ثبت وتأيّد إلى أن قال: «ومن ذلك ينتج نتجاً واضحاً أنّ الصوري لما علم أنّ الموارنة الذين اتبعوا شقاق توما الكفرطابي جحدوا ضلاله على يد أيميريكس وأقرّوا بالإيمان الروماني هم والبطريرك بعد وقوع الصلح ظنّ أنّ الموارنة جميعاً كانوا متلوثين ببدعة المشيئة الواحدة فنسب إلى كل الملة ما لا يصدق إلّا على فريق يسير منها ولا أهمية له فيها، وقد زاغ مدة فقط إلّا أن نقول أنّ الصوري انخدع بأخبار أحد من الذين ارتبكوا بشقاق توما الكفرطابي، ولكن لا معذرة البتة للصوري بزعمه أنّ المجمع السادس عقد ضدّ الموارنة وانّه حرمهم، إذ لا كلمة واحدة في أعمال هذا المجمع تشير إلى ذلك.

عدد ١٥ قد أخطأ الصوري بنسبته إلى الملة جمعاء الضلال فكيف حقّ له أن يقول إنّ الموارنة تسكّعوا ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة وأسقفهم داود الذي كان سنة ١٣٧٠ لاسكندر وهي سنة ١٠٥٩م ألّف كتاباً جمع فيه قوانين الكنائس الشرقية كما يظهر من رسالة الانبا يوسف إليه في طلب هذا الكتاب. وقد أثبت الأسقف داود في الفصل الأوّل منه أنّ الموارنة يعترفون بمشيئتين في المسيح إذ قال: «إنّ الروم يتفقون مع الموارنة بالاقرار بالمشيئتين والموارنة يعترفون بالمشيئتين تبعاً للطبيعتين الإلهية البشرية». فكيف يزعم الصوري أنّهم كانوا ملوّثين ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة ولم يرعووا عنها إلّا سنة ١١٨٢م. أجل إنّ بعض الموارنة سافر إلى قبرص حين انقسامهم وأطغى كثيرين ولكن لا ينتج من هذا إلّا أنّ كثيرين من الموارنة كانوا ضالين عن الإيمان الصحيح، على أنّ هذا لا يوجب الضلال على الأمّة جمعاء كما أنّ كثيرين من الفرنسيين والجرمانيين تلوّثوا بضلال كلوينوس ولا ينتج من ذلك أنّ الأمّتين ليستا كاثوليكيتين. وقد ندّد بعضهم بالموارنة لأنّه وجد في كتبهم ما يدل على بدعة ولاسيما بدعة الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة لكن هذا أدخله مكر اليعاقبة على كتب الموارنة، لأنّه لما كانت

الملّتان تستعملان اللغة السريانية في صلواتهما فعني اليعاقبة بأن يدخلوا ضلالهم في كتب الموارنة محرفين لها أو زائدين عليها، وهذا ظاهرٌ مما كتبه بطرس بطريرك الموارنة إلى الكردينال أنطونيوس كارافا في ٢٥ آب سنة ١٥٨٣م، ورواه نيرون صفحة ٧٧ في مقالته المذكورة وهو: «قد كتب إليكم بعض الناس أنّ في كتبنا بعض كلماتٍ تخالف رأس الكنيسة المقدَّسة فنحن لا نقبل إلّا ما تقبله الكنيسة المقدّسة وما يوجد في بعض النسخ يمكن أن يكون أدخل على كتب الموارنة من كتب الملل المحدقة بنا من زمان مديد، فدع يا أخي جانباً كل شبهة باستقامة إيماننا فأساسنا ثابت منذ القديم على إيمان الكنيسة المقدَّسة الرسولية الرومانية، ولم نزغ عن هذا الإيمان البتة ولا نكلمكم بفينا فقط بل بفمنا وقلبنا معاً والله الشاهد على ذلك». فصح إذا أنّ غوليلمس الصوري وكثيرين غيره من الحديثين الذين تساهلوا بتصديق أخباره عن ارتداد الموارنة قد انخدعوا انخداعاً كبيراً.

«انتهى كلام باجيوس وقد أوردناه مطولاً لما اشتمل عليه من الفوائد في هذا البحث.

وأمّا لكويان فقد ذكرنا شهادته في عدد ٨٥٨ فانه بعد أن ذكر ما كان بين الموارنة حينئذٍ وعناية أيميريكس بارتداد الزائغين عن الإيمان إلى محجته القويمة واذعانهم لارشادهِ والصلح بينهم قال: «لا ريب عندي في أنّ هذا ما حمل غوليلمس الصوري على ما كتبه من أنّ الموارنة كلّهم رجعوا عن الضلال سنة ١١٨٢م على يد أيميريكس البطريرك الأنطاكي، مع أنّ هذا لا يصدّق على الملة كلها بل على بعض أفرادها فقط». وكان قد قال في مقدّمة كلامه على الموارنة: «كما لم يعب فرنسة اتباع كثيرين من اكليرسها وشعبها مذهب لوتاروس وكلونيوس هكذا لا يعيب الملّة المارونية اتباع بعض أفرادها الضلال مدّةً ما».

إنّي أرى هذه الأدلّة التي أوردتها حتى الآن تجاوز حد الكفاية في دحض دعوى سعيد بن البطريق وغوليلمس أسقف صور على الموارنة الضلال الهم الله من يحسدوننا على نعمته وفضله أن ينصفونا ولا أقل من أن يجارونا في طريق الجدال المفروضة ولا يحجونا في ما بعد بأقوال سعيد وغوليلمس قبل أن يردوا الأدلّة الواضحة والبينات القاطعة التي جئنا بها هنا وفي مواضع أخرى.

الباب الثالث عشر

تاريخ سورية في القرن الثالث عشر

القسم الأوّل

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأوّل

الأحداث التي كانت في القرن الثالث عشر

عد ٨٦١

استقلال الملك العادل بالسلطنة وبعض أعماله

كان الفراغ من كلامنا في تاريخ القرن الثاني عشر بذكر الهدنة بين الفرنج وصلاح الدين الأيوبي، وبذكر الخلاف بين الملك العادل أخي صلاح الدين وابني أخيه الملك الأفضل والملك الظاهر على دمشق إلى أن اختلف الملكان الأفضل والظاهر، فرحلا عن دمشق وعاد الملك الأفضل إلى مصر والملك الظاهر إلى حلب. ففي سنة ٥٩٤هـ وسنة ١٢٠٠م خرج الملك العادل من دمشق وسار في اثر الأفضل إلى مصر، ولما وصل الأفضل إليها تفرقت عساكره لأجل الربيع، فأدركه عمه العادل فخرج الأفضل بمن عنده من العسكر وضرب معه مصافاً بالسائح، فانكسر عسكر الأفضل وانهزم هو إلى القاهرة ونازل العادل القاهرة فأجاب الأفضل

إلى تسليمها على أن يعوض عنها ميافارقين وحاني وسميساط فأجابه العادل إلى ذلك ولم يفِ له به، ودخل العادل القاهرة في ٢١ من ربيع الآخر من هذه السنة وسافر الملك الأفضل إلى صرخد وأقام العادل بمصر على أنّ اتابك (أمير الأمراء) الملك المنصور محمّد بن العزيز وبعد مدة يسيرة أزال الملك المنصور عن الملك واستقلّ العادل في السلطنة. ولما استقرّت المملكة للعادل أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماه يعتذر إليه مما وقع منه بسبب أخذه بعرين من ابن المقدم فقبل الملك العادل عذره وأمره برد بعرين إلى ابن المقدّم فاعتذر عنها بقربها من حماه ونزل عن منبج وقلعة نجم لابن المقدّم عوضاً عن بعرين فرضي ابن المقدم بذلك، وكانت له أيضاً أفاميا (اباميا) وكفرطاب وخمس وعشرون ضيعة من المعرة، وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه العادل وصالحه وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه واشترط الملك العادل عليه أن يكون خمس مئة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة العادل كلّما خرج إلى البيكار والتزم صاحب حلب بذلك.

وفي سنة ٥٩٧هـ سنة ١٢٠١م كان الملك العادل بمصر وعنده ابنه الملك الكامل محمّد وهو نائبه بها، وبحلب الملك الظاهر وهو مجدّ في تحصين حلب خوفاً من عمّه الملك الظاهر، وبدمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل نائب أبيه وبيامفارقين الملك الأوحد أيوب ابن الملك العادل أيضاً، ومات ابن المقدّم وصارت بلاده لأخيه شمس الدين فسار الملك الظاهر صاحب حلب إلى منبج وحصر لها وملكها وقلعتها، ثمّ سار إلى قلعة نجم فحصرها وملكها وأرسل إلى الملك المنصور صاحب حماه يبذل منبج وقلعة نجم على أن يصير معه على الملك العادل، فاعتذر باليمين التي في عنقه للملك العادل ولما ايس منه سار إلى المعرة وأقطع بلادها واستولى على كفرطاب وكانت لابن المقدّم، ثمّ سار إلى أفاميا وفيها قراقوش نائب ابن المقدّم وأرسل الظاهر وأحضر عبد الملك ابن المقدّم من حلب وكان اعتقله بها مع بعض أصحابه وضربهم أمامه ليسلم أفامية فامتنع عن تسليمها، فرحل الملك الظاهر عنها إلى حماه وحاصرها طويلاً فجرح بسهم في ساقه ولما لم يحصل غرض صالح صاحبها الملك المنصور على مال يحمله إليه ورحل إلى دمشق وبها الملك المعظم ابن الملك العادل فنازلها هو وأخوه الملك الأفضل الذي كان في صرخد وانضمّ إليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الأمراء الصلاحية، واتّفق الأخوان الأفضل والظاهر على أنّهما

متى ملكا دمشق يتسلّمها الملك الأفضل ثمّ يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل ويتسلّمها الملك الأفضل وتسلّم دمشق حينئذٍ إلى الملك الظاهر صاحب حلب بحيث تبقى مصر للملك الأفضل ويصير الشام جميعه للملك الظاهر.

وبلغ الملك العادل حصار الأخوين دمشق فخرج بعساكر مصر وأقام بنابلس ولم يجسر على قتالهما، واشتدّت مضايقة الملكين لدمشق وتعلّق النقابون بسورها، فلما شاهد الملك الظاهر ذلك حسد أخاه الملك الأفضل على دمشق وقال له أريد أن تسلّم إليّ دمشق الآن، فقال له الأفضل إنّ حريمي حريمك وهم على الأرض وليس لنا موضع نقيم فيه وهب هذا البلد لك فاجعله لي إلى حين تملك مصر وتأخذه فامتنع الظاهر عن قبوله ذلك، وكان قتال العسكر والأمراء الصلاحية لأجل الأفضل. فقال لهم إن كان قتالكم لأجلي فاتركوا القتال وصالحوا الملك العادل وان كان قتالكم لأجل أخي فأنتم وإياه. فقالوا إنّما قتالنا لأجلك وتخلّوا عن القتال وأرسلوا وصالحوا الملك العادل ورحل الملك الظاهر عن دمشق في أوّل المحرم سنة ٥٩٨هـ سنة ١٢٠٢م فقدم الملك العادل إليها ثمّ سار منها إلى حماه ونزل على تل صفرون، وقام الملك المنصور صاحب حماه بجميع وظائفه وكلّفه وبلغ الملك الظاهر وصول عمّه العادل إلى حماه قاصداً محاصرته فاستعدّ للحصار وأرسل عمه ولاطفه وأهدى إليه، وكانت بينهما مراسلات ووقع الصلح وانتزعت منه المعرة واستقرّت للملك المنصور صاحب حماه، وأخذت من الملك الظاهر قلعة نجم أيضاً وسلّمت إلى الملك الأفضل، وكانت له أيضاً سروج وسميساط وسلّم الملك العادل حران وما معها لولده الملك الأشرف موسى ولما استقرّ الصلح بين الملك العادل والملك الظاهر رجع العادل إلى دمشق وأقام بها. وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في ملكه وخطب له على منابرها وضربت السكة فيها باسمه.

وفي سنة ٥٩٩هـ سنة ١٢٠٣م أرسل الملك العادل وانتزع ما كان بيد الملك الأفضل وهي رأس عين وسروج وقلعة نجم ولم يترك بيده غير سميساط، فقط فأرسل الملك الأفضل والدته فدخلت على الملك المنصور صاحب حماه ليرسل معها من يشفع في الملك الأفضل عند الملك العادل، فوجه معها القاضي زين الدين ابن الهندي فلم يجبها الملك العادل ورجعت خائبة. وأقام الملك الأفضل بسميساط وقطع خطبة عمه الملك العادل وخطب للسلطان ركن الدين بن قليج إرسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم، وفي سنة ٦٠٤هـ سنة ١٢٠٨م لما استقرّ الملك العادل بدمشق

أرسل إليه الخليفة الناصر التشريف صحبة الشيخ شهاب الدين السهرودي فبالغ الملك العادل في إكرام الشيخ والتقاه إلى القصر ودخل من صاحبي حلب وحماه ذهب لينثر على الملك العادل إذ لبس الخلعة فلبسها ونثر الذهب وكان يوماً مشهوداً، والخلعة جبة أطلس أسود بطراز مذهب وعمامة سوداء بطراز مذهب وطوق ذهب مجوهر وسيف جميع قرابه ملبّس ذهباً وحصان أشهب بمركب ذهب، ونثر على رأسه علماً أسود، مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة ثمّ خلع رسول الخليفة على الملك الأشرف والملك المعظم أميني الملك العادل عمامة سوداء وثوباً واسع الكم وكذلك على الوزير صفي الدين بن شكر، ووصل إلى الملك العادل مع الخلعة تقليد بالبلاد التي تحت حكمه. وخوطب العادل فيه شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين. وتوّجه الشيخ شهاب الدين المذكور إلى مصر فخلع على الملك بها وجرى فيها نظير ما جرى في دمشق من الاحتفال. وفي هذه السنة ١٢٠٨م اهتمّ الملك العادل بعمارة قلعة دمشق والزم كل واحد من ملوك أهل بيته ببناء برج من أبراجها.

وفي سنة ٦٠٥هـ سنة ١٢٠٩م أمر الملك الظاهر صاحب حلب بإجراء القناة من حيلان إلى حلب وغرم على ذلك أموالاً كثيرة وفي سنة ٦٠٦هـ سنة ١٠٢١م سار الملك العادل من دمشق وقطع الفرات وجمع العساكر والملوك من أولاده ونزل حران وسار منها فنازل سنجار وبها صاحبها قطب الدين محمّد بن عماد الدين زنكي بن مودود، وحاصرها وطال الحصار ثمّ خامرت العساكر التي صحبة الملك العادل ونقض الملك الظاهر صاحب حلب الصلح مع عمه العادل ورحل الملك العادل عن سنجار وعاد إلى حران واستولى هلى نصيبين، وكانت لقطب الدين المذكور وعاد إلى دمشق ثمّ إلى مصر. وفي سنة ٦١٢هـ سنة ١٢١٦م استولى الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل على اليمن وفي سنة ٦١٣هـ سنة ١٢١٧م توفي الملك الظاهر صاحب حلب وقبل وفاته احضر القضاة والأكابر وكتب نسخة يمين أن يكون الملك بعده لولده الصغير الملك العزيز ثمّ بعده لولده الكبير الملك الصالح وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمّد بن العزيز. وحلف الأمراء والأكابر على ذلك وكان مولد الظاهر بن صلاح الدين بمصر سنة ٥٦٨هـ سنة ١١٧٣م وكانت مدّة ملكه لحلب من حين وهبها أبوه له احدى وثلاثين سنة.

وفي سنة ٦١٥هـ سنة ١٢١٩م توفي الملك العادل في عالقين عند عقبه افيق بفلسطين وكان يحارب الفرنج في تلك النواحي فرحل إلى هناك ومرض واشتدّ

مرضه فمات وكان مولده سنة ٥٤٠هـ سنة ١١٤٦م، فكان عمره عند وفاته ثلاث وسبعين سنة شمسية وملك بدمشق ٢٣ سنة ومدة ملكه لمصر نحو ١٩ سنة. وخلّف ستة عشر ولداً ذكراً غير البنات، وحضر إليه منهم بعد وفاته الملك عيسى صاحب نابلس وكتم موته وأخذه ميتاً في محفة إلى دمشق، وأخذ كل ما كان لأبيه من الجواهر والسلاح والخيول، وكان في خزانته على ما قيل سبعمائة ألف دينار عيناً. وبعد أن حلف الناس له أظهر موت أبيه وجلس للعزاء وكاتب الملوك من اخوته وغيرهم يخبرهم بموته، وقد رثى شرف الدين بن عنين الملك العادل بقصيدة مطلعها:

ماذا على طيف الأحبة لو سرى   وعليهم لو سامحوني بالكرى

ومنها العادل الملك الذي أسماؤهُ   في كل ناحية تشرف منبرا

بين الملوك الغابرين وبينه   في الفضل ما بين الثريا والثرى

نسخت خلائقه الحميدة ما بقى   في الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا

انتهى ملخّصاً عن ابن الأثير في الكامل وعن أبي الفداء في تاريخه.

عد ٨٦٢
ما كان من الحرب بين الملك العادل والفرنج

هذا ما قاله المؤرخون العرب. في سنة ٥٩٩هـ سنة ١٢٠٣م سار الملك المنصور صاحب حماه إلى بعرين مرابطاً للافرنج وكتب الملك العادل إلى صاحب بعلبك وصاحب حمص أن ينجداه، واجتمع الفرنج من حصن الأكراد وطرابلس وغيرهما وقصدوا الملك المنصور ببعرين واتّفقوا معه واقتتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وكان يوماً مشهوداً، ثمّ خرج من حصن الأكراد الاسبتار وانضمّ إليهم جموع من السواحل وتوافقوا مع الملك المنصور ببعرين فانتصر ثانيةً وانهزم الفرنج هزيمة شنيعة وأسر الملك المنصور، وقتل منهم عدة كثيرة ومدح سالم بن سعادة الحمصي الملك المنصور بسبب هذه الوقعة بقصيدة منها:

وشتتّ منتقماً بساحل بحرها   جيشاً حكى البحر الخطم غرمرما

اسدلت في الآفاق من هبواته   ليلاً واطلعت الأسنة أنجما

وفي سنة ٦٠٠هـ سنة ١٢٠٤م كانت الهدنة بين الملك المنصور والفرنج وفي هذه السنة خرج كثير من الفرنج من البحر وسهل الأمر عليهم ملكهم قسطنطينية، وأرسوا بعكا قاصدين بيت المقدس ثمّ ساروا ونهبوا كثيراً من بلاد المسلمين بنواحي الأردن وسبوا وفتكوا بالمسلمين، فخرج السلطان الملك العادل من دمشق وجمع العساكر ونزل على الطور بالقرب من عكا في قبالة الفرنج ودام ذلك إلى آخر السنة. وفي سنة ٦٠١هـ سنة ١٢٠٥م كانت الهدنة بين الملك العادل والفرنج وسلم إليهم يافا ونزل عن مناصفات اللد والرملة وأعطاهم الناصرة وغيرها، ولما استقرّت الهدنة سار الملك العادل إلى مصر فأغار الفرنج على حماه ووصلوا إلى قربها إلى قرية تسمى الرقيطا وامتلأت أيديهم من المكاسب وأسروا من أهل حماه شهاب الدين بن البلّاعي، وكان فقيهاً شجاعاً وحمل إلى طرابلس فهرب منها إلى بعلبك فعاد إلى أهله بحماه سالماً. ثمّ وقعت بين الملك المنصور صاحب حماه وبين الفرنج. وسنة ٦٠٣هـ سنة ١٢٠٧م سار الملك العادل من مصر إلى الشام فنازل في طريقه عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى ثمّ وصل إلى دمشق، وكان الفرنج الذين بطرابلس وحصن الأكراد أكثروا الاغارة على بلد حمص ونازلوا مدينة حمص فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه أن يدفعهم، فاستنجد الظاهر ملك حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده أحد إلّا الظاهر، فانّه سيّر له عسكراً أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته إلى أن سار الملك العادل من دمشق ونزل على بحيرة قادس، وجاءه عساكره من الشرق وديار الجزيرة ودخل بلاد طرابلس وحاصر موضعاً اسمه القليعات وأخذه صلحاً، وأطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخرّبه وتقدّم إلى طرابلس، فنهب وأحرق وسبى وغنم وعاث العسكر في بلادها وقطع قناتها، وعاد إلى بحيرة قدس، وترددت الرسل بينه وبين الفرنج فلم تستقر قاعدة ودخل الشتاء وطلبت العساكر الشرقية العود إلى بلادها فنزلت طائفة من العسكر بحمص وعاد الملك العادل إلى دمشق فشتى بها.

وفي سنة ٦١٤هـ سنة ١٢١٨م قال ابن الأثير في هذه السنة وصلت امداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها في المغرب والشمال، لأنّ المتولي بها كان صاحب رومية لأنّه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة ولا يرون مخالفة أمرِهِ ولا

العدول عن حكمه فجهز العساكرَ من عنده مع جماعة من مقدّمي الفرنج وأمر غيرهم من ملوك الفرنج أن يسير بنفسه أو يرسل جيشاً ففعلوا ما أمرهم به فاجتمعوا بعكا وكان الملك العادل بمصر فسار إلى الشام فوصل إلى الرملة ومنها إلى اللد وقصده الفرنج من عكا فسار هو إلى نابلس فسبقه الفرنج إليها فنزل على بيسان فتقدّم الفرنج إليه وكان عسكره قليلاً فلم يرَ أن يلقاهم في الطائفة التي معه خوفاً من هزيمة تكون عليه، ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويجمع العساكر. ووصل إلى مرج الصفر وتقدّم الفرنج إلى بيسان فأخذوا كل ما فيها من ذخائر كثيرة ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس، وأقاموا ثلاثة أيام ثمّ رجعوا إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والأسرى ما لا يحصى سوى من قتلوا وما أحرقوا وما أهلكوا ثمّ جاؤوا إلى صور وقصدوا بلد الشقيف .ونهبوا صيدا والشّقيف، وعادوا إلى عكا وتجهّزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور وهي على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها، وحصروها كادوا يملكونها، فقتل بعض ملوكهم فتركوا القلعة وعادوا إلى عكا، فتوجّه الملك المعظم ابن العادل ودكّ قلعة الطور إلى الأرض لأنّها بالقرب من عكا ويتعذّر حفظها. وأمّا الفرنج فبعد عودهم عن قلعة الطور أقاموا بعكا إلى سنة ٦١٥هـ سنة ١٢١٩م وساروا في البحر إلى دمياط، وأرسل الملك العادل العساكر إلى ابنه الملك الكامل في مصر ليقوى على الفرنج وفي هذه الأثناء أدركت المنية الملك العادل كما مرّ. (انتهى ملخّصاً عن ابن الأثير وأبي الفداء).

وأما المؤرخون الفرنج فأهم كلامهم في تاريخ أوائل هذا القرن على حملة الافرج الرابعة بقصد استنقاذ الأرض المقدّسة، وخلاصة كلامهم في ذلك أنّ هذه الحملة دعا إليها البابا اينوشنسيوس الثالث وأعظم دعاتها بأمره، فولك خوري نوبلي بفرنسة وأعظم قادة الجيش بها بودوين التاسع كونت فلاندرا، وبونيفاشيوس مركيس مونتا فراتا بإيطاليا، وهنري دندولو دوج (حاكم) البندقية، ولما اجتمع هؤلاء مع عساكرهم في البندقية عزموا أن يسافروا إلى مصر لكنّهم ساروا أولاً سنة ١٢٠٢م. فحاصروا زارا مدينة بدلماسيا إجابة إلى طلب البنادقة لأنّ أهل هذه المدينة كانوا قد ثاروا عليهم، وبعد أن نهبوها ساروا إلى قسطنطينية ووصلوا إليها سنة ١٢٠٣م. وكان الكسيس الرابع ملك الروم استنجدهم فنجدوه على منازعيه وأقروه في تخت الملك، ولكن نهض عليه دوكاس مرسوفل (الغليظ الحاجب) وأخذ ملكه سنة ١٢٠٤م

ـمّي الكسيس الخامس فطرده الصليبيون وملكوا قسطنطينية، فأقاموا بودوين
.كور ملكاً، وأخذ البندقيون أعظم نصيب وهو بعض الجزائر وربع القسطنطينية مع
يسة القديسة صوفيا. وهكذا أقيمت في قسطنطينية المملكة اللاتينية واقتسم أمراء
ملة أعمال البلاد التي دوخوها واستمرّ ملكهم في قسطنطينية من سنة ١٢٠٤م
، سنة ١٢٦١م حين استردّها الملك ميخائيل الثامن باليولوغوس.

على أنّ فريقاً من رجال الحملة الرابعة سافروا من مرسيليا وبروج توّاً إلى عكا
ضمّ إليهم طائفة ممن غادروا بعد حرب دارا الجيش الذي قصد قسطنطينية فأتوا
، عكا وسئمت نفوس هؤلاء جميعاً الإقامة بعكا دون حرب وكان ملك أورشليم
ِدداً في نقض الهدنة مع المسلمين، فزايل كثيرون منهم فلسطين وقصدوا
نضواء تحت راية أمير أنطاكية الذي كان يحارب ملك الأرمن ولم يأخذوا من
يهم الطرق فوقعوا بيد المسلمين الذين أرسلهم عليهم أمير حلب، فشتّتوا شملهم
تلوا وأسروا كثيرين منهم وهذه هي وقعة بعرين مع الملك المنصور التي ذكرها
ِرخون العرب وحدثت وقتئذٍ مجاعة في مصر من جرّاء نقص ماء النيل دامت
تين واتّصلت إلى سورية وعقبها أمراض وبائية هلك بها جموع كثيرة في فلسطين
نى قيل إنّه مات بعكا من النصارى ألفٌ في يوم واحد. وكانت في سنة
١٢٠م زلازل هائلة خرّبت بها مدن كثيرة ودمّرت قلاع حماه وبعرين وبعلبك
م يبقَ في نابلس إلّا سوق السامريين، وسقطت أكثر أبنية دمشق ولم يبقَ في
ور إلّا بعض البيوت وأمست أسوار عكا وطرابلس كوم أنقاض ولم تخل أورشليم
ن التخريب وقد ذكر المؤرخون العرب أيضاً هذه المصائب بالقحط والوباء والزلازل.

وفي سنة ١٢٠٥م توفي أموري الثاني ملك أورشليم ثمّ توفّيت بعده امرأته
ِبال التي كانت مزوجة قبله بالملك هنري المارذكره ولدى اجتماع عمال المملكة
عيانها لاختيار ملك لم يتفق رأيهم على أحد الفرنج المقيمين بسورية فأرسلوا ايمار
امل قيصرية وأسقف عكا إلى المغرب فسارا إلى فيلبوس أغوسطوس ملك فرنسة
ختار لهم ملكاً فاختار يوحنا دير بريانه ليتزوج بمريم وريثة ملك أورشليم ابنة ايزبال
ي ولدت لها ومن زوجها كونراد دي مونتا فراتا، ويملك على أورشليم فسار يوحنا
ذكور إلى سورية وتزوج بمريم وريثة الملك في ١٤ أيلول سنة ١٢٠٩م في عكا ثمّ
ج ملكاً على أورشليم في ٢٠ من الشهر المذكور، فكان الثاني عشر من ملوك
فرنج في أورشليم ولم تكن له ثروة كافية لاصلاح حال مملكته، وشاع حينئذٍ أنّ

ملوك المغرب يجهزون حملة كبرى لانجاد الفرنج في سورية، فوجس الملك العادل من هذه الأخبار وكادت مدة الهدنة تنقضي فعرض على الفرنج أن يسلم إليهم عشر قلاع حباً باستمرار السلم فأشار عقلاء الفرنج بالاجابة إلى ما عرضه وخالفهم بعض الجهلة، ولم يأت مع يوحنا الملك الحديث من فرنسة إلّا ثلثماية فارس ولم يكن يملك إلّا أربعين ألف ليرة أعطاه إياها ملك فرنسة، وأعطاه الرومانيون أربعين ألف أخرى. ولما تردد الفرنج في قبول ما عرضه الملك العادل سار هو إلى فلسطين في عسكر وحاصر طرابلس وهدد عكا وبنى قلعة في جبل طابور، وبث سواريه إلى أبواب عكا، فتواقع الملك يوحنا مع عسكر الملك العادل وأبدى ايات البسالة لكنّه لم يقوَ على إنقاذ بلاد النصارى من عدو قدير. ولما رأى الفرنج قلّة عديدهم جبنوا وندم من لم يقبلوا المسالمة مع المسلمين وأرسل الملك وفداً إلى رومة يستغيث بالبابا وملوك أوربا ليمدوه، وكان بين ملوك النصارى وقتئذٍ حروب ومنازعات فقل من لبى دعوة ملك أورشليم. وقد أنبأنا كثيرون من المؤرخين المعاصرين أنّ جماً غفيراً من الحدثان بفرنسة وألمانيا تألبوا وكانوا يطوفون المدن والقرى مترنّمين بقولهم يا رب ردّ علينا صليبنا المقدّس وكانوا يقولون نسير إلى أورشليم لانقاذ قبر مخلّصنا، وانخرط في سلكهم بعض الكهنة وأخذوا بالمسير إلى سورية، ولكنّ بعضهم ردّهم أهلهم عن السفر وبعضهم تشتّتوا وبعضهم قتلوا ووصل بعضهم إلى عكا فزادوا الفرنج قنوطاً ووجلاً ليأسهم من إنجاد رجال الغرب. وبلغت أخبار هؤلاء الحدثان إلى البابا أينوشنسيوس الثالث فقال هؤلاء الحدثان يؤنبوننا على تقاعدنا بمسارعتهم إلى الأرض المقدّسة. وعزم سنة ١٢١٣م على عقد مجمع عام برومة لاصلاح بعض الشؤون في الكنيسة وللحض على امداد نصارى الشرق، وأنفذ قصاداً ودعاة إلى ممالك أوربا بحضون الناس على التجند لنجدة الفرنج في سورية، وكان من جملة هؤلاء الدعاة يعقوب فترى الذي صير فيما بعد أسقفاً على عكا. وأرسل البابا رسائل إلى أساقفة المعمور والرؤساء يستدعيهم إلى المجمع، وقد كتب حينئذٍ إلى الملك العادل نفسه رسالة مؤرخة في السنة سنة ١٢١٤م وهي ١٦ من حبريتهِ وقد أثبت ميشود هذه الرسالة في آخر المجلّد الثالث من تأليفه، وقد ناشد البابا الملك العادل بأن يترك المدينة المقدّسة. ومما قاله في هذه الرسالة إنّ الله اختار المسلمين آلة لانتقامه من النصارى، وسمح لصلاح الدين بأن يأخذ أورشليم لآثامهم، وحرّضه أن يقي اهراق الدم إن أراد ديمومة ملكه. ولم تكن هذه المرة الأولى من مكاتبة رؤساء الكنيسة إلى السلاطين

المسلمين فانّ هذا البابا نفسه كتب قبل ذلك رسالة إلى أمير حلب أثبتها ميشود في كتابه المذكور.

وفي سنة ١٢١٥ عقد المجمع العام في لاتران فشهده نحو من خمسماية أسقف وفي جملتهم بطريركنا أرميا العمشيتي ونائب بطريركية اسكندرية ونائب بطريرك الروم الأنطاكي وبطريركا اللاتين في أنطاكية وأورشليم وسفراء ملوك أوربا. وبعد أن حرم المجمع بدعة الالبيجازيين واشياعها ونبذ كل ضلال يخالف الإيمان القويم اهتم البابا والأساقفة وسفراء الملوك بما يتداركون به حال النصارى في المشرق وقرروا أنّ كلّا من الاكليريكيين يدفع جزءاً من عشرين جزءً من دخله السنوي في سبيل النفقة على انجادهم الفرنج في سورية، وانّ البابا والكرادلة يدفعون عشر دخلهم وان تعقد هدنة مدة أربع سنين بين ملوك النصارى وأثبت الدعاة في كل فجّ يذيعون أمر المجمع بامداد نصارى المشرق. ففي سنة ١١١٧م تألّبت جموع كثيرة أكبر رؤسائهم أندراوس ملك المجر فكانت هذه الحملة الخامسة. وعند مرورهم بقبرص صحبهم لوسينياس ملكها واجتمعوا في عكا وخرجوا منها بامرة ملك المجر وملك أورشليم وملك قبرص وساروا نحو مرج ابن عامر واتّصلوا إلى الأردن ولم يعترضهم أحد، ولكن نهبوا وأسروا بعض المسلمين دون حرب وعادوا إلى عكا ووقع الرعب في قلوب المسلمين فسكّن الملك العادل روعهم قائلاً عما قليل سيقع الخلاف بين الفرنج وجيشهم الكثيف أشبه بسحابة تنقشع بأقل ريح. وعزم رؤساء جيش النصارى أن يحملوا على جبل طابور حيث تحصّن المسلمون ولما بلغوا إلى سفح الجبل أخذ المسلمون يقلبون عليهم الصخور الضخمة ويمطرون عليهم النبال فلم يثن ذلك عزيمة الفرنج وأبدى ملك أورشليم آيات البسالة في هذه الحرب فانهزم المسلمون وتبعهم الفرنج إلى باب القلعة. وبينما كان المسلمون يرتجفون خوفاً من الفرنج خاف هؤلاء أن يكبسهم أمير دمشق ويكمن لهم فانصرفوا عن القلعة كأنّهم لم يأتوا إلّا لزيارة محل تجلي المخلّص، ولكي يتقي رؤساء الجيش عار الهزيمة من جبل طابور ساروا بجيشهم نحو فينيقيا وكان البرد قارساً فأضرّ بكثير من الجيش، وبينما كانوا مخيمين بين صور وصيدا ثار عليهم عاصف وبروق ورعود ومطر غزير فأقلب خيامهم وشتّت متاعهم وقتل بعض خيلهم حتى ظنّوا أنّ الله أبى إلّا إذلالهم وكبتهم. وقلّ زادهم ورأوا أنّ إقامة جيشهم في محل واحد تعود بالوبال عليهم فانقسموا إلى أربعة أقسام ريثما ينتهي الشتاء، فمضى ملك أورشليم ودوك النمسا ورئيس فرسان

القديس يوحنا فأقاموا بسهول قيصرية، وملك المجر وملك قبرص وريموند ابن أمير أنطاكية أقاموا بطرابلس، ورئيس فرسان الهيكل والصليبيون الذين من هولاندا حصّنوا قلعة في سفح جبل الكرمل وأقاموا بها، وغير هؤلاء عادوا إلى عكا ينوون أن يعودوا إلى أوربا. ودخلت سنة ١١١٨م فملك قبرص اعتراه مرض فمات، وملك المجريئس من الفوز، وبعد أن أقام ثلاثة أشهر في فلسطين عاد إلى مملكته، ولم يوقفه تهديد بطريرك أورشليم له بالحرم ولكنه ترك بعض عسكره في سورية.

وبعد سفر ملك المجر قدم إلى عكا جمع غفير من فرنسة وإيطاليا وكان الاستيلاء على مصر يشغل أفكار الصليبيين مدات، وقد أشار به البابا أيتوشنسيوس الثالث في المجمع اللاتراني فقصدها الفرنج وساروا أولاً إلى دمياط وسنرى في الفصل التالي أخبار هذه الحملة.

عد ٨٦٣
أخذ الفرنج دمياط وانتزاعها من يدهم

هذا ملخّص ما قاله ابن الأثير في ذلك «لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة ١٢١٩م فساروا في البحر إلى دمياط فأرسلوا على بر الجيزة بينهم وبين دمياط نهر النيل، وقد بُني فيه برج كبير منيع وجعلوا فيه سلاسل حديد مدوها في النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب أن تصعد في النيل إلى ديار مصر وبنى الفرنج على عسكرهم سوراً وجعلوا خندقاً يصد من الوصول إليهم وشرعوا في قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرميات وأبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى البرج المذكور ليملكوه. وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل بمنزلة تعرف بالعادلية بالقرب من دمياط والعساكر متّصلة من عنده إلى دمياط وأدام الفرنج قتال البرج فلم يظفروا منه بشيء وكسرت مرماتهم وآلاتهم وبقيوا كذلك أربعة أشهر ثم ملكوا البرج وقطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر في النيل ويتحكموا في البر، فنصب الملك الكامل جسراً عوض السلاسل امتنعوا به من السير في النيل وقاتلوا على الجسر قتالاً شديداً حتى قطعوه فأخذ الملك الكامل عدة مراكب وملأها وخرقها وغرقها في النيل فمنعت مراكب الفرنج من سلوكه فقصد الفرنج خليجاً هناك يعرف بالأزرق كان النيل يجري عليه قديماً فحفروه

وعمقوا وأجروا الماء فوق المراكب التي جعلت في النيل إلى البحر وأصعدوا مراكبهم فيه إلى مقابل المنزلة التي فيها إلى مقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل، وقاتلوه من هناك وزحفوا إليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شيء، لأنّ الميرة والامداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فاتفق لما يريده الله أنّ الملك العادل توفي في جمادى الآخرة من تلك السنة فضعفت نفوس الناس لأنّه السلطان حقيقة وأولاده يحكمون باسمه. وكان من جملة الأمراء بمصر الأمير عماد الدين من الأكراد المعروف بابن المشطوب وله لفيف، كثير فاتفق مع غيره من الأمراء وأرادوا خلع الملك الكامل من الملك وتمليك أخيه الملك الفائز، وبلغ الخبر إلى الملك الكامل ففارق المنزلة ليلاً وسار مسرعاً إلى قرية يقال لها أشمون وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم، فركب كل انسان من هوائه ولم يقف الأخ على أخيه، وتركوا خيامهم وذخائرهم وأموالهم ولحقوا بالكامل، فعبر الفرنج حينئذٍ النيل آمنين بغير منازع إلى بر دمياط فغنموا ما في معسكر المسلمين، واجتمع العرب على اختلاف قبائلهم ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وكانوا أشد على المسلمين من الفرنج، وأحاط الفرنج بدمياط وقاتلوا أهلها برّاً وبحراً واشتدّ القتال عليهم وتعذّرت عليهم الأقوات فسلّموا البلد إلى الفرنج وخرج قوم منهم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة.

واتفق أنّ الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق وصل إلى أخيه الملك الكامل فقوى قلبه واشتدّ ظهره وأخرجوا ابن المشطوب إلى الشام فاتّصل بالملك الأشرف صاحب ديار الجزيرة وصار من جنده، وأما الفرنج فلما ملكوا دمياط أقاموا بها وبنوا سراياهم في كل ما جاورها وشرعوا في تحصينها حتى أصبحت لا ترام، ولما سمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط أقبلوا من كل فج يهرعون إليها وعاد الملك المعظم إلى الشام فخرّب البيت المقدّس خوفاً من أن يأخذه الفرنج، وأشرف الفرنج على أخذ سائر البلاد بمصر والشام وظهر التتر في المشرق كما سيأتي حتى وصلوا إلى نواحي العراق، فخاف المسلمون وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم فمنعهم الملك الكامل وكتب إلى أخويه المعظم في دمشق والأشرف في الجزيرة يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما، وكان الملك الأشرف مشغولاً عن نجدته بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه، ولما استقامت له الأمور سار هو وأخوه

صاحب دمشق سنة ٦١٨هـ سنة ١٢٢٢م إلى مصر، وكان الفرنج تركوا دمياط وقصدوا الملك الكامل ونزلوا لمقابلته وبينهما خليج من النيل يسمى بحر أشمون وأوقدوا الحرب عليه، وسمع الملك الكامل بدنو أخيه الأشرف فلقيه واستبشر هو والمسلمون بقدومه، وأمّا الملك المعظم فقصد دمياط وزحف الكامل والأشرف إلى الفرنج عند خليج من النيل يعرف ببحر المحلة، واشتدّ القتال وأخذ المسلمون من الفرنج ثلاث قطع من مراكبهم بمن فيها من الرجال وما فيها من الأموال، فقويت نفوس المسلمين وترددت الرسل بين الفريقين بتقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون لهم تسليم البيت المقدّس وعسقلان وطبرية وجبلة وصيدا واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين إلّا الكرك، ويسلمهم الفرنج دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلاث مئة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمروها بها، فلم يتم بينهم أمر وعادوا إلى القتال. وكان الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام، وعبر طائفة من المسلمين إلى الجهة التي عليها الفرنج ففجروا النيل، فركب الماء أكثر ملوك الأرض ولم يبقَ للافرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة ضيقة. ونصب الكامل على النيل جسوراً عبر المسلمون عليها فملكوا الطريق الذي يسلكه الفرنج إن أرادوا العود إلى دمياط، فرأى الفرنج أنّهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط في أرض يجهلونها، وأحاطتهم العساكر فأحرقوا خيامهم ومناجيقهم وأثقالهم وزحفوا إلى المسلمين فحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم ورأوا أنّ ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها وان المنايا كشرت لهم عن أنيابها، فراسلوا الملك الكامل يطلبون الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض فبينما المراسلات مترددة أقبل جيش كبير فإذا هو الملك المعظم صاحب دمشق الذي كان قد جعل طريقه على دمياط فاشتدّت ظهور المسلمين وزادوا الفرنج خذلاناً وتموا الصلح على تسليم دمياط وأرسل الفرنج قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط في تسليمها ولما دخلها المسلمون وجدوها محصّنة تحصيناً عظيماً وأعطى الله المسلمين ظفراً لم يكن في حسابهم. انتهى تلخيص كلام ابن الأثير.

أمّا المؤرخون الفرنج فقلّما كان بينهم وبين المؤرخين المسلمين من الخلاف في أخبار أخذ الفرنج دمياط ثمّ انتزاعها من يدهم، ومما قالوه إنّهم عند حصارهم برج دمياط بنوا برجاً من خشب على سفينتين ربطوا إحداهما بالأخرى وصفحوا البرج

بالنحاس، وكان فيه محل لإقامة المحاربين وجسر قلّاب يلقى إلى قلعة دمياط.
وفي اليوم المعيّن نزل بهذا البرج ثلاثمائة محارب وسارت السفينتان بالنيل وعليهما البرج ورستا بجانب القلعة، وأخذ جنود النصارى يرمون السهام أولاً متحفزين للطعن بالحراب، وإلّا أمطر عليهم المسلمون تهتان نار، وجدوا في إحراق برج الخشب وقتل من فيه، وعلقت النار بالبرج وزعزع الجسر عن أسوار القلعة وأخذ المسلمون علم النصارى وضجوا مسرورين واستولت الكآبة على الفرنج وجهروا بالدعاء لله خاشعين فطفئت النار وصلحت الآلة ورسخ الجسر على جدار سوار القلعة، وكان لاوبلد دوك النمسا أميراً في هذا البرج فشدّد عزائم رجاله فعادوا إلى القتال بأشد حمية وأشرفوا على أسوار القلعة وكانوا يتجادلون والعدو بالسيوف والحراب، وقفز جنديان إلى سطح القلعة فأرعبا المحصورين فتهافتوا إلى السفل وحاولوا إلقاء النار في السقف والتحصن بسور من نار، فلم يمكنهم الفرنج مما يحاولون بل باغتوهم بالطعن وضرب القلعة من كل جهة وبكل وسيلة حتى أيقنوا الهلاك، فاستسلموا إلى أعدائهم ورموا سلاحهم ثمّ فتحوا المدينة كما روى المؤرخون العرب. ولكن بعد حصارهم لها سبعة عشر شهراً. وقد عاب المؤرخون الفرنج الصليبيين بابطائهم عن التقدّم في الديار المصرية على فور فتحهم دمياط وعلى مغادرة كثيرين منهم ساحة القتال وعودهم إلى أوطانهم، على أنّ أخبار انتصارهم حملت كثيرين من ألمانيا وبيزا وجنوا والبندقية، ومن أعيان فرنسة على المسير إلى المشرق. وكان من جملة هؤلاء كاردينالان: روبرتوس رئيس أساقفة كورسون، وبيلاج أسقف البانو. وكان من رأي هذا الكردينال عند طلب الملك الكامل الصلح أن لا يجاب إليه ولو بذل للفرنج التخلّي عن القدس وعن كل ما فتحه صلاح الدين، وكان يخالفه في ذلك ملك أورشليم وكثيرون من أعيان الفرنج. وكان الكردينال يرى أنّ طلب الملك الكامل الصلح خدعة وانّه من العار على الفرنج أن لا يتموا ما تعمّدوه بعد أن استبشروا بتمامه. وقبل أن يتفق رأي الفرنج على الجواب للملك الكامل أتى أخواه لنجدته فاشتدّ ظهره كما قيل وعاد إلى حرب الفرنج فانتصر عليهم عند المنصورة وصالحهم على ترك دمياط كما ذكر ذلك المؤرخون المسلمون وكان استرداد دمياط سنة ١٢٢٢م.

عد ٨٦٤

حملة فريديريك الثاني ملك ألمانيا على سورية وترك الملك الكامل القدس له

بعد أن استردّ المسلمون دمياط سار يوحنا دي بريان ملك أورشليم إلى المغرب مستصرخاً مستنجداً ووصل أولاً إلى رومة فشكا إلى البابا أنوريوس الثالث باكياً سوء حالة النصارى في سورية ومصر، وكان بطريركا الإسكندرية وأورشليم قد رفعا عريضتين إلى هذا الحبر الروماني يبتهلان إليه بهما أن يأخذ بناصر نصارى الشرق. وفي جملة صنوف العناية التي بذلها أنوريوس الثالث لامداد الفرنج في الشرق انّه عرض على فريديريك الثاني عاهل ألمانيا أن يتزوج بيولاند ابنة ملك أورشليم ووريثة ملكه ويسمى ملك أورشليم. فقبل العاهل ما عرضه البابا ووعد أن يذب عن مملكة أورشليم، وارتضى أن يحرم أن أخلّ بوعده، ووثق ذلك باليمين. وطاف يوحنا ملك أورشليم مستنجداً ملوك أوربا ومخبراً بالمعاهدة التي جرت بينه وبين عاهل ألمانيا، وأخذ هذا العاهل يعد ما يلزم لهذه الحملة التي ستكون بامرته ويبني سفناً في صقلية لنقل العساكر، وأكثر من الرسائل للبابا ليعاونه على إكثار جنود الحملة مبدياً من الحمية أشدّها ومن الغيرة معظمها، فتعلقت به الآمال والأماني ولكن طرأ عليه ما ينذر بالثورة عليه في صقلية ونابولي ولمبرديا (التي كانت حينئذٍ خاضعة له) فطلب من البابا مهلة سنتين ليعمل ما توجب عليه بيمينه فاستاء البابا من هذا التقاعد، لكنه لم يرَ من السداد نبذ طلبه وكان بزواجه بوريثة ملك أورشليم ضمانة على مبرة يمينه. وعقدت هذه الزيجة برومة باحتفاء وهنأ يوحنا ملك أورشليم نفسه بأنّ عاهل ألمانيا صهره ونصيره وفرح الجميع بذلك، ولكن لم يدم هذا الفرح لأنّ العاهل تغيّر على زوجته وأهملها ونازع أباها ملك أورشليم وسمى نفسه ملك أورشليم، واضطرّ البابا أن يغضي على ذلك حباً بمصلحة الأرض المقدّسة، ولزم ملك أورشليم الصمت والعزلة متوقعاً سنوح فرصة ليأخذ بثأره. وقد توفي البابا أنوريوس الثالث سنة ١٢٢٧م فخلفه غريغوريوس التاسع وصرف عنايته بامداد نصارى الشرق وكتب إلى عاهل ألمانيا ليسرع بالمسير إلى فلسطين. وكانت العساكر متأهّبة والعاهل يؤجل سفره من وقت إلى آخر وكانت أيام الحر فمات من العسكر كثيرون حتى بعض الأساقفة والشرفاء، وملّ غيرهم فرجعوا إلى أوطانهم إلى أن سار

الملك والجيش من برنديزي، فثار عاصف ومرض العاهل أو تمارض ووجس مما يكون في مملكته حين غيابه، فأمسك في ترانت وأجّل سفره، فساء البابا عدوله عن المسير وقد بلغه أنّ أربعين ألفاً من الجيش وصلوا إلى عكا، ولما استبطأوا العاهل أخذوا في العود إلى بلادهم. واعتذر العاهل فلم يصوب البابا عذره وكتب إلى ملوك أوربا يشكوه بحنثه بيمينه بحجة مرضه، فاستاء العاهل من ذلك ونشر أعلام الخصام للحبر الروماني واستمال أشراف رومة فثاروا على البابا وأكرهوه أن يفر من رومة فانتضى سيفه الروحي وأذاع حرم العاهل على نصارى الغرب أنّه استنزل هذا الحرم على نفسه إذ أخلف بيمينه فضلاً عن إثارة الرومانيين على البابا. ولم يكن الفرنج في سورية يفترون عن استمداد البابا فرفع إليه بطريرك أورشليم وبعض أساقفته ورؤساء الفرسان عرائض يبينون بها ما استحوذ عليهم من اليأس عند سماعهم أنّ عاهل المانيا أضرب عن نجدتهم فنشر البابا هذه العرائض ليحضّ أهل الغرب على إمداد اخوانهم ويوقنوا سوء تصرّف العاهل.

وكان انتصار الملك الكامل واخوته على الفرنج في مصر أوقع بينهم خلافاً على ما يأخذه كل منهم من مدن الفرنج ووجس الكامل على نفسه من قبل اخوته، وكان قد اشتهر تجهيز عاهل ألمانيا العساكر ليغزو الشرق، وحصول النفرة بينه وبين البابا فدار في خلد الملك الكامل أن يراسل عاهل ألمانيا ويحالفه فأرسل إليه هدايا ورسلاً وعرض عليه أن يأتي إلى المشرق فيسلمه أورشليم، فسرّ بذلك فريدريك وعجب منه وأرسل الملك الكامل سفيرا يستوضح منه ما يريد ويحقق له صداقته، فالتقى الملك الكامل السفير بلتّجلّة والتكريم وحقق له رغبته في موالاة العاهل ولم يكن البابا يعلم شيئاً من هذه المراسلات التي جعلت فريدريك يعزم على المسير إلى الشرق فجمع عماله وأعيان مملكته وأقبل متشحاً بزي الصليبيين وأعلن لهم خبر سفره إلى سورية، ولم يجهز إلّا عشرين سفينة وستمائة فارس ليسير فيهم فعلم البابا بذلك وأرسل يلومه على هذا التهور فلم يجب رسل البابا بشيء وسافر، ولما وصل إلى قبرص وصاحبها هنري لوسنيان وهو قاصر وامّه مدبرة الملك ادعى ان دخل قبرص يخصه ما دام الملك قاصراً لأنّ له السيادة على قبرص بما أنّه ملك أورشليم، ولما لم يجب إلى طلبه حاصر نيقوسية وأكره الملك على الإجابة، ثمّ وصل إلى عكا ولما علم البطريرك والاكليرس ورؤساء الفرسان أنّه محروم ومخالف للحبر الروماني وان ليس معه من الجند ما يردع الأعداء ازدروه، واتّفق عند وصوله إلى عكا أنّه

كان الملك المعظم صاحب دمشق قد توفي وخلفه ابنه داود، وأنّ الملك الكامل خرج إلى فلسطين قاصداً دمشق ليملكها من ابن أخيه المذكور، فخرج عاهل ألمانيا من عكا وحلّ بين قيصرية ويافا. وأرسل إلى الملك الكامل والي صيدا يطالبه ويقول له إنّه لم يأت إلى سورية طامعاً بأن يأخذ ملكاً فوق أملاكه ليزور المواضع المقدَّسة ويضع يده على ملك أورشليم الذي أفضى إليه، وكانت الأحوال التي ألجأت الملك الكامل إلى موالاة عاهل الألمان قد تبدّلت فقبل رسل العاهل بالتكريم وأرسل وفداً إليه يعتذر عن تسليم أورشليم إليه ويطلب الصلح معه. وتواترت بينهما الرسائل وفي جملتها رسالة العاهل قال فيه للملك الكامل: «أنا أخوك وأحترم دين المسلمين احترامي لدين المسيح وأنا وريث مملكة أورشليم وقد جئت لأضع يدي عليها ولا أروم أن أنازعك ملكك فلنجتنب إراقة الدماء». وأرسل إليه الملك الكامل درعه وسيفه ضمانة على رغبته في المسالمة له، فأرسل إليه الملك خيلاً وجمالاً وغيرها من الهدايا. وكان المسلمون يشمئزون من مراسلات الملك والنصارى ويعيبون العاهل بمراسلاته له بل أضمر له فرسان الهيكل والاسبيتاليون الغدر به واهلاكه، وأخيراً عقد الملكان هدنة بينهما إلى مدة عشر سنين ونصف سنة. ومن شرائطها أنّ الملك الكامل يتخلّى لعاهل الألمان عن أورشليم وبيت لحم وجميع القرى الواقعة بين يافا وأورشليم وان بقي للمسلمين في المدينة المقدّسة جامع عمر، وان يباحوا ممارسة فروض دينهم وأن لا يجدد النصارى بناء أسوار أورشليم، وأنّه إذا اعتدى مسلم على مسلم آخر فيسمع دعواها قاضي المذهب وأنّ العاهل لا يعاون افرنجياً ولا مسلماً على حرب أحد من المسلمين بل عليه أن يمنع كل تعدٍ على أرض الملك الكامل وأن يصدّ كلّاً من عساكره ومرؤوسيه عن مثل ذلك. ومن خالف ما جرى الاتفاق عليه لزم العاهل أن يصده عن ذلك. ولم تدخل إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس والكرك في هذه الهدنة بل يلزم العاهل أن يمتنع عن كل مساعدة لحكام هذه الأعمال، ووقّع على المعاهدة في ٢٠ شباط سنة ١٢٢٩م. ولم يرتض المسلمون ولا النصارى من هذه المعاهدة حتى أنّ الملك العاهل لما دخل كنيسة القبر المقدّس لم يجد أسقفاً يضع التاج على رأسه فوضعه لنفسه، ولم يمكث في أورشليم إلّا يومين كتب فيها رسائله إلى البابا وغيره مبشراً بأخذه أورشليم وإعادة ملك النصارى إليها. وكتب بطريرك أورشليم رسالة إلى البابا، ومنشوراً إلى النصارى يشكو بهما من سوء تصرّف فريدريك الثاني، وبعد خروج

العاهل من أورشليم بيومين دخل المسلمون إليها، ولم يشأ ملك دمشق الذي تخصّه أورشليم أن يوقّع على المعاهدة التي لا ذكر فيها للكنيسة أو للنصارى بل لفريدريك وحده حتى لا يمكّن أحداً أن يضع يده عليها أو يحدث بها شيئاً إلّا هذا العاهل ومن ينوب عنه وقد بقيت القرى المجاورة لأورشليم بيد المسلمين وأبيح سكانها أن يجتمعوا للصلوة في جامع عمر وعددهم يفوق عدد نصارى أورشليم فأية ضمانة تتكفل بالسلم بين الفريقين في مدة عشر سنين فضلاً عن أنّ العاهل أخذ على نفسه أن لا يحارب المسلمين بل أن يمنع كل حرب تقع عليهم ويمتنع عن كل مساعدة لحكام أنطاكية وطرابلس وغيرها من بلاد الفرنج.

ولما عاد العاهل إلى عكا لم يستقبله البطريرك والاكليرس والفرسان إلّا بالازدراء والاحتقار فانتقم منهم بمنع الأقوات عن المدينة وإهانة الفرسان وضرب بعض الرهبان، ولم يطل الإقامة في عكا وسار منها إلى قبرص سنة ١٢٢٩م ودعا الملك ومدبري المملكة إلى مأدبة فقبض عليهم، وأخذ ملك قبرص بمنزلة أسير ليوطد ملكه على الجزيرة وكان رايناله دوك سبولات أثار الحرب من قبل العاهل على أملاك الكرسي الرسولي وكان في عسكره كثيرون من المسلمين سكان صقلية فاضطرّ البابا إلى أن يدافع عن أملاكه وأمر على عسكره يوحنا دي بريان ملك أورشليم فانتصرت عساكر البابا ودخلت بعض أملاك العاهل أيضاً وملكت بعضاً من أعمال إيطاليا المختصّة بالعاهل ووصل العاهل إلى برنديزي فعاودت الشجاعة أحزابه فاستردّ بعض ما كان قد أخذ منه إلّا القلاع وعاد يوحنا دي بريان إلى فرنسة ليستعد لسفره إلى القسطنطينية إذ مات في تلك الأثناء روبرتس ملك هذه المدينة اللاتيني وخلفه أخوه بودوين وعمره تسع سنوات فقط، وقرر اقطاب المملكة أن يتوج يوحنا دي بريان ملكاً على قسطنطينية مدّة حياته، وأن يتزوّج بودوين بابنة أخرى له فإذا بلغ العشرين من عمره كلّل ملكاً على ما يملكه السلاطين في آسيا. وأمّا عاهل الألمان فراسل البابا بالصلح وفي ٣ من شهر تموز سنة ١٢٣٠م حلف يميناً احتفالياً أن يخضع لأوامر الحبر الروماني دون شرط وحلّه البابا من الحرم وردّ إليه ما كانت جنوده قد أخذته من مملكة صقلية فهذا ما كان من حملة فريدريك الثاني عاهل الألمان على سورية وعوده منها.

وهذا ما ذكره ابن الأثير وأبو الفداء في تسليم الملك الكامل القدس إلى أمبراطور الألمان. قالا ما ملخّصه في سنة ٦٢٦هـ سنة ١٢٢٩م تسلّم الفرنج البيت

المقدّس، وسبب ذلك خروج الانبرور ملك الفرنج إلى ساحل الشام وكانت عساكره قد سبقته وأخذوا ما يجاورهم من بلاد المسلمين، ومضى إليهم وهم على صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لصور وأطاعوهم وصاروا معهم وقوي طمع الفرنج بموت الملك المعظم صاحب دمشق ولما وصل الانبرور نزل بعكا وكان الملك الكامل قد خرج من مصر يريد بلاد الشام وأن يملك دمشق من صلاح الدين داود ابن المعظم وأرسل داود إلى عمه الملك الأشرف صاحب الجزيرة يستنجده على عمه الملك الكامل فسار الملك الأشرف إلى دمشق وترددت الرسل بينه وبين أخيه الملك الكامل في الصلح فاصطلحا وترددت الرسل بينهما وبين الانبرور دفعات كثيرة فاستقرّت القاعدة أن يسلموا إليه البيت المقدّس ومعه مواضع يسيرة من بلاده وعلى أن تستمرّ أسواره خراباً وكان الملك المعظم قد خرّبها ولا يعمرها الفرنج ولا يتعرّضوا إلى قبة الصخرة ولا إلى الجامع الأقصى ويكون الحكم في الرساتيق إلى والي المسلمين ويكون لهم من القرايا ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط واستعظم المسلمون ذلك وكبّروه ووجدوا له من الوهن والتألّم ما لا يمكن وصفه وقال في ذلك أبو الفرج الجوزي قصيدة مطلعها:

مدارس ايات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر الأرجاء

عد ٨٦٥

بعض الأحداث في سورية إلى وفاة الملك الكامل

سنة ٦١٩هـ سنة ١٢٢٣م قصد الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق حماة ليملكها لأنّ الملك الناصر صاحب حماه كان قد التزم له بمال يحمله إليه إذا ملك حماه فملكها ولم يفه فنزل الملك المعظّم ببعرين وجرى بينه وبين الملك الناصر قتال قليل ثمّ ارتحل الملك المعظّم إلى سلميّة فاستولى على حواصلها وولي عليها ثمّ توجّه إلى المعرة فاستولى عليها وأقام فيها والياً من جهته وقرر أمورها ثمّ عاد إلى سلميّة فأقام بها على قصد منازلة حماة ودخلت سنة ٦٢٠هـ سنة ١٢٢٤م وبلغ الملك الأشرف ما فعله أخوه المعظّم بصاحب حماة فعظم عليه ذلك واتّفق مع أخيه الملك الكامل على انكار ما فعله المعظّم وترحيله عن حماة، فأرسل إليه الملك الكامل

اصح الدين الفارسي، فقال له السلطان «يأمرك بالرحيل»، فقال السمع والطاعة ورحل مغضباً على أخويه الكامل والأشرف ورجعت سلميّة والمعرة للملك الناصر وكان الملك المظفر محمود من أسرة الأيوبيين مقيماً عند الملك الكامل بالديار لمصرية وكان الملك الكامل يؤثر تمليكه حماه لكن أخاه الملك الأشرف غيّر مجيب نّ ذلك لانتماء الملك الناصر صاحب حماه إليه وجرى بين الكامل والأشرف في ذلك مراجعات آخرها أنّهما اتّفقا على نزع سلميّة من يد الناصر وتسليمها إلى لملك المظفر فتسلّمها وهو بمصر وأرسل إليها نائباً من جهته حسام الدين بن محمّد بن علي الهذباني واستقرّ بيد الناصر حماه والمعرّة وبعرين وسار الأشرف من مصر واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من أخيه الملك الكامل للملك العزيز صاحب حلب وعمره يومئذٍ عشر سنين واركب الملك العزيز في دست السلطنة واتّفق مع كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية فأرسلوا عسكراً وهدّموها لى الأرض.

وفي سنة ٦٢٤هـ سنة ١٢٢٨م توفي الملك المعظم بن الملك العادل صاحب دمشق بقلعة دمشق بالدوسنطاريا وعمره تسع وأربعون سنة، وكانت مدّة ملكه دمشق تسع سنين وشهوراً على رواية أبي الفداء وعشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً على رواية ابن الأثير، وكان شجاعاً وكان يجامل أخاه الملك الكامل صاحب مصر ويخطب له ببلاده ولا يذكر اسمه معه، وكان قليل التكلّف جداً لا يركب بالسناجق السلطانية وينخرق في الأسواق من غير أن يطرق بين يديه كعادة لملوك وكان عالماً فاضلاً بالفقه والنحو واللغة وكان حنفياً متعصباً لمذهبه وخالف جميع أهل بيته فانهم كانوا شافعية. وكان قد أمر أن يجمع له في اللغة جامع كبير يشتمل على «الصحاح الجوهري» ويضاف إليه ما فات الصحاح من «التهذيب» للأزهري و«الجمهرة» لابن دريد وغيرهما. وكان يحب العلماء ويقربهم إليه وأوصى عند موته بأن يكفن في البياض ولا يجعل في أكفانه ثوب فيه ذهب وأن يدفن في لحد ولا يبنى عليه بناء بل يكون قبره في الصحراء تحت السماء وولي بعده ابنه داود ويلقّب الملك الناصر وكان عمره قارب عشرين سنة.

وفي سنة ٦٢٥هـ سنة ١٢٢٩م أرسل الملك الكامل صاحب مصر يطلب من بن أخيه الملك الناصر داود حصن الشوبك فلم يجب إلى طلبه فسار الملك الكامل من مصر ونزل على تل العجول بظاهر غزة وولى على نابلس والقدس وغيرهما من

بلاد ابن أخيه المذكور وكان مع الملك الكامل الملك المظفر صاحب حماه وقد وعده الكامل أن ينتزع حماه من أخيه الناصر ويسلّمها إليه. ولما علم الملك الناصر صاحب دمشق بقصد عمه الملك الكامل استنجد بعمه الملك الأشرف فقدم إلى دمشق ورأى الناصر يحتاط ويتجهّز للحصار فأمر بإزالة ذلك وحلف للناصر على المساعدة والحفظ له ولبلاده وراسل الملك الكامل واصطلحا. وظنّ صاحب دمشق أنّه معهما في الصلح ثمّ سار الملك الأشرف إلى أخيه الملك الكامل إلى غزة واتفقا في الباطن على أخذ دمشق من ابن أخيهما الناصر وتعويضه عنها بحران والرّها والرقة من بلاد الملك الأشرف وأن تستقرّ دمشق للملك الأشرف ويكون له إلى عقبة افيق، وما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للملك الكامل صاحب مصر. وبلغ الناصر ذلك وهو بنابلس فرحل إلى دمشق وسار الأشرف في أثره وحصره بدمشق، وبعد أن عقد الملك الكامل الهدنة مع أمبراطور ألمانيا سنة ٦٢٦هـ سنة ١٢٢٩م كما مرّ سار إلى دمشق لمعاونة أخيه الأشرف في حصارها واشتدّ الحصار فاستولى الملك الكامل على دمشق وعوض الناصر صاحبها بالكرك والبلقاء والأغوار والشوبك، وأخذ الملك الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت قد عينت للناصر وهي حران والرها وغيرها وتسلّم الأشرف دمشق وسلّم أخاه الملك الكامل البلاد الشرقية المذكورة.

ولما سلم الملك الكامل دمشق إلى أخيه الأشرف سار من دمشق إلى سلميّة ونازل حماه وبها الملك الناصر المذكور، وكان فيه جبن فخاف، وكان في العسكر الذي نازله شيركوه صاحب حمص فراسله الناصر أن يأتي إليه ليلاً ليحضره عند الملك الكامل وأتى ومضى به شيركوه إلى الكامل وهو بسلميّة، ولما رآه الكامل شتمه وأمر باعتقاله وبأن يأمر نوابه في حماه أن يسلموها إلى عسكر الكامل وأرسل علامته إلى نوّابه بذلك، فامتنع الطواشيان بشر ومرشد من تسليمها. وكان بقلعة حماه الملك المعز أخو الناصر فملكوه حماه وأرسلوا يقولون للملك الكامل لا تسلم حماه لغير واحد من أولاد تقي الدين، وكان من هؤلاء الملك المظفر وكان من جملة عسكر الكامل. فأرسل الكامل يقول له اتفق مع غلمان أبيك وتسلّم حماه. فاتّفق معهم ففتحوا له باب النصر فمضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الأكرم وهي الآن مدرسة تعرف بالخاتونية (قال أبو الفداء هذه المدرسة وقفتها عمتي مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر المذكور) وحضر أهل حماه وهنّأوا الملك المظفر بملك حماه وصعد في اليوم الثالث من دار الوزير إلى القلعة وتسلّمها، وفوض أمور تدبير

حماه إلى الأمير سيف الدين علي الهذباني الذي كان خادماً له قبل توليته على حماه، وكان يقول له أشتهي أن أراك صاحب حماه وأكون بعين واحدة فأصيبت عينه في الحرب على حماه مع عسكر الكامل فحظي عند الملك بتدبير أمور حماه. ولما استقرّ ملك المظفر بحماه انتزع الكامل منه سلمية وسلّمها إلى شيركوه صاحب حمص، وأمره أن يعطي أخاه الملك الناصر بعرين فامتثل ولم يبق بيد الملك المظفر إلّا حماه والمعرة. ثمّ رحل الملك الكامل عن سلميّة إلى البلاد الشرقية التي أخذها من أخيه الأشرف عوضاً عن دمشق، فنظر في مصالحها ثمّ لحقه الملك المظفر فزوجه الكامل بنته غازيه خاتون وهي بنت خاله لأنّ المظفر ابن أخت الكامل، ثمّ عاد المظفر إلى حماه وعاد الملك الكامل بعد أن دبر البلاد المشرقية إلى مصر.

وفي سنة ٦٢٧هـ سنة ١٢٣٠م استولى الملك الأشرف صاحب دمشق على بعلبك فانه أرسل أخاه الملك الصالح صاحب بصرى فنازلها وبها صاحبها الملك الأمجد بهرام من الأيوبيين أيضاً، وطال الحصار إلى أن سلّم الملك الأمجد بعلبك إلى الملك الأشرف وعوّضه عنها الزبداني وقصير دمشق الذي شماليها ومواضع أخرى، وتوجه الملك الأمجد وأقام بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السفارة التي ينزلها النواب. وكان الأشرف قد حبس بعض مماليكه في داره وجلس قدّام المحبس يلعب بالنّرد ففتح المملوك الباب وأخذ سيفاً ضرب به مولاه فقتله. ثمّ طلع على سطح الدار وألقى نفسه إلى وسطها فمات ودفن الملك الأمجد بمدرسة والده التي على الشُرف وكانت مدّة ملك الأمجد بعلبك تسعاً وأربعين سنة لأنّ السلطان صلاح الدين ملّكه إيّاها سنة ٥٧٨هـ وكان الأمجد أشعر بني أيوب وشعره مشهور.

وفي سنة ٦٢٩هـ سنة ١٢٣٢م سار الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف الذي كان عنده بمصر فوصلا إلى الشوبك فاحتفل لهما الملك الناصر داود ابن أخيهما الملك المعظّم بالضيافات والتقادم، وحصل بينهم الإتّحاد التام وسافر الناصر معهما إلى دمشق ثمّ سار الملك الكامل من دمشق إلى سلميّة واجتمع معه ملوك أهل بيته في جمع عظيم، ثمّ سار معهم إلى آمد فحاصرها وتسلّمها من صاحبها المسعود ابن الملك الصالح محمود بن محمّد بن قره إرسلان الذي ملّكه صلاح الدين آمد وأعطى الكامل الملك المسعود إقطاعاً جليلاً في مصر ثمّ بدت منه أمور منكرة فاعتقله الملك الكامل وبقي معتقلاً إلى أن مات الملك الكامل ورتب الكامل أمور آمد وعاد إلى مصر.

وفي سنة ٦٣٠هـ سنة ١٢٢٣م استولى الملك العزيز صاحب حلب على شيزر وكانت بيد شهاب الدين يوسف من ولد عثمان بن الداية من أمراء نور الدين بن زنكي، وكان صلاح الدين قد أقرّ عثمان بن الداية على شيزر فأخذها هذه السنة الملك العزيز بأمر الملك الكامل من شهاب الدين المذكور وعاونه على ذلك الملك المظفر صاحب حماه ثمّ أخذ الملك المظفر صاحب حماه بعرين من أخيه قليج إرسلان لأنّه خشي أن يسلّمها إلى الفرنج لضعفه وجرى ذلك باذن الملك الكامل.

وفي سنة ٦٣٤هـ سنة ١٢٢٧م توفي الملك العزيز صاحب حلب ابن الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين وتقرّر في الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف عمره سبع سنين، والمرجع في أمور المملكة إلى جدته والدة الملك العزيز واسمها ضيفة خاتون بنت الملك العادل. وفي هذه السنة قويت الوحشة بين الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف صاحب دمشق وسبب ذلك أنّ الملك الكامل قصد بلاد الروم فاتفق الملك الأشرف مع شيركوه صاحب حمص ومع صاحبة حلب ضيفة خاتون (أخت الملك الكامل) ومع باقي الملوك على مخالفة الملك الكامل خلا الملك المظفر صاحب حماه فانّه تمنّع عن الاتفاق معهم فتهدده الملك الأشرف بانتزاع بلاده منه فقدم خوفاً من ذلك إلى دمشق، ووافق الأشرف على قتال الملك الكامل. وكاتب الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم واتّفق معه على قتال أخيه الكامل إذا خرج إليه وأرسل الأشرف يقول للناصر داود صاحب الكرك ان وافقتني جعلتك ولي عهدي وأوصيت لك بدمشق وزوجتك بابنتي، فلم يوافقه لسوء حظه ورحل إلى مصر وصار مع الكامل على ملوك الشام، فسرّ الكامل به وجدد عقده على ابنته عاشور التي قد طلقها منه واركب الناصر بسناجق السلطنة ووعده أنّه ينتزع دمشق من الأشرف ويعطيه إياها. ولكن في سنة ٦٣٥هـ سنة ١٢٣٨م توفي الملك الأشرف وتمالك دمشق أخوه الصالح اسماعيل صاحب بصرى بعهد من الأشرف، وكانت مدة ملك الأشرف بدمشق ثمان سنين وشهوراً ولم يكن له من الأولاد إلّا بنت واحدة. ولما استقرّ الملك الصالح اسماعيل في دمشق كتب إلى الملوك من أهله وإلى كيخسرو وصاحب بلاد الروم في اتفاقهم معه على أخيه الملك الكامل فوافقوه على ذلك إلّا الملك المظفر صاحب حماه، فانّه كتب إلى الكامل يعتذر عن انقياده أولاً للأشرف خوفاً منه فقبل الملك الكامل عذره ووعده بانتزاع سلميّة من صاحب حمص وتسليمها إليه.

ولمّا علم الكامل بوفاة أخيه الأشرف سار إلى دمشق ومعه الناصر صاحب الكرك واستعدّ الملك الصالح اسماعيل للحصار ووصل إليه صاحب حمص ونجدة الحلبيين ونازل الكامل دمشق وأخرج الصالح النفاطين فأحرق العقيبة جميعها وما بها من خانات وأسواق. وفي مدة الحصار جاء نحو خمسين رجلاً من حمص نجدة للصالح فظفر بهم الكامل فشنقهم بين البساتين. وعند الحصار أرسل الكامل توقيعاً للملك المظفر صاحب حماه ليستلم سلميّة فتسلّمها وأخيراً سلم الملك الصالح دمشق إلى أخيهِ الملك الكامل وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافاً إلى بصرى التي كانت له. وكان الكامل شديد الحنق على شيركوه صاحب حمص فأرسل إليه العسكر وأمر صاحب حماه بالمسير إليه فاشتدّ خوف شيركوه وخضع للملك الكامل وأرسل إليه نساءه ودخلنَ على الملك الكامل فلم يلتفت إلى ذلك. وبعد أيام مرض الكامل واشتدّ مرضه وسببه انّه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكامٌ فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى معدته وتورّمت منها وحصل له حمّى فمات سنة ٦٣٥هـ سنة ١٢٣٨م وكانت مدّة ملكه لمصر من حين مات أبوه العادل عشرين سنة وكان نائباً بها قبل ذلك نحو عشرين سنة وكان عمره حين وفاته نحو ستين سنة وكان بين موته وموت أخيه الأشرف نحو ستة أشهر.

واتّفق الأمراء على تحليف العسكر للملك العادل ابن الملك الكامل وهو حينئذٍ نائب أبيه بمصر فحلفوا له وأقاموا في دمشق نائباً له الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، ورجع الملك الناصر إلى الكرك وسار أكثر العسكر إلى مصر وتأخّر بعضهم مع الجواد بدمشق، وفرح شيركوه صاحب حمص بوفاة الملك الكامل وأتاه فرج ما كان ينتظره وحزن الملك المظفر صاحب حماه وأرسل صاحب حمص فارتجع سلميّة وقطع القناة الواصلة من سلميّة إلى حماه فيبست بساتينها ثمّ سدّ مخرج العاصي من بحيرة قادس فبطلت نواعير حماه والطواحين وذهب الماء في أودية بجوانب البحيرة، ولما لم يجد مسلكاً عاد فهدم ما عمله صاحب حمص وجرى كما كان أولاً. وكذلك أمن صاحب حلب وعسكره بموت الكامل. انتهى ملخصاً عن أبي الفداء وابن الأثير.

عد ٨٦٦

اخبار الفرنج بسورية بعد عود عاهل الألمان إلى المغرب

إنّ فريدريك الثاني عاهل الألمان برح سورية في ٢٩ أيار سنة ١٢٢٩م ولم يُقِم من يدافع عن الفرنج بها، ولم يحفل بتحصين أورشليم فسار بطريرك أنطاكية وبطريرك أورشليم إلى الغرب يستصرخان الحبر الروماني وأمراء أوروبا، فعقد البابا غريغوريوس التاسع مجمعاً في سبولاتو (بإيطاليا) سنة ١٢٣٤م شهده فريدريك الثاني (وكان البابا قد صالحه) والبطريركان المذكوران وبطريرك قسطنطينية اللاتيني، وقرروا أنّه لا لزوم لرعاية الهدنة التي عقدت مع الكامل صاحب مصر بل يلزم امداد نصارى الشرق لأنّ المسلمين دخلوا أورشليم بعد الهدنة. وأرسل البابا رسائل إلى الخليفة ببغداد وإلى صاحب دمشق وغيرهما من أمراء المسلمين، وأوفد دعاةً في أوروبا يحضون الناس على السلم وترك الخصومات المتفاقمة حينئذٍ في الغرب، وأنفذ رسائل إلى الأساقفة ليغروا الناس بنجدة الفرنج بسورية فأخذ يهيبو كونت شمبانيا وملك نافارا راية الصليب ودعا الناس إلى إتباعه، فاقتدى به دوك بوركوتيا وكونت بريطانيا وكونت باد وكثيرون من أعيان فرنسا وعزموا على السير إلى فلسطين، واجتمعوا سنة ١٢٣٦م بمدينة طور ليقرروا ما ييسر نجاح حملتهم. وكانت حينئذٍ مملكة اللاتين في القسطنطينية شاغرة ليس من يحميها ويضبطها وهي على حافة الهلاك وتستدعي النجدة، فحار المجتمعون بين أن ينجدوا الفرنج بسورية أو مملكة قسطنطينية واستشاروا البابا غريغوريوس فأجابهم أنّ توطيد أركان مملكة قسطنطينية ييسر لهم خطتهم بسورية، وكان عاهل الألمان قد عاد إلى إلقاء الفتنة بأوروبا بادعائه السيادة على سردينيا وبحملته على رومة أيضاً فعمّ القلق أوروبا، واجتمع رؤساء الصليبيين في ليون سنة ١٢٣٩م عازمين على السفر إلى سورية، فأرسل البابا سفيراً يبين لهم أنّه يريد أن يعودوا إلى مواضعهم لأنّه ليس من السداد أن يسافروا وهذه حالهم وهذا شأن أوروبا، فأجابوا أنّ عودهم لا يستطاع. وكتب إليهم فريدريك الثاني أن يؤجلوا سفرهم إلى السنة القادمة فيسير في مقدّمتهم فاعتقدوا ذلك خدعة وساروا إلى مرسيليا ثمّ منها إلى عكا سنة ١٢٣٩، ولكن لم يجدوا سفناً لنقل كل عسكرهم لأنّ أهل جنوا كانوا يدافعون مع البابا وأهل بيزا مع العاهل، فلم يتخلّ الفريقان عن سفنهما وأهل البندقية كانوا يدافعون عن ملك قسطنطينية. ولما بلغ

الصليبيون إلى عكا كان الملك الكامل قد توفي وأمراء أسرته يتنازعون ارثه ولم يعلم الفرنج أنّ ينتفعوا بهذا النزاع إذ لم يكن بينهم من يجمع كلمتهم ويوحد عملهم وأقاموا كونت شمبانيا رئيساً عليهم، فلم يعلم أن يجمعهم على طاعته وسار نحو عسقلان قاصداً أن يجدد أسوارها، فسار دوك بريطانيا بفرسانه نحو دمشق ومعه قطعان من جمال وبقر وخيل وحمير غنمها من المسلمين، وأراد كونت باد ودوك بركونيا أن يقتديا به فسارا نحو غزة ولما علم قصدهما سألهما أعيان الفرنج أن لا ينفصلا عن عسكرهم وأمرهما كونت شمبانيا الذي كانوا قد أمّروه عليهم أن لا يغادرا المعسكر فلم يسمعا له بل قالا أتينا سورية لنحارب لا لنلازم البطالة، وسارا في من تبعهما من العسكر. ولما توغلوا في البلاد وعلم أمير غزة بدنوهم أوقد ليلاً النار على الاكام إشارة إلى وقوع ما يكره فتألب المسلمون من كل فج وقصدوا الفرنج فتقدّم كونت باد في كتيبة من فرسانه ليستطلع عدد الأعداء وحالهم فرآهم يزيدون أضعافاً على عدد الفرنج وهم يتحفزون للقتال، فتشاور رؤساء الفرنج وكان رأي كونت يافا ودوك بوركانيا أن ينسحبوا دون قتال، وارتأى كونت باد وكونت مونتا فراتا أن يقاتلوا وأصرّوا على عزمهم، واشتبك القتال فزحزح الفرنج أولاً المسلمين عن مراكزهم ولكن نفد ما معهم من السهام وطمع المسلمون بهم وأظهروا الانكسار أمامهم إلى محل أطبقوا به عليهم من كل جهة، فثبت بعض رؤسائهم في القتال وأبدوا آيات البسالة وتسارع من بعسقلان من الفرنج لنجدتهم، فوجدوا الأعداء يغللون الأسرى وينتزعون ثياب القتلى ويغنمون بما معهم، ولم يروا من الصواب الوثوب إلى الأعداء أو لحاقهم. وكان من جملة الأسرى كونت باد وكونت مونتا فراتا وغيرهما من الأعيان، وعاد من بقي من العسكر إلى عكا ثمّ سار بعضهم إلى صور وصيدا وطرابلس، ولما أيقن الفرنج عجزهم عن الانتصار راسل فرسان الهيكل وبعض رؤساء الفرنج ملك دمشق واتفقوا معه على هدنة، وعلى رد المواضع المقدّسة، وأرسل الاسبيتاليون وكونت شمبانيا ودوك بريطانيا إلى سلطان مصر وعقدوا معاهدة على أن يعاونوه على مخالفيه في سورية. وقد ذكر ذلك المؤرخون العرب أيضاً آسفين من اتفاق أمرائهم مع الفرنج كما سترى.

وعاد كثيرون من رجال هذه الحملة إلى المغرب وأتى منهم إلى عكا جمع من انكلترا بامرة ريشار دي كورتويل أخي أنريكوس الثالث ملكها، وكان ريشار أغنى الأمراء في أوروبا ولمّا أقبل على عكا خرج للقائه الشعب والاكليرس مرددين بأعلى

أصواتهم قول الانجيل: «مبارك الآتي باسم الرب». وكان ريشار هذا ابن أخي ريشار الملقّب بقلب الأسد المشهور في الشرق ولم يكن انقص منه شجاعة، ولكن بعد أن زحف إلى الأعداء وحاز بعض الظفر غادره الفرسان الأسبيتاليون تمسكا بالهدنة التي عقدوها مع سلطان مصر، وتقاعد عنه الهيكليون حرمة للهدنة التي عقدوها مع ملك دمشق، فلما رأى الفرنج لا يطاوعونه ترك الحرب مكرهاً واقتصر على تجديد معاهدة الصلح مع الأمراء المسلمين ولم ينل من ثمار غزوته إلّا مبادلة المسلمين بتخلية سبيل الأسرى والاذن بدفن عظام القتلى من النصارى في وقعة غزة، ثمّ زار أورشليم التي كانت قد سلمت إلى الفرنج ثانية. وفي رواية أنّ ريشار اشترط في معاهدة الصلح مع سلطان مصر خروج المسلمين من أورشليم، ثمّ سافر ريشار إلى إيطاليا فوجد البابا ما زال منشغلاً بالحرب مع أعداء حكومة رومة. وقد ضمّ المؤرخون الفرنج الأحداث التي ذكرناها في هذا الفصل إلى إعمال الحملة السادسة التي قام بها فريدريك الثاني عاهل الألمان. انتهى ملخصاً عن كثيرين.

عد ٨٦٧

ما كان من الأحداث بين الملوك الأيوبيين بعد وفاة الملك الكامل

لما بلغ الحلبيين موتُ الملك الكامل اتفقت آراؤهم على أخذ المعرة ثمّ أخذ حماه من الملك المظفر صاحب حماه لموافقته الكامل على قصده، وسار عسكرهم إلى المعرة فانتزعها من يد المظفر وحاصر قلعتها، فأخذها أيضاً ثمّ ساروا وفي مقدّمتهم المعظم توران شاه ابن صلاح الدين إلى حماة ونازلوها، وبها الملك المظفر واستمرّ الحصار حتى انتهت هذه السنة وهي سنة ٦٣٥هـ سنة ١٢٣٨م. ففي السنة التالية ضجرت نفوسهم من هذا الحصار ولم يجدوا بحماه مطمعاً فأمرت ضيفة خاتون صاحبة حلب بنت الملك العادل بالرحيل عنها، فرحلوا بعد أن نهبوا بلاد حماه وأنفق الملك المظفر على هذا الحصار أموالاً كثيرة واستمرّت المعرة في يد الحلبيين وسلمية في يد صاحب حمص ولم يبقَ للمظفر إلّا حماه وبعرين، وخاف أن تخرج بعرين بسبب قلعتها فهدم هذه القلعة إلى الأرض.

قد مرّ أنّ الملك العادل ابن الملك الكامل خلف أباه بمصر وأقيم الملك الجواد نائباً له في دمشق، ففي سنة ٦٣٦هـ سنة ١٢٣٩م أراد الملك العادل أن ينتزع

مشق من يد الملك الجواد وان يعوضه عنها إقطاعاً بمصر، فلم يُرِدْ الجواد ذلك بل
لم دمشق إلى الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل الذي كان صاحب سنجار
الرقة وعانه، فاستولى الملك الصالح على دمشق وكان الملك المظفر صاحب حماه
عاضداً له. ولما استقرّ ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين
ستدعونه ليملك مصر. فخرج من دمشق وجعل نائبه فيها ولده الملك المغيث عمر
شرع يكاتب عمه الصالح اسمعيل صاحب بعلبك ويستدعيه إليه، وعمه المذكور
متذر له ويظهر أنّه معه وهو يعمل عليه في الباطن. وكان الملك الناصر صاحب
كرك قد سافر إلى مصر واتّفق مع الملك العادل على قتال أخيه الملك الصالح
صاحب دمشق. ودخلت سنة ٦٣٧هـ سنة ١٢٤٠م والملك الصالح أيوب بنابلس
اصداً الاستيلاء على مصر، وقد اكتشف أنّ عمه اسماعيل يضاده وكان له طبيب
ثق به يقال له الحكيم سعد الدين الدمشقي، فأرسله إلى بعلبك ليطالعه بأخبار عمه
معه قفص من حمام نابلس. وعلم اسماعيل بوصول الحكيم فاستحضره وأكرمه
سرق حمام نابلس وجعل موضعها حمام بعلبك ولم يشعر الطبيب بذلك، فصار
كتب إلى الصالح إنّ عمّك اسماعيل يجمع الرجال قاصداً دمشق فيقعد الطير
بعلبك فيأخذ اسماعيل البطاقة، ويكتب إنّ عمّك اسماعيل جمع الرجال ليعاضدك
هو واصل إليك ويسرحه على حمام نابلس فيعتمد الصالح على ذلك ويترك ما
رد له من غيره. واتّفق أن يعلم الملك المظفر صاحب حماه بسعي اسماعيل في
خذ دمشق فجهز نائبه سيف الدين ومعه ما يلزم من السلاح والمال ليحفظ دمشق
صاحبها الصالح، وأظهر أنّه اختصم مع نائبه وانّه فارقه لأنّه يريد أن يسلّم حماه
الافرنج. كل ذلك ليخفي قصده على شيركوه صاحب حمص لئلا يعارض النائب
لم تَخفَ هذه الحيلة على شيركوه بل التقى سيف الدين النائب المذكور على
حيرة حمص وأظهر أنّه مصدقه، وسأله الدخول إلى حمص ليضيفه فدخل سيف
لدين وبعض جماعته إلى حمص فدخل عليهم شيركوه وأخذ ما كان معهم من
لمال والسلاح واعتقلهم وعذّبهم، وسار شيركوه بمعية اسماعيل صاحب بعلبك في
عسكرهما إلى دمشق. وحاصروا قلعتها وتسلّموها وقبضوا على المغيث ابن الصالح
نائبه بدمشق. وبلغ ذلك الملك الصالح فسار من نابلس على الفور فعلم أنّ عمّه
سماعيل استولى على قلعة دمشق واعتقل ولده المغيث ففسدت نيات عساكره عليه
شرع الأمراء ومن معه من الملوك يدخلون إلى اسماعيل بدمشق، ولم يبقَ عنده إلّا

مماليكه وأستاذ داره حسام الدين ابن أبي علي، وأصبح لا يدري ما يفعل. وسمع الناصر داود صاحب الكرك بذلك فنزل بعسكره وأمسك الصالح أيوب واعتقله في الكرك، وأرسل أخوه العادل صاحب مصر يطلبه من صاحب الكرك فلم يسلمه، وتهدده العادل بأخذه عنوة فلم يلتفت الناصر إلى ذلك، ثمّ أفرج الملك الناصر عن ابن عمه الملك الصالح واجتمعت عليه مماليكه، وكاتبه البهاء زهير وسار الناصر والصالح إلى قبة الصخرة بالقدس وتحالفا على أن تكون ديار مصر للصالح ودمشق والبلاد الشرقية للناصر.

فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وبرز بعسكر مصر قاصداً الناصر والصالح، وأرسل إلى عمه الصالح اسماعيل المستولي على دمشق أن يقصدهما من جهة الشام فسار اسماعيل بعساكر دمشق ونزل الفوار، فبينا الناصر داود والصالح أيوب في هذه الشدّة وهما بين عسكرين قد أحاطا بهما إذ ركبت جماعة من المماليك الأشرفية ومقدّمهم إيبك الأسمر وأحاطوا بدهليز الملك العادل وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة وعليه من يحفظه، وأرسلوا إلى الصالح أيوب يستدعونه فأتاه فرج لم يسمع بمثله، فسار هو والناصر داود إلى مصر وكان كل يوم يلتقي الصالحَ أيوب فوجٌ بعد فوجٍ من الأمراء والعسكر فدخل مصر وزيّنت له البلاد وفرح الناس بقدومه وكانت مدّة ملك العادل سنتين، وحصل للملك المظفر صاحب حماه من السرور بملك الصالح أيوب ما لا يمكن شرحه فانه ما زال على ولائه حتى انّه لما أمسك بالكرك كان يخطب له بحماه وبلادها، ولما استقرّ الملك الصالح أيوب في ملك مصر وصحبته الناصر داود استشعر كل منهما من صاحبه وخاف الناصر القبض عليه فاسترخص وتوجه إلى بلاده الكرك.

وفي سنة ٦٣٨هـ سنة ١٢٤١م قبض الملك الصالح أيوب على أيبك الأسمر وعلى غيره من الأمراء والمماليك الذين قبضوا على أخيه العادل وأودعهم الحبوس وشرع في بناء قلعة الجزيرة بمصر واتخذها مسكناً لنفسه. وكثرت في هذه السنة وما بعدها اغارات الخوارزمية على سورية وسنفرد لذكرها الفصل التالي، وفيها كان هلاك الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل الذي كان قد تولى دمشق ثمّ عوض عنها بسنجار وعانه، فباع عانه للخليفة المستنصر وسار لؤلؤ صاحب الموصل وحاصر سنجار ويونس غائب واستولى عليها، فلم يبق بيد يونس شيء من البلاد فسار إلى غزة وأرسل إلى الملك الصالح أيوب صاحب مصر يسأله في المسير إليه

فلم يجبه إلى ذلك فسار يونس إلى عكا وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح اسمعيل صاحب دمشق حينئذٍ وبذل مالاً للافرنج وتسلّم يونس المذكور واعتقله ثمّ خنقه. وفيها أيضاً قوي خوف الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه صاحب مصر فسلم اسماعيل صفد والشّقيف إلى الفرنج ليعضدوه على ابن أخيه فعظم ذلك على المسلمين وعابوه به.

وفي سنة ٦٣٩هـ سنة ١٢٤٢م اتفق الصالح اسماعيل صاحب دمشق مع المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص (الذي كان أبوه قد توفي فخلفه هو) وضيفة خاتون صاحبة حلب على عداوة الملك الصالح أيوب صاحب مصر ولم يوافقهم الملك المظفر صاحب حماة وأخلص في الإنتماء إلى صاحب مصر. وفي سنة ٦٤٠هـ سنة ١٢٤٣م توفيت ضيفة خاتون بنت الملك العادل أخي صلاح الدين وكانت قد تزوجت بالملك الظاهر صاحب حلب، ولما توفي ابنها الملك العزيز كما مرّ ملكت حلب وتصرّفت بالملك تصرف السلاطين وقامت به أحسن قيام وكانت مدة ملكها ست سنين. ولما توفيت كان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز ثلاث عشرة سنة فملك حلب بعدها وكان مرجع الأمور إلى جمال الدين اقبال الأسود الخصي.

وفي سنة ٦٤١هـ سنة ١٢٤٤م كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر والصالح اسماعيل صاحب دمشق في الصلح على أن يطلق اسماعيل المغيث بن صاحب مصر وحسام الدبن بن أبي علي الهدباني وكانا معتقلين عنده فاطلق حسام الدين واستمرّ المغيث في الاعتقال. واتفق اسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك واعتضدا بالفرنج وسلما إليهم عسقلان وطبرية، فعمّر الفرنج قلعتيهما وسلّما إليهم أيضاً القدس بما فيها من المزارات. قال القاضي جمال الدين بن واصل مررت إذ ذاك بالقدس متوجهاً إلى مصر ورأيت القسوس وقد جعلوا على الصخرة قناني الخمر للقربان. وفي سنة ٦٤٢هـ سنة ١٢٤٥م استدعى الملك الصالح صاحب مصر الخوارزمية ووصلوا إلى غزة ووافتهم العساكر المصرية مع ركن الدين بيبرس مملوك الصالح صاحب مصر الذي دخل معه الحبس لما حبس في الكرك، وأرسل اسماعيل صاحب دمشق العساكر مع الملك المنصور وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وسار هذا إلى عكا فاستدعى الفرنج على ما كان وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر، فخرج الفرنج بالفارس والراجل واجتمعوا بصاحب حمص وعسكر

دمشق والكرك والتقى الفريقان بظاهر غزة وتواقعا فانهزم عسكر دمشق والفرنج وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقاً عظيماً، واستولى صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس ووصلت الأسرى والرؤوس إلى مصر ودقت بها البشائر عدة أيام، وسار عسكر مصر والخوارزمية إلى دمشق وحاصروها فتسلّموها سنة ٦٤٣هـ سنة ١٢٤٦م على أن يستقر بيد اسماعيل صاحبها بعلبك وبصرى والسواد ويستقرّ بيد صاحب حمص حمص وما هو مضاف إليها ثمّ خرج الخوارزمية عن طاعة صاحب مصر لأنّهم كانوا يأملون أن يحصل لهم من البلاد ما يرضيهم فلم يعطوا شيئاً فانقلبوا إلى معاضدة اسماعيل الذي أخذ بعلبك وانضمّ إليهم صاحب الكرك وعادوا فحاصروا دمشق وغلت الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة.

وفي سنة ٦٤٣هـ سنة ١٢٤٦م اتفق الحلبيون والملك المنصور صاحب حمص مع الملك الصالح صاحب مصر وقصدوا الخوارزمية وهم محاصرون دمشق، فرحل الخوارزمية عن دمشق وساروا إلى الحلبيين فالتقى الجيشان سنة ٦٤٤هـ سنة ١٢٤٧م في محل يقال له القصب، فانهزم الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان وحمل رأسه إلى حلب. ولما وصل خبر كسرتهم إلى الملك الصالح صاحب مصر فرح فرحاً عظيماً وزال ما كان عنده من الغيظ على ابراهيم صاحب حمص وحصل بينهما التصافي، وأمّا الصالح اسمعيل فسار إلى الناصر يوسف صاحب حلب واستجار به، وأرسل صاحب مصر يطلبه فلم يسلمه الملك الناصر إليه، ورحل حينئذٍ حسام الدين بن أبي علي الهذباني بمن عنده من العسكر بدمشق ونازل بعلبك وبها أولاد اسماعيل المذكور وتسلّمها بالأمان، وحمل أولاد اسماعيل إلى صاحب مصر فاعتقلهم هناك وكذلك فعل بأمين الدولة وزير اسمعيل، وناصر الدين يغمور أستاذ داره، ودقت البشائر لفتح بعلبك ومات وقتئذٍ سيف الدين بن قليج صاحب عجلون فتسلّمها الملك الصالح أيوب وأرسل عسكراً إلى حرب الملك الناصر داود صاحب الكرك، فاستولى على بلاده وخرّب ضياعها وحاصر الكرك ولم يستولِ عليها صاحب مصر إلّا في سنة ٦٤٧هـ سنة ١٢٥٠م، إذ سار الناصر صاحبها إلى الناصر صاحب حلب مستجيراً به، واستناب بالكرك ابنه عيسى وكان له أخوان أكبر منه الأمجد والظاهر، فساءهما تقديم أخيهما الأصغر عليهما فتوجه الأمجد إلى صاحب مصر وبذل له تسليم الكرك على اقطاع له ولأخيه بديار مصر فأعطاهما إقطاعاً ارضاهما وتسلّم الكرك وفرح بها.

وقد توفي الملك المظفر صاحب حماه سنة ٦٤٢هـ سنة ١٢٤٥م وكانت مدّة ملكه في حماه خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعمره ثلاثاً وأربعين سنة، وخلفه ابنه الملك المنصور محمّد. وفي سنة ٦٤٣هـ سنة ١٢٤٦م تسلّم سلميّة التي كانت قد أخذت من أبيه وسلّمت إلى صاحب حمص. وفي سنة ٦٤٤هـ سنة ١٢٤٧م توفي الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص بن شيركوه بدمشق ونقل إلى حمص فدفن فيها وخلفه ولده الملك الأشرف موسى.

وفي سنة ٦٤٥هـ سنة ١٢٤٨م استردّ صاحب مصر عسقلان وطبرية من يد الفرنج بعد محاصرتهما مدّة وكان قد جرى تسليمها إلى الفرنج سنة ١٢٤٤م فعمروها وحصّنوها إلى أن أخذهما صاحب مصر منهم سنة ١٢٤٨م. وفي سنة ٦٤٦هـ سنة ١٢٤٩م أرسل الملك الناصر صاحب حلب عسكراً مع شمس الدين لؤلؤ الأرمني فحاصروا الملك الأشرف موسى بحمص مدّة شهرين فسلّم إليهم حمص وتعوّض عنها بتل باشر مضافاً إلى ما في يده من تدمر والرجة، ولما بلغ ذلك الصالح صاحب مصر شقّ عليه وسار إلى الشام لارجاع حمص من الحلبيين. وكان قد حصل له مرض ووصل إلى دمشق فأرسل عسكراً إلى حمص وحصروها ونصبوا منجنيقاً مغربياً يرمي بحجر زنته ١٤٠ رطلاً بالشامي واستمرّ عليها الحصار إلى أن وصل الخبر إلى الملك الصالح بدمشق بوصول الفرنج إلى جهة دمياط، وكان مرضه قد اشتدّ ووصل رسول من قبل الخليفة وسعى بالصلح بين الملك الصالح والحلبيين وان تستقرّ حمص بيد الحلبيين، فأجاب صاحب مصر إلى ذلك وأمر عسكره فرحلوا عن حلب وهو عاد إلى مصر في محفة لقوة مرضه. انتهى ملخصاً عن أبي الفداء.

عد ٨٦٨

غزوات الخوارزمية في سورية

إنّ الخوارزمية ينتسبون إلى خوارزم في البلاد المشرقية وأصلهم من التتر وكان ملوكهم يسمون خوارزم شاه أي ملك خوارزم ولما خرج التتر في هذا القرن سطوا على خوارزم ونكّلوا بأهلها وأخرجوهم من بلادهم فأتوا العراق ثمّ توطّنوا الجزيرة في حران وما جاورها. ففي سنة ٦٣٥هـ سنة ١٢٣٨م خرج الخوارزمية عن طاعة الملك الصالح أيوب صاحب سنجار ونهبوا البلاد، فاسترضاهم وبذل لهم حران

والرها فعادوا إلى طاعته، وفي سنة ٦٣٨هـ سنة ١٢٤١م كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة صاحب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب فخرج عليهم عسكر حلب مع الملك المعظّم تورنشاه بن صلاح الدين ووقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الأفضل واسر مقدم الجيش الملك المعظم المذكور واستولى الخوارزميون على أثقال الحلبيين وأسروا منهم عدة كثيرة، ونزلوا بعد ذلك على جيلان وكثر عبثهم ونهبهم في بلاد حلب وجفل أهل الحواضر والبلاد ودخلوا مدينة حلب واستعد أهلها للقتال وارتكب الخوارزمية من الفواحش ما ارتكبه التتر، ثمّ ساروا إلى منبج وهاجموها بالسيف وفعلوا من القتل والنهب مثلما فعلوا بغيرها، ثمّ رجعوا إلى حران ثمّ عادوا من حران وقطعوا الفرات من الرقة، ووصلوا إلى الجبول ثمّ إلى تل اعزاز ثمّ إلى سرمين ثمّ إلى المعرّة وهم ينهبون ما يجدون. ووصل الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص ومعه عسكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحلبيين، فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص وقصدوا الخوارزمية، وقد كانوا على شيزر فنزل عسكر حلب على تل السلطان ورحل الخوارزمية إلى جهة حماه ولم يتعرّضوا لنهبها لانتماء صاحبها الملك المظفر إلى صاحب مصر، ثمّ ساروا إلى سلميّة إلى الرصافة طالبين الرقة ولحقهم عسكر حلب وهجم عليهم العرب فأرموا ما كان معهم من المكاسب وسيبوا الأسرى ووصلوا إلى الفرات ووقع القتال هناك بينهم وبين عسكر حلب وصاحب حمص إلى الليل، فقطع الخوارزمية الفرات وساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة وقطعوا الفرات والتقوا مع الخوارزمية قريب الرها فانهزم الخوارزمية وركب الحلبيون أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن حال الليل بينهم.

ثمّ سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها وهرب الخوارزمية إلى بلد عانه وبادر بدر الدين صاحب الموصل فاستولى على نصيبين ودارا وكانتا للخوارزميين، وخلص من كان بهما من الأسرى منهم الملك المعظم توران شاه ابن صلاح الدين وقدّم له صاحب الموصل ثياباً وتحفاً وبعث به إلى عسكر حلب، واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج ورأس عين وغيرها، واستولى صاحب حمص على بلد الخابور. ثمّ سار عسكر حلب وقد وصلت إليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم ابن الملك صاحب مصر بآمد وتسلّموها منه وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم وبقي ذلك بيده حتى توفي أبوه في مصر.

وفي سنة ٦٤٠هـ سنة ١٢٤٣م كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين وبين عسكر حلب ومعهم صاحب حمص مصاف قريب الخابور، فولى المظفر والخوارزمية منهزمين أقبح هزيمة، ونهب عسكر حلب شيئاً كثيراً حتى نساءهم، ونزل صاحب حمص في خيمة الملك المظفر واحتوى على خزانته ووطاقه وعادوا إلى حلب. وفي سنة ٦٤٢هـ سنة ١٢٤٥م أتى الخوارزمية إلى غزة دعاهم صاحب مصر فانتصروا مع عسكره على عسكر دمشق والفرنج كما قدمنا في الفصل السابق، ثمّ خرجوا عن طاعته وحاصروا دمشق مع الملك الصالح اسماعيل فردّهم عنها الحلبيون وصاحب حمص سنة ٦٤٣هـ سنة ١٢٤٦م، ثمّ نازلوهم سنة ٦٤٤هـ سنة ١٢٤٧م، فشتتوا شملهم وقتلوا رئيسهم كما مرّ في الفصل السابق. هذا ما ذكره أبو الفداء.

وإليك ما رواه المؤرخون الفرنج ولاسيّما متى باري (وهو مؤرخ انكليزي من رهبنة القديس عبد الأحد كان في هذا القرن) أنّ ملوك دمشق وحلب وحمص والكرك وافقوا أو هادنوا الفرنج في فلسطين على سلطان مصر فاستدعى هذا لنجدة الخوارزمية الذين كان التتر قد أخرجوهم عن بلادهم فأتوا فلسطين. وقد علمنا ما كان منهم من رسالة رفعها روبرتس بطريرك أورشليم وانريكس مطران الناصرة وغيرهما من رؤساء الفرنج بفلسطين إلى أساقفة فرنسة وانكلترا مؤرخة في ٢٣ تشرين الآخر سنة ١٢٤٤م هذه خلاصتها: «إنّ التتر أخربوا بلاد فارس وطردوا الخوارزميين من بلادهم فلم يبق لهم مقر، ثمّ استدعاهم سلطان مصر ليقيموا في فلسطين واعداً لهم بمساعدته، فأتوا بنسائهم وعيالهم بغتة فلم يكن لنا وقت لصدّهم، ودخلوا إلى عمل أورشليم من جهة صفد وطبرية واتّفق رأي الفرسان وأعيان البلاد على أن نستنجد ملكي دمشق وحمص حليفينا، ومن جملة أعداء الخوارزمية. ولما أبطأ مدد هؤلاء ولم تكن أسوار لأورشليم رأى سكانها أنّ لا قدرة لهم على الدفاع عنها فزايلوها وعددهم نحو ستة آلاف وساروا في الجبال معتمدين على الهدنة التي كانت بينهم وبين صاحب الكرك، فوثب بعض المسلمين عليهم فقتلوا بعضاً وأسروا بعضاً وهرب الباقون إلى صحراء الرملة، فهجم عليهم الخوارزمية وقتلوهم ولم يبقَ منهم إلّا ثلاث مئة نفس. ثمّ دخل الخوارزميون أورشليم وهرع من بقي منها إلى كنيسة القبر المقدّس فدخل الخوارزمية إليهم وقتلوهم وقطعوا رؤوس الكهنة الذين كانوا يقدّسون وخرّبوا القبر وأزالوا الرخام الذي كان بالكنيسة، وهدموا مدافن الفرنج ودنّسوا جبل

صهيون وكنيسة وادي يوشافاط حيث مدفن العذراء، ثمّ ساروا إلى بيت لحم وفعلوا الفظائع في كنيستها وفي مغارة المولد فعيل صبرنا على تحمّل هذه المصائب وجزمنا على محاربة الخوارزمية مع ملكي دمشق وحمص، وزحف عسكرنا من عكا بطريق قيصرية وكان الخوارزمية مجتمعين في جازر منتظرين عسكر سلطان مصر، ولما وصل اشتبك القتال يوم الاثنين ١٧ تشرين الأوّل فانكسر المسلمون الذين كانوا معنا وانهزموا وبقي النصارى صابرين على القتال ولمّا كان عددهم قليلاً ذعروا وقتل منهم كثيرون حتى لم يبق من الهيكليين إلّا ثلاثة وثلاثون فارساً، ومن الاسبيتاليين خمسة وعشرون فارساً، ومن فرسان القديس يوحنا ثلاثة.

وقد سألنا بعد هذه المصيبة ملك قبرص وأمير أنطاكية أن ينجدانا بعسكر للذب عن الأرض المقدّسة ولا نعلم ما يصنعان، أجل أنّ مصيبتنا الماضية عظيمة لكننا نخشى أعظم منها فيما بعد، لأنّ بلاد النصارى لا معين لها من الناس والأعداء مجتمعون على ميلين من عكا، ويبعثون سراياهم في كل البلاد حتى الناصرة وصفد ويجبون من الأهلين الخراج الذي كان النصارى يأخذونه، فان كل هؤلاء الأهلين انقلبوا علينا وصاروا مع الخوارزمية فلم يبقَ للنصارى إلّا بعض القلاع ويتعذّر عليهم الدفاع عنها. واختتموا هذه الرسالة بقولهم إنّ الفرنج خسروا الأرض المقدّسة إن لم ينجدوا من الآن إلى شهر آذار القادم». انتهى تلخيص الرسالة التي أثبتها أيضاً راينلدوس في تاريخ سنة ١٢٤٤م.

وكان في جملة من أسرهم الخوارزميون كوتيا دي بريان كونت يافا ابن أخي يوحنا دي بريان ملك أورشليم، ومن بعد هذه الحرب الهائلة استولى المصريون على أورشليم وطبرية وغيرهما من المدن التي تخلى عنها ملك دمشق للافرنج، وسار الخوارزمية فحاصروا يافا وأخذوا معهم كوتيا أسيراً آملين أن يأمر أن تفتح لهم أبواب مدينة تخصّه، فعلقوه على صليب تجاه الأسوار وهددوه بالقتل إن صنع أهل مدينته أقل حركة للمدافعة عنها، أمّا هو فأخذ يصرخ بأعلى صوته على قومه دافعوا إلى النفس الأخير فهذا هو المفروض عليّ وعليكم أن أموت حباً بكم وبالمخلّص: فلم يقوَ الخوارزميون على فتح المدينة وأرسلوا كوتيا إلى القاهرة فوثب عليه حشد سكارى يخنقه فأماتوه بالضرب ولم يكن منجد للافرنج ومنج لفلسطين من شرّ الخوارزمية إلّا تقلّبهم وعدم ثبوتهم، فان سلطان مصر أرسل إليهم خلعاً وهدايا نفيسة ورغب إليهم أن يمضوا إلى دمشق ويحاصروها فساروا إليها وافتتحوها:

وكان قد وعدهم بأن يملكهم فلسطين. فبعد انتصارهم على دمشق خاف مجاورتهم وأخلف وعده لهم فانقلبوا عليه وحاصروا دمشق ثانيةً ليأخذوها من سلطان مصر وطال الحصار وغلت الأقوات في المدينة، وأرسل سلطان مصر سنة ١٢٤٧م نجدة لدمشق واتّفق مع صاحبي حلب وحمص وغيرهما فظفروا على الخوارزمية في موقعتين كما روينا نقلاً عن المؤرخين العرب فتشتت الخوارزمية وذهبت سطوتهم وصولتهم. انتهى ملخّصاً عن كثيرين من مؤرخي الفرنج.

عد ٨٦٩

حملة الفرنج السابعة على سورية بامرة الملك لويس التاسع

قد بلغ إلى الغرب ما صنعه الخوارزمية بأورشليم واستيلاء سلطان مصر عليها بعد أن تخلى عنها للافرنج صاحب دمشق، وكان التتر يهددون أوروبا أيضاً باجتياحهم لها وكانوا قد دخلوا المجر وأذاقوا أهلها الأمرّين، وكانت مملكة اللاتين في قسطنطينية على حافة الانقراض وفريدريك الثاني عاهل ألمانيا قد عاد إلى السطو على الكرسي الرسولي، وكان أينوشنسيوس الرابع الحبر الروماني قد فرّ من رومة إلى ليون فعقد هناك مجمعاً عاماً سنة ١٢٤٥م، وشهده فالريان أسقف بيروت اللاتيني فأبان حالة اليأس التي كان عليها الفرنج في سورية أيضاً بودوين الثاني ملك القسطنطينية ومعه بطريركها اللاتيني، فاسهب في بيان الخطر الملم بمملكته من قبل الروم، ولم يجسر فريدريك الثاني أن يمضي بنفسه إلى المجمع فأرسل نواباً عنه قد تعهّدوا باصلاحه ما فرط منه ونجدته لنصارى سورية، فلم يثق الحبر الروماني بوعوده وقد أخلف مثلها مرات، بل قد حكم بحطه عن منصّة ملكه ووافقه المجمع على ذلك وفي جملة رسوم هذا المجمع استئناف الحملة لإمداد الفرنج في سورية والقسطنطينية، وأن يدفع الاكليريكيون واحداً من عشرين، والبابا والكرادلة العشر من دخلهم لنفقة الحرب في سورية ومصر، ومن كان لهم جعل دون نفقة لزمهم أن يدفعوا نصف هذا الجعل في نجدة ملك القسطنطينية. وكان لويس التاسع ملك فرنسة قد مرض مرضاً عضالاً فنذر أن يتجنّد للدفاع عن الأرض المقدّسة، وأخبر بنذره نصارى فلسطين، ولما بلغ دعاة البابا لهذه الحملة إلى باريس جمع الملك لويس القديس أعيان مملكته وكاشفهم بعزمه على السفر إلى الشرق ودعاهم إلى مشاركته فلبى دعوته كثيرون منهم اخوته

الثلاثة روبرتس كونت ارتو، والفونس كونت بواتو، وشارل كونت انجو، فأفرغت بلانش دي كاستيل والدة الملك ورئيس أساقفة باريس وكثيرون من وزرائه قصارى جهدهم في إثناء الملك عن عزمه على السفر فلم ينثنِ وأخذ يتجهّز لهذه الحملة وكان القلق مستحوزاً على أوروبا فلم يتجند من انكلترا إلّا بعض الأعيان مقدامهم غوليلمس دي سالسبوري. وكانت في ألمانيا حرب أهلية بسبب حط العاهل عن منصّة ملكه، وفي إيطاليا انقسامات داخلية فقلّ من تجنّد منهما. وفي سنة ١٢٤٨م جمع الملك عمّاله وأعيان مملكته مرة أخرى واستحلفهم على حفظ الأمانة لأولاده ان نزلت به مصيبة في غربته، وهمَّ باصلاح كل ظلم أوقعه عماله، واحتاط للوقاية من مثل ذلك وأبدى جوده على الكنائس والأديار وعهد بتدبير مهام المملكة إلى أمه بلانش دي كستيل، فقامت بما عهد إليها به أحسن قيام. وسافر الملك لويس من فرنسة في ٢٥ آب سنة ١٢٤٨ والملكة مرغيريتا معه، وكان أسطوله مؤلفاً من مئة وعشرين مركباً كبيراً ومن ألف وخمسمائة سفينة صغيرة وبلغ إلى قبرص في ٢١ أيلول من تلك السنة فاستقبله أنريكس لوسنيان ملك الجزيرة، باحتفاء في لمسون وسار به إلى نيقوسية قصبة الجزيرة وكان في عزمه أن يسافر للوقت إلى مصر، فألحّ عليه ملك الجزيرة أن يصرف فيها مدة الشتاء ففعل وأصلح في هذه المدة بين الاكليرس اللاتيني والاكليرس الرومي في قبرص، وبين الفرسان الهيكليين والاسبيتاليين، وبين أهل جنوا وأهل بيزا المقيمين بعكا. وسافر الملك في عسكره من قبرص في ٢١ أيار سنة ١٢٤٩م فردّه عاصف إلى المورة ولم يبلغوا ساحل مصر إلّا في ٤ حزيران، وكان صاحب مصر حصّن دمياط وأقام فيها جيشاً كبيراً مقدّمه الأمير فخر الدين، فحلّت جنود الملك لويس على أرض دمياط رغماً من مقاومة عسكر مصر، وقبل أن تدنو سفينة الملك لويس من البر قفز في البحر فغمره الماء إلى كتفه وخرج منه مستلاً سيفه متحفزاً للوثوب على الأعداء، فسأله ذووه أن ينتظر اكتمال صفوفه فجثا شاكراً لله لوصوله إلى مصر. ثمّ هبّ للقتال وكان للمصريين أسطول في مصب النيل فذعر وتشتت عسكر فخر الدين، وكان السلطان مريضاً مرضاً عضالاً فانقص في بسالة المسلمين، وسار فخر الدين إليه وهو في محل بين المنصورة ودمياط تاركاً دمياط وقد انهزم منها المسلمون والحامية الذين كانوا بها بعد أن قتلوا من كان بينهم من النصارى وألقوا النار في الدور، وقتل من الفرنج كونت مرش في جانب الملك وفارسان آخران، واستولى الفرنج على دمياط وأطفأوا النار من

الدور وغنموا ما بقي فيها وما كان بغيرها ودخل الملك المدينة حافياً مكشوف الرأس واقتدى به الاكليرس ورؤساء الجند، ورقى سفير البابا أحد الكهنة إلى أسقفية دمياط ووزع الملك البيوت والأرضين على الفرسان الذين كانوا يحاربون معه. هذا ما ذكره المؤرخون الفرنج.

وقال أبو الفداء في ذلك: «في هذه السنة (أي سنة ٦٤٧هـ سنة ١٢٤٩م) سار ريدافرنس وهو من أعظم ملوك الفرنج وريد بلغتهم هو الملك أي ملك فرنسا (يظهر أنّ أبا الفداء لم يكن يعلم الفرنسية فظنّ أنّ الملك يسمى ريد ولم يعلم أنّ الدال من آخر الكلمات ليست منها بل هي حرف دال على الإضافة إلى ما بعدها). وفرنس أمّة عظيمة من أمم الفرنج وكان جمع ريد فرنس نحو خمسين ألف مقاتل وشتى في جزيرة قبرص ثمّ ساروا ووصل في هذه السنة إلى دمياط، وكان الملك الصالح قد شحنها بآلات عظيمة وذخائر وافرة وجعل فيها بني كنانة وهم مشهورون بالشجاعة، وأرسل فخر الدين ابن الشيخ بجماعة كثيرة ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط. ولما وصل الفرنج عبر فخر الدين من البر الغربي إلى البر الشرقي ووصل الفرنج إلى البر الغربي فهرب بنو كنانة وأهل دمياط منها وتركوا أبوابها مفتوحة فتملّكها الفرنج بغير قتال واستولوا على ما بها. وكان هذا من أعظم المصائب وعظم ذلك على الملك الصالح وأمر بشنق بني كنانة فشنقوا عن آخرهم. ووصل الملك الصالح إلى المنصورة ونزل بها وقد اشتدّ مرضه وهو السل والقرحة التي كانت به وقد أيس منه».

عد ٨٧٠

ذكر وفاة الملك الصالح وخلافة ابنه ووقعة المنصورة

قال أبو الفداء ما ملخّصه: «في هذه السنة أي سنة ٦٤٧هـ سنة ١٢٤٩م توفي الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل ابن الملك العادل وكانت مدة ملكه لمصر تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً. وكان عالي الهمة طاهر اللسان والذيل وقوراً كثير الصمت وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر عسكره مماليكه، وجمع جماعة منهم حول دهليزه سماهم البحرية. وكان له ثلاثة أولاد: فتح الدين عمر توفي في حبس الصالح اسماعيل،

وكان له ولد آخر قد توفي أيضاً ولم يكن قد بقي له غير الملك المعظّم توران شاه صاحب حصن كيفا، ولم يوصِ الصالح بالملك لأحد، ولمّا توفي أحضرت شجرة الدر جارية فخر الدين ابن الشيخ صدر الدين ابن حمويه والطواشي جمال الدين محسناً وعرّفتهما بموت السلطان فكتموا ذلك خوفاً من الفرنج، وجمعت شجر الدر الأمراء وقالت لهم السلطان يأمركم أن تحلفوا له، ثمّ من بعده لولده الملك المعظّم، وللأمير فخر الدين باتابكية العسكر. فحلف الأمراء والأجناد والكبراء بالعسكر وبمصر، وكانت بعد ذلك تخرج الكتب والمراسيم وعليها علامة الملك الصالح، وكان يكتبها خادم يقال له السهيلي فلا يشك أحد في أنّها خط السلطان، وأرسل فخر الدين قاصداً لاحضار الملك المعظّم من حصن كيفا فشاع بين الناس موت السلطان ولا يجسر أحد من أرباب الدولة أن يفوه بذلك.

وتقدّم الفرنج من دمياط إلى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين وقعة عظيمة ومات فيها جماعة من كبار المسلمين ونزل الفرنج بحر مساح ثمّ قربوا من المسلمين وكبسوهم على المنصورة، وكان الأمير فخر الدين المذكور في الحمام بالمنصورة فركب مسرعاً وصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه، ثمّ حمل المسلمون والترك البحرية على الفرنج فردوهم على أعقابهم، واستمرّت بهم الهزيمة. وأمّا الملك المعظم فوصل إلى المنصورة في آخر السنة المذكورة واشتدّ القتال بين المسلمين والفرنج براً وبحراً ووقعت مراكب المسلمين على الفرنج وأخذوا منهم اثنين وثلاثين مركباً، فضعف الفرنج وأرسلوا يطلبون القدس وبعض الساحل وان يسلموا دمياط إلى المسلمين فلم تقع الإجابة إلى ذلك». انتهى تلخيص كلام أبي الفداء. وهذه خلاصة ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك الملك: «إنّ الملك لويس لم يشأ أن يتقدّم من دمياط قبل وصول أخيه كونت بواتو الذي كان قد تخلّف في فرنسة ونشأت في هذه المدة اختلافات بين الفرنسيين والكونت سالسبوري الانكليزي فخمّدها الملك لويس بوداعته، وقد عقد ديوان مشورته فكان من رأي بعض أركان الحرب أن يزحفوا إلى اسكندرية ويمتلكوها لأنّ مرفأها أوسع وأرحب لسفنهم، وكان من رأي آخرين أن يسيروا توّاً إلى القاهرة. وكان كونت أرتو أخو الملك يرى ما رأى هؤلاء فاستمال الملك إلى العمل برأيهم فساروا نحو المنصورة وسفنهم سارت في النيل شاحنة الازودة والسلاح وآلات الحصار فحلّوا في فارسكور في ٧ من كانون الأوّل سنة ١٢٤٩م. وهناك علموا بموت الملك الصالح وذكروا ما ذكره المؤرخون العرب من إخفاء شجر

الدر خبر موته وتولية فخر الدين على الجيش واستدعاء الملك المعظّم من حصن كيفا، وبلغ عسكر النصارى بعد وقعة بين طلائع العسكرين إلى قناة أشمون مقابلة المنصورة في ١٩ كانون الأوّل، ولم تكن القناة الفاصلة بين العسكرين عريضة لكنها كانت عميقة لا يمكن عبورها دون جسر وحاول المهندسون إقامة جسر فتعذّر عليهم وأرسل فخر الدين عسكراً عبر القناة من محل آخر وباغت الفرنج من ورائهم فكان له بعض النجاح واستمرّ الفرنج يحاولون إقامة معبر إلى الترعة والمسلمون لا يمكنونهم من ذلك واستمرّوا على ذلك شهراً إلى أن هداهم بدوي إلى معبر قريب منهم بعد أن رشوه بمبلغ من المال، وسار الملك في جيشه إلى هذا المعبر فأوّل من عبر به روبرتس كونت ارتوا أخو الملك، وقد حلف له أن ينتظر على ضفة النهر الأخرى وصول العسكر إليه. وتبع الكونت الفرسان الهيكليون والاسبيتاليون وكونت سالسبوري ورجاله الانكليز، ولما رأى روبرتس الأعداء تركوا معسكرهم وانهزموا أمامه نسي يمينه ولم يقف عند نصائح الفرسان الذين عبروا معه ووثب على الأعداء متعقباً لهم حتى دخل وراءهم إلى المنصورة، وكان فخر الدين في الحمام وخرج فركب جواده على عجلة فأصابته ضربة كانت القاضية، فاضطرب العسكر المصري وتسارع بعضهم إلى داره فنهبها وأحرقها وهموا بالهزيمة، فحملهم بيبرس البندقداري أحد المماليك (الذي اشتهر كثيراً بعد ذلك كما ترى) على الصبر والثبات في الدفاع وأقفل أبواب المدينة كي لا يبقى للافرنج مفر أو مناص، وصبر الكونت روبرتس على القتال مبدياً آيات البسالة إلى أن قتل، واستمرّ وطيس القتال حامياً من الساعة السادسة قبل الظهر إلى الساعة الثالثة بعده، فلم ينج من الألف وخمسمائة فارس الذين دخلوا المنصورة من الفرنج إلّا القليلون. وكان غوليلمس كونت سالسبوري في جملة القتلى، وأُسر رئيس فرسان القديس يوحنا، وقلعت عين رئيس الهيكليين، أما باقي الجيش فعبر القناة ولم يعلموا ما حلّ بطلائعهم فتقدّم دوك بريطانيا وفريق من الجيش نحو المنصورة ليرى ما حلّ بالكونت روبرتس ورفاقه فالتقاهم بعض المماليك واشتدّ القتال بينهم حتى أرغم الدوك المذكور أن يعود وهو يتقيأ الدم من فمه، ولما بلغ الملك القديس خبر هذا المصاب حزن جداً وبكى كثيراً ورفع عينيه إلى السماء قائلاً لتكمل مشيئة الله وليكن اسمه مباركاً. وجمع أعيان جيشه وقال ما رأيكم يا أحبائي ورفقائي في متاعبي ومخاطري العودة إلى الوراء بعد هذه الخسارة الجسيمة فيطمع بنا أعداؤنا ويسرهم انهزامنا كسرورهم بقتل اخواننا ويتبعون آثارنا ويعملون سيوفهم بنا أما أنا فأرى أن

نبتهل إلى الله أولاً ليغفر آثامنا التي هي علة انسكسارنا ثمّ نحارب واثقين بعونه لنأخذ بثأر أخي وأصدقائنا الذين أريقت دماؤهم فلما سمع الجيش كلام الملك هذا تحفّزوا جميعاً للقتال كرجل واحد واشتبك الفريقان في القتال ونزل الملك في وسط المعمعة ولم يكن من يرمي سهماً أو يرسل نشاباً بل كانوا متجالدين بالسيوف والحراب متلاحمين ووثب على الملك ستة من المماليك وأحدقوا به وضبطوا عنان جواده فشرّدهم عنه ببسالة وتملّص منهم بضربات سيفه وفي آخر الأمر ازاح الفرنج المصريين عن مراكزهم واستولوا على معسكرهم بما كان فيه من عدة الحرب والذخر.

عد ٨٧١
أخذ الملك لويس أسيراً ونجاته من الأسر

هذه خلاصة ما قاله أبو الفداء في ذلك: «لما قام الفرنج قبالة المسلمين بالمنصورة فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دمياط فان المسلمين قطعوا الطريق الواصل من دمياط إليهم فلم يبقَ لهم صبر على المقام فرحلوا ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم سنة ٦٤٨هـ سنة ١٢٥٠م) متوجهين إلى دمياط، وركب المسلمون أكتافهم وعند الصباح خالطهم المسلمون وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم إلّا القليل وبلغت القتلى منهم ثلاثين ألفاً على ما قيل وانحاز ريدافرنس ومن معه من الملوك إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشي محسن الصالحي ثمّ احتيط عليهم وأحضروا إلى المنصورة وقيد ريدافرنس وجعل في الدار التي كان ينزلها كاتب الانشاء فخر الدين ابن لقمان ووكل به الطواشي صبيح المعظمي، ورحل الملك المعظّم بالعسكر من المنصورة ونزل بفارسكور ونصب له بها برج خشب، فيوم الاثنين في آخر المحرم قتل الملك المعظم، وسبب ذلك أنّه أطرح جانباً أمراء أبيه ومماليكه وبلغ كل واحد منهم تهديده ووعيده فنفرت قلوبهم منه وهو اعتمد على بطانته الذين وصلوا معه من حصن كيفا، وكانوا أطرافاً أراذل فاجتمعت المماليك البحرية على قتله وهجموا عليه بالسيوف وكان أوّل من ضربه ركن الدين بيبرس الذي صار سلطاناً في ما بعد، فهرب الملك المعظّم إلى برج الخشب فأطلقوا في البرج النار فخرج الملك هارباً طالباً البحر ليركب في جراقته، فحالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه في البحر فأدركوه وأتموا قتله وكانت مدة

ملكه من حين وصوله إلى مصر شهرين وأياماً. واجتمع الأمراء وأتّفقوا على أن يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح في المملكة ويكون عز الدين أيبك الصالحي المعروف بالتركماني اتابك (أي أمير الأمراء) العسكر وحلفوا على ذلك، وخطب لشجر الدر على المنابر وضربت السكة باسمها وسميت والدة خليل وكان توقيعها كذلك إذ كان لها ولد اسمه خليل مات صغيراً ولما استقرّ الأمر على ذلك جرى الحديث مع ريدافرنس في تسليم دمياط بالفرنج عنه فسلّمها وصعد إليها بالعلم السلطاني يوم الجمعة لثلاث مضين من سفر سنة ٦٤٨هـ (سنة ١٢٥٠م) وأطلق ريد فرنس وركب البحر نهار السبت غد الجمعة المذكورة وأقلعوا إلى عكا.

وهذا ملخّص ما قاله المؤرخون الفرنج: «إنّ المصريين لم ينفكوا مدّة الليل عن مهاجمة الفرنج ليزيحوهم عن العسكر الذي كانوا قد أخذوه في النهار، وفي الغد الذي كان صباح أربعاء الرماد أقاموا جسراً على قناة أشمون فعبر عليه الرجالة وأميرهم دوك بوركانيا وانضمّوا إلى الفرسان، وفي نهار الجمعة التالي زحف المصريون بمصافهم إلى الفرنج وتسعرت نار القتال وكان في مقدّمة الجيش كونت انجو فلم يستطع جنوده أن يقووا على النار الصناعية التي كان الأعداء يلقونها إليهم وقتل جواده وهو راكب عليه فاستصرخ الملك فهبّ إليه مستلاً سيفه واخترق الصفوف إلى أن بلغ المحل الذي كان به أخوه وأعمل سيفه بالأعداء بشجاعة عظيمة وبراعة غريبة غير مبال بخطر حتى أنقذ أخاه ونجاه الله، وقتل في هذه الوقعة رئيس الهيكليين وكثير من أعيان الفرنج ومشاهيرهم. وكان كونت بواتو أخو الملك متولياً قيادة الجناح الأيمن في الجيش فحاق الخطر به وكاد يقع أسيراً» وإليك ما كتبه القديس لويس في رسالة عامة إلى أهل مملكته عن هذه الوقعة قال: «يوم الجمعة جمع الأعداء رجالهم من كل جهة وقصدوا أن يهلكوا جيش النصارى برمته ووثبوا على صفوفنا بقحة وعددهم لا يحصى وكانت الخسائر من الفريقين عظيمة. ويقال إنّه لم يكن قط وقعة كهذه في هذه البلاد وبعون الله ثبتنا في الدفاع في كل جهة وتقهقر الأعداء وقتل منهم كثيرون». وجلّ ما يظهر من ذلك أنّ الفرنج لم ينكسروا في هذا اليوم وأوقعوا بأعدائهم خسائر وخسروا مثلها.

وأصابهم وباء تصحبه الدوسنتاريا والحمى الخبيثة مسبب من نتانة جثث القتلى ومن طرح بعض هذه في القناة ومن أكلهم إيضاً السمك المغتذي بها فمات منهم

كثيرون وكان لهم على مصابهم هذا أيضاً الصبر الجميل ولم يحلّلوا الافطار في الصيام أو أكل اللحم فيه، وكان الملك لويس يعزي المرضى ويبذل جلّ العناية بهم إلى أن أصابه أيضاً المرض وألزمه خيمته. وأتى الملك المعظم إلى المنصورة بعد تسعة عشر يوماً من الوقعة التي كانت فيها وكانت مؤن الفرنج تأتيهم من دمياط فأوّل ما باشره الملك قطع الطريق حتى لا تكون مواصلة بينهم وبين دمياط فعازهم الزاد وكان ذلك مصيبة أخرى. وروى بعض المؤرخين العرب أنّ الفرنج بذلوا للملك المعظّم دمياط ان تخلى لهم عن فلسطين، ووعد الملك لويس أن يسلم أخويه رهينة على ذلك، فأجاب الملك المعظم إلى ذلك ولكن طلب ان يكون الملك لويس نفسه رهينة ورضي هذا القديس بذلك، على أنّ أعيان جيشه أبوا ذلك كل الإباء وقالوا أحب إلينا أن نحتمل الموت جميعاً ولا نحمل مثل هذا العار فرأى الملك لويس حينئذٍ انّه لم يبقَ وسيلة للنجاة إلّا العود بطريق دمياط.

وأمر الملك لويس أن يعبر الجيش القناة ويسير بطريق دمياط فأخذوا بالمسير ليلاً في ٥ نيسان سنة ١٢٥٠م ونزل سفير البابا والنساء والأولاد والمرضى بسفن وألحّوا على الملك لويس أن يسير معهم فأبى إلّا أن يرافق جنوده، وقال أحب إليّ أن أموت معهم من أن أنفصل عنهم. وسار في ساقتهم وركب المصريون ظهورهم فكان الملك يبدي آيات البسالة بالدفاع وغادرهُ أكثر فرسانه فأدرك المصريون الفرنج من جهات كثيرة وأكثروا من القتل والأسر فيهم ولم يكن من ساروا بحراً أحسن حظاً ممن ساروا برّاً، وأضنى التعب والجهاد الملك فانحاز بنفر قليل من خدامه إلى قرية تسمى المنية ودخل بيت امرأة فرنسية هناك ودافع عنه خدامه إلى أن فارقتهم الحياة فدخل أحد المماليك إلى الملك فأوثقه بيديه ورجليه وأخذه بسفينة حربية إلى المنصورة وقبض المصريون على أخويه أيضاً وكان عدد القتلى من الفرنج نحو ثلاثين ألفاً وأقام المصريون الملك في بيت يدل عليه إلى الآن في المنصورة وهو مشرف على النيل.

كان من رأي الملك المعظم أن يطوف ملك فرنسة في كل بلاد المسلمين تذليلاً للفرنج وتعزيزاً وتشجيعاً للمسلمين، فلم يوافقه أهل مشورته على رأيه إذ كان يهمهم استرداد دمياط ويخشون موت ملك فرنسة فتفوتهم فرصة استردادها، فأجمع رأيهم أن يطلقوا الملك على شريطة أن يسلم دمياط إليهم ويبذل لهم خمس مائة ألف دينار (قالوا إنّها توازي تسعة ملايين ونصف من الفرنكات). ولما رأى الملك لويس أنّ

دمياط لا بدّ من أخذها في هذه الحال ولا يمكن أن تمتنع على المسلمين رضي بما شرطه المصريون. ولكن لما كان لا يليق بمقام الملوك أن تفتدى حريتهم بمال جعل دمياط فدية له والخمس مائة ألف دينار فداء لرفقائه في الأسر، فسرّ الملك المعظّم بذلك وحط خمس المبلغ المتّفق على إدائه، وعقد الصلح بين المسلمين والنصارى على هدنة عشر سنين وبقاء المدن التي ملكها الفرنج قبل هذه الحملة على ملكهم بعد هذا الصلح. وكان حينئذٍ ما ذكره المؤرخون العرب من قتل المعظّم وتولية شجرة الدر، فبقي ملك فرنسة والأسرى في سجونهم. ولما استقرّت الحال في مصر عاد الأمراء إلى إنجاز المعاهدة مع ملك فرنسة فطلبوا تسليم دمياط قبل تخلية سبيله وأن يدفع نصف المبلغ قبل ارتحاله عن مصر، فلم يشأ أن يوقع على هذه المعاهدة قبل إطلاقه، ولا أن يحلف عليها إلّا بما لاقى به من اليمين، فاضطرّ الأمراء أن يكتفوا بكلامه وحده وكتب الملك إلى بطانته بتسليم دمياط، ودفع نصف المبلغ الذي استقرّ الرأي عليه، فردّت دمياط إلى المسلمين في ٦ أيار سنة ١٢٥٠م وأطلق بعض الأسرى الذين بقوا أحياء، وسافر الملك لويس والفرنج إلى عكا فبلغوا إليها في ١٤ أيار سنة ١٢٥٠م. انتهى ملخصاً عن جوانفيل وغيره ممن كانوا في هذه الحملة.

عد ٨٧٢

باقي أخبار الأمراء الأيوبيين إلى انقراض دولتهم

لما ملّك المصريون شجرة الدر موضع الملك المعظّم أرسلوا رسولاً إلى الأمراء الذين بدمشق في موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه بل كاتبوا الملك الناصر يوسف صاحب حلب ابن الملك العزيز، فسار إليهم وملك دمشق ودخلها يوم السبت لثمان مضين من ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ سنة ١٢٥٠م. ولما استقرّ في دمشق خلع على جمال الدين بن يغمور وعلى الأمراء القمرية وأحسن إليهم واعتقل جماعة من الأمراء مماليك الملك الصالح وعصت عليه بعلبك وعجلون وشيميس مدة مديدة، ثمّ سلّمت جميعها إليه فصار الملك الناصر متولياً حلب ودمشق. ولما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية وعلى كل من اتهم بالليل إلى الحلبيين، ورأوا أنّه إذا استمرّ أمر المملكة في امرأة على ما هو عليه بتمليك شجر الدر تفسد الأمور، فأقاموا عزّ الدين أيبك الذي كان أتابك العسكر ملكاً عليهم وركب بالسناجق السلطانية ولقّب بالملك المعز وأبطلت السكة

والخطبة التي كانت باسم شجرة الدر، ثمّ اجتمع الأمراء واتّفقوا على أنّ لا بدّ من إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة واختاروا الملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن، وقرروا أن يكون أيبك المذكور أتابك واجلس موسى المذكور في دست السلطنة.

وكان بغزة حينئذٍ جماعة من عسكر مصر فسار إليه عسكر دمشق فاندفعوا عن غزة إلى الصالحية بالسايح واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك وطلبوا له بالصالحية، واتّفق كبراء الدولة بمصر ونادوا بالقاهرة ومصر أنّ البلاد للخليفة المستعصم العباسي، وجددوا الإيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة ولايبك بالاتابكية. وسار فارس الدين اقطاي الصالحي مقدم المماليك البحرية إلى غزة بنحو ألفي فارس ولمّا وصل إلى غزة وافقه من كان بها من جهة الناصر فوجس الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب من ذلك، فسار من دمشق قاصداً مصر، وصحبته كثيرون من الأمراء الأيوبيين، ولما بلغ المصريين ذلك أهتمّوا لقتاله ودفعه وبرزوا إلى السايح وتركوا الأشرف المسمى بالسلطان بقلعة الجبل بمصر والتقى العسكران المصري والشامي بالقرب من العباسية فكانت الكسرة أولاً على عسكر مصر، فخامر جماعة من المماليك الترك العزيزية على الملك الناصر صاحب دمشق وثبت المعز أيبك في جماعة قليلة من البحرية وانضاف إليهم من خامروا من المماليك العزيزية وكان صاحب دمشق لا يشك بنصرة عساكره وكسرة المصريين فبقي مع جماعة يسيرة تحت السناجق السلطانية فحمل عليه المعز أيبك بمن كان معه فولى منهزماً إلى جهة الشام ثمّ حمل أيبك على عسكر الشاميين فهزمهم وأخذ شمس الدين لؤلؤ قائد العسكر أسيراً وضرب عنقه وأسر عدّة من الأمراء الأيوبيين الذين كانوا مع صاحب دمشق ولمّا علم باقي العسكر الشامي بهروب صاحب دمشق اختلفت آراؤهم فمنهم من أشار بالدخول إلى القاهرة وتملّكها ولو فعلوا لتملّكوها، ومنهم من أشار بالرجوع إلى الشام فعملوا برأيه، فعاد إيبك إلى القاهرة معتزاً منصوراً وحبس بني أيوب بالقلعة وشنق بعض الأمراء الذين أسرهم، وسار بعد ذلك فارس الدين اقطاي بثلاثة آلاف فارس إلى غزة فاستولى عليها وعاد إلى مصر وبقي الأمر على ذلك إلى سنة ٦٥١هـ سنة ١٢٥٤م حين أرسل الخليفة العباسي فاصلح بينهم على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن وللملك الناصر صاحب دمشق وحلب ما وراء ذلك.

وكان المعز أيبك أتابك مصر طموحاً إلى الاستبداد وإلى خلع الأشرف وتبوأ منصّته وكان اقطاي الجامدار من أمراء البحرية يدافعه عن ذلك ويغضّ من عنانه منافسة وغيرة فارصد له أيبك ثلاثة من المماليك فاغتالوه سنة ٦٥٢هـ سنة ١٢٥٥م. وكانت جماعة المماليك البحرية ملتفة عليه فانفضوا ولحقوا بصاحب دمشق، واستبدّ إيبك بمصر وخلع الملك الأشرف وقطع الخطبة له فكان آخر أمراء بني أيوب بمصر وخطب أيبك لنفسه وتزوج شجر الدر التي كانوا قد ملّكوها قبلاً، ولما وصل البحرية إلى دمشق أطمعوا صاحبها في ملك مصر واستحثوه فتجهّز وسار إلى غزة وبرز أيبك بعساكره إلى العباسية ودخلت سنة ٦٥٣هـ سنة ١٢٥٦م، واستراب المعز بالعزيزية المقيمين معه فأبعدهم عنه ولحقوا بصاحب دمشق وترددت الرسل بين دمشق وإيبك صاحب مصر فاصطلحوا على أن يكون التخم بينهم العريش وفي سنة ٦٥٥هـ سنة ١٢٥٨م قتل المعز إيبك قتلته شجرة الدر غيلة في الحمام غيرة من خطّته بنت لؤلؤ صاحب الموصل فنصبوا مكانه ابنه علياً ولقّبوه بالمنصور وثأروا به من شجرة الدر أي قتلوها بثأر المعز.

وفي هذه السنة أي سنة ١٢٥٨م نقل إلى الملك الناصر صاحب دمشق ان المماليك البحرية الذين كانوا مقيمين عنده بعد مقتل اقطاعي يريدون أن يفتكوا به فاستوحش خاطره منهم وطلب انتزاحهم عن دمشق فساروا إلى غزة وانتموا إلى الملك المغيث صاحب الكرك وأرسل صاحب الشام عسكراً في اثرهم فكبسهم فانهزموا إلى البلقاء ملتجئين إلى صاحب الكرك فانفق فيهم أموالاً جزيلة واطمعوه في ملك مصر، فجهزهم وساروا إلى جهة مصر وخرجت عساكر مصر لقتالهم والتقى الفريقان بالعباسية فانهزمت البحرية وعسكر صاحب الكرك وكان في جملة البحرية بيبرس البندقداري الذي صار بعد ذلك ملكاً. وبعد أن انهزمت البحرية عن مصر عادوا إلى الكرك وما زال صاحب الشام واجساً منهم ومن صاحب الكرك فبعث إليهم عسكره عن دمشق فظفروا به واستفحل أمرهم بالكرك فسار الناصر صاحب الشام إليهم بنفسه سنة ٦٥٧هـ سنة ١٢٦٠م ومعه صاحب حماه فنزلوا على الكرك فحاصروها فأرسل صاحبها إلى الناصر في الصلح فشرط عليه أن يحبس البحرية فأجاب إلى شرطه ونما الخبر إلى بيبرس أميرهم فهرب في جماعة منهم ولحق بالناصر صاحب الشام وفي هذه الأثناء قدمت عساكر التتر إلى الشام وتملّكوها كما ترى في الفصل التالي وهرب صاحبها إلى مصر أولاً ثمّ إلى تيه

العرب ثمّ حسن له أصحابه أن يقصد هولاكو ملك التتر فأقبل عليه ووعده برده إلى ملكه وأبقاه عنده، ثمّ اجتمعت عساكر المسلمين وساروا إلى الشام مع صاحب مصر وهو حينئذٍ الملك المظفر قطز الذي كان قد قتل المنصور علياً بن أيبك واستبدّ بالسلطة وقاتلوا التتر، فانهزم التتر وقتل أميرهم النائب عن هولاكو فاحضر هولاكو الناصر ولامه على ما كان منه من تسهيله عليه أمر الشام فاعتذر الناصر له فلم يقبل عذره ورماه بسهم فأنفذه، ثمّ أتبعه بأخيه الظاهر وبالصالح بن الأشرف صاحب حمص فانقرض بذلك بني أيوب من الشام كما انقرض ملكهم من مصر كما رأيت قبلاً ولم يبق منهم بالشام إلّا المنصور ابن المظفر صاحب حماه وكان ذلك سنة ٦٥٩هـ سنة ١٢٦٢م. وعند عود المظفر قطز ملك مصر من الشام إلى مصر بعد انتصاره على التتر قتله بيبرس البندقداري وتبوأ تخته. انتهى ملخصاً عن أبي الفداء وابن خلدون.

وكان بدء دولة الأيوبيين بصلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ١١٧٢م وتولى ملوك هذه الدولة سورية ومصر تارةً معاً وتارةً بانفصال المملكة الواحدة عن الأخرى وكان في سورية كحلب ودمشق وحمص وحماه وبعلبك نوع من الاستقلال لكل عمل على حدة وان كان الولاة عليها من الأمراء الأيوبيين إلى أن انقرض ملك الأيوبيين في مصر سنة ١٢٥٥م بقتل الملك الأشرف، قتله المعز أيبك أحد المماليك البحرية واستبدّ بملك مصر وانقرض ملكهم بسورية بقتل هولاكو ملك التتر الملك الناصر كما رأيت فكانت مدّة ملك الأيوبيين في سورية ومصر نحو تسعين سنة وخلفتهم دولة المماليك البحرية ويسمون المماليك الترك.

عد ٨٧٣

تتمة الكلام في حملة القديس لويس وعوده إلى فرنسة

ذكرنا قبلاً أنّ القدّيس لويس ملك فرنسة سار من دمياط وبلغ إلى عكا في ١٤ أيار سنة ١٢٥٠م، فالتقاه النصارى باحتفاء عظيم ثمّ عقد ديوان مشورته للبحث أيبقى في الشرق أم يعود إلى مملكته، فرأى الأكثرون لزوم عودهِ أمّا هو فأعلن أنّه لا يشاء أن يغادر مملكة أورشليم، ووعد أن ينفق على جميع الذين يبقون معه، وعاد أخواه إلى أوروبا وفشا الوباء في عكا فمات كثيرون من جنوده وصرف الملك عنايته

إلى تحصين المدن والقلاع التي كانت بيد الفرنج، وكان الأمراء المسلمون متشاغلين بمنازعاتهم الأهلية عن محاربة الفرنج فلم يشأ أمراء سورية أن يولوا على السلطنة امرأة هي شجرة الدر التي أقامها المصريون سلطانة عليهم، فانضمّ السوريون إلى الملك الناصر صاحب حلب ونادوا به سلطاناً عليهم وكان بين الفريقين ما ذكرناه من الحروب، وكان كل منهما يراسل الملك لويس ليتفق معه ويتقي مناوأة الفرنج له والملك لويس يقترح ما يعنّ له من الشروط، ثم عقدت بينه وبين أمراء مصر معاهدة من شروطها أنّ المماليك المصريين يخلون سبيل الأسرى النصارى الذين كانوا باقين بمصر وأولاد النصارى الذين كانوا قد أسلموا، ويرسلون رؤوس القتلى التي كانوا قد علقوها على أسوار القاهرة وان يتخلّى المسلمون للفرنج عن أورشليم وسائر مدن فلسطين ما عدا غزة وقلعة داروم وقلعتين أخريين، وانهم لا يحاربون أورشليم مدة خمس عشرة سنة، وان الفريقين المتعاهدين يجمعان عساكرهما ويحاربان معاً وكل ما يغنمانه يقسم مناصفة بين الفرنج والمماليك. وعزم رؤساء المماليك أن يسيروا إلى غزة ومنها إلى يافا لاثبات المعاهدة ومفاوضة ملك فرنسة بما يتّخذون من الوسائل للحرب، وعرف السلطان صاحب دمشق بهذه المعاهدة فأرسل عسكراً من عشرين ألفاً خيّموا بين غزة وقلعة الداروم ليمنعوا الاتصال بين المصريين والفرنج فلم يحضر مفوضو المصريين في الأجل المعيّن إلى يافا إمّا خوفاً من عسكر الشام واما لاختلافات أهلية طرأت عليهم، لكنهم شرعوا يتممون بعض الشروط المتفق عليها فأرسلوا الأسرى ورؤوس القتلى وزادوا عليها فيلاً أهداه ملك فرنسة لملك انكلترا وكانوا يكررون وعدهم بأن يأتوا إلى يافا والملك لويس ينتظرهم حتى انقضت سنة ولم يحضر أحد منهم. وكان لملك فرنسة أن يعدل عن هذه المعاهدة التي لم يوقعوا عليها ويعقد مثلها بل أحسن منها مع سلطان دمشق فلم يفعل ولم يتقدّم الأمراء المصريون إلى الملك لويس بهذه المعاهدة إلّا لحاجتهم إليه ولأملهم أنّ نصارى الغرب يمدّونه بالعساكر، ولما رأوا عسكره قليلاً وان اتفاقهم مع النصارى يهيج المسلمين عليهم تباطأوا عن التوقيع على المعاهدة، وأرسل الخليفة من بغداد من يسعى في الصلح بين سلطان الشام وأمراء مصر على أن يتناسى السلطان سوء صنيع الأمراء ويظهر الأمراء ندامتهم على ما مضى، وطلبهم السلم. ولما كان كل من الفريقين قد ملّ من الحرب وانتصر المصريون مدة والسوريون مدة أخرى دون الوصول إلى وقعة فاصلة تقارب كل من الفريقين إلى الآخر، وامتثلوا أمر الخليفة ووقع الصلح بينهم

والاتفاق على محاربة الفرنج. وسار الناصر صاحب الشام بعسكر حتى بلغ أسوار عكا وتهدّد أن يقطع أشجار الجنات ويعطّل الحقول إلّا أن يدفعوا له خمسين ألف دينار، فأكره الفرنج أن يدفعوها أذ لم تكن لهم طاقة حينئذٍ على الحرب فعاد الناصر إلى دمشق والمماليك إلى مصر عازمين أن يعودوا في وقت آخر.

وضاعف الملك لويس عنايته بتحصين مدن الفرنج وأخذ في تجديد أسوار صيدا التي كان المسلمون قد أخربوها لما كان الملك لويس في مصر، وأوشكت هذه الأسوار أن تكمل فاذا بجماعة كثيرة من التركمان كبست صيدا وفيها قليل من الحامية وقتلوا من فيها من النصارى ودكوا ما بُني من الأسوار. وكان الملك في صور لما بلغته هذه الأخبار فسار مسرعاً إلى صيدا وجهز عسكراً أرسله في أثر التركمان إلى بانياس وكان يريد أن يسير به فمنعه ذووه من المسير ضناً براحته وحياته، ولما بلغ الفرنج إلى بانياس انهزم المسلمون منها وملك الفرنج المدينة، ولكن انحاز بعض الفرسان إلى قلعة قريبة من المدينة فحاصروها فردّهم عنها من كان فيها من المسلمين وتتبعوا أثرهم فأوقعوا باقي عسكر الفرنج في الضيق، ومع ذلك مكنتهم شجاعتهم من كسرة المسلمين، لكنهم لم يقووا على أن يحفظوا بانياس فنهبوها وتركوها وعادوا إلى صيدا ولما أتى الملك من صور إلى صيدا رأى بعض جثث القتلى لم تدفن بعد فنزل عن جواده وحمل بيدهِ مع غيره جثة منتنة لتدفن فأخذت الغيرة جنوده فدفنوا بالاكرام كلما وجد بها من الجثث.

وقد روى بعض علمائنا وكثيرون من مؤرخي الفرنج أنّه لما كان الملك لويس التاسع في عكا أرسل الموارنة إليه هدايا مع الأمير سمعان وجماعة من رجالهم فرحّب بهم الملك القديس وأكرمهم، وسوف نذكر في الملحق المعلّق على آخر تاريخ هذا القرن رسالة هذا الملك إلى أمير الموارنة وبطريركهم وأساقفتهم، وأرسل أيضاً مقدّم الاسماعيلية أو النصيرية المعروف عند الفرنج بشيخ الجبل إلى الملك لويس وفداً ورسالة يزدلف بها إليه، فأجابه الملك على رسالته وأرسل إليه كاهناً عالما .يعرف اللغة العربية ليرشدهم إلى الإيمان بالمسيح، وعن بعضهم أنّهم تظاهروا حينئذٍ بالنصرانية وكانوا يمارسون بعض فروضهم منها تعييدهم بعض الأعياد السيدية التي روى بعضهم أنّهم يمارسونها حتى الآن.

وفي سنة ١٢٥٣م بلغ الملك لويس خبر وفاة أمه بلانش دي كستيل مدبّرة الملك

في مدة غيابه فوجد لذلك كثيراً، ورأى أنّه أصبح محتّماً عليه أن يترك الأرض المقدّسة ويعود إلى مملكته ومع ذلك أمر بإقامة صلوات وممارسات روحية ليلهمه الله إلى ما يشاءه، واجتمع أعيان الفرنج إلى الملك فاطروا غيرته وأدوه فرض الشكر على كل ما عمله وقاساه حباً بهم وسألوه أن يعود إلى مملكته التي لا تستغني عنه بغيره بعد وفاة والدته، وأبدوا أملهم بأن لا ينفكّ عن مساعدتهم في أوروبا بعد بلوغه إليها. وأبحر في ٢٤ نيسان من سنة ١٢٥٤م وصحبته الملكة مرغاريتا وثلاثة أولاد رزقهم في الشرق وترك في عكا مائة فارس من فرسانه بامرة جفروا دي سار جين وقد أخذ هذا الملك راية الصليب وسار إلى المشرق مرة أخرى كما سوف ترى.

عد ٨٧٤

اغارات التتر على سورية

منشأ التتر تركستان الصينية وتركستان الروسية وقد ظعنوا إلى ما جاورهم من البلاد ونكّلوا بأهلها أو أخرجوهم منها كما صنعوا بأهل خوارزم. وفي أوائل هذا القرن تملّكوا بلاد فارس وكان أوّل ملوكهم فيها جنكيز خان الشهير. وتأويل هذه الكلمة في لغتهم الملك الكلي القدرة أو ملك الملوك جنكيز خان قد اجتاح البلاد الشرقية وأنزل بها الويل والدمار واتّصل إلى الصين وإلى روسية الجنوبية وإلى العراق والجزيرة وعند موته قسّم ملكه بين أولاده الأربعة وكان الخامس من ملوك التتر اسمه هولاكو وهو الذي أغار على سورية كما سنذكر هنا. في سنة ٦٥٧هـ سنة ١٢٦٠م قدم هولاكو إلى البلاد التي شرقي الفرات ونازل حران وملكها واستولى على البلاد الجزرية وأرسل ولده سموط إلى الشام، فوصل إلى ظاهر حلب وكان الحاكم في حلب الملك المعظّم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين نائباً عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب بقتال التتر، وأكمن التتر في الباب المعروف بباب الله ولما وصل العسكر قاتلوه قليلاً واندفعوا قدامه حتى خرجوا عن البلد ثمّ عاد التتر على الحلبيين فهربوا طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد واختنق في الأبواب جماعة من المنهزمين ثمّ رحل التتر إلى اعزاز فتسلّموها بالأمان.

وبلغ الملك الناصر صاحب دمشق وحلب ما صنعه التتر بحلب فسار من

دمشق إلى برزه، وأتى إليه الملك المنصور صاحب حماه واجتمع عنده أمم عظيمة من العساكر وممن جفلوا من بين أيدي التتر، وعلم حينئذٍ أنّ جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله فهرب إلى قلعة دمشق سنة ٦٥٨هـ سنة ١٢٦١م، وتعذّر عليه أن يناوئ التتر الذين عادوا من اعزاز إلى حلب وأحاطوا بها وهاجموها من عند حمام حمدان في ذيل قلعة الشريف وبذلوا السيف في المسلمين فقتل منهم جماعة كثيرة، وصعد إلى القلعة خلق عظيم ودام القتل والنهب من يوم الأحد إلى يوم الجمعة حين أمر هولاكو برفع السيف، ونودي بالأمان ولم يسلم من أهل حلب إلّا من التجأوا إلى بعض دور قيل لفرمانات كانت بأيدي أصحابها وان عددهم يزيد على خمسين ألف نفس. ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها الملك المعظّم المذكور واشتدّت مضايقة التتر لها نحو شهر ثمّ سلمت بالأمان وجعل هولاكو النائب بحلب عماد الدين القزويني، ووصل إلى حلب الملك الأشرف صاحب حمص فأكرمه هولاكو وأعاد إليه حمص. وكان الملك الناصر صاحب حلب قد أخذها منه وعوضه عنها تل باشر كما مرّ فأقره هولاكو بها. ووصل إلى هولاكو أيضاً محيي الدين بن الذكي من دمشق فأقبل عليه وولاه قضاء الشام ولما عاد إلى دمشق لبس خلعة هولاكو وكانت مذهبة وجمع الفقهاء وغيرهم من أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولاكو. وجاء أكابر حماة إلى حلب ومعهم مفاتيح مدينتهم سلموها إلى هولاكو وطلبوا منه الأمان لأهل حماه وشحنة يكون عندهم، فأمّنهم وأرسل إليهم شحنة خسروشاه فتولى المدينة وأمن أهلها وكان صاحب حماه الملك المنصور توجّه إلى الملك الناصر بدمشق وصحبه بفراره.

ثمّ سار هولاكو إلى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا أن يسلّموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب، فأحضره هولاكو وسلموها إليه فغضب هولاكو وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم وسبى النساء وعاد هولاكو إلى الشرق لدواعٍ حملته على العود وأمر عماد الدين القزويني الذي كان قد جعله نائباً بحلب أن يرحل إلى بغداد، فرحل إليها وجعل مكانه بحلب رجلاً أعجمياً وأمر هولاكو بخراب أسوار قلعة حلب وأسوار المدينة، فخربت عن آخرها وأمر الأشرف صاحب حمص أن يعود إليها ويخرب في طريقه سور قلعة حماه فخربه ولم يخرب أسوار المدينة لقرب الفرنج إليها بحصن الأكراد، فإذا خربت أسوارها يتيسر للفرنج أخذها وأناب هولاكو عنه على جيشه كتبغا فسار بالجيش إلى دمشق فملكها بالأمان ولم يتعرّض العسكر إلى

قتل ولا نهب وعصت قلعة دمشق فحاصرها التتر وجرى على أهل دمشق بسبب هذا العصيان شدة عظيمة، وأقاموا المجانق على القلعة وضايقوها ثمّ تسلّموها بالأمان ونهبوا جميع ما فيها وخرّبوا أسوارها وأخذوا بعلبك وعجلون وأخرجوا نقيب قلعة دمشق وواليها من الاعتقال وضربوا أعناقهما بداريا.

واجتمعت العساكر الإسلامية في مصر واشتهر عند أهل دمشق خروجها لقتال التتر فأوقعوا بالنصارى وكانوا قد استطالوا بدق النواقيس وادخال الخمر إلى الجامع، فنهبهم المسلمون وخرّبوا كنيسة مريم العظيمة وكانت في جانب دمشق الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف فبقيت بيد المسلمين، وكان في الجانب الذي فتحه أبو عبيدة بالأمان كنيسة ملاصقة للجامع فبقيت بيد النصارى، فلما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة خرب الكنيسة الملاصقة للجامع وأضافها إليه ولم يعوض النصارى عنها، فلما ولي عمر بن عبد العزيز عوضهم كنيسة مريم عن تلك الكنيسة فعمّروها عمارة عظيمة وبقيت كذلك حتى خرّبها المسلمون في التاريخ المذكور (أبو الفداء وابن خلدون).

وسار الملك المظفر قطز ملك مصر بالعساكر الاسلامية لقتال التتر وصحبته الملك المنصور صاحب حماه ولما بلغ ذلك كتبغا نائب هولاكو على الشام جمع من في الشام من التتر وسار إلى لقاء المسلمين وتقارب الجمعان في الغور واقتتلا فانهزم التتر هزيمة قبيحة وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدّمهم كتبغا وأسر ابنه وفرّ من بقي إلى رؤوس الجبال وتبعهم المسلمون فأفنوهم وهرب من سلم منهم إلى المشرق وكان في صحبتهم الأشرف صاحب حمص ففارقهم وطلب الأمان من المظفر فأمنه ووصل إليه فأكرمه وأقرّه على ما بيده وهو حمص وما يضاف إليها وضرب عنق الملك السعيد صاحب الصبية إذ كان مع التتر وأخذ أسيراً وأعاد الملك المنصور صاحب حماه إلى ملكه وأعاد إليه المعرة وكانت في يد الحلبيين، وأتمّ المظفر قطز سيره إلى دمشق فابتهج المسلمون بقدومه وتضاعف شكره لله تعالى على هذا النصر العظيم وأمر بشنق جماعة المنتسبين إلى التتر فشنقوا وقال بعض الشعراء بذلك:

هلك الكفر بالشام جميعاً ... واستجدّ الاسلام بعد دحوضه
ملك جاءنا بعزم وحزمٍ ... فاعتززنا بسمرهِ وبيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا ... دائماً مثل واجبات فروضه

وهنأ الشيخ شرف الدين شيخ المشايخ الملك المنصور صاحب حماه بنصره وعودة المعرة إليه بأبيات منها:

رعت العدى فضمنت ثل عروشها ... ولقيتها فأخذت تل جيوشها

نازلت أملاك التتار فانزلت ... عن فحلها قسراً وعن اكديشها

فغدا لسيفك في رقاب كماتها ... حصد المناجل في يبيس حشيشها

فقت الملوك ببذل ما تحويه إذ ... ختمت خزائنها على منقوشها

وجهز قطز عسكراً إلى حلب لحفظها وجعل شمس الدين اقوش البرلي أميراً بالسواحل وغزة وفوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبي، وفوض نيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد صاحب الموصل، وسار الملك المظفر قطز من دمشق عائداً إلى مصر فقتله في طريقه ركن الدين بيبرس البندقداري وأخذ السلطنة وكان قطز قد استناب علم الدين سنجر الحلبي بدمشق كما مرّ فبعد مقتل قطز جمع علم الدين الناس وحلفهم لنفسه بالسلطنة فأجابه الناس إلى ذلك ولقّب نفسه الملك المجاهد وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه وعرف التتر بذلك فعادوا إلى الشام مرة أخرى فساروا إلى البيرة وكان قطز قد قرر بحلب الملك السعيد وأقام معه حامية فابغضته وخلعته وأقامت مكانه حسام الدين الجوكندار وسار التتر من البيرة إلى حلب فاندفع حسام الدين وعسكره بين أيديهم وانهزموا إلى جهة حماه فملك التتر وأخرجوا أهلها إلى محل اسمه قرنبيا (أي مقر الأنبياء) وبذل التتر فيهم السيف فأفنوا أغالبهم وسلم قليل منهم ووصل حسام الدين وعسكره إلى حماه فضيفهم صاحبها وهو خائف من غدرهم ثمّ وصلوا من حماه إلى حمص وقارب التتر حماه ففرّ صاحبها أيضاً إلى حمص ولحقهم التتر إليها فاقتتل الفريقان على حمص قتالاً شديداً كان آخره ان انهزم التتر وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون منهم كيف شاؤوا ورجع إلى حماه الملك المنصور صاحبها وانضمّ من سلم من التتر إلى باقي جماعتهم، وكانوا نازلين قرب سلميّة فنزلوا على حماه يوماً واحداً ثمّ رحلوا عنها وكان ذلك سنة ٦٥٩هـ سنة ١٢٦١م وقد عاد التتر بعد ذلك إلى الشام كما سترى (انتهى ملخصاً عن أبي الفداء وابن خلدون).

عد ٨٧٥

بعض الأحداث في أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري

بعد أن قتل ركن الدين بيبرس البندقداري قطز سنة ٦٥٨هـ سنة ١٢٦٠م استقرّ في السلطنة وتلقّب بالملك القاهر، ثمّ غيّر هذا اللقب وتسمّى الملك الظاهر لأنّه قيل له إنّ لقب القاهر غير مبارك ما تلقّب به أحد وطالت مدته. وكان قطز قد استناب علم الدين سنجر الحلبي بدمشق فلما قتل قطز حلف الحلبي الناس لنفسه واستقلّ بدمشق، كما مرّ ففي سنة ٦٥٩هـ سنة ١٢٦١م جهز الملك الظاهر بيبرس عسكراً مع علاء الدين البندقداري وهو أستاذ الملك الظاهر لقتال علم الدين، فخرج علم الدين إليهم واقتتلوا في ظاهر دمشق فولى علم الدين وأصحابه منهزمين ودخلوا قلعة دمشق إلى أنّ جنّ الليل فهرب إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل إلى الديار المصرية، فاعتقل ثمّ أطلق واستقرّت دمشق في ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماه وحمص وحلب، واستقرّ ايدكين البندقدار الصالحي في دمشق لتدبير أمورها، وورد عليه مرسوم الملك الظاهر بالقبض على بهاء الدين الأشرفي وشمس الدين اقوش البرلي وغيرهما من العزيزية والناصرية، وتوجّه بهاء الدين إلى علاء الدين أمير الجيش فقبض عليه فاجتمع العزيزية والناصرية إلى أقوش البرلي وخرجوا من دمشق ليلاً، وأرسل علاء الدين إلى البرلي يطيب قلبه ويحلف له فلم يلتفت إلى ذلك وسار إلى حمص وطلب من صاحبها الأشرف أن يوافقه على العصيان فلم يجبه إلى ذلك، ثمّ توجّه إلى حماة وأرسل يقول للملك المنصور صاحبها لم يبقَ من البيت الأيوبي غيرك قم لنصير معك وتملك البلاد، فرده رداً قبيحاً فاغتاظ البرلي ونزل على حماه وأحرق زرع بيدر العشر، وسار إلى شيزر ثمّ إلى جهة حلب وكان فيها فخر الدين الحمصي قد أرسله علاء الدين نائب دمشق للكشف عن البيرة من التتر الذين نازلوها فقال البرلي لفخر الدين نحن في طاعة الملك الظاهر فنمضي إليه ونسأله أن يتركني ومن في صحبتي مقيمين بهذا الطرف ولا يكلفني وطأ بساطه فسار فخر الدين إلى مصر ليؤدي هذه الرسالة فاستبدّ البرلي في حلب وجمع العرب والتركمان واستعدّ لقتال عسكر مصر. وكان الملك الظاهر قد أرسل جمال الدين المحمّدي الصالحي لقتال البرلي وأمر فخر الدين المذكور بالانضمام إليه ورضي الملك

الظاهر عن علم الدين المذكور وأرسله معهما لقتال البرلي، فساروا إلى حلب وطردوه منها وبقيت البيرة في يده. ففي سنة ٦٦٠هـ سنة ١٢٦٢م دخل في طاعة الملك الظاهر فأكثر من الاحسان إليه والعطاء له وسأله البرلي أن يقبل البيرة منه فلم يفعل، وما زال يعاوده حتى قبلها. ثمّ تغيّر الملك الظاهر عليه سنة ٦٦١هـ سنة ١٢٦٣م فقبضه وكان آخر العهد به. وكان التتر قد قتلوا الخليفة المستعصم العباسي سنة ١٢٥٨. ففي سنة ١٢٦١ قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص اسمه أحمد شهدوا أنّه ابن الظاهر محمّد ابن الامام الناصر فيكون عم المستعصم، فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلساً حضر فيه من أكابر العلماء وشهد أولئك العرب كما تقدّم، وأثبت القاضي نسب أحمد المذكور وبايعه الملك والناس بالخلافة ولقّب المستنصر بالله، وأنفق الملك الظاهر مالاً جسيماً في عمل آلات الخلافة لأحمد المذكور وفي استخدام عسكر له، ثمّ توجّه به إلى دمشق ثمّ جهزه إلى بغداد طمعاً في أنّه يستولي عليها ويجتمع عليه الناس. فسار الخليفة بعسكره من دمشق وعاد بيبرس إلى مصر فوصلت إليه فيها كتب الخليفة انه استولى على عانة والحديثة وان كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على المسير إليهم، وقبل أن يصل إلى بغداد وصلت إليه التتر وقتلوه وغُلِبَ أصحابه. وكان في حلب رجل من العباسيين هو أحمد أبو العباسي ابن علي نجا مختفياً من بغداد فاستقدمه الملك الظاهر إلى مصر وبويع له بالخلافة ولقّب الحاكم بأمر الله، وطالت خلافته وتوفي سنة ٧٠١هـ سنة ١٣٠٢م واستمرّ هؤلاء الخلفاء في مصر على الخلافة الدينية ولا ولاية لهم إلى سنة ١٥١٧ حين تخلى الخليفة الأخير منهم عن الخلافة إلى السلطان سليم الأوّل العثماني فكان عدد العباسيين في مصر ١٥ خليفة وعددهم في العراق ٣٧ خليفة.

وفي سنة ٦٦٠هـ سنة ١٢٦٢م جهز الملك الظاهر عسكراً إلى حلب مقدمهم شمس الدين سنقر الرومي فأمنت بلاد حلب، ثمّ أمر سنقر المذكور والملك المنصور صاحب حمص والأشرف صاحب حماه أن يغيروا على أنطاكية فساروا ونهبوا بلادها وضايقوها وأخذوا ما يفوق على ثلاث مئة أسير.

وفي سنة ٦٦١هـ سنة ١٢٦٣م سار الملك الظاهر من مصر إلى الشام فلاقته والدة الملك المغيث صاحب الكرك فوثقها بالأمان لابنها وأحسن إليها وكان في قلبه غيظ عظيم على المغيث وحلف لوالدته وكان يجتهد على حضوره إليه، فأغراه الأمجد رسول المغيث إلى الملك الظاهر حتى حضر وكان الخوف في قلبه شديداً

ونصحه ابن مزهر ناظر خزانته أن يفر قبل أن يصل إلى الملك الظاهر ويعود إلى الكرك فلم يمتثل نصيحته وسار حتى وصل إلى بيسان حيث كان الملك الظاهر، ولاقاه الملك الظاهر وجامله خدعة، ولما قرب من دهليز الملك قبض عليه واعتقله وأرسله إلى مصر فكان آخر العهد به، ثمّ قبض على جميع أصحابه وفي جملتهم ابن مزهر المذكور. وكان للمغيث ولد يقال له الملك العزيز وأعطاه الملك الظاهر إقطاعاً في مصر وسار الملك الظاهر إلى الكرك فتسلّمها ورتّب أمورها وعاد إلى مصر. وفي السنة المذكورة توفي الملك الأشرف صاحب حمص فكان آخر الملوك على حمص من بيت شيركوه الأيوبي وانتقلت حمص إلى مملكة الملك الظاهر (انتهى ملخصاً عن أبي الفداء وابن خلدون).

عد ٨٧٦

حروب الملك الظاهر مع الفرنج إلى حين وفاته

نلخّص أوّلاً ما قاله المؤرخون المسلمون ولاسيما أبو الفداء وابن خلدون قالا: «في سنة ٦٦٣هـ سنة ١٢٦٥م سار الملك الظاهر بيبرس من مصر بعساكره المتوافرة إلى جهاد الفرنج بالساحل، ونازل قيسارية الشام في تاسع جمادي الأولى وضايقها وفتحها بعد ستة أيام، وأمر بها فهدمت، ثمّ سار إلى أرسوف ونازلها وفتحها في جمادى الآخرة من السنة المذكورة وعاد إلى مصر. وفي سنة ٦٦٤هـ سنة ١٢٦٦م خرج الملك الظاهر من مصر ثانيةً وسار إلى الشام وجهز عسكراً إلى ساحل طرابلس ففتحوا القليعات وحلبا وعرقا ونزل هو على صفد وضايقها بالزحف وآلات الحصار ولاصق الجند القلعة وكثر القتل والجراح في المسلمين، ثمّ فتحها بالأمان وقتل أهلها عن آخرهم وسيّر عسكره إلى الأرمن ووصلوا إلى بلاد سيس فانتصروا على صاحبها وقتلوا أحد أولاده وأسروا الآخر ورجعوا وأيديهم ملأى من الغنائم، وخرج الملك الظاهر لمتقاهم فنزل إلى قارا بين دمشق وحمص فأمر بنهب أهلها وقتل كبارها فنهبوا وقتل منهم جماعة لأنّهم كانوا نصارى وكانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم للفرنج وأخذت صبيانهم مماليك فتربوا بين الترك في مصر فصار منهم أخيار وأمراء.»

وفي سنة ٦٦٦هـ سنة ١٢٦٨م توجه الملك الظاهر بعساكره المتوافرة إلى الشام

ففتح يافا وأخذها من الفرنج ثمّ سار إلى أنطاكية ونازلها وزحفت العساكر الإسلامية إليها فملكوها بالسيف وقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم وغنموا منهم أموالاً جليلة وكانت أنطاكية للبرنس بيموند بن بيموند وله معها طرابلس وكان مقيماً بطرابلس لما فتحت أنطاكية ولما سمع أهل قلعة بغراس بفتح أنطاكية هربوا وتركوا الحصن خالياً فأرسل الملك الظاهر من استولى عليه وشحنه بالرجال والعدد وصار من الحصون الإسلامية.

وفي سنة ٦٦٨هـ سنة ١٢٧٠م عاد الملك الظاهر إلى الشام وأغار على عكا فرأى أنّ لا مطمع له فيها وقتئذٍ فتوجه إلى دمشق ثمّ إلى حماه وجهز عسكراً إلى بلاد الاسماعيلية فتسلّموا مصياف وعاد من حماه إلى دمشق ثمّ إلى مصر.

وفي سنة ٦٦٩هـ سنة ١٢٧١م عاد الملك الظاهر من مصر إلى الشام ونازل حصن الأكراد وهو للفرنج وجدّ في حصاره واشتدّ القتال عليه وملكه بالأمان ثمّ رحل عنه إلى حصن عكا ونازله وجدّ في قتاله وملكه بالأمان فقال محيي الدين ابن عبد الظاهر مهنياً له بفتوح عكار:

يا مليك الأرض بشرا كَ فقد نلت الارادة

(ويروى السعادة)

إن عكار يقيناً هو عكا وزياده

(ويروى لعمري موضع يقيناً)

ثمّ تسلّم قلعة العليقة وبلادها من الاسماعيلية ونازل حصن القرين وضيّق عليه إلى أن استلمه بالأمان وأمر به فهدم ثمّ جهز ما يزيد على عشرة شوانٍ لغزو قبرص فتكسرت في مرسى اليمبسوس وأسر الفرنج من كان في تلك الثواني فاهتمّ بعمار شوانٍ أخر فعمل في المدة اليسيرة ضعف ما تكسّر.

وفي سنة ٦٧٦هـ سنة ١٢٧٨م توفي السلطان الملك الظاهر بيبرس أبو الفتح الصالحي النجمي بدمشق ودفن فيها قرب الجامع الأموي، وكتم مملوكه بدر الدين تتليك المعروف بالخزندار موته وارتحل بالعساكر ومعهم المحفة مظهراً أنّ الملك فيها وانّه مريض، وكان الملك الظاهر حلف العسكر لولده بركة ولقبه الملك السعيد، ولمّا وصل بدر الدين بالعسكر إلى القاهرة أظهر موت الملك الظاهر وجلس ابنه الملك

السعيد للتعزية واستقرّ في السلطنة وكانت مدّة ملك الظاهر نحو سبع عشرة سنة.

وأمّا ما قاله المؤرخون الفرنج عن حروب الملك الظاهر معهم فهذا خلاصته: «كان التتر يأمنون أحياناً الفرنج عند غزواتهم لسورية كيلا يتجشمون حرب المسلمين والنصارى معاً ولم يكن الفرنج المقيمون بسورية على وفاق بينهم بل كانت عداوة شديدة بين أهل جنوا وأهل البندقية المتوطنين بعكا، ولما كان القديس لويس ملك فرنسة بسورية أصلح بينهم ومنعهم من العود إلى الخلاف، وبعد أن رجع إلى الغرب عادت العداوة بينهم حتى اتّصلت إلى سكان بلادهم في أوروبا، ولم يكن لأورشليم ملك إلّا بالاسم فقط وكانت أوروبا في أسوأ حال من جراء تهديد البربر لها أيضاً ومن الاختلافات بين ملوكها والانقسامات الداخلية أيضاً في بعض ممالكها. وزاد في الطين بلّة وفي الطنبور نغمة سقوط مملكة اللاتين في قسطنطينية لأنّ الملك ميخائيل باليولوغوس طرد منها الملك بودوين الثاني سنة ١٢٦١م. ففي هذه الحال السيئة قام في السلطنة الإسلامية الملك الظاهر بيبرس الذي لقّبوه عماد دين الإسلام وكنّوه بأبي الفتوحات. ففي سنة ١٢٦٣م بعد أن أخرب بلاد أنطاكية سار بعساكره المتوافرة إلى فلسطين فارتاع الفرنج من دنوه إليهم وأرسلوا يطلبون منه الأمان فأرسل وحرق كنيسة الناصرة ونهبت عساكره كل البلاد التي بين نايين وجبل طابور وأتوا فحلّوا تجاه عكا. ومن الغريب أنّ الملك الظاهر استطاع أن يغري أمير صور الفرنجي ليعاونه على عكا فوعده بالإجابة إلى ذلك واتّفق مع أهل جنوا وحاصر عكا بحراً حين كان بيبرس يحاصرها براً ومما يؤيد ذلك رسالة أنفذها البابا أوربانوس الرابع إلى الجنويين الذين بفلسطين يؤنبهم ويلومهم على سوء عملهم بسورية، على أنّ أمير صور ارعوى عما وعد به بيبرس وكفّ عن حصار عكا فاستشاط بيبرس من أخلاف الأمير وعده له وجاهر بأنّه سوف ينتقم من الفرنج، فأخرج القرى والمزارع وقام سكان المدن على أسوارها ينتظرون يوماً فيوماً قدوم الأعداء إليهم.»

وقصد بيبرس قيسارية سنة ١٢٦٥م فدافع أهلها شديد الدفاع ولما يئسوا تركوا المدينة وامتنعوا بالقلعة لكنّها على مناعتها لم تقوَ على مهاجمات عسكر بيبرس فافتتحوها وساروا منها إلى أرسوف، فصبر أهلها بالجهاد وألقى المسلمون أخشاباً وأشجاراً في خنادق المدينة ليعبروا إلى أسوارها فخرقها الفرنج، وأخذ كل فريق منهم يلغم ليقتتلوا تحت الأرض أيضاً ولم يكن ما يرد حمية الفرنج ولا ما يخمد جذوة غضب بيبرس. واستشهد المؤرخون الفرنج بقول المقريزي إنّ كثيرين من الأغنياء

والزهاد والفقهاء المسلمين انضموا إلى جيش بيبرس ليفتحوا ارسوف وان عساكر المسلمين لم يروا حينئذٍ الفرنج يشربون خمراً أو يأتون منكراً بل كانوا يرون بعض السيدات يحملن الماء والزاد للمحاربين ويلزمنهم عند اتقاد وطيس الحرب أيضاً، ويساعدنهم في نقل آلات الحصار. وقد استمرّ الحصار أربعين يوماً وأخيراً خفقت أعلام بيبرس على أبراج أرسوف ودخل المسلمون إليها فصلوا في كنائسها التي حولوها جوامع وقتلوا الكثيرين من سكانها واستعبدوا الباقين منهم ووزعهم بيبرس على رؤساء جيشه، وآمر بارسوف وهدمت واكره الأسرى ان يهدموا منازلهم بأيديهم. وقسم أرضها على أمرائه وعاد بيبرس إلى مصر ثمّ سار ثانية إلى سورية سنة ١٢٦٦م فنهبت عساكره بلاد صور وعكا وطرابلس وكانت غنيمة عساكره عظيمة حتّى روى المقريزي أنّه لم يبق من يشتري البقر والغنم وغيرها من الدواب ولو بأبخس الأثمان. وأتى فحاصر قلعة صفد وكانت تخص الفرسان الهيكليين وشدّ الحصار عليها حتى كان يشاطر جنوده الجهاد في فتحها وعرض نفسه أكثر من مرّة للخطر ودافع من فيها من الحامية مدافعة الأبطال وروعت بسالتهم المسلمين، ولم يُجْدِ على بيبرس تشجيع جنوده ولا عقابه من فرّ منهم ولا حبسه بعض أمرائه لأنّهم تركوا مواقفهم ولا وعده من صبر على القتال بأعظم المجازات بل نفعته حيله ودهاؤه، فانّه أكثر من المراسلات إليهم والوعود الكاذبة لبعضهم والوعيد لغيرهم حتى مكن الانقسام بينهم فصار بعضهم يرى المصلحة في الاستسلام إليه وغيرهم يراها بالمدافعة حتى الموت وأخذ بعضهم يشكو بعضاً بالخيانة ويوقع الشبهة على صدق أمانته فضعفت عزيمتهم وتفرّقت كلمتهم فنقصت قوّتهم وأكثر جنود بيبرس من المهاجمات لهم وكادت منجنيقاتهم تخرق الأسوار فاستسلموا على شرط أن يتوجّهوا حيث شاءوا ولا يأخذوا معهم سوى ملابسهم، فبذل لهم بيبرس الأمان على ذلك لكنّه لما رآهم خارجين من القلعة شكاهم بأنّهم حملوا نقوداً وأشياء نفيسة فقبض عليهم جميعاً وكانوا ست مئة مقاتل وعلى رواية بعض المؤرخين العرب كانوا ألفين، فأمر بقتلهم ولم يستبقِ إلّا اثنين منهم أحدهما أرسله إلى عكا ليخبر الفرنج بما كان في صفد والثاني أسلم فسلم وعاد بيبرس بعد أخذ صفد إلى مصر ثمّ رجع إلى سورية وجهز الحملة على ملك الأرمن مدّعياً عليه أنّه دعا التتر إلى سورية فانتصر عليه كما روى المؤرخون العرب وفرض ضريبة على المسلمين لنفقة الحرب التي كان يسميها الحرب المقدّسة. وحاول نخبة من الفرنج أن يغيروا على جهة طبرية فالتقاهم

المسلمون فشتتوا شملهم وقتلوا كثيرين منهم وقد أخذ المؤرخون الفرنج هذا الخبر عن المقريزي. وأرسل الفرنج يسألون هدنة فلم يجيبهم إليها بل أسرع بنفسه إلى ظاهر عكا فرأوه ممتطياً جواده منتصباً سيفه ينادي بخراب عكا وقتل سكانها واستمرّ محاصراً للمدينة أربعة أيام ورحل عنها بغتةً إلى يافا وكان من دأبه أن يشغل اعداءه في مواضع كثيرة بوقت واحد ليتقي تألّبهم عليه، وكان القديس لويس ملك فرنسة حصّن يافا ولكن لم يصبر سكانها على الدفاع فملكها بيبرس ودكّ أسوارها وكان ذلك سنة ١٢٦٧م ثمّ سار إلى طرابلس ولما سأله بيوموند لِمَ أتيت أجابه أتيت الآن لأحصد زرع أرضك وسوف آتي فأحصر مدينتك».

وكان من مدّة طويلة ينوي فتح أنطاكية ففي سنة ١٢٦٨م ساق إليها جنوده وكان بيوموند في طرابلس التابعة لولايته والبطريرك يدبر شؤون الحكومة مدّة غيابه وكان كثيرون من سكّانها قد ارتحلوا عنها فجبن الفرنج في الدفاع عنها وأكثروا من التضرّع والاسترحام للغازي فلم ينعطف إلى الإجابة، وقد أسكره ظفره وهام بتدمير مدن الفرنج عن آخرها، فدخل المسلمون المدينة عنوةً فلم يبقوا على أحد ممّن وجدوا من سكّانها واستحلّوا دم الفرنج وعرضهم وأموالهم وكتب بيبرس حينئذٍ رسالة لبيوموند صاحب أنطاكية وهو بطرابلس ومما قاله فيها وهو مترجم عن الفرنسية إذ لم نعثر على النص العربي»: « فاجأ الموت قومك من كل جهة وفي كل طريق فقد قتلنا كل من اخترتهم لحراسة مدينتك والدفاع عنها فلو رأيت فرسانك تطأهم أرجل خيلنا أو رأيت أعمالك منهوبة وأموالك موزونة بالقنطار ونساء رعاياك مباعة بالحرج أو رأيت الصلبان مطروحة على الأرض وأوراق الإنجيل ممزّقة وملقاة في الجو للرياح ومدافن البطاركة منجسة أو رأيت أعداءك المسلمين يذبحون الرهبان والكهنة والشمامسة على المذابح ورأيت الدور محروقة وكنيسة القديس بولس وكنيسة القديس بطرس مدكوكتين لعمري لو رأيت كل ذلك لصحت يا ليتني كونت غباراً».

وقسم بيبرس الغنائم على جنوده واقتسم المماليك النساء والبنات والأولاد وكان يباع الولد الصغير باثني عشر درهماً والبنت بخمسة دراهم فهلك سكان أنطاكية جميعهم في يوم واحد وأحرق بيبرس بيوتها ومساكنها. وقال أكثر المؤرخين إنّ عدد القتلى من النصارى بلغ إلى سبعة آلاف قتيل وعدد الأسرى مئة ألف أسير وكان فتح أنطاكية في أوّل أيّار سنة ١٢٦٨م وقد فتحها الفرنج سنة ١٠٩٨م فتكون مدّة

ملكهم لها مئة وسبعين سنة: وبعد أن بعث بيبرس رسالته إلى بيوموند أرسل إليه وفد وسار مع الوفد متنكّراً ليكشف على تحصينات طرابلس وينظر في الوسائل اللازمة لفتحها، وكان الوفد يسمون بيوموند كونتاً وهو يريد أن يسمى أميراً، فأشار إليهم بيبرس أن يدعوه أميراً ورجع مع وفده يسخر من بيوموند بقوله أتت الساعة التي يلعن الله بها الأمير والكونت. وبعد ذلك عقد هدنةً مع بيوموند ناوياً أن يخفي ما يكنه ضميره ومتى حان الوقت لا تعوزه حيلة لنقض الهدنة. ولما أمسى الفرنج بسورية بهذه الحال السيئة الحرجة سار رئيس أساقفة صور اللاتيني ورئيس الفرسان الهيكليين والاسبيتاليين إلى المغرب يستصرخون الكرسي الرسولي والملوك والشعوب لإنجادهم، فكان جل من لبى دعوتهم القديس لويس ملك فرنسة. وفي سنة ١٢٧٠م سافر وبلغ إلى صقلية وكان أخوه شارل دانجو صار ملكاً على صقلية فاقنع الملك لويس أن يتوجّه بعسكره أولاً إلى تونس فيدوخها ويمنع سطو التونسيين على الفرنج الذين يأتون إلى فلسطين فسار الملك لويس إلى تونس وحاصرها ولكن دهمته المنية هناك فذهبت نفسه الصالحة تنال أجل برها ومبراتها في الاخدار السماوية في ٢٥ آب سنة ١٢٧٠م، وقد أحصاه في مصاف القديسين الحبر الروماني البابا يونيفاشيوس الثامن سنة ١٢٩٧م. وكان البابا غريغوريوس العاشر قد بدأ في الفحص عن دعوى تطويبه مذ سنة ١٢٧٣م ثلاث سنين بعد وفاته. وبعد وفاة الملك لويس انتصر ابنه الملك فيليب وعساكره على أمير تونس وأرغموه على معاهدة مع الفرنج مذلة له ومشرفة للفرنج. وفي جملة موادها إباحة النصارى مباشرة أمور دينهم وبناء المعابد والأديار لهم بل عدم التعرّض لمن شاء من المسلمين أن يتنصّر. وكان إدوار ابن انريكس الثالث ملك انكلترا لحق بالقديس لويس ملك فرنسة إلى تونس، وبعد وفاته سار إلى عكا اما تواً إما بعد أن رافق جثة القديس لويس إلى صقلية على رواية أخرى، وكان صحبته نحو ثلثمائة فارس وألف راجل وانضمّ إليهم فرسان الهيكل والاسبيتال وجماعة من الفرنج حتى صار عسكرهم نحو سبعة آلاف مقاتل، فزحفوا أولاً إلى فينيقيا لإعادة الاتصال بين مدن النصارى وكان المسلمون قد قطعوه فعانوا مضض الحرّ وأفرط بعضهم في أكل الفواكه والعسل فمات بعضهم ثمّ توجّهوا إلى الناصرة فملكوها. وتذكروا تدمير بيبرس كنيسة العذراء الشهيرة بهذه المدينة فقتلوا من وجدوا فيها من المسلمين ونهبوا بيوتهم وبعد هذا الانتصار لم يشأ الأمير ادوار أن يستأنف الحرب إمّا لأنّه لم يرَ قوة كافية للثبات في القتال إمّا لأنّه رأى الفرنج المقيمين

بسورية لا يرغبون فيه، وإمّا لأنّه انخدع بمراسلة أمير يافا المسلم له واعداً بأن ينتصر وأن يسلم إليه هذه المدينة التي كان يليها من قبل بيبرس. وكثرت المراسلات بينهما وكان رسول أمير يافا رجلاً اسماعيلياً فدخل يوماً على الأمير ادوار وهو مضجع على فراشه فحمل عليه بمدية جرحته في ذراعه فرفسه الأمير فألقاه على الأرض وأراد أخذ المدية منه فجرح في جبهته ولما تناولها منه طعنه في بطنه وسمع الحجاب الصوت فدخلوا ووجدوا الاسماعيلي صريعاً، ولكن خافوا أن تكون المدية مسممة. وروى بعض المؤرّخين أنّ الأميرة اليونارا زوجة إدوار أخذت تمتص جرح زوجها لتخرج السمّ منه، وروى آخرون أنّ رئيس فرسان الهيكل أرسل إليه للحال دواءً لا يشك بنفعه ولكن لم ينجع هذا الدواء ولا غيره من العلاجات وخيف على حياة الأمير فحضر طبيب انكليزي وتعهّد بشفائه على شرط أن يبعد عنه الأميرة وحاشيته فأبعدوا. فقطع الطبيب كلما كان يراه أسود من لحم الأمير حول جرحه فبرأ بعد خمسة عشر يوماً. ولم يشأ إدوار بعد ذلك أن يبقى في فلسطين فعقد هدنة مع الملك بيبرس إلى مدّة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات. وبعد التوقيع عليها عاد إلى إنكلترا سنة ١٢٧١م وهكذا انتهت هذه الحملة التي هي الثامنة والأخيرة من حملات الفرنج على سورية.

عد ٨٧٧

خلافة ولدي الملك الظاهر له ثمّ خلعهما وتمليك قلاوون الصالحي

قد مرّ أنّ الملك الظاهر بيبرس توفي بدمشق وكتم نائبه ومملوكه بدر الدين موته إلى أن عاد بالعسكر إلى القاهرة، فأظهر موت الملك وجلس ابنه بركة في دست السلطنة سنة ٦٧٦هـ سنة ١٢٧٨م، ولقب الملك السعيد، واستمرّ بدر الدين نتليك الخزندار في نيابة السلطنة على ما كان عليه مع والده، لكنه مات بعد ذلك في مدّة يسيرة وتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين الفارقاني ولم يكن الملك السعيد يسمع له بل خبط وأراد تقديم الأصاغر، وأبعد الأمراء الأكابر، وقبض على سنقر الأشقر والبيسري وكانا من كبار قومه ففسدت نيّة الأمراء عليه. وفي سنة ٦٧٧هـ سنة ١٢٧٩م سار الملك السعيد إلى الشام بعسكره ووصل إلى دمشق وجرّد منها عسكراً أمّر عليه الأمير سيف الدين قلاون الصالحي وأرسلهم للإغارة على سيس في بلاد الأرمن، فشنّوا الإغارة وعادوا غانمين، واتّفقوا على الخلاف على الملك السعيد

وخلعه، وعبروا على دمشق ولم يدخلوها فأرسل إليهم الملك السعيد يستعطفهم، ودخل عليهم بوالدته فلم يلتفتوا إلى ذلك وأتّموا السير إلى مصر، فركب الملك السعيد وسبقهم إلى القاهرة ودخل إلى قلعة الجبل فوصلت العساكر بعده في ربيع الأوّل سنة ٦٧٨هـ سنة ١٢٨٠م، فحاصروا الملك السعيد بالقلعة وخامر عليه من كانوا معه وأخذ أحدهم يهرب بعد الآخر وينضمّ إلى عسكر المحاصرين، ولما رأى الملك السعيد ذلك طاوعهم على الانخلاع من السلطنة وطلب أن يعطى الكرك فأعطوه إياها فسار إليها وتسلّمها بما فيها من الأموال.

واتّفق أكابر الأمراء الذين خلعوا الملك السعيد على إقامة أخيه بدر الدين سلامش في المملكة ولقّبوه الملك العادل، وكان عمره إذ ذاك سبع سنين وشهوراً واختاروه صغيراً ليكون الأمر طوع أيديهم، وصار الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي أتابك العسكر (أي أمير الأمراء)، فجهز الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وأرسله إلى دمشق وجعله نائب السلطنة بالشام، وكان العسكر لما خالفوا الملك السعيد قد قبضوا على عز الدين أيدمر نائب السلطنة بدمشق، وولوا بعده بدمشق اقوش الشمسي نائب السلطنة بحلب، فسار سنقر الأشقر إلى دمشق وتولاها على أنّ هؤلاء الأمراء قد انقلبوا في السنة المذكورة نفسها على سلامش الذي ملكوه، فخلعوه وأجسلوا الأمير قلاون الصالحي أتابك المذكور على منصّة الملك ولقّبوه الملك المنصور. ولما علم بذلك سنقر الأشقر الذي كان الأمير قلاوون قد أرسله إلى دمشق خرج عن طاعته بعد سلطنته وحلف له الأمراء والعسكر الذين عنده بدمشق واستبدّ بالملك وتلقّب الملك الكامل شمس الدين سنقر، فجهز عليه الملك المنصور قلاوون عساكر مصر مع علم الدين سنجر الحلبي الذي تقدّم ذكر سلطنته بدمشق بعد موت قطز، ولما قاربت عساكر مصر دمشق برز إليهم سنقر الأشقر بعساكر الشام واقتتل الفريقان في ظاهر دمشق فولى الشاميون وسنقر الأشقر منهزمين، ونهبت العساكر المصرية أثقالهم وكتب سنجر الحلبي إلى الملك المنصور يخبره بالنصر. وكان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار نائباً بقلعة دمشق فاعتقله سنقر الأشقر عند خروجه فلما انهزم جعله قلاوون نائب السلطنة بالشام وأمّا سنقر الأشقر فانّه هرب إلى الرحبة، وكاتب ابغا بن هولاكو ملك التتر وأطمعه في البلاد وسار من الرحبة إلى صهيون واستولى عليها وعلى برزنه والشغر وبكاس وعكار وشيزر وافاميا وصارت هذه الأماكن له، وتوفي أقوش الشمسي المذكور نائب السلطنة بحلب فولى

الملك المنصور سنجر الحلبي المذكور. وكثرت الأخبار أنّ التتر قادمون إلى حلب بجموعهم فسار قلاوون من مصر ووصل إلى غزة قاصداً دفع التتر عن البلاد، وكان التتر قد وصلوا إلى حلب فعاثوا ثمّ عادوا، فلما علم الملك المنصور بعودهم عاد هو أيضاً إلى مصر لكنه رجع إلى الشام ثانيةً سنة ٦٨٠هـ سنة ١٢٨٢م، ووصل إلى بيسان وقبض على جماعة من الظاهرية ودخل دمشق واعدم منهم جماعة، وأرسل عسكراً إلى شيزر وهي لسنقر الأشقر كما مرّ وجرى بين العسكرين مناوشة وترددت الرسل بين السلطان قلاوون وبين سنقر الأشقر واحتاج السلطان إلى مصالحته ليقوى على التتر، فكان الصلح بينهما على أن يسلم سنقر شيزر إلى السلطان ويسترد سنقر الشغر وبكاس وكانتا قد أخذتا منه فتسلّم نواب السلطان شيزر وتسلّم سنقر الشغر وبكاس وحلفا على ذلك واستقرّ الصلح. وكان الملك السعيد بن بيبرس الذي ذكرنا خلعه من الملك وتوليته الكرك قد مات، واتّفق من بالكرك وأقاموا موضعه أخاه نجم الدين خضر ابن بيبرس ولقّبوه الملك المسعود وكان من المخالفين للملك المنصور قلاوون فاحتاج إلى مصالحته فصالحه أيضاً سنة ٦٨٠هـ سنة ١٢٨٢م ليجمع كلمة المصريين والشاميين على مدافعته التتر (عن أبي الفداء وابن خلدون).

عد ٨٧٨

وقعة حمص بين الملك المنصور قلاوون والتتر

في سنة ٦٨٠هـ سنة ١٢٨٢م حشد أبغا بن هولاكو ملك التتر عساكره وسار بها قاصداً الشام وانفرد عن جيشه فغنم وسار إلى الرحبة وسير جيوشه إلى الشام وقدّم عليهم أخاه منكوتمر بن هولاكو، فساروا إلى جهة حمص وكان الملك المنصور قلاوون بدمشق، فالتقاهم بالجيوش الاسلامية إلى حمص وأرسل يستدعي سنقر الأشقر ومن عنده من الأمراء والعسكر بحكم ما استقرّ بينهما من الصلح، فسار سنقر من صهيون إلى عسكر الملك المنصور ووصل إليه صاحب حماه الملك المنصور ورتب السلطان عساكره فكان في رأس الميمنة الملك المنصور محمّد صاحب حماه، وكان رأس الميسرة سنقر الأشقر ومن معه، وكان بر الميمنة العرب وبر الميسرة التركمان وكان في القلب حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة ومن أضيف إليه من الأمراء والعساكر، والتقى الفريقان بظاهر حمص في الساعة الرابعة من يوم الخميس رابع عشر رجب الفرد، وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة

فهزموا من كان قبالتهم من التتر وركبوا أقفاءهم يقتلونهم، وكان أخو ابغا قبالة القلب فانهزم أيضاً وأمّا ميسرة المسلمين فانكشفت عن مواقفها وانهزم بعض رجالها إلى جهة دمشق وسافر التتر في اثرهم حتى وصلوا إلى تحت حمص ووقعوا في السوقية وغلمان العسكر والعوام فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ثمّ علموا بنصرة المسلمين في القلب والميمنة وهزيمة جيشهم فولى هؤلاء أيضاً على أعقابهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون. وكان عدد التتر ثمانين ألف فارس منهم خمسون ألفاً من المغول والباقي حشود وجموع من امم مختلفة مثل كرج وأرمن وعجم وغيرهم. ولمّا وصل خبر هذه الكسرة إلى ابغا وهو على الرحبة يحاصرها رحل عنها على عقبة منهزماً وصرف الملك المنصور قلاوون العساكر الإسلامية فرجع كل منهم إلى محله وعاد هو إلى دمشق والأسرى والرؤوس بين يديه، ثمّ عاد إلى الديار المصرية ومات بعد ذلك منكوتمر أخو ابغا المذكور ابن هولاكو مكموداً عقيب كسرته على حمص. وفي سنة ٦٨١هـ سنة ١٢٨٣م مات ابغا أيضاً ابن هولاكو بن جنكيز خان ملك التتر، ولما مات ابغا ملك بعده أخوه أحمد بن هولاكو. ولما جلس في الملك أظهر دين الإسلام وتسمى أحمد سلطان وكان اسمه بيكدار، وأرسل رسلاً إلى السلطان الملك المنصور وقلاوون فاحترز عليهم السلطان ولم يمكّن أحداً من الاجتماع بهم وكان مضمون رسالتهم اعلام السلطان باسلام أحمد وطلب الصلح بين المسلمين والتتر فلم ينتظم ذلك.

ثمّ خرج ارغون بن ابغا بخراسان على عمّه أحمد سلطان المذكور سنة ٦٨٢هـ سنة ١٢٨٤م واقتتلا، فانهزم أرغون وأخذه عمه أسيراً، وسأله الخواقين إطلاق ابن أخيه أرغون واقراره على خراسان فلم يجب إلى ذلك، وكانت خواطر المغول أي التتر قد تغيّرت على أحمد بسبب اسلامه والزامه لهم بالإسلام فاتّفقوا على قتله، وقصدوا ارغون بالموضع الذي هو معتقل فيه فأطلقوه وقتلوا نائب أحمد ثمّ ساروا لقتل أحمد فأحسّ بهم فهرب فتبعوه وقتلوه وملكوا أرغون. (انتهى ملخّصاً عن أبي الفداء وابن خلدون وغيرهما).

عد ٨٧٩

وفاة صاحب حماه وفتح قلعة المرقب وصهيون

في سنة ٦٨٣هـ سنة ١٢٨٥م توفي الملك المنصور صاحب حماه وهو من

الأيوبيين وكانت مدّة ملكه على حماه إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام، وكان قد أوصى بأن يخلفه الملك المظفر وكتب في ذلك إلى السلطان الملك المنصور قلاوون فلم يرد الجواب منه إلّا بعد وفاة الملك المنصور، وبه يدعو السلطان الملك المنصور لصاحب حماه بطول البقاء والبرء من المرض، ويعده باقرار ابنه الملك المظفر على حماه إذ لم يفسح الله بأجله. وبعد وفاة الملك المنصور أرسل السلطان قلاوون إلى ابنه الملك المظفر التشاريف ومرسوم اقراره في مملكة حماة، وفي سنة ٦٨٤هـ سنة ١٢٨٢م سار الملك المظفر صاحب حماه إلى دمشق حيث كان السلطان قلاوون يشكر له فأكرمه السلطان إكراماً كثيراً.

وفي السنة المذكورة أي سنة ١٢٨٦م سار السلطان قلاوون بالعساكر المصرية والشامية ونازل حصن المرقب، وكان هذا الحصن لفرسان الاسبيتال وكان في غاية العلو والحصانة لم يطمع أحد من الملوك الماضين في فتحه. ولما زحفت عساكر قلاوون إليه نصبت عدّة مجانيق كباراً وصغاراً وأخذ الحجّارون ينقبون فيه. وقال أبو الفداء المأخوذ هذا الكلام عن تاريخه إنني حضرت حصار الحصن المذكور وعمري إذ ذاك اثنتا عشرة سنة وهو أوّل قتال رأيته وكنت مع والديّ، ولمّا تمكّنت النقوب من أسوار القلعة طلب أهلها الأمان فأجابهم السلطان إليه رغبة في إبقاء عمارتها فانه لو أخذها بالسيف وهدمها كان حصل التعب في إعادة عمارتها وأعطى أهلها الأمان على أن يتوجّهوا بما يقدرون على حمله غير السلاح، وصعدت السناجق السلطانية على حصن المرقب المذكور وحمل أهله إلى مأمنهم ورحل السلطان عنه إلى الوطأة بالساحل وأقام بروجاً بالقرب من موضع يقال له برج القرقيص ثمّ سار ونزل تحت حصن الأكراد ثمّ نزل على بحيرة حمص.

وقد ذكر المؤرخون الفرنج حصار قلعة المرقب وفتحها فقالوا شكا المسلمون من فرسان الاسبيتال الذين كانت هذه القلعة تخصّهم بانهم يغيرون على أرض المسلمين وربّما لم تكن هذه الشكوى كاذبة فقصدها السلطان قلاوون بعساكره وكانت هذه القلعة أشبه بمدينة، وكانت أبراجها أعلى من أبراج تدمر، فلم يكن يطمع في أخذها ومع ذلك نصبت عساكر قلاوون مجانيقها عليها وأخذت في حصارها في أوّل نيسان من السنة المذكورة، وأخذ الحجارون ينقبون في أسوارها ففتحوا فيها نافذة وهجموا عليها فردّتهم بسالة الفرنج عن القلعة فلم ينفك المسلمون عن الوثوب عليها واتّصلوا بلغم تحت القلعة إلى داخلها فاضطرّ الفرنج أهلها إلى أن يستسلموا إلى السلطان

قلاوون وهرب من كان فيها من الفرنج إلى طرابلس وملك المسلمون قلعة المرقب.

وفي سنة ٦٨٦هـ سنة ١٢٨٨م كان السلطان قلاوون قد جهز عسكراً كثيفاً مع نائب سلطنته حسام الدين طرنطاي وأمرهم بالمسير إلى قلعة صهيون وكان صاحبها حينئذٍ شمس الدين سنقر الأشقر كم مرّ فنصبت العساكر عليها المجانيق وضايقوها بالحصار فاضطرّ سنقر إلى تسليمها بالأمان وحلف له حسام الدين قائد الجيش بأنّ السلطان سيكرمه. وسار حسام الدين إلى اللاذقية وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته فالقى حجارة في البحر عبر عليها إلى البرج فحصره وتسلّمه بالأمان وهدمه، وتوجّه بعد ذلك وصحبته سنقر الأشقر إلى الديار المصرية ولما وصلا إلى قرب قلعة الجبل في القاهرة ركب السلطان قلاوون نفسه والتقاهما وأكرمهما ووفى بالأمان الذي أعطاه حسام الدين لسنقر المذكور. (انتهى ملخصاً عن أبي الفداء وابن خلدون وغيرهما).

عد ٨٨٠
ذكر فتوح طرابلس

هذا ما رواه المؤرخون المسلمون: «في سنة ٦٨٨هـ سنة ١٢٨٩م خرج السلطان الملك المنصور قلاوون بالعساكر المصرية في المحرم من هذه السنة وسار إلى الشام ثمّ سار بالعساكر المصرية والشامية ونازل مدينة طرابلس الشام يوم الجمعة مستهل ربيع الأوّل، ويحيط البحر بغالب هذه المدينة وليس عليها قتال في البرّ إلّا من الجهة الشرقية ونصب السلطان عليها عدة كثيرة من المجانيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار واشتدّ عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر من هذه السنة بالسيف ودخلها العسكر عنوةً، فهرب أهلها إلى المينا فنجا أقلّهم في المراكب وقتل أكثر رجالها وسبيت ذراريهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة. قال أبو الفداء المأخوذ هذا الكلام عن تاريخه وحصار طرابلس هو أيضاً مما شاهدته وكنت حاضراً فيه مع والدي الملك الأفضل وابن عمي الملك المظفر صاحب حماه ولمّا فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم أمر السلطان فهدمت ودكّت إلى الأرض وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطوماس (أي القديس توما) وتقع وبينها وبين طرابلس المينا فلما أخذت طرابلس

هرب إلى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء، فاقتحم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا من بها من النساء والصغار. وبعد فراغ الناس من النهب عبرت أنا إلى هذه الجزيرة في مركب فوجدتها ملأى من القتلى بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من نتن القتلى. ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس وهدمها عاد إلى الديار المصرية وأعطى صاحب حماه الدستور فعاد إلى بلدهِ وكان الفرنج قد استولوا على طرابلس سنة ٥٠٣هـ سنة ١٢٩٩م. فتكون مدّة مكثها مع الفرنج نحو ماية وخمس وثمانين سنة (قمرية وماية وتسع وسبعين شمسية).

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك إنّ بيوموند السادس أمير أنطاكية وكونت طرابلس توفي سنة ١٢٧٥م وخلفه ابنه بيوموند السابع وكان صغيراً وكان تدبير الإمارة لوالدته وأسقف طرسوس، وكان هوغس الثالث ملك قبرص من أنسباء أمير أنطاكية فأتى إلى طرابلس حيث الأمير الصغير ناوياً أن يأخذ تدبير الإمارة، فمانعته من ذلك والدة الأمير وأسقف طرسوس فاعتزل ملك قبرص وأقام في عكا. وكان عند بيوموند السادس رجال رومانيون سلم إليهم بعض مهام إمارته فاستاء من ذلك شرفاء المدينة فكان سبباً للقلق في طرابلس بعد موت الأمير وقتل من الرومانيين ثلاثة رجال. وكان أسقف طرابلس رومانياً أيضاً فكان يؤيد جانب الرومانيين المذكورين وتحزب أسقف طرسوس للشرفاء فكان هذا الاختلاف بين الأسقفين أيضاً علة لشرور كبيرة وأدى إلى الخلاف بين الأمير والفرسان الهيكليين وأسقف طرابلس، واتّصل الأمر إلى أن طرد الأمير أسقف طرابلس من كنيسته وضبط أملاكه فلجأ الأسقف إلى دار الهيكليين في طرابلس فكبسه الأمير فيها وأراد هدمها وبعد أن طرد الأسقف منها نهبها وأقام خفراً من المسلمين على حفظها فحرم أسقف طرابلس الأمير ومن اشترك معه في هذا التعدي. وقد عثر على رسالة من البابا نيقولاوس الثالث إلى هذا الأمير مؤرخة في أوّل حزيران سنة ١٢٧٩م يؤنبه فيها على هذا التعدي، ومما قاله بها حذار أيها الابن العزيز أينطبق ما صنعته على صنع رجل مسيحي أم هذه بواكير ملكك فكيف يمكننا أن نقنع الملوك والمؤمنين في المغرب بأن يسيروا لنجدتكم وقد اشتهر عنكم أنّكم تضطهدون النصارى وكنيسة طرابلس فاقتدينَّ بمثل أجدادك، فما دام أمراء أنطاكية يكرمون الكرسي الرسولي وفقت إمارتهم، ولما أخلُّوا في طاعته خسروا أنطاكية.

وكان التحاسد بين الفرنج عظيماً وقد اتّفق فرسان الهيكل مع حاكم جبلة على أن يستولوا على طرابلس. وقال ميشود في تاريخ الصليبيين إنّ لدينا تقريراً مخطوطاً مسجلاً في سجل طرابلس ومشهوداً عليه من كثيرين. ففي هذا التقرير يبين حاكم جبلة اتفاقه مع الهيكليين على خيانة بيوموند ومن بعد أن كشفت هذه الخيانة أمر الهيكليون حاكم جبلة أن يحارب الفرنج الذين من بيزا في سورية وأن ينهبهم فلم يحاربهم، وأكرهته مناخز ضميره أو خوفه من بيوموند ان يقر بذنبه ويسترضي هذا الأمير، ومما قاله أنّه مستعد لترك أملاكه في جبلة وذهابه إلى جهة أخرى يعيش به، ولم يشأ الهيكليون أن يشفعوا به ويسعفوه بأمر. وقال بعض المؤرخين العرب إنّ بيوموند أمر بقتل حاكم جبلة وأخذ أملاكه فاضطرّ ابنه للأخذ بثأر أبيه أن يلتجي إلى المسلمين. ثمّ مات بيوموند فتعاظم الخلاف والقلق وأخذت أخته وأمّه تتنازعان ملكه ففي هذه الحال السيئة سار السلطان قلاوون لحصار طرابلس سنة ١٢٨٩م.

ولما عرف الفرنج استعداد السلطان قلاوون لحصار طرابلس عادوا إلى نوع من الاتفاق واستمدّوا ملك قبرص وفرسان عكا فأرسل ملك قبرص أربعة مراكب وعدة من الجنود فرساناً بامرة أخيه وسارع فرسان الاسبيتال والهيكل وغيرهم من الفرسان حتى من أهل بيزا والبندقية المقيمين في فلسطين لانجاد الطرابلسيين والدفاع عن مدينتهم، وكان أمير أسطول جنوى أتى إلى طرابلس يطلب من أهلها ترضية عما كانوا جنوه على بعض الجنويين فلم يأب هذا أيضاً مساعدة الطرابلسيين في هذه الحال. وقد أقام السلطان قلاوون سبعة عشر منجنيقاً كبيراً ترمي أسوار طرابلس وأشغل ألف وخمسماية جندي بالنقب تحتها ومن بعد أن حاصرها المسلمون خمسة وثلاثون يوماً دخلوا إليها وأوقعوا بها ما ذكره المؤرخون العرب ولجأ بعض المنهزمين النصارى إلى مراكب جنوى وغيرها فحملتهم هذه المراكب إلى قبرص. وذكروا أنّ عدد القتلى في وقت الحصار كان سبعة آلاف رجل. ولما كانت خسائر المسلمين لا تقل عن ذلك لم يبقوا بعد دخولهم المدينة على أحد ممن وجدوه من الرجال وأخذوا النساء والأولاد أسرى. وذكر المؤرخون الفرنج ما ذكرناه عن أبي الفداء من هرب بعضهم إلى الجزيرة وعبور المسلمين إليهم وقتلهم.

عد ٨٨١

ذكر فتوح عكا

بعد أن فتح الملك المنصور قلاوون طرابلس أخذ يتجهّز لفتح عكا وخرج في سنة ٦٨٩هـ سنة ١٢٩٠م من الديار المصرية بالعساكر المتوافرة فأصابه مرض في طريقه وأخذ يتزايد حتى توفي يوم السبت سادس ذي القعدة بدهليزه بعد أن ملك نحو إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر، وخلف ولدين الملك الأشرف صلاح الدين خليل والسلطان الأعظم الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمّد. وفي صبيحة اليوم الذي توفي فيه جلس في الملك ابنه الملك صلاح الدين خليل وفوض نيابة السلطنة إلى بدر الدين بيدرا بعد أن قتل حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة في أيام أبيه، وعهد بالوزارة إلى شمس الدين محمّد بن السلعوس، ثمّ سار بالعساكر المصرية سنة ٦٩٠هـ سنة ١٢٩٠م إلى عكا وأرسل إلى العساكر الشامية أن يحضروا وصحبتهم المجانيق فتوجّه الملك المظفر صاحب حماه وعمه الملك الأفضل وسائر عسكر حماه معه إلى حصن الأكراد وقال أبو الفداء المأخوذ هذا الكلام عن تاريخه قد تسلّمنا من حصن الأكراد منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري حمل ماية عجلة، ففرقت في العسكر الحموي، وكان المسلم إليّ منه عجلة واحدة لأني كنت إذ ذاك أمير عشرة وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء، فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهراً وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيل على العادة، وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غير عكا. وكان نزول العساكر الإسلامية عليها في أوائل جمادي الأولى من هذه السنة، واشتدّ عليها القتال ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها بل كانت مفتوحة وهم يقاتلون فيها، وكانت منزلة الحمويين برأس الميمنة على عادتهم فكانوا على جانب البحر عن يميننا إذا واجهنا عكا، وكان يحضر إلينا مراكب مقببة بالخشب الملبّس جلود الجواميس وكانوا يرموننا بالنشاب والجروح، وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من جهة البحر وأحضروا مركباً فيه منجنيقاً يرمي علينا وعلى خيامنا من جهة البحر، فكنا منه في شدّة حتى اتفق في بعض الليالي هبوب أرياح قوية

فارتفع المركب وانحطّ بسبب الموج فانكسر المنجنيق الذي كان فيه ولم ينصب بعد ذلك، وخرج الفرنج في أثناء الحصار بالليل وكبسوا العسكر واتّصلوا إلى الخيام وتعلّقوا بالأطناب، فتكاثرت عليهم العساكر فولوا منهزمين إلى البلد وقتل عسكر حماه عدة منهم. ولمّا أصبح الصباح علق الملك المظفر صاحب حماه عدّة من رؤوس الفرنج في رقاب خيلهم التي كسبها العسكر منهم وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف، واشتدّت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم في يوم الجمعة السابع عشر من جمادي الآخرة بالسيف، ولمّا هجم المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب وكان في داخل البلد عدّة ابرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصّنوا بها وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئاً يفوت الحصر لكثرته، ثمّ استنزل السلطان جميع من عصا بالأبرجة ولم يتأخّر منهم أحد وأمر بهم فضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكا، ثمّ أمر بمدينة عكا فهدمت إلى الأرض ودكت دكاً. ومن عجائب الاتفاق أنّ الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة السابع عشر جمادي الآخرة سنة ٥٨٧هـ واستولوا على من بها من المسلمين وفتحت في هذه السنة يوم الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة على يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين فكان فتوحها مثل اليوم الذي ملكها الفرنج فيه وكذلك كان لقب السلطانين واحداً.

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك. كانت عكا حينئذٍ عاصمة الجاليات النصرانية وأعظم مدن سورية وأكثر الفرنج الذين طردهم المسلمون من مدنهم لجأوا إلى عكا، وكانت مرسى كل السفن الآتية من الغرب، وقد اجتمع فيها التجار من كل صقع وحلّ بها أكابر الفرنج ونواب بعض الملوك والعمال الذين أخذ المسلمون أعمالهم. وقد شكا المؤرخون الذين كانوا في ذلك العصر من ترف سكان عكا وخلاعتهم وانصبابهم على الملاهي والملاذ وزادوا في الشكوى من التحاسد الذي كان بين هؤلاء الجاليات وتعصب كل منهم لأبناء وطنه وعدم وجود شريعة عامة يخضع لها جميعهم أو سلطة فعالة يتهيبونها، فتوقف كلًّا على حد حقه، وتروعه عن هضم حق غيرهِ فكان لكل جالية من بلاد رئيس وشريعة، ولا جامعة بينهم وسلطة ملك أورشليم اسمية لا فعلية. وقد كشفت لنا الأيام الحاضرة عن سرٍ كان مجهولاً في ذلك العصر وهو أنّ الفونس الثالث ملك اراكون وأخوه يعقوب ملك صقلية راسلا سلطان مصر وأرسلا إليه هدايا وأطلقا تزلفاً إليه سبعين مسلماً كانوا

أسرى عندهما ورغبا إليه أن يعامل من كان من رعاياهما في ملكه كما كان الملك الكامل يعامل رعايا فريدريك الثاني ملك ألمانيا، وعقدا معاهدة مع السلطان قلاوون في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٢٩٠م. من فحواها أولاً أن يبذل الملكان جدّهما في إيقاف البابا والملوك النصارى وجمهوريتي جنوا والبندقية والروم والفرسان الهيكليين والاسبيتاليين عن كل معاداة للسلطان وعن السطو على أرضه ثانياً ان يحاربا براً وبحراً من يشهر من النصارى الحرب على السلطان. ثالثاً ان يعلما السلطان بكل ما يكاد عليه في الغرب. رابعاً اذا انقضت مدّة الهدنة الموجودة حينئذٍ أو جرى الإخلال بها فلا ينجد الملكان نصارى سورية بسلاح أو مال أو بأي شيء كان، ولا يعاونان البابا أو ملوك النصارى أو الروم أو التتر إذا حارب أحد هؤلاء السلطان. ولم يكن للملكين في مقابلة ذلك إلّا إباحة رعاياهم ان يحجوا إلى القبر المقدّس وسائر الأماكن المقدّسة دون معارض إذا كانوا مصحوبين باذن الملك وإلّا الرخصة لسفن اراكون وصقلية أن تدخل المرافئ المختصّة بالسلطان وتقبل فيها كما تقبل سفن رعاياه في المرافئ المختصّة بالملكين. (كل هذا مأخوذ عن ترجمة قلاوون التي نشرها دي ساسي).

وكان السلطان قلاوون يتحين الفرصة لفتح عكا ويتوقع حجة لنقض الهدنة التي لم تكن انقضت مدّتها. واختلف في ذكر الحجة التي تسول بها حينئذٍ واصح الأقوال فيها أنّ شاباً مسلماً عشق امرأة مسيحي عني ومضى بمعشوقته إلى جنة في ظاهر عكا، وعرف زوجها فلحقها وقتل المعشوقة والعاشق، وقد أضاعه حنقه الرشد فعاد إلى عكا وخنجره بيده فقتل من التقى به من المسلمين، فأرسل السلطان قلاوون يطلب الجانين من عكا، وإذا حصل التأخّر عن إرسالهم حصر عكا فأرسل النصارى من عكا وفداً يعرض عليه جزاء المجرمين بالحبس والنفي فأبى هذه الترضية وأعلن الحرب وسار بالجيش المصري فباغتته المنية كما مرّ.

وقام ابنه الملك الأشرف بالأمر وباتمام وصيّة أبيه بحصار عكا فسار إليها بأربعين ألف فارس ومئتي ألف رجل من مصر وانضمّ إليه من دمشق وحماه وحلب والبلاد الشرقية والغربية نحو من مئتي ألف آخرين. ولم يكن رجال الحرب في عكا في أوّل الأمر أكثر من عشرين ألف وكانت عساكر الملك الأشرف تزداد كل يوم ورجال الفرنج تنقص، وبديء في الحصار في الخامس من نيسان سنة ١٢٩١م وكان رئيس فرسان الهيكل صديقاً للسلطان فسار إليه يطلب توقيف الحرب فأجابه

السلطان إلى ذلك على شرط أن يدفع كل من سكان عكا النصارى ديناراً بندقياً، وعاد رئيس الفرسان يخبر الشعب وهم مجتمعون في كنيسة الصليب بما وفق إليه ويشير عليهم بقبول الشرط فازدروه وصاحوا انّه خائن يستحقّ الموت وصمموا على الدفاع.

وكان رجال الحرب من الفرنج أشدّاء متحمّسين على ما أوقعه بينهم الانقسام من الوهن غير مبالين بقلّة عددهم واختلاف آرائهم فصبروا في الدفاع عدّة أسابيع وأبواب المدينة مفتوحة ليلاً ونهاراً يخرجون منها كل يوم للسّطو على الأعداء وقد أوقعوا بهم خسائر جسيمة بعدّة خرجات وكانت العساكر الإسيلامية تتقدّم بلغم الأرض نحو الأسوار حتى حكموا مناجيقهم من المدينة واقتربوا منها وأمطروا عليها مدّة عشرة أيام متتالية سيولاً من نبال وحجارة فاستحوذ الوهن على الفرنج وخمدت حميتهم وأنزل الأغنياء منهم نساءهم وأولادهم في سفن وسيروهم إلى قبرص بل أبقَ بعض الفرسان والرجالة أيضاً وغادروا عكا وكانوا أولاً عشرين ألفاً فأمسوا بعد هذه الأيام العشرة اثني عشر ألفاً منهم ثمانمائة فارس، وترك ملك قبرص وأورشليم القتال في الليلة الواقعة في الخامس عشر والسادس عشر من أيار بحجّة إراحة جنودهِ وكانوا مئتي فارس وخمس مئة راجل وانسحب ليلاً من عكا ولحقه ثلاثة آلاف من أوجهها.

وفي صبيحة السادس عشر من أيار رأى جيش المسلمين أنّ عدد الرجال على الأسوار أقل مما كانوا قبلاً فهجموا على المدينة فدافع سكّانها وأبدوا معجزات البسالة وأرغمتهم كثره الأعداء على التقهقر، ودخل بعض المسلحين المدينة وكان فرسان الهيكل والاسبيتال قد توقّفوا ذلك اليوم عن القتال لأنّه لم يكن برأيهم، فلما رأوا قهقرى الفرنج أخذتهم الحمية فركب مريشال الاسبيتال (متّى) من كلرمون بفرسانه وأسرع إلى لقاء المسلمين وردّ من كان هارباً من الفرنج فوثب على المسلمين الذين دخلوا المدينة فقتل أحد رؤسائهم وجرح كثيرين وانتزع سلاحهم فاقتدى غيره بشجاعته فطردوا من المدينة من دخل إليها فعاودت الشجاعة قلوب الفرنج وخرج من الأبرجة من كانوا تحصّنوا بها وعاونوا الباقين ليلاً على سدّ الثلمة التي فتحها المسلمون في الأسوار. وقبل الصباح عقدوا مجلس مشورة في دار الاسبيتاليين فرأى بعضهم أنّ الدفاع أصبح مستحيلاً إذ قتل في الأمس ألفا رجل من الفرنج وان أحسن وسيلة لنجاة من بقي من الشعب ترك المدينة. على أنّ هذه الوسيلة غير

ممكنة إذ لم يكن هناك إلّا مركبان لا يسعان إلّا مئتي رجل فنهض بطريرك أورشليم وألقى فيهم خطبة بيّن فيها أنّ لا وسيلة في شدّة هذا الضيق لجنود نصارى كما هم إلّا الاتّكال على الله والتجلّد في الدفاع، ولا مطمع في رأفة الأعداء أو في شفقتهم على النساء والأطفال ولا مندوحة للهرب، فلا مناص إذاً من القتال ومن أراد الله موته مات شريفاً مجاهداً في الدفاع عن نفسه وعن دعوى عادلة صالحة أبى الله إلّا أن يثيبها، وبسالة رجال الحرب تأتي بالآيات والعجائب إذا كان مصدرها الإتّكال على قدرة الله، فبيعوا إذاً دمكم غالياً ما استطعتم ولا تكونوا أوغاداً جبناء، وإذا كان لا بدّ من الموت في كل الأحوال فلا يبقى لكل منّا إلّا أن يختار اسعيداً ومجيداً يموت أو ذليلاً ووغداً؟ فكان لخطاب البطريرك وقعٌ شديدٌ في قلوبهم فسمعوا القداس واعترفوا بخطاياهم وقبّل بعضهم بعضاً قبلة السلام وتناولوا القربان الأقدس وتسارعوا إلى الأسوار وإلى مواقفهم الحربية.

ولمّا أصبح صباح الثامن عشر من أيّار سنة ١٢٩١م هاجمهم المسلمون ودخلوا المدينة مرّتين من ثلمة الأسوار ومن باب كنيسة القديس أنطونيوس فردّهم الفرنج ومقدّمهم متى (سماه بعضهم غوليلمس) من كلرمون ماريشال الاسبيتاليين في المرتين، فجمع السلطان جيشه كله على المنفذين المذكورين فانهزم حينئذٍ يوحنا دي كراتي نائب ملك فرنسة، واوتون دي كرانديزون نائب ملك انكلترا وجنودهما وأسرعا إلى مركب هرباً به، وصبر باقي الفرنج على القتال صبراً عزّ له النظير، وأتى حينئذٍ رئيس الفرسان الهيكليين بفرسانه يدافع عن الدخول في الباب المعروف بباب القديس أنطونيوس فأصابه سهم صرعه عن جواده ومات. وكان رئيس الاسبيتاليين يقاتل على الثلمة التي فتحوها في السور فجرح جرحاً مميتاً فحمل إلى سفينة وأما الماريشال متى فيئس وألقى بنفسه في وسط المسلمين وأخذ يقتل ممن كان عن يمينه أو شماله حتى وقع به جواده وأصيب هو بعدة سهام. وأمّا البطريرك نيقولاوس بطريرك أورشليم المذكور فاثر الموت مع شعبه على[8] الفرار فأنزلوه مكرهاً في قارب يوصله إلى مركب، فأخذ الراعي الصالح صحبته بكثيرين حتى أثقلوا القارب فغرق بهم جميعاً وهكذا كانت نهاية آخر بطريرك أورشليمي لاتيني أقام بهذه البلاد.

وكان في عكا دير شهير يسكنه راهبات القديسة كلارا، ولما علمت رئيستهن بدخول المسلمين إلى المدينة جمعت الراهبات فقالت بناتي لا تأسفن على هذه الحياة الزائلة وليكن همكنّ أن تمتنَ طاهرات بجسمكنّ وقلبكنّ واصنعن لما تشاهدنني له أ

صانعة، وأخذت جارحة وقطعت أنفها وغطى دمها وجهها واقتدت الباقيات بها فشوّهن وجوههنّ ولما دخل المسلمون الدير اشمأزوا من هذا المشهد وحملهم الاشمئزاز على الحنق فقتلوا أولئك الراهبات عن آخرهنّ.

وبعد دخول المسلمين إلى عكا كان في شوارعها وعلى قلاعها وحصونها ما ترتعد له الفرائص من المذابح والفظائع حتى روى أحد فرسان القديس يوحنا الذي كان شاهداً هذه الحرب، انّه كان يعبر على الجثث من محل إلى آخر كأنّها جسور، وكانت جماعات من المنهزمين لا يعلمون أين يمضون ودخل بعضهم إلى الكنائس فاحترقوا بها أو ذبحهم الأعداء بجانب المذابح وبقي في المدينة بعض قلاع وحصون وفيها بعض الفرنج فدافعوا حتى قتلوا وسلاحهم بأيديهم، وبقيت قلعة الفرسان التي كان لجأ من نجا منهم من سيوف المسلمين فأرسل السلطان يعرض عليهم أن يستسلموا إليه فاستسلموا. وأرسل السلطان ثلاثماية جندي ليخرجوهم بالأمان ودخلوا برج رئيس الفرسان فوجدوا بعض النساء اللواتي فررنَ إلى هناك فسطوا عليهنّ فلم يتحمّل الفرسان هذا التعدّي على نساء لجأن إليهم فوثبوا على الجنود الذين دخلوا البرج فقتلوهم عن آخرهم فسخط السلطان وأمر بإعادة الحصار عليهم فدافع الفرسان ومن معهم عن نفوسهم شديد الدفاع وأقاموا على ذلك أياماً وأخيراً نقب جنود السلطان أساس القلعة فتداعت وسقطت والجنود مهاجمون لها فقتل تحت أنقاضها الفرسان ومن صحبهم ولجأ إليهم، والجنود المهاجمون لهم، وأمر السلطان أخيراً بهدم كل القلاع والحصون والابرجة والدور والكنائس المشهورة وأمست عكا قاعاً صفصفاً وكوم أنقاض. (انتهى ملخصاً عن أقوال المؤرخين الفرنج عمّن كانوا شهوداً عيانيين في هذه الحرب).

عد ٨٨٢

فتح صور وصيدا وبيروت وغيرها

هذا ملخّص ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك لاسيما أبو الفداء. لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعبة في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام فأخلوا صيدا وبيروت وتسلّمها الشجاعي نائب السلطنة بدمشق في أواخر رجب، وكذلك هرب أهل صور فأرسل السلطان وتسلّمها ثمّ تسلّم عثليت في مستهل شعبان ثمّ تسلّم

انطرطوس في خامس شعبان جميع ذلك في هذه السنة أعني سنة ٦٩٠هـ سنة ١٢٩١م. واتّفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتّفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب وأمر بها فخربت عن آخرها وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للاسلام، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام. وبعد ذلك رحل السلطان الملك الاشرف ودخل دمشق وأقام مدّة ثمّ عاد إلى الديار المصرية ودخلها في هذه السنة. وعن صالح بن يحيى في تاريخ بيروت انّه لما وصل سنجر الشجاعي إليها نزل بقلعتها وأمر الفرنج أن ينقلوا أولادهم وحريمهم وأثقالهم إليها، وظنّوا أنّه مشفق عليهم فقبض على الرجال وقيّدهم وألقاهم في الخندق وشرع في هدم أسوار المدينة وقلعتها وجهز أهلها إلى دمشق ثمّ إلى مصر فهلك منهم العاجز والنساء ولمّا وصلوا إلى مصر خيّرهم السلطان بين العود إلى بيروت أو التوجّه إلى قبرص بأجمعهم.

وهذا ملخّص ما قاله المؤرخون الفرنج ان سكان صور تركوا مدينتهم وانهزموا بحراً وكان الفرسان الذين انهزموا من عكا ساروا إلى صيدا وتجهّزوا للدفاع عنها ولكن لما بلغهم أنّ أحد أمراء المسلمين يتجهّز لقتالهم في صيدا ضعفت عزائمهم وولوا هاربين أولا إلى طرطوس ثمّ إلى قبرص ثمّ سار الأمير وهو الشجاعي نائب السلطنة بدمشق فأخذ صيدا ودكّ قلعتها، ثمّ سار هذا الأمير إلى بيروت فاستسلم أهلها إليه دون قتال وكان أهل هذه المدن يظنّون أنّ الملك الأشرف يحفظ لهم حقوق الهدنة فلم ينجدوا عكا، ولما رأوا ما حلّ بها يئسوا واستسلموا أو انهزموا ولم ينج من بقي منهم من القتل والأسر والنهب. واتّصلت قسوة الملك الأشرف إلى بيوتهم فأحرقها وإلى معابدهم فدكّها فضلاً عن تدمير القلاع والحصون، فأتمّ الملك الأشرف طرد الفرنج من سورية ومن سلم منهم وهو أقلّهم هرب إلى قبرص ثمّ إلى الغرب أو اختبأ عند النصارى بلبنان فكانت مدّة مقام الفرنج بسورية من حين أخذهم أنطاكية سنة ١٠٩٨م إلى حين طردهم من عكا سنة ١٢٩١م مائة وثلاثاً وتسعين سنة شمسية، وأقام السلطان الملك الأشرف حينئذٍ في سواحل لبنان من زاوية طرابلس إلى صيدا بعض عشائر التركمان والمسلمين تحوطاً من عود الفرنج إلى هذه الجهة، واستئناسهم بنصارى لبنان، فتكون تلك العشائر فاصلة بين الفرنج والنصارى الوطنيين.

ولما بلغت إلى الغرب أخبار ما حلّ بالفرنج بسورية وفتح الملك الأشرف ما كان

باقياً بيدهم من المدن وقسوته عليهم وحرق كنائسهم وأديارهم أو دكّها عمت الكآبة القلوب واستعظموا المصيبة ويئسوا من الانتصار والأخذ بالثأر وندموا على إهمالهم بني أوطانهم ودينهم، ولات ساعة مندم. وأراد الحبر الروماني الذي كان حينئذٍ نيقولاوس الرابع يدعو نصارى الغرب إلى حملة أخرى إلى سورية، وأبرز منشوراً عاماً يرثي به نصارى الشرق ويندب سوء الحال، وأرسل دعاة إلى الممالك وعقدت لجانٌ في مواضع كثيرة للاهتمام بما يرغب فيه الحبر الروماني. وكان إدوار ملك إنكلترا (الذي كان قد سار قبلاً إلى سورية كما ذكرنا) عزم على العود إليها على أنّه بعد طرد الفرنج منها اعتذر بأنّ حالة مملكته لا تمكنه من العود إلى سورية، وكان رودلف عاهل ألمانيا أيضاً قد وعد البابا بالمسير إلى سورية لكنّه مات حينئذٍ منشغلاً بمهام مملكته أكثر من نصارى الشرق وفيلبوس ملك فرنسة الذي كان يرجى أن يكون قدوة لغيره كان له من العوائق ما يبطئه عن تلبية دعوة الحبر الروماني وأدركت المنية البابا نيقولاوس الرابع في ٤ نيسان سنة ١٢٩٢م فكان الله قيض للافرنج هذا الانخذال بغامض حكمته وأسرار عنايته المتعالية عن مدارك الناس وهو يرفع من يشاء ويذلّ من يشاء ومن كان له وزيراً أو مستشاراً ليدرك كنه مقاصده الرفيعة.

ذكر بعض الأحداث التي في أيام الملك الأشرف إلى مقتله ومقتل قاتليه

في سنة ٦٩١هـ سنة ١٢٩٢م سار السلطان الملك الأشرف من مصر إلى الشام وجمع عساكره المصرية والشامية ثمّ سار إلى حماه فاحتفى به صاحبها الملك المظفر كل الاحتفاء ووصل إلى حلب وتوجه منها إلى قلعة الروم وهي حصن على جانب الفرات في غاية الحصانة ونازلها وكان أبو الفداء معه في حصاره لهذه القلعة كما قال عن نفسه، ففتحها عنوة وقتل أهلها ونهب ذراريهم وكانت للارمن، وكان فيها كيناغيلوس واليا من قبلهم، فاعتصم بقلّة القلعة فضايقته عساكر الأشرف حتى طلب الامان، فعفا السلطان عن دمهم وأخذهم أسرى. وأمر السلطان سنجر الشجاعي بتحصين القلعة واصلاح ما خرب منها فحصلت إلى الغاية القصوى، وعاد السلطان إلى حلب ثمّ حماه ثمّ دمشق، ثمّ سار إلى الديار المصرية واستناب بدمشق عز الدين إيبك الحموي، وعزل علم

الدين سنجر الشجاعي المذكور، وعزل قراسنقر المنصوري عن نيابة السلطنة بحلب واستصحبه معه وولى موضعه سيف الدين بلبان المعروف بالطباخي. وبعد وصوله إلى مصر قبض على سنقر الأشقر وجرمك وطقصو وكان آخر العهد بهم.

وفي سنة ٦٩٢هـ سنة ١٢٩٣م عاد السلطان الأشرف إلى الكرك ثمّ إلى دمشق وخرج متصيداً في البرية ووصل إلى الفرقلس في طرف بلد حمص من جهة الشرق، وحضر إليه مهنا بن عيسى أمير العرب وأخواه محمّد وفضل وولده موسى فقبض عليهم وأرسلهم إلى مصر، فحبسوا في قلعة الجبل ثمّ عاد إلى مصر. وفي هذه السنة توفي الملك الأفضل عم الملك المظفر صاحب حماه ووالد أبي الفداء المؤرّخ وسبب موته أنّ السلطان الأشرف دعاه إليه تلطفاً فسار وحده ووصل إلى دمشق فاعترته حمّى مات بها.

وفي سنة ٦٩٣هـ سنة ١٢٩٤م كان مقتل السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون فانّه سار إلى تروجه للصيد وركب في نفر يسير من خواصه فقصده مماليك والده وهم بيدر نائب السلطنة المذكور قبلاً، ولاجين الذي كان السلطان قد عزله عن نيابة السلطنة بدمشق واعتقله مرة بعد الأخرى، وقراسنقر الذي عزله عن نيابة السلطنة بحلب وانضمّ إليهم جماعة من الأمراء، ولمّا قاوموا السلطان أرسل إليهم أميراً ليكشف خبرهم فأمسكوه معهم ووصلوا إلى السلطان، وأوّل من ضربه بالسيف بيدرا ثمّ لاجين حتى مات وتركوه مرمياً على الأرض، فحمله ايدمر الفخري والي تروجه إلى القاهرة واتّفق القاتلون على سلطنة بيدرا فنادوا به وتلقّب بالملك القاهر، وسار نحو قلعة الجبل ليملكها. واجتمع مماليك السلطان المقتول وانضمّ إليهم غيرهم وساروا في اثر بيدرا ومن معه فلحقوهم على الطرانة واقتتلوا وانهزم بيدرا وتفرّق أصحابه وتبعوا بيدرا فقتلوه ورفعوا رأسه على رمح واستتر لاجين وقراسنقر. واتّفق أمراء السلطنة على سلطنة الملك الناصر أخي الملك الأشرف القتيل، وان يكون الأمير زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة، وعلم الدين سنجر الشجاعي وزيراً وتتبعوا الأمراء الذين قتلوا الأشرف فقبضوا على جماعة منهم وقطعت رقابهم، وبعضهم قطعوا أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وبقي لاجين وقراسنقر مستترين. واتّفق كتبغا نائب السلطنة والشجاعي. وزيرها فقبضا على شمس الدين محمّد بن السلعوس الذي كان وزير

الأشرف وكان له عنده منزلة رفيعة، وتمكّن وأحضر أقاربه من دمشق إلى مصر وبقي منهم واحد في دمشق فكتب إليه:

تنبه يا وزير الأرض واعلم ... بأنّك قد وطئت على الأفاعي

وكن بالله معتصماً فاني ... أخاف عليك من نهش الشجاعي

وبعد القبض على ابن السلعوس تولاه الشجاعي واستصفى ماله وقتله، ثمّ حصلت الوحشة بين كتبغا نائب السلطنة وبين الشجاعي الوزير ونزل كتبغا من القلعة واستمرّ الشجاعي وأصحابه بها فحضر كتبغا وغلب عليه وقطع رأسه وطيف به بالبلد، وظهر لاجين وقراسنقر من الاستتار وأخذ كتبغا لهما من السلطان الأمان وأقرّ لهما الاقطاعات الجليلة، وكان ذلك لغرض سياسي عند كتبغا لأنّه في سنة ٦٩٤هـ سنة ١٢٥٩م حجر على السلطان الملك الناصر في قاعة بقلعة الجبل وحجب الناس عنه واستحلف الناس على سلطنته وجلس على سرير السلطنة ولقّب نفسه الملك العادل، وخطب له بمصر والشام ونقشت السكة باسمه وجعل لاجين المذكور نائباً له في السلطنة وأفرج عن مهنا بن عيسى وأخويه وولده الذين كان الأشرف قد حبسهم كما مرّ.

وفي سنة ٦٩٥هـ سنة ١٢٩٦م خرج الملك العادل كتبغا من مصر وسار إلى الشام فوصل إلى دمشق وتوجّه إلى جهة حمص وقدم إلى جوسية وهي قرية على طريق بعلبك من حمص، وكانت خراباً فاشتراها وعمّرها فوصل إليها ورآها وعاد إلى دمشق وعزل عز الدين أيبك الحموي عن نيابة السلطنة بالشام وولّى موضعه سيف الدين غرلو مملوكه.

وفي سنة ٦٩٦هـ سنة ١٢٩٧م خرج الملك العادل كتبغا من دمشق متوجهاً إلى مصر ووصل إلى نهر العوجا فركب لاجين نائبه وانضمّ إليه جماعة، وبغت الملك العادل في دهليزه وقتل اثنين من مماليكه وولى كتبغا هارباً راجعاً إلى دمشق، فالتقاه مملوكه غرلو ودخل العادل قلعة دمشق واهتمّ بجمع العسكر لقتال لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق على ذلك، فخلع نفسه من السلطنة وأقام في قلعة دمشق وأرسل يطلب الأمان من لاجين، وموضعاً يأوي إليه فأعطاه صرخد فسار إليها وأمّا لاجين فبعد تهزيمه كتبغا نزل بدهليزهِ على نهر العوجا واجتمع معه الأمراء الذين وافقوه على ذلك وشرطوا عليه شروطاً فالتزمها، منها أن لا ينفرد عنهم برأي ولا

بسلطة مماليكه عليهم كما فعل بهم كتبغا، فأجابهم لاجين إلى ذلك وحلف لهم عليه وحلفوا له وبايعوه بالسلطنة ولقّب بالملك المنصور حسام الدين لاجين، ثمّ رحل بالعساكر إلى مصر واستقرّ بقلعة الجبل وأرسل إلى دمشق سيف الدين قبجق المنصوري وجعله نائب السلطنة بالشام موضع غرلو مملوك كتبغا.

وفي سنة ٦٩٧هـ سنة ١٢٩٨م جرد الملك المنصور لاجين جيشاً كثيفاً من مصر سيره إلى الشام وأرسل إلى عماله في الشام أن يجردوا عسكرهم وتحمل العساكر الشامية والمصرية على بلاد الأرمن فساروا إلى حلب ثمّ اجتمعوا على نهر جيحان وشنّوا الاغارات على بلاد سيس وغنموا وعادوا، فأمر لاجين أن يجتمعوا ثانية بحلب ويسيروا إلى سيس أيضاً فساروا إلى حموص وضايقوها، وكان قد اجتمع فيها من الأرمن عالم عظيم ليعتصموا بها وقطع العسكر عنهم الماء فهلك أكثرهم بالعطش وأخرج أهل حموص نحو ألف ومائتين من النساء والصبيان فغنمهم العسكر. قال أبو الفداء وفي هذه الحملة كان قسمي جاريتين ومملوكاً وكان بين أولاد ليفون ملك الأرمن خلاف على الملك أدّى إلى الحرب بينهم وإلى انتصار دندين أحدهم وملكه فيهم، ولما تملّك أرسل إلى العساكر الإسلامية يبذل الطاعة إلى ما يرسمه سلطانهم فطلب منه العسكر أن يكون نهر جيحان بين المسلمين والأرمن وكل ما كان جنوبيه من البلاد والحصون للمسلمين فأجابهم إلى ذلك، فتسلّم المسلمون مدناً وحصوناً كثيرة وجعل السلطان لاجين بعض الأمراء نائباً فيها.

وفي سنة ٦٩٨هـ سنة ١٢٩٩م وثب على الملك المنصور لاجين جماعة من المماليك الصبيان الذين اصطفاهم لنفسه فقتلوه وهو يلعب بالشطرنج بعد أن ملك سنتين وثلاثة أشهر، وأوّل من ضربه منهم شخص اسمه سيف الدين كرجي وضربه الباقون بعده وساروا ليقتلوا نائبه ومملوكه منكوتمر، فاستجار بسيف الدين طفجي مقدّم هؤلاء المماليك فاجاره وحبسه في بئر ليخفيه عنهم فمضى كرجي ومعه جماعة فأخرجوه وقتلوه. وفي الصباح جلس طفجي مقدّم هؤلاء المماليك القاتلين في موضع النيابة فأمر ونهى وهناك جماعة أكبر منه، فاتّفقت آراؤهم على الوقيعة به وإعادة الملك الناصر ابن قلاوون الذي كانوا قد خلعوه وأرسلوه إلى الكرك كما رأيت. واتّفق حينئذٍ رجوع باقي الأمراء من حملة سيس فوافق رأيهم رأي الأوّلين فوثبوا على طفجي بالسيوف وهرب منهم فأدركوه وقتلوه، وقصدوا كرجي القاتل فهرب وتبعوه فقتلوه وتوجّه بعض الأمراء إلى الكرك فأحضروا الملك الناصر

وأجلسوه على سرير ملكه الذي كانوا قد أبعدوه عنه ولما استقرّ بالسلطنة ثانية اتّفق معه الأمراء أن يكون سيف الدين سلار نائب السلطنة، وفوض نيابة السلطنة بالشام إلى جمال الدين الأفرم وأفرجوا عن شمس الدين قراسنقر من الاعتقال، وكان له نحو سنة وبعثوه إلى الصبيبة.

وفي هذه السنة أي سنة ١٢٩٩م توفي الملك المظفر صاحب حماه بعد أن ملك فيها خمس عشرة سنة وهو من البيت الأيوبي ولم يبقَ من هذا البيت حاكم إلّا في حماه، وانقطعت الحكومة منه بوفاته ولكن عادت إليه بعداً كما سترى، لأنّ قراسنقر الذي كان قد توجّه إلى الصبيبة كما مرّ كتب منها إلى الأمراء بمصر يتضور من المقام بها، وهي مكان وخم واتّفق ذلك عند وصول خبر وفاة الملك المظفر، فأعطى قراسنقر نيابة السلطنة بحماه فسار إليها. قال أبو الفداء الذي كان يحق له هذا المنصب لأنّ الملك المظفر عم أبيه قمنا بوظائف خدمته وأخذ من تركة صاحب حماه ومنا أشياء كثيرة حتى أحجف بنا. ووصلت المناشير من مصر إلى أمراء حماه وجندها باستقرارهم على ما بأيديهم من الاقطاعات فاستمرينا على ما كان بأيدينا. (انتهى ملخصاً عن أبي الفداء وابن خلدون وغيرها).

عد ٨٨٤

حملة التتر على سورية مرةً أخرى

في سنة ٦٩٩هـ سنة ١٣٠٠م حمل التتر على سورية مرة أخرى، وهذا ملخّص ما قاله المؤرخون العرب في ذلك. في هذه السنة ساد قازان بن ارغون ملك التتر بجموع عظيمة من المغول والكرج وغيرهم وعبر الفرات ووصل إلى حلب ثمّ سار إلى حماه ثمّ نزل على وادي مجمع المروج بين حمص وحماه، وسارت العساكر الإسلامية صحبة الملك الناصر حتى وصلوا إلى ظاهر حمص وساروا نحو مجمع المروج وكان سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير أستاذ الدار هما المتغلّبين على المملكة، فداخل الأمراء الطمع ولم يكملوا عدة جندهم فنقص العسكر كثيراً مع سوء التدبير ونحو ذلك من الأمور الفاسدة، والتقى العسكران عند العصر من نهار الأربعاء ٢٧ من ربيع الأوّل من سنة ٦٩٩هـ الموافق ٢٣ كانون الأوّل سنة ١٣٠٠م في شرقي حمص على نصف مرحلة منها، فانكسرت ميمنة المسلمين ثمّ الميسرة

وثبت القلب واحتاطت به التتر وجرى بينهم قتال عظيم، وتأخّر السلطان إلى جهة حمص وأدركه الليل فولّت العساكر الإسلامية تبتدر الطريق وتمت بهم الهزيمة إلى ديار مصر، وتبعهم التتر واستولوا على دمشق وساقوا في اثر الجفال إلى غزة والقدس وبلاد الكرك وكسبوا وغنموا من المسلمين الجفال شيئاً عظيماً. وكان قبجق نائب السلطنة بالشام والبكي الظاهري نائب السلطان بصفد، ويكتمر السلحدار قد هربوا من حمص خوفاً من الملك المنصور لاجين واتّصلوا بقازان ملك التتر، ولمّا أتى إلى سورية أتيا معه وأخذ قبجق منه الأمان لأهل دمشق، وعصت عليه القلعة فحاصرها وكان النائب بها الأمير سيف الدين ارحواش المنصوري فقام في حفظها أتم قيام، وأقام قازان ببرج دمشق المعروف ببرج الزنبقية إلى أن دعاه فعاد إلى بلاده، وقرر في دمشق قبجق وجرد صحبته عدّة من المغول. ولمّا بلغ العساكر المصرية مسير قازان عن الشام خرجوا من مصر وخرج السلطان إلى الصالحية، ثمّ اتّفق الرأي أن يبقى السلطان بمصر ويسير سلار نائب السلطنة وبيبرس أستاذ الدار بالعساكر إلى الشام، فكاتب قبجق ورفيقاه المسلمين سراً، ولمّا خرجت العساكر المصرية هرب قبجق ومن معه من دمشق وفارقوا التتر، ولما رأى ذلك التتر المجردون بدمشق خافوا وساروا إلى بلادهم وخلا الشام منهم ووصل قبجق ومن معه إلى الأبواب السلطانية فأحسن السلطان إليهم ووصل سلار وبيبرس بالعساكر إلى دمشق وقررا أمور الشام ورتبا في نيابة السلطنة بدمشق الأمير جلال الدين أقوش الأفرم على عادته، وجعلا قراسنقر نائب السلطنة بحلب ورتبا في نيابة السلطنة بحماه الأمير كتبغا زين الدين المنصوري الذي كان سلطاناً ثمّ خلع وأُعطي صرخد.

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك. كان التتر من زمان مديد يشنون الغارات على سورية وقد توفي ارغون ملكهم وهو يتجهّز لحملة كبرى على سلطان مصر وسورية، وكان تجهيزه أوقع الرعبة في قلوب المسلمين فحسبوا موته آية سموية ولطفاً من الله بهم، وكان في جملة خلفاء ارغون رجل هيام بالحروب عشاق للمعالي والسؤدد اسمه قازان مشهور بذكائه وبسالته، وكان قازان يعتد النصارى أخلص حلفائه وأكثرهم أمانة لملكه، وكان في عسكره كثيرون من الجراكسة النصارى وعلم الصليب يسير بجانب علمه الملكي، وكان له طمع كبير بامتلاك شواطئ النيل والأردن ولما كان يحدث مدناً في بلاده يسميها باسماء مدن مصر وسورية واليهودية إلى أن سار بجيش كثيف إلى سورية، ولما علم بقصده ملك

الأرمن وملك قبرص وفرسان الهيكل وفرسان القديس يوحنا ساروا إليه وانضووا إلى لوائه، فكانت لهم وقعة مع عسكر المسلمين في جانب حمص انتصر بها عسكر قازان على عسكر سلطان مصر وقتل منهم كثيرين وانهزم الباقون فتبعهم فرسان الأرمن حتى البرية، وملك قازان حلب ودمشق. وروى هيتون المؤرّخ الأرمني أنّ النصارى عادوا حينئذٍ إلى أورشليم وزار قازان معهم القبر المقدّس، وأرسل عندئذٍ وفداً ورسائل إلى الحبر الروماني وملوك أوروبا يطلب المحالفة معهم ويعد أن يسلّمهم الأرض المقدّسة. وقد ذكر مراسلة قازان هذه كثيرون من المؤرخين الفرنج فأحسن الحبر الروماني قبول وفد ملك التتر وأكرم مثواهم، ولكن لم يتمكّن من الإجابة إلى طلبهم بل أجّله إلى حين متعجباً من أن يرى في ملك تتري ما لا يراه في ملوك النصارى من الحمية والغيرة، على أنّ قازان اضطرّ أن يعود إلى بلاده ولم يستطع من خلفه في سورية من عسكره أن يقوى على مهاجمات عسكر السلطان لهم فعادوا إلى أعقابهم.

ثمّ إنّ قازان تجهّز لحملتين أخريين على سورية، ففي الأولى منهما وهي الثانية من حملاته أرسل نائبه كوتولوسا وأمره باعداد الجند فجمع العسكر وانضمّ إليه القبرصيون ورؤساء فرسان الاسبيتال والهيكل وملك الأرمن، ولكن أصاب قازان مرض فاجل هذه الحملة وانصرف كل من محالفيه إلى محله، ثمّ تجهّز قازان لحملة ثالثة سنة ١٣٠٣م فجمع على الفرات جيشاً كثيفاً منتشراً في مسافة ثلاثة أيام على الطريق ولكن سطا على بلاده أعداء يخافهم فاكره أن يعود على عقبه، وأبقى مع كوتولوسا نائبه أربعين ألف رجل، وأمره أن يدخل سورية ويملك دمشق ويقهر المسلمين فدخل وقتل كثيرين وأحرق البيوت والزروع وحاصر حمص آملاً أن يجد فيها العسكر المصري كما كان في الحملة الأولى، فملك هذه المدينة عنوة وقتل من وجد فيها من المسلمين، ثمّ سار وحاصر دمشق وحوّل سكّانها ماء النهر ليلاً إلى معسكر التتر فأهلك كثيرين من الرجال والخيل واثقال العسكر، وخسر ملك الأرمن كثيرين من رجاله فانهزم التتر وعادوا إلى الفرات، فاحتملوا مشقّة كبرى في عبوره من قبل أعدائهم. روى كل ذلك هيتون المؤرّخ الأرمني الذي كان في جملة رجال هذه الحملة، وتوفي قازان سنة ١٣٠٤م. انتهى.

الفصل الثاني

عض مشاهير العلم الدنيويين بسورية في القرن الثالث عشر

عد ٨٨٥

المشاهير السوريون

تراعى سنة وفاتهم في ترتيب أسمائهم

ابن الساعاتي

وهو دمشقي الأصل وقال فيه ابن خلكان هو أبو الحسن علي بن رستم روف بابن الساعاتي الملقّب بهاء الدين، وهو شاعر مبرز في حلبة المتأخّرين له وان شعر يدخل في مجلّدين أجاد فيه كل الإجادة وديوان آخر لطيف سماه طعات النيل نقل عنه قوله:

يوم في سيوط وليلة ... عمر الزمان باختها لا يغلط

نتا بها والليل في غلوائه ... وله بنور البدر فرع أشمط

لطل في سلك الغصون كلؤلؤ ... رطب يصافحه النسيم فيسقط

لطير يقرأ والغدير صحيفة ... والريح يكتب والغمام ينقط

وقد توفي سنة ٦٠٣هـ سنة ١٢٠٧م.

فتيان الشاغوري

هو الشهاب فتيان بن علي الأسدي الحنفي الدمشقي المعروف بالشاغوري كان فاضلاً وشاعراً ماهراً خدم الملوك ومدحهم وعلّم أولادهم وله ديوان شعر فيه مقاطع حسان وأقام مدّة بالزبداني وله فيها أشعار لطيفة فمن ذلك قوله في جنة الزبداني وهي تتراكم عليها الثلوج في زمان الشتاء وتنبت أنواع الزهور في زمن الربيع وقد أحسن كل الاحسان:

قد أجمد الخمر كانون بكل قدح   وأخمد الجمر في الكانون حين قدح

يا جنّة الزبداني أنت مسفرة   بحسن وجهٍ إذا وجه الزمان كلح

فالثلج قطن عليك السحب تندفه   والجو يحلجه والقوس قوس قزح

وله وقد دخل إلى حمام ماؤها شديد الحرارة وكا قد شاخ:

أرى ماء حمامكم كالحميم   نكابد منه عناءً وبؤسا

وعهدي بكم تسمطون الجدي فـ   ما بالكم تسمطون التيوسا

وتوفّي بالشاغور وهي عمارة بظاهر دمشق ودفن بمقابر باب الصغير سنة ٦١٥هـ سنة ١٢١٩م.

الشيخ علي الطرابلسي

لم نعثر على اسمه في ما لدينا من كتب المؤرخين العرب لكن عثرنا عليه في فهرست الكتب المشرقية التي في المكتبة المشرقية التي في المكتبة الماديشية للعلامة المطران أسطفان عواد السمعاني وهو الكتاب ٢٣٧ من تلك الكتب. فقال ما ملخّصه مقالة طبية كيماوية عنوانها زينة الحكيم لمؤلّفها الشيخ علي الطرابلسي نسبة إلى طرابلس الشام، وقد فرغ من تأليفه هذا الكتاب سنة ٦١٦هـ سنة ١٢١٩م كما يظهر من الحاشية المعلّقة بآخر الكتاب وهو مقسوم إلى أربع مقالات: الأولى في

المعادن وتهيئتها لاستعمال الطبيب، الثانية في ماهية الحجر الذي يسمونه حجر الفلسفة وكيفية تركيبه، الثالثة في السيميا وتفسير أسرارها وهي صناعة استعملها العرب ليعرفوا أمزجة الأجسام وكيفيتها زاعمين أنّهم يحصلون معرفة أكيدة بالمستقبلات بواسطة تركيب بعض الحروف وقلب الأسماء، الرابعة في استعمال العقاقير الحيوانية على مذهب جالينوس وقد خطّ الكتاب المذكور سنة سنة ١٥٥٣ رجل اسمه الشيخ صالح.

رشيد النابلسي

لم يذكره ابن خلكان بل ذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات، فقال هو عبد الرحمن بن بدر... رشيد الدين النابلسي الشاعر المجيد مدح الناصر وأولاده وأولاد العادل. قال شهاب الدين القوصي في معجمه أنشدني رشيد الدين النابلسي وقد رأى مليحاً بديع الصورة بين عبدين أسودين قبيحي الصورة:

لله من عاينت عيني محاسنه يوماً فعودته بالله من عيني

يختال كالغصن تيهاً في شمائله ما بين عبدين لون الليل عجلين

فقلت والشوق يطويني وينشرني لم ألق قبلك صبحاً بين ليلين

فمرّ يضحك من قولي وقال بلى كم قد رأى الناس سعداً بين نحسين

وكانت وفاته سنة ٦١٩هـ سنة ١٢٢٣م.

ياقوت الحموي

ذكره ابن خلكان في الوفيات فقال هو ابن عبدالله ياقوت ابن عبدالله الرومي الجنس والمولد، الحموي المولى أسر من بلاده صغيرا وابتاعه ببغداد رجل تاجر يعرف بعسكر بن أبي النصر الحموي وجعله في الكتاب ينتفع به في تجارته وكان عسكر لا

يحسن الخط، ولمّا كبر ياقوت قرأ شيئاً من النحو واللغة وشغله مولاه بالأسفار في تجارته وكان يعود إلى الشام، وجرت بينه وبين مولاه نبوة أوجبت عتقه وابعاده فاشتغل بالنسخ بالأجرة وحصلت له بالمطالعة فوائد. ثمّ الوى عليه مولاه بعد مدّة وأعطاه شيئاً وسفّره إلى كيش ولمّا عاد كان مولاه قد توفّي. وكان ياقوت قد حصل شيئاً مما كان بيده فأرضى أولاد مولاه وزوجته بشيء وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله وجعل بعض تجارته كتباً، وتوجّه إلى دمشق وكان متعصباً على علي، وناظر بعض من يتعصّب له فذكر علياً بما لا يسوغ فثار عليه الناس وكادوا يقتلونه، فانهزم إلى حلب ثمّ توصّل إلى الموصل ثمّ إلى خراسان واستوطن مدينة مرو، ثمّ تجوّل في كثير من البلاد وقد تقطّعت به الأسباب وأعوزه دني المأكل وخشن الثياب، لكنّه عكف على التصنيف والتأليف فصنّف كتاباً سماه «ارشاد الالباء إلى معرفة الأدباء» يدخل في أربعة جلود كبار ذكر فيه أسماء كثيرين من النحويين واللغويين والنسّابين والقرّاء المشهورين والاخباريين والمؤرخين وأصحاب الرسائل وأرباب الخطوط إلى غيرهم مع إيثار الاختصار والاعجاز في نهاية الإيجاز. وقال قصدت صغر الحجم وكبر النفع وقال إنّه جمع كتاباً في أخبار الشعراء المتأخّرين والقدماء ومن تصانيفه أيضاً كتاب «معجم البلدان» وكتاب «معجم الشعراء» وكتاب «معجم الأدباء» وكتاب «المشترك وضعاً المختلف صقعاً» وهو من الكتب النافعة وكتاب «المبدأ والمال في التاريخ» و«كتاب الدول»، و«مجموع كلام أبي علي الفارسي» و«عنوان كتاب الأغاني» و«المقتضب في النسب» يذكر فيه أنساب العرب و«كتاب أخبار المتنبي» و«كتاب من له هبة عالية في تحصيل المعارف». وله رسالة بديعة مسهبة إلى جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف الشيباني وزير صاحب حلب يصف فيها حاله ويقصّ ما جرى له نثراً وشعراً. وقد أثبت ابن خلكان هذه الرسالة برمّتها في ترجمة ياقوت هذا وأحجمنا طولها عن نشرها. وقد ولد ياقوت في سنة ٥٧٤هـ أو سنة ٥٧٥هـ (سنة ١١٧٩ أو سنة ١١٨٠م) ببلاد الروم على ما قاله هو وتوفي سنة ٦٢٦هـ سنة ١٢٢٩م في الخان بظاهر حلب.

وجاء في كتاب «اكتفاء القنوع بما هو المطبوع» أنّ كتاب ياقوت معجم البلدان في الجغرافية طبعه روستنفلد الألماني في لايبسك في خمس مجلّدات من سنة ١٨٦٦م إلى سنة ١٨٧٣م وكتابه المشترك وصفاً والمختلف صقعاً في الجغرافية عني بطبعه العالم المذكور أيضاً في مدينة غوتنغن سنة ١٨٤٦م.

ابن عنين

هو أبو المحاسن محمّد بن نصر ابن عنين الانصاري الملقّب بشرف الدين الكوفي الأصل الدمشقي المولد الشاعر المشهور ولم يكن في آخر عصره من يقاس به، ولم يكن شعره مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد بل تفنن فيه، وكان غزير المادة من الأدب مطلعاً على معظم أشعار العرب وكان مولعاً بالهجاء وثلب أعراض الناس، وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً من رؤساء دمشق سماها «مقراض الاعراض» وكان السلطان صلاح الدين قد نفاه من دمشق لوقعه في الناس فلما خرج منها قال:

فعلامَ أبعدتم أخا ثقة   لم يجترم ذنباً ولا سرقا

انفوا المؤذن من بلادكم   ان كان ينفي كل من صدقا

وطاف البلاد من الشام والعراق حتّى دخل الهند وأقام بها مدّة ثمّ رجع على طريق الحجاز والديار المصرية وعاد إلى دمشق وقد كتب من الهند لأخيه:

سامحت كتبك في القطيعة عالماً   أنّ الصحيفة لم تجد من حامل

وعذرت طيفك في الخفاء لأنّه   يسري فيصبح دوننا بمراحل

والبيت الثاني لأبي المعري استعمله مضمناً فكان أحسن تضمين ولمّا مات صلاح الدين وملك أخوه الملك العادل دمشق عاد إلى دمشق من سفرته وكتب إلى الملك العادل قصيدته الرائية المشهورة وأوّلها:

ماذا على طيف الأحبّة إن سرى   وعليهم لو سامحوني بالكرى

وبعد أن وصف في هذه القصيدة دمشق وبساتينها وأنهارها ونفيه عنها قال في المغربة وما قاساه فيها:

أشكو إليك نوى تمادي عمرها   حتى حسبت اليوم منها أشهرا

لا عيشتي تصفو ولا رسم الهوى   يعفو ولا جفني يصافحه الكرى

ومن العجائب أن يقيّل ظلمهم   كل الورى ونبذت وحدي بالعرى

وكان له في عمل الألغاز وحلّها اليد الطولى ولم يكن له غرض في جمع شعره فلذلك لم يدونه وقد جمع له بعض أهل دمشق ديواناً صغيراً لا يبلغ عشر ما له من النظم، ومع هذا ففيه أشياء ليست له وكان من أظرف الناس وأخفّهم روحاً وأحسنهم مجوناً، وكانت ولادته بدمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة ٥٤٩هـ سنة ١١٥٥م وتوفي عشية الاثنين والعشرين من ربيع الأوّل سنة ٦٣٠هـ سنة ١٢٣٣م بدمشق ودفن بمسجده الذي أنشأه لأرض المزة وهي بكسر الميم قرية على باب دمشق.

بهاء الدين ابن شداد

أبو المحاسن يوسف بن رافع الأسدي قاضي حلب بهاء الدين والمعروف بابن شداد الفقيه توفي أبوه وهو صغير فنشأ عند أخواله بني شداد فنسب إليهم خدم صلاح الدين الأيوبي وولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف، وكان حاضراً لما توفي صلاح الدين وتوجّه إلى حلب يجمع كلمة الإخوة أولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض، فطلبه الملك الظاهر صاحب حلب من صاحب دمشق وهو الملك الأفضل فأجابه إلى ذلك فولاه الملك الظاهر قضاءها ووقوفها، وكانت حلب حينئذ قليلة المدارس وليس فيها من العلماء إلّا نفر يسير فاعتنى بترتيب أمورها وجمع الفقهاء بها وعمرت في أيامه المدارس الكثيرة، وكان بيده حلّ الأمور وعقدها في حلب ولم يكن لأحد معه في الدولة كلام. وقد توفي يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة ٦٣٢هـ سنة ١٢٣٥م بحلب ودفن في تربة أنشأها لنفسه. قال ابن خلكان حضرت الصلاة عليه ودفنه. وصنف كتاب ملجأ الحكام عند التباس الأحكام وكتاب دلائل الأحكام تكلّم فيه عن الأحاديث المستنبطة منها الأحكام في مجلّدين وكتاب «الموجز الباهر في الفقه»، وكتاب «سيرة صلاح الدين الأيوبي» وغير ذلك وجعل داره خانقاه للصوفية لأنّه لم يكن له وارث [illegible]

عبد الرحمن العسقلاني

لم يذكره ابن خلكان بل ذكره صاحب فوات الوفيات. فقال عبد الرحمن بن أبي القاسم الكناني العسقلاني ابن المسجف ولد سنة ٥٨٣هـ سنة ١٢٨٨م وتوفي

سنة ٦٣٥هـ سنة ١٢٣٨م وكان أديباً ظريفاً خليعاً وأكثر شعره في الهجو ومن شعره في مدح الكمال القانوني:

لو كونت عاينت الكمال وجسه أوتار قانون له في المجلس
لرأيت مفتاح السرور بكفّه اليـ ـرى وفي اليمنى حياة الأنفس

وله أيضاً في قوم أغنياء بخلاء:

يا رب كيف بلوتني بعصابة ما فيهم فضل ولا افضال
متنافري الأوصاف يصدق فيهم الهاجي وتكذب فيهم الآمال
غطى الثراء على عيوبهم وكم من سوءة غطى عليها المال
جبناء إذا استنجدتهم لملمة لؤما إذا استرفدتهم بحال
فوجههم غرف على أموالهم وأكفهم من دونها اقفال
هو في الرخاء إذا ظفرت بنعمة آل وهم عند الشدائد آل

عبد المحسن التنوخي

ذكره صاحب فوات الوفيات قال عبد المحسن بن حمود... أمين الدين التنوخي الحلبي الكاتب المنشئ البليغ ولد سنة ٥٧٠هـ سنة ١٢٧٥م وتوفي سنة ٦٤٣هـ سنة ١٢٤٦م. رحل وسمع بدمشق من حنبل والكندس وغيرهما، وعني بالأدب وجمع كتاباً في الأخبار والنوادر في عشرين مجلّداً، روى فيه بالسند، وله ديوان شعر وديوان ترسل وكتاب «مفتاح الأفراح في امتداح الراح» ومن شعره:

اشتغل بالحديث إن كنت ذا فهم ففيه المراد والإيثار
وكن بما قد علمته عاملاً فالعلم روح تجني منها الثمار
وإذا كنت عاملاً وعليماً بالأحاديث لم تمسك نار

وله أيضاً:

أقول لنفسي حين نازل لمتي ... مشيبي ولم يبق غير رحيلي
أيا نفس قد مرّ الكثير فاقصري ... ولا تحرصي لم يبقَ غير قليل
ولا تأملي طول البقاء فانني ... وجدت بقاء الدهر غير طويل

ابن النجار الدمشقي

ذكره صاحب فوات الوفيات أيضاً قال هو ابراهيم بن سليمان... بن النجار الدمشقي المجود ولد بدمشق سنة ٥٩٠هـ (سنة ١١٩٤م) وتوفي سنة ٦٥١هـ (سنة ١٢٥٤م) وحدث وكتب في الاجازات، وله نظم وأدب وسافر إلى حلب وبغداد، وكان كاتباً للأمجد صاحب بعلبك وتولى نقابة الأشراف بالاسكندرية. ومن شعره ما قاله في اسود شائب:

يا رب أسود شائب أبصرته ... وكان عينيهِ لظى وقادُ
فحسبته فحماً بدت في بعضه ... نار وباقيه عليه رمادُ

وله في تفصيل العلم على المراتب:

أين المراتب في الدنيا ورفعتها ... من الذي حاز علماً ليس عندهمُ
لا شكّ أنّ لنا قدراً رأوه وما ... لمثلهم عندنا قدر ولا لهمُ
هم الوحوش ونحن الانس حكمتنا ... تقودهم حيثما شئنا وهم نعمُ
وليس شيء سوى الاهمال يقطعنا ... عنهم لأنّهم وجدناهم عدمُ
لنا المريحان من علمٍ ومن عدم ... وفيهمِ المتعبان الجهل والحشمُ

ابن أبي اليسر الدمشقي

هو تقي الدين ابن أبي اليسر اسماعيل تفرّد بأشياء كثيرة وكان جدّه كاتب الإنشاء لنور الدين وكتب هو للناصر داود وكان جيّد النظم حسن القول وولي بدمشق نظارة المارستان ومشيخة أم الصالح ومشيخة الزاوية بدار الحديث الأشرفية وكتب على لسان سيف الدين بن مقلد الملك الأشرف وكان يصل إليه عطاؤه رقعة مضمونها يقبل الأرض بين يدي الملك الأشرف أعز الله نصره وشرح ببقائه نفيس الدهر وصدره، وينهي أنّه وصل إلى باب مولانا كما قال المتنبي:

حتى وصلت بنفس مات أكثرها　　　وليتني عشت منها بالذي فضلا

ويرجو ما قاله في البيت الآخر:

أرجو نداك ولا أخشى المطال به　　　يا من إذا وهب الدنيا فقد بخلا

فأعطاه صلة سيئة ومن شعره:

ليلي كشعر معذبي ما أطوله　　　أخفى الصباح بفرقة إذ أسبله

ان أبعدته يد النوى عن ناظري　　　فله بقلبي أن ترحل منزله

بالعاديات قد اعتدى عنّي ضحى　　　وبدا له في كل قلب زلزله

لخصنا عن صاحب الفوات ولم يذكر سنة مولده ولا سنة وفاته ولا شكّ أنّه في هذا القرن الثالث عشر.

عون الدين الحلبي

هو سليمان بن عبد المجيد ... الأديب البارع عون الدين بن العجمي الحلبي ولد سنة ٦٠٦هـ سنة ١٢٥٩م بدمشق وكان متأهلاً للوزارة كامل الرياسة لطيف الشمائل ومن شعره:

لهيب الخدّ حين بدا لعيني　　　هوى قلبي عليه كالفراشي

فـأحـرقـه فـصـار عـلـيـه خـالاً وهـا أثـر الـدخـان عـلى الحواشـي

ومن شعره:

يا سائقاً يقطع البيداء متعسفاً بضامر لم يكن في سيرهِ واني

إن جزت بالشام شم تلك البروق ولا تعدل بلغت المنى عن دير مراني

وعج على دير متى ثمّ حي به الـ ـربـان بـطـرس فـالـربـان ربـانـي

واعبر بدير حنانيا وانتهز فرص الّلذات ما بين قسيس ومطرانِ

واستجل راحاتها تحيي النفوس إذا دارت براح شمـامـيـس ورهـبـانِ

حمراء صفراء بعد المزج كم قذفت بشهبها من همومي كل شيطانِ

سألت توماس عمن كان عاصرها أجاب رمزاً ولم يسمح بتبيانِ

وقـال اخـبـرني شـمـعـون ينـقـلـه عن ابن مريم عن موسى بن عمران

بـانـهـا سـفـرت بـالـطـور مـشـرقـة أنـوارهـا فـكـنـوا عـنـهـا بـنـيـرانِ

وهي المدام التي كـانـت معتقة من عهد هرمس من قبل ابن كنعان

وهي التي عبدتها فارس فكني عنها بشمس الضحى في قومهِ ماني

ابن أبي أصيبعة

ولد في دمشق وكان أبوه بدمشق وكان عمه رئيس المستشفى لامراض العين وكان من أصدقاء ابن البيطار الآتي ذكره وكان يخرج معه إلى بادية الشام في طلب النبات، وتوفي في صرخد سنة ٦٦٦هـ سنة ١٢٦٩م وله: «عيون الانباء في طبقات الأطباء» ذكر فيه مشاهير الأطباء والطبيعيين من كل الأمم وطبع في القاهرة في جزئين سنة ١٣٠٠هـ.

ابن الحموي

هو عبد الرحمن بن ابراهيم ... الحموي الشافعي المعروف بابن البارزي قاضي حماه وابن قاضيها ولد بحماه سنة ٦٠٨هـ سنة ١٢١٢م وتوفي سنة ٦٨٣هـ سنة ١٢٨٥م، وكان إماماً فاضلاً فقيهاً أصولياً خيّراً، وكان مشكور الأحكام وافر الديانة محباً للفقراء، درس وأفتى وصنف وخرج أصحابه في المذهب وتوفي في طريق الحج وحمل إلى المدينة ودفن في البقيع. ومن شعره في القلم:

ومشقق كاللحظ يحكي فعل سـ ـمـر الخط إلّا أنّ هـذا أصـغـرُ
في رأسه المسود ان أجروه في البيـ ـض لـلأعـداء مـوت أحـمـرُ

ومنه ما كتبه إلى الملك المنصور صاحب حماه:

خدمتك في الشباب وها مشيبي أكـاد أحـل مـنـه الـيـوم رمـسـا
فـراع لخدمـتـي عـهـداً قـديـماً ومـا بـالـعـهـد من قـدم فـيـنـسى

بهاء الدين ابن النحاس الحلبي

قال فيه صاحب الفوات هو محمّد بن ابراهيم الامام العلامة حجة العرب بهاء الدين بن النحاس الحلبي النحوي شيخ العربية بالديار المصرية ولد بحلب سنة ٦٢٧هـ ١٢٣٠م وتوفي بالقاهرة سنة ٦٩٨هـ سنة ١٢٩٩م وأخذ العربية عن جمال الدين بن عمرون ودخل مصر لما خربت، وتخرّج به جماعة من الأئمة وكان من أذكياء بني آدم وله خبرة بالمنطق واقليدس مشهوراً بالدين والصدق والعدالة، وكان له صورة كبيرة في صدور الناس معروفاً بحل المشكلات واقتنى كتباً نفيسة. ولم يتزوج قط وقيل فيه إنّه كان كثير التلامذة كثير الصلاة، يسعى في مصالح الناس وكان لا يكلم أحداً إلّا بلغة العوام، لا يراعي الإعراب ولا يكاد يأكل شيئاً وحده وكان ينهي عن الخوض بالعقائد، وولي التدريس بجامع ابن طولون وبالقبة المنصورية ولم يصنف شيئاً إلّا إملاء على كتاب «المغرب» لابن عصفور من أوّل الكتاب إلى باب الوقوف.

ومن شعره يخاطب رضى الدين الشاطبي وقد كلفه أن يشتري له قطراً:

أيّها الأوحد الرضيّ الذي طـ ـال علاء وطاب في الناس نشراً

أنت بحر لا غرو ان نحن وافيـ ـناك راجين من نداك قطراً

ومن شعره أيضاً:

إني تركت لدى الورى دنياهم وظللت أنتظر الممات وأرقبُ

وقطعت في الدنيا علائق ليس لي ولد يموت ولا عقال يخربُ

علاء الدين أبو الحسن الدمشقي

أنبأنا شيئاً من ترجمته العلامة المطران أسطفانوس عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية عند ذكره كتاباً له (هو ٢٢٩ من تلك الكتب) عنوانه: «شرح الأصول العامة في صناعة الطب»، وقال إنّه كان قريشياً من دمشق وتوفي سنة ١٢٩٦م، وأنّ كتابه يشتمل على أربعة أقسام: الأوّل في أصول الطب النظري والعملي، الثاني في إعداد المآكل والأدوية البسيطة والمركبة، والثالث في أمراض كل من الأعضاء الخاصة وعلل هذه الأمراض واعراضها وعلاجها، الرابع في الأمراض التي لا تصيب جزءاً واحداً من الجسد وعللها وأعراضها وعلاجها. وقد بيّن مؤلّف هذا الكتاب في فاتحته أنّه اعتمد على علي ابن العباس المعروف المجوسي وهو طبيب مشهور كان في أواخر القرن العاشر، وقد شرح الكتاب الموسوم بالملكي. وعني علاء الدين بأن يطبق بين آراء ابن العباس المذكور وآراء الرئيس ابن سينا حاذياً حذو ابن سينا وكان ابن العباس وابن سينا طبيبين مشهورين، وكانت آراؤهما غالباً متضاربة. ويظهر من تاريخ الأطباء لابن جلجال ومن أقوال غيره أنّ العرب كانوا يرون أنّ آراء ابن العباس أصلح للعمل وكلام ابن سينا أفصح وأحكم. وهذا ما حمل علاء الدين على شرح أصول صناعة الطب على موجب رأي الاثنين معاً.

محمّد بن مالك

ذكره الصلاح الكتبي صاحب فوات الوفيات فقال ما ملخّصه محمّد بن عبدالله بن مالك الامام العلامة الأوحد جمال الدين الطائي الشافعي النحوي نزيل دمشق ولد سنة ٦٠٠هـ سنة ١٢٠٤م بالأندلس وصرف همّته بدمشق وحلب إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية، وأربى على المتقدّمين، وكان إماماً في قراءات القرآن وصنف فيها قصيدة دالية، وكان إماماً في العادلية بدمشق، فكان إذا صلى فيها شيعه قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان إلى بيته تعظيماً له. وأمّا النحو والتصريف فكان فيهما بحراً لا يشق لجحه. واما اطلاعه على أشعار العرب التي يستشهد بها فكان عجيباً، وكان الأئمة الأعلام يتحيرون في أمره. واما الاطلاع على الحديث فكان فيه غاية وكان أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يجد فيه شاهدا عدل إلى الحديث فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى اشعار العرب هذا مع ما كان عليه من الدين والعبادة وكثرة النوافل وكمال العقل، وانفرد عن المغاربة بشيئين الكرم ومذهب الشافعي. وأقام بدمشق مدّة يصنف ويشتغل بالجامع بالتربة العادلية وصنف خلا الفتية المشهورة التي كثر شراحها كتابه لتسهيل الفوائد قد مدحه سعد الدين بن عربي بقوله:

إنّ الإمام جمال الدين جمّله ... رب العلاء لنشر العلم أهّلهُ

املى كتاباً له يُسمى الفوائد لم ... يزل مفيداً لذي لب تأملهُ

فكل مسألة في النحو يجمعها ... إنّ الفوائد جمع لا نظير لهُ

ومن تأليفه «سبك المنظوم وفك المختوم» وكتاب «الكافية الشافية» ثلاثة آلاف بيت وشرحها، و«الخلاصة» و«مختصر الشافية» و«اكمال الاعلام بمثلث الكلام» و«فعل وافعل» و«المقدّمة الأسدية» وصنفها باسم ولده الأسد، و«عدة اللافظ وعمدة الحافظ» و«النظم الأوجز في ما يهمز» و«الإعتضاد بالظاء والضاد» و«اعراب مشكل النجادي». وقال شرف الدين الحصني يرثيه بأبيات منها:

يا شتات الأسماء والأفعال ... بعد موت ابن مالك المفضال

وانحراف الحروف من بعد ضبط ... منه في الانفصالِ والاتصالِ

عدم النعت والتعطف والتو   كيد مستبدلاً من الابدال

الم اعتراه اسكن منه   حركات كانت بغير اعتلالِ

يا لها سكنة كانت لهمز قضا   أورثت طول مدّة الانفصالِ

رفعوه في نعشهِ فانتصبنا   نصب تمييز كيف سير الجبالِ

أرغموه في الترب من غير مثل   سالماً من تغير الانتقال

ومددنا الأكف نطلب قصراً   مسكناً للنزيل من ذي الجلالِ

يا لسان الاعراب يا جامع الـ   اعراب مفهماً لكل مقالِ

يا فريد الزمان في النظم والنثر   وفي نقل مسندات العوالي

وقد طبعت الفية ابن مالك في باريس سنة ١٨٣٣م بعناية العلامة دي ساسي ثمّ طبعت في لايسبك سنة ١٨٥١م بعناية العلامة ريتريسي الألماني. وقد طبعت في المشرق مراراً كثيرة وقد ترجمها إلى الإيطالية منذ عهد قريب المستشرق العالم فيتّو قنصل دولة إيطاليا العام الآن في سورية وشرحها شرحاً وافياً، ولها في العربية عدة شروح منها شرح ابن الناظم وشرح عقيل الأشموني وغيرها. وقد طبعت هذه الشروح مرات أيضاً.

جمال الدين الحموي

ذكره أبو الفداء في تاريخه سنة ٦٩٧هـ فقال جمال الدين محمّد بن سالم بن واصل قاضي القضاة الشافعي بحماه وكان مولده سنة ٦٠٤هـ سنة ١٢٠٨م وتوفي السنة ٦٩٧ المذكورة ١٢٩٨م وكان فاضلاً إماماً مبرزاً في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة وأصول الدين والفقه والهيئة والتاريخ وله مصنّفات حسنة منها «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» ومنها «الأمبرورية في المنطق» صنفها للانبرور ملك الفرنج صاحب صقلية لما توجّه رسولاً إليه في أيام الملك الظاهر بيبرس، واختصر الأغاني اختصاراً حسناً وله غير ذلك من المصنّفات. قال أبو الفداء ولقد ترددت

إليه بحماه مراراً كثيرة وكنت أعرض عليه ما أحلّه من اشكال كتاب اقليدس واستفيد منه وكذلك قرأت عليه شرحه لمنظومة ابن الحاجب في العروض فانه شرحها شرحاً حسناً مطولاً وصححت أسماء من له ترجمة في كتاب الأغاني.

وكان في سورية غير هؤلاء من مشاهير أضربنا عن ذكرهم خشية ملل القراء ولأنّهم أقل شهرة مما ذكرنا.

عد ٨٨٦

من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين

فخر الدين الرازي

قال في حقه ابن خلكان أبو الفضل محمّد بن عمر... الطبرستاني الأصل الرازي المولد الملقّب فخر الدين المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعي فريد عصره فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل وله التصانيف المفيدة في فنون عديدة، منها «تفسير القرآن» جمع فيه كل غريب وغريبة وهو كبير جداً لكنّه لم يكلّمه وشرح سورة الفاتحة في مجلّد. ومنها في علم الكلام «المطالب العالية ونهاية العقول»، وكتاب «الأربعين» و«المحصل» وكتاب «البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان»، وكتاب «المباحث العمادية في المطالب المعادية»، وكتاب «تهذيب الدلائل وعيون المسائل» وكتاب «ارشاد الانظار إلى لطائف الأسرار» وكتاب «أجوبة المسائل التجارية»، وكتاب «تحصيل الزبدات» وغير ذلك. وله في الفقه «المحصول والمعالم» وفي الحكمة «الملخّص» و«شرح الإشارات لابن سينا» و«شرح عيون الحكمة» وغير ذلك. وفي الطلسمات «السر المكتوم» و«شرح أسماء الله الحسنى» ويقال إنّ له شرح المعضل في النحو للزمخشري وشرح الوجيز في الفقه للغزالي وشرح سقط الزند للمعري. وله مختصر في الاعجاز ومواخذات جيّدة في النحاة وله طريقة في الخلاف، وله في الطب «شرح الكليات لقانون ابن سينا» وصنّف في علم الفراسة، وله مصنف في «مناقب الإمام الشافعي». وانتشرت تصانيفه في البلاد ورزق منها سعادة عظيمة وهو أوّل من اخترع هذا الترتيب في كتبه وأتى فيها بما لم يسبق إليه. وكان له في الوعظ اليد البيضاء ويعظ باللسانين

العربي والعجمي. ويروون عنه ملحاً ونوادر غريبة ومناقبه أكثر من أن تعد وكان له مع هذه العلوم شيءٌ من النظم ومن ذلك قوله:

نـهـايـة اقـدام الـعـقـول عـقـال   وأكـثـر سـعـي الـعـالمين ضـلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا   وحـاصـل دنـيـانـا أذًى ووبـالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى ان جمعنا فيه قيل وقالُ
وكم قد رأينا من رجالٍ ودولةٍ   فبادوا جـمـيـعـاً مسرعين وزالـوا
وكم من جبالٍ قد علت شرفاتها   رجـال فـزالـوا والجبـالُ جـبـالُ

وكانت ولادته سنة ٥٤٤هـ سنة ١١٥٠م بالري، وتوفي سنة ٦٠٦هـ سنة ١٢٠٩م بهراة. انتهى ما لخّصناه عن ابن خلكان.

وقد ذكره المطران أسطفان عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية بمعرض ذكر كتاب له في الحكمة، قال إنّه مقسوم إلى أربعة أبواب: الأوّل في السماء والعالم، والثاني في التولد والنساء، والثالث في ماهية النفس الناطقة، والرابع في سعادتها. وقال في حقّه إنّه كان فيلسوفاً وطبيباً وفقيهاً ماهراً وذكر تقريض الجوزي المؤرّخ له وروى عن قبريشيوس عدة كتب له. فقال إنّ له من الكتب: الكتاب الأوّل في طريقة اللاهوت (الذين يسميه المسلمون علم الكلام) العامة، ثانياً أحكام اللاهوت، ثالثاً مصباح أو مشكاة اللاهوت، رابعاً شرح كتب أرسطو، خامساً شرح القرآن، سادساً إيجاز كتاب ابن سينا في ما وراء الطبيعة مع شرح عليه، سابعاً حلّ ألف مشكل في اللاهوت، ثامناً طريقة في ترتيب المجادلات، تاسعاً السر المكتوم. وذكر له هربيلوتيوس في مكتبته المشرقية الكتب الآتي ذكرها: أولاً إرشاد الابصال في لطائف الأسرار وهي شرح للأسرار الدقيقة اعتنى بأن يثبت به مبادي دين الاسلام ويفسرها، ثانياً محصل الافكار في علم ما وراء الطبيعة واللاهوت الجدلي وقد شرحه علماء كثيرون، ثالثاً أصول الدين وهو مقسوم إلى خمسين بحث موضوعه فلسفي لاهوتي. والبحث الأوّل يضاد به من قالوا بأزلية العالم ومنه يظهر أنّ عقيدته لم تكن فاسدة كما تجنى عليه أعداؤه وله كتاب سماه «اختيارات النجومية» وكتاب آخر عنوانه «الأربعين في أصول الدين» وكتاب آخر عنوانه «المحصول». هذا ما ذكره له العالم المذكور.

وجاء في اكتفاء القنوع بما هو المطبوع أنّ كتاب الرازي مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير طبع في بولاق في ستة أجزاء من سنة ١٢٧٨هـ إلى سنة ١٢٨٩هـ طبع بالقاهرة في ثمانية أجزاء سنة ١٣٠٩هـ وعلى الهامش التفسير المسمى بـ«ارشاد العقل السليم» لأبي السعود العمادي، وطبع في قسطنطينية في عدّة أجزاء سنة ١٣٠٧. والرازي فخر الدين هذا هو غير أبي بكر محمّد بن ذكريا الرازي، وغير أحمد بن فارس بن ذكريا الرازي، وغير قطب الدين محمود بن محمّد الرازي، وغير السيّد الرازي الشيعي.

مجد الدين بن الأثير

قال في حقّه ابن خلكان أبو السعادات المبارك بن أبي الكرم محمّد... الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقّب مجد الدين قال فيه أبو البركات ابن المستوفى أشهر العلماء ذكراً، وأكبر النبلاء قدراً وأحد الأفاضل المشار إليهم، وفرد الأماثل المعتمد عليهم. وله المصنّفات البديعة والرسائل الوسيعة، منها: «جامع الأصول في أحاديث الرسول» ومنها: كتاب «النهاية في غريب الحديث» في خمسة مجلّدات وكتاب «الانصاف في الجمع بين الكشف والكشاف» في تفسير القرآن الكريم أخذه من تفسير الثعلبي والزمخشري. وله كتاب «المصطفى والمختار في الأدعية والاذكار»، وله كتاب لطيف في صنعة الكتابة وكتاب «البديع في شرح الفصول» في النحو لابن الدهمان وله ديوان رسائل وكتاب «الشافي في شرح مسند الامام الشافعي» وغير ذلك من التصانيف. وكانت ولادته بجزيرة ابن عمر فوق الموصل سنة ٥٤٤هـ سنة ١١٥٠م واتّصل بخدمة الأمير مجاهد الدين قايماز. وبعد وفاته خدم عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل وتولى ديوان رسائله وله شعر يسير. فمن ذلك ما أنشده للاتابك صاحب الموصل وقد زلت به بغلته وهو:

إن زلّت البغلة من تحته ... فان في زلّتها عذرا
حملها من علمه شاهقاً ... ومن ندا راحته بحرا

وكانت وفاته بالموصل سنة ٦٠٦هـ سنة ١٢١٠م وعن اكتفاء القنوع بما هو

المطبوع أنّ كتاب مجد الدين الموسوم بالنهاية في غريب الحديث طبع في طهران سنة ١٢٤٩هـ في جزء واحد كبير الحجم وهو معجم في الحديث وطبع أيضاً بالقاهرة سنة ١٣٠٨ وأمّا كتابه «جامع الأصول في أحاديث الرسول» فلم يطبع كاملاً إلى الآن ولكن لخّصه ابن الربيع بكتاب وسمه بـ«تسيير الوصول إلى معرفة الأصول» طبع في كلكته سنة ١٢٥٢هـ.

عز الدين ابن الأثير المؤرّخ

قال في حقّه ابن خلكان هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم . . . الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقّب عز الدين، ولد في الجزيرة ونشأ بها ثمّ سار إلى الموصل مع والده وأخويه مجد الدين السابق ذكره وضياء الدين الآتي ذكره، وسكن الموصل وسمع بها وببغداد من اعلام العلماء حينئذٍ، ورحل إلى الشام والقدس وسمع فيهما من كثيرين ثمّ لزم بيته في الموصل منقطعاً إلى التوفّر في النظر في العلم والتصنيف، وكان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين إليها وكان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلّق به. وحافظاً التواريخ وخبيراً بانساب العرب واخبارهم وأيامهم ووقايعهم، وصنف في التاريخ كتاباً كبيراً سماه «الكامل» ابتدأ به من أوّل الزمان إلى آخر سنة ٦٢٨هـ (سنة ١٢٣١م) وهو الذي استشهدنا به واعتمدنا عليه مراراً وهو من خيار التواريخ. واختصر كتاب الانساب لأبي سعد عبد الكريم بن السمعاني، واستدرك عليه في مواضع، ونبه على اغلاط وزاد أشياء أهملها أبو سعد، وأكثر ما يوجد اليوم من هذا التصنيف «المختصر» وهو في ثلاثة مجلّدات والأصل في ثمانية، وهو عزيز الوجود ولم أرهُ إلّا مرّة واحدة بمدينة حلب ولم يتّصل إلى الديار المصرية سوى المختصر المذكور. وله كتاب «أخبار الصحابة» في ستة مجلّدات كبيرة. وقال ابن خلكان إنّه كان يتردد إليه كثيراً إذ كان في حلب، وان ولادته كانت سنة ٥٥٥هـ سنة ١١٦١م بجزيرة ابن عمر وهو من أهلها وتوفي سنة ٦٣٠هـ سنة ١٢٣٣م بالموصل. وأمّا جزيرة ابن عمر مولده فقال فيها ابن خلكان لا أدري من هو ابن عمر. وقيل إنّها منسوبة إلى يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقين، ثمّ إنّي ظفرت بالصواب في ذلك. وهو أنّ رجلاً من أهل بر قعيد من أعمال الموصل بناها،

وهو عبد العزيز بن عمر فأضيفت إليه. ورأيت في بعض التواريخ أنّها جزيرة ابني عمر أوس وكامل ولا أدري أيضاً من هما، ثمّ رأيت في تاريخ ابن المستوفي في ترجمة أبي السعادات المبارك بن محمّد انّه جزيرة أوس وكامل ابني عمر بن أوس الثعلبي والله أعلم.

وقد ذكر أبو الفداء عز الدين بن الأثير ووصفه بما وصفه به ابن خلكان وقال: «وهو المنقول منه غالب هذا المختصر. أي تاريخه المشهور وقد طبع كتاب ابن الأثير الموسوم بأسد الغابة في معرفة الصحابة في القاهرة في ٥ مجلّدات سنة ١٢٨٦هـ، وطبع كتابه الكامل في التاريخ في ١٤ مجلّداً في لايدن ولايبسك من سنة ١٨٥١م إلى سنة ١٨٧٦م. عني بطبعه العلامة نورنبرغ ثمّ طبع في بولاق، وفي القاهرة في اثني عشر جزءاً من سنة ١٢٩٠ إلى سنة ١٣٠٣هـ. وعلى هامش هذه الطبعة كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» للجبرتي. وطبع كتاب ابن الأثير في «أنساب العرب» في غوتنغن سنة ١٨٢٥م عني بطبعه روستنفلد الألماني هذا ما رواه صاحب كتاب اكتفاء القنوع بما هو المطبوع، وهو ادوار بن الدكتور فان ديك. وقال لابن الأثير هذا أيضاً كتاب تاريخ الدولة الأتابيكية ملوك الموصل ذكر فيه الحروب الصليبية طبعت منه أجزاء مع ترجمة فرنسية بعناية العلامة جان جنس والعلامة رينود في باريس سنة ١٨٢٩م.

ضياء الدين ابن الأثير

هو أخو مجد الدين وعز الدين السابق ذكرهما ولم يكن أقل منهما علماً واتّصل يخدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧هـ ثمّ طلبه منه ولده الملك الأفضل، فخيره صلاح الدين بين المقام في خدمته والانتقال إلى خدمة ولده فاختار خدمة ولده ومضى إليه، فاستوزره وحسنت حاله عنده. ولما توفي صلاح الدين واستقلّ ولده الملك الأفضل بمملكة دمشق استقل ضياء الدين بالوزارة وصار الاعتماد في جميع الأحوال عليه، ولما أخذت دمشق من الأفضل وانتقل إلى صرخد وكان ضياء الدين أساء السيرة مع أهل دمشق همّ أهل دمشق بقتله فأخرج مستخفياً في صندوق وسار إلى الأفضل ثمّ صحبه إلى مصر لما استدعى لنيابة ابن أخيه الملك المنصور كما تقدّم. ولمّا أخذ الأفضل البلاد الشرقية خاف ضياء الدين

أن يصحبه إليه، لكنه عاد إلى خدمته بعدئذٍ ثمّ فارقه واتّصل بخدمة أخيه الملك الظاهر صاحب حلب، ثمّ فارقه وتجوّل في البلاد إلى أن جعل دار إقامته الموصل كاتباً لصاحبها نصر الدين محمود ارسلان شاه. ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله كتابه الذي سماه «المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر»، وهو في مجلّدين فتصدى عز الدين أبو حامد المدايني لمواخذته والرد عليه وسمى كتابه الفلك الدائر على المثل السائر. ولضياء الدين أيضاً كتاب الوشي المرقوم في حل المنظوم وهو مع وجازته في غاية الحسن والإفادة وله كتاب المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء وله مجموعٌ اختار فيه شعر أبي تمام والبحتري وديك الجن والمتنبي وهو في مجلدٍ واحد كبير وله ديوان ترسل في عدّة مجلّدات، و«المختار» في مجلّد واحد. وكانت ولادة ضياء الدين بالجزيرة سنة ٥٥٨هـ سنة ١١٦٣م وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧هـ سنة ١٢٤٠م.

وقد طبع كتابه «الوشي المرقوم في حل المنظوم» في بيروت سنة ١٢٩٨هـ وطبع كتابه «المثل السائر» في مصر سنة ١٢٨٢هـ. وقد انتقد هذا الكتاب الصفدي أيضاً.

عثمان ابن الحاجب

قال فيه ابن خلكان هو عمر أبو عثمان بن عمر... المصري الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب الملقّب جمال الدين، كان والده حاجباً للأمير عز الدين موشك (ويروى موسك بالسين) الصالحي، وكان كردياً فاشتغل عثمان أولاً بالقرآن الكريم ثمّ بالفقه على مذهب الإمام مالك ثمّ بالعربية والقراءات، وبرع في علومه وأتقنها غاية الاتقان ثمّ انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها وأكبّ الخلق على الاشتغال عليه، وكان الأغلب عليه علم العربية وصنف مختصراً في مذهبه ومقدّمة وجيزة في النحو (وهي المعروفة بالكافية وأخرى مثلها في التصريف وسماها الشافية) وشرح المقدّمتين وصنف في أصول الفقه، وكل تصانيفه في نهاية الحسن والافادة وخالف النحاة في مواضع وأورد عليهم إشكالات تبعد الإجابة عنها، وعاد إلى القاهرة والناس ملازمون له للاشتغال عليه. ثمّ انتقل للاسكندرية للاقامة بها فلم تطل مدّته هناك وتوفي بها في ٢٦ شوال سنة ٦٤٦هـ سنة ١٢٤٩م. وذكر

أبو الفداء انّه اختصر كتاب الاحكام للآمدي في أصول الفقه فطبق ذكر هذين الكتابين أي الكافية ومختصره في أصول الفقه جميع البلاد خصوصاً بلاد العجم، وأكبّ الناس على الاشتغال بهما إلى زماننا هذا. وله غيرهما عدّة مصنّفات.

وعن اكتفاء القنوع أنّ الحسين ابن أحمد الشهير بزيني زاده من أهل القرن الثاني عشر للهجرة شرحاً بصفة اعراب الكافية سماها: «الفوائد الشافية على إعراب الكافية» فرغ من تبييضه سنة ١١٦٨هـ سنة ١٧٥٤م وطبع بالقسطنطينية سنة ١٢٣٥هـ سنة ١٢٥١هـ دون ذكر محل الطبع. وطبعت الكافية مع الاعراب في القاهرة وللنلاجامي الذي توفي سنة ٨٩٨هـ بهرات شرح مطوّل على الكافية سماه «الفوائد الضافية» طبع في الهند سنة ١٢٨٢هـ وفي القسطنطينية سنة ١٢٨٧. وللرضي الاستربادي الذي توفي سنة ٦٨٦هـ شرح مطوّل على الكافية يعرف بشرح الرضي طبع في جزئين في الهند سنة ١٢٨٠هـ وفي القسطنطينية سنة ١٢٧٥هـ مع حواش على الهامش. وطبعت الشافية في التصريف في الهند سينة ١٢٧٨هـ مع شروح لها ثمّ في القسطنطينية سنة ١٣٠٣هـ. وروى المطران أسطفان عواد في فهرست المكتبة الماديشية أنّ فيها كتاب الكافية مطبوعاً بالعربية برومة سنة ١٥٩٢م ونسخة أخرى مع ترجمتها إلى اللاتينية التي وضعها توما أوربانيوس وطبعت في لايدن سنة ١٦١٧م ثمّ بريس سنة ١٦٣٨م.

ابن البيطار

هو أبو محمّد ضياء الدين عبد الله ابن أحمد المعروف بابن البيطار الأندلسي اشتهر كثيراً بعلم النبات وجال في كثير من الآفاق للبحث عن النبات والاستطلاع على خواصه حتى عدوّه من أحسن مؤلفي العرب في علم النبات وأقام مدات في مصر وسورية. وكان من أصحاب ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء ولابن البيطار عدة مصنفات في الطب منها المغني وهو مرتب على أحرف الهجاء، وكتاب مداواة الأعضاء وله في النبات كتاب الأدوية المفردة المعروف بمفردات ابن البيطار وهو معجم في النبات وهو أشهر كتبه وطبع في جزئين ببولاق سنة ١٢٩١هـ معنوناً الجامع لمفردات الأدوية والأغذية. وقد أخذ ابن البيطار عن مصنف

ديوسقوريدس اليوناني العين ذربي وتوفي بدمشق سنة ٦٤٦هـ سنة ١٢٤٨م. وقد ذكر المطران أسطفانس عواد السمعاني كتاب مفردات ابن البيطار في فهرست الكتب المشرقية بالمكتبة الماديشية وقال في حقّه إنّه كان فيلسوفاً ماهراً جداً بعلم النبات وطاف أربع قارات العالم للبحث عن النبات واختبار خواصه لكنه قال إنّه توفي في ملاكا مدينة مولدهِ في التاريخ الذي ذكرناه لا في دمشق كما مرّ ونحن نعول على هذه الرواية أكثر من الرواية التي ذكرناها قبيل هذا.

البهاء زهير

ذكر ترجمته ابن خلكان فقال هو أبو الفضل زهير بن محمّد بن علي... المهلبي العتكي الملقّب بهاء الدين من فضلاء عصره وأحسنهم نظماً ونثراً وخطاً وأكثرهم مروءة اتّصل بخدمة السلطان الملك الصالح ابن الملك الكامل بالديار المصرية وتوجه بخدمته إلى البلاد المشرقية ولما ملك الملك الصالح دمشق انتقل إليها في خدمته ولما خرجت عنه دمشق وخانه عسكره وهو على نابلس، وقبض عليه ابن عمّه الملك الناصر صاحب الكرك استمرّ البهاء زهير بنابلس ولم يتّصل بغيره ولمّا ملك الملك الصالح الديار المصرية عاد البهاء زهير إلى خدمته قال ابن خلكان: كنت أتشوّق أن أجتمع به وأسمع منه فاجتمعت به بالقاهرة ورأيته فوق ما سمعته عنه وأنشدني كثيراً من شعره:

يا روضة الحسن صلي فما عليك ضيرُ　　فهل رأيت روضة ليس لها زهيرُ

ومنه أيضاً

كيف خلاصي من هوى　　مازج روحي واختلط

وتايه أفيض في　　حبي لهُ وما انبسط

يمرّ بي متلفتاً　　فهل رأيت الظبي قط

وقد توفي البهاء زهير سنة ٦٥٦ سنة ١٢٥٨م.

عمر بن الفارض

قال فيه ابن خلكان هو ابن حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي الحموي الأصل المصري المولد والدار والوفاة المعروف بابن الفارض. له ديوان شعر لطيف وأسلوبه فيه رائق ظريف وله قصيدة مقدار ست مئة بيت مشتملة على اصطلاح الصوفية ومنهجهم وما ألطف قوله من جملته قصيدة طويلة:

أهلاً بمن لم أكن أهلاً لموقفه قول المبشر بعد اليأس بالفرج

لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذكرت ثمّ على ما فيك من عوج

وله من قصيدة أخرى:

لم أخلُ من حسدٍ عليك فلا تضع سهري بتشنيع الخيال المرجفِ

واسألْ نجوم الليل هل زار الكرى جفني وكيف يزور من لم يعرفِ

وعلى تفنن واصفيه بوصفه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصفِ

وله ذو بيت وموالياً وألغاز. جاور بمكة زماناً وكان حسن الصحبة محمود العشرة، وكانت ولادته في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦هـ سنة ١١٨١م بالقاهرة وتوفي في جمادي الأولى سنة ٦٣٣هـ سنة ١٢٣٥م ودفن بسفح المقطم.

وقد طبع ديوانه المشهور مراراً منها في بولاق في جزئين سنة ١٣١٠هـ مع شرحين عليه، الأوّل شرح لغوي للبوريني الذي توفي سنة ١٠٣٤هـ والآخر شرح صوفي لعبد الغني النابلسي الذي توفي سنة ١١٤٣هـ، وطبع أيضاً في باريس مع الشرحين المذكورين سنة ١٨٥٥م وطبع في بيروت مراراً وطبعه في مرسيليا الكونت رشيد الدحداح سنة ١٨٥٣م مع خلاصة من الشرحين.

ابن خلكان

هو أحمد بن محمّد بن أبي بكر خلكان البرمكي الملقّب شمس الدين صاحب وفيات الأعيان الذي اعتمدنا عليه غالباً في تراجم المشاهير الدنيويين. قال عن نفسه

في ترجمة زينب بنت الشعري: «مولدي يوم الخميس بعد صلوة العصر حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة ٦٠٨هـ (سنة ١٢١٢م) بمدينة أربيل بمدرسة سلطانها الملك المعظم مظفر بن زين الدين رحمه الله تعالى وكان فاضلاً عالماً تولى القضاء بمصر والشام وله مصنّفات جليلة منها وفيات الأعيان في التاريخ وغيره. وتوفي سنة ٦٨١هـ سنة ١٢٨٢م بدمشق وقد طبع كتابه وفيات الأعيان العلامة روستنفلد الألماني في ثلاثة عشر جزءاً في غوتنفن من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٦٥م، وهذه الطبعة هي التي اعتمدنا عليها وطبع أيضاً في باريس من سنة ١٨٣٨م إلى سنة ١٨٤٢م، وطبع مرّة أخرى في باريس سنة ١٨٦٨م وطبع في بولاق سنة ١١٧٥هـ وسنة ١٢٩٩هـ ثمّ في القاهرة سنة ١٢١٠هـ وقد ذكر له صاحب فوات الوفيات كثيراً من مقاطع الشعر منها:

يا رب إنّ العبد يخفي عيبه   فاستر بحلمك ما بدا من عيبه

ولقد أتاك وما له من شافعٍ   لذنوبه فاقبل شفاعة شيبه

ومنها:

يا معرضاً عني بغير جنايةً   أما تستحي من فرط تيهك والعجب

ومنها:

سلوتك فاصنع ما تشاء فانه   محا كثرة التقبيح حبك في قلبي

البيضاوي

هو ناصر الدين عبد الله الاشعري العقيدة ولد في البيضا ببلاد فارس وتولى القضاء في شيراز، وألقى دروساً في عدّة مدن، وتوفي في تبريز سنة ٦٨٥هـ سنة ١٢٨٧م. وفي رواية أخرى سنة ٦٩٢هـ سنة ١٢٩٢م وله في التوحيد كتاب «طوالع الأنوار» طبع مع شرح له بمطبعة حجرية في القسطنطينية. وأشهر كتبه تفسير القرآن الذي سماه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» اعتنى بطبعه العلامة فلايشر الألماني في سبعة أجزاء في لايبسك سنة ١٨٤٨م، ووضع فل الألماني لهذه الطبعة

فهرستاً وافياً طبع في لايبسك سنة ١٨٧٨م، ولشهاب الدين الخفاجي (الذي توفي سنة ١٠٢٩هـ) حاشية على هذا الكتاب عنوانها «عناية القاضي وكفاية الراضي» طبعت في ٨ أجزاء ببولاق سنة ١٢٨٣ ولشيخ زاده الحاشية على البيضاوي طبعت في ثلاثة أجزاء ببولاق سنة ١٢٦٣ وله حواشٍ أخرى.

وذكر العلامة المطران أسطفانس عواد السمعاني في فهرست المكتبة الماديشية تصانيف البيضاوي، فقال: الأوّل تفسير القرآن عنوانه أنوار التنزيل وأسرار التأويل جمع فيه في مجلّدين تفاسير كثيرين ممن تقدّموه، الثاني مقالة في أركان دين الإسلام وعقائده، والثالث كتاب في التاريخ سماه نظام التواريخ، والرابع كتابه المسمى طوالع الأنوار وهو فلسفي ديني وقد شرحه شمس الدين الأصفهاني ومنه نسخة في مكتبة باريس الملكية في عد ٢١٠. وهذه النسخة خطت سنة ١٣٤٨ كما يظهر من الذيل المعلّق بآخرها.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثالث عشر

الفصل الأوّل

بطاركة أنطاكية وأورشليم من الشرقيين والغربيين

عد ٨٨٧

بطاركة أنطاكية في القرن الثالث عشر

فرغنا من تاريخ بطاركة أنطاكية في القرن الثاني عشر بذكر توادورس بلسامون، وأرى تاريخ هؤلاء البطاركة في القرن الثالث عشر سقيماً غامضاً، ولذلك تلجئني

الحال إلى الإكتفاء بتلخيص ما رواه لكويان في مصنفه الموسوم بالمشرق المسيحي عن بطاركة أنطاكية في هذا القرن. قال كان بعد توادورس بلسامون في كرسي إنطاكية يواكيم الأوّل هياروتاوس ثمّ سمعان الثالث ثمّ داود، فقد رأيت في الجدول الواتيكاني الذي أرسلت إليّ خلاصته أنّ يواكيم خلف توادورس بلسامون ثمّ خلف هياروتاوس يواكيم ثمّ خلف اتناسيوس هياروتاوس. وقد صرّح كاتب الجدول المذكور بأنّه لا يعلم متى جلس هؤلاء البطاركة على كرسي أنطاكية مع بذله قصارى الجد للاطلاع على ذلك، ولهذا أظنّ أنّ أثناسيوس الذي ذكره صاحب الجدول الواتيكاني هنا ليس هو إلّا أثناسيوس الذي ذكرناه قبلاً في جملة بطاركة أنطاكية في القرن الثاني عشر، ورأيت في الجدول العربي الذي وضعه السمعاني أنّ يواكيم خلف بلسامون ودوروتاوس خلف يواكيم (وأظنّ أنّ دوروتاوس هذا الذي ذكره السمعاني إنّما هو هياروتاوس الذي ذكرناه نقلاً عن الجدول الواتيكاني). وكان بعد دوروتاوس سمعان يوليانوس وأثناسيوس. انتهى كلام السمعاني. ثمّ قال لكويان وامّا داود الذي ذكرته آنفاً فقد يكون له اسمان ولا أشكّ في أنّه جلس على كرسي أنطاكية بعد بلسامون، وقبل أوتيميوس الآتي ذكره. ثمّ ارتقى إلى كرسي أنطاكية بعد هؤلاء أوتيميوس الأوّل، توادوسيوس الخامس، ثمّ أرسانيوس ثمّ كيرلس الثاني، ثمّ ديوانيسيوس الأوّل، ثمّ كيرلس الثالث، ثمّ ديوانيسيوس الثاني، ثمّ صفرونيوس. ومما يبعث على العجب أنّ مؤلّف الجدول الواتيكاني لم يذكر هؤلاء البطاركة الثمانية ولم يذكر خلفاً لاثناسيوس المذكور آنفاً إلّا اغناطيوس الذي كان في القرن الرابع عشر مع أنّه قد حقق علماء يركن إلى روايتهم. أنّ هؤلاء البطاركة الثمانية جلسوا على كرسي أنطاكية ومن هؤلاء نيكوفور كاليستس فانّه أورد أسماءهم في الكتاب الرابع عشر من تاريخه، وقال إنّ أربعة بطاركة من هؤلاء نقلوا من كراسي أسقفية إلى الكرسي البطريركي الأنطاكي أي أنّ أوتيميوس نقل من كرسي طرابلس وكيرلس الثاني من كرسي صور ثمّ خلفه ديوانيسيوس الأوّل منتقلاً من كرسي بومبايوبلي. وخلف كيرلس الثالث ديونيسيوس الثاني وكان أسقفاً على المصيصة وكان شهيراً. وروى جيورجيوس باخميرس (في ك ٦ من تاريخه فصل ٥) أنّ أوتيميوس الأوّل لم يخلفه أرسانيوس كما روى بعضهم بل خلفه توادوسيوس وكان راهباً فان أوتميوس لما علم بدنو وفاته أوعز إلى توادورس أسقف عين زربة أن يجمع الأساقفة ويقترعوا

بحياته على من خلفه بعد مماته ففعلوا، ولذلك لم يكن بعد وفاة أوتيميوس من مخالف لانتخاب ديونيسيوس الثاني. وهذا البطريرك قد ساعد على اتحاد كنيسة الروم بالكنيسة الرومانية في أيام الملك ميخائيل باليالوغوس. ثمّ يقول باخميرس أنّ ديونيسيوس هذا تنازل عن البطريركية فاختار اكليرس أنطاكية أرسانيوس، وبعد وفاة أرسانيوس انقسم الأساقفة فاختار أساقفة كيليكية ديونيسيوس أسقف باميا يابولي، واختار أساقفة سورية كيرلس الثاني رئيس أساقفة صور واختتم لكويان كلامه بقوله وأمّا كيرلس الثالث وديونيسيوس الثاني وصفرونيوس الذين ذكرهم نيكوفور كاليستوس فلم أجد لهم ذكراً في ما طالعته من الكتب ويظنّ أنّ هذا القرن انقضى في مدّة هؤلاء البطاركة.

عد ٨٨٨
بطاركة أورشليم في القرن الثالث عشر

فرغنا من الكلام على بطاركة أورشليم في القرن الثاني عشر بذكر توافان الأوّل ويظهر أنّ كرسي أورشليم لم يقم عليه بطريرك بعد وفاة توافان المذكور في أوائل القرن الثالث عشر إلى نحو سنة ١٢٦٠م، فلا نرى لكويان ذكر بعد توافان إلّا غريغوريوس الثاني، وقال إنّ هذا صيّر بطريركاً في أيّام الملك ميخائيل باليولوغوس. والمؤكّد أنّ هذا الملك جلس على منصّة الملك في نيقية سنة ١٢٦٠م واستردّ قسطنطينية من الملك بودوين الثاني آخر ملوك اللاتين فيها سنة ١٢٦١م، وعني بإقامة غريغوريوس المذكور بطريركاً على أورشليم. وأنبأنا لكويان أنّ لهذا البطريرك كتاباً يرد به رأي يوحنا بكخوس الذي كان يدافع عن تعليم الكنيسة الغربية واللاتين، وأنّ هذا الكتاب في المكتبة الملكية في باريس.

ثمّ توفّي غريغوريوس الثاني في أيّام الملك ميخائيل أيضاً ولا نعلم بأيّة سنة كانت وفاته لأنّ الملك ميخائيل استقرّ على منصّة الملك إلى سنة ١٢٨٢م وخلفه ابنه أندرونيكوس الثاني وبعد وفاة غريغوريوس صيّر باسيليوس الثالث بطريركاً على أورشليم، ولما كان باسيليوس في القسطنطينية عاون على إصلاح الروم مع الكنيسة اللاتينية، ولمّا عاد إلى كرسيه في أورشليم قتل في مدّة الحروب التي كانت وقتئذٍ بين المسلمين والفرنج روى ذلك الاتيوس في كتاب ردّه على هوتينجاروس صفحة ٤٧٥.

وبعد مقتل باسيليوس صيّر على أورشليم تادي الفرمي فان في المكتبة الملكية بباريس كتاب مخطوط عنوانه تادي الفرمي بطريرك أورشليم رداً على اليهود كتبه نحو سنة ١٢٩٨م في أيّام الملك أندرونيكوس الثاني.

عد ٨٨٩

بطاركة أنطاكية وأورشليم من اللاتين في القرن الثالث عشر

أمّا أنطاكية فقد صيّر بطرس الأوّل بطريركاً عليها سنة ١٢٠٠م، ولمّا تولّى ريمونْد كونت طرابلس أنطاكية كان خصام شديد بينه وبين هذا البطريرك فسجنه وتوفي في السجن كما يظهر من رسالة كتبها البابا أينوشنسيوس الثالث في ١٢ تموز سنة ١٢٠٨م وخلفه بطرس الثاني وأثبته البابا أينوشنسيوس الثالث المذكور وأوصى بطاعته واحترامه وقد أعاقه المرض عن أن يشهد المجمع اللاتراني الرابع الذي عقده البابا أينوشنسيوس الثالث سنة ١٢١٥م فأرسل نائباً عنه ثمّ توفّي سنة ١٢١٧م كما يظهر من رسالة أنفذها البابا أنوريوس الثالث إلى مجمع كنيسة أنطاكية وفرغ كرسي أنطاكية من بطريرك إلى سنة ١٢١٩م، وكان يديره كاهن اسمه بطرس من كابوا فرقاه البابا المذكور إلى مقام الكردينالية وأقام على الكرسي الأنطاكي ديناريوس أحد كهنة الكنيسةِ الرومانية، ثمّ توفّي ديناريوس سنة ١٢٢٦م. وخلفه على الأظهر روبرتوس، فدبر مهام هذا الكرسي من سنة ١٢٢٦ أو سنة ١٢٢٧م إلى سنة ١٢٤٦م. وتوفي برومة وخلفه إيليا من رهبانية القديس عبد الأحد وبعد وفاته صيّر كويستيانوس من هذه الرهبانية بطريركاً على أنطاكية واستمرّ على كرسيها إلى سنة ١٢٦٨م حين قتله عسكر الملك الظاهر بيبرس وهو على المذبح لابس حلة التقديس عند امتلاكهم أنطاكِية في شهر أيار سنة ١٢٦٨م المذكورة، واستمرّ الكرسي الرسولي إلى اليوم يسمّى على أنطاكية بطاركة شرفاً يقيمون برومة فلا محل لذكرهم في تاريخ سورية.

أمّا أورشليم فيظهر أنّه بعد وفاة مونوماكوس بطريركها سنة ١٢٠٢م كما ذكرنا في تاريخ القرن الثاني عشر أختير بطريركاً لها ألبرتس سنة ١٢٠٤م، وكان أسقفاً بإيطاليا وثبته البابا أينوشنسيوس الثالث ولهذا البابا عدّة رسائل إلى هذا البطريرك الذي كان محبوباً موقراً حتى كان المسلمون أنفسهم يحبونه ولكن اغتاله

رجلٌ شرير كان البطريرك يؤنبه على فظائع ارتكبها بينما كان في طوافٍ حافل يوم عيد ارتفاع الصليب سنة ١٢١٤م، وانتخب بعده كوتاروس ويسمّى لوتاروس وكان أسقفاً على عكا. وروى بعضهم أنّ الذي انتخب بعد البرتس إنّما هو رودلفس وصحح لكويان أنّ المنتخب هو كوتاروس لكنّه لم يكن أسقفاً على عكا بل كان أسقفاً على بيزا أتى مع جماعة من أبناء أبرشيته لنجدة الفرنج بفلسطين فانتخب بطريركاً لأورشليم سنة ١٢١٥م، ثمّ توفّي فخلفه رودلفوس واستمرّ على البطريركية إلى سنة ١٢٢٥م، فخلفه جيرالدوس. وفي أيّامه أتى فريديريك الثاني عاهل ألمانيا إلى فلسطين فشكا البطريرك إلى الحبر الروماني بأنّه كان يعيبه بعقده الهدنة مع سلطان المسلمين فاستدعاه البابا ونبهه أن لا يتدخل باعمال هذا الملك ورفع عنه قصادة الكرسي الرسولي بفلسطين وعهد بها إلى البطريرك الأنطاكي، ثمّ توفّي رودولفوس سنة ١٢٣٩م وبعد وفاته طلب مجمع كنيسة أورشليم إلى البابا أن يرسل إليهم الكردينال يعقوب دي فتري الذي كان قبلاً أسقفاً على عكا وهو صاحب التاريخ المشهور، فلم يجب البابا غريغوريوس التاسع إلى طلبهم ونصب بطريركاً على أورشليم سماه بعضهم روبرتس وبعضهم كويدن وتوفي سنة ١٢٥٤م، وخلفه يعقوب وكان فرنسياً اختاره البابا اسكندر الرابع وعهد إليه بالقصادة في سورية. وروى مكمل تاريخ غوليلمس انّه أتى إلى عكا سنة ١٢٥٦م وعاد إلى المغرب سنة ١٢٦١م وتوفي الحبر الروماني فانتخب يعقوب بابا وسمي أوربانوس الرابع وتوفي سنة ١٢٦٤م وكان قد انتخب لبطريركية أورشليم برتلماوس من رهبانية القديس عبد الأحد، فأبى قبول البطريركية فانتخب أمبرتوس الرئيس العام لهذه الرهبانية فاستعفى أيضاً فعدل عنه إلى غوليلمس وكان أسقفاً على اجان فسار إلى عكا سنة ١٢٦٣م ومضى إلى قبرص سنة ١٢٦٧م فتوّج أوغوس لوسنيان ملكاً عليها ثمّ توفّي سنة ١٢٧٠م وخلفه توما وكان من الرهبانية المذكورة. وكان البابا اسكندر الرابع قد جعله قاصداً في سورية كلّها فجعله غريغوريوس العاشر بطريركاً على أورشليم سنة ١٢٧٢م وقاصداً في أصقاع المشرق. وروى مكمل تاريخ غوليلمس انّه توفّي عند وصوله إلى عكا سنة ١٢٧٢م وقيل بل بقي حياً إلى سنة ١٢٧٧م، فانتخب خلفاً له ايكلاريوس رئيس أساقفة نابولي، فلم يثبته البابا نيقولاوس الثالث بل انتخب مكانه يوحنا رئيس الرهبانية المذكورة فاستعفى، فعدل البابا إلى انتخاب إيليا سنة ١٢٧٩م. ونرى كوفريدوس أسقف حبرون (الخليل)

يسمي نفسه نائب إيليا بطريرك أورشليم في رسالته إلى ادوار الأوّل ملك انكلترا، وتوفي إيليا سنة ١٢٨٧م أو سنة ١٢٨٨م فاختار البابا نيقولاوس الرابع نيقولاوس الفرنسي من رهبانية القديس عبد الأحد بطريركاً على أورشليم، وعهد إليه بالقصادة في سورية وفلسطين وقبرص. ولما حاصر السلطان الملك الأشرف عكا وفتحها سنة ١٢٩١م وألحّ الفرنج على البطريرك أن يفرّ بسفينة وأكرهوه أن ينزل بها، ورأى كثيرين يرمون بأنفسهم في البحر فأخذ منهم معه من لا تطيق السفينة حملهم فغرقت السفينة بهم جميعاً، واختار حينئذٍ البابا شالستينوس الخامس رودلفوس الثاني بطريركاً على أورشليم، وكان رئيساً إقليمياً في الأرض المقدّسة وتوفي سنة ١٣٠٤م. (انتهى ملخصاً عن المشرق المسيحي للكويان مجلّد٣) واستمرّ الكرسي الرسولي يسمي بطاركة شرفاً على أورشليم إلى هذا القرن حين حسن للبابا بيوس التاسع أن يقيم بطاركة أورشليم فيها ويدبرون اللاتين سكان البطريركية فسمى السيّد يوسف فالركا بطريركاً مقيماً في أورشليم سنة ١٨٤٧م وأتى إليها سنة ١٨٤٨م.

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون في القرن الثالث عشر

عد ٨٩٠
غريغوريوس ابن العبري المعروف بأبي الفرج

ولد غريغوريوس ابن العبري سنة ١٢٢٧ للميلاد في ملطية حاضرة أرمينيا الصغرى على ضفّة الفرات وكان أبوه يسمى اهرون أو هرون وروى رينودوسيوس (في كتابه في الليتورجيات صفحة ٤٦٩) إنّه وجد في نسخة لأحد كتب ابن العبري في باريس أنّه كان ابن أخي البطريرك ميخائيل الكبير بطريرك اليعاقبة الذي ذكرنا ترجمته، وكان أبوه طبيباً ماهراً وله خبرة بالفلسفة فلقّن ابنه مبادئ العلوم ثمّ

دفعه إلى عالم بارع في مدينته فقرأ عليه اللغات السريانية والعربية واليونانية، فبرع فيها ثمّ انكبّ على درس الفلسفة واللاهوت فحاز قصبات السبق على اقرانه، ثمّ عكف على درس الطب آخذاً عن أبيه وغيره. وفي سنة ١٢٤٢م لما فتح التتر آسيا الصغرى وأقبلوا نحو ملطية همّ أبوه أن يهرب بأهل بيته فعدل التتر حينئذٍ عن الدخول إلى ملطية لكنّهم عادوا إليها سنة ١٢٤٣م وخرّبوها، فرحل هرون وأولاده إلى أنطاكية فسكنوها كما روى ابن العبري نفسه في كتابه تاريخ الدول (صفحة ٤٤١). واستأذن ابن العبري أباه بهجر العالم وانقطع إلى النسك والانفراد في مغارة بجبل أنطاكية، فأقام على ذلك سنة ثمّ خرج إلى طرابلس الشام قاصداً يعقوب أحد مشاهير النساطرة الذي كان يدرس العلوم الأدبية والرياضية والطبية، فتتلمذ له وتعارف هناك بصليبا وجيه ابن يعقوب من ملّته، فاشتغلا مدّة على العالم النسطوري وبرعا، واستقدمهما اغناطيوس سابا بطريرك اليعاقبة ورقاهما إلى درجة الأسقفية سنة ١٢٤٦م، وجعل صليبا أسقفاً على اليعاقبة بعكا، وابن العبري أسقفاً على جوباس (مدينة صغيرة من أعمال ملطية). إلّا أنّه لم يقم هناك سوى سنة واعتزل هرون اسقف لاقابين الأسقفية فنقل البطريرك اغناطيوس المذكور ابن العبري إلى أسقفية لاقابين وهي في جوار جوباس واستمرّ في هذه الأسقفية خمس سنين ومات البطريرك اغناطيوس سابا سنة ١٢٥١م، فكان في الملة اليعقوبية شقاق فاختار بعضهم خليفة له ديونيسيوس عنجور أسقف ملطية، واختار آخرون المغريان يوحنا ابن المعدني. وكان ابن العبري من مريدي ديونيسيوس، واستمرّ الشقاق إلى سنة ١٢٦١م حين قتل ديونيسيوس، وكان في كرسي حلب في تلك المدّة باسيليوس صليبا (وهو صليبا وجيه رفيق ابن العبري في طرابلس سمي بعد تسقفه باسيليوس) فرقاه ابن المعدني إلى مقام المغريان، وسمي اغناطيوس وأقام خلفاً له في حلب متى الجومي، فأرسل ديونيسيوس البطريرك ابن العبري إلى حلب، فصار أسقفان لكرسي واحد. وسمع المغريان اغناطيوس المذكور بذلك فقدم إلى حلب وأخذ يعاكس ابن العبري واعتضد عليه بالملك الناصر صاحب حلب حتى اضطرّ ابن العبري أن يعتزل إلى بيت أبيه الذي كان قد نقل سكنه إلى حلب. ثمّ سار ابن العبري إلى السلطان في دمشق فأخذ براءة لديونيسيوس عنجور بطريركه وأمراً لصاحب حلب ليأخذ بناصر ابن العبري فسلّمه صاحب حلب كنيسة اليعاقبة في هذه المدينة فاستبدّ في رعاية ملّته المفريان من حلب، وأتي فسكن طرابلس متعاطياً فنّ الطب إلى أن توفي سنة ١٢٥٨م.

ولما قتل ديونيسيوس البطريرك سنة ١٢٦١م كما مرّ أدّى ابن العبري فروض الطاعة إلى يوحنا بن المعدني وحظي عنده. وهم بترقيته إلى مقام المفريان فعاجله الموت سنة ١٢٦٣م وانتخب مكانه يشوع رئيس دير الجويقات، وسمي اغناطيوس وهو الثالث من بطاركتهم بهذا الاسم فرقي ابن العبري إلى مقام المفريان سنة ١٢٦٤م، وهذه الكلمة سريانية معناها المثمر أو المصدر، إشارة إلى ما يصدره من الثمار الروحية. فلما انتشرت شيعة اليعاقبة في المشرق وكان بطاركتهم يقيمون بأنطاكية رأوا أنّه لا بدّ لهم من نائب يقوم مقامهم في العراق والجزيرة، فأوجدوا رتبة مفريان وهي بمعنى الجاثليق أو الكاثوليكس أي الأسقف العام أو كبير الأساقفة، وقد ذكر ابن العبري ترقيته إلى رتبة مفريان المشرق في القسم الثاني من تاريخه السرياني صفحة ٣٣٥ ثمّ ذكر في القسم الرابع من هذا التاريخ ما عمله وما كان من الأحداث وهو مفريان من سنة ١٢٦٤ إلى سنة ١٢٨٦م التي توفي بها. وقد نقل السمعاني في مكتبته المشرقية (مجلّد ٢ صفحة ٢٤٨ إلى ٢٦٤) كلام هذا المفريان في القسم الرابع المذكور، ولخص ذلك الأب شيخو في ترجمته ابن العبري التي نشرها في مجلّة «المشرق» في سنة ١٨٩٨م، إلّا أنّه وقع غلط من منظّمي الحروف المطبعية فذكروا أنّ ترقية ابن العبري إلى رتبة مفريان كانت سنة ١٢٧٤م، والمؤلف يريد أن يقول سنة ١٢٦٤م. وقد روى خبر وفاة ابن العبري أخوه برصوما وعدد مؤلفاته، ونقل ذلك العلامة السمعاني في المحل المذكور من مكتبته المشرقية من صفحة ٢٦٤، فكان عدد مؤلفاته التي ذكرها أخوه واحداً وثلاثين مؤلفا وقال السمعاني إنّه فاته ان يذكر لأخيه ثلاثة كتب أيضاً.

فنذكر أخص هذه الكتب فأوّلها كتابه المعنون بالسريانية ܐܘܨܪ ܐܪ̈ܙܐ وبالعربية «كنز الأسرار». قال العلامة السمعاني (في كلامه على هذا الكتاب صفحة ٢٧٧ من المجلّد ٢) كانت نسخة منه معارضة بنسخة بخط المؤلّف في مدرسة الموارنة برومة، وهذا الكتاب يشتمل على تفسير الأسفار المقدّسة واعتمد فيه على الترجمة السريانية المعروفة بالبسيطة منبهاً إلى ما بينها وبين غيرها من النصوص والترجمات من اختلاف الروايات كالعبرانية والسامرية والسبعينية، وترجمتي اكويلا وسيماخوس وروايات اوريجانس، وعن الأب لويس شيخو اليسوعي الذي كتب ترجمة هذا العلامة مطوّلةِ ان أقساماً مثيرة من هذا الكتاب قد طبعها كثيرون من علماء أوروبا. الثاني كتابه الموسوم «بمنارة الأقداس» وبالسريانية ܡܢܪܬ ܩܘܕ̈ܫܐ. قال العلّامة

السمعاني في المحل المذكور إنّ منه نسخة بالعربية في مكتبة باريس الملكية ومنه بالسريانية نسختان إحداهما في المكتبة الماديشية والثانية في المكتبة الواتيكانية وهو في اللاهوت، ترجمه إلى العربية دانيال بن الخطاب (كتبه الأب شيخو بالخاء ورواه السمعاني بالحاء) اليعقوبي من المعارضين للمؤلف، وعربه بعده الشماس سركيس بن يوحنا الدمشقي. وقال الأب شيخو إنّ في مكتبة الآباء اليسوعيين نسخة منه أخذت عن نسخة في دير الشرفة.

الثالث كتاب «الأشعة» وبالسريانية ܟܬܒܐ ܕܙܠܝܩܐ وهو في اللاهوت أيضاً مقسوم إلى عشرة أقسام الأوّل في ما خلقه الله في الأيّام الستة، والثاني في الله الوحيد الذات المثلث الأقانيم، والثالث في التجسّد الخ. ومما قاله في هذا القسم: «فيقول لك الماروني من الضرورة أن يكون للاهوت طبيعة فان كانت الطبيعة الواحدة التي تقرّ أنّها في المسيح طبيعة اللاهوت فأين هي طبيعة الناسوت»؟ وقال العلامة السمعاني باثر ذكره هذا الكلام (مجلّد ٢ من المكتبة المشرقية صفحة ٢٩٨): «هذا يؤيد ما ذكرته مراراً أنّ اتّهام البعض للموارنة ببدعة الطبيعة الواحدة هو كاذب وباطل، وألحق بذلك حاشية قال فيها إنّ النسخة التي لدينا من كتاب ابن العبري هذا كان مكتوباً فيها الخلكيدوني مكان الماروني، فضرب عليها كاتب هذه النسخة وكتب مكانها الماروني». وعلق على هامش الكتاب حاشية قال فيها. هكذا وُجِد بخط هذا العلامة (أي ابن العبري) بيده إنّه أعاد الكلمة إلى ما كانت عليه بخط المؤلّف.

والكتاب الرابع من كتب ابن العبري هو كتاب «الهدايات» وبالسريانية ܟܬܒܐ ܕܗܘܕܝܐ جمع فيه القوانين البيعية ليكون دستوراً بيد الأساقفة وقسّمه إلى قسمين يشتمل الأوّل منهما على ما يختصّ بأمور الكنيسة، والثاني على ما يتعلّق بالمؤمنين وضمّنه أربعين باباً ذكر السمعاني عنواناتها، ومنه نسخة في المكتبة الماديشية ذكرها المطران أسطفان عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب المشرقية في هذه المكتبة في عدد ١١ من هذه الكتب صفحة ١٠١، وذكر ما في كل منها من الفصول، وروى أنّ هذه النسخة خطت سنة ١٣٥٧م وقد شرى نسخة منه لمكتبة الفاتيكان أندراوس اسكندر الماروني. وقد أفادنا الأب

شيخو أنّ هذا الكتاب عربه دانيال بن الخطاب المار ذكره في حياة مؤلفه، وان العلامة السمعاني الطائر الشهرة قد ترجمه إلى اللاتينية. فطبعت ترجمته في هذا العصر وتولى طبعها الكردينال ماي الشهير.

والكتاب الخامس كتاب «الآداب وتهذيب الأخلاق» وبالسريانية ܟܬܒܐ ܕܐܝܬܝܩܘܢ وهو مقسوم على ما روى السمعاني إلى أربعة أقسام وفي كل منها عدّة فصول ومنه نسخة في المكتبة الواتيكانية في جملة الكتب التي شراها أندراوس اسكندر لهذه المكتبة وترجمه من اللغة السريانية إلى العربية القس يوحنا بن الجرير الدمشقي كما يظهر من حاشية معلّقة على هذا الكتاب خطت سنة ١٦٤٥م، وعن الأب شيخو أنّ في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت نسخة منه استنسخوها عن كتاب في دير الشرفة، وظنّ الأب شيخو المذكور أنّ معرّبها ابن الخطاب المذكور.

والكتاب السادس هو كتاب «تاريخه السرياني» المعنون بالسريانية ܡܟܬܒܢܘܬ ܙܒܢܐ بدأ فيه من خلق العالم إلى أيّامه وقسّمه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأوّل في تاريخ الآباء والملوك روى فيه ما كان من الأحداث من آدم إلى ملك الكلدان في أيّام بختنصر ثمّ في أيّام المادیين والفرس ثمّ من أيّام هؤلاء إلى ملك اسكندر الكبير والبطالسة ملوك مصر. ثمّ روى أخبار الملوك الرومانيين في المغرب والمشرق إلى أيّام هرقل الملك ثمّ اخبار ما كان من ظهور الإسلام إلى اجتياح التتر الذين يسميهم المغول إي إلى سنة ١٦٠٠ لاسكندر وهي سنة ١٢٨٩ للميلاد وضمن ذلك في ٣٣٢ فصلاً.

والقسم الثاني من هذا المؤلف ضمّنه تاريخ بطاركة أنطاكية واليعاقبة وقسّمه إلى جزئين عنوان الأوّل سلسلة الأحبار العظام في العهد القديم وبدأ فيه من هرون حتى انتهى إلى حنان في أيّام المخلّص، والجزء الثاني عنوانه تاريخ الكهنة العظام في العهد الجديد. فتكلّم في المقدّمة في رئاسة بطرس الرسول وفي الكراسي البطريركية التي أنشأها، ثمّ أردف ذلك بسلسلة بطاركة أنطاكية وما كان في عهد كل منهم مبتدئاً باوديوس خليفة بطرس في أنطاكية إلى أفرام الآمدي الذي كان يدبر كنيسة أنطاكية لما طُرد منها ساويروس ولطخ مصر وسورية ببدعة الطبيعة الواحدة. وقد أجاد كثيراً بذكر هؤلاء البطاركة واستشهدنا مراراً في تاريخنا هذا بكلامه عليهم ثمّ روى تاريخ بطاركة اليعاقبة بعد وفاة ساويروس إلى نمرود المسمى فيلوكسيسوس الذي توفي سنة

١٥٩٦ لاسكندر، وهي سنة ١٢٨٥ للميلاد، ثمّ زاد بعضهم على تاريخه فأوصله إلى نوح البقوفاوي اللبناني الذي رقي إلى بطريركيتهم سنة ١٤٩٣م. وقد نقل السمعاني عن هذا القسم صفحات مطوّلة في بطاركة اليعاقبة وجثالقتهم في مكتبته المشرقية، ثمّ اهتمّ السيّدان الفاضلان المستشرقان أبالوس ولامي بطبع هذا القسم مع ترجمته إلى اللاتينية وتذييلهما بحواشٍ كثيرة الفائدة وذلك سنة ١٨٧٢م وسنة ١٨٧٣م في لوفان (بلجيكا). وقد أتمّ السيّد لامي جداول البطاركة والجثالقة إلى زماننا مع ذكر بطاركة النساطرة بعد زمان ابن العبري، وختمه بملخّص تاريخ بطاركة الكلدان الكاثوليكيين من عهد يوحنا سلاوقا، وفي مكتبة مدرستنا مدرسة الحكمة نسخة من كتاب أباولوس ولامي. هذا وقد استشهدنا بكلامهما مراراً.

والقسم الثالث من تاريخ ابن العبري ضمنه تاريخ الجثالقة والبطاركة ومفريانات الشرق عند الكلدان الكاثوليكيين أي النساطرة واليعاقبة من توما الرسول وتلميذيه ادى وحاجي إلى يهب الله الذي رأس أمّة النساطرة سنة ١٥٩٣ لاسكندر وهي سنة ١٢٨٢م، ومن ماروتا المفريان الأوّل لليعاقبة الذي رقي إلى هذا المقام سنة ٦٢٨م إلى سنة ١٢٨٦م التي توفي بها ابن العبري مفريانهم، وزاد بعضهم على تاريخ هؤلاء ذكر خلفائهم إلى سنة ١٨٠٧ لاسكندر التي هي سنة ١٤٩٦ للميلاد. قال العلامة السمعاني إنّ كتاب ابن العبري هذا أكثر إفادة من جميع كتبه ولاسيما قسماه الثاني والثالث لأنّه أبان فيها بياناً جلياً تاريخ النساطرة واليعاقبة البيعي وكان اليونان واللاتين لا يعرفون منه شيئاً وليس القسم الأوّل من هذا الكتاب وهو الآتي ذكره أقل نفعاً من القسمين المذكورين.

ثمّ إنّ القسم الأوّل من تاريخ ابن العبري السرياني المذكور قد ترجمه مؤلفه نفسه إلى اللغة العربية وسماه مختصر تاريخ الدول وزاد عليه عدّة إفادات نقلها عن مشاهير مؤرخي العرب كالطبري وابن الأثير، وقد طبع أصله السرياني مع ترجمته إلى اللاتينية سنة ١٧٨٩م. على أنّ هذه الطبعة وجدها العلماء مشوهة بكثير من الخطأ، وقد جدد طبعه بدقة واتقان بدجان العازاري الكلداني أصلاً سنة ١٨٩٠م. وأمّا ترجمته العربية فقد طبعها أولاً موجزة العالم ادوار بوكوك مع ترجمته لها إلى اللاتينية معنونة مختصر تاريخ العرب لابن العبري في أكسفورد سنة ١٦٥٠م، ثمّ طبع الكتاب كاملاً بالعربية واللاتينية سنة ١٦٦٣م في المدينة المذكورة، ثمّ ترجم هذا الكتاب إلى الألمانية، وطبع الأب صالحاني اليسوعي النسخة العربية وحدها في

مطبعة اليسوعيين ببيروت من عهدٍ قريب وطبعته أكمل وأحسن من باقي طبعاته.

ولابن العبري في الفلسفة كتابه الموسوم بزبدة الحكمة وبالسريانية ܚܐܘܬ ܚܟܡܬܐ وسماه بعضهم حكمة الحكم وقسّمه إلى قسمين، ضمن الأوّل ترجمة فلسفة أرسطو، وشرح في الثاني ما يختص بعلم الطبيعة كالعالم والسماء والمعادن والنبات والحيوان ثمّ علم ما وراء الطبيعة كأصول الفلسفة والعلم بالخالق والادبيات الخ. ثمّ اختصر هذا المؤلف وسماه «تجارة التجارات» وبالسريانية ܬܐܓܪܬ ܬܐܓܪ̈ܬܐ وقد ذكره المطران أسطفانوس عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية، وفصّل ما اشتمل عليه من المقالات والفصول وقال إنّ الكتاب الموجود بالمكتبة المذكورة خطه سنة ١٣٤٠م الكاهن نجم وعليه تعليقات عربية على الهامش كتبها دانيال الربان أي العالم أو الملفان الذي كان الكتاب ملكاً له.

وله أيضاً كتاب في النفس البشرية كتبه بالعربية ونشره الأب شيخو في آخر ترجمته المعلّقة في «مجلّة المشرق» وله أيضاً ترجمة كتابين في الفلسفة أحدهما كتاب «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا سماه ܟܬܒܐ ܕܪ̈ܡܙܐ ܘܡܥܝܪ̈ܢܘܬܐ والثاني كتاب «زبدة الأسرار» لأثير الدين الابهري أحد معاصريه الذي توفي سنة ١٢٦٢م وفي ديوانه عدة قصائد فلسفية.

وله في الرياضيات «حل كتِاب اقليدس» في الهندسة وله كتاب في «علم الهيئة» أي الفلك سماه بالسريانية ܟܬܒܐ ܕܣܘܠܩܐ ܗܘܢܢܝܐ أي كتاب الارتفاع العقلي وله كتاب في «تفسير المجسطي» لبطليموس وهو في النجوم وحركات الأفلاك وكتاب في «استخلاص التقويم السنوي وتعيين الأعياد المنتقلة» ليسهل به معرفة الأعياد المذكورة، وله في الطب شرح فصول ابقراط وفاق به من تقدّمه بشرحه لكنه مفقود لم نهتدِ إليه إلّا بذكر أخيه برصوما له في جملة مصنّفاته، وله أيضاً بهذا الفن «شرح كتاب حنين بن اسحق» الطّبيب النصراني المشهور وعاجله الموت قبل أن ينجز هذا الكتاب، وترجم إلى السريانية كتاب ديسقوريدس اليوناني في المفردات الطبية وكتاب «القانون» للشيخ الرئيس ابن سينا في الطب.

وله في اللغة السريانية ܟܬܒܐ ܕܨܡܚ̈ܐ أي كتاب «الأشعة أو اللمع» ضمّنه كل أبواب النحو في اللغة السريانية على أنّه سلك به مسلك العرب في نحو لغتهم، وحذا خاصةً حذو الزمخشري في كتابه «المفصّل» وقد طبع هذا الكتاب الأب

مرتين المستشرق الفرنسي بباريس سنة ١٨٧٢م على مطبعة حجرية وقلّما تخلو مدرسة من مدارس طائفتنا من هذا الكتاب. وله كتاب آخر في نحو هذه اللغة مقتطف من كتابه السابق ومعقود بالشعر بالوزن الأفرامي، وعندي نسخة منه نسختها لنفسي بمدّة تعليمي بمدرسة عين ورقة، وله قصيدة تزيد على ست مئة بيت مرتبة على أحرف المعجم جمع فيها الألفاظ المتشابهة بالحروف في اللغة السريانية على طريقة الجناس اللفظي في علم البديع بالعربية وألحق بها تفسيراً لتلك الألفاظ، وله ديوان شعر سرياني طبع برومة سنة ١٨٧٧م حاوياً ثمانين قصيدة وقد وقف على طبعه الأب أغوسطينوس الشبابي الراهب الحلبي اللبناني الماروني وله قصائد أخرى كثيرة لم تطبع بهذا الكتاب، ومن المشهور من شعره قصيدته في الحكمة الإلهية على طريقة الصوفيين تغزّل بها بالكمالات الإلهية كعمر بن الفارض مشبهاً إياها بفتاة بهية المنظر فريدة الخصال استهلها بقوله:

ܦܫܠܐ ܚܢ ܒܒܠܒܐ ܠܐܠܗܐ ܕܝܫܘܥ ܠܒܣܡܐ ܐܣܝܐ وقد

طبعها العلامة جبرائيل الصهيوني الماروني بباريس سنة ١٦٢٦م، ثمّ جدّد طبعها القس يوحنا نطين الراهب الحلبي اللبناني الماروني برومة سنة ١٨٨٠م وشرحها بالعربية ونظّمها بالشعر الغزلي أحد شعراء هذه الأيّام فمطلعها:

بدت تجلو بمعالمنا سناها ... فنور الشمس يخجل من ضياها

فتاة راق منظرها ورقت ... سهام أرسلتها مقلتاها

بتول كاعب أم عجوز ... صفاتٌ ليس يجمعها سواها

وله أيضاً نافور أي رتبة قداس ذكره له الاهدني في المنائر العشر والسمعاني في المكتبة الشرقية إلى غير ذلك من الكتب التي عني بتأليفها هذا النابغة في عصره. وقد أخذ العلماء على ابن العبري أغلاطاً كثيرة عدا متابعته على بدعة الطبيعة الواحدة في المخلّص في عقائد الإيمان، ونقتصر على ذكر ضلالين له: الأوّل زعمه في كتابه منارة الأقداس أنّ الروح القدس ينبثق من الآب دون الابن وهذا مخالف لمعتقد أمّته أيضاً، والثاني ضلاله الذي صرّح به في قانون الإيمان الذي كتبه بقوله أنّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً، وهذا بدعة المونوتولتيين، ونعذره بهذا الضلال لأنّه نتيجة لأزمة من مقدّمات اعتقاد اليعاقبة بأنّ في المسيح طبيعة واحدة فمن قال

بطبيعة واحدة لزمه ضرورة أن يقول بمشيئة واحدة وفعل واحد، لكننا لا نعذر من يعلم أنّ علماء اليعاقبة وابن العبري نفسه يسمّون مذهب الموارنة بدعة، ومع ذلك يتّهمونهم ببدعة المشيئة الواحدة التي لا تفترق إلّا بالاسم عن تعليم اليعاقبة. انتهى ملخّصاً عن العلّامة السمعاني في المجلّد الثاني من المكتبة المشرقية وعن الأب شيخو اليسوعي في ترجمة ابن العبري المثبتة في مجلّة المشرق.

عد ٨٩١

ابن العسال ويعقوب أسقف تكريت ويوحنا ابن المعدني

أمّا ابن العسّال فهو أبو اسحق المصري موطناً، اليعقوبي مذهباً، قال في حقّه المطران أسطفانس عواد السمعاني في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية اشتهر شهرة كبرى بعلمه في القرن الثالث عشر حتى كنّاه النصارى المشرقيون أبا الفضائل، وله كتاب جمع فيه قوانين الكنيسة وقسّمه إلى قسمين وعلق عليه مقدّمة ذكر فيها الكتب التي أخذ عنها، وهي أسفار العهدين القديم والحديث، وقوانين الرسل والقوانين المعزوة إلى أكليمنضس الحبر الروماني، ومجمع انقوره ومجمع أنطاكية وغيرها من المجامع، وضمّن القسم الأوّل اثنين وعشرين فصلاً، واشتمل القسم الثاني على ثلاثين فصلاً، وله كتاب في تفسير الأسفار المقدّسة عنوانه مجموع أسس الدين، وهو كثير الفائدة أبان فيه صحّة الدين المسيحي، ورد فيه على الوثنيين واليهود وزيّف أقوال الفلاسفة غير المسيحيين، وأثبت بأدلّة جلية سري التثليث والتجسّد وسائر أسرار الدين المسيحي التي تتفق عليها ملل النصارى. وزعم رينودوسيوس في كتابه تاريخ بطاركة الاسكندرية أنّ كتاب مجموع أسس الدين ليس لابن العسال صاحب كتاب مجموع قوانين الكنيسة بل لأخ له، لكن زعم رينودوسيوس هذا غير صحيح لأنّ جميع نسخ الكتابين التي في المكاتب الشهيرة ولاسيما المكتبة الواتيكانية تراها باسم أبي اسحق ابن العسّال أبي الفضائل، وقد شهد ابن العسال المجمع الذي عقده كيرلس لقلق بطريرك اليعاقبة في الاسكندرية سنة ١٢٣٩م وأدخل قوانينه في مجموعته فظهر من ذلك أنّه توفّي بعد هذا المجمع.

يعقوب أسقف تكريت

كان راهباً في دير القديس متى القريب من نينوى ثمّ رقي إلى أسقفية تكريت واشتهر سنة ١٢٣٠م، وله من التأليف كتاب سماه كتاب «الكنوز» وقسّمه إلى أربعة أقسام تكلّم في الأوّل منها على الله الواحد الذات المثلث الأقانيم في ثلاثة عشر فصلاً، وفي الثاني على تجسّد المخلّص وقسمه إلى واحد وأربعين فصلاً، وفي الثالث على عناية الله وضمّنه احد عشراً فصلاً، وفي الرابع على خلق العالم والملائكة والنفس وقيامة الموتى والدينونة وجعل فيه أربعين فصلاً، وهو يعقوبي المذهب. وله كتاب آخر في شرح «الفروض الإلهيّة» و«تفسير الرتب والصلوات» وله كتاب آخر في «دستور الإيمان».

وأمّا يوحنا ابن المعدني الذي أشرنا إليه في ترجمة ابن العبري فكان من بلدة اسمها معدن في الجزيرة وصير أوّلاً أسقفاً لماردين على اليعاقبة، ثمّ رقي سنة ١٢٤٩ إلى رتبة مفريان ولمّا توفي اغناتيوس سابا بطريركهم سنة ١٢٥١م انتخب بعض أساقفتهم ديونيسيوس عنجور بطريركاً فجمع ابن المعدني الأساقفة المخالفين لديونيسيوس في حلب فانتخبوه بطريركاً سنة ١٢٥٢م، وبقي البطريركان معاً إلى سنة ١٢٦١م حين قتل ديونيسيوس فاستبدّ ابن المعدني بالبطريركية، ثمّ توفّي سنة ١٢٦٣. ذكر كل ذلك ابن العبري في تاريخه السرياني. ولابن المعدني من المؤلفات نافور ذكره الدويهي في كلامه على مؤلفي النوافير غير الكاثوليكية عد ٧ حيث قال «ܝܘܚܢܢ ܒܪ ܡܥܕܢܝ (يوحنا ابن المعدني) له نافور بدؤه ܐܠܗܐ. ܡܬܘܡܝܐ ܐܒܐ ܩܕܡܝܐ ܐܝܬܝܐ ܐܠܨܝܐ أي أيّها الإله الآب الأزلي السرمدي الكائن ضرورة. وترجم رينودوسيوس هذا النافور في المجلّد الثاني من كتابه في الليتورجيات صفحة ٥٢٤، وقال لا نعلم من هو يوحنا هذا ولا في أي زمان كان فكل ما نعلمه إنّما هو أنّه كان بطريركاً على اليعاقبة فان تاريخ بطاركة اليعاقبة على أنطاكية غامض جداً قال العلاّمة السمعاني عند ذكره ذلك (في المكتبة المشرقية مجلّد ٢ صفحة ٢٤٣): «إنّما الفضل للحبر الروماني أكليمنضوس الحادي عشر الكلي القداسة فبأمره وعنايته جمعت في المكتبة الواتيكانية الكتب الوافرة العدد بلغات جميع الشرقيين فظهرت حقائق تواريخ جميع هذه الملل».

ولابن المعدني مقالة في النفس منظومة في عدّة قصائد تضمّنها الكتاب الخامس من الكتب السريانية التي جلبها أندراوس اسكندر الماروني إلى المكتبة الواتيكانية، وله أيضاً اثنان وعشرون خطبة باللغة العربية، قد خطّت بالأحرف السريانية كتبها سنة ١٥٠٥م نوح البقوفاوي اللبناني الذي صيّر بطريركاً على اليعاقبة، وهي مثبتة في الكتاب ٣٠ من كتب أندراوس اسكندر المذكور في المكتبة الواتيكانية، وأولى هذه الخطب في ميلاد الرب والثانية في ظهوره للعالم الخ. انتهى ملخّصاً عن ترجمتي يعقوب أسقف تكريت ويوحنا ابن المعدني في المكتبة المشرقية مجلّد ٢.

عد ٨٩٢

بعض المشاهير الغربيين في هذا القرن

جرياً على مساق تاريخنا ورغبة في زيادة الفوائد نخص بالذكر من مشاهير المغرب في هذا القرن من تساموا بالقداسة والعلم وطبق ذكرهم الآفاق وهم القديسون العظام البرتس، وشمس المدارس توما الأكويني، وبوناونتورا، ونذكر ترجماتهم بما يمكن من الإيجاز لأنّها خارجة عن دائرة عرضنا.

القديس ألبرتس الكبير

ولد هذا القديس سنة ١١٩٣م في مدينة لوينجان من بفيارا وتخرّج بالعلوم في بادوا وانضوى إلى رهبانية القديس عبد الأحد سنة ١٢٢٢م، وصيّر رئيساً إقليمياً فيها سنة ١٢٤٥م، وعلّم العلوم المقدّسة في كولونيا وعظمت شهرته حتى لقب بالكبير وهو حي، واستحق هذا اللقب لسامي علمه وعظمة قداسته. ثمّ انتقل إلى باريس يعلّم فيها فتقاطر الطلبة إليه حتى لم تعد تسعهم قاعة فصار يعلم في ساحة فسيحة، وقد رقاه البابا اسكندر الرابع إلى أسقفية راتيسبون سنة ١٢٥٩م فلم يقبلها إلّا مكرهاً بأمر الطاعة واعتزلها بعد سنين مستعفياً من هذا الحمل الثقيل، وعاد إلى كولونيا باذلاً همه في تدبير المدارس اللاهوتية، وتوفي سنة ١٢٨٠م وعمره سبع وثمانون سنة وله كثير من المؤلفات منها ثمانية مجلّدات في تفسير علم الطبيعيات

ومقالة في الكيمياء وهو الذي أوجد الاكسيد نتريك، وقد طبعت مؤلفاته في لايدن سنة ١٦٥١م، فكانت واحداً وعشرين مجلّداً.

القديس توما الأكويني

هو اللاهوتي الشهير والفيلسوف المبرز ولد سنة ١٢٢٧م وقيل سنة ١٢٢٥م بالقصر المعروف بقصر روكّا ساكا في مملكة نابولي من أسرة شريفة تعرف بكونت أكوين، ودخل رهبانية القديس عبد الأحد جبراً على مقاومة آله فأثر التفرّغ للعلم واكتساب الفضيلة على مرضاة ذويه واشتغل في العلم على ألبرتوس الكبير المار ذكره في كولونيا ثمّ لحق باستاذه إلى باريس ونولته كلية هذه العاصمة لقب دوكتور أي ملفان سنة ١٢٥٥م وانكبّ على الوعظ والتعليم فنبغ في ذلك وعظمت شهرته وأقرّ الجميع بسمو قدره وعلو مداركه وتلألأت فضائله وأحبّه القديس لويس التاسع ملك فرنسة، وكان يدعوه إلى مائدته. وأحبّ الأحبار الأعظمون أينوشنسيوس الرابع واكليمنضوس الرابع وغريغوريوس العاشر أن يرقّوه إلى المراتب الرفيعة في الكنيسة، فأبى كل مرتبة واكتفى أن يلقّب في رهبانيته بمدبر أو معلّم. وكان أعلم أهل عصرهِ وأعظم لاهوتي وفيلسوف في أيّامه، فأكسبه ذلك ألقاباً مشرفة كالملفان العام والمعلّم الملكي وشمس المدارس وملاك العلم حتى استحقّ أن يُحصيه البابا بيوس الخامس في مصاف آباء الكنيسة وجهابذتها. وقد صرف العشرين سنة الأخيرة من عمره في التعليم والتصنيف والوعظ والصلوة حتى قال فيه البابا يوحنا الثاني والعشرون في براءة تثبيت قداسته: «إنّه لم يصرف ساعة من زمانه بغير عمل من أعماله المبرورة ولا يستثنى من ذلك إلّا ساعات رقاده أو ما تضطره الطبيعة إليه». وقد أرسله رؤساؤه سنة ١٢٧٢م إلى نابولي ليعلم فيها اللاهوت واستدعاه البابا غريغوريوس العاشر إلى المجمع المسكوني الذي كان قد عزم على عقده في ليون فلبى الدعوة وسار فمرض في الطريق ومضى إلى لقاء ربه لينال إكليل جهاده في ٧ آذار سنة ١٢٧٤م، وهو في بدء الخمسين من عمره أو الثامنة والأربعين منه بحسب الاختلاف في سنة مولده وأحصاه البابا يوحنا الثاني والعشرون في مصاف القديسين سنة ١٣٢٣م. وتعيد الكنيسة لذكره كأعاظم ملافنتها في اليوم السابع من آذار في الكنيسة اللاتينية، وفي ٣ منه في كنيستنا المارونية.

وأمّا مؤلفاته فهي كثيرة وأخصّها «خلاصة الإيمان الكاثوليكي» رداً على الوثنيين و«الخلاصة اللاهوتية الشهيرة» التي شرح بها المباحث اللاهوتية والفلسفية والأدبية بطريقة القياس المنطقية، وله أيضاً «شرح كتاب أرسطو الفلسفي» و«تفسير الأسفار المقدّسة» و«شرح لكتاب اللمبردي» الملقّب بمعلّم الآراء وله خطب ومباحث ومقالات حتى أشعار ادخلت الكنيسة بعضها في رتبها وفروضها. وقد طبعت مؤلفاته في رومة سنة ١٥٧٠ وسنة ١٥٧١م في ثمانية عشر مجلّداً ثمّ طبعت في باريس سنة ١٦٣٦م إلى سنة ١٦٤١م في ثلاثة وعشرين مجلّداً، ثمّ طبعت في البندقية سنة ١٧٤٥م في عشرين مجلّداً، ثمّ في برم بصقلية سنة ١٨٥٧م وما يليها في أربعة وعشرين مجلّداً، وقد ترجمت الخلاصة اللاهوتية احد مؤلفاته إلى اللغة الفرنسية عدّة ترجمات، وترجمت إلى العربية، ومن هذه الترجمة نسخة مخطوطة بمكتبة أسقفية طائفتنا في حلب ويعنى الآن السيّد العالم العامل المطران بولس عواد النائب البطريركي بترجمتها إلى العربية، وأكمل إلى الآن من ترجمته أربعة مجلّدات وهي أصح كثيراً من الترجمة العربية المذكورة.

القديس بوناونتورا

وُلِدَ بيانيا ريا (توسكانا من أعمال إيطاليا) سنة ١٢٢١م وانضوى إلى رهبانية القديس فرنسيس سنة ١٢٤٣م، وعلّم الفلسفة واللاهوت في كلية باريس سنة ١٢٥٣م، ونال فيها مرتبة ملفان سنة ١٢٥٥م، ثمّ أقيم رئيساً عاماً على رهبانيته سنة ١٢٥٦م، وكان محبوباً موقراً من كل أحد وحائزاً ثقة الجمهور وكفاه بينة على ذلك أنّ الكرادلة اتّفقوا بعد وفاة البابا أكليمنضوس الرابع على أن يختاروا خليفة له من يعينه لهم بوناوتورا فسمى لهم الكردينال تهيبو فانتخبوه وسمي غريغوريوس العاشر، فرفعه هذا الحبر الروماني إلى مقام الكردينالية مكافأة له سنة ١٢٧٢م. وكان حار العبادة لوالدة الله وبذل قصارى جهده في نشر عبادتها، وقد دعاه البابا غريغوريوس العاشر إلى مجمع ليون العام وأجلسه في المحل الأوّل بعده، فتوفي في هذا المجمع سنة ١٢٧٤م. وله مؤلفات كثيرة منها شرح كتاب «الاقتداء بالمسيح» وشرح على «كتاب الآراء» لبطرس اللمبردي وكتاب «تأمّلات بحياة المسيح»

ترجم إلى الفرنسية عدّة ترجمات وكتاب «تفسير للأسفار المقدّسة» وعدّة كتب لارشاد الشعب وتثقيفه سماها «كتاب الفقراء» وله عدّة ترانيم روحية مشهورة وجميع كتبه موعبة بعواطف التقوى العميقة حتى أكسبته لقب المعلم الساروفيمي. وقد طبعت كتبه برومة سنة ١٥٨٦م إلى سنة ١٥٩٦م في ثمانية مجلّدات ثمّ طبعت بباريس سنة ١٨٦٦م في أربعة عشر مجلّداً وأحصاه البابا سيستوس الرابع إلى مصاف القديسين سنة ١٤٨٢م ثمّ رتبه البابا سيستوس الخامس في سلك ملافنة الكنيسة وتعيّد له الكنيسة الرومانية في ١٤ حزيران والكنيسة المارونية في ١٤ تموز.

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثالث عشر

عد ٨٩٣

فتح المسلمين جبة بشري

قال البطريرك أسطفان الدويهي في تاريخ سنة ١٢٨٣م: «قد وقفنا على كتابين للصلاة كُتب أحدهما سنة ١٥٩٤ لاسكندر (الموافقة لسنة ١٢٨٣ للميلاد) في قطين الرواديف في أرض الحدث بقرب دير القديس يوحنا بدير مار ابون الذي كان الأسقف ابراهيم الحدثي مقيماً به. والثاني كتب بعد الأوّل بمئتين واحدى وعشرين سنة أي سنة ١٨١٥ لاسكندر وهي سنة ١٥٠٤م، وقد كتب في كلا الكتابين أنّه في شهر أيّار سارت العساكر الإسلامية إلى فتح جبة بشري وصعدت إلى وادي حيرونا شرقي طرابلس وحاصروا قرية إهدن حصاراً شديداً وملكوها بعد أربعين يوماً في شهر حزيران وسلبوا ما وجدوا فيها وخرّبوا القلعة التي كانت في وسطها والحصن الذي على رأس الجبل (إنّ هناك الآن كنيسة تسمى سيدة الحصن) ثمّ انتقلوا إلى بقوفا ففتحوها في شهر تموز وقبضوا على أكابرها وأحرقوهم بالبيوت ودكوها إلى الأرض، وأكثروا من النهب والسلب وبعد أن أعملوا السيوف بأهل

حصرون وكفرسارون وذبحوهم في الكنيسة زحفوا في ٢٢ آب إلى الحدث، فهرب أهلها إلى العاصي وهي مغارة فيها صهريج ماء فقتلوا من أدركوه وخرّبوا الحدث وبنوا برجاً قبالة المغارة وأبقوا حامية من العسكر. ثمّ هدموا جميع الأماكن الحصينة ولم يستطيعوا سبيلاً إلى فتح قلعة حوقا التي قبالة الحدث، فأشار عليهم ابن الصبحا من كفرسغاب أن يجروا إليها الماء الذي فوق بشري ففعلوا وملكوها بقوة الماء لأنّها كانت داخل الصخر، وأذنوا لابن الصبحا أن يلبس عمامة بيضاء، وأن تقوم العبيد بخدمته. ولما تراجع العسكر ندم ابن الصبحا على ما كان منه وبنى دير سيدة حوقا لسكن الرهبان وهو بالقرب من البرج الذي كان في الصخر». لا نشكّ في صحّة هذه الرواية لأنّ الدويهي خير ثقة، وقد صرّح بأنّه نقلها عن كتاب خط تلك السنة أي سنة ١٢٨٣م التي كانت فيها هذه النكبة فيظنّ أنّ الأسقف ابراهيم الحدثي الذي كان يسكن دير مار ابون هو الذي كتب خبر هذه الحادثة باثر وقوعها على كتاب الصلوة طبق عادة أسلافنا التي نعلم لها أمثالاً كثيرة ويؤيد ذلك تفصيل الخبر وتعيين الأماكن على ما نعلمها الآن مع الأيّام التي فتحت بها كل قرية. وقد جاء في كتاب الغرر الحسان خبر هذه الوقعة كما ذكرناه إلّا بناء ابن الصبحا دير حوقا، ولم يأتِ ذكر بشري في هذا الفتح مع أنّها واقعة بين بقوفا وحصرون، فلا يخلو إهمال ذكرها من أحد أمرين: إمّا أنّها لم تكن ذات أهمية حينئذٍ، إمّا أنّ المسلمين نكبوا عنها لأنّها كانت منيعة كثيرة السكان. والأظهر عندنا الثاني لأننا نعلم أنّها كانت قبل هذه النكبة وبعدها مأهولة بخلق كثير وينسب العمل كلّه إليها وكان فيها مقدّمون أصحاب بطش وصولة كما سترى، فالأولى أن نقول أنّ المسلمين نكبوا حينئذٍ عنها على أنّ فتح هذه البلاد حينئذٍ لم يكن إلّا غزوة عابرة على عادة تلك الأيّام ولم يتوطّن المسلمون فيها بل قصدوا التنكيل بأهلها ربّما لأنّهم نجدوا الفرنج في حروب المسلمين الأخيرة لهم كما يظهر من أخبار حربهم الآتي ذكرها مع أهل كسروان ونرى بقوفا واهدن والحدث بعد مدّة وجيزة عامرة مأهولة بالنصارى الموارنة.

عد ٨٩٤

حروب كسروان

الحرب الأولى كانت في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر نروي أخبار هذه الحروب عن المؤرخين المسلمين أوّلاً ثمّ نردفها بأخبار المؤرخين النصارى

جاء في كتاب تاريخ بيروت لصالح بن يحيي الذي نشره الأب لويس شيخو اليسوعي في المجلّة العربية الموسومة بـ«المشرق» قال صالح: «في شهر شعبان سنة ٦٩١هـ سنة ١٢٩٢م توجّه الأمير بيدرا (من مماليك الملك المنصور قلاوون) قائد السلطنة بمصر وقصد جبال كسروان وتوجّه بصحبته من الأمراء الأكابر شمس الدين سنقر الأشقر والأمير قراسنقر المنصوري، والأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي، والأمير بدر الدين العلائي. وأتاهم من جهة الساحل ركن الدين بيبرس طقصوا، والأمير عز الدين ايبك الحموي وغيرهما، والتقوا بالجبل وحضر إلى الأمير بيدرا من ثنى عزمه وكسر حزمه فحصل الفتور في أمرهم حتى تمكّن الكسروانيون في بعض العسكر في تلك الأوعار ومضايق الجبال، فنالوا منهم وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم وطمع فيهم أهل تلك الجبال حتى اضطرّ الأمير بيدرا أن يطيب قلوبهم ويحسن إليهم. وخلع على جماعة من أكابرهم فاشتطوا في الطلب فأجابهم إلى ما التمسوه من الإفراج عن جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا بدمشق لذنوب وجرائم صدرت منهم، وحصل للكسروانيين من القتل والنهب والظفر ما لم يكن في حسبانهم، وحصل للأمراء والعسكر من الآلام ما أوجب تسريح بعضهم لسوء تدبير الأمير بيدرا، ونسبوه إلى إهمال أمرهم واتّهموه بالفتور عن قتالهم حتى تمكّنوا مما تمكّنوا منه لطمعه وأشاعوا أنّه تبرطل منهم وأخذ رشوة كبيرة واحتجّ الناس بذلك». هذا ما قاله صالح بن يحيي وذيله الأب شيخو بحاشية قال فيها: «ورد خبر غزوة الأمير بيدرا لكسروان في تاريخ المماليك للمقريزي وتفاصيله لا تختلف عما ذكره المؤلف هنا».

وقال صالح المذكور بعد ما مرّ: «ثمّ توجّه الأمير بيدرا بالعساكر إلى دمشق فتلقاه السلطان وأقبل عليه وترجّل عند ترجّله للسلام عليه، ولمّا أنكر عليه سوء اعتماده وتفريطه في العسكر عمل كلام السلطان فيه حتى مرض لذلك، وشيع الناس أنّه سقي السم ثمّ عوفيَ... وكان الذي أخبر أنّ بيدرا ارتشى من الكسروانيين بيبرس طقصوا فاسرّ بيدرا الأمر في نفسه وتربّص له، ولما قبض السلطان على لاجين خاطب بيدرا السلطان في القبض على بيبرس طقصوا فقبض عليه مع لاجين لأنّه كان قد تزوج ابنته».

والذي رواه البطريرك أسطفانس الدويهي في تاريخه أنّ الكسروانيين الجرديين كانوا قد نزلوا من الجبال لنجدة الفرنج عند حصار طرابلس وقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً، فبرز أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق إلى قراسنقر أن

يجمع العساكر الشامية ويزحف بها لاستئصالهم واستشهد الدويهي ابن سباط فقال: «قال ابن سباط وكتب أيضاً إلى إثنين من أمراء غرب بيروت جمال الدين حجي بن محمّد التنوخي وزين الدين بن علي أنّه إذا بلغهما توجّه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر المنصورة إلى جهة الجرد وكسروان يتوجهان إليه بعساكرهما وأنّ من نهب امرأة كانت له جارية أو صبياً كان له مملوكاً ومن أحضر منهم رأساً فله دينار، وأنّ سنقر المذكور متوجّه لاستئصال شأفتهم وسبي ذراريهم. هذا ما رواه الاهدني في تاريخ سنة ١٢٨٧م. ولا شكّ في أنّه مقدمة لما ذكره صالح ولم يعد يذكر حرباً في كسروان انتصر بها الكسروانيون إلّا في سنة ١٣٠٢م كما سيأتي فنظنّ أنّه فاته العلم بما كان من الأمر الذي أبرزه حسام الدين لاجين فلم يذكر الدويهي حرب سنة ٦٩١هـ سنة ١٢٩٢م التي ذكرها صالح بن يحيى، وكان قائدها بيدرا نائب السلطان بالشام بل ذكر الحرب التي كانت سنة ١٣٠٢م ويؤيّد حصول هذه الحرب قول صالح بن يحيي أنّ العساكر الشامية توجّهت سنة ٧٠٥هـ إلى جبال كسروان: «وهي النوبة الثانية في أيّام السلطان الملك الناصر محمّد ابن المنصور». فالحرب الأولى التي ذكرها سنة ٦٩١هـ كانت في أيّام الملك الأشرف خليل بن قلاوون لا في أيّام الملك الناصر وحرب سنة ٧٠٥هـ هي النوبة الثانية في أيّام الملك الناصر الذي ولي الملك سنة ٦٩٣، ثمّ خلعه كتبغا سنة ٦٩٤هـ، ثمّ ردّ إليه سنة ٦٩٨هـ وعهد حينئذٍ بنيابة السلطنة بالشمال إلى جمال الدين الأفرم الآتي ذكره كما مرّ في تاريخنا هذا. وهذا ما قاله الإهدني في هذه الحرب الثانية:

«سنة ١٣٠٢م (سنة ٧٠٢هـ) نزل الفرنج على نهر الدامور ليلة الأربعاء ثامن جمادي الأوّل فقتل هناك فخر الدين عبد الحميد بن جمال الدين التنوخي وأُسر أخوه شمس الدين عبدالله، فافتداه ناصر الدين الحسين بن خضر بثلاثة آلاف دينار. فرفعت الشكاوي إلى نائب دمشق الأُفرم من الجرديين وأهل كسروان. قال ابن الحريري أنّ في هذه السنة اجتمع النواب جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق وسيف الدين استدمر نائب طرابلس، وشمس الدين سنقر المنصوري وحشدوا جيوش الشام إلى مقاتلة الجرديين وأهل كسروان، فاجتمع مقدّمو الجبال واستعدّوا للقاء الجيش فهزموه وقتلوا كثيرين وغنموا غنيمة كبيرة». قال الأسقف جبرائيل ابن القلاعي: «أنّ الوقعة كانت عند مدينة جبيل وأنّ المقدّمين الذين نزلوا من الجبال كانوا ثلاثين مقدماً والمشهورون منهم خالد مقدّم مشمش وسنان وأخوه سليمان

مقدّما ايليج وسعادة وسركيس مقدّما لحفد وعنتر مقدّم العاقورة وبنيامين مقدّم حردين، ورتّبوا ألفي مقاتل كمنوا على نهر الفيدار والفين على نهر المدفون ثمّ انحدروا بثلاثين ألف مقاتل لقتال الجيش، فوقعوا بحمدان القائد على الطريق منفرداً فقتلوه وحملوا على الجيش فهزموه وأهلكوا أكثره وغنموا أمتعتهم وسلاحهم وأخذوا أربعة آلاف رأس خيل من خيلهم، وقدم الأكراد لنجدتهم فصدّهم المكمنون في الفيدار والمدفون فلم يخلص منهم إلّا القليل، وقتل من الأمراء التنوخية (أصحاب غرب بيروت) نجم الدين محمّد، واخوة شهاب الدين أحمد ولدا جمال الدين حجي، ثمّ غزا الجرديون بلادهم وأحرقوا منها عين صوفر وشلمك وعين زوينة وبحطوش وغيرها من بلاد المغرب، وقتل (في وقعة جبيل) من المقدّمين بنيامين مقدّم حردين ودفنوه عند باب الأركان في جبيل ثمّ صعدوا إلى معاد واقتسموا الغنائم».

أمّا الحرب الثالثة فإليك ما قاله فيها صالح بن يحيى: «ومما نقلناه عن النويري والصلاح الكتبي في فتوح كسروان ما رويا من جملة حوادث سنة ٧٠٥هـ (سنة ١٣٠٥م) وذكرا توجه العساكر الشامية إلى جبال كسروان وإبادة أهلها وتمهيدها وهي النوبة الثانية في أيّام الملك الناصر محمّد بن المنصور». فقالا: «كان أهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدّت شوكتهم وتطاولوا إلى أذى العسكر عند انهزامه من التتر في سنة ٦٩٩هـ (سنة ١٣٠٠م) وأغضى السلطان عنهم وتمادى في عقابهم فزاد طغيانهم وأظهروا الخروج من الطاعة (ربّما أشارا بهذا إلى ما ذكرناه من الحرب الثانية) واعتزلوا بجبالهم المنيعة ووثقوا بجموعهم الكثيرة وعلّلوا النفس بأنّه لا يمكن الوصول إليهم». انتهى ما نقله صالح عن النويري والصلاح الكتبي.

ثمّ أخذ صالح في تفصيل الخبر فقال: «ففي ذي الحجة سنة ٧٠٤هـ (سنة ١٣٠٤م) جهز جمال الدين آقوش الأفرم نائب الشام زين الدين عدنان ثمّ توجّه بعده تقي الدين قراقوش وتحدّثا معهم في الرجوع إلى الطاعة فأبوا، فأمر عند ذلك بتجريد العساكر إليهم من كل جهة ومن مملكة من ممالك الشام وتوجّه آقوش الأفرم من دمشق بسائر الجيوش في يوم الإثنين الثاني من محرم سنة ٧٠٥هـ (سنة ١٣٠٥م) وجمع جمعاً كثيراً من الرجالة نحو خمسين ألفاً وتوجّهوا إلى جبال الكسروانيين والجرديين، وتوجّه سيف الدين استدمر نائب طرابلس وشمس الدين سنقر جاه المنصوري نائب صفد، وطلع استدمر المذكور من جهة طرابلس وكان قد نسب إليه مباطنتهم، فجرد العزم وأراد أن يفعل في هذا الأمر ما ينفي عنه هذه

التهمة، فطلع إلى جبل كسروان من أصعب مسالكه، واجتمعت على أهله العساكر واحتوت على جبالهم ووطئت أرضاً لم يكن سكّانها يظنون أحداً يطأها، وقطعت كرومهم وأخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتفرّقوا في البلاد واستخدم استدمر جماعة منهم في طرابلس بجامكية وجازاهم من الأموال الديوانية فأقاموا على ذلك سنين وأقطع بعضهم أملاكاً». انتهى كلام صالح بن يحيي.

وهذا ما جاء في تاريخ البطريرك أسطفانوس الدويهي: «في سنة ١٣٠٤م (سنة ٧٠٤هـ) أرسل أقوش الأفرم نائب دمشق إلى الجبليين والكسروانيين الشريف زين الدين بن عدنان يأمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخية ويدخلوا في طاعتهم، ثمّ أرسل إليهم تقي الدين بن تيمية في صحبة بهاء الدين قراقوش (تأمّل المطابقة بين الدويهي وصالح بأسماء هؤلاء المنذرين) فلم يحصل إتّفاق، فافتى العلماء حينئذٍ بنهب بلادهم لاستمرارهم على العصيان، ولذلك جردت العساكر من جميع بلاد الشام ولم تزل الجموع تزداد من كل ناحية إلى سلخ (آخر) هذه السنة.

وسنة ١٣٠٧م (سنة ٧٠٧هـ) نرى هنا زلة قلم من الناسخ بتعيين هذه السنة والصواب سنة ٧٠٥هـ، لأنّه إذا كان أقوش أمر بجمع العساكر واجتمعت سنة ٧٠٤هـ إلى آخرها فلا يظنّ أنّه آخر مسيره إلى سنة ٧٠٧هـ بل سار في أوّل سنة ٧٠٥هـ، وقد اتّفق كلاما صالح والدويهي على تعيين يوم الإثنين ثاني محرم) ذكر ابن الحريري وابن سباط أنّه في يوم الإثنين ثاني محرم سار أقوش الأفرم نائب دمشق بخمسين ألفاً بين فارس وراجل إلى جبال الجرد وكسروان التي حيال بيروت فجمع الدروز رجال الجرد وكانوا عشرة أمراء بعشرة آلاف مقاتل، والتقت الجموع عند عين صوفر وجرى بينهم قتال شديد، وكانت الدائرة على الأمراء فهربوا بحريمهم وأموالهم وأولادهم ونحو ٣٠٠ نفس، واحتموا في غار غربي كسروان يعرف بمغارة نيبية فوق أنطلياس بالقرب من مغارة البلانة، فدافعوا عن أنفسهم ولم يقدر الجيش أن ينال منهم ثمّ بذلوا لهم الآمان فلم يخرجوا، فأمر نائب دمشق أن يبنوا على الغار سداً من الحجر والكلس وهالوا عليه تلاً من التراب وجعلوا الأمير قطلوا بك حارساً عليهم مدّة أربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار.

ثمّ أحاط العسكر بتلك الجبال (أي جبال كسروان) ووطئوا أرضاً لم يكن أهلها يظنون أنّ أحداً من خلق الله يصل إليها فخرّبوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا

البيع وقتلوا وأسروا جميع من صادفوا من الدروز والكسروانيين وغيرهم فذلّت تلك الجبال المنيعة بعد عزّتها وفي ١٨ جمادي الأخرى ركب بالشرابيش علي الدين البعلبكي وسيف الدين بكتمر وبكر الدين بكتاش وحسام الدين لاجين وعز الدين خطاب العراقي وتوجّهوا لأجل عمارة الجبل (أي تأمين السكان الذين لم يستطيعوا الفرار واسكان عشائر من المسلمين في السواحل كما سيأتي) وحفظ ميناء البحر مع الجماعة الذين ساروا من دمشق إلى بيروت... وأمر الملك الناصر محمّد بن قلاوون تركمان الكورة أن ينزلوا في ساحل كسروان ليحافظوا عليه من الفرنج وهم أهل عساف» وسوف نأتي على ذكر هؤلاء.

وأمّا من هم الذين سماهم صالح بن يحي الجرديين وسماهم الدويهي في أوّل كلامه الجبليين فلا شكّ في أنّهم غير الكسروينيين لذكر المؤرخين المذكورين فريقين لا فريقاً واحداً، وترى أنّهم سكّان العمل المسمى إلى الآن الجرد ومن قراه رشميا وشارون وبتاتر وبحمدون وانّهم كانوا دروزاً ويظهر أنّ هؤلاء لم يكونوا في طاعة الأمراء التنوخيين حكّام المغرب وكانوا يسطون على بلادهم وقد صرّح الدويهي بأنّ نذير أقوش أمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخية وكان قتل الأميرين التنوخيين عند الدامور يعزى إلى هؤلاء الجرديين والكسروانيين معاً، إذ روى الدويهي أنّه بعد وقعة الدامور رفعت الشكوى إلى نائب دمشق من الجرديين والكسروانيين ويظهر أنّ الدروز الجرديين والموارنة الكسروانيين كانوا حينئذٍ متفقين ويؤيده هرب الجرديين بعد أن دارت عليهم الدائرة في عين صوفر إلى غربي كسروان إلى نيبيه وانطلياس التي كانت حينئذٍ من كسروان وكان تخمه من الغرب والجنوب نهر الجعماني.

عد ٨٩٥

بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر

فرغنا من الكلام على هؤلاء البطاركة في القرن الثاني عشر بذكر وفاة البطريرك أرميا وخلفه بعد وفاته دانيال من عمل جبيل وقطن أوّلاً في دير القديس فبريانوس بكفيفان. ثمّ انتقل إلى دير القديس مارون بكفرحي وانّه انتخب سنة ١٥٤١ يونانية أي سنة ١٢٣٠م على ما كتب يعقوب بن يوحنا البتروني (وفي نسخة أخرى البشراوي) على كتاب فرض القديسين الصيفي الذي طالعناه في

كنيسة القديس سابا ببشري وكتب هناك أيضاً أنّ هذا البطريرك كان ساكناً سنة ١٢٣٦م في دير القديس جيورجيوس في الكفر وهي من عمل جبيل.

قال الدويهي يظهر من سلسلة البطاركة التي ذكرناها أوّلاً أنّ بطريركاً اسمه يوحنا كان بين أرميا وسمعان الآتي ذكره. وروى لكويان أنّ الدويهي قال بعد ذلك إنّه لم يتوصّل إلى معرفة البطريرك الذي صيّر بعد يوحنا فأمسى الأمر غامضاً لا يهتدى إلى وجه بيانه، والذي أراه بفكرتي القاصرة أنّه ربّما كان يوحنا هذا بعد أرميا وقبل دانيال الشاماتي المار ذكره. وقد أبنّا في كلامنا على أرميا العمشيتي تردّدنا في القطع بأنّ أرميا بقي في البطريركية من سنة ١١٨٣ إلى سنة ١٢٣٠م أي سبعاً وأربعين سنة، فلا أرى مانعاً من أن نفترض أنّ يوحنا هذا الذي لم يهتد الدويهي ولكويان إلى زمانه كان في المدّة التي انقضت من بعد عود أرميا رومة سنة ١٢١٦م إلى سنة ١٢٣٠م التي قالوا إنّ دانيال الشاماتي صيّر فيها بطريركاً، ويكون وجه التوفيق وإزالة الغموض الحاصل في هذا البحث والله أعلم. وصيّر بعد ذلك سمعان وقد ذكره الياس من معاد في حاشية علّقها على كتاب فرض الآلام الذي نسخه سنة ١٢٤٥م قال فيها «كان النجاز منه في أيّام ساداتنا البطريرك سمعان صاحب الكرسي الممدوح مدينة الله أنطاكية والمطران سمعان بجبل لبنان في سنة ١٥٥٦ لليونان» وهي سنة ١٢٤٥ للميلاد. وقال لكويان إن كان سمعان هو الذي خلف يوحنا فيكون هو الذي روى بياجيوس ترسي في كتابه الموسوم بسورية المقدّسة المطبوع برومة سنة ١٦٩٥ صفحة ٥٢ إنّه لما أخذت أنطاكية من يد الفرنج التجأ إليه كثيرون من الكاثوليكيين سكانها فقبلهم وأكرم مثواهم في لبنان. وكتب إلى البابا اسكندر الرابع يخبره بحالتهم وشديد تعلّقهم بالكرسي الرسولي، فأجابه البابا مثنياً على اهتمامه ومسمياً إياه بطريركاً أنطاكياً. قال الدويهي إنّ نسخة هذه الرسالة ما برحت مصانة عندنا إلى الآن في دير قنوبين (وهي إلى اليوم أيضاً في خزانة بطريركيتنا). وفي كتاب الفنقيط الصيفي الذي وقع بيدنا في كنيسة القديس سابا في بشري وجدنا مكتوباً أنّه كان بعد حياً في سنة ١٢٧٧م، ولم نجد له خبراً ولا أثراً بعد ذلك، ولا علمنا من خلفه، ولكن وجدنا مكتوباً على صخر في الحائط الغربي من دير ميفوق عند تجديد بناء هذا الدير
ܒܫܢܬ ܐܠܦ ܘܚܡܫܡܐܐ ܘܬܡܢܝܢ ܘܬܡܢܐ ܕܝܘܢܝܐ ܐܬܚܕܬ ܥܘܡܪܐ
ܗܢܐ ܘܫܠܡ ܕܒܝܬܐ ܠܐܠܗܐ ܫܘܒܚܐ. وترجمته أنّه في سنة ١٥٨٨ لليونان

(سنة ١٢٧٧م) تمم يعقوب هذا هيكل والدة الله مريم. وقال فمن يكون يعقوب هذا الذي جدد هذا الدير ونسب إليه؟ لا نستطيع أن نقول إلّا أنّه كان بطريركاً لأنّه قبل هذا التجديد وبعده كان هذا الدير مأوى للبطاركة. وقيل إنّه اندفن فيه سبعة بطاركة. قلنا وقد ذكرنا هذا الخط في الكلام على دير ميفوق ولكن النسخة المحضرة لنا كتب فيها مكان ܫܘܡܠܝܐ ܠܒܘܢܝܐ[1] أي كمل بناء هذا الهيكل. فربّما شوشت الأيّام حروف الكلمة وكانت في أيّام الدويهي أظهر للقراءة أو أنّ الناسخ لنا توهّم من كلمة ܫܘܡܠܝܐ لئلّا تكون دالة على أثر لليعاقبة فكتب موضعها ܠܒܘܢܝܐ .

وصير بعد ذلك دانيال الثاني وجاء في الكتاب الموسوم بسورية المقدّسة أنّ دانيال هذا خلف سمعان سنة ١٢٨١م. وقال الدويهي: «إنّه كان من حدشيت من عمل بشري». وقد كتب القس يوحنا الراهب الذي من حجولا في آخر كتاب تكريس الميرون ما يأتي: «كمل هذا الكتاب في سنة ١٥٩٢ لاسكندر (توافق سنة ١٢٨١م) في أيّام أبينا المختار البطريرك دانيال من حدشيت». ونرى صورته إلى الآن في كنيسة القديس رومانوس بالقرية المذكورة وقد وردت إليه براءة تثبيت من البابا نيقولاوس الثالث (الذي كان على السدة البطرسية من سنة ١٢٧٧ إلى سنة ١٢٨١م). وممّا تضمّنته الأمر له بأن يكون الميرون من زيت الزيتون والبلسم لا غير، وانتخب بعد دانيال الحدشيتي لوقا وكان من بنهران بسفح لبنان من عمل بشري. وروى الدويهي أنّ انتخابه كان في سنة ١٢٨٣م التي فيها فتحت العساكر الإسلامية جبة بشري كما مرّ. وقد وهم جبرائيل أسقف الافقسية بقبرص المعروف بابن القلاعي أنّ هذا البطريرك مال إلى قول راهبين تشبثاً بضلال أبو لينار أنّ المسيح لم تكن فيه نفس بشرية بل ناب عنها اللاهوت، وزاغا عن الإيمان الصحيح، فأرسل الحبر الروماني ينذرهم فلم يشأ البطريرك قبول قصاد البابا. ومما قاله ابن القلاعي:

والبطريرك ما راد يقبلهم	يسمى لوقا من بنهران
كثر الشر وصاروا غرضين	وثار الانشقاق من أجل اثنين
في ذا السبب ابنوا برجين	وقسموا الملك في ذاك الآن
سمع بذلك السلطان برقوق	وانفتح له باب كان مغلوق

أرسل عساكر تحت وفوق تحاصر في جبل لبنان

على أنّ الدويهي أفرد الفصل التاسع من كتابه في رد التهم لتفنيد قول ابن القلاعي هذا مثبتاً أنّ هذا الضلال لم يكن بلبنان فقط وأنّ أيّام هذا البطريرك كانت موعبة بالحروب على الموارنة في جبّة بشري وكسروان فلم يكن وقت لاشتغال الشعب أو رؤسائه بالمباحث الدينية. وقد اتّهمه بياجيوس صاحب الكتاب الموسوم بسورية المقدّسة أنّه اتبع بدعة المشيئة الواحدة فقام عليه الرؤساء والشعب وعقدوا مجمعاً حطوه فيه عن مقامه البطريركي وأقاموا مكانه البطريرك جبرائيل من حجولا سنة ١٢٩٠م، وتهمة البطريرك لوقا بهذا الضلال باطلة ولا مسند لها ولو افترضت صحيحة لتبين منها غيرة الموارنة على الإيمان القويم بحطّهم بطريركهم.

وقد روى الدويهي على ما ذكر لكويان في كلامه على بطاركة الموارنة أنّه بعد لوقا أقيم البطريرك جبرائيل من حجولا سنة ١٢٩٠م، وهذا هو الظاهر من كلام بياجيوس في كتابه سورية المقدَّسة كما رويناه قبيل هذا، وانّه نال التثبيت من الحبر الروماني (البابا نيقولاوس الرابع) وأنّه نال إكليل الشهادة في خارج مدينة طرابلس سنة ١٢٩٦م، وأنّ مدفنه يعرف اليوم بالشيخ مسعود في جانب المحل المسمى تل الرمل في هذه المدينة، وأحصاه الموارنة في عدد شهدائهم. هذا ما رواه لكويان وعقبه بقوله: «على أنّه يظهر من الكتاب القديم الذي هو الثامن عشر من كتب الحاقلي بالمكتبة الواتيكانية أنّ جبرائيل هذا كان بعد هذا العصر، فقد ذكر السمعاني الكتاب المذكور في فهرست الكتب المعلّق على المجلّد الأوّل من مكتبته الشرقية صفحة ٥٧٧ وهو كتاب لابن القلاعي وقال إنّ في جملة ما حواه قصيدة لابن القلاعي. وقال إنّ في جملة ما حواه قصيدة لابن القلاعي: «في البطريرك جبرائيل من حجولا الذي قضى شهيداً للإيمان الكاثوليكي في طرابلس سنة ١٣٦٧م، إلّا إن يكون وقع غلط في تعيين تلك السنة، وادعى الحكم في ذلك لعلماء الموارنة». انتهى كلام لكويان.

وجاء في سلسلة بطاركة الموارنة التي أخذها المعلّم رشيد الشرتوني عن الدويهي ونشرها في المجلة الموسومة بالمشرق أنّ هذا البطريرك نال إكليل الشهادة في طرابلس سنة ١٣٦٧م، وهذا يوافق ما رواه السمعاني كما ذكرنا قبلاً لكنّه يخالف ما رواه لكويان عن الدويهي كما قدمناه في هذا المحل. وكثيراً ما وجدنا ما رواه لكويان

عن سلسلة الدويهي يخالف نسختها العربية ولا شكّ في أنّ ترجمتها اللاتينية التي اعتمد عليها لكويان هي أصح وأسلم من التحريف والغلط ومن جهة أخرى لا نعلم إذا كان السمعاني عيّن سنة ١٣٦٧م برأي نفسه أن نقلها على سبيل الحكاية عن ابن القلاعي الذي كشف له المتأخّرون كثيراً من الخطأ في تعيين السنين. والذي يظهر لنا مرجحاً أنّ البطريرك جبرائيل هذا رقي إلى البطريركية سنة ١٢٩٠م ونال إكليل الشهادة سنة ١٢٩٦م اعتماداً على ترجمة سلسلة الدويهي اللاتينية التي هي أصلح وأسلم من النسخة العربية التي كانت بيد المعلّم رشيد المذكور. ويؤيّد ذلك ما نعلمه حقّ العلم من أنّ المسلمين لم تسبق لهم العادة بأن يسطوا على النصارى ولاسيّما رؤساء الدين جهاراً وتصميماً إلّا في وقت الحرب. وقد رأيت أنّ المدّة من سنة ١٢٨٣م إلى سنة ١٣٠٥م كانت موعبة بالحروب في جبّة بشري وكسروان فضلاً عن الحروب مع الفرنج، ولا نعلم حصول شيء من هذه الحروب في لبنان سنة ١٣٦٧م ولذلك نرجّح أنّ استشهاد هذا البطريرك كان في أواخر القرن الثالث عشر لا بعد نصف القرن الرابع عشر.

وقام بعد البطريرك جبرائيل البطريرك سمعان ونرجيء الكلام عليه إلى تاريخ القرن الرابع عشر.

عد ٨٩٦

رد ما يحتج به على الموارنة من كلام البابا أينوشنسيوس الثالث

إنّ خصوم الموارنة يحجونهم بفقرة وردت في رسالة أنفذها أينوشنسيوس الثالث سنة ١٢٥١م إلى البطريرك أرميا والمطارنة والأساقفة ورؤساء الأديار والإكليروس والشعب الموارنة. وقد أثبت العلّامة البطريرك أسطفانس الدويهي ترجمة هذه الرسالة برمتها في الفصل الثامن من كتابه في رد التهم. فالعبارات التي يحج الموارنة بها من هذه الرسالة هي قوله في من أفاض الله عليهم سوابغ نعمه فارعووا عن الضلال: «كما بلغنا وسرّنا أنّه جرى لكنيسة الروم ولكم في هذه المدّة فانكم سابقاً كنتم كالخراف الضالّة غير عالمين أنّ خطيبة المسيح واحدة... وأنّ الراعي الصالح واحد وهو السيّد المسيح... ولمّا أرسلنا قبلاً إلى نواحيكم المرحوم الكردينال بطرس كاهن كنيسة القديس مرشلوس رجعتم بالهام الرب إلى راعيكم وأسقف نفوسكم

وفهمتم أنّنا نحن رأس الأحبار ونائب المسيح على الكنيسة الجامعة... ولمّا كان الكردينال المذكور علم أنّكم تحتاجون إلى بعض أمور اجتهد في إيضاحها لكم حسب مآل الأمر الرسولي وأوصاكم بأن تقرّوا بمعزل عن كل ريب بما تمسّكت به الكنيسة الرومانية، وهو أنّ الروح القدس ينبثق من الابن كما ينبثق من الآب... وان تحفظوا في المعمودية هذه الصورة، أي أنّ الثالوث الأقدس يذكر مرّة واحدة في التغطيسات الثلاث لا أكثر، وأن سرّ التثبيت يتصرف به رؤساء الكهنة دون غيرهم... وأن تؤمنوا أنّ في المسيح طبيعتين ومشيئتين إلهية وإنسانية. وهذه الوصايا ولو كنتم قبلتموها في ما سلف قبول الطائعين الخاضعين إلّا أنّ إعادتها عليكم الآن لأجل تأكيدها وإثباتها». فهذه هي العبارات المحتج بها.

وقد ردّ العلّامة الدويهي في الفصل المذكور زعم من حجوا الموارنة بهذه العبارات وأثبت أنّ الموارنة براء من التهمة بالضلال، وأنّ هذه العبارات لا تصلح أن تكون حجة عليهم به. وصنع كذلك المرحوم البطريرك بولس مسعد في عدّة مواضع من كتابه الموسوم بالدر المنظوم أي صفحة ١٢١ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٧٦ فوَإن لم أقس بهذين العلامتين فقد حذوت حذوهما في كتابي الموسوم بروح الردود وأسهبت برد زعم خصومنا باحتجاجهم علينا بكلام البابا المذكور.

والآن أقول إنّ في رسالة البابا أينوشنسيوس الثالث هذه نفسها فقرتين أخريين يتبين منهما جلياً أنّ الموارنة لم يكونوا على ضلال وارعووا عنه حينئذٍ. الفقرة الأولى هي قوله: «وأنت أيّها الأخ البطريرك لما كنت قبلاً في مدينة طرابلس مع قوم من مطارنتك أعني يوسف مطران قزحيا، وتاوادورس أسقف كفرفو، وجمع كبير من الكهنة، وجمهور وافر من الخاضعين لك حلفت أنت وهم عن نفوسكم وعمّن يتعلّق بكم بحضرة بعض أساقفة ورهبان وشمامسة في المدينة المذكورة اليمين على مثال الصورة التي يتعهد بها المطارنة بالطاعة للكرسي الرسولي». فحلف يمين الطاعة على مثال الصورة التي يتعهّد بها الأساقفة بالطاعة للكرسي الرسولي ليس هو ارعواء عن ضلال، ولا يكتفى لمن كان ضالاً بحلف مثل هذا اليمين، بل الاكتفاء بها دليل بين وبينة قاطعة على أنّ من أبرزها لم يكن من ذوي البدعة والضلال.

والفقرة الثانية هي قوله: «ثمّ إنّنا نثبت لك بسلطاننا الرسولي كراسي المطارنة والأساقفة الآتي ذكرها، ونأمر أصحابها بالخضوع لكرسي كنيستك كنيسة السيدة

في يانوح أيّها الأخ البطريرك الذي ولاك الله رئاستها، وان يكونوا طائعين لك ولخلفائك نعني مطارنة قزحيا وجبة بشري وأساقفة المنيطرة ورشعين وكفرفو وعرقا... ونثبت لك النعم المعتادة الحاصل عليها أنت وأسلافك في الكنيسة الأنطاكية إلى هذا الآن بالسلطان الرسولي نمنحها لك وللذين يتخلّفون بعدك». وممّا لا ريب فيه أنّ من خرج عن الكنيسة أو زاغ عن إيمانها خسر بزيغان نفسه الحقوق والنعم وما اعتاد أن يكون له فيها. فإن كان بطريرك الموارنة وأسلافه قد تسكّعوا بالبدعة كيف يثبت أينوشنسيوس الثالث النعم أو الحقوق أو الاستعمالات الحاصل عليها لا البطريرك أرميا وحدّه بل أسلافه أيضاً في الكنيسة الأنطاكية إلى الآن. ولو كان هؤلاء الأسلاف أصحاب بدعة لما بقي لهم حقوق ولا أثبتها البابا لهم وقد أبنّا أنّ البطريرك أرميا الموجهة إليه هذه الرسالة قد انتخب بطريركاً سنة ١١٨٣م أي بعد سنة واحدة من الارعواء المدعى به على الموارنة، واعتمدنا في هذا على ما خطّه أرميا نفسه بيده. وأسلاف أرميا الذين أثبت لهم أينوشنسيوس حقوقهم أو عوايدهم في الكنيسة الأنطاكية هم يوسف الجرجسي الذي أرسل قصاده مع قصاد الملك غودفروا إلى رومة سنة ١٠٩٩م بطلب التثبيت فأنعم عليه به البابا بسكالس الثاني سنة ١١٠٠م. ثمّ غريغوريوس الحالاتي الذي أرسل إليه البابا أينوشنسيوس الثاني الكردينال غوليلمس سنة ١١٣١م يخبره أنّه هو البابا الشرعي لا بطرس دي لاون الذي تدخّل على الكرسي الروماني، فحلف البطريرك وأساقفته يمين الطاعة لأينوشنسيوس كما حلف رؤساء الفرنج الذين كانوا حينئذٍ بسورية، إلى غير هؤلاء من بطاركة الموارنة. والحادثان المذكوران هنا رواهما لكويان في كلامه على بطاركة الموارنة في المجلّد الثالث من الشرق المسيحي.

فالبابا أينوشنسيوس الثالث أثبت إذاً بالفقرتين اللتين ذكرناهما أنّ الموارنة لم يكونوا هراطقة. فكيف يخرج قوله في الفقرة الأولى: «إنّكم كنتم ضالين وأنّ الكردينال أمركم أن تعتقدوا أنّ في المسيح طبيعتين ومشيئتين». إنّ لذلك مخرجين الأوّل إنّ البابا تكلّم في هذه الفقرة على بعض الموارنة الذين كان أتباع توما الكفرطابي قد أغووهم ببدعة المشيئة الواحدة حتى استمالوا البطريرك نفسه إليهم، فاجتمع الأساقفة وأعيان الأمّة فحطوا البطريرك عن مقامه وانتخبوا غيره فقتله أصحاب البطريرك المنحط، وأصلح أموري بينهم فانتخبوا حينئذٍ أرميا الموجهة الرسالة إليه، فأشار البابا إلى هذه الأحداث التي ذكرنا تفصيلها في عدد ٨٥٨ وعدد ٨٦٠

وأراد بمن كانوا ضالين تلك الفئة من الموارنة التي كانت قد ضلّت مدّة ثمّ ارعوت عن ضلالها إلى جادة الصواب على يد أموري بطريرك أنطاكية وهذا لا يبعد عن الصواب وهو لازم للتوفيق بين قولين متضادين في رسالة واحدة.

والمخرج الثاني إنّ الحبر الروماني تكلّم في الفقرة الأولى على الموارنة والروم معاً وهذا ظاهر من كلامه الذي قدّمناه وهو «كما بلغنا وسرّنا أنّه جرى لكنيسة الروم ولكم في هذه المدّة فانّكم كنتم سابقاً كالخراف الضالّة» الخ ثمّ من قوله الآخر إنّ الكردينال الذي أرسله أمرهم بأن يعترفوا «بأنّ الروح القدس ينبثق من الابن كما ينبثق من الآب وان يحفظوا من المعمودية الصورة التي يدعى بها الثالوث الأقدس مرّة واحدة لا أكثر وأنّ سرّ التثبيت يتصرّف به رؤساء الكهنة لا غيرهم: «ومن المؤكّد أنّ الروم إنّما هم الذين ينكرون انبثاق الروح القدس من الابن وكانوا يوجبون ذكر الثالوث ثلاثاً عند تلاوة صورة المعمودية، وهم إلى الآن يمنح كهنتهم سر التثبيت وليس بمحفوظ للأساقفة، وما من أحد من العلماء المحققين عزا إلى الموارنة هذه الأغلاط. وينتج من ذلك نتجاً جلياً أنّ البابا تكلّم بهذه الرسالة على الموارنة والروم معاً.

وقد قال بهذا المخرج كثيرون من العلماء اللاتينيين منهم الأب ايرونيموس دنديني في فصل ٢٨ من كتاب بعثته إلى الموارنة في أواخر القرن السادس عشر وهذا قوله: «إنّ هذه البراء (أي براءة أينوشيسيوس الثالث) لا يتكلّم بها البابا عن الموارنة وحدهم بل عن الروم أيضاً إذ رجعوا في طرابلس حينئذٍ إلى طاعة الكنيسة الرومانية ارتجاعاً حافلاً بحضرة كردينال كنيسة القديس مرشلوس القاصد الرسولي في هذه الجهات من الشرق، وبهذا يتيسر فهم السبب الذي أوجب نسبة أغلاط طائفة إلى أخرى». ومنهم أيضاً الأب توما بياتي الكرملي الذي قال في الكتاب السابع الفصل ٢٢ من مؤلّفه الموسوم بلزوم الاهتمام بخلاص جميع الأمم ما ترجمته «إنّ بطريرك الموارنة قد احتفظ غاية الإحتفاظ على براءات الأحبار الرومانيين من أينوشنسيوس الثالث إلى غيره من الباباوات الذين أنفذوا إليهم قصاداً كردينال كنيسة القديس مرشلوس وغيره، ولمّا كان الأحبار الرومانيون يأمرون برسائلهم الموارنة أن يتحاشوا عن أغلاط الروم وينبذوها، حصل من ذلك أنّ بعض المرسلين من رومة توهّموا أنّ الموارنة تابعوا أكثر الروم على أغلاطهم كانبثاق الروح القدس من الآب وحده وانكار المطهر وما أشبه على أنّ الموارنة أثبتوا أنّهم بمعزل عن هذه

الأغلاط وبيّنوا في كتبهم ونوافير قدّاسهم بينات كثيرة ناطقة بمدافعتهم كل حين عن العقائد الكاثوليكية». ونقتصر على إيراد شهادة هذين الشاهدين من العلماء اللاتينيين ونضرب حباً بالإيجاز عن إيراد أقوال علمائنا.

على أنّنا لا نعدل عن قول العلّامة البابا بناديكتوس الرابع عشر في رسالته الموجّهة في ٢٨ أيلول سنة ١٧٥٣م إلى نيقولاوس لركاري وهذا قوله «قد أثبت الموارنة أنّهم ينتسبون في أصلهم إلى القدّيس مارون الانبا، وأنّهم لم يزيغوا البتة عن الإيمان الكاثوليكي، ولا انفصلوا قطعاً عن وحدة الكنيسة. وزادوا على ذلك أنّهم إذا كانوا قد جدّدوا أحياناً إتّحادهم بالكنيسة الرومانية فلا ينبغي البتة أن يفهم ذلك بمعنى أنّهم شذّوا عن الدين الكاثوليكي ثمّ رجعوا إليه». ومن ذلك بلا بد تجديد اتّحادهم بالكنيسة الرومانية بحضرة قاصد البابا أينوشنسيوس الثالث المذكور هنا والذي على تقريره المرفوع للحبر الروماني بنيت رسالته وربّما لم يميز كما ينبغي بين من حجدوا الضلال كروم طرابلس ومن جدّدوا اتّحادهم بالكنيسة الرومانية وحلفوا يمين الطاعة للحبر الروماني كالموارنة وقد صرّح البابا أينوشنسيوس الثالث بأنّ بطريرك الموارنة وأساقفته ومن حضر في طرابلس من كهنته وشعبه حلفوا هذه اليمين على هذه الصورة كما رأيت في كلامه الذي أوردناه آنفاً.

الباب الرابع عشر

تاريخ سورية في القرن الرابع عشر

القسم الأوّل

تاريخها الدنيوي

الفصل الأوّل

من تولّوا سورية بهذا القرن وما كان من الأحداث في أيّامهم

عد ٨٩٧

تتمة أخبار الملك الناصر وما كان في أيّامه

فرغنا في تاريخ القرن الثالث عشر بذكر إعادة الملك الناصر إلى السلطنة بمصر وسورية وحملة التتر على سورية واندفاعهم عنها، فنعود إلى تكملة أخبار هذا الملك وما كان في أيّامه من الحوادث من ذلك وفاة زين الدين كتبغا نائب السلطنة بحماه سنة ٧٠٢هـ سنة ١٣٠٢م الذي كان قد تسلطن، فخلعه نائب لاجين وأعطاه صرخد ثمّ تولّى حماه كما مرّ وتوفي في السنة المذكورة. وكان أبو الفداء صاحب التاريخ المشهور يرجو أن يسمى نائب السلطان في حماه بلده كما كان أهله قبله وهم من الأيوبيين، وأرسل يعرض على السلطان ذلك فوجد الأمر قد فات، وقررت النيابة بحماه لسيف الدين قبجق نائب الشوبك قبلاً، ووعد السلطان

أبا الفدا الوعود الجميلة، واعتذر له بأنّ كتابه وصل بعد خروج قبجق إلى حماه. روى ذلك أبو الفداء نفسه في تاريخ السنة المذكورة وقال إنّه كان فيها زلزلة عظيمة هدمت بعض اسوار قلعة حماه وغيرها من الأماكن بسورية ومصر.

وفي سنة ٧٠٥هـ سنة ١٣٠٥م أرسل قراسنقر نائب السلطنة بحلب مع قشتمر مملوكه عسكر حلب للإغارة على بلاد سيس فدخلوها وكان قشتمر المذكور ضعيف العقل قليل التدبير مشتغلاً بالخمر، فجمع صاحب سيس جموعاً كثيرة من التتر وانضمّ إليهم الأرمن والفرنج ووصلوا على غرة إلى عسكر حلب، فلم يكن للحلبيين قدرة بمن جاءهم فتولّوا يبتدرون الطريق، وتمكّن التتر والأرمن منهم، فقتلوا وأسروا أكثرهم واختفى من سلم في تلك الجبال ولم يصل إلى حلب إلّا القليل عرايا بغير خيل.

وفي هذه السنة أي سنة ١٣٠٥ سار جمال الدين أقوش الأفرم بعسكر دمشق وغيره من عساكر الشام إلى جبال الظنينين، وكانوا عصاة مارقين في الدين فأحاطت العساكر الإسلامية بتلك الجبال المنيعة وترجّلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات وقتلوا وأسروا جميع من بها من النصيرية والظنينين وغيرهم من المارقين، وطهّرت تلك الجبال منهم وهي جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس وأمنت الطريق بعد ذلك منهم. فانّهم كانوا يقطعون الطريق ويتخطّفون المسلمين ويبيعونهم للكفار. هذا ما ذكره أبو الفداء في تاريخ هذه السنة ويظهر أنّ أقوش الأفرم بعد أن افتتح كسروان كما مرّ في عدد ٨٩٤ سار في تلك السنة نفسها إلى جبال الظنينين (وهي المعروفة اليوم بجبل شرقي زاوية طرابلس) فدوخ أهلها والنصرية. ومما لا ريب فيه أنّ هذه الجبال غير جبال كسروان، وأهلها غير الكسروانيين، لأنّ صاحب تاريخ بيروت الذي أشهره الأب شيخو اليسوعي سمى من حاربهم أقوش أولاً الجرديين والكسروانيين، فهم غير الظنينين والنصيرية الذين ذكر أبو الفداء أنّ أقوش حاربهم ثانياً وظفر بهم، ويؤيد قولنا تعيين أبي الفدا موقع جبال الظنينين بين دمشق وطرابلس، وموقع جبال الجرديين والكسروانيين بين دمشق وبيروت. ويزيده تأييداً تسمية صاحب تاريخ بيروت من حاربهم أقوش جرديين وكسروانيين، وتسمية أبي الفداء من حاربهم أقوش أيضاً ظنينين ونصيرية. فليست الحرب واحدة بل حربين وان كانتا في سنة واحدة.

وفي سنة سنة ٧٠٨هـ ١٣٠٨م استبدّ سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير بالأمور وتجاوزا الحد في الانفراد بالأموال والأمر والنهي ولم يتركا للسلطان إلَّا الاسم، فسئمت نفس السلطان الملك الناصر هذا التطاول، وأظهر أنّه يريد المسير إلى الحجاز، وقام من مصر ومعه عدّة من الأمراء ووصل إلى الكرك فأمر الأمراء الذين حضروا بخدمته أن يعودوا إلى مصر وكشف لهم أنّه جعل السفر إلى الحجاز وسيلة للمقام بالكرك. ولمّا وصل الأمراء إلى مصر وأعلموا من بها بإقامة السلطان بالكرك تشاوروا فيما بينهم واتّفقوا أن تكون السلطنة لبيبرس الجاشنكير، وأن يستمرّ سلار على نيابة السلطنة كما كان وحلفوا على ذلك. وركب بيبرس بشعار السلطنة إلى قلعة الجبل بالقاهرة وجلس على سرير الملك وتلقّب بالملك المظفر ركن الدين، وأرسل إلى نوّاب السلطنة بالشام فحلفوا له عن آخرهم، وكتب تقليداً للملك الناصر بالكرك ومنشوراً بما عيّنه له من الاقطاع وأرسلهما إليه.

وفي سنة ٧٠٩هـ سنة ١٣٠٩م سار من مصر جمال الدين أقوش الموصلي غير أقوش الأفرم ولاجين الجاشنكير ومعهما نحو ألفي فارس إلى حلب، وسار معهم من الشام جماعة من جملتهم أبو الفداء مع عسكر حماة، وكان نائب السلطنة بحلب قراسنقر المنصوري، فأخذ يستميل الناس في الباطن إلى طاعة السلطان الملك الناصر ويقبح عندهم طاعة بيبرس، وسار جماعة من المماليك في مصر مفارقين طاعة بيبرس ووصلوا إلى الملك الناصر بالكرك وأعلموه بما الناس عليه من طاعته ومحبّته، فأعاد خطبته بالكرك واستدعاه عسكر دمشق مبينين أنّهم باقون على طاعته. ووصلت إليه من حلب المكاتبات فسار بمن معه من الكرك، واحتال اقوش الأفرم عليه بأخبار كاذبة توجب عوده إلى الكرك فعاد إليها واستمرّت العساكر على طاعته وجاهر الناس بالخلاف لبيبرس وانحلّت دولته، وبلغ ذلك العساكر المقيمين بحلب فانصرفوا من غير دستور. ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العساكر الشامية له عاود المسير إلى دمشق فالتقاه عسكر دمشق وانهزم أقوش الأفرم نائب السلطنة فيها ودخل الملك الناصر دمشق ونزل بالقصر الأبلق، وطلب الأفرم وأمنه وقدم إليه نواب السلطنة بحلب وحماه وصفد وغيرها فأمرهم بالتجهيز للمسير إلى مصر.

ولما تكاملت العساكر سار بهم من دمشق قاصداً مصر وبلغ بيبرس الجاشنكير ذلك فاستعدّ للقتال وجمع عسكراً ضخماً وساروا إلى الصالحية. ولما وصل الملك الناصر إلى غزّة قدم إلى طاعته عسكر مصر أوّلاً فأولاً ولما تحقق ذلك بيبرس خلع

نفسه من السلطنة وأرسل يطلب الأمان، وأن يتصدق عليه ويعطيه إمّا الكرك أو حماه أو صهيون فأجابه السلطان الملك الناصر إلى إعطائه صهيون. وأتمّ السلطان السير، فهرب بيبرس إلى الصعيد وخرج سلار نائب السلطنة لملتقى السلطان متذللاً، وبقي السلطان سائراً بالعساكر الشاميّة والمصرية إلى قلعة الجبل واستقرّ على سرير ملكه، فكانت سلطنته الثالثة. ووزع عماله وأعطى أقوش الأفرم صرخد ونفى سلار من مصر وقبض على بيبرس الجاشنكير واستردّ منه ما كان أخذه من الأموال والخيول واعتقله في قلعة الجبل وكان آخر العهد به. وكانت سلطنته إحدى عشر شهراً واستقرّ السلطان الملك الناصر على سلطنته.

وفي سنة ٧٠٨هـ سنة ١٣٠٨م ملك الفرسان الاسبيتاليون جزيرة رودس أخذوها من الاشكري صاحب قسطنطينية، وصعب بسبب ذلك على التجار الوصول في البحر إلى هذه الديار لمنع الفرسان مَنْ يصل إلى بلاد الإسلام. هذا ما رواه أبو الفداء في تاريخ السنة المذكورة والذي نعلمه من تاريخ هؤلاء الفرسان الذين يسمون فرسان القديس يوحنا الأورشليمي وفرسان رودس وفرسان مالطة انّ جمعيّتهم أنشئت بعد أن أخذ الفرنج أورشليم سنة ١٠٩٩م، وكان غرضها استقبال الحجاج وقضاء حاجاتهم والعناية بالمرضى منهم، ثمّ أخذ أعضاؤها على أنفسهم سنة ١١٢١م أن يذبوا عن الزائرين بالسلاح أيضاً، فأصبحت جمعيتهم دينية جندية وكانوا يتسيرون بقانون القديس أغوسطينوس. وبعد أن فتح صلاح الدين أورشليم سنة ١١٨٨م انتقلوا إلى عكا. وبعد أن أخذ المسلمون عكا ساروا إلى قبرص وفي سنة ١٣٠٨م على ما ذكر أو سنة ١٣١٠ على رواية أخرى أخذوا رودس وتحصّنوا بها مدّة قرنين ونيف إلى أن طردهم منها السلطان سليمان سنة ١٥٢٢م بعد حصار شديد ودفاع مديد، فساروا إلى كريت ثمّ إلى صقلية ثمّ استقرّوا في مالطة سنة ١٥٣٠م واستمرّوا بها إلى سنة ١٧٩٨م إذ أخذها منهم نابوليون الأوّل بونابرت عند عبوره إلى مصر. وفي تقليدات أمّتنا المارونية أنّه كان في جملة هؤلاء الفرسان كثيرون من رجال الموارنة وساروا معهم إلى قبرص ورودس وبقي أولادهم في هذه الجمعية عند إقامتهم برودس ومالطة.

وفي سنة ٧١٠هـ سنة ١٣١٠م وُلّي أبو الفداء نيابة السلطنة بحماه موطنه وقد روى هو خبر توليته، فقال إنّه كان قد زائل حماه خشية من عداوة استدمر الذي كان السلطان قد ولّاه حماه، وسأل السلطان أن يمكّنه من القيام بدمشق فتصدّق

عليه بخلعة ورسم له بغلّة من حواصل دمشق، وان يكون خبزه بحماه مستقراً عليه وكذلك أجناده، ووصل استدمر إلى دمشق متوجهاً إلى حماه فأفرغ جهده في أن يسير أبو الفداء معه إليها فتمنع، واتّفق أن مات نائب السلطنة بالسواحل الشامية فأعطى السلطان النيابة بها لاستدمر وتصدّق على أبي الفداء بالنيابة بحماه، فلم يحب أستدمر المسير إلى السواحل وامتنع من قبول التقليد والخلعة ومات حينئذٍ سيف الدين قبجق نائب السلطنة بحلب، فنصب السلطان أستدمر موضعه واستقرّت حماه للعبد الفقير إلى الله تعالى بن عليّ مؤلف هذا الكتاب. وكان استقراري في دار ابن عمي الملك المظفر بحماه بعد الظهر نهار الإثنين ٢٣ جمادى الاخرة سنة ٧١٠هـ سنة ١٣١٠م الموافق السادس عشر من كانون الثاني. هذا من كلام أبي الفداء. وقال بعده كان خروج حماه عن البيت التقوي الأيوبي سنة ٦٩٨ وعوده إليها سنة ٧١٠م. فكانت مدّة خروجها إحدى عشر سنة وخمس أشهر وسبع وعشرين يوماً. وفي السنة المذكورة جرّد السلطان عسكراً مع كراي المنصوري وشمس الدين سنقر الكمالي إلى حلب للقبض على أستدمر الذي كان السلطان قد جعله نائب السلطنة فيها كما مرّ ولم يكن يثق بطاعته. وسار أبو الفداء والي حماه معهم فكبسوا أستدمر في دار النيابة بحلب وقبضوا عليه واعتقلوه بقلعة حلب، ثمّ أرسلوه إلى مصر فاعتقل بها ثمّ نقل إلى الكرك وكان آخر العهد به. واحتيط على موجوده من الخيل والقماش والسلاح وكان شيئاً كثيراً وحمل جميع ذلك إلى بيت المال.

وفي سنة ٧١١هـ سنة ١٣١١م بعد القبض على أستدمر جعل السلطان قراسنقر نائب السلطنة بدمشق نائباً لها بحلب، وأنعم بنيابة السلطنة بالشام على سيف الدين كريه المنصوري، ثمّ قبض عليه ورتب في نيابة السلطنة بالشام أقوش الذي كان نائباً في الكرك. وأمّا قراسنقر فبعد استقراره بحلب استأذن السلطان بأن يسير إلى الحجاز لقضاء حجّ الفرض فأذنه، فسار في غير الطريق المعتاد حتى وصل إلى بركة زيرا فحصل عنده التخيل والخوف من الركب المصري لئلا يقبضوا عليه فعاد على البرية إلى بر حلب واجتمع مع مهنا بن عيسى أمير العرب واتفقا على المشاققة والعصيان، وقصد قراسنقر حلب ليستولي عليها مستقلاً فمنعه الأمراء الذين بها والعسكر من الدخول إليها، وأرسل السلطان إلى قراسنقر ومهنا أمير العرب ما يطيّب خاطرهما فلم يرجعا عن ضلالهما فجرّد السلطان عسكراً مع المقر السيفي ارغون الدوادار الناصري والأمير حسام الدين قرا لاجين، حتّى إذا رجع قراسنقر عن

الشقاق والنفاق قرر أمره في مكان يختاره، وإن لم يرجع يقصده العسكر حيث كان. وسار أبو الفداء بصحبتهم فاندفع قراسنقر إلى الفرات وأقام هناك وافترقت مماليكه، فبعضهم سار إلى التتر وبعضهم قدّم الطاعة ثمّ توجّه قراسنقر إلى جهة مهنا حليفه.

وفي سنة ٧١٢هـ سنة ١٣١٢م قصد أقوش الأفرم نائب السلطة بالفتوحات أن يحدث شقاقاً وانضمّ إليه حموه أيدمر الزردكاش من دمشق ومن يلوذ به وقصدوا عسكر الساحل فلم يوافقهم على ضلالهم، فهرب الأفرم إلى سنقر في البرية وأقاما بقرب سلميّة، فاجتمعت العساكر من حمص وحماه وحلب ونزلوا بظاهر سلميّة، وقصد قراسنقر والأفرم كبس العسكر ليلاً لظنّهما أنّ فيهم مخامرين يوافقونهما على ضلالهما فلم يوافقهما أحد فرجعا عن قصدهما وسارا بمن معهما إلى الرحبة فجهز الأمراء عسكراً في أثرهما فتبعوهما إلى الرحبة، فاندفع قراسنقر ومن معه إلى عانة والحديثة، ولم يرد العسكر لحاقهما إلى هناك بغير مرسوم من السلطان وعادوا إلى حمص وكثر ترداد الرسل إلى قراسنقر والأفرم في إطابة خواطرهما وهما لا يزدادان إلّا عتواً، حتى سارا إلى التتر واتّصلا بخربندا ملكهم مع أيدمر الزردكاش ومن انضمّ إليهم. وقرّر السلطان سيف الدين سودي في نيابة السلطنة بحلب مكان قراسنقر. وحمل قراسنقر والأفرم خربندا ملك التتر على أخذ الرحبة وكان الأفرم هو الذي قد سعى لبدر الدين بن ادكشي الكردي بنيابة السلطنة بالرحبة فأغرى خربندا بأخذها طامعاً بأنّ بدر الدين ربّما يسلم قلعة الرحبة إليه جزاء صنعه إليه فحاصرها خربندا فصبر بدر الدين على الحصار وقاتل شديد القتال حفظاً لعهد أمانته للسلطان، ووقع الغلاء والفناء في عسكر خربندا وتعذّرت عليه الأقوات ولم يجد صحة لما أطمعه به قراسنقر والأفرم فرحل عن الرحبة راجعاً على عقبة بعد حصار الرحبة نحو شهر». انتهى ملخّصاً عن ابي الفداء.

عد ٨٩٨

العشائر الإسلامية التي أقيمت في سواحل لبنان في هذه الأثناء

روى العلامة المدقق البطريرك أسطفانوس الدويهي أنّ الملك الناصر بعد أن فتح المسلمون كسروان سنة ١٣٠٥م أمر تركمان الكورة أن ينزلوا في ساحل كسروان ليحافظوا عليه من الفرنج، وهم أهل عساف. وكان دركهم من حدود أنطلياس إلى

مغارة الأسد وجسر المعاملتين تحت غزير وكانوا لا يدعون أحداً يمرّ في دربند نهر الكلب إلّا بورقة إجتياز من الوالي أو من أمراء الغرب التنوخية (الآتي ذكرهم) وأقام التركمان المذكورون ثلاثة ابدال كل بدل مئة فارس يقوم بالدرك شهراً، وكانوا ينزلون بأنطلياس وبيوت اليزك (كلمة فارسية يراد بها رئيس العسس ومن يراقب من مضى فيتبعه) على نهر الكلب وفي البرج الذي يليه جنوباً وفي برج جونية. وكانت أذواقهم (منازلهم) من حولهم وهي المعروفة بالعامرية وزوق الخراب وزوق مصبح وزوق ميكائيل بأسماء مقدّمي الأزواق، وبنوا لهم منازل وغرسوا جنات وبساتين بعين طورا وعين شقيق لإقامة أمرائهم شتاءً وصيفاً.

وجاء في كتاب تاريخ بيروت لصالح بن يحيى مصداقاً لذلك ما نصّه: «وأمّا أرباب الأيزاك (مرّ تفسير كلمة اليزك) فكانوا جنود حلقة بعلبك يتجردون إلى بيروت ابدالاً يبقى كل بدل شهر. وفي سنة ٧٠٦هـ أقرّوا التركمان بكسروان وتداركوهم بثلاث مئة فارس وجعلوا دركهم من حدود أنطلياس إلى مغارة الأسد على حدود معاملة طرابلس، فكانوا يمنعون من يستنكرونه أن يتعدّى دربند (كلمة تركية معناها مضيق) نهر الكلب إلّا بورقة طريق من المتولى أو من أمراء الغرب كما يفعلون بقطية (قرية على التخوم بين مصر والشام) على درب مصر، وجعلوا التركمان المذكورين ثلاثة ابدال كل بدل يقيم في الدرك شهراً، وموجب استقرارهم بكسروان أنّه لمّا فتح كسروان كما ذكرنا أقطعوه لاناس لم يكفوه فأنزلوا فيه التركمان لكثرتهم ولحفظ الموانئ والدروب.

وقد جاء في تاريخ صالح بن يحيى المذكور قبل ما مرّ ما نصّه: «وعاد نائب الشام (بعد فتح كسروان) إلى دمشق بالعساكر في رابع شهر صفر من السنة المذكورة (سنة ٧٠٦هـ سنة ١٣٠٦م) وجعل الناظر في بلاد بعلبك والجبال الكسروانية بهاء الدين قراقوش فقهر ما كان تأخّر بجبال كسروان وقتل من أعيانهم جماعة ثمّ أعطوا أماناً في غير كسروان، ثمّ أقطعوا علاء الدين خطاب وسيف الدين نكر الحسامي وابن صبح أراضي في كسروان ثمّ أبطلوها عنهم وأقطعوها التركمان، فأدركوا موانئ البحر ودروب البر من ظاهر بيروت إلى عمل طرابلس واستمرّوا إلى وقتنا هذا وشهّروا بتركمان كسروان وعرّفوا به».

وجاء في هذا التاريخ أيضاً: «وكان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه

ابن أيوب (ابن أخي صلاح الدين الأيوبي) صاحب حماه قد أوقف وقفاً على جماعة خيالة ورجالة برسم الجهاد، وأشرط عليهم أن يكوّنوا في أقرب الموانئ إلى دمشق فلمّا استوطن المسلمون بيروت بعد الفتوح الأخيرة استقرّت إقامة المجاهدين المذكورين بها لقربها من دمشق وفي أيّام السلطان الملك الظاهر برقوق عمر البرج الكبير ببيروت على قاعدة برج من أبراج القلعة الخربة فقرروا به المجاهدين المذكورين» إلى أن يقول: «أمّا أمراء بني الغرب فاستقرّ دركهم على بيروت سنة ٦٩٣هـ (سنة ١٢٩٤م) وهي ثالث سنة الفتوح الأخيرة وذلك في أيّام الأمير زين الدين صالح بن على بن بحتر، وأيّام الأمير سعد الدين خضر بن محمّد وأخيه جمال الدين حجي بن محمّد... وفي أيّام ناصر الدين حسين استقرّ أمراء الغرب تسعين فارساً وانقسموا ثلاثة أبدال في كل شهر يقيم منهم في بيروت ثلاثون فارساً. وفي انقضاء الشهر يحضر ثلاثون بدلهم وفي ذلك يقول بعض شعراء زمانهم:

أيا ابن أمير الغرب شرقاً ومغرباً ومن كلٌّ عرف غير عرفهم نكرُ

باحسانك المشهور بيروت بلدة على الساحل المعمور صار لها ذكرُ

إلى أن يقول:

هو الناصر المعروف بالجود والتقى له الفضل والإحسان والعطف والبرُّ»

وقد فصل لنا العلّامة الدويهي كيف كانت هذه المراقبة والدرك بعد إخراج الفرنج من بيروت سنة ١٢٩٣م فقال جعلوا لبيروت مراقبة البحر وجعلوا فيها رهجية وحمام بطاقة (البطاقة الرسالة ورقيعة توضع في الثوب فيها ذكر الثمن سميت بذلك لأنّها تشدّ بطاقة من هدب الثوب) مدرج إلى دمشق وخيل بريد فكانت النار (المعبّر عنها بالرهجيّة) للحوادث في الليل وحمام البطاقة للحوادث في النهار والبريد لما يتجدد من الأخبار. كل ذلك فعلوه خوفاً من رجوع الفرنج فجعلوا في الطريق من بيروت إلى دمشق أربعة برد أحدها في الحصين، والثاني في قرية ايدل، والثالث في خان ميسلون، والرابع في دمشق. ثمّ رتّبوا أيضاً أنواراً تصل إلى دمشق في ليلة واحدة فكانوا يشعلون ناراً في ظاهر بيروت في مكان معلوم فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة (لعلّها دير القلعة حيث يسمى المحل بيروت

العتيقة) ومنها إلى جبل بوارش، ومنه إلى بيرس (في الجبل الشرقي) ومنه إلى جبل الصالحية ومنه إلى قلعة دمشق.

وأمّا أمراء الغرب الذين مرّ ذكرهم فنلخص أخبارهم عن أحدهم صالح بن يحيى الذي كان في أواسط القرن الخامس عشر وهو صاحب الكتاب «تاريخ بيروت» الذي أفضل الأب لويس شيخو اليسوعي على العلم بنشره في مجلة «المشرق» سنة ١٨٩٨م منقولاً عن نسخة بخط المؤلّف في مكتب باريس الكلية. فهذا المؤلف نصّ على أنّ جد أمراء الغرب إنّما هو الأمير بحتر الملقّب بناهض الدولة والمكنى بأبي العشائر وهو ابن شرف الدولة علي وأوصل نسبه إلى تنوخ بن قحطان إلى المنذر بن ماء السماء. وانّه اعتمد على أحمد بن عبد ربّه وعلى الملك المؤيد صاحب حماة. وأثبت صورة منشور من الأتابك الظهيري يذكر به إمارته بالغرب من جبل بيروت. وتاريخ هذا المنشور سنة ٥٤٢هـ (توافق سنة ١١٤٧للميلاد) في أيّام الأمير مجير الدين آبق بن جمال الدين محمّد بن تاج الملك بوري بن ظهر الدين طغتكين ويتحصّل من ذلك أنّ هؤلاء الأمراء استدعاهم أتابكة دمشق من جهات حلب إلى الغرب في القرن الثاني عشر لمقاومة الفرنج ببيروت. ثمّ أثبت المؤلّف أيضاً منشوراً عاماً من الملك العادل نور الدين ذكر فيه كرامة بن بحتر المذكور وقال إنّه: «الأمير النجيب أمير الغرب كرامة من أطاعه فقد أطاعنا ومن عاونه في الجهاد فقد عمل برضانا وكان شكوراً منا، ومن خالفه فقد خالف أمرنا. وتاريخ هذا المنشور سنة ٥٥٢هـ (سنة ١١٥٧م). ثمّ أثبت منشوراً آخر من الملك العادل أيضاً موجهاً إلى كرامة المذكور، من مضمونه أنّ الأمير كرامة بن بحتر التنوخي لاذ بالخدمة وقصد الدولة العادلة فأجيب إلى ملتمسه وعيّن جهاته غالب قرى الغرب، ومن البقاع ظهر حمّار من وادي التيم تعلبايا من البقاع، المعاصر التحتا والفوقا والدامور وشارون ومجد لبعنا وكفرعميه. وتاريخ هذا المنشور ٧ رجب سنة ٥٥٦هـ سنة ١١٦١م.

وكان أبناء كرامة أربعة أصغرهم حجي فهادنهم صاحب بيروت الفرنجي وكان يحسن إليهم واستدعاهم يوماً إلى عرس في بيروت فحضر الثلاثة الكبار منهم فقتلهم غيلة وركب بعسكر إلى حصن سرحمور فنهبوه وهدموه وألقوا حجارته في الوادي وأحرقوا القرى المجاورة له وأسروا من تخلّف عن الهرب، وهربت أم حجي بولدها الصغير الذي كان باقياً عندها، ثمّ حضر الملك الناصر بن أيّوب لفتح بيروت سنة ٥٨٣هـ سنة ١١٨٨م فلاقاه حجي إلى قرية خلدة ولما فتح السلطان بيروت

قال لحجي ها قد أخذنا ثأرك من الفرنج وكتب له منشوراً ورد عليه ما كان لأبيه واخوته. وفي هذا المنشور ذكر سرحمور وعين كسور والدوير وطردلا وعين درافيل وذكر المؤلّف المذكور مناشير من السلاطين لحجي مؤرخة بعد سنة ست ماية للهجرة ولم يذكر في أيّة سنة توفي بل ذكر بعده ابنه محمّد الملقّب نجم الدين وأثبت منشوراً له من الملك الصالح أيّوب ابن الملك الكامل محمّد سلطان مصر والشام به يطيب خاطره ويأمره أن يتأهّب للقائه لأنّه قادم عن قرب إلى البلاد. وتاريخ هذا المنشور ١٦ ذي الحجة دون ذكر السنة. وقال إنّ أولاده وأولاد أخيه شرف الدين علي قتلوا في ثغرة الجوازات بكسروان في ١٦ ربيع الآخر سنة ٦٤٠هـ سنة ١٢٤٣م، ومن أولاد نجم الدين محمّد المذكور جمال الدين حجي الثاني وذكر له منشوراً من الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز سلطان دمشق. وذكر جهاته عرامون وعين درافيل وطردلا وعين كسور ورمطون وقدرون ومرتعون والصباحية وسرحمور وعيتات وعين عنوب والدامور والدوير. وتاريخ هذا المنشور ٢٥ صفر سنة ٦٥٥هـ سنة ١٢٥٣م. وله منشور من الملك الظاهر بيبرس يذكر جهاته المذكورة ويزيد عليها شملان وبتاتر وبيصور وكفر عميه وعيتات وتاريخه في رجب سنة ٦٥٩هـ سنة ١٢٦١م، ولما تولى التتر على الشام اجتمع جمال الدين بكتبغا نائب هولاكو في الشام فكتب هولاكو له منشوراً يثبته في إقطاعه. ومما كان في أيّامه أنّ قطب الدين عيدي استقطع قرية كفر عميه من الأمراء التنوخيين فوجد مقتولاً في القرية، واتّهم بعض هؤلاء الأمراء بقتله وكان بعضهم معتقلين بمصر فوجهت العساكر إلى الغرب من بعلبك والبقاع وصيدا وبيروت فأحرقوا بلادهم وكان ذلك سنة ١٢٧٨م، ثمّ أمّنهم الملك السعيد. ذكر هذا البطريرك الدويهي أيضاً في تاريخ السنة المذكورة. وقد ذكر المؤلّف رسالة له ولأخيه زيد الدين من ملك الأمراء لاجين نائب الشام عن الملك المنصور قلاوون يأمرهما أن يتوجها مع سنقر المنصوري بجموعهما إلى جهة كسروان والجرد، وان من سبى امرأة منهم كانت له جارية، أو صبياً كان له مملوكاً، ومن أحضر منهم رأساً فله دينار. وتاريخ هذه الرسالة سنة ٦٨٦هـ (سنة ١٢٨٢م) وجمال الدين هذا هو أوّل من سكن اعبيه من هؤلاء الأمراء وكانوا قد سكنوا قبلاً عرامون المغرب وسرحمور وطردلا وقد ولد جمال الدين سنة ٦٣٣هـ (سنة ١٢٣٦م) وتوفي سنة ٦٩٧هـ (سنة ١٢٩١م).

فهذا ما لخّصناه عن الكتاب المذكور في تاريخ هؤلاء الأمراء إلى مبادئ القرن الرابع عشر وقد بقي أبناء جمال الدين المذكور وأبناء اخوته وأعمامه يتولون عمل

الغرب وما تبعه من اقطاعهم. وسنأتي على ذكر ما كان مهماً من تاريخهم بأوقاته ومن شاء زيادة تفصيل في أخبارهم فليطالع كتاب صالح بن يحيى المذكور في مجلّة «المشرق».

عد ٨٩٩

أحداث أخرى في أيّام الملك الناصر إلى حين وفاته

في سنة ٧١٢هـ (سنة ١٣١٣م) رخّص السلطان الملك الناصر لرهبان الفرنج بأن يسكنوا في جبل صهيون بوساطة روبرتس ملك صقلية وفيها أوصل سيف الدين سودي نائب السلطنة بحلب نهر الساجور إلى نهر قويق وأنفق عليه ثمان مئة ألف درهم تبرّع بالنصف من ماله والنصف الآخر من مال السلطنة. ذكر ذلك البطريرك الدويهي في تاريخ هذه السنة.

وفي سنة ٧١٤هـ سنة ١٣١٤م توفي سيف الدين سودي نائب حلب المذكور فولى السلطان مكانه الأمير علاء الدين الطنبغا الحاجب. وفي سنة ٧١٥هـ سنة ١٣١٥م بنى الأمير ناصر الدين حسين بن محمّد التنّوخي داراً جميلة في قرية اعبيه وزيّنها ببرج وحمام وجنينة جر الماء إليها. وفي هذه السنة سخط السلطان على سيف الدين تمر نائب طرابلس الذي وليها بعد أقوش الافرم وسيق معتقلاً إلى مصر وولى مكانه سيف الدين كستاي، ثمّ توفّي فولى مكانه شهاب الدين قرطباي نقله إليها من نيابة حمص وولى نيابة حمص سيف الدين اقطاي ثمّ قبض سنة ٧١٨هـ (سنة ١٣١٨م) على طغاي الحسامي من الجاشنكير وصرفه نائباً إلى صفد مكان بكتمر الحاجب ثمّ سخّطه فأحضره معتقلاً وحبسه بالاسكندرية، وبعث على صفد سيف الدين اقطاي نقله إليها من حمص وبعث على حمص بدر الدين بكتوت (عن ابن خلدون).

وفي سنة ٧١٦هـ سنة ١٣١٦م ظهرت سحابة في شرقي بعلبك وعظم الرعد والبرق والمطر وجرت المياه في الأودية بغزارة لم يعهد لها من نظير واجتمعت على السور حتى كادت تبلغ أعلاه فثلمت السور وأخذت برجاً برمّته طوله خمسة عشر ذراعاً وعرضه كذلك فحملته كما كان وأخربت البيوت والحوانيت. وتوجّه بدر الدين بن معبد من دمشق إلى بعلبك لرؤية الحاصل وكتب محضراً كان فيه عدد

البيوت التي أقلبها السيل ٨٩٥، وعدد الحوانيت ١٣١ وعدد الجوامع والمساجد والمدارس ٣، غير ما هلك من الناس والماشية. ذكر ذلك الدويهي سنة ١٣١٦م، وذكره أبو الفداء في تاريخ سنة ٧١٧هـ وفيها ثار أيضاً من جهة طرابلس ريح زعازع وهبّ عاصف من جهة البحر وتكون شبه تنين وهطلت الأمطار على بيوت التركمان فلم تترك شيئاً من البيوت أو سكّانها سوى ثلاثة عشر رجلاً هشّمتهم الحجار والأخشاب، وحملت الريح جمالاً وألقتهم في البحر، ووقع بَرَدٌ على هيئة أشطاف الحجارة. ذكر ذلك العلّامة الدويهي في تاريخ السنة المذكورة وروى أبو الفداء أنّه في أواسط نيسان من السنة المذكورة ترادفت الأمطار وحصلت سيول عظيمة في بلاد حلب وحماه وحمص وغرق أهل ضيعة من بلاد حمص مما يلي جوسية. وفي هذه السنة أيضاً رد السلطان على أبي الفداء قصبة المعرّة وكان أتبعها بطلب أبي الفداء إلى ولاية حلب بعد ولاية أبي الفداء، فردّ المعرّة إلى ولايته في هذه ـ السنة.

وفي سنة ٧١٧هـ سنة ١٣١٧م ظهر في جبال بلاطنس إنسان نصيري وادّعى أنّه محمّد ابن الحسن العسكري ثاني عشر الأئمة عند الأمامية الذي دخل السرداب فأتبعه من النصيرية جماعة كثيرة نحو ثلاثة آلاف نفر وهجم على مدينة جبلة ونهب أموال أهلها وسلبهم ما عليهم فجرد إليه عسكر من طرابلس ولمّا قاربوه تفرّق جمعه وهرب واختفى في تلك الجبال فتتبعوه وقتلوه وباد جمعه. روى ذلك أبو الفداء في تاريخ سنة ٧١٧هـ، ورواه البطريرك الدويهي في تاريخ سنة ١٣١٦م.

وفي سنة ٧٢٠هـ سنة ١٣٢٠م أنعم السلطان على أبي الفداء بلقب سلطان فاستعظمه واستصغر نفسه عن أن يشارك السلطان بوصفه الشريف فندبه السلطان إلى ذلك، وأرسل إليه شعار السلطنة وأقام الأمراء بين يديه، ولما مثل أمام السلطان قبّل الأرض مرّات وأتحفه السلطان بهدايا نفيسة وأمره بالعود إلى بلاده. وقد توفي أبو الفداء سنة ٧٣٢هـ سنة ١٣٣١م وهو السلطان الملك المؤيّد اسماعيل ابن الملك الأفضل علي الأيوبي وولى السلطان الملك الناصر ابنه الملك الأفضل محمّد برغبة أبيه إلى السلطان في ذلك، ولمّا مات الملك الناصر سنة ٧٤١هـ سنة ١٣٤٠م وقام بالأمر بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر محمّد عزل الأفضل عن حماة ونصب مكانه طغردمر فسار الملك إلى دمشق فمات بها سنة ٧٤٢هـ سنة ١٣٤١م وانقرضت ايالة بني أيوب من حماه (عن ابن خلدون).

وفي سنة ١٣٣٣ قدمت إلى بيروت مراكب الفرنج من جنوا وكان الوالي فيها عز الدين البيسري من قبل تنكز نائب السلطنة بدمشق ونزلوا إلى المدينة وقاتلوا أهلها يومين ودخلوا برجها وأخذوا الأعلام السلطانية. ولما بلغ ذكر تنكز أمير الأمراء دعا أمراء الغرب الذين بعرامون والتركمان الذي بكسروان وبكتهم وأهانهم لتقصيرهم في المحافظة.

وفي سنة ١٣٣٩م وقعت نار في دمشق بشرقي الجامع الأموي فأحرقت سوق اللبادين والوراقين ثمّ وقعت مرّة أخرى فأهلكت مالاً وخلقاً كثيراً فاتّهم النصارى بذلك لأنّه كان قد جرى على كنائسهم، فقبضوا على رؤساء النصارى وطوفوهم على الجمال وسمّروا أربعة عشر شخصاً منهم وأخذوا مالاً جزيلاً، ورسم تنكز نائب السلطنة أن لا يستخدم المسلمون النصارى في الدواوين، وبلغ ذلك مسامع السلطان فأرسل نائب السلطنة بصفد فقبض على تنكز واعتقله وأخذه إلى القاهرة ثمّ اعتقل في الاسكندرية وتوفي في السجن.

وأرسل السلطان علاء الدين طنبغا إلى دمشق نائباً بها فقبض على أولاد تنكز وعلّق بعضهم على الخشب وضبط أموالهم وكانت وافرة جداً وأرسلها إلى مصر (عن تاريخ البطريرك أسطفانس الدويهي).

عد ٩٠٠

وفاة الملك الناصر وتعاقب أبنائه في الخلافة

قد توفي السلطان الملك الناصر في ذي الحجة آخر سنة ٧٤١هـ سنة ١٣٤٠م بعد أن جلس على منصّة السلطنة ثلاث مرات، واستمرّ في السلطنة الأخيرة من حين استبدّ وصفا له الملك اثنتين وثلاثين سنة ولمّا اشتدّ المرض به أراد أن يعهد بالملك إلى قوصون أعظم أمرائه فامتنع فعهد لابنه أبي بكر ومات فمال يشتك أحد أمرائه العظام إلى تولية ابنه الآخر أحمد الذي كان أبوه قد ولاه الكرك، فأبى قوصون إلّا الوفاء بعهد السلطان فانقاد يشتك إليه، فبويع أبو بكر بالخلافة ولقّب الملك المنصور. وقام قوصون بأمر الدولة وقطلوبغا الفخري فولوا على نيابة السلطان طقر دمر وبعثوا على حلب طشتمر، وعلى حمص أخضر عوضاً عن طغراي وأقرّوا كيبغا الصالحي على دمشق، ثمّ استوحش يشتك من استبداد قوصون وقطلوبغا دونه

وطلب نيابة دمشق فاعتذروا له، ولمّا جاء للوداع قبض عليه قطلوبغا الفخري وبعث به إلى الاسكندرية فاعتقل بها ثمّ أقبل السلطان أبو بكر على لذاته ونزع عن الملك وصار يمشي في سكك المدينة متنكراً مخالطاً السوقة فنكر الأمراء ذلك وخلعه قوصون وقطلوبغا ولم يبق في السلطنة إلّا سبعة وخمسين يوماً من بيعته (وعن البطريرك الدويهي أنّه ملك ثمانية أشهر) وبعثوا به إلى قوص فحبس بها.

وبعد خلع أبي بكر ولوا أخاه كجك ولقّبوه الملك الأشرف وعزلوا طقردمر عن نيابة السلطنة، وقام قوصون بها وبعثوا طقردمر نائباً على حماه وعزلوا عنها الأفضل ابن الملك المؤيد اسماعيل أبي الفداء (وقد مرّ أنّ عزله كان في أيّام أبي بكر والقولان لابن خلدون) وبعثوا بقتل يشتك في محبسه بالاسكندرية.

ولمّا بلغ إلى الأمراء بالشام الخبر باستبداد قوصون على الدولة غصوا من مكانه واعتزموا على البيعة لأحمد ابن الملك الناصر أخي أبي بكر وكجك وكان مقيماً بالكرك منذ ولاه أبوه إمارتها وكاتبه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب وحثاه على الملك. وبلغ الخبر إلى مصر فخرج قطلوبغا الفخرى في العساكر لحصار الكرك وكتبوا إلى طنبغا الصالحي نائب دمشق فسار في العساكر للقبض على طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب وكان قطلوبغا قد استوحش من صاحبه قوصون وغصّ باستبداده عليه فلما سار بالجند من مصر بعث ببيعته إلى أحمد بن الملك الناصر بالكرك وسار إلى الشام يستدعي الناس إلى مبايعة أحمد المذكور ودعا إليه طقردمر نائب حماه فأجابه وقدم عليه وانتهى الخبر إلى طنبغا نائب دمشق وهو يحاصر حلب، فأفرج عنها ودعاه قطلوبغا إلى بيعة أحمد فأبى فانقضّ عليه أهل دمشق وسار إلى مصر فاستولى قطلوبغا على الشام أجمع بدعوة أحمد وبعث إلى الأمراء بمصر فأجابوه إليها، وهيّجوا الشعب لخذل قوصون فنهبوا بيوته وخرّبوها واقتحموا القلعة وقبضوا على قوصون وبعثوا به إلى الاسكندرية فمات في محبسه. وقدِم السلطان أحمد من الكرك إلى مصر في رمضان سنة ٧٤٢هـ (سنة ١٣٤١م) ومعه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب وقطلوبغا الفخري فاستولى على عرش السلطنة ولقّب الملك الناصر وولى طشتمر نيابة السلطنة بمصر وبعث قطلوبغا الفخري إلى دمشق وقبض على أخضر والي حلب وولى مكانه أيدغمش وبلغ الخبر إلى قطلوبغا الفخري قبل وصوله إلى دمشق فعدل إلى حلب، وقبض على ايدغمش وبعث به إلى مصر فاعتقله السلطان واعتقل معه طشتمر نائب السلطنة لريبة فيه

فاستوحش الأمراء من السلطان وارتاب بهم فارتحل إلى الكرك بعد ثلاثة أشهر من بيعته وأخذ معه طشتمر وايدغمش معتقلين واستوحش بيبرس الأحمدي نائب صفد وسار إلى دمشق فتلقاه العسكر ومالأوه، وبعث السلطان في القبض عليه فأبى أن يسلم. وقال إنّما الطاعة لسلطان مصر لا لصاحب الكرك واضطرب الشام فبعث إليه الأمراء بمصر بالرجوع إلى دار ملكه فامتنع وقال هذه مملكتي أنزل من بلادها حيث شئت، وعمد إلى طشتمر وايدغمش فقتلهما فاجتمع الأمراء بمصر وخلعوه وبايعوا لأخيه اسماعيل في محرم سنة ٧٤٣هـ (سنة ١٣٤٢م) ولقّبوه بالملك الصالح.

فولى الملك الصالح أقسنقر السلاري نيابة السلطنة وسرح العساكر سنة ٧٤٤هـ (سنة ١٣٤٣م) لحصار الكرك مترادفة للقبض على أخيه الملك الناصر أحمد ونزع عن الملك الناصر بعض العساكر ولحقوا بمصر، وكثر القتال بالكرك إلى أن اقتحمت عساكر الملك الصالح الملك الناصر وقتلوه سنة ٧٤٥هـ (سنة ١٣٤٤م) واستبدّ الملك الصالح بالملك، لكنّه ارتاب بكثير من الأمراء وتقبض على نائبه أقسنقر السلاري وبعث به إلى الإسكندرية فقتل هناك. وولى مكانه انجاح الملك، ثمّ توفي الملك الصالح حتف أنفه سنة ٧٤٦هـ (سنة ١٣٤٥م) واستمرّ بالملك ثلاث سنين وثلاثة أشهر.

وبويع بعده بالخلافة أخوه زين الدين شعبان ولقّب بالملك الكامل وجعل النيابة بمصر لأرغون العلاوي، وأرسل انجاح الملك ليكون نائباً بصفد ثمّ استردّه من طريقه وبعثه معتقلاً إلى دمشق، وتوفي بعد ذلك في محبسه. وأرهف السلطان الكامل حدّه في الاستبداد على أهل دولته فراراً ممّا يتوهّم فيهم من الحجر عليه فتراسل الأمراء بمصر والشام وانتقض عليه طنبغا اليحياوي ومن معه بدمشق سنة ٧٤٧هـ (سنة ١٣٤٦م)، وبرز في العساكر يريد مصر وبعث السلطان منجو اليوسفي يستطلع أخبارهم فحبسه اليحياوي، فجرد الكامل العساكر إلى الشام واعتقل حاجي وحسين أخويه بالقلعة وثار الأمراء بمصر وركبوا إلى قبّة النصر فركب السلطان إليهم في مواليه واقتتلوا فقتل أرغون العلاوي نائبه فرجع السلطان إلى القلعة منهزماً ودخل من باب السر متخفّياً، وقصد محبس أخويه ليقتلهما فحال الخدام دونهما وأغلقوا الأبواب ودخل الأمراء القلعة من بعده فأخرجوا حاجي أخا السلطان من معتقله فبايعوه، ولقّبوه بالملك المظفر، وافتقدوا الكامل فوجدوه واعتقلوه مكان حاجي أخيه وقتل في اليوم الثاني في السنة المذكورة وكان ملكه سنة وشهراً وأياماً.

وأمّا الملك المظفر حاجي فعهد بالنيابة له بمصر إلى أرغون شاه والحجازي وولوا طقتمر الأحمدي النيابة بحلب، والصلاحي النيابة بحمص، وحبس المظفر جميع موالي الكامل أخيه ونزع إلى الإستبداد فقبض على الحجازي والناصري وقتلهما لأربعين يوماً من ولايته. وأرسل أرغون شاه نائبه إلى صفد للنيابة وجعل مكان طقتمر الأحمدي في حلب تدمر البدري، وأرهف في الإستبداد فاستوحش الأمراء بمصر والشام، وانتقض اليحياوي المذكور آنفاً بدمشق وأدخله نواب الشام في الخلاف. وبلغ الخبر إلى مصر فتواعد الأمراء بها للوثوب على المظفر ونمى الخبر إليه فاستدعاه من الغد إلى القصر وقبض على كل من اتّهمه منهم بالخلاف، وهرب بعضهم فأدركوا واعتقلوا جميعاً فقتل بعضهم وبعث بعضهم إلى الشام فقتلوا في الطريق، وولى من الغد مكانهم خمسة عشر أميراً. ووصل الخبر إلى دمشق فلاذ اليحياوي بالمغالطة وقبض على جماعة من الأمراء وكان الملك المظفر قد أرسل أحد خاصته إلى دمشق يستطلع الأخبار فحمل الناس على طاعة المظفر وأغراهم بقتل اليحياوي، فقتلوه وبعثوا برأسه إلى مصر وسكنت الفتنة. واستوسق الملك للمظفر ثمّ تجدّدت الثورة وخرج الأمراء إلى قبّة النصر فركب المظفر في مواليه إليهم وبعض الأمراء الذين معه يرون ما يراه خصومه من خلعه ولمّا تورّط في الزحف إليهم أسلمه من كان معه إلى بيقاروس أحد الأمراء المخالفين له فقتله على تربة أمّه في خارج القلعة ودفن هناك في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨هـ (سنة ١٣٤٧م) بعد أن ملك سنة وثلاثة أشهر.

وبعد مقتل المظفر أقام الأمراء عامّة يومهم يتشاورون في من يولونه وأجمعوا على مبايعة حسن ابن الملك الناصر أيضاً ولقّبوه الناصر بلقب أبيه، وقام ستة من الأمراء بأمور الدولة وكان المستبد عليهم جميعاً بيقاروس القاسمي قاتل الملك المظفر، فقتل الحجازي وأقسنقر اللذين كانا قائمين بدولة المظفر أخيه، وقبض على رفيقه أحمد شادي من أولئك الأمراء الستة وغربه إلى صفد، وأبعد الجبقا منهم أيضاً إلى طرابلس ليكون نائباً بها وبعث أرغون الاسماعيلي منهم ليكون نائباً بحلب، أمّا الجبقا المذكور فسار صحبة اياس الحاجب إلى طرابلس، ولمّا انتهيا إلى دمشق بلغ الجبقا أنّ أرغون شاه نائب دمشق تعرّض لبعض حرمه فطرقه في بيته ليلاً فذبحه، وصنع مرسوماً سلطانياً دافع به الناس والأمراء عن نفسه واستصفى أمواله ولحق بطرابلس، ولمّا عرض الأمر للسلطان أنكر المرسوم وأمر بأتباعه فزحفت

العساكر إلى الجبقا بطرابلس فقبضوا عليه وعلى اياس الحاجب وجاءوا بهما إلى مصر فقتلا.

ثمّ شرع السلطان حسن الناصر بالاستبداد على عادة إخوته وقبض على منجك اليوسفي أستاذ داره وعلى السلحدار واعتقلهما من غير مشورة بيقاروس وأصحابه، فارتاب بيقاروس واستأذن السلطان في الحج هو وطاز فأذن لهما، ودسّ إلى طاز أن يقبض على بيقاروس ولما نزلا بالينبع قبض طاز على بيقاروس ورغب إليه في أن يتركه يحج مقيداً فتركه، ولما رجعوا من الحج حبسه طاز بالكرك بأمر السلطان ثمّ أفرج عنه وولاه نيابة حلب كما سيأتي. ولما بلغ خبر اعتقاله إلى أحمد شادي نائب صفد انتقض على السلطان فجهز السلطان إليه العساكر فقبضوا عليه وجاءوا به إلى مصر فاعتقل بالاسكندرية. واستوحش أهل دولة الناصر منه لقبضه على بيقاروس وحبسه ورفعه عليهم مغلطاي أحد الأمراء فتفاوضوا في خلعه، وداخل طاز المذكور وهو كبيرهم جماعة من الأمراء في الثورة فأجابوه إليها فركبوا ودخلوا القلعة من غير ممانع فقبض طاز على الناصر واعتقله وأخرج أخاه حسيناً من اعتقاله، فبايعه ولقّبه الملك الصالح وكان ذلك سنة ٧٥٢هـ (سنة ١٣٥١م) بعد أن أقام بالملك ثلاث سنين ونحو عشرة أشهر.

وقام طاز بحمل دولة ملكه الصالح وأبعد بيقوا الشمسي إلى دمشق وبيقرا إلى حلب أسيرين، وانفرد بالأمر فنافسه أمراء الدولة واجتمعوا على الثورة، وكان كبراؤهم مغلطاي ومنكلي وبيبقا العمري وركبوا في من اجتمع إليهم إلى قبّة النصر للحرب فركب طاز وسلطانه الصالح في جموعه ففض جمعهم وأثخن فيهم وقبض على مغلطاي ومنكلي وحبسهما بالإسكندرية وقبض على الشمسي المحمدي نائب دمشق ونقل إليها لمكانه أرغون الكاملي من حلب، وأفرج عن بيقاروس بالكرك وبعثه مكانه إلى حلب.

فتذكّر بيقاروس قبض طاز عليه وأدركته المنافسة والغيرة من استبداده بالدولة فحدثته نفسه بالخلاف، وكاشف نواب الشام فوافقه في ذلك بلكمش نائب طرابلس وأحمد شادي نائب صفد وخالفه أرغون الكاملي نائب دمشق وتمسّك بالطاعة ودعا بيقاروس العرب والتركمان فأجابه جبار بن مهنا من العرب وقراجا بن العادل من التركمان في جموعهما وبرز بيقاروس من حلب قاصداً دمشق فأجفل

عنها أرغون نائبها إلى غزّة، ووصل بيقاروس فملكها وامتنعت القلعة فحاصرها وكثر العيث من عساكره في القرى فسار السلطان وأمراء الدولة من مصر في العساكر وبلغ بيقاروس خروج السلطان فأجفل عن دمشق، وثار العوام بالتركمان فأثخنوا فيهم ووصل السلطان إلى دمشق ونزل بالقلعة وجهز العساكر في اتباع بيقاروس فجاءوا بجماعة من الأمراء الذين كانوا معه، فقتل السلطان بعضهم وحبس الباقين وولى على دمشق الأمير علياً المارداني، ونقل منها أرغون الكاملي إلى حلب وسرح العساكر في طلب بيقاروس مع مغلطاي الدودارا فقبض على بيقاروس وأحمد وقطلمش من أمرائه وقتلهم وأرسل رؤوسهم إلى السلطان وكان ذلك في سنة ٧٥٣ وسنة ٧٥٤هـ (سنة ١٣٥٢ سنة ١٣٥٣م).

وكان شيخو أتابك العساكر قد ارتاب بصاحبه طاز فداخل الأمراء بالثورة وتربّص إلى أن خرج طاز إلى البحيرة متصيداً، فركب شيخو إلى القلعة فخلع الملك الصالح وقبض عليه وألزمه بيته، وبايع لحسن الناصر أخيه وأعاده إلى كرسيه بعد أن كان معتقلاً كما مرّ. وكان ذلك سنة ٧٥٥هـ (سنة ١٣٥٤م) فدامت ولاية الصالح ثلاث سنين.

وبعد أن أجلس شيخو الناصر على كرسيه قبض على طاز وبعثه إلى حلب نائباً وعزل أرغون الكاملي فأتى إلى دمشق ثمّ قبض عليه سنة ٨٥٦هـ (سنة ١٣٥٥م) وسيق إلى الاسكندرية فحبس بها وتوفي الشمسي الأحمدي نائب طرابلس فولي مكانه منجك واستبدّ شيخو بالدولة وتصرّف بالأمر والنهي واعتمده الملوك من النواحي شرقاً وغرباً بالمخاطبات، وكان سرغتمش رديفه بالولاية إلى أن وثب يوماً بعض الموالي سنة ٧٥٨هـ (سنة ١٣٥٧م) على شيخو بمجلس السلطان وضربه بالسيف ثلاثاً أصاب بها وجهه ورأسه وذراعيه فحمل إلى مزله وأمر السلطان بقتل المملوك الذي ضربه ثمّ مات شيخو وهو أوّل من سمي بالأمير الكبير بمصر واستقلّ سرغتمش رديفه بتدبير مهام المملكة وقبض على طاز بحلب وحبسه بالاسكندرية وولّى مكانه الأمير علياً المارداني نقله من دمشق وولى مكانه بدمشق منجك اليوسفي ثمّ قبض على سرغتمش سنة ٧٥٩هـ (سنة ١٣٥٨م) وعلى جماعة من الأمراء وحبسهم بالاسكندرية ثمّ قتلهم واستبدّ السلطان بملكه.

وجعل السلطان مملوكه بيبقا (كذا سماه ابن خلدون وسماه غيره يلبغا) أمير

ألف وأقام في الحجابة الجاي اليوسفي، ثمّ بعثه إلى دمشق نائباً واستقدم منجك نائب دمشق فاستتر واختفى وكان هذا السلطان يأنس بالعلماء والقضاة ويجمعهم في داره مبتذلاً ويفاوضهم في مسائل العلم ويصلهم ويحسن إليهم إلى أن ثار عليه يبيقا الذي أكثر من إحسانه إليه وهو في خيامه خارجاً عن داره فانهزم السلطان منه ليلاً وتسرّب في المدينة واختفى وركب الأمراء لمدافعة يبيقا فالتقاهم ببولاق وهزمهم مرات وتقبض على السلطان، وكان آخر العهد به وانتهى به ملك أبناء السلطان الناصر الثمانية سنة ٧٦٢هـ (سنة ١٣٦٠م). انتهى ملخصاً عن ابن خلدون في الجزء ٥، وعن تاريخ الدول لعبد الحارث الشريف الشافعي نقلاً عمّا رواه المطران أسطفان عواد السمعاني عن كتابه فهرست المكتبة المديشية.

عد ٩٠١

بعض أحداث غير ما ذكر في أيّام هؤلاء الملوك

روى البطريرك أسطفانوس الدويهي عن ابن سباط أنّه في سنة ١٣٤٥م أجفل الناس في السواحل لأنّه بلغهم أنّ ملك قبرص سيحمل على بيروت وما جاورها فأرسل يلبغا نائب السلطنة بدمشق بيدمر الخوارزمي وأمر ببناء شوانٍ ومراكب وأنّ أمراء الغرب وتركمان كسروان يسكنون في بيروت مع العساكر الشامية ويحتاطون ليلاً ونهاراً لئلا يباغتهم العدو.

وفي سنة ١٣٤٨ كان طاعون شديد الوطأة عمّ البلاد الحلبية والشامية ولم يعهد ببلاد الشام مثله، حتى روى صلاح الدين الصفدي أنّهم صلّوا أحياناً بدمشق على مئتين وثلاث وستين جنازة، وانقرض سكان بعض الضياع وكانت شدّة وطأة الطاعون من غلاء ثمن المؤن، ولكثرة عدد الموتى رخصت الأسعار وثارت أرياح شديدة وهطلت أمطار غزيرة فاستبشر الناس بزوال الوباء لكنّه لم يزل بل ازداد حتى صلّي بدمشق على مئة وثلاثين ميت في يوم واحد.

وروى الدويهي عن ابن سباط أيضاً أنّه في سنة ١٣٥٥م قصدت مراكب بعض الفرنج صيدا وقتلوا جماعة من أهلها وأسروا جماعة وقتل أيضاً خلق كثير من الفرنج وكسر مركب من مراكبهم، ووصل الصراخ إلى دمشق، فاجتمعت العساكر

من دمشق وصفد وبادروا إلى افكاك الأسرى، وأخذوا من ديوان الأسرى مبلغ ثلاثين ألف درهم وأعطوا الفرنج على كل رأس خمس مئة درهم.

وقد روى صالح بن يحيى هذا الخبر في كتابه تاريخ بيروت الذي نشرته مجلة «المشرق» بأكثر تفصيل. فقال جاز على بيروت تعميرة (يريد عمارة أو أسطول) للافرنج ولم يتعرّضوا لها بل توجّهوا إلى صيدا وأخذوها وقتلوا من أهلها جماعة وأسروا جماعة ونهبوا منها شيئاً كثيراً، وكذلك المسلمون فانّهم قتلوا من الفرنج جماعة وبعثوا برؤوسهم إلى دمشق فعلّقوها على القلعة وكانت بعضاً وثلاثين رأساً. وحضر إلى صيدا الأمير شهاب الدين بن صبح نائب صفد وسبق العسكر الثامن ولحق التعميرة على جزيرة صيدا بعد فوات الأمر فاشترى الأسرى جميعهم كل نفر بخمس مئة درهم وأخذ من ديوان الأسرى ثلاثين ألف درهم».

عد ٩٠٢

الملك المنصور والملك الأشرف وما كان في أيّامهما

بعد وفاة الملك الناصر نصب بيبقا نائب السلطنة المذكور محمّد ابن المظفر ولقّبه الملك المنصور، وقام بكفالته وتدبير دولته وجعل طنبغا الطويل رديفه، وأفرج عن طاز الذي كان معتقلاً كما مرّ لكنّه كان قد عمي فبعثه إلى القدس بسؤاله ثمّ إلى دمشق ومات فيها، وولى عرب الشام جبار بن مهنا وأمسك جماعة من الأمراء وحبسهم.

ولمّا اتّصل بالشام ما فعله بيبقا وانّه استبدّ بالدولة وكان أستدمر نائباً بدمشق امتعض لذلك وعول على الإنتقاض ووافقه عليه بعض أصحابه، فاستولى على قلعة دمشق وخبر بيبقا بذلك فسار في العساكر من مصر ومعه السلطان المنصور ووصلا إلى دمشق، فاعتصم المخالفون بالقلعة وتردّدت بينهم القضاة بالشام حتى نزلوا من القلعة على الأمان بعد أن حلف لهم بيبقا، فلما نزلوا بعث بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها وولى الأمير المارداني نائباً بدمشق وقطلوبغا الأحمدي نائباً بحلب وعاد السلطان وبيبقا إلى مصر.

وبدا لبيبقا استرابة في الملك المنصور فخلعه سنة ٧٦٤هـ (سنة ١٣٦٢م)

ونصب مكانه شعبان ابن الناصر حسن وكان عمره عشر سنين ولقّبه الملك الأشرف وتولّى كفالته. وفي سنة ٧٦٥هـ (سنة ١٣٦٣م) عزل المارداني من دمشق وولى مكانه منكلي بغا نقله من حلب إلى دمشق وولى مكانه بحلب قطلوبغا الأحمدي، فتوفي قطلوبغا المذكور فولى مكانه غشقتمر المارداني ثمّ عزله سنة ٧٦٦هـ (سنة ١٣٦٤م) وولى مكانه سيف الدين فرجي.

وفي سنة ٧٦٧هـ (سنة ١٣٦٥م) قصد ملك قبرص الاسكندرية في أسطول عظيم يقال بلغ سبعين مركباً مشحونة بالعدّة والعدد وأنزل عسكره إلى البر وزحفوا إلى المدينة وحاميتها قليلة حينئذٍ وأسوارها خالية من الرماة ونائبها غائب ووصل الفرنج إلى الباب فأحرقوه واقتحموا المدينة، فاضطرب أهلها وماج بعضهم في بعض وأجفلوا إلى جهة البر بما أمكنهم من عيالهم وولدهم وما اقتدروا عليه من أموالهم. وشعر بهم الأعراب أهل الضاحية فاختطفوا الكثير منهم وتوغّل الفرنج في المدينة فنهبوها وملأوا سفنهم من المال والمتاع والبضائع وسبوا وأسروا كثيرين، وكثر إليهم الصراخ من العرب وغيرهم فانكفأوا إلى أساطيلهم وأقلعوا من الغد. وطار الخبر إلى كافل الدولة يبيقا فخرج لوقته بسلطانه وعساكره ومعهم ابن عوام نائب الاسكندرية فبلغهم الخبر في طريقهم باقلاع العدو فلم يثنهم ذلك عن المسير إلى الإسكندرية. وشاهد يبيقا ما وقع بها من معرّة الخراب وآثار الفساد وقد امتلأت جوانحه غيظاً وحنقاً على أهل قبرص، فأمر بإنشاء مئة مركب واعتزم على غزو قبرص بعساكر المسلمين، واحتفل في الاستعداد لذلك واستكثر من السلاح وآلات الحصار، فكمل ذلك فلم يقدر على إتمام غرضه من الجهاد لما وقع من العوائق كما سيجيء. هذا ملخّص ما رواه ابن خلدون.

وجاء في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى أنّ إنشاء هذه المراكب كان في بيروت وإليك ما جاء في هذا الكتاب: «وفي يوم الجمعة ١٣ من محرم سنة ٧٦٧هـ (سنة ١٣٦٥م) أخذت الإسكندرية وكان الأمير الكبير يلبغا (هو الذي يسميه ابن خلدون يبيقا) العمري المتكلّم عن السلطان لحداثة سنه، فرسم للأمير بيدمر الخوارزمي بالتوجّه إلى بيروت ليعمر من غاباتها مراكب كثيرة حمالات وشواني للدخول إلى قبرص، فحضر إلى بيروت وأحضر صناعاً كثيرين من سائر الممالك فكانوا جمعاً غفيراً. وقيل إنّه لم يعهد قط عمار مثلها عظماً وسرعة وكثرة صنّاع وقوّة عزم، وعمر بيدمر بظاهر بيروت مسطبة وعرفت به إلى الآن، وكانت

المراكب تعمل بها على بعد من البحر وحضر عسكر الشام متجرداً فنازلوه بين البحر والمراكب حذراً من أنّ مراكب قبرص تحضر على حين غفلة فيحرقوا ما يعمل من المراكب. وكان نائب الشام في ذلك الوقت اقستمر عبد الغني، ولمّا توفّي يلبغا العمري في ليلة الأحد ١٠ من ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ (سنة ١٣٦٦م) أبطلت العمارة المذكورة ولم ينزل من المراكب إلى البحر سوى حاملتين كبيرتين... وكان الأمير بيدمر قد استعجل القوم على عمارتها ليجهزها فتحضرا صواري ومقاذيف لباقي الشواني التي يعمّرونها، ثمّ بقيتا بعد ذلك في ساحة بيروت حتى تلفتا، وكذلك تلفت باقي الشواني التي لم تنزل في البحر، وكان قد صرف عليها مالاً جزيلاً فذهب سدىً لم يستفد منها سوى الحديد بعد أخذ الناس منه شيئاً كثيراً».

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في هذه الأحداث. روى ميشود في تاريخ الصليبيين (عدد ٥ صفحة ٢٥٣) إنّ بطرس لوسينيان ملك قبرص سار إلى المغرب يستصرخ النصارى لاسترداد الأرض المقدَّسة فلبّى دعوته بعض المتبطلين المتعطّلين وساعدته جمهورية البندقية لما ترجوه من رواج تجارتها في المشرق، وعاونه بعض فرسان رودس. وبعد عوده إلى قبرص سار منها في عسكر يبلغ عشرة آلاف رجل إلى الإسكندرية وكانت حاميتها قليلة فاستولوا عليها ورغب ملك قبرص في أن يحصّنها ويعتصم بها منتظراً وفود عسكر مصر لقاتله أمّا جنوده وأعوانه فآثروا أن ينهبوا هذه المدينة الثرية فنهبوها، وخافوا أن يهاجمهم بها عسكر مصر فأحرقوها وارتحلوا عنها في اليوم الرابع بعد استيلائهم عليها فحنق المسلمون من ذلك شديد الحنق وأذاقوا النصارى بمصر مر العذاب والاضطهاد. أمّا الفرنج المذكورون فاحتلّوا بعد مدّة سواحل سورية فاستحوزوا على طرابلس التي كانت قد جددت بعد خرابها وأحرقوها وكذلك صنعوا بطرطوس واللاذقية وغيرهما من مدن فينيقية فلم يكن نفعٌ من هذه الحملة سوى إثارة حنق المسلمين على النصارى.

ولما كان الملك الأشرف يخشى غير الفرنج من الأعداء لم تكن له مراكب تعادل مراكبهم فهادنهم على الشروط الآتية أوّلها أن يخلي سبيل الأسرى من الفريقين، والثاني أن يكون لملك قبرص نصف الدخل من المكوس المضروبة على ما يدخل إلى صور وبيروت وأورشليم والاسكندرية ودمشق، والثالث أن يباح للنصارى الفرنج الحج إلى أورشليم وجرى الإتّفاق على ضريبة يؤديها الزائرون، وردّ السلطان على فرسان القديس يوحنا الدار التي كانت لهم في أورشليم ورخص للنصارى أن

يجدّدوا بناء كنيسة القبر المقدّس وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة وغيرها، على أنّ ملك قبرص والفرنج لم يتمتّعوا زماناً طويلاً بما وافقهم سلطان مصر وسورية عليه لأنّه بعد أن تفرّق جنود هذه الحملة أخلف وعده ولم يشأ أن يعمل بشيءٍ مما جرى الإتّفاق عليه.

وفي سنة ٧٦٨هـ (سنة ١٣٦٦م) كان استبداد يبيقا على السلطان قد طال وثقلت وطأته على الأمراء وأهل الدولة وخصوصاً على مماليكه وأرهف حدّه في التأديب لهم حتى بجدع الأنوف واصطلام الآذان وكان كبير خواصه أستدمر وأوقع في بعض الأيّام مثل هذه العقوبة بأخي أستدمر فاستوحش له وداخل سائر الأمراء في الثورة على يبيقا وكاشفوا السلطان في ذلك، فسرّح يبيقا إلى البحيرة وأخذ الأمراء يتشاورون في نكبته، فنمى الخبر إليه فعاد إلى القاهرة وجمع من كان بها من الأمراء والحجّاب فخلع الأشرف ونصب أخاه توك ولقبه الملك المنصور واستعدّ للحرب. وكان السلطان غائباً عن دار ملكه وأراد العود إليها فالتقاه يبيقا وأصحابه يرشقونه ومن معه بالسهام ويرسلون عليهم الحجارة من المجانيق فاجتمعت العساكر على السلطان وهاجموا الخونة فانتفض أصحاب يبيقا عنه وتركوه أوحش من وتد في قلاع، فولى منهزماً إلى بيته فاستحضره السلطان وحبسه بالقلعة ثمّ ضربه بعضهم وهو مقبل للتضرّع فقطع رأسه. وقام بالدولة أستدمر الناصري ورديفه يبيقا الأحمدي وغيرهما من الأمراء وأبدوا الاستهتار بالسلطان والرعية ونادوا بخلع السلطان فركب في مماليكه وبعض الجند والعامة فهزم هؤلاء المنتقضين وجيء بأستدمر أسيراً وشفع به الأمراء فأطلقه السلطان باقياً على أتابكيته ثمّ استأنفوا الانتقاض فركب إليهم السلطان والأمراء فهزمهم وقتل كثيرين منهم وأرسل بعضهم إلى الحبس بالاسكندرية، واستبدّ السلطان بأمره واستدعى سنكلي بغا من حلب وجعله أتابكاً واستأتى الأمير علي الماردانى من دمشق وولاه النيابة وكان ذلك سنة ٧٦٩هـ (سنة ١٣٦٧م).

وفي سنة ٧٧٤هـ (سنة ١٣٧٢م) توفي سنكلي بغا الأتابك وكان الجائي اليوسفي أمير سلاح عند السلطان فجعله أتابكاً أيضاً فأسخط السلطان وغمط نعمته وانتقض فلاطفه السلطان فبطر، فأرسل إليه مماليكه وأذنهم بقتاله فقاتلوه وانهزم أمامهم حتّى غرق في البحر. واستدعى السلطان أيدمر القري وكان نائباً بطرابلس فولاه أتابكا مكان الجائي المذكور، ورفع رتبته، وولى في نيابة السلطنة منجك

اليوسفي نائب السلطنة الأشرف في دولته على أكمل حالات الاستبداد، واذعان الناس لطاعته وأراد قضاء فرض الحج فخرج إليه سنة ٧٧٨ (سنة ١٣٧٦م) وانتهوا إلى عقبة أيله فانتقض عليه بعض مماليك بيبقا الذين كان قد ردّهم إلى خدمة الدولة وجاهروا بالخلاف، فركب السلطان في خاصّته يظنّ أنّهم يرعوون أو يجنح إليه بعضهم فأبوا إلّا قتاله ولمّا عاينوه نضحوا موكبه بالنيل فرجع إلى خيامه منهزماً وركب البحر في لفيف من خواصّه قاصداً العود إلى القاهرة وكان عند سفره عنها استخلف ابنه علياً ولي العهد وأوصى نائبه أكتمر عبد النبي بالانتهاء إلى مراسيمه وترك جماعة من الأمراء والمماليك في وظائفهم وكان منهم قرطاي الطازي كفيل ولي العهد وأيبك البدري، فسولت لقرطاي نفسه الانتقاض، وداخل بعض الأمراء به وحضر بجم غفير إلى القلعة فحمل الأمير علي ابن الأشرف وولى عهده وبايعه واستدعى الأمراء القائمين بالقاهرة فبايعوه وأخذ هو كفالة السلطان وجعل أيبك المذكور رديفاً له.

وأمّا السلطان فعرف في طريقه بواقعة القاهرة وما فعله قرطاي فأشار بعضهم عليه بقصد الشام وآخرون بالوصول إلى القاهرة فساروا إليها وانتهوا إلى قبة النصر ليلاً وغشيهم النعاس، فناموا وانفرد السلطان عنهم واختفى، وعرف بهم أهل الثورة فوثبوا عليهم وقتلوهم، وجاءت امرأة إلى أيبك فدلّته على السلطان في بيت جارتها فاستخرجوه من ذلك البيت ودفعوه إلى أيبك فامتحنه حتى دلّهم على الخزينة وقتلوه خنقاً سنة ١٣٧٦. وكان بويع سنة ١٣٦٢ فتكون مدّة ملكه أربع عشر سن (انتهى ملخصاً عن ابن خلدون وغيره).

عد ٩٠٣

المنصور بن الأشرف وأخوه الصالح وما كان في أيّامهما

فبعد مبايعة الأمير علي ابن السلطان الأشرف والده لقّبوه بالملك المنصور وقام بالدولة قرطاي الطازي وقسم الوظائف كما شاء وكان أيبك البدري الغزي المذكور رديفاً لقرطاي في حمل الدولة من أوّل ثورتهم وكان يعرف من قرطاي عكوفه على لذاته فعمل قرطاي ضيافة في بيته سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) وجمع إليها ندماءه فأهدى إليه أيبك نبيذاً اذيب فيه بعض المرقدات فباتوا يتعاطونه حتى غلبهم

السكر ولم يفيقوا فركب أيبك من ليلته وأركب السلطان المنصور معه واختار الأمر لنفسه، واجتمع الناس عليه وفاق قرطاي، ورأى اجتماع الناس على أيبك فأرسل إليه يستأمنه فأمنه أيبك ثمّ قبض عليه فسيّره إلى صفد واستبدّ بالدولة.

ثمّ انتقض طشتمر بالشام ووافقه على الانتقاض كثيرون من الأمراء فنادى أيبك في الناس بالمسير إلى الشام فتجهزوا، وسرح مقدّمتهم مع ابنه أحمد وأخيه قطلوفجا ثمّ خرج هو بالساقة مع السلطان والأمراء والعساكر فثار الأمراء الذين كانوا في المقدّمة مع أخيه فرجع إليه منهزماً. فاجفل أيبك راجعاً إلى القلعة ومعه السلطان والعساكر فخرج إليه ساعة وصوله جماعة من الأمراء فسرح إليهم العساكر مع أخيه فأوقعوا به وقبضوا عليه، فسرح أيبك إليهم من بقي معه من الأمراء، ولما توارو عنه فرّ هارباً متخفياً ثمّ ظهر من الاختفاء، وجاء إلى بلاط أحد الأمراء فبعثوا به إلى الاسكندرية فحبس بها. وأقام الأمراء يبيقا الناطري مكانه لكنّهم لم يمضوا له الطاعة وبقي أمرهم مضطرباً وآراؤهم مختلفة، فاستدعوا طشتمر من الشام ووضعوا زمام الدولة في يده، فصار إليه التولية والعزل والحل والعقد، ثمّ انتقضوا عليه واستدعوه إلى القلعة فقبضوا عليه وعلى جماعة من أصحابه وبعثوا بهم إلى الاسكندرية. وقام بالدولة من بعده الأميران برقوق وبركة ثمّ وقع الخلاف بينهما وتغلّب برقوق على بركة وبعثه إلى الاسكندرية فحبس بها، ثمّ قتل واستبدّ برقوق بالأمر أما السلطان علي بن الأشرف فكانوا قد أجلسوه على سرير السلطنة وعمره اثنتا عشرة سنة وكان نواب السلطنة يتداولون الأمر من دولة إلى دولة كما رأيت إلى أن توفي السلطان في صفر سنة ٧٨٣هـ (سنة ١٣٨١م) بعد خمس سنين من ولايته.

لمّا توفّي الملك المنصور استدعى برقوق نائب السلطنة الأمراء واتّفقوا على نصب أخيه الأمير حاج ولقّبوه الملك الصالح وقلّده الخليفة على العادة، وجعل برقوق كافله في الولاية لصغره عن القيام بهذه العهدة، وأفتى العلماء بذلك وجعلوه من مضمون البيعة. فولى برقوق كثيرين من الأمراء أصحاب يبيقا الذين كانوا أنصاره لأنّه منهم فطمعوا في الاستبداد وظفروا بلذّة الملك والسلطان ووقعوا في ظل الدولة والأمان، وسمت أحوالهم إلى أن يستقل أميرهم بالدولة ويستبدّ بها. وأنس برقوق الرعية بحسن سياسته وجميل سيرته فامتعض جماعة من الأمراء المختصّين بالسلطان وتفاوضوا في الغدر به ونما الخبر إلى برقوق بذلك فقبض عليهم وغرب بعضهم إلى دمشق وبعضهم إلى قوص فاعتقلوا بها حتّى أنفذ الله فيهم حكمه. وتفاوض غيرهم

من الأمراء في قيام برقوق بأمرهم مستقلاً، فجمعهم لذلك في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤هـ (سنة ١٣٨٢م) فحضر الخاصّة والعامّة من الجند والقضاة والعلماء وأرباب الشورى والفتيا وأجمعوا على بيعة برقوق وعزل السلطان الصالح. وبعث برقوق أميرين من الأمراء فأدخلا السلطان بيته وتناولا السيف من يده وأحضراه إلى برقوق، فلبس شعار السلطنة وخلعة الخلافة ودخل إلى القصور السلطانية، وجلس على التخت وأتاه الناس ببيعتهم ولقّب الملك الظاهر وقرعت الطبول وانتشرت البشائر وخلع على أمراء الدولة وانتظمت الدولة وسرّ الناس بدخولهم في ايالة هذا السلطان (انتهى ملخّصاً عن تاريخ ابن خلدون).

فكان الملك الصالح آخر ملوك دولة المماليك البحرية وأصلهم من الأتراك خدموا الملوك الأيوبيين ثمّ خلفوهم في الملك ويسمون المماليك البحرية نسبة إلى البحر ويريدون به النيل، أو لأنّهم أتوا من البحر. ويسمون أيضاً المماليك البرجية نسبة إلى أبراج كانوا يسكنونها وابتدأ ملكهم بمصر سنة ١٢٥٥ بالملك المقر أيبك الذي قتل الملك الأشرف الأيوبي وابتداء ملكهم بسورية ومصر معاً سنة ١٢٦٢ بالملك الظاهر بيبرس البندقداري الذي قتل قطز ملك مصر من هؤلاء المماليك واستبدّ بالملك بمصر وسورية معاً كما رأيت. وقد انقرضت دولتهم سنة ١٣٨٢ بخلع الملك الصالح وتمليك برقوق الذي كان أوّل الملوك من المماليك الجراكسة الذين تولّوا مصر وسورية فتكون مدّة الملوك من المماليك البحرية مذ تولّوا مصر سنة ١٢٥٥م إلى انقراض دولتهم سنة ١٣٨٢ مئة وسبعاً وعشرين سنة شمسية وعدّة ملوكهم خمسة وعشرون ملكاً.

عد ٩٠٤

دولة المماليك الجراكسة وأوّلهم الملك الظاهر برقوق

إنّ أصل هؤلاء المماليك من الجركس وهم قبيلة مواطنها في نواحي قوه قاف وهم من الترك، ويقال إنّ جبلة بن الايهم الغساني لما ارتحل في صدر الإسلام إلى ملك الروم مع جماعة من قومه خالطوا الجركس بالنسب والصهر واندرجوا فيهم، أمّا برقوق فهو مملوك منهم ملكه يبيقا المذكور لما كان ضابطاً زمام الملك وربي في أطباق بيته وتعلّم آداب الملك وأتقن الرماية والثقافة، ولما نكب مماليك يبيقا سجن

برقوق في الكرك خمس سنين مع بعض أصحابه ولمّا خلي سبيلهم انطلقوا إلى الشام واستخلصهم الأمير منجك نائب الشام يومئذٍ وألقى محبّته وعنايته على الأمير برقوق لما رأى عليه من علامات القبول والسعادة، ثمّ استدعاه الملك الأشرف واستضافه لولده الأمير علي. ولمّا ثار الجائي على السلطان الأشرف دفعهُ برقوق وأصحابه حتى غرقوه فاختصّ الأشرف برقوق وبركة من أصحابه بإحسانه ورفع مكانتهما إلى أن ألقى الأمراء زمام الملك إليهما، ثمّ استبدّ برقوق وحده بالملك وخلع الملك الصالح وجلس على تخته كما مرّ بك فكان برقوق أوّل الملوك من دولة المماليك الجراكسة.

ومن أعماله حبسه بيبقا الناصري الذي قدّمنا أنّه كان كافلاً الدولة بعد أيبك ثمّ استبدلوه بطشتمر نائب السلطان بالشام وولوه على حلب، فهذا كان من عشراء برقوق ورفقائه في تقلّب الأحوال عليه وكان لما له من الدالة عليه يتوقف عن إنفاذ أوامره ويعدل عنه إلى ما يراه للمصلحة والسلطان ينكر عليه ذلك ويحقده عليه ثمّ خرج بيبقا من حلب بالعساكر إلى التركمان آخر سنة ٧٨٥هـ (سنة ١٣٨٣م) دون إذن السلطان فانهزم وأحقد السلطان عليه هذه أيضاً. فاستقدمه سنة ٧٨٧هـ (سنة ١٣٨٥م) وقبض عليه وأرسله إلى الحبس بالاسكندرية وولى مكانه بحلب الحاجب سودون المظفر، وكذلك أبعد السلطان الطنبغا الجوباني إلى الكرك ثمّ ولاه على الشام وكان الطنبغا هذا من أنصار السلطان وكان معتقلاً معه بالكرك أيّام النحوسة ثمّ نصبه أيّام السعادة أمير مجلسه أي صاحب الشورى بالدولة وهو ثاني الأتابك، ثمّ دبّت عقارب الحسد بينهما وارتاب السلطان به فقبض عليه وأودعه إحدى حجر القصر يوماً ثمّ أقصاه إلى الكرك وتنازعته عواطف الرحمة والوفاء فجعله نائباً بالكرك. وكان بندمر (ويروى بيدمر بالياء مكان النون) الخوارزمي نائباً بدمشق فسخط السلطان عليه وولى الطنبغا مكانه سنة ٧٨٧هـ (سنة ١٣٨٥م) وكان للطنبغا مماليك أوغاد قد أبطرتهم النعمة واستهواهم الجاه وشرهوا إلى الاضرار بالناس وهو يزجرهم فكادوا عليه حتى قبض السلطان عليه وأرسله إلى الاسكندرية فسجن بها سنة ٧٩٠هـ (سنة ١٣٨٨م) وولى مكانه بدمشق طرنطاي الحاجب.

وروى صالح بن يحيى في تاريخ بيروت ما ملخّصه أنّه في سنة ٧٨٤هـ (سنة ١٣٨٢م) حضر أسطول من جنوا إلى صيدا فأخذوها وجاءوا إلى بيروت وبلغ الخبر في ذلك إلى دمشق فأرسل أمير الأمراء بيدمر نائب السلطنة بدمشق العساكر

الشامية إلى بيروت فلم يتعرّض أصحاب الأسطول للنزول إلى البر وساروا إلى جهة قبرص والماغوصة، ولما رجع العسكر إلى دمشق عاد الجنويون إلى بيروت في اثني عشر غراباً كبيراً ودخلوا المينا، وكان فيها قرقورتان (اسم لنوع من السفن) للبنادقة فأخذوهما وشحنوهما بالرجال حتى تمكّن الرماة منهم من الرمي على برج بيروت الصغير البعلبكي، ولم يكن في ذلك الحين بني البرج الكبير وكان مكانه خرائب قديمة، فرمى الفرنج المسلمين فتنحّى المسلمون من قبالتهم واستتروا بالحيطان فتقدّمت شواني العدو إلى البر ما بين البرج والخرائب التي كانت مكان البرج الكبير، ونصبوا صقائلهم من الشواني إلى البر ونزل منهم شرذمة كبيرة وعليهم مقدّم من كبارهم وبيده سنجق وصعدوا إلى جهة الخرائب لينصبوا السنجق على علوة إشارة إلى أنّهم ملكوا البلد وشرعوا ينزلون من الشواني شرذمة بعد شرذمة، فهجمت فرقة من المسلمين على الذين معهم السنجق فقهروهم ورموا السنجق، فلما رأى الفرنج وقوع السنجق وقف عزمهم وقويت قلوب المسلمين وحمل منهم أصحاب النخوة على الفرنج، فانهزم منهم من كان نزل إلى البر وازدحموا على الصقائل، فانقلب بعضها بهم فغرق منهم جماعة وقتل جماعة وانكسروا شر كسرة وقتل من المسلمين نفر وجرح جماعة، وكانوا اكتشفوا الأسطول عشية يوم وصوله فأشعلوا النار ليلاً إشارة إلى وصول الفرنج إلى بيروت، فوصل الخبر تلك الليلة تدريجاً إلى دمشق فحضر بيدمر نائب الشام إلى بيروت عشيّة يوم الواقعة وتبعته عساكر الشام فكان وصولهم بعد فوات الأمر ولم يروا غير الشواني في البحر على بعد وهي راجعة إلى بلادهم. انتهى.

وكان السلطان برقوق قد ولى أحمد منطاش من موالي الملك الناصر محمّد بن قلاوون على ملطية فاستبدّ بالسلطنة عليها وبدت منه علامات الانتقاض على السلطان، ثمّ عاد يتنصّل منه ويبرئ ساحته من الخلاف وشفع به بعض أصحابه، فأبقاه السلطان في عمله لكنّه لم يزل ناوياً على الخلاف وداخل بعض الأمراء التركمان في ذلك وأرسل صاحب سيواس قاعدة بلاد الروم وسار إليها، وكان ملك سيواس صبياً يقوم بكفالته قاضٍ عنده فقبض على منطاش وحبسه تزلفاً إلى السلطان، وأرسل السلطان سنة ٧٨٩هـ (سنة ١٣٨٧م) عساكره إلى جهة سيواس واقتحموا تخومها على حين غفلة فبادر القاضي إلى إطلاق منطاش لوقته لأنّ منطاش كان حمله على الرجوع عن موالاة السلطان وسار منطاش إلى أحياء التتر

واستجاشهم على عسكر السلطان وأتي بهم إلى سيواس وعسكر السلطان محاصر لها فلم يقوَ عسكر السلطان على فتحها بل ملّوا وضجروا وعادوا عنها إلى بلاد الشام وبقي منطاش بأحياء التتر إلى أن انتقض الناصري بحلب على السلطان ودعا منطاش إليه فلبى دعوته وناصره في الانتقاض كما ترى في الفصل الآتي. انتهى ملخصاً عن تاريخ ابن خلدون وغيره.

عد ٩٠٥

انتقاض الناصري واستيلاؤه على الشام ومصر واعتقال السلطان برقوق بالكرك

قد مرّ أنّ السلطان كان قد سخط على بيبقا الناصري وسجنه بالاسكندرية ثمّ أفرج عنه فسار إلى حلب، ولما عاد العسكر عن سيواس داخل الناصري بعض أمرائه بالانتقاض على السلطان، وبلغ ذلك إلى السلطان فاعتقل هؤلاء الأمراء فاستراب الناصري واضطرب وشرع في اسباب الانتقاض، وعاد إليه سماسرة الفتن من الأمراء وغيرهم فأطاعوه وافتتح أمره بالانحراف عن الأمير سودون المظفري الذي كان السلطان قد ولاه على جلب مكان الناصري، وتفاقم الأمر بينهما فأرسل السلطان من يصلح بينهما ويسكن الثائرة وبينا كان موفد السلطان قد جمع الناصري والمظفري للصلح بينهما وثب قوم على المظفري الوالي وفتكوا به، واجتمع الأمراء على الناصري واعصوصبوا عليه ودعاهم إلى خلع الطاعة فأجابوه إلى ذلك سنة ٧٩١هـ (سنة ١٣٨٩م). واتّصل الخبر بطرابلس وبها جماعة من الأمراء يرومون الانتقاض فعمدوا إلى الايوان السلطاني وقبضوا على نائب السلطان بها وحبسوه وفعل مثل ذلك أهل حمص وغيرها، فسرّح السلطان العساكر لقتال هؤلاء، وأرسل الناصري من حلب يستدعي منطاش من احياء التتر، فأتاه ومالأه وجمع طوائف التركمان والعرب ونهض في جموعه يريد دمشق ونائبها طرنطاي الحاجب المذكور آنفاً يواصل تعريف السلطان بالأخبار ويستحثّ العساكر من مصر.

ثمّ بلغت عساكر السلطان إلى دمشق واختاروا من القضاة وفداً أوفدوه على الناصري وعلى أصحابه بحلب، فلم يجيبوا وأمسكوا الوفد عنهم وساروا للقاء عساكر السلطان ولجأ أيتمش الأتابك إلى قلعة دمشق فدخلها وذهب عسكره شعاعاً وأخذ كثيرون منهم أسرى، ودخل الناصري وأصحابه دمشق واستولوا عليها

وعاثت عساكرهم في نواحيها وأوعزوا إلى نائب القلعة بحبس أيتمش عنده، وأظهر ابن باكيش بغزة طاعته للأمراء ومرّ به أنيال اليوسفي من أمراء الألوف بدمشق ناجياً من الوقعة فقبض عليه وحبسه بالكرك.

واستعدّ السلطان برقوق للمدافعة وأقام رؤساء لعساكره مكان من خسرهم بدمشق، وأقام الناصري وأصحابه أياماً بدمشق ثمّ عمدوا على المسير إلى مصر، ونهضوا إليها بجموعهم وخفيت أخبارهم حتى أطلت مقدّمتهم على بلبيس ثمّ تقدّموا إلى بركة الحاج وبرز السلطان في مماليكه ووقف أمام القلعة بقية يومه والناس من العساكر والعامّة يتقاطرون إلى الناصري حتى غصّت بهم بسائط البركة واستأمن أكثر الأمراء الذين مع السلطان إلى الناصري فأمنهم وأطلع السلطان على شأنهم، وسارت طائفة من العساكر وناوشوهم القتال وعادوا منهزمين إلى السلطان وارتاب السلطان بأمره وعاين انحلال عقدته فدسّ إلى الناصري بالصلح وبعث إليه بالملاطفة فأشار عليه الناصري بأن يتوارى بشخصه مخافة أن يصيبه أحد بسوءٍ، فلمّا غشيه الليل صرف من بقي من مماليكه وخرج متنكّراً. وباكر الناصري وأصحابه القلعة فاستولوا عليها ودعوا أمير حاج ابن الأشرف المار ذكره فأعادوه إلى التخت كما كان، ولقّبوه المنصور. واستدعوا الجوباني والأمراء المعتقلين بالاسكندرية فأتوا وركب الناصري وأصحابه للقائهم، وأشرك الناصري الجوباني في تدبير الدولة وأخذوا ينادون بطلب السلطان الظاهر حتى دلّ عليه بعض مماليك الجوباني، وجاءوا به إلى القلعة وتشاوروا في أمره. وكان منطاش وغيره يطلبون قتله، وأبى الناصري والجوباني إلّا الوفاء بعهد الناصري له وتردّدوا في مستقره بين أن يكون بالكرك أو قوص أو الاسكندرية وأجمعوا على الكرك. ولمّا دنا وقت مسيره قعد له منطاش عند البحر (أي النيل) ليغتاله فركب الجوباني مع السلطان من القلعة وأركب معه صاحب الكرك في جماعة من قومه يوصلونه إلى الكرك، فنجا السلطان من منطاش ووصل إلى الكرك سالماً في قليل من غلمانه ومواليه ووكل الناصري به حسن الكشكي من خصومه وولاه على الكرك وأوصاه بخدمته ومنعه ممن يريده بسوء.

وأمّا الأمراء الثائرون فجعلوا الجوباني أتابك السلطان المنصور، والناصري رأس النوبة الكبرى أي مدبّر السلطنة، ثمّ بعثوا بذلار نائباً على دمشق وأخرجوه إليها. وبعثوا كمشيقا البيقاوي على حلب وكان السلطان قد عزله من طرابلس واعتقله بدمشق. ولمّا جاء في حملة الناصري بعثه على حلب وقبضوا على جماعة من

الأمراء الذين كانوا مع السلطان برقوق منهم النائب سودون والطرنطاي نائب دمشق، فحبسوا بعضهم بالاسكندرية وبعضهم بالشام وتتبعوا مماليك السلطان برقوق فحبسوا أكثرهم وأشخصوا بقيتهم إلى الشام يستخدمون عند الأمراء وقبضوا على محمود قهرمان الدولة فصادروه على ألف درهم وأودعوه السجن. انتهى ملخصاً عن تاريخ ابن خلدون.

عد ٩٠٦

ثورة منطاش ونكبة الجوباني وحبس الناصري

كان منطاش منذ دخل مع الناصري متربصاً بالدولة طاوياً جوانحه على الغدر برجالها لأنّهم لم يوفروا حظه من الاقطاع ولم يجعلوا له اسماً في الوظائف حين اقتسموها ولا راعى الناصري له حق خدمته ومقارعته الأعداء بل آثر الجوباني عليه وكان مماليك الجوباني لما حبس أميرهم وانتقض الناصري بحلب لحقوا به وبمنطاش وكان منطاش موانساً لهم ومصافياً إياهم فداخل بعضهم في الثورة وأبدى للجوباني المخالصة بغشيان مجلسه وملابسة ندمائه وحضور مائدته، وكان البيبقاوية جميعاً ينضمون على الناصري ويرون أنّه مقصّر في الرواتب والاقطاع فدعاهم منطاش إلى التوثب فكانوا إليه أسرع. ونما الخبر إلى الناصري والجوباني فعزموا على إشخاص منطاش إلى الشام فتمارض وأقام في بيته أياماً يطاولهم ليحكم التدابير عليهم ثمّ عدا على الجوباني وكان قد أكمن في بيته رجلاً للثورة فقبضوا على الجوباني وقتلوه لحينه وركب منطاش إلى الرميلة (محل بالقاهرة) فنهب مراكب الأمراء بباب الاصطبل واجتمع إليه من داخله بالثورة، ومن كان قد بقي من مماليك الملك الظاهر برقوق وركب الأمراء البيبقاوية من بيوتهم ووقفوا ينظرون مآل الحال، وبرز الناصري فيمن حضر وأمر الأمراء بالحملة على أصحاب منطاش فوقفوا ولم يجيبوه إلى ذلك فأحجم الناصري عن الحملة في ذلك النهار.

وفي الغد تزايدت جموع منطاش فاقتحم الناصري فانهزم وانفض أصحابه عنه، فذهب حيراناً وأتى الأمراء البيبقاوية مجلس منطاش فقبض عليهم وبعث بهم إلى الاسكندرية، ثمّ جدّد البيعة لأمير حاج الملك المنصور المذكور وقبض على جماعة من مماليك السلطان الظاهر برقوق وفرّ الباقون واستقلّ بتدبير الدولة ونصب في ظائفها من شاء من أصحابه.

ولمّا بلغ الخبر إلى بذلار بدمشق باستقلال منطاش بالدولة أنف من ذلك وارتاب على نفسه وداخلته الغيرة فعزم على الانتقاض وكاتب نواب الممالك بالشام في حلب وغيرها يدعوهم إلى الوفاق معه فأعرضوا عنه وتمسّكوا بطاعتهم، وكان الأمير الكبير بدمشق جنتمر أخو طاز المذكور قبلاً يداخل الأمراء هناك بالتوثب على بذلار نائب السلطنة بدمشق وبالتوثق منهم للدولة، وبلغ الخبر إلى بذلار فركب في مماليكه وشيعته يروم القبض عليهم فلم يتمكّن من ذلك، واجتمعوا عليه وظاهرهم عامة أهل دمشق فقاتلوه ساعة فأيقن بالانغلاب والهلكة وقبضوا عليه وطيروا بالخبر إلى منطاش، فأمر باعتقاله فاعتقل وهلك مريضاً في محبسه، وولى منطاش جنتمر المذكور نيابة دمشق واستقرّت الأحوال على ذلك.

وكتب منطاش إلى حسن الكشكي نائب الكرك بأن يقتل السلطان برقوق وكان الناصري أوصاه كما مرّ أن يمنعه ممن يريده بسوء فاستشار الكشكي خواصه فأشاروا بالتحرز من قتل السلطان جهد الطاقة، فكتب إلى منطاش معتذراً بالخطر الذي في قتله دون إذن السلطان المنصور والخليفة فأعاد إليه الكتاب مع كتاب من السلطان والخليفة وبالاذن بقتله، واستحثّه على الاجهاز عليه واهلاكه فعلله الكشكي بالوعد وطاوله يرجو التخلّص من ذلك وكانوا يكتمون الأمر عن السلطان برقوق شفقة عليه وإجلالاً له، لكنه شعر بذلك وأخلص بالالتجاء إلى الوهم بما يأتي. انتهى ملخّصاً عن تاريخ ابن خلدون أيضاً.

وروى البطريرك الدويهي في تاريخ سنة ١٣٨٨م أنّه كان قتال بين أمراء الغرب التنوخية وهم من حزب السلطان برقوق وبين تركمان كسروان والأمراء أبناء الأعمى وهم من حزب منطاش مع أرغون نائبه في بيروت فاستظهر التركمان على أمراء المغرب وقتلوا منهم نحو تسعين رجلاً ونهبوا ما وجدوا بدورهم ببيروت وأحرقوا من قراهم عيناب وعين عنوب وشملال وعيتات وغيرها.

عد ٩٠٧

خروج السلطان برقوق من الكرك وظفره بعساكر الشام وحصاره دمشق وعوده إلى كرسيه

لمّا بلغ السلطان برقوق استقلال منطاش بالدولة وحبسه الأمراء البيبقاوية جميعاً

ونصب مكانهم أصحابه اهمه ذلك وخشي غاياته ثمّ شعر أنّ منطاش يروم اغتياله فأرسل غلمانه في الكرك فظفروا برجال داخلوهم في حسن الدفاع عن السلطان فأجابوهم إلى ذلك وتعهّدوا به، واستعدّوا لقتال البريدي الذي كان في قلعة الكرك وكان منزله بازاء السلطان فهجموا عليه وقتلوه ودخلوا برأسه إلى السلطان وشفار سيوفهم دامية. وكان الكشكي نائب السلطنة يفطر على سماط السلطان تأنيساً له فلمّا رآهم دهش وهمّوا بقتله فمنعهم السلطان من ذلك، وملك السلطان القلعة وبايعه النائب المذكور وصعد إليه أهل المدينة وبايعوه، ووفد عليه عرب الضاحية من بني عقبة وغيرهم فأطاعوه. وفشا الخبر في النواحي فتسارع إليه مماليكه من كل جهة وبلغت أخباره إلى منطاش فأوعز إلى ابن باكيش نائب غزّة أن يسير في العساكر إلى الكرك، وتردّد السلطان بين لقائه والنهوض إلى الشام، وعزم على المسير إلى دمشق فسار من الكرك في ألف رجل أو يزيدون من العرب والترك، فسرح جنتمر نائب دمشق العساكر لدفاعه فالتقوا بمحل يسمى شقحب وكانت بينهم وقعة عظيمة أجلت عن هزيمة أهل دمشق وقتل الكثيرون منهم وأتبعهم السلطان إلى دمشق، ثمّ أحسّ بأنّ ابن باكيش وعساكره يتبعونه فكرّ إليهم ليلاً وصبحهم على غفلة فانهزموا ونهبت عساكر السلطان ما معهم واستفحل أمر السلطان ورجع إلى دمشق ونزل بالميدان وأغلق الدمشقيون أبواب المدينة فأقام يحاصرهم إلى محرم سنة ٧٩٢هـ (سنة ١٣٩٠م) كما سيأتي.

وكان كمشيقا الحموي نائب حلب قد أظهر دعوته للسلطان في عمله وكاتبه بذلك عندما نهض من الكرك إلى الشام، ولمّا بلغه حصاره لدمشق تجهز للقائه ووصل إليه بكثير من المال والسلاح والخيل وآلات الحصار، وكان جماعة من الأمراء أصحاب السلطان محبوسين بصفد وكان قوم من مماليكه يستخدمون عند نائب صفد فغدروا به وأطلقوا من كان من الأمراء في السجن ولحقوا بالسلطان. وبلغ الخبر إلى الأمراء المحبوسين بقوص (بالصعيد) فقبضوا على واليها وأخذوا من مودع القاضي ما كان فيه من المال وعزموا أن يسيروا من هناك إلى الكرك ويلحقوا بالسلطان، ولكن تدارك منطاش أمرهم فقبضت عساكره عليهم وأتوا بهم إلى مصر.

وعزم منطاش على المسير إلى الشام فنادى وأخرج السلطان المنصور والخليفة والقضاة والعلماء في آخر سنة ٧٩١هـ (سنة ١٣٨٩م)، ولمّا بلغ خبر مسيرهم إلى السلطان برقوق وهو محاصر دمشق ارتحل في عساكره إلى لقائهم ونزل قريباً من

شقحب، ولمّا تراءى الجمعان كانت بينهما وقعة هائلة أجلت عن استيلاء السلطان برقوق على الملك المنصور والخليفة والقضاة ودخولهم في حكمه وتهزيم منطاش وجموعه ولحوقه بدمشق، ولمّا وصل منطاش إليها أوهم نائبها جنتمر أنّ الظفر له وأنّ الملك المنصور موافٍ على أثره. فركب السلطان برقوق في عساكره من شقحب فهزم منطاش وجمعه وأثخن فيهم ثمّ عاد إلى شقحب وحمل الملك المنصور على التبرؤ من الملك والعجز عنه وأحضر الخليفة والقضاة فشهدوا عليه بالخلع وعلى الخليفة بالتفويض إلى السلطان برقوق والبيعة له والعود إلى كرسيه، وأقام السلطان بشقحب تسعة أيام ورحل إلى مصر وبلغ الخبر إلى منطاش فركب لاتباعه لكنّه لم يجسر أن يناوئه وعاد ألى دمشق.

وكان منطاش قبل مسيره من مصر إلى الشام استخلف على القلعة بكا الأشرفي ووكله بالمعتقلين بها، فهؤلاء المعتقلون عثروا على منفذ إلى سرب تحت الأرض يفضي إلى حائط الإسطبل مقام نائب القاهرة والأتابك ووجدوا في ذلك السرب آلة النقب فنقبوا الحائط وأفضوا إلى أعلى الاسطبل وهجموا على الحرّاس فقتلوهم وهرب الباقون. واجتمع إليهم بعض أصحاب السلطان برقوق الذين كانوا مختبئين ومالأهم بكا وكيل القلعة وهجموا على بيت سراي تمر الذي كان منطاش قد استخلفه بالقاهرة فنهبوا ماله وسلاحه وركبوا خيله واستولوا على الاسطبل وبينا هم على هذه الحال وصل كتاب السلطان بإعداد الميرة والعلوفة في منازل السلطان على العادة، وتتابع الواصلون في عسكر السلطان إلى أن أصبح السلطان يوم الثلاثاء رابع صفر سنة ٧٩٢هـ (سنة ١٣٩٠م) في ساحة القلعة بالقاهرة وقلّده الخليفة الملك وعاد إلى سريره.

ثمّ أفرج السلطان الظاهر عن الأمراء الذين كان منطاش قد حبسهم بالاسكندرية وفيهم الناصري وابن بيبقا الجوباني (ذكر ابن خلدون قبل هذا قتل الجوباني ثمّ ذكره هنا في جملة المحبوسين بالاسكندرية فرأينا أنّ المراد بالمحل الثاني ابنه أي ابن الجوباني فأثبتناه كذلك خلافاً للأصل) وسودون الطرنطاي وغيرهم وولى انيال اليوسفي أتابكاً والناصري أمير سلاح إلى غير ذلك من المراتب والوظائف وانتظم أمر دولته في مصر واستوثق ملكه وصرف نظره إلى الشام وتلافيه من فساد منطاش. انتهى ملخّصاً عن ابن خلدون أيضاً.

عد ٩٠٨

ذكر أحداث أخرى في أيّام السلطان الظاهر إلى مقتل منطاش

بعد أن استقرّ السلطان على كرسيه في القاهرة عيّن ابن بيبقا الجوباني لنيابة دمشق ورئاسة العساكر والناصري لنيابة حلب، وكان قد عاهد كمشيقا نائب حلب على أتابكية مصر، وعيّن قراد مرداش على طرابلس، ومأموناً القلحطاوي على حماه. وسيّر العساكر معهم إلى الشام في ٨ جمادي الأولى سنة ٧٩٢هـ (سنة ١٣٩٠م) وكان منطاش أفرغ جهده في كتم أخبار السلطان عن أمرائه بمصر ولمّا شاعت وفشت انصرف هواهم إلى السلطان، وبعث منطاش الأمير إيما زتمر نائباً على حلب فحاصر كمشيقا نحواً من خمسة أشهر وبعث العساكر إلى طرابلس مع ابن ايماز التركماني فحاصروها وملكوها من يد سندمر حاجبها وكان مستولياً عليها من قبل السلطان الظاهر، ولمّا ملكوها ولي منطاش على قشتمر الأشرفي ثمّ بعث العساكر إلى بعلبك وأوعز إلى قشتمر نائب طرابلس بالمسير إلى حصار صفد فسار إليها فقاتله جنودها وهزموه، فجهز إليها العساكر مع ابقا الصفدي كبير دولته، لكنّ هذا لما تيقن استيلاء السلطان على كرسيه بمصر جنح إلى الطاعة وارتحل من الغد إلى مصر، فأقبل السلطان عليه وجعله من أمراء الألوف فاضطرب منطاش وتبيّن له نكر الناس وارتاب بأصحابه فقبض على جماعة منهم وقتل بعضهم، فاستوحش الناس منه واستأمنوا إلى السلطان، وشرع منطاش في الفتك بالمنتمين إلى السلطان من المحبوسين بقلعة دمشق وذبح جماعة من الجراكسة فسير السلطان العساكر من مصر إلى الشام، ولمّا دخلوا حدودها ارتبك منطاش في أمره واستقرّ به الخوف والهلع والاسترابة بمن معه فخرج هارباً من دمشق في خواصّه ولحق بيعبر أمير العرب آل فضل مستجيراً فأجاروه ونزل معهم.

ولمّا خرج منطاش من دمشق خرج أشمس من محبسه وملك القلعة واعصوصب مماليك السلطان عليه وأرسل إلى ابن الجوباني الخبر فتسارع إلى دمشق وجلس بموضع نيابته، وقبض على من بقي من أصحاب منطاش وخدمه وبلغ خبر فرار منطاش إلى ايماز تمر وهو يحاصر حلب فأجفل ولحق بمنطاش وقتل كمشيقا من أصحابه أكثر من ثماني مئة رجل وبعث ابن الجوباني العساكر إلى طرابلس وملكوها من يد قشتمر الأشرفي الذي كان منطاش قد ولاه عليها وكذلك ملكوا حماه وحمص.

ثمّ بعث ابن الجوباني إلى يعبر أمير العرب آل فضل باسلام منطاش وإخراجه من أحيائهم فامتنع واعتذر فسار الجوباني عليه بالعساكر فكانت بين الفريقين حرب شديدة وحملة العساكر على منطاش والعرب فهزموهم إلى الخيام وانفرد الجوباني عن العساكر فأسره العرب وسيق إلى يعبر أميرهم فقتله، وعاد الناصري بالعساكر إلى دمشق وباكر من الغد آل علي من العرب في أحيائهم فكبسهم وقتل منهم جماعة فثار منهم بما فعلوه في الواقعة من نجدتهم لآل فضل، وولى السلطان الناصري على دمشق مكان ابن الجوباني فقام بأمرها وأحكم التصرّف في حمايتها.

وأمّا منطاش ويعبر أمير العرب فارتحلا إلى حلب فحاصراها وضيّقا عليها وكان نائبها كمشيقا المذكور، ثمّ راجع يعبر نفسه فأرسل كمشيقا في الطاعة للسلطان واعتذر عمّا وقع منه وسأل الأمان وكاشف كمشيقا السلطان بذلك فأجابه إلى سؤاله وشعر منطاش بذلك فارتاب وخادع يعبر بأنّه يريد الإغارة على التركمان وسار معه من العرب سبع مئة فارس، ولمّا دنا من التركمان رجّلهم عن الخيل وأخذها ولحق بالتركمان فصافاهم ونزل بمرعش بلد أميرهم ورجع العرب مشاة إلى يعبر، وسار منطاش إلى عناب من قلاع حلب فملكها واعتصم بالقلعة أياماً فأثخن منطاش في أصحابه وقتل جماعة من أمرائه ثمّ جاءته العساكر من حلب وحماه وصفد فهرب إلى مرعش وسار منها إلى بلاد الروم وفارقه جماعة من أصحابه واضمحلّ أمره حينئذٍ.

ولمّا انتظم أمر حلب أرسل السلطان يستدعي كمشيقا نائبها ليجعله أتابكاً كما كان قد وعده جزاءً لخدماته المذكورة للسلطان وولى مكانه بحلب قراد مرداش نقله إليها من طرابلس وبلغ كمشيقا مصر سنة ٧٩٣هـ (سنة ١٣٩١م) فاهتزّ السلطان وأركب الأمراء للقائه وبالغ في تكرمته ورفع مجلسه فوق الأتابك واستقرّ بمصر في أعلى مراتب الدولة.

واستمرّ منطاش شريداً إلى منتصف سنة ٧٩٣هـ (سنة ١٣٩١م) ثمّ قصد دمشق ويقال إنّ الناصري أغراه بذلك خدعة ليقبض عليه فسار منطاش من مرعش ولمّا بلغ خبره إلى حماه هرب نائبها إلى طرابلس فدخل منطاش حماه ونادى فيها بالأمان، ثمّ سار منها إلى حمص ثمّ إلى بعلبك وهرب نائبها إلى دمشق فخرج إليه الناصري نائب دمشق في العساكر على طريق الزبداني، وسار منطاش بطريق آخر

ونزل بالقصر الأبلق وشرع في مصادرة الناس والفريضة عليهم، وإذا بالناصري قد عاد في عساكره فاقتتلوا عشية ذلك اليوم وبقي القتال متصلاً بينهما سائر رجب وشعبان وبلغ الخبر إلى السلطان فارتاب بالناصري واتّهمه بالمداهنة وتجهّز لقصد الشام وقتل أهل الخلاف من الأمراء المحبوسين وأرسل غيرهم إلى الاسكندرية ودمياط واستخلف بالقاهرة كمشيقا الحموي الأتابك المذكور، ولمّا علم منطاش بمسيرة السلطان من مصر هرب من دمشق وخرج الناصري من الغد في اتباع منطاش فهزمه ووصل السلطان إلى دمشق فأكرم الناصري وجامله ووفد إليه آل مهنا وآل عيسى من العرب في طاعة السلطان والمظاهرة له على منطاش ويعبر فأكرم وفادتهم وسار إلى حلب فأتاه الخبر بأنّ منطاش فارق يعبر ومرّ ببلاد ماردين فواقعته عساكر هناك وقبضوا على جماعة من أصحابه وخلص هو من الواقعة وأتى إلى أحد أمراء التركمان يسمى سالم فقبض عليه وأرسل إلى السلطان يطالعه بشأنه ويطلب بعض أمرائه ليسلمه إليهم فأرسل السلطان قراد مرداش نائب حلب واتبعه بالناصري فوصل قراد مرداش إلى سالم وبقي أربعة أيّام يطالبه بمنطاش وهو يماطله فوثب قراد مردش عليه ونهب احياءه وفتك بقومه فهرب سالم ومنطاش إلى سنجار ثمّ وصل الناصري وأنكر على قراد مرداش ما أتاه وتنازعا ورجعا إلى السلطان في العساكر صفري اليدين وكتب سالم إلى السلطان يعتذر ويقول إنّ الناصري كتب له وأمره بالمحافظة على منطاش فسخط السلطان على الناصري وأمر بقتله وولى على دمشق مكانه بطا الدوادار وارتحل السلطان إلى دمشق وقتل بها جماعة من أهل الفساد يبلغون خمسة وعشرين رجلاً ثمّ عاد إلى مصر فبلغ إليها في منتصف محرم سنة ٧٩٤هـ (سنة ١٣٩١م).

أمّا منطاش فبعد فراره مع سالم إلى سنجار أقام معه أياماً ثمّ فارقه وعاد إلى يعبر فأقام في أحيائه وتزوّج بنتاً من آل فضل وأقام معهم ثمّ سار سنة ٧٩٤هـ (سنة ١٣٩١م) وعبر الفرات إلى نواحي حلب فأوقعت به العساكر وأسروا جماعة من أصحابه ثمّ زحف يعبر ومنطاش إلى سلميّة فلقيهما نائب حلب ونائب حماه فهزموهما وتسارع نائب حلب إلى أحياء يعبر فنهب أموالها واستاق نعمها ومواشيها وأضرم النار في ما بقي منها وأكمن ليعبر ومنطاش وبلغ يعبر ومنطاش الخبر فأسرعا بمن معهما إلى الكرّ على أحيائهم فخرج عليهم الكمناء وأثخنوا فيهم وهلك من الفريقين خلق كثير.

ثمّ وفد على السلطان عامر بن ظاهر أخي يعبر طائعاً للسلطان ومنابذاً لعمّه وواعداً أن يسلّم منطاش متى طلب منه فأقبل السلطان عليه وأثقل كاهله بالإحسان والمواعيد فرجع عامر وتفاوض مع آل فضل جميعهم فأجابوه إلى ما يرغب وخيّروا يعبر بين أن يمكّنهم من إمساك منطاش أو يخلي سبيلهم ليدخلوا في طاعة السلطان ويفارقهم هو إلى حيث شاء فجزع يعبر لذلك وأذن لهم في القبض على منطاش فقبضوا عليه وبعثوا إلى نائب حلب من يستلمه فبعث إليهم بعض أمرائه فسلموه إليهم وأرسلوا معه الفرسان والرجالة حتى أوصلوه إلى حلب وبعث السلطان أميراً من القاهرة فاحتز رأسه وطاف به في ممالك الشام وجاء به إلى القاهرة سنة ٧٩٥هـ (سنة ١٣٩٢م) فعلق على باب القلعة ثمّ دفع إلى أهله فدفنوه. هذا ملخّص موجز مما رواه ابن خلدون في فصول كثيرة.

عد ٩٠٩

بقية أخبار الملك الظاهر برقوق وابنه إلى نهاية هذا القرن

في سنة ٧٩٦هـ (سنة ١٣٩٣م) فرّ أحمد ابن أويس صاحب بغداد إلى الملك الظاهر تيمورلنك التتري الذي كان قد ملك أكثر البلاد الشمالية وأثخن فيها وحاصر بغداد فانهزم أحمد المذكور إلى الرحبة ثمّ إلى حلب ومصر مستصرخاً به على طلب ملكه والانتقام من عدوه، فأجاب السلطان إلى صراخه وجهز عساكره وسار فيها إلى الشام ومعه أحمد ابن أويس المذكور. وكان تيمورلنك بعد أن استولى على بغداد وزحف في عسكره إلى تكريت وحاصرها أربعين يوماً وملكها وانتشرت عساكره في ديار بكر إلى الرها فملكوها وكتب السلطان الظاهر إلى جليان نائب حلب بالخروج إلى الفرات واستيعاب العرب والتركمان للإقامة هناك رصداً للعدو، ثمّ أرسل إليه العساكر من دمشق مع كمشيقا الأتابك وغيره وكان تيمورلنك قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها أشهراً ثمّ ملكها وامتنعت عليه قلعتها فارتحل عنها إلى ناحية بلاد الروم ومرّ بقلاع الكراد فاغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها وبقي السلطان إلى شعبان من السنة المذكورة متربصاً ليرى ما يكون من تيمورلنك. فهذا ختام كلام ابن خلدون في هذه الأحداث. والظاهر من كتاب «عجائب المقدور في اخبار تيمور» للقاضي شهاب الدين الدمشقي أنّ تيمور

بدا له حينئذٍ أن يقصد الهند فقصدها وشغل بتدويخها مدةً فعاد السلطان الظاهر إلى مصر ولا نعلم من أخباره الهامة بعد ذلك إلّا ورود رسالة تيمورلنك إليه سنة ٨٠١هـ (سنة ١٣٩٨م) وبها يهدده ويردعه، وجواب الملك الظاهر عليها مزدرياً بتهديداته ومبدياً العزم على قتاله وقد أثبت القراماني الرسالة والجواب عليها وذكرهما شهاب الدين في كتابه المذكور لكنّه ارتاب بصحّتهما، وقال إنّه وجد صورة هذا الكتاب من إنشاء نصير الدين الطوسي على لسان هولاكو التتري مرسلاً ذلك إلى سلطان مصر وصورة الجواب بعينه إنشاء من كان في ذلك العصر وصورتا الخطاب والجواب مشهورتان فنغتني بشهرتهما عن إثباتهما هنا ثمّ توفي الملك الظاهر برقوق في أثر ذلك في ١٣ شوال سنة ٨٠١هـ (سنة ١٣٩٨م).

وروى البطريرك الدويهي أنّه تولّى بعده ولده عبد العزيز ولقّب الملك المنصور لكنّه خلع قبل أن تطول مدّة ولايته وأجمعوا على تولية أخيه زين الدين فرج ولقّبوه الملك الناصر وله من العمر اثنتا عشرة سنة. ولم يذكر القراماني الملك المنصور كأنّه لقصر مدّة ولايته ولا ذكره الاسحاتي في كتابه «أخبار الأول» ولا حسن عبدالله في كتابه «آثار الأول» بل نصّ ابن اياس في تاريخ مصر أنّ الملك الظاهر برقوق أوصى بأن يخلفه ابنه فرج بل ذكروا الملك فرج وقالوا إنّ عمره كان عشر سنين وأنّ الناس ظنّوا أنّه ستكون فتنة عظيمة بعد موت والده فلم يتحرّك ساكن وأنشد ابن الأوحدي في ذلك:

مضى الظاهر السلطان أكرم مالكٍ إلى ربه إلى الخلد في الدرجِ
وقالوا ستأتي شدّة بعد موته فاكذبهم ربي وما جاء سوى فرجِ

وفي سنة ٨٠٣هـ وهي سنة ١٤٠٠ للميلاد ختام القرن الرابع عشر برز تيمورلنك إلى حلب بجحافله الجرارة ونرجئ الكلام في ذلك إلى تاريخ القرن الخامس عشر ليكون كلامنا منتسقاً ولا نجزّئ أخبار هذه الحملة الشهيرة على سورية في تاريخ قرنين.

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم في القرن الرابع عشر

عد ٩١٠

المشاهير السوريون في هذا القرن

ابن منظور

ذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات وسمّاه محمّد بن مكرّم وقال إنّه ابن علي بن أحمد الأنصاري الرويفعي ثمّ المصري القاضي جمال الدين بن المكرم من ولد رويفع بن ثابت الأنصاري ويعرف بابن منظور. ولد أوّل سنة ٦٣٠هـ (سنة ١٢٣١م) وكان فاضلاً وعنده تشيّع بلا رفض مات في شعبان سنة ٧١١هـ (سنة ١٣١١م) خدم في الإنشاء بمصر ثمّ ولي نظر طرابلس اختصر كتباً كثيرة وله النظم والنثر وأعظم مؤلفاته «لسان العرب» وهو من أشهر المعجمات العربية وطبع ببولاق في عشرين جزءاً سنة ١٣٠٨م وقد جمع فيه كلما ورد في المعجمات التي تقدّمته ورتبه على أحرف أواخر الكلم كالصحاح الجوهري وهو ثقة، وله أيضاً كتاب «نثار الأزهار في الليل والنهار» تكلّم فيه على الليل والنهار والاغتباق والاصطباح والهلال وكماله والفجر ونسيم السحر إلى غير ذلك وقد طبع كتابه هذا في القسطنطينية سنة ١٢٩٨م.

فخر الدين الحموي قاضي حلب

ذكره أبو الفداء فقال في سنة ٧٣٠هـ (سنة ١٣٣٠م) توفي قاضي القضاة فخر الدين عثمان بن كمال الدين البارزي الحموي الجهني قاضي حلب فجأة وكان يعرف كتاب «الحاوي في الفقه» وشرحه في ست مجلّدات وكان يعرف الحاجبية والتصريف وكان فيه دين وصداقة.

شمس الدين الدمشقي

هو شمس الدين أبو عبدالله محمّد بن أبي طالب الانصاري الدمشقي الصوفي المعروف باسم شيخ الربوة ولد سنة ٦٥٤هـ (سنة ١٢٥٧م) وتوفي بصفد سنة ٧٢٨هـ (سنة ١٣٢٨م) وله كتاب سماه «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» اعتنى بطبعه العلاّمة فداين والعلامة مهرن في بطرسبرغ سنة ١٨٦٦م.

الملك المؤيد اسماعيل أبو الفداء

ذكر مكمل تاريخه ترجمته بإيجاز فقال مات السلطان الملك المؤيد اسماعيل ابن الملك الأفضل علي صاحب حماه مؤلف هذا التاريخ وله تصانيف حسنة مشهورة منها أصل هذا الكتاب ونظم «الحاوي في الفقه» وشرحه شيخنا قاضي القضاة شرف الدين بن البارزي (المار ذكره) شرحاً حسناً وله كتاب «تقويم البلدان» وهو حسن في بابه تسلطن بحماه في أوّل سنة ٧٢٠هـ (سنة ١٣٢٠م) بعد نيابتها رحمه الله تعالى، وكان سخياً محباً للعلم والعلماء متفنناً يعرف علوماً. ولقد رأيت جماعة من ذوي الفضل يزعمون أن ليس في الملوك بعد المأمون أفضل منه. وكانت وفاته سنة ٧٣٢هـ (سنة ١٣٣١م) وذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات وزاد على ما تقدّم أنّ السلطان الناصر جعله سلطاناً بحماه يفعل فيها ما يشاء من اقطاع وغيره وليس لأحد من الدولة بمصر من نائب ووزير معه حكم وأركبه في القاهرة

بشعار الملك وابهة السلطنة ومشى الأمراء والناس في خدمته حتّى الأمير سيف الدين ارغون النائب، وكانت فيه مكارم وفضيلة تامّة من فقه وطب وحكمة وغير ذلك وأجود ما كان يعرفه علم الهيئة لأنّه أتقنه وان كان قد شارك في باقي العلوم مشاركة جيّدة ونظم الحاوي في الفقه وله تاريخ كبير وكتاب الكناش مجلدات كثيرة (لا نعرف هذا الكتاب حتّى الآن) وكتاب تقويم البلدان هذبه وجدوله وأجاد فيه ما شاء وله كتاب الموازين وهو صغير ومات وهو في الستين رحمه الله تعالى وله شعر ومحاسنه كثيرة وأثبت الصلاح الكتبي بعض أشعاره منها:

أقرأ على طيب الحيا ة سلام صبٍّ مات حزنا

وأعلم بذاك احبّة بخلَ الزمانُ بهم وَضنا

لو كان يشرى قربهم بالمال والأرواح جدنا

متجرّع كأس الفراق يبيت للاشجان رهنا

صبٌّ قضى وجداً ولم يقضى له ما قد تمنى

وقد رثاه الشيخ جمال الدين بن نباتة بقصيد أوّلها:

ما للندى لا يلبي صوت ناديه أظن أنّ ابن شادي قام ناعيه

ما للرجاء قد استدّت مذاهبه ما للزمان قد اسودّت نواحيه

نعى المؤيد ناعيه فيا أسفي للغيث كيف غدت عنا غواديه

يا آل أيوب صبراً ان ارثكم ما اسم أيوب صبراً كان يرجيه

هي المنايا على الأقوام دائرة كل سياتيه منها دور ساقيه

وقد طبع كتابه في تقويم البلدان في الجغرافية بباريس سنة ١٨٣٧م إلى سنة ١٨٤٠م بعناية العلامة رينود ثمّ طبع في درسدن سنة ١٨٤٢ إلى سنة ١٨٤٥م وله أيضاً «وصف جغرافية مصر» طبع سنة ١٧٧٦م في غوتنغن وأمّا كتاب تاريخه فقد طبع سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٧٩٤م بمدينة كوبنهاغن بعناية العلّامة دايسكه مع ترجمة لاتينية وشروح ثمّ طبع بالقسطنطينية في أربعة أجزاء سنة ١٢٨٦هـ وهذه

الطبعة هي التي بيدنا ملخّص عن كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع. وقد ذكر المطران أسطفانس عواد السمعاني كتابي أبي الفداء التاريخ وتقويم البلدان في فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية، وأثبت فهرست كتاب تقويم البلدان كاملاً وقال إنّه علّق عليه مقدّمات لازمة لفهم فنّ الجغرافية كتبيانه أولاً أغلاط بعض الكتّاب في تعيين درجات طول الأماكن وعرضها، وكبحثه عن الأرض هل هي مدوّرة أو مستوية وهل في وسطها قطب أو محور إلى غير ذلك.

بدر الدين محمّد الكتّاني الحموي

ذكره مكمل تاريخ أبي الفداء في تاريخ سنة ٧٣٣هـ (سنة ١٣٣٢م) فقال كان له معرفة بفنون وله عدّة مصنّفات درس بدمشق ثمّ ولى قضاء القدس ثمّ قضاء الديار المصرية ثمّ قضاء الشام ثمّ قضاء مصر وولي مشيخة الحديث بالكاملية ومشيخة الشيوخ وتنزّه عن معلوم القضاء لغناه مدّة ومحاسنه كثيرة ومن شعره:

لم أطلب العلم للدنيا التي ابتغيت   من المناصب أو للجاه والمال
لكن متابعة الأسلاف فيه كما   كانوا بقدر ما قد كان من حالي

هبة الله الحموي

ذكر ترجمته مذيل تاريخ أبي الفداء وهو ابن الوردي فقال ما ملخّصه أنّه في سنة ٧٣٨هـ (سنة ١٣٣٧م) توفي شيخي المحسن إليّ أبو القاسم هبة الله ابن قاضي القضاة نجم الدين أبي محمّد عبد الرحيم البارزي الجهتي الحموي الشافعي، علم الأئمة وعلّامة الأمّة، تعين عليه القضاء بحماه فقبله وتورع عن معلوم الحكم من بيت المال ولم يتّخذ عمره درّة ولا مهمازاً ولا مقرعة ولا غزّر أحداً بضرب ولا أسقط شاهداً. هذا مع نفوذ أحكامه وقبول كلامه افنى شبيبته في المجاهدة والتقشّف، وانفق كهولته في تحقيق العلوم، وقضى شيخوخته في تصنيف الكتب الجياد، ودعي مرات للقضاء في الديار المصرية فأبى واجتمع له من الكتب ما لم يجتمع لأهل عصره واشتهرت مصنّفاته في حياته بخلاف العادة فمنها في التفسير كتاب «البستان في تفسير القرآن» مجلّدان وكتاب «روضات جنات المحبين» إثنا

عشر مجلّداً وفي الحديث «كتاب المجتبى» مختصر جامع الأصول وكتاب «الوفا في أحاديث المصطفى» وكتاب «المجرّد من السند» وكتاب «المنضد» شرح المجرد أربعة مجلّدات وفي الفقه كتاب شرح الحاوي المسمّى «إظهار الفتاوي من أعوار الحاوي» وكتاب «تيسير الفتاوي في تحرير الحاوي»، وهما أشهر تصانيفه وكتاب شرح نظم الحاوي أربعة مجلّدات وكتاب «المغني» مختصر التنبيه وكتاب «تمييز التعجيز» إلى غير ذلك، وله نظم قليل منه ما كتب به إلى صاحب حماة يدعوه إلى وليمة:

طعام العرس مندوب إليه   وبعض الناس صرح بالوجوب

فجبراً بالتناول منه جرياً   على المعهود في جبر القلوب

ومنه نثره الذي يقرأ طرداً وعكساً سور حماه بربها محروس

وقد رثاه واضع الترجمة المذكورة بقصيدة منها:

برغمي أنّ بينكم يضام   ويبعد عنكم القاضي الإمامُ

سراج للعلوم أضاء دهراً   على الدنيا لغيبته ظلامُ

تعطلت المكارم والمعالي   ومات العلم وارتفع الطغامُ

عجبت لفكرتي سمحت بنظمٍ   أيسعدني على شيخي نظامُ

حشا أذني دراً ساقطتهُ   عيوني يوم حم له الحمامُ

ويا شرف الفتاوى والدعاوى   على الدنيا بغيبتك السلامُ

لكم مني الدعاء بكل أرض   ونشر الذكر ما ناح الحمامُ

عمر ابن الحسام الدمشقي

ذكره الصلاح الكتبي في «فوات الوفيات» فقال هو الشاعر زين الدين أبو حفص الدمشقي الشافعي، سألته عن مولده فقال سنة ٦٨٤هـ (سنة ١٢٨٢م) وكانت وفاته في رمضان سنة ٧٤٩هـ (سنة ١٣٤٨م). اجتمعت به مرةً وقد أنشدني كثيراً من شعره منه لنفسه:

قد اثقلتني الخطايا فكيف أخلص منها
يا رب فاغفر ذنوبي واصفح بفضلك عنها

وقال أيضاً:

يا من عليه اتكالي ومن إليه مآبي
جد لي بعفوك عني إذا أخذت كتابي

وقال أيضاً:

يا سائلي كيف حالي في مراقبتي وما العقيدة من سري واعلاني
أخاف ذنبي وأرجو العفو عن زللي فانظر فبين الرجا والخوف تلقاني

ابن الوردي

مما ذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيّات في حقه هو القاضي الأجل الإمام الفقيه الأديب الشاعر زين الدين بن الوردي المعري الشافعي، أحد فضلاء العصر وأدبائه وشعرائه، تفنن في العلوم وأجاد في المنثور والمنظوم، نظمه جيد إلى الغاية وفضله بلغ النهاية، ومن مصنّفاته «البهجة الوردية في نظم الحاوي» وكتاب «فوائد فقهية» منظومة وكتاب «شرح ألفية ابن مالك» وكتاب «ضوء الدرة على ألفية ابن معطي» وكتاب «قصيدة اللباب في علم الإعراب» وشرحها وكتاب «اختصار ملحة الإعراب» نظماً، وكتاب «مذكرة الغريب نظماً» وشرحها وكتاب «المسائل المذهبية في المسائل الملقية» وكتاب «ابكار الأفكار» و«تتمة تاريخ أبي الفداء صاحب حماه»، و«أرجوزة في تعبير المنامات» و«أرجوزة في خواص الأحجار ومنطق الطير» نظماً. وقد درس على هبة الله الحموي كما رأيت، وتوفي بالطّاعون سنة ٧٤٩هـ (سنة ١٣٤٨م).

وقد ذكر الصلاح كثيراً من أشعاره منها ما كتبه إلى فخر الدين قاضي حلب وقد عزله وعزل أخاه:

جنبتني وأخي تكاليف القضا   وشفيتنا في الدهر من خطرين

يا حي عالم دهرنا أحبيتنا   فلك التحكُّم في دم الأخوينِ

ومنها:

بالله يا معشر أصحابي   اغتنموا علمي وآدابي

فالشيب قد حلّ برأسي   وقد أقسم لا يرحل إلّا بي

ومنها:

سبحان من سخّر لي حاسدي   يحدث لي في غيبتي ذكري

ولا أكره الغيبة من حاسدٍ   يفيد في الشهرة والأجرِ

ولابن الوردي أيضاً كتاب في الجغرافية سمّاه «خريدة العجائب وفريدة الغرائب» ألّفه في حلب وذكره له صاحب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع وقال إنّهُ طبع في أسوج سنة ١٨٢٤م مع ترجمة لاتينية، وطبع أيضاً في اوبسالا سنة ١٨٣٥م، وطبع في القاهرة سنة ١٢٩٢هـ، ويشتمل كتابه هذا على خريطة عامّة لا تزال محفوظة في المكتبة الملكية بباريس، وقد وقع الشكّ بأذهان بعض المحققين في أنّ ابن الوردي صاحب الجريدة الجغرافية هو ابن الوردي الذي نكتب ترجمته أو غيره يسمى ابن الوردي أيضاً. وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية وقد طبعت أرجوزته في النحو على الحجر بمدينة برسلار من بروسيا.

صلاح الدين الكتبي الحلبي

هو صلاح الدين محمّد بن شاكر الكتبي صاحب كتاب فوات الوفيات وهو تتمة وملحق الكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان جمع فيه خمس مئة واثنتين وسبعين ترجمة ممن فات ابن خلكان ذكرهم أو كانوا بعد وفاته إلى وفاة صلاح الدين المذكور التي كانت سنة ٧٦٤هـ (سنة ١٣٦٢م) وقد طبع كتابه ببولاق سنة ١٢٨٣هـ وقد ذكر له صاحب الكشف من التأليف كتاب «عيون التواريخ» في ستة مجلّدات.

صلاح الدين الصفدي

هو خليل ابن إيبك بن عبدالله الصفدي الشافعي توفي بدمشق سنة ٧٦٤هـ (سنة ١٣٦٢م) له كتاب «الوافي بالوفيات» . انتهى فيه إلى آخر سنة ٧٦٠ قبل وفاته بأربع سنين وهو كتاب حافل جمع فيه تراجم الأعيان ونجباء الزمان ممن وقع عليه اختياره فلم يغادر أحداً من أعيان الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والعمّال المحدثين والفقهاء والأولياء والصلحاء والنحاة والشعراء والأطباء والحكماء وأصحاب الملل والنحل والبدع وأعيان كل فنّ ممن اشتهر أو أتقن إلّا ذكره (عن كتاب كشف الظنون). وله كتاب «دمعة الباكي ولوعة الشاكي» نظم ونثر طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٠ ثم ١٣٠٢.

صدر الدين الدمشقي

هو صدر الدين أبي عبدالله محمّد بن عبد الرحمان الدمشقي اشتهر سنة ٧٨٠هـ (سنة ١٣٧٨م) وله كتاب «رحمة الأمّة في اختلاف الأئمة» طبع ببولاق سنة ١٣٠٠.

محمود القدسي

ذكره المطران أسطفانس عواد السمعاني في فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية (صفحة ١٣٢)، وقال إنّه ابن الشيخ فخر الدين، وانّه اشتهر سنة ٧٨٠هـ (سنة ١٣٧٨م) وان له في هذه المكتبة كتاباً في طريقة الصلاة قسمه إلى مقدّمة وعشرة فصول أوّلها في طهارة النفس والجسد.

عد ٩١١

من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم غير السوريين

قطب الدين محمود الشيرازي

ذكره أبو الفداء قال كان مولده بشيراز سنة ٦٣٤هـ (سنة ١٢٣٧م) وتوفي سنة ٧١٠هـ (سنة ١٣١٠م) وكان إماماً مبرزاً في عدّة علوم مثل العلم الرياضي والمنطق وفنون الحكمة والطب والأصولين. وله عدّة مصنّفات منها «نهاية الادراك في الهيئة» و«تحفة السامي في الهيئة» أيضاً وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه، ومصنّفاته وفضائله مشهورة.

شهاب الدين أحمد ابن عبد الوهاب

ذكره ابن الوردي في تتمة تاريخ أبي الفداء فقال في تاريخ سنة ٧٣٣هـ (سنة ١٣٣٢م) مات الإمام المؤرّخ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب الشافعي بالقاهرة وله تاريخ في ثلاثين مجلّداً كان ينسخ باليوم ثلاثة كراريس، وفضيلته تامّة وعاش خمسين سنة. انتهى ما قاله ابن الوردي. وأظنّ أنّ شهاب الدين هذا هو الذي ذكره المطران أسطفان عواد السمعاني في فهرست الكتب المشرقية بالمكتبة الماديشية (صفحة ٤١) وسمّاه شهاب الدين أحمد الإمام الشافعي الذي تسميه العامة ابن النويري وانّه توفي سنة ٧٣٢هـ (سنة ١٣٣١م) وله تاريخ عمومي قسّمه خمسة أقسام. قال وقد رأيت نسخة منه في مكتبة باريس الملكية في عشرة مجلّدات وأنّ في المكتبة الماديشية المذكورة كتاباً جامعاً خلاصات من كتبه مقسوماً إلى أربعة وثمانين فصلاً ومدارها في أمور سياسية وأدبية وطبيعية وتاريخية وفصاحية، يؤيدها المؤلّف بشهادات فلاسفة العرب وأشعار شعرائهم ووضع فهرستاً لفصول الكتاب المذكور الأربعة والثمانين، وجاء في كتاب اكتفاء القنوع أنّ النويري توفي سنة ٧٣٢هـ (سنة ١٣٣١م) وله كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» وهو تاريخ كبير في ثلاثين جزءاً يطبع إلى الآن ومنه جزء محفوظ في الكتبخانه المصرية.

الصنهاجي صاحب الأجرومية

هو أبو عبدالله محمّد بن داود الصنهاجي الأجرومي ولد سنة ٦٨٢هـ (سنة ١٣٨٤م) وتوفي سنة ٧٢٣هـ (سنة ١٣٢٣م). كذا ذكره المطران أسطفان عواد السمعاني في كتابه المذكور وهو مؤلف كتاب «المدخل في النحو» المعروف بـ«الأجرومية» نسبة إليه، وطبع الكتاب مراراً منها برومة سنة ١٥٩٢م وقد شرحه كثير من العلماء منهم خالد ابن عبدالله الأزهري وحسن الكفراوي وغيرهما. والأجرومي نسبة إلى أجروم بلده.

أثير الدين أبو حيان النحوي المغربي

ممن ذكروه ابن الوردي في تتمة تاريخ أبي الفداء، فقال إنّه توفي بالقاهرة سنة ٧٤٥هـ (سنة ١٣٤٤م) وكان بحراً زاخراً في النحو وكان يستهزئ بالفضلاء من أهل القاهرة ويحتملونه لحقوق اشتغالهم عليه، وكان يقول عن نفسه أنا أبوحيات بالتاء يعني بذلك تلاميذه. وله مصنّفات جليلة منها «تفسير القرآن العظيم» وشرح «التسهيل» و«ارتشاف الضرب من ألسنة العرب» مجلّد كبير جامع ومختصرات في النحو وله نظم ليس على قدر فضيلته فمن أحسنه قوله:

وقابلني بالدرس أبيض ناعم وأسمر لدن أورثا جسمي الردى
فذا هزّ من عطفيه رمحاً مثقفاً وذا سلّ من جفنيه عضباً مهندا

ورثاه الصلاح الصفدي بقصيدة طويلة منها:

مات أثير الدين شيخ الورى فاستعرّ البارق واستعيرا
يا عين جودي بالدموع التي يروي بها ما ضمه من ثرى
مات إمام كان في علمه يرى إماماً والورى من ورا

عن كتاب حسن المحاضرة لجلال الدين السيوطي.

صفي الدين الحلي

هو عبد العزيز بن سرايا الحلي الملقّب صفي الدين الحلي من شعراء المسلمين ولد سنة ٦٧٧هـ سنة ١٢٧٨م وهاجر من العراق بسبب الحروب والمحن إلى نادي الملوك آل ارتق أصحاب ماردين في الجزيرة. ونظم في مدح السلطان نجم الدين أبي الفتح تسعاً وعشرين قصيدة، كل منها تسعة وعشرين بيتاً، على حرف من حروف المعجم كل بيت يبتدي وينتهي بذلك الحرف، ووسمها «بدر النحور في مدائح الملك المنصور» وبدعيته مشهورة وقد توفي سنة ٧٥٠هـ سنة ١٣٤٩م وطبع ديوانه في دمشق سنة ١٣٠٠ مع قصائده الارتقيات التي نظمها في مدح بني أرتق الأكراد (عن اكتفاء القنوع).

ابن هشام الأنصاري

هو عبدالله ابن يوسف بن هشام الأنصاري المصري له كتاب «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» في عوامل الإعراب طبع بالقاهرة جزئين سنة ١٢٩٩هـ وعليه حاشية لمحمد الأمير (الذي توفي سنة ١٢٣٢هـ) ثمّ طبع هذا الكتاب ثانية بالقاهرة سنة ١٣٠٢هـ ويطالعه الطلبة بمدرسة الجامع الأزهر وعن مغني اللبيب أخذ المطران جرمانوس فرحات الشهير أكثر ما تضمّنه كتابه الموسوم بـ«الفصل المعقود في عوامل الإعراب» والذي طبعه الشيخ الكونت رشيد الدحداح في آخر كتاب أحكام باب الإعراب عن لغة الاعراب للمطران المذكور. وللمغني أيضاً شرح آخر وضعه تقي الدين أحمد الشمني (الذي توفي سنة ٨٧٢هـ سنة ١٤٦٧م) وسمى شرحه «المصنف من الكلام على مغني ابن هشام» طبع بالقاهرة جزئين سنة ١٣٠٥هـ وعلى هامشه «تحفة الغريب بشرح مغني اللبيب» لمحمّد بن بكر الدماميني. على أنّ شرح الدماميني هذا انتهى إلى حرف الفاء فقط. وقد توفي الدماميني سنة ٨٢٨هـ سنة ١٤٢٤م. ولمحمّد غرفة الدسوقي أيضاً حاشية على مغني اللبيب طبعت جزئين بالقاهرة سنة ١٣٠٥هـ وبهامشها متن مغني اللبيب. ولابن هشام أيضاً كتاب «شذور الذهب في معرفة كلام العرب» في النحو وهو مختصر وعليه شرح ببولاق

سنة ١٢٨٢هـ ثمّ بالقاهرة سنة ١٣٠٥ وحاشية على شرح لمحمّد عبادة العدو (توفي سنة ١١٩٣م) طبعت بالقاهرة سنة ١٣٠٣ وهي مطوّلة وحاشية أخرى لمحمّد الأمين طبعت على هامش كتاب شذور الذهب بالقاهرة سنة ١٣٠٥.

ولابن هشام أيضاً كتاب «قطر الندى وبل الصدا» في النحو مع شرح له عليه طبع ببولاق سنة ١٢٥٣هـ سنة ١٢٨٢هـ وهو مختصر سهل العبارة وللسجاعي. توفي سنة ١١٩٧هـ) حاشية عليه طبعت ببولاق سنة ١٢٩٩ وبالقاهرة سنة ١٣٠٦ وله شرح معلقة كعب بن زهير بانت سعادُ وله شرح «ألفية ابن مالك» سماه «أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك» ويعرف بالتوضيح طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ ولخالد الأزهري شرح على التوضيح سماه «التصريح بمضمون التوضيح». وقد توفي ابن هشام سنة ٧٦١هـ (سنة ١٣٥٩م).

أبو الضياء خليل بن اسحق المالكي

توفي سنة ٧٦٧هـ (سنة ١٣٦٥م) وله كتاب المختصر في الفقه على مذهب المالكية طبع بباريس مرات آخرها سنة ١٨٨٣م وهي أحسن طباعته بباريس وطبع بمصر مراراً وشرحه كثيرون، وأحسن هذه الشروح «الشرح الكبير على مختصر سيدى الخليل» لأحمد الدردير الذي توفي سنة ١٢٠٢هـ طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣م مع حاشية عليه لمحمّد الدسوقي الذي توفي سنة ١٢٣٠هـ طبع ثانية سنة ١٣١٠هـ. ولأحمد الدردير شرح آخر على متن له حذا به حذو متن أبي الضياء وسماه «أقرب المسالك إلى مذهب مالك» ويعرف بالشرح الصغير تمييزاً له عن الشرح الكبير لأبي الضياء وطبع الشرح الصغير بالقاهرة سنة ١٢٩٩هـ مع حاشية عليه لأحمد الصاوي المتوفي (سنة ١٢٤١) سماها «بُلغة السالك لأقرب المسالك». ولأبي عبدالله محمّد الخرشي الذي توفي سنة ١١٠٢هـ شرح على كتاب أبي الضياء طبع ببولاق سنة ١٢٩٩ ثمانية أجزاء ثمّ بالقاهرة سنة ١٣٠٧هـ خمسة أجزاء وعلى هامش الطبعتين حاشية لعلي العدو الذي توفي سنة ١١٨٩هـ.

ابن عقيل

هو أبو محمّد عبدالله بن عقيل المصري الهاشمي قاضي القضاة العلامة الناحي ولد سنة ٦٩٧هـ (سنة ١٢٩٧م) وتوفي سنة ٧٦٩هـ (سنة ١٣٦٧م). أشهر مصنّفاته شرح ألفية ابن مالك وهو من أشهر كتب النحو وأقربها تناولاً وقد طبع مراراً بالقاهرة وبيروت، وقد ترجم العلّامة ايتريسي الألماني الألفية مع شرح ابن عقيل لها إلى اللغة الألمانية، وطبع ترجمته في لابسيك سنة ١٨٥٢م وقد وضع كثيرون شروحاً لشرح ابن عقيل ولأبيات الشواهد التي ضمّنها شرحه منهم أحمد الخضري الدمياطي (الذي توفي سنة ١٢٨٨هـ)، وله حاشية على شرح ابن عقيل طبعت ببولاق سنة ١٣٠٢هـ وسنة ١٣٠٥هـ. ولعبد المنعم الجرجاوي المصري شرح شواهد ابن عقيل طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٥هـ وللسجاعي (الذي توفي سنة ١١٩٧هـ) شرح آخر لهذه الشواهد طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٨ وأعيد طبعه سنة ١٣٠٦. وللسجاعي أيضاً حاشية على شرح ابن عقيل برمته طبعت بالقاهرة سنة ١٢٩٨هـ وطبع محمّد قطة العدوى الفية ابن مالك وشرح ابن عقيل لها وأبيات الشواهد مرتبة على حروف المعجم ببولاق سنة ١٢٦٤. وطبع خليل سركيس نزيل بيروت شرح أبيات الشواهد عن محمّد قطة المذكور وطبعه بمطبعة المعارف ببيروت سنة ١٨٧٢م.

ابن بطوطة

هو أبو عبدالله محمّد بن عبدالله الطنجي الملقّب شمس الدين ابن بطوطة الرحالة المشهور ولد بطنجة من أعمال مراكش سنة ٧٠٣هـ سنة ١٣٠٣، ولما بلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة أخذ يطوف ببلاد العراق ومصر والشام واليمن والهند والأقطار الصينية والتترية وأواسط إفريقيا والأندلس ثمّ انتهى إلى المغرب وفيه أخذ يملي على ابن جزى رحلته وسماها: «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وهي مشهورة وقد عني الفرنج بترجمتها إلى أكثر لغاتهم. وتوفي ابن بطوطة سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م) وقد طبع رحلته من الفرنج المستشرقان ديغرمري

وسنغوينتي أربعة أجزاء بباريس سنة ١٨٧٤ إلى سنة ١٨٧٧ مع ترجمة فرنسية لها، وطبعت هذه الرحلة بمصر جزئين سنة ١٢٨٨هـ وطبع مختصر لها بالقاهرة بمطبعة حجرية سنة ١٢٨٧هـ.

السعد التفتزاني

توفي سنة ٧٩٢هـ (سنة ١٣٩٠م) له شرح على الايساغوجي بالمنطق وكتاب «تهذيب المنطق والكلام» طبع في لكانو بالهند دون ذكر لسنة الطبع وطبع مع شرح له في كلكته سنة ١٢٤٣. ولعبدالله اليزدري شرح وحاشية على كتاب التهذيب هذا طبع في كانفور بالهند أيضاً سنة ١٢٩١هـ. وطبع بلكناهور بالهند مجموع بالمنطق، أوّله «شرح للجلال الدواني على متن التهذيب» للسعد وله «شرح عقائد النفسي في التوحيد» طبع بكلكته سنة ١٢٦٠هـ وله كتاب سماه «النعم السوابغ في شرح الكلام النوابغ» في اللغة طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٦هـ والكلم النوابغ هو للزمخشري. وله كتاب في التصريف شرح لكتاب التصريف الفري الذي هو للزنجاني طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٣ وله «شرح تلخيص المفتاح» الذي لمحمود القزويني في المعاني والبيان سمّاه «المطوّل» وطبع في القسطنطينية سنة ١٢٦٠ ثمّ سنة ١٣٠٤م (أكثر ما رويناه في هذه التراجم الأخيرة ملخّص عن اكتفاء القنوع بما هو مطبوع لادوار فان ديك).

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الرابع عشر

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

عد ٩١٢

بطاركة انطاكية

فرغنا من الكلام على بطاركة انطاكية في القرن الثالث عشر، بذكر قول لكويان إنَّ هذا القرن انقضى وعلى كرسي انطاكية إما كيرلس الثالث وإما ديوانيسيوس الثاني وإما صفرونيوس. وقال هذا العلامة بعد ذلك ذكر السمعاني في جدول بطاركة انطاكية، يوحنا السادس ومرقس الاول قبل اغناطيوس الآتي ذكره، ولم أجد لهما ذكراً في كتب غيرهِ، ولم أرَ من السداد ان اترك اسمَيهما.

ويظهر أنّ اغناطيوس الثاني خلف مرقس الذي ذكره السمعاني، وأنه كان على كرسي انطاكية سنة ١٣٤٤م، حين كان شقاق البالاميين عند الروم، وحرم ايسيدورس محدث هذا الشقاق في كتاب فاتحته، اغناطيوس برحمة الله بطريرك مدينة الله انطاكية وسائر المشرق. وقد اشهر هذا الكتاب الاتيوس في مؤلفه في الكتب البيعية عند الروم. وعقد حينئذٍ مجمع التأمَ فيه اثنان وعشرون اسقفاً، ورأسه البطريرك القسطنطيني، وهذا البطريرك الانطاكي، فنبذوا ضلال المحدثين وحرموهم. فتحاملوا على البطريرك اغناطيوس وأودعوه السجن وأذاقوه مرّ العذاب، بعد أن

أخذوه من الدير الذي كان مقيماً به، وحبسوه في محل خفي حيث توفاه الله. ويقال إنَّ خصومه تركوا جثتهُ فريسةَ للكلاب والخنازير. روى ذلك يوحنا شيبرسياتوس في كتابه فظائع البالاميين. ويظهر مما مرَّ انَّ اغناطيوس لم يمت في انطاكية بل في نواحي القسطنطينية.

جاءَ في الجدول الواتيكاني: «أنَّ بخوميوس الاول اغناطيوس المذكور»، وكان بخوميوس متروبوليتاً على دمشق. ثم حط عن كرسيه وانتخب مكانه ميخائيل الاول سنة ١٣٧٠م. ويظهر أن كرسي انطاكية كان فارغاً سنة ١٣٦٧م لأنَّ البابا أوربانوس الخامس أنفذ هذه السنة، رسالة إلى البطاركة القسطنطيني والاسكندري والاورشليمي، يستحثهم بها على الاتحاد بالكنيسة الرومانية، ولا ذكر فيها للبطريرك الانطاكي. فينتج أنّه لم يكن في تلك السنة بطريرك على انطاكية. ثم توفي ميخائيل الاول الذي انتخب مكان بخوميوس، فعاد بُحوميوس ثانية إلى كرسي انطاكية، لكنه لم يمكث فيه طويلاً، إذ روى بعضهم أنَّ خليفته مرقس الثاني توفي سنة ١٣٧٨م.

والذي في جدول السمعاني انَّ اغناطيوس الثاني المذكور، خلفه ميخائيل الاول، وميخائيل هذا خلفه مرقس الثاني ثم بحوميوس ثم نيلوس ثم ميخائيل الثاني الذي كان في ايام تيمورلنك، في بداية القرن الخامس عشر. انتهى ملخصاً عن لكويان في المشرق المسيحي. ولا حاجة إلى القول أنَّ تاريخ هؤلاء البطاركة في هذا القرن أيضاً سقيم غامض ولا وسيلة لنا لإزالة غموضه والكشف عن حقيقته.

عد ٩١٣
بطاركة اورشليم في القرن الرابع عشر

فرغنا من الكلام على بطاركة اورشليم في القرن الثالث عشر، بذكر البطريرك تادى الفرمي. ويظهر أنَّ الذي خلفه في أوائل القرن الرابع عشر إنما هو صفرونيوس الثالث. فقد روى نيكوفور كاليستوس (في المجلد الثاني من تاريخه فصل ٣٩ في نقل الاساقفة) أنَّ صفرونيوس (الذي يظهر أنّه خلف تادى الفرمي) توفي، فخلفه اثناسيوس اسقف قيصرية فيلبس (بانياس) فاقتحم على كرسيه جبرائيل برولا ثم ترك جبرائيل هذا الكرسي طائعاً او مكرهاً وعاد اثناسيوس وهو

الرابع بهذا الاسم الى كرسيه. وروى بخميرس (في ك٧ في اندرونيكوس الملك الذي كان ملكاً سنة ١٣٠٨م). إنَّ اثناسيوس الاول البطريرك القسطنطيني عزل اثناسيوس بطريرك اورشليم عن كرسيه لشكايات اوردها عليه جبرائيل برولا اسقف قيصرية فيلبوس، فأرجع البطريرك القسطنطيني برولا مع قصاد من قبل الملك للتحقيق على تلك الوشايات في اورشليم، فعزل الفاحصون اثناسيوس وأقاموا جبرائيل برولا الشاكي مكانه. ولم يذكر بخميرس رجوع اتناسيوس، ولكن ذكره نيكوفور كاليستوس كما رأيت.

وقد روى يوحنا نتكوزان (ك٤ من تاريخه فصل ١٤)، إنه بعد وفاة اثناسيوس اجتمع الاساقفة في اورشليم، فانتخبوا العازر، فأتى إلى القسطنطينية ليثبته الملك اندرونيكس الثاني. وجاء في اثره جراسيموس الراهب وبعض مشايعيه، فشكوا البطريرك، فلم يقبل الملك شكاياتهم ولا برَّأ ساحة البطريرك، بل أمره ان يبقى بالقسطنطينية، ووجه وفداً إلى اورشليم ليستقصي جلية الامر من الاساقفة، وعرض حينئذٍ موت اندرونيكوس الملك سنة ١٣٢٣م. فعزل يوحنا البطريرك القسطنطيني العازر المذكور عن بطريركيته ونصب جراسيموس عدوه، وأرسله بطريركاً إلى اورشليم، فشكاه الاورشليمون إلى السلطان بمصر فعزله وسار جراسيموس إلى مصر ليبرر نفسه مما تجنوا عليه به، فعاجلته المنية في الطريق وعاد العازر إلى كرسيه في اورشليم. وأثبت رانيلدوس رسالة من البابا اوربانوس الخامس انفذها سنة ١٣٦٧م الى العازر البطريرك هذا وإلى البطريرك القسطنطيني والبطريرك الاسكندري يستحثهم بها على الاتحاد بالكنيسة الرومانية. وقد مرَّ آنفاً ذكر هذه الرسالة ومنها يظهر ان العازر بقي حياً في بطريركيته اورشليم الى سنة ١٣٧٦م. وقد قام بها منذ سنة ١٣٣٢ او سنة ١٣٣١م. ويظهر ايضاً من هذه الرسالة انَّ هذا البطريرك كان يرغب في الاتحاد بالكنيسة الرومانية ولا علم لنا بغير ذلك من اخبار هذا البطريرك.

وقام بعد العازر صفرونيوس الرابع دوزيتاوس في جدوله بعد العازر، ثم قال في لكتاب السابع من تاريخ بطاركة اورشليم انه استمر في البطريركية ستاً وأربعين سنة. فقال لكويان لا اعلم كيف يصح ذلك لأنَّ العازر سالفه بقي حياً الى سنة ١٣٦٧م كما علمت من رسالة البابا المذكورة ودوروتاوس خليفة صفرونيوس. هذا يقال ان الملك يوحنا بالالوغوس اقره في البطريركية وهذا الملك تسنم منصة الملك

سنة ١٣٨٤م، وفي رواية اخرى سنة ١٣٨٧م وتوفي سنة ١٣٩١م، فكيف يصح القول انه دبّر بطريركية اورشليم ستاً وأربعين سنة وهو كان بعد العازر وقبل دوروتاوس الآتي ذكره.

وكان بعد صفرونيوس الرابع دوروتاوس الاول ذكره دوزيتاوس في جدوله بعد صفرونيوس الرابع وقد أقره في البطريركية الملك الذي يقال انه كان يوحنا بالالوغوس. وقدمنا نقلاً عن لكويان أنه صير ملكاً سنة ١٣٨٧م او سنة ١٣٨٧م.

وصير بعد دوروتاوس بطريركاً ابنه توافيلوس الثاني لأنه كان مزوجاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدسة، فخلفه ابنه بعد وفاته وكان في ايام عمانوئيل الثاني بالالوغوس الذي رقي إلى سدة الملك سنة ١٣٩١م. وفي ١٣٩١م وفي أيام ابنه الملك يوحنا السابع بالالوغوس الذي شارك اباه في الملك سنة ١٣٩٩م فقد قال دوزيتاوس (في ك٧ في تاريخ بطاركة اورشليم فصل ٢٢) أنه قرأ في كتاب الميناوون المحفوظ باورشليم ما ملخصه: «إنّ ذلك الكتاب خط في ايام البطريرك دوروتاوس. والآن يدبّر البطريركية توافيلوس ابنه على عهد الملك عمانوئيل بالالوغوس الشيخ وابنه الملك يوحنا».

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الرابع عشر

عد ٩١٤

محبوب بن قسطنطين مطران منبج اليعقوبي

ذكره المطران اسطفانوس عواد السمعاني في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية (كتاب ٢٣٢ صفحة ٢١٣). فقال أنّ له تاريخاً عاماً ابتدأ فيه من سنة تجسد المخلص وأوصله إلى ايامه أي إلى القرن الرابع عشر. وضمنه ما جاء في

التاريخ المشهور الذي يستشهده متواتراً العلماء من اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة بالمسيح، وهو حاوٍ تاريخ اليعاقبة من السريان والقبط والاحباش والارمن وزاد عليه ما يأتي:

أولاً: تاريخ اعمال الملوك الرومانيين وفهرست اسمائهم من اغوسطوس قيصر الى اندرونيكوس الثاني بالالوغوس الذي خلف اباه ميخائيل بالالوغوس سنة ١٢٨٣م.

ثانياً: تاريخ الملل المشرقية أعني الروم الملكية والنساطرة والموارنة، وقد سمّى جميع هؤلاء هراطقة لخضوعهم للكنيسة الرومانية أو مخالفتهم بدعته التي هي اليعقوبية.

ثالثاً: تاريخ سبعة مجامع عامة وهي النيقوي والقسطنطيني والأفسسي الاول الذي عُقِد لنبذ تعليم نسطور، ثم الافسي الثاني الذي عقد خلافاً لاوطيخا، فإنَّ القبط اصحاب الطبيعة الواحدة يسلمون بهذا المجمع وينبذه سائر اليعاقبة وتحرمه الكنيسة الرومانية، ثم المجمع الخليكدوني الذي ذكره محبوب المذكور ونبذه وذكر بدلاً منه المجمع الافسوسي الثاني وسماه المجمع الرابع. ثم ذكر القسطنطيني ووصفه بالخامس ثم القسطنطيني ونعته بالسادس ثم بالقسطنطيني ووسمه بالسابع وقال أنه التأم خلافاً لمحاربي الصور مع أنَّ هذا المجمع عقد بنيقية لا بالقسطنطينية.

رابعاً: مختصر تاريخ المسلمين العرب والفرس والافريقيين والاسياويين والسوريين من تاريخ سنة ٩٣٣ لاسكندر أي سنة ٦٢٢ للميلاد إلى سنة ٧١٢ هجرية وهي سنة ١٣١٢ للميلاد التي بها كان ختام ما كتبه محبوب بن قسطنطين مطران منبج المذكور.

وقال المطران اسطفانس المذكور لا علم لي بنسخة أخرى لهذا الكتاب إلاّ هذه النسخة التي في المكتبة الماديشية، فهو اثر جليل جدير بالتعظيم وينبغي الاحتفاظ عليه. وقد خط على رقٍ في ١٢٧ صفحة بالعربية الفصحى والاحرف العربية وقد نسخه سعيد بن يوحنا ابن ابي البدر بن عبد المسيح اليعقوبي الرهاوي كما هو مدوّن في آخره.

عد ٩١٥

عبد يشوع مطران صوبا

هو عبد يشوع الصوباوي النسطوري الذي استشهدنا مرات في هذا التاريخ بأقواله. وقد وضع العلامة السمعاني ترجمته في صفحة ٣٢٥ وما يليها من المجلد الثالث من مكتبته الشرقية الذي أفرده لقصيدته الشهيرة الآتي ذكرها ولشرحها وتذييلها. فقال ما ملخصه ان عبد يشوع المذكور اسم ابيه مبارك، وقد رقي اولاً إلى اسقفية سيغارا والعربية نحو سنة ١٢٨٥م ثم رقاه يهب الله بطريرك النساطرة الى متروبوليطية صوبا وهي نصيبين نحو سنة ١٢٩٠م وكانت وفاته في شهر تشرين الثاني سنة ١٣١٨. في أيام ثيموتاوس خليفة يهب الله المذكور وقد بيَّن السمعاني اغترار ابراهيم الحاقلي ورينودوسيوس ومرهج بن نيرون الباني وغيرهم بعدم التفرقة بين عبد يشوع الصوباوي، هذا الذي كان في آواخر القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر وبين عبد يشوع الآخر الذي كان في أيام البابا بيوس الرابع في القرن السادس عشر وسار الى رومة فجحد بدعة النساطرة وأقر بالإيمان الكاثوليكي وصير بطريركاً على الكلدان الكاثوليكيين. فبين الاثنين ما يزيد على قرنين وقد أقام السمعاني على ذلك براهين قاطعة وبيّنات دامغة. وكان الصوباوي الذي نكتب ترجمته طائر الشهرة بقلمه حائزاً أعلى مرتبة بين قومه وسائر السريان حتى يقال انه لا يضاهيه أحدٌ في فصاحة الخطب التي كتبها بالسريانية نظماً ونثراً، وهو أشبه بملافنة السريان افرام واسحق ويعقوب، لولا تلوثه بأضاليل النساطرة، مما يحط من قدر غزارة اقواله وطلاوة نسقه وسعة اطّلاعه بالمباحث المقدسة.

وأما الكتب التي ألّفها وصنّفها فكثيرة وقد عددّها هو بنفسه في آخر قصيدته التي جمع فيها أسماء المؤلفين ومصنفاتهم. فقال وأما الكتب التي الفتها انا الحقير عبد يشوع مطران صوبا فهي كتاب «تفسير الاسفار المقدسة في العهدين القديم والجديد». قال السمعاني في شرح ذلك زعم هوتنجاروس ان تفسير الصوباوى هذا بالمعنى المجازي، وقد فاته ان توادوروس المصيصي ومن تبعه من النساطرة يأنفون من تفسير الاسفار المقدسة بالمعني المجازى ومن العدول عن المعنى الحقيقي اليه. وقد ذكر عبد يشوع ان توادوروس المذكور الف خمسة كتب رداً على من يفسرون الكتاب بالمعنى المجازي، وهو أي عبد يشوع لم يشر في تفسيره البتة الى انه بالمعنى

المجازي وقد اغترَّ هوتنجاروس بكلمة ܟܬܒܐ ܪܘܙ من كلام الصوباوي مع ان هذه الكلمة عند السريان بمعنى نص الكتاب لا بمعنى مجاز. والكتاب الثاني من الكتب التي عزاها الصوباوي الى نفسه «الكتاب الجامع في التدبير العجيب» اي في تجسد المسيح وأعماله، والثالث كتاب يسميه «قصائد فردوس عَدن» وترجم ابراهيم الحاقلي هذا الاسم بفردوس اللذات. وقال السمعاني من هذا الكتاب نسخة في المكتبة الواتيكانية أُخِذَت عن نسخة مدققة كانت في مكتبة الرهبان الموارنة الساكنين برومة حذاء كنيسة القديسين بطرس ومرشلينوس، وقد قسم الصوباوي هذا الكتاب المنطوي على خمسين قصيدة الى قسمين سمى الاول الحاوي خمساً وعشرين قصيدة «احنوخ» وسمى الثاني ايليا. وادعى في المقدمة ان يرد على من قال أنَّ اللغة العربية افصح من السريانية والسبب منها لنظم الشعر، فردّ كلامه السمعاني في شرحه له قائلاً: «لا يقول بتفضيل السريانية على العربية إلّا من كان قليل الخبرة باللغتين». فالعربية أوسع وأغنى من السريانية بل من اليونانية أيضا، وهي أفصح من جميع اللغات الشرقية، وربما كان المقام الاول للسريانية في ايام الملوك الاشوريين والكلدان. وأما الآن فأين هي من اللغة العربية. وضمّن كلامه في هذه القصائد انواعاً كثيرة من البديع كما يقرأ طرداً وعكساً، وما التزم في قوافيه لزوم ما لا يلزم وغير ذلك من انواع البديع اللفظي كالتزامه في قصيدته الاخيرة حرف التاء في كل كلمة منها، ونهاية كل بيت بتاء وألف. والكتاب الرابع من كتبه يتضمن مختصر القوانين. وقال السمعاني ان من هذا الكتاب في المكتبة الواتيكانية نسختين احداهما كتبت سنة ١٥٥٧م والثانية خطت ١٣٣٢م بعد وفاة المؤلف بأربع عشرة سنة. وهو مقسوم الى قسمين يتضمن الاول ما يتعلق بعامة الناس كالقوانين التي موضوعها الخطبة والزيجة وتقسيم الميراث والأحكام الشرعية والإيمان والآداب الخ . والثاني ما يتعلق باصحاب المراتب البيعية كالانتخابات والوظائف البيعية الخ.. وذكر السمعاني عنوانات كل من فصول هذا الكتاب.

والكتاب الخامس من كتبه في «اعمال الشاه» اي الملك مروان في خراسان وقد كتبه باللغة العربية. والسادس كتابه الذي وسمه ܟܬܒܐ ܕܡܪܓܢܝܬܐ أي كتاب «الدرة» أو الجوهرة في حقيقية الايمان. وقد ذكر الحاقلي هذا الكتاب في فهرست اسماء المؤلفين الذين استشهدهم في كتابه الانتصار لافيتشيوس. وقال أنّ لديه منه نسختين: الاولى في مكتبة كنيسة الصليب الاورشليمي، والثانية في جملة

كتب ابراهيم الحاقلي. وقسم الصوباوى كتابه هذا إلى خمسة أقسام وفي كل منها عدة فصول، القسم الاول في الله وصفاته. الثاني في الخليقة او في خلق العالم، ومعصية آدم وسنن الله والانبياء كابراهيم وموسى ثم في النبوات المبشرة بتجسد المخلص. والثالث بتجسد المخلص في أحشاء العذراء وفي صحة الايمان المسيحي وحقيقته ثم في البدع ورد ما يعترض به اصحابها، وفي ان العذراء تسمى والدة المسيح بحسب زعم اصحاب بدعته لا والدة الله، ثم في الكنيسة. والقسم الرابع في اسرار الكنيسة وعدها سبعة اسرار: الكهنوت والمعمودية ومسحة الميرون أي سر التثبيت والقربان جسد المسيح ودمه ومغفرة الخطايا أي سر التوبة وأدخلوا مكان سر المسحة رسم إشارة الصليب ومكان الزيجة الخمير المقدس. ثم تكلم على كلٍ منها في فصلٍ على حدة. ثم القسم الخامس وضمنه الكلام في ما يتعلق بالحياة الاخرى كتكريم ايام الآحاد والاعياد والصوم والصلاة والصدقة والقيامة والدينونة.

والسابع من كتبه ܟܬܒܐ ܕܐܪ̈ܙܐ ܟܣ̈ܝܐ ܘܕܦܝܠܘ ܣܘܦܘ ܕܝܘܢ̈ܝܐ ارتأى الحاقلي وهوتنجاروس ان المعنى «كتاب الاسرار المحجوبة» في فلسفة اليونان وأصح من ذلك ما قاله السمعاني من ان المقصود بالكلام المذكور كتابان: كتاب في اسرار البيعة وكتاب في فلسفةِ اليونان لأن عنوان النسخة الموجودة في المكتبة الواتيكية من هذا الكتاب ܟܬܒܐ ܕܐܪ̈ܙܐ ܥܕܬ̈ܢܝܐ ܘܕܦܝܠܘ ܣܘܦܘ ܕܝܘܢ̈ܝܐ أي كتاب أسرار البيعة وفلسفة اليونان وإسقاط واو العطف في الشعر مباح. والثامن كتابه في «الجدل ودحض البدع». والتاسع كتاب «نظام الاحكام والسنن البيعية» اسهب به ما أوجز في كتابه مجموع قوانين المجامع المار ذكره. والعاشر من كتبه حوى اثنتي عشرة قصيدة ضمنها شروحاً في بعض العلوم حاذياً حذو ابن العبري بشرحه بعض العلوم في قصائده. والحادي عشر مقالات في تفسير بعض الآيات المقدسة وخطب. والثاني عشر ديوان قصائد في موضوعات كثيرة ذكر منها السمعاني قصيدة في التغرب وقصيدة في الالفاظ المترادفة وبعض هذه القصائد أخذ عن كتابه فردوس عدن المار ذكره. والثالث عشر قصيدته التي بسط بها اسماء الكتاب مبتدئاً بموسى والانبياء إلى أيامه ولاسيما المؤلفون النساطرة. وقد شرح هذه القصيدة كثيرون منهم ابراهيم الحاقلي الماروني ثم العلامة السمعاني في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية. ولعبد يشوع أيضاً تفسير رسالة ارسطو الى اسكندر الكبير في

الصناعة العظمى وهي الكيمياء وله أيضاً رسائل متنوعة. وذكر له عمرو بن متى رسالة عربية في التثليث والتوحيد والتجسد وله مقالة في بعض المباحث المشكلة، ومقالة أخرى في الالغاز والمعميات والامثال (انتهى ملخصاً عن السمعاني في المجلد ٣ من المكتبة المشرقية صفحة ٣٢٥ الى ٣٦١).

عد ٩١٦

دانيال الكاهن وخامس بن القرداحي

أما دانيال فهو كاهن سرياني يعقوبي، كان في هذا القرن الرابع عشر وله كتاب مجموعة القوانين، حذا به حذو ابن العبري. وقد ذكره ابراهيم الحاقلي الماروني في كتابه الموسوم بالانتصار لافتيشيوس، فقال هو العالم دانيال السرياني اليعقوبي المذهب، ألف كتاباً موجزاً في قوانين اليعاقبة باللغة العربية يشتمل على سبعة عشر فصلاً ١ في الكنيسة ٢ في العماد ٣ في القربان ٤ في الاصوام والاعياد ٥ في الصلوات ٦ في تجنيز الاموات ٧ في مراتب الكهنوت ٨ في الوصايا ٩ في قسمة المواريث ١٠ في البيع والشراء ١١ في الرهن ١٢ في الشركة ١٣ في الوديعة ١٤ في العارية ١٥ في الهبات ١٦ في الوقف ١٧ في الكبائر اي الخطايا ويظهر انه اختصر كتاب موجز القوانين لابن العبري، لان دانيال اختتم كتابه بقوله: «فهذا ما سمح به الخاطر من اختصار بعض ابواب القوانين البيعية والاحكام العالمية. ومن اراد الاستقصاء في ذلك، فعليه بمطالعة كتاب الهدايا لشيخنا المفريان». يريد غريغوريوس بن العبري. وقد ترجم دانيال أو اختصر غير كتاب الهدايا من تآليف ابن العبرى وقد شهد بذلك داود الحمصي في حاشية علّقها على كتابه في القوانين الذي كان قبلاً لابراهيم الحاقلي. ثم اتصل الى السمعاني وهذا قوله في تلك الحاشية: «قال داود الحمصي ان ملة السريان كان قد فني عملها علومها إلى ان ظهر المطران يوسف بن غريب وله كتب مصححة، وكذلك الربان يشوع بن حبرون، وبعدهم الشيخ المرحوم دانيال وله من المصنفات عدة كتب، وهي كتاب «أيتيقون» (أي في الادبيات) وكتاب «أوصر رازى» (كنز الاسرار) وكتاب «اصول الدين» وكتاب «صححي مختصر» (أي مختصر صححي ابن العبرى). وكتاب «ايساغوجي مختصر» وكتاب «هدايا» وهو هذا وغيرها». وقد زيد على كتاب

القوانين لدانيال المذكور ستة وعشرون قانوناً من تآليف يوحنا بطريرك اليعاقبة ذكرها داود الحمصي المذكور.

أما خامس بن القرداحي او الحداد فهو شاعر نسطوري كان في أواخر القرن الثالث عشر وبداية هذا القرن. وكان بعد ابن العبري الذي توفي سنة ١٢٨٦م لأنه شطّر أو خمّس بعض قصائده وله ديوان بالسريانية في المكتبة الواتيكانية وهو الثاني والثلاثون من الكتب السريانية نسخ سنة ١٨٨٩ لاسكندر الموافقة سنة ١٤٧٨ للميلاد. وفي اول صفحة منه قصيدة لابن العبري في الامور الالهية وكمال سيرة المجتهدين بالحكمة شطّرها خامس بن القرداحي. وقد اشتمل هذا الكتاب من صفحة ٦٢ الى صفحة ٢٤٨ على اغاني وقصائد ثم على قصيدة في الدينونة العامة. روى ذلك العلامة السمعاني في مجلد ٣ في المكتبة المشرقية صفحة ٥٦٦. وذكر في المجلد الثاني صفحة ٤٨٩ قصائد العالم خامس بن القرداحي، فقال له من القصائد الادبية ست عشرة قصيدة وله في موضوعات مختلفة خمس عشرة قصيدة، وفي الصوم قصيدتان، وفي الاستعداد لتلاوة الانجيل قصيدة، عند زيارة الابرشية قصيدة، وعدة قصائد لتتلى في آحاد السنة.

عد ٩١٧

تيموتاوس الثاني بطريرك النساطرة واغناطيوس بن رهيب بطريرك اليعاقبة

اما تيموتاوس فصيرٌ بطريركاً على النساطرة في سنة ١٣١٨م. وكان قبل ذلك مطران الموصل وأربيل، ومن اثاره اثباته القوانين البيعية في كنيسته. ذكر ذلك عبد يشوع الصوباوى في كتابه في القوانين وله كتاب في اسرار الكنيسة اتى يوسف الثالث بطريرك الكلدان بنسخة منه الى مجمع نشر الايمان المقدس، كتبت باورشليم سنة ١٦١٣م. وفصل السمعاني (في مجلد ٣ من المكتبة الشرقية ٥٧٢ وما يلي) ما اشتمل عليه هذا الكتاب وبدؤه الفصل الاول في الكهنوت، والفصل الثاني في تكريس الكنيسة، والثالث في المعمودية، والرابع في جسد المسيح ودمه المقدسين وقال فيه إنّ الامثل فيه تقديس الخبز خميراً، وإن الرسل استعملوه كذلك، وإن مزيج الماء بالخمر لازم، الخامس في الكمال الرهباني، والسادس في تجنيز الموتى، والسابع في الخطبة والزواج. وفي كل هذه الفصول عدة أجزاء (عن المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة ٥٧٦)

وأما أغناطيوس وهو يوسف بن وهيب فكان اولاً اسقفاً على ماردين ثم رقي الى المقام البطيركي على اليعاقبة سنة ١٢٩٣م وتوفي سنة ١٣٣٢م، وسمي حينئذٍ أغناطيوس وتابعه خلفاؤه على التسمية باسم اغناطيوس. وله مقالة مسهبة في تفسير الحروف السريانية وكتاب مشبع في الفاظ هذه اللغة، وألف نافوراً منه نسخة في الكتاب الرابع من الكتب السريانية المأتي بها من الاسقيط الى المكتبة الواتيكانية يبتدئ في صفحة ٦١ منه، وفي الكتاب الخامس منها ايضاً صفحة ٢١. وفاتحة هذا النافور ܐܠܗܐ ܟܣܝܐ ܠܐ ܡܬܕܪܟܢܐ ايها الاله المحتجب وغير المدرك. وترجمة رينودوسيوس الى اللاتينية في المجلد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٥٨٢. وقد ذكره البطريرك اسطفانس الدويهي في كتابه «المنائر العشر» عد٨ في مؤلفي النوافير غير الكاثوليكيين، فقال اغناطيوس وهو يوسف بن وهيب له شرح على القداس ونافور بدؤه ܡܪܝܐ ܐܠܗܐ ܚܝܠܬܢܐ ܘܠܐ ܡܬܕܪܟܢܐ ايها الرب الاله القوي والذي لا يدرك واستدرك السمعاني على الاهدني بأن النافور الذي هو بدؤه ليس لاغناطيوس المذكور بل لفيلوكسينوس المنبجي كما يظهر من الكتاب الرابع من الكتب المأتي بها من الاسقيط صفحة ٦١٦ ومن الكتاب الخامس منها صفحة ١٨٥ ومن المجلد الثاني من كتاب رينودوسيوس المذكور صفحة ٣١٠ (عن المكتبة المشرقية مجلد ٢ صفحة ٤٦٤).

عد ٩١٨

عمرو بن متى

هو عالم نسطوري اشتهر نحو سنة ١٣٤٠م ويظهر من أحد اقواله انه بقي حياً الى سنة ١٣٤٩م، وقد ذكره عبد يشوع الصوباوي الذي توفي سنة ١٣١٨م وظنه بعضهم ماري بن سليمان وهو عالم آخر نسطوري كان في القرن الثاني عشر، وألف كتاباً عربياً سماه المجدل، وذكر فيه سلسلة بطاركة النساطرة. والف عمرو بن متى كتاباً آخر سماه المجدل ايضاً وذكر سلسلة البطاركة المذكورين عن ماري مع شرح لها وزيادة عليها فنشأ الوهم بعدم التفريق بين هذين العالمين مع ان كتاب المجدل لماري بن سليمان قسمه الى سبعة ابواب وثلاثين فصلاً وكتاب المجدل لعمرو ابن متى قسمه الى خمسة اجزاء. وكان العلامة السمعاني قد اغتر بشهادة ابي

البركات في فهرست المجلد الثاني من المكتبة الشرقية كتاب المجدل لماري بن سليمان الى بن متى وبين أبوابه السبعة. ثم انتبه الى اغتراره في المجلد الثالث عند كلامه على عمرو بن متى فأصلح ما فرط منه وذكر خلاصة كل من الكتابين معدداً الابواب والاجزاء والفصول فيهما وعنواناتهما.

ومما ذكره في خلاصة كتاب عمرو المسمى المجدل وهو خمسة اجزاء، الجزء الاول ساقط من نسخته التي في المكتبة الواتيكانية، الجزء الثاني فيه خمس مقدمات وثمانية فصول المقدمة الثانية في تعريف امر المشارقة كيف صاروا يلقبون نساطرة ومن الذي رمى بهم عليهم اسم نسطور، فبطريرك القسطنطينية وهو رجل يوناني وهم سريان ولم يكونوا رأوه البتة ولا طرق بلادهم المقدمة الخامسة في معنى الاتحاد والنبوة الفصل الاول في ان الشرق اشرف الجهات. الفصل الثاني في بيان ان مبدأ البناء والعمارة في الدنيا كان في الشرق، ومنه امتد الى سائر الجهات الاخر، الفصل السادس في بيان ان الاصل الاول في معرفة الله تعالى والايمان به وظهور الناموس والكهنوت والميعاد بالمسيح إنما كان من الشرق. الفصل السابع في بيان أن من الشرق كان ابتداء ظهور البشارة بسيدنا يسوع المسيح والايمان به. الفصل الثامن في تلماد الرسل الاطهار للافاق والبلدان، الجزء الثالث في ذكر البطاركة والملوك وما كان في أيامهم منذ صارت المملكة للنصارى مبتدئة من الملك قسطنطين ثم في معنى الصور واكرامها ثم في ترتيب بعض الصلوات بالتراتيل والالحان. الجزء الرابع ويشتمل على ذكر الملل والاراء والاعتقادات وعدد المجامع وفيه سبعة فصول: الاول في ذكر الملة اليهودية والانبياء والملوك وما كان في ايامهم، الثاني في ذكر الملة السامرية، الثالث في ما حدث قديماً في بلاد الروم واليونان من الآراء والاعتقادات، الرابع في ذكر المذاهب والآراء الكائنة ببلاد الروم واليونان بعد تلماد الرسل، الخامس في ذكر الهيكل المبني على اسم ميكائيل مما ذكره الانبا اوتيشيوس الملكي بطريرك الاسكندرية المعروف بسعيد ابن البطريق، السادس في ذكر ان المشارقة من قديم الزمان الى الان كانوا غير محتاجين الى جمع مجمع لأجل اصلاح ما تغير من قواعد الدين، السابع في عدد المجامع. الجزء الخامس يشتمل على سبعة اصول وخاتمة وأخص ما ذكره في هذا الجزء الكلام في الرسل الاثني عشر، وبعض التلاميذ السبعين، وبطاركة الشرق ومطارينهم وكراسيهم، وما وضعه الآباء الشرقيون ولا سيما ما ذكره اليا بطريرك الشرق في كتابه البرهان في تصحيح الايمان وجيورجيوس

مطران الموصل في كتابه امانة المشارقة، ومكيخا بطريرك الشرق في مقاليه وميخائيل اسقف امد وميافارقين وعبد يشوع مطران نصيبين (هو الصوباوي) في مقالته في التوحيد والتثليث وفي الحلول والاتحاد وفي توبيخ اليهود على ما يبتدعونه واظهار بهتهم ووجوب نسخ الشرائع القديمة وامتناع نسخ شريعة المسيح. وما ذكره في الاصل الرابع من هذا الجزء ما اتفق عليه فرق النصارى في الاتحاد والرد على من يقول ان النساطرة يقولون بابنين. فهذه خلاصة كتاب المجدل اي البرج لعمرو بن متى (عن السمعاني في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية ٥٨٠ وما يليها). وقد انتقد السمعاني كلام عمرو في كتابه هذا في عدة مواضع في المكتبة الشرقية.

عد ٩١٩
مشاهير آخرون في هذا القرن

جبرائيل اسقف الموصل

ذكره السمعاني في المجلد الثالث من المكتبة المشرقية صفحة ٥٦٦ فقال انه كان مطراناً على النساطرة في الموصل سنة ١٢٨٢م، وتوفي سنة ١٦٢٩ يونانية الموافقة سنة ١٣١٨ للميلاد وله قصائد سريانية وهو راهب في دير سبر يشوع تكلم فيها على خلق العالم وعلى التجسد والفداء وتبشير الرسل وضمن تقاريظ للآباء والعلماء البيعيين وكتب ترجمة سبر يشوع صاحب الدير المذكور وديوان مثبت في الكتاب الثاني والثلاثين من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية صفحة ٣٣ وفي الكتاب السابع منها.

نيقوفور كاليستوس

هو راهب يوناني كان في هذا القرن الرابع عشر وتوفي سنة ١٣٥٠م وله تاريخ ابتدأ فيه من سنة ميلاد المخلّص وضمنه في ثلاثة وعشرين كتاباً، ولمّا كان من الروم غير المتحدين انكر في كتبه انبثاق الروح القدس من الآب والابن وقد انتقد العلماء كتبه في مواضع كثيرة وبينوا ان فيها بعض الحكايات والاقاصيص.

توادورس القاري

كان هذا قارئاً في كنيسة القسطنطينية وكتب تاريخاً بيعياً أملاه عليه نيقوفور كاليستوس وابتدأ فيه من تاريخ وفاة توادورس الصغير وانتهى في تاريخ سنة ٥١٨ وقد اشتهر توادورس هذا سنة ١٣٢٠م.

نيقوفور كراكوراس

كان في هذا القرن ايضاً وكتب تاريخ بيزنطية اي القسطنطينية في احد عشر كتاباً وابتدأ من سنة اخذ الفرنج القسطنطينية إلى سنة ١٣٦١م وقد ترجم تاريخه هذا الى اللاتينية العالم ايرونموس فلوفليوس.

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الرابع عشر

عد ٩٢٠

ما نعلمه من حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن

كانت في السنين الاولى من هذا القرن الحروب التي فتح بها عمل كسروان وقد ألحقنا اخبارها بتاريخهم في القرن الثالث عشر متابعة، لئلا نقسم الكلام على هذه الحروب في تاريخ قرنين فليطالعها هناك من شاء.

وقل ما علمنا من تاريخ حالهم الدنيوية في هذا القرن، فجل ما علمناه انهم شرعوا يسمون حكام اعمالهم او قراهم الكبيرة مقدمين بدلاً من تسمية حكام الاعمال امراء. وجاء في اخبار الاعيان (ص١٠٩) للمرحوم طنوس الشدياق انه في

سنة ١٣٧٥ م توفي غزال القيسي الماروني مقدم العاقورة، ولم يخلف ولداً ذكراً فورثته ابنته. زوجة جرجس الملقب بالشدياق. ولم يذكر المؤلف مسنداً لهذا الخبر ولم يروهِ البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخه فيتعذر علينا القطع بصحته.

وروى البطريرك الدويهي عن ابن سباط انه في سنة ١٤٨٨م جهز الملك الظاهر برقوق العساكر المصرية لمقاتلة الناصري ومنطاش فجمع هذان عساكر الشام والعرب والتركمان وأهل كسروان والجرديين وجرت بينهم حروب، فانتصر منطاش والناصري على عساكر مصر وهزموها. وفي اثناء ذلك انتشب القتال بين امراء الغرب وبين عشران (فسر بعضهم هذه اللفظة بمعنى المتطوعين ونظن انها جمع العاشر وهو من يؤمن المارة من اللصوص) البر اهل كسروان والامراء اولاد الاعمى من تركمان كسروان. وكان امراء الغرب من حزب الملك الظاهر برقوق والكسروانيون من جهة ارغون نائب منطاش ببيروت فاستظهر اهل كسروان على امراء الغرب وقتلوا منهم نحواً من تسعين شخصاً وأمسكوا جماعة منهم وقتلوا بعضهم ونهبوا ما وجدوا لأمراء الغرب في بيروت وأحرقوا عدة قرى من الغرب منها عين عنوب وعيناب وشملان وعيتات وغيرها. وبعد ان عاد الملك الظاهر الى السلطنة (كما مرّ) وجه عساكره الى تركمان كسروان (ويروى قصدت العساكر طومان شيخ التركمان حاكم كسروان) وجرت بين الفريقين وقعة في الساحل في جورة منطاش بزوق ميكائيل فقتل من التركمان الامير علي واخوه الامير عمر ابنا الاعمى وجماعة كثيرة ونهبوا زوق ميكائيل.

فذكر أهل كسروان والجرديين بعد ذكر التركمان يدل دلالة صريحة على ان الكسروانيين المذكورين هنا ليسوا من التركمان سكان سواحل كسروان بل من الموارنة الذين كانوا قد استمروا بكسروان بعد الفتح او كانوا قد رجعوا اليه بعد خرابه إذ كان قد مضى بعد الفتح اكثر من ثمانين سنة.

وروى الدويهي في تاريخ هذه السنة ان الملك الظاهر لما كان معتزلاً عن السلطنة أقام الشدياق يعقوب بن ايوب مقدماً على بشري وكتب له ذلك بصفيحة من نحاس. وقد ذكر هذا الخبر صاحب الغرر وروى العبارة الاخيرة. وكتب له صفيحة بختمه ان يكون شيخاً. ثم حلّ الملك الظاهر بدير قنوبين وكان رئيسه كاهناً اسمه القس بطرس، فاحسن استقباله فعفا الدير من الاموال الاميرية وجعل له

التقدم على جميع اديار تلك النواحي وكتب ذلك على صفيحة نحاسية. وفي كتاب الغرر اعطاه بذلك خطأ. ولما عاد الملك الظاهر إلى الكرك وكان البطريرك داود الذي دعي يوحنا مقيماً بدير مار سركيس القرن بأرض حردين فجعل القس بطرس المذكور اسقفاً واسكنه دير قنوبين.

عد ٩٢١
بطاركة الموارنة في القرن الرابع عشر

إن آخر من ذكرناهم من بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر هو سمعان الخامس الذي صير بطريركاً في آواخر القرن المذكور واستمر على السدة البطريركية زماناً طويلاً حتى سنة ١٣٣٩م. فقد علمنا انه كان بطريركاً سنة ١٣٢٢م من حاشية علقها الشماس سابا بن سليمان ابن الخوري جرجس شامات (وفي تاريخ الموارنة المطبوع، وفي سلسلة بطاركتهم المذاعة في الشرق قنات بدلاً من شامات) على كتاب الانجيل الذي نسخه بالاحرف السطرنكلية على رق سنة ١٣٢٢م قال فيها: «كان الفراغ من نسخ هذا الكتاب في ايام ابينا البطريرك سمعان الجالس على كرسي انطاكية. وفي ايام بطرس رئيس اساقفة بشري سنة ١٦٣٣ يونانية» (توافق سنة ١٣٢٢م) قال الدويهي هذا الكتاب محفوظ في دير مار ميخائيل شاريا بقرية عينتورين وعلمنا من حاشية اخرى علقها القس يعقوب رئيس دير مرت مورا باهدن على كتاب الانجيل الذي بكنيسة بجة من بلاد جبيل انه كان الفراغ منه سنة ١٣٣٩م في أيام البطرك شمعون (سمعان) وبطرس مطران اهدن.

وبعد وفاة البطريرك سمعان انتخب مكانه يوحنا وهو التاسع بهذا الاسم. روى ذلك لكويان نقلاً عن الدويهي سنداً إلى ما كتب على كتاب قديم بكنيسة القديس سركيس بحدشيت بالسريانية وهذه ترجمته:

كان الفراغ من نسخ هذا الكتاب سنة ١٣٥٧ للتاريخ المسيحي في ايام سيدنا المختار يوحنا بطريرك انطاكية وجبل لبنان وسواحل البحر وفي ايام يوحنا مطران قبرص».

وروى البطريرك الدويهي في تاريخ سنة ١٣٦٧م ان يعقوب اسقف اهدن

كتب في ذيل كتاب الانجيل الذي خطه سنة ١٦٧٧ لاسكندر (توافق سنة ١٣٦٧م المذكورة) انه في هذه السنة قصد ملك الاسكندرية بجيشه فقتل رجالها وأسر صغارها ونهب اموالها. فغضب سلطان المسلمين على النصارى وأمسك رؤساء الكنيسة وحبسهم بدمشق. وكان الاسقف المذكور في جملتهم فتمكن من الهرب. وكتب هذا الكتاب وهو مستتر. وقال الدويهي ان هذا الكتاب محفوظ بدير قنوبين وهو سبعة وعشرون كراساً بالخط السرياني والكرشوني وقد ذكر الدويهي هذا توطئة لقوله التالي: «وفي هذه السنة كان على الكرسي الانطاكي البطريرك جبرائيل واستتر حين الاضطهاد بقريته حجولا من عمل جبيل، فكتب نائب دمشق بسببه إلى نائب طرابلس، وعند ما علم انه في حجولا قبض على اربعين رجلاً من هذه القرية وأمرهم باحضاره فاحضروه وأمر بحرقه في اول نيسان خارج طرابلس عند جامع طيلان». انتهى كلام الدويهي في تاريخه على ما في النسخة التي عندنا. وفي النسخة التي أخذ عنها المعلم رشيد الخوري الشرتوني تاريخ الموارنة مقتطفاً عن تاريخ الدويهي ثم في سلسلة بطاركة الموارنة التي نشرها في مجلة المشرق.

على أنّنا قد روينا في تاريخ بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر نقلاً عن لكويان في مؤلفه الشرق المسيحي، وعن صاحب الكتاب الموسوم بـ«سورية المقدسة» ان البطريرك جبرائيل من حجولا صير بطريركاً سنة ١٢٩٦م. واستشهد بطرابلس سنة ١٢٩٦م ولكويان اعتمد في سلسلة بطاركة الموارنة على الدويهي، لكنه قد استدرك كلامه في هذا البطريرك وذكر ما يظهر انه يخالف ذلك. وهو ما رواه السمعاني عند ذكره (في المكتبة الشرقية مج ١ صفحة ٥٧٧) كتاباً لجبرائيل القلاعي الذي روى فيه استشهاد هذا البطريرك. وقيل هناك انه كان سنة ١٣٦٧م. وترك لكويان حل هذا المشكل لعلماء الموارنة فنحن عند كلامنا في هؤلاء البطاركة في القرن الثالث عشر رجحنا صحة رواية لكويان وصاحب سورية المقدسة ان جبرائيل هذا كان في آخر القرن الثالث عشر خاصة لعلمنا باعتماد لكويان على سلسلة بطاركة الموارنة للدويهي مترجمة الى اللاتينية، وهي أصح من نسخها العربية وأسلم من التحريف. ونرى الآن لكويان في كلامه على بطاركة الموارنة في هذا القرن لم يذكر جبرائيل بل ذكر داود المسمى يوحنا خليفة ليوحنا التاسع الذي قدمنا ذكره، وعزا ذلك الى الدويهي ايضاً. فلم يكن لنا حتى الآن يدان في حل هذا المشكل. في آخر القرن الثالث عشر كان جبرائيل ام بعد نصف القرن الرابع عشر! ويزيد المسألة ارتباكاً

قول الدويهي في الفصل التاسع من رد التهم: «ان البطاركة مثل البطريرك لوقا من بنهران والبطريرك جبرائيل من حجولا ونظائرهما بتلك السنين ما استطعنا ان نقف لهم على خبر في كتاب ولا نعرف بأية سنة كانوا لعدم وجود تاريخ وانشغال الناس في تلك الايام بالحروب، فاكتفينا بإيراد ما علمناه من الاقوال في هذه المسألة دون القطع بصحة احدهما. ولا مرية في ان جبرائيل من حجولا كان بطريركاً على الموارنة وقتل في طرابلس والاختلاف على الزمان فقط.

روى لكويان انه بعد وفاة يوحنا التاسع خلفه داود الثاني ويسمى يوحنا أيضاً. وكان ساكناً بدير القديس سركيس في حردين، وهذا يظهر مما علقه الخوري دانيال من قرية بان على الكتاب الذي نسخه سنة ١٢٩٧م وهو: «كان النجاز منه سنة ١٧٨٠ يونانية (توافق سنة ١٣٩٧م) على يد الخوري دانيال ابن الحاج سمعان من قرية بان على زمان البطريرك داود المكنى يوحنا القاطن بدير مار سركيس القرن بأرض حردين، وكان بطرس مطراناً على دير قنوبين». ويستفاد من خط آخر كتبه كيرلس مطران جاج والخوري اليشاع الناسك والشماس موسى المارديني ان هذا البطريرك استمر الى سنة ١٤٠٤م التي كان فيها بطرس مطراناً هلى اهدن.

وقد زعم جبرائيل بن القلاعي ان هذا البطريرك طغاه حبيس اسمه اليشاع جال في بلاد اليعاقبة، وعند عودته ادخل في جبل لبنان رتبة جديدة وخلط الزيت بالقربان المقدس، فاغتر البطريرك بهذا الضلال حتى ابدى قسوة زائدة على رؤساء الكهنة الذين خالفوه، فوقع الخلف في الرعية وانقسموا حزبين. ذكر ذلك البطريرك الدويهي في الفصل العاشر من كتابه رد التهم عن الموارنة، وقال ان البطريرك الذي كان في عصر اليشاع الحبيس المذكور هو البطريرك داود المسمى يوحنا ايضاً الذي سكن في دير القديس سركيس بحردين، وكنا قبلاً نظن فيه انه بسبب تعليم اليشاع الحبيس وبسبب مجاورته لبعض اليعاقبة المقيمين بحردين تبع راي يعقوب وغير اسمه ودعا نفسه يوحنا، وأنشأ الاضطهاد على الملّة المارونية وعلى رؤساء كهنتها، فقاومه اهل جبة بشري وبلاد جبيل ورؤساء الاساقفة ولم يزيفوا عن الايمان القديم. ولكن لما بحثنا بحثاً شافياً عن هذه الامور تحققنا ان ظننا كان بعيداً عن دائرة الصواب، وتأكدنا ان الحبيس اليشاع كان رجلاً ناسكاً واتضح لنا من الكتب التي عثرنا عليها بخطه انه كان من قرية الحدث، وانه درس على فرح خوري قرية

وسي ثم صار حبيساً وكاهناً في محبسة القديس سركيس بقرية الحدث. ولم نجد
ي الكتب التي شرع في كتابتها منذ سنة ١٧٠٢ لاسكندر (سنة ١٣٩١م) تعليماً
جديداً ولا قولاً محدثاً. وإن صحَّ ما رواه عنه ابن القلاعي من خلطه الزيت
القربان فيكون ذلك خطأً محرماً، لكنه ليس بضلال يخالف الايمان لأنه لم يعلم
ن ذلك لازم بل كان مقصوراً على عمله. والذي يتبادر الى الفهم انه كان يدهن
لقالب بالزيت لئلا يلتصق به خبز القربان كما ندهنه الآن بالشمع وهذا لا لوم
عليه بعمله وكانت القوالب في ذلك الحين مجوفة.

لقد وقفنا على كتب كثيرة كتبت في ايام البطريرك داود المذكور فتحققنا منها
نه سمي يوحنا منذ صير بطريركاً. وقال الخوري دانيال الباني في الكتاب الذي
خطه سنة ١٣٩٧م في ايام البطريرك داود المسمى يوحنا وقدمنا هذا الخط. وكذلك
ذكر المطران كيرلس الجاجي هذا البطريرك في الكتاب الذي نسخه سنة ١٧١٢
لاسكندر (سنة ١٤٠٤م). ودعاه الاب البطريرك يوحنا ولم يطعن به. وذكره ايضاً
لمطران يعقوب اللحفدي في ذيل كتاب «الناموس» الذي نسخه للمطران داود
لحدشيتي فقال: «وكان الفراغ من كتاب الناموس هذا سنة ١٧١٣ من ملك
سكندر بن فليبس اليوناني (وهي سنة ١٤٢٠م) وهو برسم الاخ المغبوط المنتخب
لله تعالى المطران داود بن جوسلين من قرية حدشيت وفي ايام ابينا ومعلمنا وسيدنا
مار يوحنا المنتخب لله تعالى المؤيد بالمسيح والقاطن في دير مار سركيس القرن
بقرب حردين رحمنا الرب ببركة صلواته المقدسة بشفاعة السيدة ام النور وجميع
لقديسين آمين».

وقال الدويهي وهذا الكتاب هو محفوظ الى الآن عندنا بدير قنوبين وهو برسم
اخينا المطران يوسف الحصروني.

واختتم الدويهي كلامه بقوله يتبين من هذه الشهادات وغيرها أضربنا عن
ذكرها ان هذا البطريرك كان يسمى وقتاً يوحنا وآخر داود يوحنا وانه كان ذا ايمان
قويم ولو كان قد زاغ عن محجة الايمان الصحيح ما كان ذكره المطران كيرلس
والمطران يعقوب وسمياه ابانا. وما كان وصفه المطران يعقوب بانه بار ومنتخب لله
ومؤيد بالمسيح ولا طلب من الله ان يرحمه ببركة صلاته المقدسة ولو كان البطريرك
المذكور، وقد عامل على قتل كهنته كما تجنوا عليه ما كان قرظه هؤلاء الاساقفة

الذين كانوا في ايامه وفي جملة اساقفته بهذه المدائح والنعوت السامية على ان الاضطهاد الذي جرى على بعض رؤساء الكهنة لم ينزله بهم بطريرك بل هو ما قدمنا ذكره في هذا الفصل بسبب حملة ملك قبرص على الاسكندرية وقتل اهلها ونهب اموالهم.

عد ٩٢٢
من عرفناهم من اساقفة الموارنة بهذا القرن

الاول بطرس اسقف بشري ذكره البطريرك الدويهي في تاريخ سنة ١٣١٥م. قال انه كان قاطناً ومترئساً على دير مار اليشاع بوادي نهر قاديشا، ومن ذلك يظهر ايضاً ان هذا الدير قديم وكان يسكنه رهبان واساقفة قبل ان يأخذ السكنى به الرهبان الحلبيون مؤسسو الرهبنة اللبنانية. ثم ذكر الدويهي المطران بطرس المذكور في تاريخ سنة ١٣٢٢ سنداً الى ما كتبه الشماس سابا بن سليمان ابن الخوري جرجس من قنات على كتاب الانجيل الذي كان محفوظاً في دير مار ميخائيل شاريا بعنتورين.

الثاني بطرس اسقف اهدن ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٣٣٩م. فقال ان الاحداث التي ذكرها في تاريخ تلك السنة كانت في ايام رئاسة بطرس اسقف اهدن والقس سركيس رئيس دير مورت مورا باهدن ويظهر من هذا ايضاً ان دير مورت مورا باهدن هو اقدم كثيراً من سكنى الرهبان الحلبيين مؤسسي الرهبنة اللبنانية به. وجاء ذكر المطران بطرس الاهدني المذكور في الخط المار ذكره الذي علقه القس يعقوب رئيس دير مورت مورا المذكورة على كتاب الانجيل الذي كان بكنيسة بجة سنة ١٣٣٩م.

الثالث جيورجيوس مطران قبرص ذكره العلامة السمعاني (في المجلد ٤ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٣٣) نقلاً عن اعمال مجمع نيقوسية بقبرص الذي عقده اليا رئيس اساقفة الكلدان بهذه الجزيرة سنة ١٣٤٠م حيث يعد في جملة من شهدوا هذا المجمع جيورجيوس مطران الموارنة، ويصرح بأن كل من شهدوا هذا المجمع اقروا بأن الكنيسة الرومانية هي ام جميع الكنائس ومعلمتهنّ، وإن الاب الاقدس البابا بناديكتوس الثاني عشرهو خليفة بطرس الطوباوي نائب المسيح في الارض.

الرابع يوحنا اسقف قبرص ايضاً وقد مر ذكره في الخط الذي نقله الدويهي عن الكتاب القديم الذي كان في كنيسة القديس سركيس بحدشيت، وقد علق عليه انه نسخ سنة ١٣٥٧م في ايام البطريرك يوحنا، ويوحنا اسقف قبرص. وقد ذكره لكويان ايضاً في جملة من ذكرهم من اساقفة الموارنة.

الخامس يعقوب اسقف اهدن ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٣٦٦م وقال انه كان في جملة الاساقفة الذين قبض عليهم نائب السلطنة بدمشق وانه فر واستتر وكتب في استتاره سنة ١٦٦٧م كتاب الانجيل الذي كان باقياً الى ايام الدويهي في دير قنوبين وهو سبعة وعشرون كراساً بالسرياني والكرشوني. وذكره ايضاً المطران اسطفان عواد السمعاني في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية في جملة التعليقات التي نقلها عن كتاب الانجيل الذي كان في بطريركية الموارنة ونقل الى المكتبة المذكورة. وقد كتب عليه في صفحة ٢٢: «نهار السبت ١٥ من ايار سنة ١٦٧٢ يونانية (توافق سنة ١٣٦١م) يوحنا ابن سركيس من قرية بلوزا اوقف لدير قنوبين عن نفسه الكرم الفوقاني عند العين شهد بذلك يعقوب مطران اهدن والخوري سمعان» وجاء بعد ذلك خط آخر هذا هو بحروفه: «القس سمعان ابن الخوري عبد المسيح من داريا ذو الذكر الصالح اوقف لدير قنوبين اربعة عشر عرق زيتون بقرب قرية كفرشخنا في حقل الزهرة سنة ١٦٧٣ يونانية (توافق سنة ١٣٦٢م) شهد بذلك بخط يده المطران يعقوب.

السادس الاسقف حنين ذكره الدويهي في الفصل العاشر من كتاب رد التهم فقال انه بسبب حملة قبرص على الاسكندرية وبسبب حريق وقع في دمشق صدر الامر بالقبض على رؤساء النصارى فوقع من رؤساء كهنة الموارنة بيد نائب السلطنة بدمشق منهم يعقوب مطران اهدن المار ذكره والبعض الآخر فروا هاربين كما ذكر عن الاسقف حنين فإنّه سار في البحر الى قبرص، والبعض اختفوا ولم ينبئنا الدويهي من اين كان حنين واين كان اسقفاً.

السابع المطران يعقوب اللحفدي ذكره الدويهي في الفصل العاشر من كتاب رد التهم وقال انه نسخ كتاب الناموس للمطران داود الحدشيتي وذيله بالحاشية التي ذكرناها في الكلام على البطريرك داود في الفصل السابق.

الثامن المطران بطرس في دير قنوبين ذكره الدويهي مرات منها في تاريخ سنة

١٣٨٨م حيث روى ان الملك برقوق لما كان معتزلاً عن الملك زار قنوبين وأحسن القس بطرس رئيس الدير استقباله فرقاه البطريرك داود الى الاسقفية واسكنه دير قنوبين. ومنها في الخط الذي نقله عن الكتاب الذي نسخه الخوري دانيال الباني سنة ١٣٩٧م وكتب انه فرغ من نسخه في ايام البطريرك داود. وإذ كان بطرس مطراناً في دير قنوبين ثم ذكره الدويهي في مقدمة المطارين الذين كانوا سنة ١٤٠٠م.

التاسع كيرلس اسقف جاج ذكره الدويهي في تاريخه في جملة الاساقفة الموارنة الذين كانوا سنة ١٤٠٠م وفي سلسلة بطاركة الموارنة إذا استشهد خطاً موقعاً عليه من هذا المطران وغيره يتبين منه ان البطريرك داود بقي حياً إلى سنة ١٤٠٤م كما مر.

العاشر يعقوب من قنية اسقف لحفد ذكره الدويهي في جملة مطارين الموارنة الذين كانوا في سنة ١٤٠٠م وقال فيه في تاريخ هذه السنة انه كان من قنيا وكان قاطناً بلحفد بدير السيدة المعروف بدير المرج، وانه اخذ عنه أخبار المجاعة التي كانت بسورية تلك السنة.

الحادي عشر بطرس ابن القس سمعان (وقال في تاريخ سنة ١٤٠٣م ابن الخوري سمعان) اسقف اهدن ذكره الدويهي في جملة الاساقفة الذين كانوا سنة ١٤٠٠م ويظهر انه بقي حياً سنة ١٤٠٤م إذ روى الدويهي ايضاً في سلسلة بطاركة الموارنة الخط الذي دونه كيرلس اسقف جاج والخوري اليشاع الناسك ومما قيل فيه انه في هذه السنة كان بطرس مطراناً على اهدن.

الثاني عشر داود بن جوسلين الحدشيتي وقد جاء ذكره في جملة اساقفة الموارنة سنة ١٤٠٠م. وفي الذيل الذي كتبه المطران يعقوب اللحفدي على كتاب الناموس الذي نسخه للمطران داود بن جوسلين الحدشيتي. وقد روى الدويهي في تاريخ سنة ١٤١٩م ان هذا الاسقف توفي في السنة المذكورة في ١٦ شباط.

هذا ما أمكن التوصل إلى معرفته من اسماء هؤلاء الاساقفة الموارنة في القرن الرابع عشر.

الباب الخامس عشر

تاريخ سورية في القرن الخامس عشر

القسم الاول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

السلاطين الذين تولوا سورية في هذا القرن وما كان من الاحداث في ايامهم

عد ٩٢٣

حملة تيمورلنك على سورية

افرد شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدالله الدمشقي الانصاري المعروف بابن عرب شاه كتاباً برمته لتاريخ تيمور سماه عجائب المقدور في اخبار تيمور. وقد طبع هذا الكاالب مراراً وآخر طبعاته كان بمصر سنة ١٣٠٥م. وحيث ان هذا المؤلف كان معاصراً لتيمور فيحسب ثقة في نقل اخباره، وان ضمن كتابه بعض اقاصيص عن مولد تيمور ونشأته وتوصله إلى الملك، وان جعل كتابه كتاب ادب في الفاظ اللغة، فيوردها غالباً مسجعة مرصعة بأنواع البديع اللفظي والمعنوي. والذي نعلمه من هذا الكتاب وغيره من مؤلفات المحققين انَّ تيمور بالتركية معناه الحديد ولنك الاعرج فتيمور لنك معناه تيمور الاعرج. وقد ولد في الكش وهي مدينة قريبة من سمرقند على ما في رواية المحققين لا بعيدة عنها بنحو ثلثة عشر شهراً كما في الكتاب المذكور ويتصل نسب تيمور من جهة النساء إلى جنكيز خان

اول ملوك المغول. وكانت ولادته سنة ١٣٣٥م وخلف عمه سيف الدين في امارة الكش ورئاسة القبيلة سنة ١٣٦١م خاضعاً لاحد خانات التتر إلى ان اسمى نفسه خان سنة ١٣٧٠م. واخضع لسلطته ما جاوره من البلاد وملك خراسان واصفهان واجتاح بلاد فارس والعراقين والجزيرة وغيرها، وملك كثيراً من نواحيها وقصد الهند ١٣٩٧م وانزل بها الوبال وأذاق اهلها الامرّين. وعاد سنة ١٤٠٠م نحو سورية وبلغت اخباره الى الملك الناصر زين الدين فرج بن السلطان برقوق فكتب الى نائب الشام وسائر النواب والحكام ان يتوجهوا الى حلب ويجتهدوا في دفعه، فتجهز نائب الشام سودون مع النواب والعساكر ورحلوا الى حلب. وبلغ تيمور الى عين تاب وكان نائبها اركماس فحصنها واستعد للقتال لكنه اجفل عند اقامة تيمور الحصار على مدينته، فهرب الى حلب وارسل تيمور من عين تاب الى النواب بحلب مرسوماً ان يطيعوا اوامره ويذلوا لسلطته ويكفوا عن القتال ويخطبوا باسمه فلم يردوا عليه جواباً وقتل سودون نائب السلطنة بالشام رسول تيمور وحصنوا حلب ما استطاعوا ورحل تيمور من عين تاب، فوصل في اليوم السابع الى حلب وبرز من عسكره طائفة فالتقاها جماعة من عسكر حلب فبددوا اصحاب تيمور وطردهم، ثم الحم الفريقان القتال في اليوم التالي واستمرت الحرب سجالاً لم يظهر النصر لاحدهما. وفي الغد كان القتال الشديد في حيلان فانكسر الحلبيون وولوا الادبار فتبعهم اصحاب تيمور يثخنون فيهم بمعنى ما قال ابن عرب شاه المذكور.

جعلنا ظهور القوم في الحرب أوجهاً   وقمنا بها ثغراً وعيناً وحاجبا

وازدحم الحلبيون في باب المدينة وتكردسوا وداس بعضهم بعضاً حتى قتل كثيرون منهم وتشتت الباقون منهزمين شر هزيمة حتى بلغ بعضهم دمشق وحاصرت عساكر تيمور المدينة. فذلت قلوب اهلها وقويت شوكة التتر فملكوها وعظمت بها الاهوال. واكثر التتر من الفتك باهلها ولم يشفقوا على رضيع او شيخ او امرأة وتحصن النواب بالقلعة فشدد تيمور لنك الحصار عليها، فاستأمنوا اليه وقبض على سودون نائب الشام وعلى نائب صفد ونائب غزة وغللهم بالقيود وخلع على تمرادش نائب حلب الذي سعى بتسليم القلعة اليه وشرع في استخلاص الاموال وضبط الاثقال، ثم قتل جماً غفيراً من الحلبيين بثأر الرسول الذي كان قد ارسله الى حلب فقطع عنقه سودون نائب الشام، وبنى برؤوسهم قبة، ونهب كل ما كان في القلعة والمدينة وهو شيء لا يوصف. ثم قصد تيمور دمشق وبلغ المعرة بجيشه

العرمرم فجفل اهل دمشق وتشتتوا فبعضهم قصدوا قلعة ارسون وبعضهم قلعة شقيف تيرون وغيرهم الى غيرها من المواضع الحصينة البعيدة وارسل تيمور ابنيه مهران شاه وماردين شاه الى حماة فلقيهما اهلها مرحبين طائعين، وأخذا الهدايا التي قدموها وأقاما عليهم نائباً من قبل ابيهما وبعد ان رحلا عن حماة وثب اهلها على النائب فقتلوه فرجع ابنا تيمور الى حماة فقتلا ونهبا واحرقا اكثر البيوت وحاصرا القلعة ونجدهما تيمور بعشرين الف مقاتل فملكوا القلعة واهلكوا من كان فيها. ولما بلغ تيمور الى حمص خرج اليه رجل يسمى عمر بن الرواس فاستجلب خاطره وقدم له تقدمة فاخرة فعفا عن اهل حمص ووهبها لخالد بن الوليد المدفون بها وولى عمر المذكور عليها.

ثم نزل تيمور على بعلبك فخرج اهلها دخلاء عليه فلم يلتفت الى مقالهم ولم يرث لتذللهم بل ارسل فيهم جوارح النهب والاستئصال وورد الى الشام بخروج الملك الناصر بن برقوق من مصر وقدومه إلى الشام، فسكن جأش بعض الناس وزال استيحاشهم. وأما اصحاب العزم والرأي السديد فلم يثقوا بالنجاة وانتظروا ما يتولد من حادثات الزمان. وبلغت عساكر السلطان إلى دمشق وبلغ تيمور اليها بجيشه الجرار العرمرم وأقام في غربي المدينة بداريا وما يليها. وكانت اولاً بين الجيشين مناوشات ومهارشات ليست بذات بال، ودخل الخلف بين عساكر السلطان فعاد فريق منهم الى مصر ودخل على السلطان احد خواصه فخوفه من بطش تيمور، ومن انه لا بد من ان يملك دمشق فتفوت السلطان مصر وربما أسره تيمور او قتله فأثر هذا الكلام في السلطان فخرج ليلاً من القلعة قاصداً الرجوع الى مصر ومر بالبقاع العزيز وبات في سفح لبنان بين قريتي نيحا وجباع الحلاوة لئلا يعلم به احد وسار في طريق الساحل إلى مصر.

ولما علم تيمور بهرب السلطان احتاط دمشق بالعساكر فملكها وقتل اعيانها وسبى نساءها واحرقها مع الجامع الاموي وكان فيه جم غفير من النساء والاطفال فهلك جميعهم. واخرب المساجد والمدارس والمعابد ودك القلعة وارتكب جنوده بها الفظائع، وقيل انه كان يأمر بجمع الاولاد ورميهم بالخنادق فتدوسهم الخيل والبقر ويلقون بعضهم بالابار ويرمونها بالحجارة الضخمة، وأسر كثيرين من أعيانها وعذبهم اعذبة مبرحة متنوعة.

ولم يخرج تيمور من دمشق حتى جاءها الجراد فغطى بكثرته الارض ووجه السماء. فارتعى النبات والشجر وكان حلوله بدمشق في ٢٩ اذار وباض في ارضها ونفقس بيضه في ١٢ ايار فارتعى الزحاف الكروم والاشجار حتى الغابات، فلما رأى تيمور ذلك رحل عن دمشق. وبعد الجراد واختطاف العساكر الاموال والغلات حصل غلاء فاحش ومجاعة كبرى حتى أكل الناس عبيدهم وجواريهم ودوابهم والجيف. وجاء الوباء ثالثة الاثافي وثقلت وطأته حتى بقي موتى كثيرون دون دفن.

روى الدويهي هذه الاخبار عما كتبه الاسقف يعقوب من قنيا وكان قاطناً بلحفد بدير السيدة المعروف بدير المرج ورواه ايضاً غير الدويهي من المؤرخين.

وأما تيمور فسار عن دمشق لجهة ماردين وبغداد فملكها سنة ١٤٠١م وحارب بايزيد السلطان العثماني سنة ١٤٠٢م. وفي هذه السنة ارسل رسلاً وهدايا نفيسة الى السلطان فرج واعتذر عما صدر منه بسورية ووقع الصلح بينهما. وفي سنة ١٤٠٤م حمل على الصين في مايتي الف مقاتل فهلك في الطريق سنة ١٤٠٥م انتهى.

عد ٩٢٤

ما كان من الاحداث في ايام الملك الناصر فرج الى وفاته

بعد ان ارتحل تيمور عن سورية نصب الملك الناصر فرج الامير اقبغا (ويروى يلبغا) نائباً بدمشق، وأمر الشيخ محمود الخاصكي نائب طرابلس ان يسير الى دمشق ويعاون نائبها في عمارتها، وولى على حلب الامير دقمق الخاصكي وسعى في تجديد ابنيتها.

وفي سنة ٨٠٨هـ (سنة ١٤٠٥م) وقعت فتن بين الامراء بمصر فخاف السلطان فرج على نفسه واختفى ولم يعلم احد اين ذهب بعد ان كان ملك ست سنين وأشهر، فاجتمع القضاة والأمراء عند الخليفة واستشاروا وولوا مكانه أخاه وسمي الملك المنصور عبد العزيز. وكان عمره ثمان سنين ما في اخبار الدول للقرماني ثم ظهر الملك الناصر فرج فامسك اخاه المنصور عبد العزيز وحبسه بالاسكندرية ثم قتل فكانت مدة ولايته سبعة واربعين يوماً على رواية محمد ابن علي الاسحاقي في

تاريخه «اخبار الأول في من تصرف في مصر من الدول» وعاماً كاملاً على رواية الشيخ عبدالله المشرقاوي في كتابه «تحفة الناظرين في من ولي مصر من الولاة والسلاطين» وعاد الناصر فرج الى عرش ملكه.

وفي السنة المذكورة وثب يعبر بن مهنّا امير العرب (نظنه يعبر امير الفضل الذي قدمنا ذكره) في خلق كثير من العرب على دمشق فالتقاه نائبها في خارج المدينة والتحم بين الفريقين القتال. فانهزم النائب واستولى يعبر على دمشق وشكت الناس من جوره وسطو عساكره فخرج اليه السلطان الناصر فرج من مصر في العساكر المصرية فازاحه عن دمشق وعن الامصار الشامية وجدد بناء الجامع الاموي وامن الناس ورتب امور البلاد وعاد الى مصر.

وفي سنة ١٤٠٩م كان طاعون شديد الوطأة في بلاد الشام وروى القرماني ان الامير شيخ ونوروز نائب الشام وغيرهما من الامراء اتفقوا على العصيان بالشام فخرج اليهم السلطان ووصل الى غزة فخامر عليه اعيان عسكره وقصدوا الامير شيخ ونوروز الى حمص فتوجه السلطان في طلبهم ووصل الى اللجون (بقرب الناصرة) واقتتلوا قتالاً شديداً فانكسر السلطان وهرب الى دمشق فتتبعوه وحاصروه بقلعتها اياماً. فطلب الامان فامنوه ونزل من القلعة فقبضوا عليه وسجنوه سنة ٨١٥هـ (سنة ١٤١٢م) وادعى عليه احدهم ابن ازدمر بقتل اخيه ظلماً فحكموا بقتله عوضه فقتلوه وبقي ثلاثة أيام مرمياً على مزبلة عريان. وكانت مدة ولايته سوى ايام غيبته ثلاث عشرة سنة. وأضيفت السلطنة الى أمير المؤمينين المستعين بالله ابي الفضل العباس بن محمد العباسي وصار خليفة وسلطاناً مدة ستة أشهر، ثم ان الجراكسة احبوا ان لا تخرج السلطنة منهم ورغبوا في ان يكون الامير شيخ سلطاناً فخلعوا المستعين بالله من الخلافة وتولى الخلافة بعده الفضل داود العباسي وتولى السلطنة السلطان الرابع من الجراكسة وهو الملك المؤيد شيخ الآتي ذكره.

عد ٩٢٥

الملك المؤيد شيخ وما كان في ايامه

كان الامير شيخ عبدالله المحمودي الظاهري من مماليك الظاهر برقوق اعتقه وقدمه في المراتب الى ان صار مقدم الف في دولة الملك الناصر فرج، ثم نائب

السلطنة بطرابلس ثم بالشام ايضاً واسره تيمورلنك في حلب ثم نجا من الاسر وكانت له أمور مع الملك الناصر فسجنه مدة ثم التف إلى نوروز نائب الشام في عصيانه المار ذكره. ولما قتل الملك الناصر وتسلطن الخليفة العباسي كان شيخ اتابك العسكر بمصر، فخلع الخليفة من السلطنة وتسلطن مكانه سنة ٨١٥هـ (سنة ١٤١٢م) وتسمى الملك المؤيد. ودقت له البشائر ونودي باسمه في القاهرة وضج الناس بالدعاء له وقال فيه الشيخ ناصر الدين بن كميل الشاعر:

تسلطن الشيخ وزال العنا فالناس في بشرٍ وتيهٍ وفيخ[1]

فلا تقاتل بصبي ولا تلقَ به جيشاً وقاتل بشيخ

وبعد استقراره بالسلطنة قبض على جماعة من الامراء وأرسلهم إلى السجن بالاسكندرية وأنعم على جماعة من الامراء ايضاً ورقاهم في المرتب وارضى الجند بالاقطاعات، وقرّب جماعة حضروا معه من الديار الشامية الى مصر منهم الشيخ تقي الدين بن حجة الحموي عين اعيان الشعراء في عصره فاستقامت اموره في السلطنة وأطاعه الجند.

وفي سنة ٨١٦هـ (سنة ١٤١٣م) اتته الاخبار من دمشق بأن نوروز الحافظي نائب الشام ثقلت عليه سلطنته وأظهر العصيان وكدره من خيانة شيخ بالعهود التي كانت بينهما، وبقي نوروز يخطب باسم الخليفة العباسي على منابر دمشق واستمر واضعاً يده على البلاد الشامية من غزة الى الفرات. ففي سنة ٨١٧هـ (١٤١٤م) سار الملك المؤيد في العساكر من مصر الى الشام ومعه الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الاربعة، فوجد نوروز قد حصن دمشق فحاصره المؤيد وطال الحصار، وفي آخر الامر سلم نوروز نفسه الى الملك المؤيد فقطع رأسه وأرسله الى القاهرة فعلق على باب زويلة ثلاثة ايام ثم دفن. وكان مقتل نوروز سنة ٨١٨هـ (سنة ١٤١٥م). وأقام الملك المؤيد بعد ذلك بدمشق اياماً فنظم البلاد الشامية ونصب قنباي المحمدي نائباً في الشام والامير اينال الصصلاني نائباً بحلب والامير سودون ابن عبد الرحمان نائباً بطرابلس والامير جاني بك البجاسي نائباً بحماة، وعاد إلى مصر، وكان له يوم مشهود زينت لديه القاهرة.

---

(١) الفيخ: السكون بعد اضطراب.

وبعد عوده إلى مصر أظهر النواب المذكورون العصيان عليه وخرجوا عن الطاعة، فجرد الملك المؤيد العساكر عليهم ثانية بنفسه وتواقع معهم فانتصر عليهم وقبض على قنباي المحمدي نائب الشام وقطع رأسه ثم على اينال الصصلاني نائب حلب وقتله على صدر ابيه ثم قتل الاب ايضاً وولى جماعة غير هؤلاء ورجع إلى مصر ولكن لم تمضِ مدة يسيرة حتى خامر هؤلاء النواب عليه وأظهروا العصيان، فجرد اليهم مرة ثالثة وخرج بنفسه فلما علم النواب بقدومه هربوا من وجهه وتوجهوا الى قرا يوسف امير التركمان فأقام نواباً غيرهم ممن وثق بهم وعاد إلى مصر فصفا له الزمان وأنشأ له مماليك وجدد له أمراء.

وفي سنة ٨١٩ هـ (سنة ١٤١٦م) كان في مصر الطاعون وفتك فتكاً فظيعاً واستمر نحواً من ثلاث سنين وتارة ينقص وعقبه قحط وغلاء. وفي سنة ٨٢٢هـ (سنة ١٤١٩م) أكمل الملك المؤيد عمارة الجامع المنسوب اليه في القاهرة وقد تناهى في زخرفه ورخامه وسقوفه وابوابه فلم يبنَ في القاهرة مثله. لكنه أفرط في ضرب الضرائب لنفقة بنائه وأنشأ مئذنتين له فتداعت احداهما للسقوط فرسم بهدمها وأعادة بنائها فقال شهاب الدين بن حجر يداعب قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني:

لجامع مولانا المؤيد رونق	منارته تزهو بالحسن والزيني
تقول وقد مالت عليهم ترفّقوا	فليس على هدمي اضر من العيني

فأجابه بدر الدين:

منارة كعروس الحسن اذ جليت	وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا اصيبت بعين قلت ذا غلط	ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر

وفي سنة ٨٢٤هـ (سنة ١٤٢١م) مرض الملك المؤيد واشتد مرضه واستمر على ذلك اياماً الى ان توفي يوم الاثنين تاسع المحرم من هذه السنة، ودفن في جامعه المذكور. وقيلَ ان عمره كان حينئذٍ خمساً وستّين سنة وكانت مدة سلطنته بمصر والشام ثمان سنين وخمسة أشهر وثمانية ايام انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس.

عد ٩٢٦

الملك المظفر احمد ابن الملك المؤيد والملك الظاهر ططر

هو الخامس من الملوك الجراكسة تسلطن يوم وفاة ابيه المار ذكره وعمره سنة واحدة وثمانية اشهر وسبعة ايام، ولما أقاموه ملكاً كان الاتابكي الطنبغا القرشي غائباً هو وجماعة من الامراء بالشام بسبب عصيان بعض النواب، فلما توفي الملك المؤيد تعصب مماليكه وقالوا لا نملك إلّا ابن مولانا وكانوا نحو خمسة الاف مملوك، فعارض الخليفة في تمليكه وقال هذا صغير وتضيع احوال المسلمين. فقال المماليك الامير ططر يكون مدبر المملكة إلى ان يعود الاتابكي الطنغبا، فلم يسع الخليفة إلّا انه بايعه على كره منه ولقبه الملك المظفر وأجلسوه على سرير الملك وهو في حجر المرضعة. ولما دقت الكؤوسات كالعادة اضطرب وأغمي عليه وحصل له حول في عينيه. ولما تم أمره في السلطنة ثار مماليكه على الامير ططر بسبب الامريات والاقطاعات فلم تسعه الحال إلّا ان يسترضيهم بما شاءوا من المناصب والاقطاعات. وجاءت الاخبار بأن جقمق الارغوني نائب الشام قد خرج عن الطاعة وكذلك يشبك المؤيدي نائب حلب وتبعهما غيرهما من النواب، وكان الاتابكي الطنبغا القرشي في الشام كما مرَّ وجمع العربان وعسكره وزحف بهم الى دمشق، فحارب جقمق نائب الشام، فانكسر جقمق وانهزم الى حلب فملك الاتابكي دمشق وحصنها والتف عليه العربان والعشائر. ولما بلغ ذلك الامراء بمصر خلعوا على ططر وجعلوه اتابكي العسكر عوضاً عن الطنبغا القرشي واتفقوا على ان ططر يأخذ السلطان بمحفة ويتوجه معه في العساكر الى دمشق، فخرج ططر والملك المظفر معه في محفة تصحبه امه المسماة خوند سعادات والمرضعة، ولما وصلوا الى الشام القى الله الرعب في قلب الطنبغا القرشي. فحضر الى الملك وفي رقبته منديل فقبل الارض قدام الملك وهو في المحفة فقبض عليه ططر وسجنه بقلعة دمشق ثم قبض على جقمق نائب الشام وسجنه هناك أيضاً ثم أمر بخنقهما فخنقا ليلاً، ثم قبض على جماعة من النواب وقتلهم. ثم تمارض وأتى بعض الامراء المؤيدية يعودونه بالقلعة، فقبض على جماعة منهم حتى قيل انه قبض على اربعين اميراً في يوم واحد وحبسهم بقلعة دمشق وأمسك ايضاً نحو ثلاثمائة مملوك من المماليك المؤيدية وحبسهم بقلعة دمشق. فصفا الوقت لططر وكثر المستقربون اليه،

أقامهم في المناصب وأعطاهم الاقطاعات وقويت شوكته واشادت عصبته وأخذ يهد لنفسه حتى سولت له خلع الملك المظفر فخلعه وتسلطن مكانه بدمشق.
كان الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الاربعة معه فبايعوه في ١٩ من شعبان سنة ٨٢٤هـ (سنة ١٤٢١م) وتلقب الملك الظاهر وخطب باسمه على منابر دمشق، ثم عاد إلى مصر ومعه الملك المظفر وأمه خوند سعادات ولما وصل إلى القاهرة وزينت له المدينة وحملت على رأسه القبة. ولما جلس على منصة الملك رسل الملك المظفر الى السجن بثغر الاسكندرية وأرسل معه المرضعة فكانت مدة سلطنة الملك المظفر سبعة أشهر وعشرين يوماً، فما كان أغناه عن هذه السلطنة لتي اكسبته الحول وأدت به الى السجن ومات بالطاعون سنة ٨٣٣هـ (سنة ١٤٢٩م) ثم نقلت جثته إلى القاهرة ودفن على ابيه.

اما الملك الظاهر سيف الدين ططر (وكتب بعضهم تتر) الجركسي فهو لسادس من الملوك الجراكسة وأصله الظاهر برقوق اشتراه ثم اعتقه ثم هرب من لملك الناصر فرج بن برقوق والتف على جكم العوضي نائب حلب. ولما قتل جكم لمذكور التف على شيخ ونوروز حين أظهرا العصيان بالشام كما مرَّ . ولما قتل لملك الناصر بدمشق تقدم بالمناصب في دولة الخليفة العباسي وفي دولة الملك لمؤيد. ولما مات الملك المؤيد كان مدبراً للمملكة في دولة ابنه الملك المظفر الى ان خلعه وتسلطن مكانه كما قدمنا. وقيل ان خوند سعادات ام الملك المظفر دست له سماً لما خلع ابنها فاعتل بالشام وعاد إلى مصر عليلاً إلى ان توفي يوم الاحد ٤ من ذي الحجة سنة ٨٢٤هـ (سنة ١٤٢١م) فكانت مدة سلطنته ثلاثة اشهر واياماً فصح فيه ما قاله الشاعر:

كان كالتمني ان يرى فلقاً   من الصباح ولما رآهُ عُمي

انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس عن اخبار الدول وآثار الاول للقرماني ان موته لم يكن من السم بل عرض له قولنج فمات منه.

عد ٩٢٧

الملك الصالح محمد بن ططر

وهو السابع من الملوك الجراكسة ويلقب ناصر الدين وقد بويع بالسطنة بعد وفاة ابيه سنة ٨٢٤هـ (سنة ١٤٢١م) وكان عمره حينئذٍ نحو احدى عشرة سنة وخلع على المقر الاتابكي جاني بك الصوفي فكان اتابك العساكر ومدبر امور المملكة وهو صاحب الحل والعقد والابرام والنقض. فاستوحش لذلك باقي الامراء ووثب الامير برسباي على الاتابكي جاني بك فهربه فقبض عليه بعض المماليك واحضروه إلى الامير برسباي فقيّده وأرسله إلى السجن في الاسكندرية ونزل منزلته وتولى الحل والعقد. ووقعت نفرة بين برسباي والامير طراباي جانب الحجاب، فقبض برسباي وأرسله أيضاً إلى السجن بالاسكندرية وقويت شوكة برسباي وتعصّب له جماعة من الامراء فخلعوا الملك الصالح بن ططر من الملك ونادوا باسم برسباي ملكاً، فكانت مدة سلطنة الملك الصالح ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً. ولم يرسله برسباي إلى السجن بالاسكندرية كعادتهم حينئذٍ بل ادخله دار الحرم وأسكنه قاعة البربرية هو وأمه، ورخص له بأن ينزل من الدار ويركب كل نهار جمعة ويزور قبر والده إلى ان توفي الملك الصالح ثاني جمادي الآخرة سنة ٨٣٣هـ (سنة ١٤٢٩م) ودفن بمدفن والده ططر انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس.

عد ٩٢٨

الملك الأشرف برسباي الدقماقي الظاهري

هو الثامن من ملوك الجراكسة ويكنّى أبا النصر بويع بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح وقرّ له بها الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة، وأصله جركسي جلبه بعض التجّار إلى البلاد الشامية، فاشتراه الأمير دقماق نائب ملطية فينسب إليه، ثم قدّمه إلى الملك الظاهر برقوق فنسب إليه أيضاً؛ فاعتقه الملك الظاهر، وتقلّب بالمناصب وتولّى نيابة السلطنة بطرابلس وقبض عليه الملك المؤيد وسجنه بقلعة

المرقب، ثم أطلقه وجعله رئيس ألف بدمشق. ولمّا خامر على السلطان جقمق الأرغوني نائب الشام قبض على برسباي وسجنه بقلعة دمشق، ولمّا توجّه ططر إلى الشام وقهر جقمق افرج عن برسباي وأحضره صحبته إلى القاهرة وجعله دواداراً كبيراً. ولمّا توفّي ططر دبّر برسباي المملكة في سلطنة ابنه الملك الصالح إلى أن خلعه كما مرّ، وتولّى السلطنة وأقام أصحابه بالمناصب وجعل المقر السيفي جاني بك البجاسي نائباً بالشام، وكان لا يتصرّف في أحوال المملكة إلّا برأي القاضي عبد الباسط فعظم أمره حتى اطلق عليه لقب عظيم الدولة في أيامه.

وفي سنة ٨٢٩هـ (سنة ١٤٢٥م)[1] أرسل السلطان الأشرف تجريدة إلى قبرص وأرسل ثلاثة امراء من مصر ونائب الشام ونائب حلب ونائب صفد ونائب طرابلس لقتال ملك قبرص، وبلغوا أولاً إلى الماغوصة ثم إلى الملّاحة. وكان قتال شديد بين الجيشين ودارت الدوائر على عسكر ملك قبرص، فنهبت عساكر السلطان وأسرت نحو سبع مئة أسير، وملكوا حصن لامسون وانهزم القبارصة وقتل أخو الملك وأسروا الملك نفسه وأتوا به إلى مصر بعد أن نهبوا داره وأحرقوها وأحرقوا دوراً اخرى كثيرة، وأخذوا من الغنائم شيئاً كثيراً. ولـمّا بلغوا بملك قبرص إلى القاهرة، اصطفّت العساكر أمام باب القلعة صفّين ودخل الملك بينهما مقيّداً راكباً بغلاً وأمر السلطان بسجنه ثم اتفق معه على أنّ ملك قبرص يؤدّي إلى السلطان مائتي ألف دينار يقوم بنصفها وهو بالقاهرة ويدفع النصف الثاني بعد عوده إلى قبرص، ثم يدفع كل سنة عشرين ألف دينار. فأفرج السلطان عنه وعاد إلى بلاده. وكملت في هذه السنة عمارة المدرسة الأشرفية التي بناها الأشرف هذا عند سوق الوراقين بالقاهرة فرسم السلطان أن تعلّق خودة ملك قبرص على باب هذه المدرسة لتكون ذكراً للأشرف. قال إبن اياس إن هذه الخودة لم تزل معلّقة على باب هذه المدرسة إلى الآن أي إلى أيامه في القرن العاشر للهجرة.

وفي سنة ٨٣٠هـ (١٤٢٦م) بلغ السلطان أنّ الأتابكي جاني بك الصوفي

---

(١) وفقنا حتى الان السنين الهجرية للسنين المسيحية بتعيين القاعدة العامة باسقاط ثلاث سنين من كل مابة سنة هجرية إذ لم يكن لدينا كتاب في تفصيل السنين الهجرية والمسيحية. وقد ظفرنا حديثاً بكتاب التوفيقات الالهامية لمحمد مختار باشا حيث بين بداية كل سنة هجرية موافقة في كل شهر للسنين المسيحية فاخذنا في الاعتماد عليه.

الذي كان قد حبسه بالاسكندرية هرب من السجن، فاضطرب السلطان وصار يكبس البيوت، وقبض على اصهاره وعياله ومماليكه وعذّبهم حتى ظهر أنّ جاني بك في بلاد التركمان عند أولاد قرا يوسف أميرهم. وفي سنة ٨٣٣هـ (سنة ١٤٢٩م) وقع طاعون شديد الوطأة في مصر واستمرّ أربعة أشهر. فمات به من الناس كثيرون حتى قيل إنّه مات في يوم واحد نحو اربعة وعشرين ألف شخص. وضجّ الناس من ذلك وصار يودّع بعضهم بعضاً وقال شاعر في ذلك

قد أنقص الطاعون ثلث الورى وأهـلـك الـوالـد والـولـده

كم منزلٍ كالشمع سكانه أطفاهمو في نفخة واحدة

وفي سنة ٨٣٥هـ (سنة ١٤٣١م) قطع بعض التركمان رأس جاني بك الصوفي المار ذكر وأحضروه إلى الملك الأشرف ليحظوا عنده، فرسم السلطان أن يطاف بهذا الرأس في القاهرة، فطافوا به وعلّقوه في باب زويلة ثلاثة أيام.

وفي سنة ٨٣٦هـ (سنة ١٤٣٢م) أتى قصاد من قبل قرا ملك أمير التركمان إلى الملك الأشرف بهدية من جملتها قرص امرأة مكفّنة بذهب وخروف باليتّين وخلعة مخمل أحمر معلّمة بذهب وصقورة للصيد. فلمّا رأى السلطان الهدية استقلّها وساءته الخلعة ودعا القصاد إلى البحيرة وألبس تلك الخلعة لأحد الشهدارية، وكان مضحكاً. فرقص بها أمام السلطان ثم أحضر ناراً وأحرق الخلعة وذبح الخروف، وقال للقصاد إذا أراد استاذكم أن يعزر أحداً فماذا يصنع به؟ قالوا: يرميه بالماء. فأمر برميهم في البحيرة وتركهم بها ساعة ثم اخرجوهم وقصّوا أذناب خيلهم. وقال السلطان لهم انصرفوا إلى استاذكم وبلّغوه أن يلاقيني إلى الفرات. وناول جماعة السلطان الخروف بمعنى أن الملك الأشرف ورعيته كالغنم والمرأة بمعنى أنهم كالنساء، والخلعة بمعنى أن السلطان نائب استاذ التركمان، ولذلك أمر السلطان بتجريد العساكر والخروج على التركمان. وخرج السلطان في عساكره إلى الشام وحلب وقصد آمد وأقام عليها الحصار ونصب عليها عدّة مجانيق، فلم يقدر عليها واستوحش السلطان من مماليكه وخشي وقوع فتنة، فأرسل قرا ملك بالصلح وحلف قرا ملك أنه لا يعتدي على أملاك السلطان. فعاد السلطان إلى مصر وعاد قرا ملك إلى العصيان والاعتداء. وقيل إن السلطان صرف على هذه التجريدة خمس مئة ألف دينار ولم يظفر بطائل. هذا ما رواه ابن اياس في تاريخ مصر،

ولكن روى الاسحاقي في كتابه أخبار الأول في من تصرف بمصر من الدول، أن الأشرف لمّا توجّه إلى آمد، ظفره الله بعدوه وقتل ملكها واستأصل أمواله وأحضر خودته وعلّقها بسلسلة في دهليز مدرسته التي أنشأها بمصر برأس الوراقين؛ والخوذة باقية إلى الآن فتأمل والله أعلم.

وفي سنة ٨٤١هـ (سنة ١٤٣٧م) مرض الملك الأشرف برسباي وحصل له ماليخوليا، فأمر بنفي الكلاب من القاهرة إلى بر الجيزة، فأتموا أمره. ورسم أن لا تخرج امرأة من بيتها، فكانت المرأة إذا أرادت الخروج من بيتها لحاجة، أخذت ورقة من المحتسب وجعلتها برأسها لتباح أن تمشي بالسوق. إلى غير ذلك من الأوامر التي لا طائل لها، إلى أن توفي في يوم السبت، في ثاني عشر ذي الحجّة من السنة المذكورة، بعد أن ملك ١٧ سنة وثمانية أشهر وستة أيام وعمره نحو ستين سنة انتهى ملخصاً من تاريخ مصر لإبن اياس.

عد ٩٢٩

الملك العزيز يوسف ابن الملك الاشرف

هو التاسع من ملوك الجراكسة ويكنى ابا المحاسن، ويلقب جمال الدين. كان أبوه عهد اليه بالملك قبل وفاته، فبويع بالسلطنة يوم وفاته في ١٢ ذي الحجة سنة ٨١٤هـ سنة ١٤٣٧م). وكان له من العمر نحو اربعة عشرة سنة وكان الاتابكي جقمق العلائي يدبر الملك وبيده الحل والعقد. وفي سنة ٧٤٢هـ (سنة ١٤٣٨م) دبت عقارب الفتنة بين الاتابكي جقمق وبين الامراء الاشرفية وأخذوا يعاكسون الاتابكي في ما يعمله من الامور. وكان الملك العزيز بيد جقمق كلولب يحركه كيف شاء وليس له من السلطنة إلّا الاسم. وكتب العلامة على المراسيم وقصد الامراء مرات قتل الاتابكي والتف جماعة من الامراء المويدية والناصرية عليه. وتعصبوا له ووثبوا على الملك العزيز ومعهم كثيرون من المماليك السيفية. وانتشب القتال بين هؤلاء وبين الامراء الاشرفية فلم تكن ساعة حتى انكسر الامراء الاشرفية وتشتتوا ومزقهم كل ممزق. واتفق محازبو جقمق على تمليكه واستدعوا الخليفة المعتضد بالله داود وقضاة المذاهب الاربعة فخلعوا الملك العزيز من السلطنة وولوا الاتابكي جقمق وسمي الملك الظاهر. ولما تسلطن رسم بان العزيز يدخل إلى دور

الحرم ولم يسجنه بالاسكندرية كالعادة فكانت مدة ولاية الملك العزيز ثلاثة أشهر وخمسة أيام كأنها أضغاث احلام.

ثم ان الملك العزيز يوسف الذي كان مسجوناً بدار الحرم قد انسحب من هناك ونزل بعد المغرب في هيئة صبي طباخ وعليه ثياب رثة وعلى رأسه دست طعام وقد لوث وجهه بسواد الدست وكان مماليك ابيه قد اوقعوه في هذه البلية وتخلوا عنه وتبرأوا منه فتم به ما قيل:

لقاء أكثر من يلقاك اوزار ... فلا تبالِ اغابوا عنك او زاروا

اخلاقهم حين تبلوهنَّ او عار ... وفعلهم ماثم للمرء او عارُ

لهم لديك إذا جاؤك اوطار ... إذا قضوها تنحوا عنك او طاروا

واستمر الملك العزيز مختفياً نحو شهر والوالي يكبس في كل ليلة البيوت وكان كل من له عدو يوشي عليه بأن العزيز عنده فيكبسون بيته إلى ان توجه العزيز إلى بعض الامراء فنم عليه، فقبض عليه وأرسل إلى السجن بالاسكندرية، وكان قصد الملك الظاهر ان يزوج العزيز ويبقيه ساكناً بالقلعة. فأورثته عجلته الندامة وقال في ذلك شاعر من اصحابه:

ولم يدخلوه السجن إلا مخافة ... من العين ان تطرأ على ذلك الحسن

وقلنا له شاركت في الاسم يوسفا ... فشاركه ايضاً في الدخول الى السجن

واستمر العزيز في السجن مدة دولة الملك الظاهر كلها. فلما كانت دولة الاشرف انيال افرج عنه وسكن بالاسكندرية، وتوفي بها. انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس.

عد ٩٣٠

الملك الظاهر جقمق العلائي الظاهري

هو العاشر من ملوك الجراكسة وأوصله جركسي جلبه احد التجار، فاشتراه العلائي علي بن الاتابكي انيال اليوسفي فنسب اليه وقدمه إلى الملك الظاهر برقوق

فنسب اليه ايضاً وحبس في دولة الملك الناصر فرج ثم اطلق وترقى في مناصب الدولة الى ان صار اتابك العساكر في دولة الاشرف برسباي ثم مدبراً للملك في دولة ابنه العزيز ثم خلعه كما مر. وبعد تسلطنه وزع المناصب والاقطاعات كما شاء وجعل المقر السيفي قرقماس الشعباني اميراً كبيراً واستمر على ذلك اياماً، ثم لعب الاكرة مع السلطان وقصد ان يقبض عليه وهو راكب، فانجذب السلطان منه. وخشي قرقماس ان يفتك السلطان به لافتضاح قصده فعاد قرقماس إلى بيته ولبس آلة الحرب. التفت اليه جماعة من الامراء والمماليك ولكن كان اكثر الامراء والعسكر مع الملك الظاهر جقمق واتفقوا معه فكسروه وشتتوا جماعته واختفى هو ثلاثة ايام ثم ارسل يطلب الامان من السلطان، فأرسل إليه بعض الامراء، فقيدوه وأرسلوه إلى السجن بالاسكندرية. وخمدت الفتنة وخلع السلطان على المقر السيفي اقبغا التمرازي وجعله اتابك العساكر مكان قرقماس ونائب السلطنة وهو آخر من تولى نيابة السلطنة بمصر إذا أبطلوا هذه المرتبة.

وفي سنة ٨٤٣هـ (سنة ١٤٣٩م) خرج اينال الجكمي نائب الشام عن الطاعة وأظهر العصيان وتابعه على ذلك تغري برمش نائب حلب. فأرسل السلطان اليهما العساكر ونصب الاتابك اقبغا التمرازي المذكور نائباً بالشام عوضاً عن اينال الجكمي وجعل المقر السيفي يشبك السودوني اتابك العسكر عوضاً عن التمرازي. فسار التمرازي إلى الشام وحارب النواب فكسرهم وأسرهم وقطع رؤوسهم، وارسلها إلى القاهرة فعلقت على باب زويلة. ثم اثبت السلطان على قرقماس كفراً وحكم به قاضي القضاة المالكي فقطع رأسه في السجن بالاسكندرية وكان قرقماس هو الذي قطع عنق الملك الظاهر برقوق في سجن الاسكندرية نفسه فجازاه الله بمثل ما جنى وصفا الزمان للملك الظاهر جقمق.

وفي سنة ٨٤٩هـ (سنة ١٤٤٥م) توفي الامير عز الدين صدقة بن شرف الدين عيسى التنوخي من امراء المغرب وكان عز الدين صدقة هماماً شجاعاً تولى الدرك في ساحل البحر من طرابلس إلى صفد ليحمي البلاد إذا قصده الفرنج، وكان بينه وبين الامراء اولاد الحمرة الذين اتوا من البقاع وتوطنوا ببيروت عداوة انشأها الحسد ذكره البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخ السنة المذكورة.

وفي سنة ٨٧٥هـ (سنة ١٤٥٣م) توفي الملك الظاهر جقمق العلائي ولما شعر

بثقل مرضه دعا الخليفة القائم بالله حمزه وقضاة المذاهب الاربعة وعهد بالملك إلى والده المقر الفخري عثمان وخلع نفسه من السلطنة. وقد انشأ الملك الظاهر كثيراً من المساجد والمعابد والقناطر والجسور وكان يكرم العلماء ويصلهم ويحب الفقراء ولا سيما الايتام منهم. وكان إذا سمع ان احداً يسكر نفاه وقطع جامكيته. انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس وتاريخ محمد الاسحاقي وتحفة الناظرين للشيخ عبدالله الشرقاوي.

عد ٩٣١
الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر
والملك الاشرف اينال العلائي

اما الملك المنصور فهو ابن الملك الظاهر جقمق المار ذكره وهو الحادي عشر من ملوك الجراكسة ويكنى ابا السعادات ويلقب فخر الدين تسلطن وعمره نحو تسع عشرة سنة وجلس على سرير الملك في حياة ابيه إذ خلع نفسه عن السلطنة كما مر سنة ٨٥٧هـ (سنة ١٤٣٥م). وكان اتابك العساكر اينال العلائي وبعد سلطنته قبض على الامير زين استادار الذي كان يبغضه في ايام ابيه وسلمه إلى الامير جاني بك نائب جده فعاقبه وعصره في ركابه حتى كسرها واستخرج منه نحو اربعين الف دينار ولم يكن في الخزينة مال. قيل ان الملك الظاهر اباه لم يخلف في الخزينة إلا ثلاثين الف دينار فانقص الملك المنصور من نفقة العساكر وضرب دنانير ذهب ينقص كل دينار منها عن الاشرفي قيراطين، وأراد ان ينفق هذه الدنانير على العساكر فتألب المماليك الاشرفية والمؤيدية والتف جماعة اليهم من المماليك السيفية وقصدوا بيت الاتابكي اينال العلائي فاركبوه على كرهٍ منه ودعوا الخليفة حمزة وكتبوا محضراً شهد فيه جماعة بما يوجب خلع الملك المنصور وبايعوا الاتابكي اينال العلائي بالسلطنة ووثبوا على الملك المنصور وحاصروه في القلعة، واستمرت الحرب بينهم من يوم الاثنين إلى يوم السبت وقطعوا الماء عنه ومنعوا الاقوات عن عسكره حتى يئس الملك المنصور وانهزم من كان معه. فقبض اينال على الملك المنصور وقيده وسجنه في البحرة ثم ارسله إلى السجن بالاسكندرية فكانت مدة سلطنته ثلاثة واربعين يوماً فصح به ما قيل:

فـلـم يـقـم إلّا بمـقـدار ان   قلـت لـه اهلاً أخيَّ مرحبا

واستمر الملك المنصور في سجن الاسكندرية إلى ايام دولة الملك الظاهر خشقدم فافرج عنه ورخص له ان يسكن في دار بالاسكندرية وبقي على ذلك إلى ايام دولة الملك الاشرف قايتباي فنقله إلى ثغر دمياط. وقد استأذن السلطان بأن يحج فأذنه به وعاد من الحج إلى القاهرة فأكرمه السلطان وخلع عليه ثم رسم له بالعود إلى ثغر دمياط فعاد وأقام هناك إلى ان توفي وله من العمر اربع وخمسون سنة.

اما اينال العلائي فبعد مبايعته بالسلطنة سنة ٨٧٥هـ (سنة ١٤٣٥م) سمي الملك الاشرف وكني ابا النصر ولقب سيف الدين وهو الثاني عشر من ملوك الجراكسة وأصله جركسي جلبه جلاء الدين علي واشتراه منه الملك الظاهر برقوق فيوصف بالعلائي الظاهري وتقلب في المناصب فكان في دولة الاشرف برسباي نائب غزة. ولما توجه برسباي إلى آمد جعله نائب الرها ثم استقدمه إلى القاهرة وجعله نائب السلطنة بصفد واستمرَّ بها إلى دولة الملك الظاهر جقمق، ولما توفي الاتابكي يشبك السودوني جعله الظاهر في الاتابكية عوضه سنة ٨٤٩هـ (سنة ١٤٤٥م). ولما توفي جقمق وتولى ابنه الملك المنصور خلعه كما مر واستولى على سرير السلطنة وأخذ في تدبير امره وإصلاح شأنه وإقامة عماله وجعل ولده أحمد المقر الشهابي اتابك العسكر فاستوحش لذلك الامراء فعزل ولده وأقام مكانه ثاني بك البرديكي، ونصب الامير خشقدم امير سلاح وأرسل بعض الامراء الذين توجس منهم إلى السجن بالاسكندرية مقيدين، وقبض على جماعة من مماليك الملك الظاهر جقمق ونفى بعضهم إلى الشام وبعضهم إلى قوص في جنوبي مصر، فاستقامت امور سلطنته وقرر في قضاء الشافعية بحلب القاضي تاج الدين عبد الوهاب وعزل عنه الزهري. وتوفي في السنة المذكورة يبغوت بن صفر المعروف بالاعرج نائب صفد وكان قد ولي نيابة حماة ثم نيابة صفد ثم سجن ثم عاد إلى صفد ومات بها. وتوفي جفنوس الناصري نائب بيروت وأقام السلطان في نيابة صفد اياس الطويل وكان اتابك العسكر بطرابلس وفي هذه السنة ارسل السلطان محمد بن عثمان يبشر السلطان الاشرف بفتح القسطنطينية فدقّت البشائر في قلعة القاهرة ونودي بالزينة في المدينة.

وفي سنة ٨٨٥هـ (سنة ١٤٥٤م) أقام السلطان الحافظ قطب الدين الحضيري

في كتابة السر بدمشق وبعد مدة زيد على كتابة السر قضاء الشافعية بدمشق ثم قرر في اتابكية حلب اقبردي الظاهري عوضاً عن علي بك العجمي ثم جعله نائباً بحلب، وفيها قدم جلبان نائب الشام إلى السلطان وكان أشيع عنه العصيان وقدم للسلطان تقدمة فاخرة وأضافه السلطان اياماً وخلع عليه وأمره بالعود إلى الشام على عادته. وفي سنة ٨٥٩هـ (سنة ١٤٥٥م) توفي جلبان هذا وكان قد جاوز الثمانين من عمره وتولى عدة ولايات منها النيابة في حماه وفي طرابلس وفي حلب فعين السلطان في نيابة الشام قاني باي الحمزاوي نائب حلب قبلاً، وخلع على جانم الاشرفي ليكون نائباً بحلب عوضاً عن قاني باي الحمراوي. وفي هذه السنة ايضاً قبض السلطان على يشبك النوروزي نائب طرابلس وحمل إلى قلعة المرقب فسجن بها وقرر مكانه في نيابة طرابلس اينال البشبكي، وقرر في نيابة صفد جاني بك التاجي عوضاً عن اياس الطويل وجعل في نيابة غزة خاير بك النوروزي احد الامراء بصفد، ونصب في اتابكية حلب سودون الناصري اتابك طرابلس وقرر جمال الدين الباعوني في قضاء الشافعية بدمشق وعزل عنها سراج الديني الحمصي.

وفي سنة ٨٦٢هـ (سنة ١٤٨٥م) توفي قاني باي الحمزاوي نائب الشام المذكور فقرر السلطان مكانه جانم الاشرفي وفي سنة ٨٦٥هـ (سنة ١٤٦٠م) توفي الملك الاشرف اينال بعد ان قضى مدة ملكه في ارغد عيش فكثر عليه الحزن والاسف كما قيل:

هي الدنيا إذا كملت وتمّ سرورها خذلت
وتفعل بالذين بقوا كما في من مضى فعلت

بعد ان ملك ثمان سنين وشهرين وستة ايام وكان عمره عند وفاته احدى وثمانين سنة وله ابنان الاتابكي احمد الذي تسلطن بعده، والمقر الناصر اخوه، وله بنتان. ولما ثقل به المرض عهد بالملك إلى ولده الاتابكي احمد المذكور فجلس على سرير السلطنة في حياة ابيه. انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس.

عد ٩٣٢

الملك المؤيد ابن الملك الاشرف

هو الثالث عشر من ملوك الجراكسة وكني ابا الفتح ولقب شهاب الدين بويع بالسلطنة في حياة ابيه الملك الاشرف اينال سنة ٨٦٥هـ (سنة ١٤٦٠م) وكان عمره لما استوى على منصة الملك نحواً من ثماني وثلاثين سنة، وأخذ في تدبير ملكه وخلع من اختارهم من الامراء وفي جملتهم المقر السيفي خشقدم الناصري وكان امير سلاح فقرره في الاتابكية عوضاً عن نفسه، واستحوذ الامن والعدل والرضاء في الرعية وأحبه الناس حباً شديداً ومالت النفوس اليه على نحو ما قيل:

دولـتــه لــلانــام عــيــد بــاقٍ وأيــامــه مــواســم

قد أظهر العدل في الرعايا وأبــطــل الجور والمظــالم

وصـيـر الـشـاة فـي حـمـاه تمشي مع الذئب والضياغم

لو نطقت مصرنا لقالت يا مـلـك العـصـر والاقـالم

مـلأت قـلـوب الملوك رعـبـاً أغنى عن السمر والصوارم

ثم قدم الاشرفي الذي كان دواداراً ثانياً، ونفي في دولته الاشرف اينال. فلما مات اينال قدم إلى القاهرة من غير اذن السلطان ونزل عند الاتابكي خشقدم فشق ذلك على السلطان وأمر بإخراجه وسجنه فشفع بعض الامراء فأنعم عليه السلطان أن يكون مقدم الف بدمشق وخلع عليه فشق ذلك على جماعة الاشرفية وكثر القيل والقال بين الناس ولهجوا بوقوع فتنة عن قرب، وشاع بين الناس ان السلطان عازم على امساك جماعة من الاشرفية، ثم امر السلطان نقيب الجيش ان يبلغ الامراء ان يصعدوا إلى القلعة فتوجسوا ولم يحضر احد منهم ووثب المماليك الاشرفية والظاهرية واستمالوا إليهم اكثر المماليك الاينالية وأفسدوا عقولهم حتى اخذوا سلاحهم وتوجهوا إلى الرماية، فانشب القتال بينهم وبين العسكر ومماليك السلطان، واستمر القتال ثلاثة ايام والسلطان يجلس في محل مطل على الرملية حيث الحرب وفي اليوم الثالث رتب على الملك مماليك ابيه فتحقق انه مكسور فكان له ما قيل:

كنت من كربتي افر اليهم فـهُـمُـوا كـربـتـي فـأين المفـر

فانهزم الملك المؤيد إلى القلعة ولما علم ذلك العسكر توجهوا إلى بيت الأتابكي خشقدم فاركبوه على كره منه وساروا إلى المحل المعروف بباب السلسلة ودعوا الخليفة والقضاة الاربعة فخلعوا الملك المؤيد احمد من السلطنة وبايعوا بها الاتابكي خشقدم فكانت مدة ملك الملك المؤيد أربعة اشهر وثلاثة ايام.

وكان المماليك قد كاتبوا جانم نائب الشام ان يحضر إلى مصر ليلي السلطنة وأرسلوا اليه صورة بخطوط ايديهم على انهم ارتضوا بأن يكون هو سلطاناً عليهم فابطأ جانم وما صبروا هم فولوا خشقدم السلطنة إلى ان يحضر جانم، ولكن اصبح الوكيل اصيلاً وتمكن خشقدم في السلطنة وأرسل فقيّد الملك المؤيد احمد وأخاه وأرسلهما إلى السجن بالاسكندرية وكان الملك المؤيد اهلاً للسلطنة، وبصيراً في مصالح الرعية ولو طالت سلطته لكان للناس به غاية النفع، ولكن خانه الزمان وغدر به مماليك ابيه كما قيل:

إذا جفاك الدهر وهو ابو الورى طـراً فـلا تـعـتـب عـلـى اولاده

انتهى ملخصاً عن ابن اياس في تاريخ مصر

عد ٩٣٣
الملك الظاهر خشقدم

لم يحسبه ابن اياس في جملة ملوك الجراكسة بل قال هو اول ملوك الروم بمصر ان لم يكن إيبك التركماني من الروم ولا لاجين من الروم (والاثنان ملكا قبلاً بمصر كما مر). واصل خشقدم مملوك رومي جلبه التاجر ناصر الدين فيعرف بالناصري واشتراه منه الملك المؤيد شيخ المار ذكره واعتقه وصار جمداراً وبقي خاصكياً في دولة الملك المظفر احمد ابن الملك المؤيد شيخ الى ان صار مقدم الف بدمشق وبقي هناك. ولما تغير خاطر السلطان على الامير قاني بك حاجب الحجاب المار ذكره ونفاه، استحضر خشقدم من دمشق وأنعم عليه بإقطاع الامير قاني بك سنة ٨٥٤هـ (سنة ١٤٥٠م). ثم بقي خشقدم امير سلاح في دولة الملك الاشرف اينال. ولما توفي هذا الملك وخلفه ابنه الملك المؤيد احمد اجفل خشقدم اتابك العسكر كما رأيت، ثم خلع المماليك المؤيد وعهدوا بالسلطنة إلى خشقدم إلى ان يحضر جانم نائب الشام، فتمكن خشقدم بالسلطنة وقد بويع بها في ١٧ رمضان

سنة ٨٥٦هـ (سنة ١٤٦٠م) ويسمى الملك الظاهر، وكُنِّي ابا سعيد ولقب سيف الدين.

ووزع الملك الظاهر المناصب والاقطاعات على من شاء من الامراء وجعل المقر السيفي جرباش المحمدي المعروف بكرت اتابك العسكر، وجاءت الاخبار بان جانم نائب الشام قد وصل إلى خانقاه سرياقوس بحسب دعوة الامراء الاشرفية له ليسلطنوه عوضاً عن الملك المؤيد احمد كما مر. وعرف جانم ان الوعد اختل والوظائف قسمت وفاته الشنب وعز الطلب فكان كما قيل:

وثب الثعلب يوماً وثبةً   شغفاً منه بعنقود العنب

لم ينله قال هذا حامض   حصرم ليس لنا فيه ارب

ولما بلغ خشقدم حضور جانم اضطرب وجميع الامراء فاتفقوا ان جانم يرجع إلى الشام ليبقى نائباً بها ولا يدخل مصر، ووجهوا اليه خلعة نيابة الشام وأرسل السلطان اليه مع الخلعة عشرة آلاف دينار، فرجع جانم إلى الشام بخفّي حنين وأسرَّ السلطان إلى نائب قلعة دمشق ان يقبض على جانم فهرب جانم بعياله وأولاده إلى الرها فنهب العسكر داره وأظهر هو العصيان بالرها فجهز له السلطان عسكراً وأمَّر عليه جاني بك نائب جده، ونصب في نيابة دمشق المقر السيفي تنم المؤيدي عوضاً عن جانم.

وفي سنة ٨٦٧هـ (سنة ١٤٦٢م) جاءت الاخبار من حلب ان جانم قتل وقيل قتله مماليكه وهو في قلعة الرها ولما تحقق الخبر دقت البشائر بالقاهرة وانكف العسكر المعين لكبته عن المسير وفيها قبض السلطان على الامير تمراز الاشرفي وسجنه بقلعة المرقب وشكا بأنه قتل رجلاً فأثبت السلطان ذلك عليه وأرسل اليه رجلاً من المالكية يسمى الشارعي فضرب عنقه على باب السجن بالمرقب وكان تمراز هذا سيء الخلق واللسان وكان منفياً بالشام من اول دولة الاشرف اينال.

وفي سنة ٨٢٧هـ (سنة ١٤٦٧م) جاءت الاخبار من حلب بأن خارجياً اسمه شاه سوار مقبل إلى الشام فأرسل السلطان إلى الامير برد بك نائب حلب بأن يخرج اليه فخرج ومعه نواب صفد ودمشق وطرابلس وحماة وحمص في رجالهم فانتصر شاه سوار عليهم وغنم بحليهم وسلاحهم فاضطرب السلطان وأمر بتجريدة

يرأسها خمسة امراء من مقدمي الالوف فانتصر عليهم وقتل وأسر كثيرين من الامراء وغيرهم، وأخذ بعض اعمال حلب. وما برح السلطان يجهز العساكر ويرسلها إليه سنة ٨٧٧هـ (سنة ١٤٧٢م) حين تمكنت العساكر من حصره في قلعة زمنوطو وتركه اكثر عسكره فاستسلم هو واخوته وبعض ذويه فاحضروهم إلى القاهرة وأمر السلطان بشنقهم فشنقوا. وفي السنة المذكورة مرض السلطان الظاهر خشقدم واشتد مرضه نحو اربعين يوماً وادركته المنية في ١٠ ربيع الاول من سنة ٨٧٢هـ (سنة ١٤٦٧م) ودفن في تربة اعدها لنفسه في الصحراء وله من العمر خمس وسبعون سنة وكانت مدة ولايته بالديار المصرية والشامية ست سنين وخمسة اشهر وعشرين يوماً. انتهى مقتطفاً عن تاريخ مصر لابن اياس.

عد ٩٣٤
الملك الظاهر بلباي المؤيدي

هو الرابع عشر من ملوك الجراكسة عند من اسقطوا خشقدم من عديدهم لانه رومي، والخامس عشر عند من لم يسقطه. وأصل بلباي جركسي جلبه الامير اينال من بلاد الجراكسة فاشتراه الملك المؤيد شيخ فينسب اليه ثم اعتقه وصار جمداراً ثم ساقياً في دولة الملك الظاهر جقمق، وتقدم بالمراتب حتى صار مقدم الف في دولة الملك الاشرف اينال ثم حاجب الحجاب في دولة الملك الظاهر خشقدم، ثم اتابك العساكر سنة ٨٧٠هـ (سنة ١٤٦٥م). ولما توفي الملك الظاهر خشقدم وقع الاتفاق على سلطته وحضر الخليفة المستنجد بالله يوسف وقضاة المذاهب الاربعة فبايعوه بالسلطنة وسمي الملك الظاهر وكني بابي النصر ولقب بسيف الدين وجعل المقر السيفي تمربغا اتابك العساكر عوضاً عن نفسه، ووزع باقي المناصب على من اراد وقبض على الامراء وارسلهم إلى السجن بالاسكندرية، فنفرت منه قلوب الرعية وقطع نفقة بعض الخدام. وكان السلطان خشقدم قد ارسل بعض الامراء إلى العقبة لمنع فساد العربان فعادوا ومعهم نحو ستين شخصاً من العرب، فأمر بقتلهم ونصب الامير ازبك نائب السلطنة بالشام وأمره بالتوجه إليها بعد ثلاثة ايام فتوجه.

وكانت فتنة بين المماليك افضت إلى اجتماع الامراء يوم السبت سابع جمادي الأولى من سنة ٨٧٢هـ (سنة ١٤٦٧م) وأحضروا الخليفة والقضاة الاربعة وخلعوا

الملك الظاهر بلباي من السلطنة واتفقوا على ان يبايعوا الاتابك تمربغا، ثم قيدوا بلباي على بعض الامراء المؤيدية وأرسلوا الملك الظاهر بلباي إلى السجن بالاسكندرية والامراء المذكورين إلى السجن بدمياط، فكانت مدة سلطنة الملك الظاهر بلباي شهرين إلا اربعة ايام فصح به ما قيل:

ركب الاهوال في زروته   ثم ما سلَّم حتى ودَّعا

وكان بلباي فظ الاطباع سيء التدبير سمج الشكل فحقٌّ ان يقال فيه:

وفظ غليظ الطبع لا ود عنده   وليس لديه للاخاء تأنيس

تواضعه تكبير وتقريبه جفا   وترحيبه ممقتٌ وبشراه تعبيس

عد ٩٣٥

الملك الظاهر تمربغا الظاهري

عده ابن اياس في تاريخ مصر الثاني من ملوك الروم بمصر ووضعه غيره بالسادس عشر من ملوك الجراكسة. قال ابن اياس انه كان رومي الاصل اشتراه الملك الظاهر جقمق ورباه صغيراً ولما تسلطن جقمق جعله خاصكياً ثم سلاحداراً ثم خازنداراً ثم دواداراً ثانياً ثم صار مقدم الف في دولة الملك المنصور بن جقمق. ثم نفي إلى اسكندرية وسجن بها نحو ست سنين ثم نقله الملك الاشرف اينال إلى مكة فأقام بها نحو ثلاثة سنين. ولما تسلطن خشقدم استأتاه من مكة وخلع عليه وجعله راس نوبة النواب فأقام على ذلك مدة ثم نفاه إلى الاسكندرية فأقام بها مسجوناً ثلاثة ايام، فشفع به الاتابكي قانم التاجر إلى ان صار اتابك العساكر في دولة الملك الظاهر بلباي. ولما خلع هذا من السلطنة اتفق الامراء على سلطنة تمربغا الاتابكي وأحضروا الخليفة والقضاة الاربعة وبايعوه بالسلطنة يوم السبت سابع جمادى الاولى سنة ٨٧٢هـ (سنة ١٤٦٧م)، وسُمِّي الملك الظاهر، وكُنِّي ابا سعيد وكان كفؤاً للسلطنة، وله المام ببعض العلوم والفنون. ولما استوى على عرش السلطنة جعل المقر السيفي قايتباي المحمودي اتابك العساكر عوضاً عن نفسه ووزع المنصب والاقطاعات على من شاء من الامراء. ووقعت الوحشة بينه وبين المماليك

الخشقدمية ولما كانت ليلة الاثنين سادس رجب تلك السنة عمل السلطان الموكب في القصر الكبير ودخل جماعة من المماليك الخشقدمية وسيوفهم مسلولة فقبضوا على السلطان وعلى جماعة من امرائه وسجنوهم، وكان يرأس هؤلاء المماليك الامير خير بك وقد اتفق مع المماليك الاينالية بأنه يمسك السلطان في القصر وهم يقبضون على باقي الامراء الخارجين عن القصر ويكون هو السلطان. فلما قبض على السلطان ظن انه تسلطن وأخذ يوزع المناصب في تلك الليلة ولسان الحال يناديه «كلام الليل يمحوه النهار». وكان الاتابكي قايتباي غائباً ولما بلغه الخبر اسرع إلى المدينة وشجع جماعة الظاهرية واستمال الاينالية على الامير خيربك وقال انه يرضيهم فاتفقوا الليلة نفسها على خلع السلطان تمربغا وتولية الاتابكي قايتباي، وعند الفجر اركبوه وساروا به نحو القلعة فلما رأى خير بك ذلك اضطرب وضاق به الامر فأخرج السلطان تمربغا من السجن وأجلسه على منصته وقبل الارض قدامه مستغفراً، وتسطح امامه وقال اقتلني فأنا كنت باغياً عليك. فأجابه السلطان لا أنت ولا أنا بقي لنا بقاء، ودافع الخشقدمية وخير بك قايتباي وجماعته فانكسروا وتشتتوا، وقبض قايتباي على خير بك وبعض عصبته وسجنهم في محل بالقلعة وأدخل السلطان تمربغا إلى البحرة دون قيد، ثم ارسله مكرماً إلى ثغر دمياط ودعوا الخليفة والقضاة الاربعة وبايعوا قايتباي بالسلطنة وكانت مدة سلطنة تمربغا ثمانية وخمسين يوماً فصح به كما قاله الشاعر:

لم أستتمَّ عناقه لقدومه ... حتى ابتدأت عناقه لوداعه

وصح بالامير خير بك ما قاله الشاعر الآخر:

يريد المرء ان يعطي مناه ... ويأبى الله إلا ما أرادوا

واستمرَّ تمربغا في دمياط على ارغد عيش إلى ان وسوس ابليس له ان ينسحب منها كما سيأتي:

عد ٩٣٦

الملك الاشرف قايتباي المحمودي الظاهري

هو الخامس عشر من ملوك الجراكسة على رواية ابن اياس لاسقاطه خشقدم

وتمربغا من عدادهم وهو السابع عشر على رواية من لم يسقطوهما وأصل قايتباي جركسي جلبه إلى مصر تاجر اسمه محمود، فنسب إليه واتصل إلى الملك الظاهر جقمق فنسب اليه ايضاً وهو الذي اعتقه وصيره جمداراً ثم خاصيكياً ثم دواداراً كبيراً. ولما توفي الظاهر بلباي جعله رأس نوبة النواب، ولما تولى الملك الظاهر تمربغا جعله اتابك العساكر إلى ان اتفق على سلطته وبايعه بها الخليفة والقضاة الاربعة سنة ٨٧٢هـ (سنة ١٤٦٧م)، وسمي الملك الاشرف، وكُنّي ابا النصر ولقب سيف الدين.

ولما استولى الملك الاشرف على منصة الملك خلع على المقر السيفي جاني بك قلقسير وجعله اتابك العسكر، وكان عمر الملك الاشرف حينئذ نحواً من خمس وخمسين سنة، وقبض على اعيان الخشقدمية ونفاهم إلى عدة اماكن، وقرر في اتابكية دمشق شادي بك الجلباني، وخلع على يشبك السيفي علي بك وقرره في نيابة قلعة دمشق وجعل في نيابة قلعة حلب تمر بك، وقرر مرداش العثماني في نيابة القدس عوضاً عن محمد بن حسن بن ايوب، وجعل بيبروس الاشرفي في اتابكية صفد. وفي السنة المذكورة انتصر شاه سوار المار ذكره على العساكر السلطانية وقُتل كثيرون من الامراء وأسر كثيرون، ومن سلموا دخلوا حلب مشاة عراة ودخلها ازبك نائب الشام وهو مجروح في وجهه، ودخل نائب طرابلس ونائب حلب في اسوأ حال، وأسر سوار اتابك العساكر جاني بك قلقسير، فعقد السلطان ديوان مشورة وارتأوا ان يؤخذ من مال الجوامع والمساجد ما يجهز به عساكر لكبت شاه سوار. فأنكر ذلك شيخ الاسلام امين الدين الاقطراني الحنفي وأثبت ان ليس للسلطان ان يأخذ اموال الناس إلا بوجه شرعي إلا إذا كان ضرورياً في المنع عن المسلمين، ولا يفي بالحاجة ما في ايدي الامراء والجند وحلي النساء، فانفض المجلس من غير طائل وعين الاشرف تجريدة اخرى على سوار وبلغت الاخبار بأنه وصل إلى قرب حلب.

وفي هذه السنة فرّ الظاهر تمربغا من دمياط وبلغت الاخبار الملك الاشرف فاضطرب وأمر بالتحوط منه وباتباعه، فقبض عليه ارغون شاه نائب غزة، وتوجه الامير يشبك فحمله في محفة إلى الاسكندرية دون قيد، فرفق به السلطان ولم يسجنه وكتب هو إلى السلطان يعتذر بأنه قصد التوجه إلى شاه سوار ليصلح بينه وبين السلطان وتخمد الفتنة ولم يكن الامر كذلك فصح ما قيل:

إذا كان وجه العذر ليس بواضح   فإن اطراح العذر خير من العذر

وفي سنة ٨٧٣هـ (سنة ١٤٦٨م) نصب السلطان قانصوه اليحياوي نائباً بطرابلس عوضاً عن اينال الاشقر الذي نصبه نائباً بحلب عوضاً عن بردبك البجمقدار الذي نقله إلى نيابة الشام عوضاً عن ازبك بن ططنح الذي نقله إلى اتابكية العساكر عوضاً عن جاني بك قلقسير الذي اسره سوار.

وفي سنة ٨٧٤هـ (سنة ١٤٦٩م) خلع السلطان على قانصوه اليحياوي ليكون نائباً بحلب عوضاً عن اينال الاشقر الذي جعله مقدم الف بالقاهرة ونصب يشبك البجاسي نائباً بطرابلس وكان قبلاً نائباً بحماة وجعل مكانه بحماه بلاط اليشبكي احد مقدمي الالوف بدمشق وأقام مكانه تمراز اتابك عسكر حلب وقرر في اتابكية حلب تعزى بردى بن يونس.

وفي سنة ٨٧٥هـ (سنة ١٤٧٠م) كان خلاف بين العلماء بالقاهرة في امر الشيخ عمر بن الفارض فتعصب عليه جماعة من العلماء وقالوا بفسقه وكفره ونسبوه إلى من يقول بالحلال والاتحاد بسبب ابيات قالها في قصيدته التائية، وكان اخص المتحاملين عليه برهان الدين البقاعي، ومحب الدين بن الشحنة. وفي رأس المنتصرين له الجلال بن الكمال الاسيوطي والشيخ ذكريا الانصاري، والف الجلال السيوطي كتاباً سماه «قمع المعارض في الرد عن ابن الفارض» وصنف غيره كتاباً سماه «درياق الافاعي في الرد على البقاعي» وكثرت المشاحنات في هذا الشأن وما أحسن ما قاله الشهاب المنصوري في البقاعي:

ان البقاعيَّ بما قد قاله مطالب
لا تحسبوه سليماً فقلبه يعاقب

وهجا بعضهم ابن الشحنة لذلك فقال:

اصبحت يا ابن الشحنة الحنفي في كل القبائح أوحد الازمانِ
في مصر علم ابي حنيفة تدعي جهلاً وأنت معرَّة النعمانِ

ومما اورده لتبرئة ساحة ابن الفارض مذهب الحلول قوله في قصيدته التائية نفسها:

ولي من اتم الردئتين اشارة تنزه عن راي الحلول عقيدتي

وفي هذه السنة ايضاً توفي برد بك البجمقداري نائب الشام فنصب السلطان مكانه الامير برقوق الناصري. وفيها وردت الاخبار بأن حسن الطويل ملك العراقين قصد ان يستحوز على بلاد حلب وإنه اظهر العداوة للسطان وقد طمع بعسكر مصر بسبب كسرة شاه سوار لهم. فثار السلطان وقصد ان يخرج إلى حلب وكان سوار ما زال يحارب السلطان ولم تنتهِ الحرب إلا سنة ٨٧٧هـ (سنة ١٤٧٢م) فاضطر السلطان ان يغضي على ما بلغه عن حسن الطويل ملك العراقين إلى ان قبضت العساكر على سوار وشنق بالقاهرة كما مرَّ. وبعد ذلك بلغت الاخبار بأن حسن الطويل جمع العساكر وهو زاحف إلى بلاد السلطان فجهز السلطان عسكراً لكبته وأمّر عليه ثلاثة من الامراء فساروا إلى حلب سنة ٨٧٧هـ المذكورة، ثم اردفهم السلطان بتجريدة اخرى لما بلغه ان حسن الطويل اخذ بعض اعمال بلاده ولما وصلوا إلى حلب ارسل اليهم حسن الطويل وفداً يطلب من اسروا وسجنوا بحلب من جماعته ويعد بإطلاق من عنده من الاسرى فلم يجبه الامير يشبك الدوادار امير عسكر السلطان إلى ذلك، وأرسل جماعة من عسكره لقتال عسكر حسن الطويل في البيرة فرحلهم عنها وجرح ابن الطويل جراحات بالغة. وقال شمس الدين القادري في الانتصار على حسن الطويل:

أيا حسن الطويل بعثت جيشاً ... كاغنام وهنَّ لنا غنائم
فنار الحرب قد قتلت سواراً ... وأنت لسبكها لا شك خاتم

وقال المنصوري:

هل عازف بالخارجي المعتدي ... يخبر إلينا باسمه وصفاته
قالوا نعم حسن فقلت هلاكه ... قالوا الطويل فقلت ليل شتاته

وقد كاتب حسن الطويل الفرنج ليعينوه على قتال سلطان مصر وأن يحملوا على السلطان ابن عثمان وعلى سلطان مصر في البحر وهو يحمل عليهما في البر. وأرسل هذه المكاتبة مع وافد فوقع هذا الوفد بيد سفير من قبل السلطان ابن عثمان فقبض عليه وأسره وأخذ الكتابة منه وقدمها للملك الاشرف.

وفي سنة ٨٧٩هـ (سنة ١٤٧٤م) ارسل حسن الطويل سفيراً إلى الملك الاشرف وبيده رسالة يعتذر بها عما كان منه ويطلب العفو فأكرم السلطان سفيره

وأظهر العفو عما يجري منه وكان قد شاع ان حسن الطويل قتل، فظهر كذب هذه الاشاعة. وفي سنة ٨٨٠هـ (سنة ١٤٧٥م) جعل الملك الاشرف برد بك السيفي جدباش نائباً على صفد عوضاً عن ازدمر بن مزيد الذي نقله إلى نيابة طرابلس، ووجه إلى دمشق برهان الدين النابلسي وكيلاً لبيت المال، فصدرت منه قبائح حتى رجمه اهل دمشق ورموا عليه بالسهام وأحرقوا داره، فتلطف نائب القلعة بالعامة وخمد جذوة غضبهم على النابلسي. وفي سنة ٨٨٢هـ (سنة ١٤٧٧م) قبض الامير يشبك بامر السلطان على برهان الدين هذا وعاقبه واستلخص منه بعض الاموال ومات تحت العقاب. وفي هذه السنة سافر السلطان الملك الاشرف قايتباي إلى البلاد الشامية بغتة بنفر يسير، فعرج إلى طرابلس وبلغ إلى حلب ثم إلى الفرات فأقام هناك اياماً ثم عاد إلى حلب ثم رحل عنها إلى حماه، فتوعك مزاجه واشتد المرض فحملوه بمحفة إلى دمشق. وكثر القال والقيل بأن السلطان توفي فاضطربت احوال الأمراء في القاهرة وأبدى كل منهم ما بنفسه من رغبته في السلطنة إلى ان تعافى السطان ووردت البشائر انه نصل من مرضه وعاد من دمشق وكان دخوله إلى القاهرة يوماً مشهوداً.

وفي سنة ٨٨٤هـ (سنة ١٤٧٩م) نقل السلطان قانصوه اليحياوي من نيابة حلب إلى نيابة الشام عوضاً عن جاني بك قلقسير الذي توفي، ونقل ازدمر احد ذوي قرابته من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب، وقرر في نيابة طرابلس برد بك المعمار نائب صفد، ونصب في نيابة صفد جاني بك احد مماليك السلطان. وفي سنة ٨٨٥هـ (سنة ١٤٨٠م) أرسل السلطان الامير يشبك الدودارا ومعه هؤلاء النواب إلى حلب لكبت سيف امير العرب آل فضل الذي كان ابدى العصاوة ففر سيف وتوجه إلى الرها فلحقه الامير يشبك والنواب إلى الرها وحاصروها قاصدين اخذها، فخرج عليهم بابندر حاكمها من قبل يعقوب بن حسن الطويل فانتصر عليهم وشتت شملهم وأسر الامير يشبك ثم قتله واسر نائب الشام ونائب حلب وقتل كثيرين منهم برد بك نائب طرابلس فصح بيشبك ما قال الشاعر:

وكم من طالب يسعى لشيء   وفيه هلاكه لو كان يدري

وعين السلطان الاتابكي اذبك نائباً بحلب عوضاً عن ازدمر الذي كان قد أُسر وفوض اليه امر البلاد الشامية والحلبية، ونصب تمرازا التمشي احد انسبائه نائباً

شام، فامتنع من ذلك. فاستبد له بقجماس الاسحاقي عوضاً عن قانصوه
حياوي الذي أسر، ولما وصل إلى حلب اذبك واليها ارسل وافداً إلى يعقوب بن
سن الطويل فأكرمه يعقوب وأطلق من كان عنده من الاسرى سنة ٨٨٦هـ (سنة
١٤٨م).

وفي سنة ٨٨٨هـ (سنة ١٤٨٣م) خلع السلطان على مملوكه اينال الخسيف
جعله نائباً بصفد وكان اتابك العساكر بحلب ثم ولاه فيما بعد نيابة حماه وخلع
ى قريبه بيبرس الرجبي وجعله نائباً بطرابلس عوضاً عن اينال السلحدار الذي كان
، اسره علي دولات، وعلي هذا هو اخو شاه سوار المتقدم ذكره قد أظهر العصيان
لعداوة للسلطان فخرج عليه ورديش نائب حلب وجرى قتال شديد بين
سكرين فانكسر العسكر الحلبي وقتل النائب المذكور. وكان السلطان بايزيد خان
ن السلطان محمد خان يمدُّ علي دولات. فابتدأ حينئذٍ التنافر بين سلطان
سطنطينية وسلطان مصر وبعد ان انكسر عسكر حلب استأنف العسكر المصرى
كر على عسكر علي دولات وعسكر السلطان ابن عثمان الذي كان ينجده فظفر
سكر المصري.

وفي ٨٩١هـ (سنة ١٤٨٥م) توفي يشبك العلائي نائب حماه فنصب
سلطان مكانه سيباى الطيوري وكانت في هذه السنة وما بعدها حروب بين
سكر السلطان بايزيد العثماني والسلطان قايتباي في جهات حلب وكان النصر
ها تارة لسلطان القسطنطينية وتارة لسلطان مصر والشام وفي سنة ٨٩٢هـ (سنة
١٤٨م) توفي قجماس الاسحاقي نائب الشام فدعا السلطان قانصوه اليحياوي
ـي كان قبلاً نائباً بالشام ورده إلى هذه النيابة ثانية. وفي السنة التالية نصب
ِفق الدين الحموي في نظارة الجيش بدمشق وجعل عبد الرحيم في كتابة السر
يدكي الاشرفي في نيابة القلعة بدمشق، وأعاد ازدمر قريبه إلى نيابة حلب وتوفي
ٍادار السلطان بهذه المدينة، فنصب مكانه اركماس بن ولي الدين، وجاءت
'خبار بأن عسكر السلطان ابن عثمان وصل إلى ادنه فجند الملك الاشرف عسكراً
ىمده فكانت بين العسكرين وقعة قتل فيها خلق كثير من الفريقين، وعاد عسكر
ن عثمان الى ادنة فتبعه العسكر المصري اليها وحاصرها وأخذها اخيراً بالامان.
ي سنة ٨٩٤هـ (سنة ١٤٨٨م) جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان لما بلغه

رجوع العسكر المصري طمعوا بأخذ البلاد الحلبية فاهتم الملك الاشرف بارسال تجريدة اخرى أمّر عليها قانصوه الشامي أحد مقدمي الالوف فاستولوا في السنة التالية على بعض الاماكن من ملك ابن عثمان ولكن حصل في العسكر المصري قلق من قبل النفقة فعادوا إلى مصر سنة ٨٩٦هـ (سنة ١٤٩٠م) وتعذر على السلطان جمع ما فرض من الضرائب وقلق الناس لذلك فأرسل الملك الاشرف سفيراً إلى السلطان العثماني فعاد ومعه سفير من قبل بايزيد، فوقع الصلح بينهما وأطلق الاسرى من الفريقين وفي السنة المذكورة وقعت فتنة بين نائبها ازدمر وبين جماعة من اهلها فقتل سبعة عشر ملوكاً من مماليك النائب وقتل من اهل حلب نحو خمسين رجلاً، فقام باخماد هذه الفتنة قانصوه الغورى الذي صار فيما بعد سلطاناً وكان وقتئذٍ حاجب الحجاب بحلب.

وفي سنة ٨٩٧هـ (سنة ١٤٩١م) كان بمصر طاعون شديد الوطأة ماتت به الالوف المانعة وكان يموت بهذا الوباء كل يوم اكثر من الف شخص وعمّ الوباء الشام ولم يكن عدد الموتى بدمشق اقل من الموتى بالقاهرة واتصل إلى القرى ايضاً وفي سنة ٨٨٩هـ (سنة ١٤٩٢م) وقعت بدمشق فتنة حتى رجم اهلها النائب قانصوه اليحياوي. وفي سنة ٨٩٩هـ (سنة ١٤٩٣م) توفي ازدمر المسرطن نائب صفد الظاهري ثم توفي ازدمر نائب حلب من اقرباء السلطان وتولى عدة مناصب منها نيابة طرابلس ونيابة حلب وكان اصله من مماليك الظاهر جقمق وبعد موته نصب مكانه اينال السلحدار نائب طرابلس، وتوفي يشبك بن حيدر نائب حماه وأصله من مماليك الاشرف اينال. فخلع السلطان على اقياي الطويل وجعله نائباً بحماه. وفي سنة ٩٠٠هـ (سنة ١٤٩٤م) عين السلطان كرتباي اخا الامير اقبردي الدودار نائباً بصفد.

وفي سنة ٩٠١هـ وهي بدء القرن العاشر للهجرة (سنة ١٤٩٥م) حم السلطان الاشرف قايتباي وزاد مرضه فاجتمع يوم السبت ١٦ من ذي القعدة الخليفة والقضاة الاربعة وخلعوه من السلطنة وهو في النزاع، وبايعوا ابنه محمد بالسلطنة. ولمّا كان يوم الاحد ١٧ من الشهر المذكور توفي الملك الاشرف إلى رحمة الله وعمره نحو من ست وثمانين سنة وكانت مدة سلطنته بمصر والشام تسعاً وعشرين سنة وأربعة اشهراً وأياماً ولم تتفق هذه المدة لغيره من السلاطين قبله وقد خلف كثيراً من الاثار التي تحيي ذكره منها مدرسة بدمشق وأخرى بغزة وأخرى بدمياط

وأخرى بالاسكندية، والجامع الذي بالصحراء والجامع الذي بالروضة إلى غير ذلك من معاهد الدين والعلم. انتهى مقتطفاً من تاريخ مصر لابن اياس.

عد ٩٣٧

الملك الناصر محمد ابن الملك الاشرف قايتباي

هو الثامن عشر من ملوك الجراكسة عند من لم يسقطوا خشقدم وتمربغا من عديدهم لانهما روميان بويع بالسلطنة في ١٦ من ذي الحجة بحياة ابيه ودون رضاه لانه كان في النزاع وكان له من العمر عند مبايعته اربع عشرة سنة وأشهر، وكني ابا السعادات ولقب بالمنصور اولاً ثم بدله بالناصر وعين في المناصب من شاء من الامراء وأمر بعود بعض من كانوا منفيين في ايام ابيه، ودعا قانصوه الشامي الذي كان قد قرره بنيابة حماه ونصب مكانه اركماس احد المقدمين بدمشق وكان كرتباي نائب صفد قد قتل احمد بن يهادر نائب قلعتها، فأمر السلطان الماس بن ولي الدين احد الخاصكية بالقبض على كرتباي، فضرب كرتباي عنق الماس وانهزم من صفد، فنصب الملك الناصر مكانه برد بك الطويل، ولمّا كان السلطان قد جعل قانصوه خمسمائة اتابكي العسكر وكبير الامراء عظم امر قانصوه هذا، وصار له الحل والعقد حتى خلع الملك الناصر كما سترى. وفي سنة ٩٠٢هـ (سنة ١٤٩٦م) جاءت الاخبار بقتل عساف الحبشي نائب صيدا وبيروت وكان من مشاهير النواب، وكانت له شهرة طائرة. وفيها قتل قانصوه بعض الامراء غيلة وركب في احزابه من الامراء والعسكر إلى باب السلسلة ودعا الخليفة والقضاة الاربعة فخلعوا الملك الناصر بصورة شرعية وبايعوا قانصوه خمسمائة بالسلطنة، ولم يبق سوى ان يفاض عليه شعار الملك ويركب فرس النوبة ويصعد إلى القلعة. لكن صح به حينئذٍ ما قيل:

ستقضي لنا الايام غير الذي قضت ويحدث من بعد الامور امور

فإن قانصوه خمسمائة ارسل بعض الامراء للقبض على الملك وإدخاله إلى قاعة البحرة، فتعصب له جماعة من مماليك ابنه وكانوا نحو الف مملوك فمنعوا الامراء من دخول القلعة، وانتشب القتال بين الفريقين واستمد قانصوه خمسمائة

الناس فلم يمدوه بل حاصره مماليك الناصر في باب السلسلة ومعه الخليفة والقضاة الاربعة، واستمر الحال على ذلك يومين وفي آخر القتال جرح قانصوه خمسمائة وأغمي عليه فحمله بعض غلمانه ونزل مماليك الناصر إلى باب السلسة وهزموا من كان به وانتهبوا كل ما فيه، وانتصر الملك الناصر وتوجه الخليفة والقضاة الاربعة في اليوم التالي فهنأوه بانتصار. وهذا يذكرنا قول الشاعر:

وبين اختلاف الليل والصبح معرك   يكر علينا جيشه بالعجائب

وقد استخف قانصوه خمسمائة بالملك لصغر سنه فخذله الله وصح ما قيل: ـ

لا تحقرن كبد الصغير فربما   تموت الافاعي من سموم العقاربِ

وقول الآخر:

لا تحقرن صغيراً في مخاصمة   إن الذبابة تدمي مقلة الاسدِ

وحاول قانصوه خمسمائة بعد ذلك ان يأخذ بثارهِ فازداد خذلاناً

وفي السنة المذكورة توفي قانصوه اليحياوي نائب الشام المار ذكره فنصب السلطان مكانه في السنة التالية كرتباي الاحمر ، وفي سنة ٩٠٣هـ (سنة ١٤٩٧م) خلع السلطان على جان بلاط بن يشبك وجعله نائباً بحلب وكان اقبردى الدوادار اظهر العصيان وحاربه العسكر فانهزم إلى الشام وقصد ان يملكها ونهب الضياع التي حول دمشق وخرب كثيراً منها، وفعل كذلك في قرى حلب وقد حاصر اقبردى دمشق نحو شهرين ولم ينل منها مأرباً، وفر إلى حلب وحاصر بطريقه حماه وأخذ منها اموالاً كثيرة. وكان اينال السلحدار نائب حلب حينئذٍ من عصبة اقبردى فأراد ان يسلمه المدينة فرجمه اهل المدينة وطردوه من حلب وحصنوا المدينة ففر اقبردى وعسكره واينال صاحب حلب وتوجهوا جميعاً إلى علي دولات ابن شاه سوار المار ذكره، فاتفق الأمراء حينئذٍ ان يولوا على حلبٍ جان بلاط بن يشبك وتبع كرتباي الاحمر نائب الشام اقبردى وجماعته إلى عين تاب وكانت بين الفريقين هناك وقعة قتل فيها اينال نائب حلب وجماعة كثيرة وانهزم اقبردى إلى جبل الصوف في من بقي معه من الامراء والمماليك وأرسل العسكر المصرى إلى القاهرة بعض رؤوس من قتلوا في وقعة عين تاب وفي جملتها رأس اينال نائب حلب.

وفي سنة ٩٠٤هـ (سنة ١٤٩٨م) سار السلطان إلى بر الجيزة وأقام هناك ثلاثة ايام في أرغد عيش وقد خرج عن الحد في اللهو والخلاعة والطيش وكأن لسان الحال كان يقول له:

تزود من الدنيا فإنك لا تدري إذا جن ليلك هل تعيش إلى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علةٍ وكم من عليل عاش حيناً من الدهر
وكم من فتى يمشي ويصبح آمناً وقد نسجت اكفانه وهو لا يدري

وركب السلطان في آخر تلك الايام ولم يكن معه إلا ابناء عمه وبعض سلحدرايته ومر على الطالبية وكان هناك طومان باي متوجهاً إلى البحيرة فخرج مسرعاً للقاء السلطان وسأله ان يحل عنده فأبى فقدم له طومان باي جفنة فيها لبن فاخر فوقف السلطان وهو راكب على فرسه وأخذ يتناول من اللبن وطومان باي ضابك لجام فرسه وإذا بخمسين مملوكاً خرجوا من الخيام التي هناك وعاجلوا السلطان بالحسام قبل الكلام فقتلوه شرّ قتلة، وقتلوا ابني عمه واحد السلاحدارية ونسب قتله إلى طومان باي. ولما قتل الملك الناصر كان عمره سبع عشرة سنة وكان يوصف بالكرم والشجاعة لكنه كان جاهلاً عسوفاً سفاكاً للدماء كثير العشرة للاوباش وكانت مدة ملكه نحو سنتين وأربعة اشهر وأكثرها فتن وشرور . انتهى مقتطفاً من تاريخ مصر لابن اياس.

عد ٩٣٨

الملك الظاهر قانصوه الاشرفي

هو التاسع عشر من ملوك الجراكسة إذا حسبنا منهم خشقدم وتمربغا الروميين وأصله مملوك جركسي اشتراه الامير قانصوه وقدمه للملك الاشرف قايتباي في سنة ٨٩٨هـ (سنة ١٤٩٢م) ثم ظهر انه اخو سرية السلطان اصل باي الجركسية فجعله السلطان قايتباي جمداراً، ولما توفي وخلفه ابنه الملك الناصر محمد جعله خزانداراً كبيراً وبقي يسمى خال السلطان. ولما وثب قانصوه خمسمائة على السلطان قام قانصوه خاله بنصرته فرقاه ابن اخته في المناصب فعظم امره وشاع بين الناس ذكره ولما عصا اقبردى الدوادار وانهزم إلى الشام جعل الملك الناصر خاله في الدوادارية

الكبرى عوضاً عن اقبردى ولما قتل الناصر اختلف الامراء في من يخلفه ثم اتفقوا على قانصوه خال الناصر واستدعوا الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الاربعة فبايعه الخليفة بالسلطنة وشهد عليه القضاة الاربعة بذلك، وتلقب بالملك الظاهر وكني أبا سعيد، وأبقى الاتابكي إذبك في اتابكية العسكر وقرر طومان باي في الدوادارية الكبرى عوضاً عن نفسه.

وفي هذه السنة أيضاً توفي كرتباي الاحمر نائب الشام ويقال ان الملك الناصر رشا على قتله بألف دينار لانه مخالف له وينهاه عما لا يليق بملك، فدُس له سم مات به فنقل الملك الظاهر جان بلاط ابن يشبك من نيابة حلب إلى نيابة الشام ونصب في حلب عوضه قصروه بن اينال، وفيها عاد اقبردى الدوادار إلى حلب وحاصرها اشد الحصار وأحرق ما حولها من القرى واشرف على اخذ المدينة فجهز السلطان عسكراً ضخماً امّر عليه تاني بك الجمالي امير سلاح. فلدى وصولهم إلى حلب وجدوا اقبردي برعش عند علي دولات بن شاه سوار وطال مقام العسكر بحلب واسعار المؤن غالية وعلف الخيل قليل. فأرسل قصروه نائب حلب قاني باي الرماح يسأل اقبردى الصلح، ولما وثق اقبردى بذلك حضر صحبته قاني باي ودخل إلى حلب طائعاً، فالتقاه نائب حلب وأمراء العسكر وكاتبوا السلطان بذلك، فأرسل له خلعة فاخرة وفرساً بسرج ذهب وقلده نيابة طرابلس. إلا انه بعد دخوله إلى حلب وإقامته بها قبل ان يتوجه إلى طرابلس اعترته آكلة مات بها ودفن بحلب ثم نقلت جثته إلى القاهرة ودفن بتربة انشأها لنفسه بالصحراء، ومات وعمره دون الخمسين وأصله من مماليك الاشرف قايتباي ثم ظهر انه قريبه وتقلب في المناصب الرفيعة إلى ان خرج وحارب عسكر السلطان مراراً فسلم اخيراً نفسه كما مر. وبعد وفاة اقبردى نقل السلطان قصروه من نيابة حلب إلى نيابة الشام ونقل جان بلاط نائبها إلى الاتابكية بمصر ونصب دولات باي بن اركماس في نيابة حلب عوضاً عن قصروه، وقرر بلبناي المؤيدى في نيابة طرابلس عوضاً عن دولات. وروى البطريرك الدويهي انه كان في هذه السنة ببيروت وباء مات به خلق كثير.

وفي سنة ٩٠٥هـ (سنة ١٤٩٩م) عصا قصروه نائب الشام وخرج عن الطاعة واستولى على قلعة دمشق وعلى ما فيها من المال، فاضطرب السلطان وأظهر انه يخرج إلى الشام بنفسه، وأخذ يستعد لذلك. وكان الامير طومان باي ممالئاً قصروه على العصيان قاصداً التمهيد لنفسه، وأشار الامراء على السلطان بأن يبعث إلى

قصروه سفيراً يقرره في نيابة الشام، ولا يواخذه بما عمل إذا سلم قلعة دمشق إلى نائبها، ولكن جاءت الاخبار بأن قصروه تولى على طرابلس وقبض على نائبها بلباي المذكور وسجنه بقلعة دمشق وكتب السفير المرسل إليه انه مصر على العصيان فجهز الملك الظاهر جيشاً لكبت قصروه ، وكان في هذا الجيش نحو ثلاثين اميراً وألفي مملوك من مماليك السلطان، وعاد حينئذٍ طومان باي من الصعيد إلى الجيزة وخرج الامراء والعسكر لملاقاته. وأقام بالجيزة لا يريد الدخول إلى القاهرة فأرسل اليه السلطان الامير طراباي وصورة حلف عن لسان السلطان انه لا يهينه إذا قابله ولا يقبض عليه، فلم يثق طومان بذلك الحلف وأظهر العصيان فتحقق الملك الظاهر الثورة عليه وأخذ يحصن القلعة ويستعد للحصار بها وفرق السلاح على مماليكه وقبض على بعض الامراء الذين وقعت له بهم الشبهة، وتوجّه طومان باي إلى الازبكية بمن معه من الامراء. وكان الاتابكي جان بلاط ساكناً هناك واتفقوا على خلع الملك الظاهر وساروا يحاصرون القلعة ولم يكن عند الملك الظاهر إلا نائب القلعة وبعض الامراء ونحو الف رجل، ومع ذلك استمرت الحرب بين الفريقين ثلاثة ايام وبعدها دخل طومان باي باب السلسلة وانكسر الملك الظاهر وتشتت من كان معه بالقلعة ودخل الملك دار الحريم ولبس زي امرأة وتوجه نحو الترب فاختفى ووقع الخلاف في من يملك فيهم، ولم يجسر طومان باي أن يأخذ الملك وكان الاتابكي جنبلاط مقدماً عليه، ورشح ثاني بك الجمالي فلم يرض به العسكر ايضاً ولكن تعصب له طومان باي وأصر عليه فكانت السلطنة له فكانت مدة الملك الظاهر قانصوه سنة وثمانية اشهر وثلاثة عشر يوماً. وكان خلعه في آخر ذي القعدة سنة ٩٠٥هـ (سنة ١٤٩٩م) وساس الناس احسن سياسة وخلع من السلطنة والناس راضون عنه ولم يكن له من المساوئ إلا قليل.

عد ٩٣٩

الملك الاشرف جان بلاط الاشرفي

هو العشرون من ملوك الجراكسة عند من لم يسقط من عديدهم خشقدم وتمربغا وأصله جركسي اشتراه الامير يشبك بن مهدي الدوادار الكبير ثم قدمه إلى الملك الاشرف قايتباي، فكان جمداراً ثم خاصكياً ثم دوادار وتوجه قاصداً إلى السلطان ابن عثمان سنة ٨٦٩هـ (سنة ١٤٩٠م) ثم صار مقدم الف في دولة

الاشرف قايتباي، ودوداراً كبيراً عوضاً عن اقبردي في دولة الناصر ثم قرر نائباً بحلب ثم نقله الظاهر قانصوه إلى نيابة الشام كما رأيت ثم أحضره إلى القاهرة ونصبه اتابك العسكر عوضاً عن الاتابكي اذبك، وتزوج بخوند اصلباي ام الملك الناصر، ولما وثب طومان باي على الملك الظاهر قانصوه وانكسر وقع الاتفاق على سلطنة جان بلاط بتعصب طومان باي له واستدعوا الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الاربعة فخلعوا الملك الظاهر وبايع الخليفة جان بلاط بالسلطنة وشهد على ذلك القضاة، وتسمى الملك الاشرف على اسم استاذه الملك الاشرف قايتباي وكني ابا النصر، وكان ملء العيون، كفوءاً للسلطنة وافر العقل سديد الرأي.

ومن الاحداث في ايامه انه نصب قصروه نائب الشام اتابكا للعسكر وكان يظن ان ذلك يدخله في طاعته ويكفّ عن العصيان الذي كان قد جاهر به كما مر في الفصل السابق فكان الامر مخيباً ظنه. فقد أرسل السلطان اليه قصروه الصغير يبشره بسلطنته ويستدعيه إلى الاتابكية فابى إلا العصيان وخلع الطاعة، وعاد رسول السلطان إليه فأخبره ان قصروه لم يلبس الخلعة وهو مصر على العصيان، فاستاء السلطان لذلك ونصب تاني بك الجمالي في الاتابكية التي كان قد اعدها لقصروه وخلع على طومان باي وقرره في اميرية سلاح مضافة إلى ما بيده الدوادارية الكبرى وجعله ايضاً في الوزارة والاستدارية حتى صار صاحب الحل والعقد في تلك الايام. ثم جاءت الاخبار بأن قصروه قد تولى غزة واعمالها والقدس وغيرها من النواحي، وجاءت الاخبار من حلب بأن دولات باي نائبها اظهر الطاعة للسلطان وانه غير مشترك في العصيان مع قصروه نائب الشام، ولم تكن تلك الاخبار إلا مخادعات لفقها طومان باي تمهيداً لسلطنته، وكان قد تمادى حتى جعل السلطان جان بلاط كالمحجور عليه لا يقضي امراً دون مشورته. وكانت احوال البلاد الشامية تزداد قلقاً واضطراباً فجهز السلطان عسكراً لكبت قصروه ورده إلى الطاعة وأمر ان يسرع العسكر بالخروج وعين قرقماس بن ولي الدين نائباً بحلب وبرد بك الطويل نائباً بطرابلس وقانصوه بن جركس نائباً بحماه وعين دولات باي نائب حلب في نيابة الشام عوضاً عن قصروه إذ قبض عليه، وخرج هؤلاء مع العسكر إلى الشام بأمرة طومان باي وكان السلطان يظنه ناصحاً له وهو اكبر البغاة عليه ولما وصل العسكر إلى الشام حل في مكان يسمى سعسع بالقرب من دمشق، فركب قصروه نائب الشام في نفر قليل من عسكره وأظهر انه طائع

دخل مع طومان باي وعسكره إلى دمشق واجتمعوا في القصر الابلق بالميدان، وقر أيهم ان يصعدوا إلى القلعة ويقرأوا فيها مراسيم السلطان، فقرأوها ولم يلتفت صروه على جماعة من الامراء الذين اتو من مصر وفي جملتهم قرقماس بن ولي لدين المعيّن نائباً لحلب وقانصوه بن جركس المعين نائباً بحماة وقيدوهم وسجنوهم القلعة. وفي تلك الاثناء وصل إلى دمشق دولات باي نائب حلب وتعصب طومان باي وطلب ان يبايع بالسلطنة واحضر قضاة الشام وكتب صورة محضر في طع الملك الاشرف جان بلاط وبايعوا مكانه بالسطنة طومان باي من غير حضور حليفة وسمي الملك العادل، وكُنّي ابا النصر وأفاضوا عليه شعار الملك، وقبّل الامراء لأرض امامه، وأول من قبلها قصروه نائب الشام ثم باقي الامراء. وأخذ طومان اي يدبر مهام السلطنة فنصب قصروه نائب الشام اتابك العساكر بمصر، وعين ولات باي نائب حلب نائباً بالشام وجعل مكانه في نيابة حلب اركماس بن ولي لدين، وقرر برد بك الطويل في نيابة طرابلس، وسُمّي قانصوه الغوري دواداراً كبيراً له الوزارة والاستدارية وخطب باسم طومان باي الملك العادل على منابر دمشق.

وأما الملك الاشرف جان بلاط فلما بلغته هذه الاخبار اضطرب لها وعين في لناصب عوضاً عن الامراء الذين عصوا بدمشق من وثق بهم من الامراء بمصر استحضر المصحف العثماني وحلف عليه الامراء من كبير وصغير بحضرة الخليفة القضاة الاربعة ايماناً مغلظة بالله والمصحف والطلاق على انهم يخلصون في الطاعة ، ولا يخونون ولا يغدرون ولا يميلون إلى العادل، وأخذ في تحصين قلعة القاهرة أصلح سورها وأبراجها ونقل إليها كثيراً من المؤن وفتح الزردخانة، وفرّق على جنوده سيوفاً ودروعاً وقسياً ونشاباً وخيولاً. وفي يوم السبت رابع جمادي الأخرى سنة ٩٠٦هـ (سنة ١٥٠٠م) جاءت الاخبار بأن العادل طومان باي خرج من الشام و وقصروه نائب الشام ودولات باي نائب حلب وجماعة من النواب والتف اليهم لجم الغفير من العساكر وعربان جبل نابلس، وقد وصلوا إلى غزة فعلق السلطان جان بلاط السنجق السلطاني على باب السلسلة ونادى للعسكر بالدخول إلى القلعة دخلوا، وفي اليوم الخميس تاسع جمادي الاخرى وصل العادل في من معه إلى خانقا سورياقوس ودخلت طلائع عسكره القاهرة، وفي يوم السبت الحادي عشر من شهر المذكور دخل العادل طومان باي إلى القاهرة من باب الفتوح فارتفعت له لأصوات بالدعاء لانه كان محبوباً فنادى بالامان والاطمئنان والبيع والشراء ثم

تسعرت نار الحرب بين الفريقين واستمرت ثلاثة ايام، وظهر اخيراً ان الدوائر ستدور على الاشرف جان بلاط فأخذ الامراء والجنود ينسحبون من القلعة ويحضرون إلى الملك العادل طومان باي، ولما ضاق الامر على الاشرف جان بلاط دخل إلى دور الحريم واختفى ودخل الملك العادل وجماعته القلعة وقبضوا على الاشرف جان بلاط. قيل وجدوه مختفياً في محل مهجور من دور الحريم وقيدوه بقيد ثقيل ثم ارسلوه إلى السجن بالاسكندرية فكانت مدة سلطنته ستة أشهر وثمانية عشر يوماً وخنقوه أخيراً بالسجن.

عد ٩٤٠

الملك العادل طومان باي

هو الحادي والعشرون من ملوك الجراكسة إذا عُدَّ منهم خشقدم وتمربغا وأصله جركسي اشتراه قانصوه اليحياوي نائب الشام وقدمه إلى الاشرف قايتباي، ولذا يوصف بالاشرفي، واعتقه قايتباي وتقلب بالمناصب إلى ان صار دواداراً كبيراً في دولة الظاهر قانصوه ثم ضم اليه الاشرف جان بلاط مناصب اخرى كما مر إلى ان غدر به لما امره العسكر الذي ارسله على قصروه نائب الشام، وتسلطن بدمشق، وعاد إلى القاهرة فحارب جان بلاط وقبض عليه وارسله إلى السجن بالاسكندرية سنة ٩٠٧هـ (سنة ١٥٠٠م) ثم استدعوا الخليفة العباسي فبايعه بالسلطنة وشهد على ذلك القضاة الاربعة وقرر قصروه نائب الشام قبلاً في اتابكية العساكر واضمر له الغدر به كما قيل:

إذا رأيت ثنايا الليث بارزة فلا تظنَنَّ بأن الليث يبتسمُ

فإنه لم يمضِ زمن إلا امر بعض الخاصكية ان يقبضوا عليه وهو في مجلسه فقيدوه واودعوه محبساً ثم خنقوه بأمره. ويظهر ان السلطان العادل علم ان قصروه يعامل عليه وانه جمع بعض الامراء وأهداهم خيولاً ومالا فمالوا إليه وعولوا على ان يسلطنوه فتداركه السلطان منتهزاً الفرصة على حد قول الشاعر...

كان قصروه قصيراً عمره خانه الدهر فولى مسرعاً

وقال ابن اياس في قصروه:

كان قصروه قصيراً عمره خانه الدهر فولى مسرعاً
طلبوا التسليم منه فابى ثم ما سلّم حتى ودعا

وكان الملك العادل باغياً على قصروه فجزاه الله على بغيه فلم يعش بعد قصروه إلا اياماً قليلة وقتل كما سترى. قال علي بن ابي طالب: «من سل سيف البغي قتل به» فاغتيال طومان باي لقصروه ازال حبه من قلوب الناس واستوحشوا منه فعزل كثيرين من مناصبهم ونفى بعضهم.

ثم خلع طومان باي على دولات باي وقرره في نيابة الشام ونصب ارقماس ابن ولي الدين نائباً بحلب عوضاً عن دولات باي المذكور، وجعل جانم بن قجماس نائباً بطرابلس عوضاً عن برد بك الطويل، والامير سنباى نائباً بحماة، وقانصوه القاجر نائباً بصفد واستحثهم للخروج بسرعة إلى محل ولاياتهم، ثم عزل ارقماس نائب حلب وولى مكانه قانصوه قرا وكان نائباً في غزة وولى على غزة علي باي السيفي بن يشبك، وكان قد صادر بعض الامراء واختفوا من وجهه فأخذ يكبس بعض البيوت والدور ويشوش على الناس ويسبي بعض عماله الحريم، فهاجت الناس وعظم القلق ووثب العسكر في آخر رمضان على طومان باي الملك العادل، وظهر الامراء الذين كانوا قد اختفوا من وجهه فلما تحقق العادل ان الحملة عليه نزل إلى باب السلسلة وعلق السنجق السلطاني، واستدعى العسكر إلى القلعة فلم يلب احد دعوته ولم يكن عنده في القلعة إلا نفر يسير، فكان الدفاع عن العادل لا يستحق الذكر. وتسحب بعض الامراء الذين كانوا معه فنزل الملك العادل ليلاً من القلعة واختفى وكان قد شاع انه يريد ان يقبض على بعض الامراء يوم عيد الفطر بالجامع فوثب العسكر عليه تلك الليلة، وبعد اختفائه نهب العسكر كل ما كان في الاسطبل السلطاني والقلعة ثم ظهر من اختفائه فقبض عليه وقطع رأسه، وكانت مدة سلطنته ثلاثة اشهر وعشرة ايام، وقام بالسلطنة بعده قانصوه الغوري. ونرجئ الكلام فيه إلى تاريخ القرن السادس عشر. انتهى. وقد اعتمدت في ما كتبته إلى الآن من تاريخ ملوك الجراكسة على كتاب تاريخ مصر الموسوم بـ«بدائع الزهور في وقائع الدهور» لمحمد بن احمد بن اياس الحنفي المصري، واستعنت عليه بكتاب «اخبار الأول في من تصرف في مصر من ارباب الدول» لمحمد عبد المعطي بن ابي الفتح الاسحاقي وبكتاب «تحفة الناظرين في من ولي مصر من الولاة والسلاطين»

للشيخ عبدالله الشرقاوي وبكتاب تاريخ العلامة البطريرك اسطفان الدويهي الاهدني الماروني.

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم في القرن الخامس عشر

عد ٩٤١

المشاهير السوريون

ابن حبيب الحلبي

هو فقيه من حلب توفي سنة ٨٠٨هـ (سنة ١٤٠٥م) له كتاب «مختصر المنار» في اصول الفقه وشرح هذا المختصر ابو الثنا احد السيواسي في كتاب سماه «زبدة الاسرار في شرح مختصر المنار» فرغ من وضعه سنة ٩٧٤هـ (سنة ١٥٦٦م) وطبعت الزبدة في كازان سنة ١٨٨٧م. واما المنار فهو لعبد الله بن احمد النسفي صاحب الكنز المتوفي سنة ٧١٠هـ (سنة ١٣١٠م). وقد طبع المنار بالهند بمطبعة حجر. وللشيخ جيون اللكناوي (المتوفي سنة ١١٣٠هـ سنة ١٧١٧م) شرح للمنار سماه «نور الانوار في شرح المنار» طبع في كلكوته سنة ١٨١٩م.

علاء الدين البهائي الغزولي الدمشقي

هو عالم دمشق توفي سنة ٨٨٥هـ (سنة ١٤١١م) وله كتاب عنوانه «مطالع البدور في منازل السرور» ضمنه خمسين باباً شرح بها كيفية بناء البيت وتدبير المنزل وما يجعل المسكن محل السرور والبهجة والانشراح. وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٣٠٠هـ.

ابن الشحنة الحلبي

إننا نعرف عالمين يسمى كل منهما ابن الشحنة وكلاهما من حلب اولهما توفي سنة ٨١٥هـ (١٤١٢م) وله كتاب «روض المناظر في علم الاوائل والاواخر» اختصره من تاريخ ابي الفداء المشهور وزاد عليه تاريخ ما كان الى سنة ٨٠٦هـ (سنة ١٤٠٣م). وقد جمع هذا التاريخ للملك المؤيد عماد الدين نائب السلطنة بقلعة حلب وطبع هذا الكتاب ببولاق سنة ١٢٩٠ على هامش المجلد ٧و٨و٩ من تاريخ ابن الاثير المسمى «الكامل».

واما ابن الشحنة الثاني فقال في حقه ابن اياس في تاريخ مصر هو محمود بن محمود الشقفي الحلبي ولد سنة ٨٠٤هـ (سنة ١٤٠١م) وكان عالماً فاضلا بارعاً في الفقه على مذهب ابي حنيفة، وكان ناظماً ناثراً تولى الحنفية مراراً وتوفي سنة ٨٩٠هـ (سنة ١٤٨٥م) وقد قارب التسعين من عمره وله عدة تآليف جليلة. انتهى كلام ابن اياس. والذي عرفناه من مؤلفات إبن الشحنة هذا تاريخ مدينة حلب الشهباء سماه «الدر المنتخب في تاريخ حلب» ولا نعلم ان هذا الكتاب طبع. وله ايضاً في الفقه كتاب سماه «لسان الحكام» طبع على هامش كتاب «معين الحكام في ما يتردد بين الخصمين من الاحكام» ببولاق سنة ١٣٠٠هـ ثم بالقاهرة سنة ١٣١٠هـ.

البدر الشتكي الدمشقي

ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة فقال البدر الشتكي محمد بن ابراهيم بن محمد الدمشقي الاصل الاديب المشهور ولد سنة ٧٤٨هـ (سنة ١٣٤٧م) ومات في جمادي الآخرى سنة ٨٣٠هـ (سنة ١٤٢٦م).

ابن حجة الحموي

هو تقي الدين ابو بكر المعروف بابن حجة ولد بحماة سنة ٧٧٧هـ (سنة ١٢٥٧م) وتوفي سنة ١٤٣٣م، ومن اشهر مؤلفاته كتاب «خزانة الادب وغاية

الارب» وقد طبع على هامش رسائل بديع الزمان الهمذاني في بولاق سنة ١٢٩١هـ. وفي مصر سنة ١٣٠٤هـ وطبع كتاب الخزانة ايضاً ببولاق سنة ١٢٩١ وبالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ. وله كتاب آخر سماه «ثمرات الاوراق في المحاضرات» طبع على هامش محاضرات الادباء للراغب الاصفهاني بالقاهرة سنة ١٢٧٨هـ ثم طبع بها سنة ١٣٠٤هـ سنة ١٣٠٨هـ. وقال في حقه جلال الدين السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة» ابن حجة رأس ادباء العصر تقي الدين ابو بكر بن علي الحموي نزيل القاهرة صاحب البديعية المشهورة وشرحها، و«ثمار الاوراق» وغير ذلك من التصانيف الادبية.

علي بن خليل الطرابلسي

هو عالم فقيه في طرابلس توفي سنة ٨٤٤هـ سنة ١٤٤٠م وله كتاب في الفقه عنوانه «معين الحكام في ما يتردد بين الخصمين في الاحكام» وهذا الكتاب طبع ببولاق سنة ١٣٠٠هـ وطبع بالقاهرة سنة ١٢١٠هـ وعلى هامشه كتاب «لسان الحكام» لابراهيم بن محمد الشحنة الحلبي المار ذكره.

شهاب الدين الرملي القدسي

هو فقيه من القدس توفي سنة ٨٤٤هـ (سنة ١٤٤٠م) له كتاب سماه «صفوة الزبد في فقه الشافعي» وشرحه شرحين ذكره صاحب «كشف الظنون في اسماء الكتب والفنون» في باب الصاد.

ابن حجر العسقلاني

هو احمد بن علي بن محمد ابو الفضل شهاب الدين العسقلاني الاصل ولد بمصر سنة ٧٧٣هـ (سنة ١٣٧٢]) ونشأ بها يتيماً وتفقه على الانباسي والبلقيني وارتحل إلى الشام والحجاز، فأخذ عن جماعة وتوفي سنة ٨٥٢هـ (١٤٤٨م) وله عدة مصنفات، منها كتاب «نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر» في اصطلاح

الحديث طبع بكانفور سنة ١٢٩٥، وكتاب «تقريب التهذيب» في اسماء رجال الحديث طبع بدهلي دون ذكر السنة. وكتاب «المنبهات» طبع بالمدينة المذكورة على الحجر سنة ١٢٨٨ وكتاب «الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة» مرتباً على أحرف المعجم ولم يطبع، وكتاب «الاصابة في تمييز اسماء الصحابة» طبع في كلكوتة سنة ١٨٥٦م في عدة مجلدات، وقد ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة» المار ذكره فقال انه عانى اولاً الادب وعلم الشعر فبلغ فيه الغاية ثم طلب الحديث وبرع فيه فلم يكن في عصره حافظ سواه، وألف كتباً كثيرة كـ«شرح البخاري» و «تعليق التعليقات» و «تهذيب التهذيب» و «تقريب التهذيبي» و «لسان الميزان» و «الاصابة في الصحابة» (مر ذكره) و «رجال المنبهات» الذي ذكره) و «تقريب المنهج بترتيب المدرج» وقد رثاه السيوطي بقوله:

قد بكت السحب على قاضي القضاة بالمطر
وانهدم الركن الذي كان مشيداً من حجر

ورثاه الشيخ شهاب بن الحجازي بقصيدة طويلة مطلعها:

كل البرية للمنية صائرة وقفولها شيئاً فشيئاً سائره
والنفس ان رضيت بذا ربحت وإن لم ترض كانت عند ذلك خاسره

إلى ان قال

لكن سئمت العيش من بعد الذي قد خلف الأفكار منا حائره
قاضي القضاة العسقلاني الذي لم ترفع الدنيا خصيماً ناظره
لهفي عليه عالماً بوفاته درست دروس والمدارس دائره
قد خلف الدنيا خراباً بعده لكنما الاخرى لديه عامره

وقد ذكر السيوطي قصيدة لابن حجر رثا بها زين الدين العراقي من ابياتها:

وبحر الدمع يجري باندلاق وبدد الصبر يسري في المحاق
وللاحزان بالقلب اجتماع ينادي الصبر حيّ على افتراق

فيا اهل الشآم ومصر فابكوا   على عبد الرحيم بن العراقي

على الحبر الذي شهدت قروم   له بالانفراد على اتفاق

وذكر له ملا كاتب صاحب كشف الظنون تاريخاً يسمى «ابناء الغمر» وذيلاً على تاريخ قضاة مصر لأبي عمر بن محمد يوسف الكندي سماه «رفع الامر من قضاة مصر».

شهاب الدين بن عرب شاه الدمشقي

هو احمد بن محمد بن عرب شاه الدمشقي الحنفي ولد بدمشق سنة ٧٩١هـ (سنة ١٣٨٨م) ولما غزا تيمورلنك الشام اخذه أسيراً مع بعض عشيرته إلى سمرقند وتفقه بها في العلوم وأتقن معرفة اللغتين الفارسية والتركية، وطاف كثيراً من البلاد وجاء اخيراً إلى ادرنه فأقامه السلطان محمد بن عثمان على ترجمة الكتب لابنه السلطان مراد من العربية إلى الفارسية والتركية، وعاد بعد مدة إلى موطنه دمشق وتوفي سنة ٨٥٤هـ (سنة ١٤٥٠م). وأشهر مصنفاته تاريخ سيرة تيمورلنك سماه «عجائب المقدور في اخبار تيمور» طبع في لايدن سنة ١٦٣٦م، وفي كلكوتة سنة ١٨١٢ ثم سنة ١٨١٨ وطبع بالقاهرة سنة ١٣٠٥. وله كتاب آخر كله سجع في تربية الملوك والامراء سماه «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» ورتبه على عشرة ابواب وهو على اسلوب كتاب كليلة ودمنة طبع بمدينة بوت (المانيا) سنة ١٨٢٣م ثم سنة ١٨٥٢م مع ترجمة لاتينية وشروح، وطبع ببولاق سنة ١٢٧٦هـ ثم بالقاهرة سنة ١٣٠٣هـ.

محمد بن قرقماس الناصري

ذكره ابن اياس في تاريخ مصر فقال في حقه كان فاضلاً من اعيان الحنفية وكان يدعي معرفة علم الحروف وعلم الكيميا وكان قد ولي مشيخة تربة الظاهر ولد سنة ٨٠٢هـ (سنة ١٣٩٩م) وكان ناظماً ناثراً وله عدة مصنفات منها كتاب «زهر الربيع في شواهد البديع» وله «معارضة مقامات الحريري» إلى غير ذلك من التآليف. وكانت وفاته سنة ٨٨٢هـ (سنة ١٤٧٧م).

ابو حامد المقدسي

ذكره ابن اياس ايضاً فقال هو محمد بن خليل المقدسي الشافعي من اهل الفضل والعلم وله عدة مصنفات، ولد بعد سنة ٨٢٠هـ (سنة ١٤١٧م) لكنه كان بليد الذهن قليل الفهم. ومما وقع له ان الذيني ابا الفتح بن النحاس الشاعر كتب له بيتين ودفعهما إليه في مجلس القاضي كاتب السر ابن مزهر فلما قرأهما استحسنهما ولم يفهم ما بهما من التنديد به فكتبهما بخطه في مصنفاته وهما:

ابا حامد انت الذي شاع ذكره   بكثرة تأليف وجمع به انفرد

فأنت الذي ما مثل حفظك في الورى   وأنت الذي ما مثل ذهنك في البلد

ففهم ابو حامد بالبلد المكان وأراد به الشاعر البلادة:

إبن مزهر الدمشقي

ذكره ابن اياس ايضاً فقال هو ابو بكر محمد.... بن عثمان المعروف بمزهر الدمشقي الانصارى الشافعي وكان عالماً فاضلاً عارفاً بالفقه انتهت إليه رئاسة عصره، وكان وجيهاً عند الملوك والسلاطين. تولى عدة مناصب سنية منها نظر الاسطبل ونظر الجيش وكتابة السر واستمر فيها نيفاً وعشرين سنة حتى مات مقرراً بها. ومولده سنة ٨٢٣هـ (سنة ١٤٢٨م) وتوفي سنة ٨٩٣هـ (سنة ١٤٧٨م).

عد ٩٤٢

بعض من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين

ابن خلدون الاشبيلي

هو ولي الدين عبد الرحمان بن محمد بن خلدون الخضرمي النسب ولد سنة ٧٣٢هـ سنة ١٣٣١م اخذ الفقه عن قاضي الجماعة ابن عبد السلام وغيره وبرع في العلوم وتضلع بالفنون ومهر في الادب والكتابة، وولي كتابة السر بمدينة فاس ثم دخل القاهرة فولي مشيخة البيبريسية وقضاء المالكية سنة ١٣٢٨م، ثم مضى

للحج وعاد إلى مصر ثم انتقل إلى الشام وجاء في كتاب «كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون» لملا كاتب انه كان في وقعة تيمور قاضياً بحلب، فحصل في قبضته اسيراً سميراً فكان يصاحبه وسافر معه إلى سمرقند، فقال له يوماً لي تاريخ كبير جمعت فيه الوقائع بأسرها، فخلفته بمصر، وسيظفر به المجنون (يشير إلى برقوق) واستأذنه في ان يعود إلى مصر ليجيء به، فإذن له فعاد فتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ (سنة ١٤٠٥م). وكان فاضلاً رفيع القدر اصيل المجد وقور المجلس عالي الهمة وأما تآليفه فأشهرها وأحسنها كتاب تاريخه الذي عنونه «ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر»، وهو في سبعة مجلدات اولها مقدمة هي من اجل ما كتب بالعربية في فلسفة التاريخ ومن احسن المؤلفات لغة ومعنى وإنشاء حتى صارت كلمة المقدمة او المقدمات علماً لهذا الكتاب. وضمن المجلدات الستة الباقية تاريخ اسهب فيه الكلام في تاريخ العرب وأوجز في تاريخ غيرهم، وختمه بتاريخ قبائل البربر ودولهم. وقد استعنا بتاريخه هذا مراراً كما رأيت وقد طبع تاريخه ببولاق سنة ١٢٨٤هـ وفي جزائر المغرب سنة ١٨٥١م. وقد طبعت المقدمة وحدها طبعات فطبعت بباريس سنة ١٨٨٥م وطبعها خليل افندي سركيس بمطبعته في بيروت سنة ١٨٧٩ ثم سنة ١٨٨٢م. وقد استأنف طبعها مرة اخرى وطبعت بالجزائر ايضاً من سنة ١٨٤٧ إلى سنة ١٨٥١م.

محمد بن موسى الدميري

هو عالم مصري كان يدرس الحديث في الجامع الازهر. ولد بمصر سنة ٧٥٠هـ (سنة ١٣٤٩م) أخذ العلم عن بهاء الدين السبكي وجمال الدين الاسنادي وتوفي سنة ٨٠٨هـ (سنة ١٤٠٥م) وأشهر تصانيفه «حياة الحيوان الكبرى» مرتبة على حروف المعجم لكنها مشحونة بالاقاصيص. وفي آخر هذا الكتاب جزء تكلم فيه بايجاز عن تاريخ الخلفاء الراشدين وبني امية بدمشق وبني العباس بالعراق ومصر واسماء الخلفاء الفاطميين والملوك الايوبيين واسماء الملوك من دولة المماليك. وطبع كتابه هذا ببولاق سنة ١٢٧٥ وسنة ١٢٨٤ وسنة ١٢٩٢ وطبع ببلاد فارس طبعاً متقناً مع صور ورسوم جميع الحيوانات وبعض الرجال الوارد ذكرها في الكتاب.

علي بن محمد الجرجاني

هو عالم مصري توفي سنة ٨١٦هـ سنة ١٤١٣م له كتاب سماه التصريفات في مصطلح العلوم كالفقه والفرائض والحديث والكلام والنحو والتصريف والتفسير وهي مرتبة على حروف الهجاء وطبع هذا الكتاب بليبسك سنة ١٨٤٥م بعناية العلامة فلوغل الالماني مع تصريفات محي الدين ابن العربي الذي توفي سنة ٦٣٨هـ سنة ١٢٤٠م بدمشق. وتصريفات ابن العربي هي تفسير للاصطلاحات الصوفية الواردة في كتابه المسمّى «الفتوحات الملكية في معرفة الاسرار المالكية والملكية» وقد طُبع كتابا الجرجاني وابن العربي معاً ايضاً بالقاهرة سنة ١٣٠٦هـ. وللسيد الشريف الجرجاني ايضاً كتاب «الكبرى في المنطق» طبع في لكناو سنة ١٨٤٤. وله ايضاً «الصغرى في المنطق» طبع بلكناو وايضاً سنة ١٨٤٣. ثم طبعت الكبرى والصغرى معاً هناك سنة ١٢٦٤هـ. وللجرجاني ايضاً «شرح الفرائض السراجية» طبع بكازان سنة ١٨٨٩م و«السراجية» كتاب في الفرائض لسراج الدين محمد السنجاوندي الحنفي طبع ببولاق سنة ١٣٠٣هـ.

ابن الهائم

هو شهاب الدين احمد بن محمد بن عماد المعروف بابن الهائم ولد بالقاهرة سنة ٧٥٣هـ (سنة ١٣٥٢م) وتوفي باورشليم سنة ٨١٥هـ (سنة ١٤١٢م) وله كتاب سماه «اللمع في علم الحساب» طبع ببولاق سنة ١٢٤٢هـ، وشرحه سبط المارديني الذي ولد سنة ٨٧٦هـ (سنة ١٤٢٢م). وله كتاب آخر سماه «المعونة في الحساب والوسيلة» شرحه سبط المارديني ايضاً وسمى شرحه «ارشاد الطلاب إلى وسيلة الحساب». ولمحمد الازهري الشافعي ابن البلبيسي حاشية على كتاب المعونة المذكور. ولابن الهائم ايضاً كتاب سماه «مرشدة الطالب» شرحه شيخ الاسلام زكريا الانصاري المتوفي بالقاهرة سنة ٩٢٦هـ (سنة ١٥٩١م) وشرحها ايضاً عبدالله بن محمد الشنتوري الفرضي الخطيب بالجامع الازهر المتوفي سنة ٩٩٩هـ (سنة ١٥٩٠م) في كتاب سماه «بغية الراغب في شرح مرشدة الطالب». ولابن الهائم كتاب «نزهة الاحباب في تصريف الحساب» اختصره من كتابه مرشدة الطالب

وللبيروني شرح على هذا الكتاب. ولابن الهائم كتاب آخر «شرح على الارجوزة الياسمينية» في الجبر والمقابلة لابن الياسميني المتوفي سنة ٦٠٠ هجرية (سنة ١٢٣٠م) وله المنظومة بالحساب التي سماها «المقنع» وشرحها زكريا الانصاري المذكور في كتاب سماه «الفتح المبدع في شرح المقنع» وله ايضاً «غاية السؤال في الاقرار بالمجهول» في الجبر والمقابلة.

ابن الملقّن

ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة، فقال سراج الدين ابو حفص عمر بن علي بن احمد الانصاري ولد سنة ٧٢٣هـ (سنة ١٣٣٣م) واشتغل بالتصنيف وهو شاب حتى كان اكثر اهل العصر تصنيفاً. ومن تصانيفه «شرح البخاري» و«شرح العمدة» وشرحان على «المنهاج» وعلى «التنبيه» وعلى «الحاوي» وعلى «منهاج البيضاوي» و«الاشباه والنظائر» وغير ذلك. توفي سنة ٨٠٤هـ (سنة ١٤٠١م) وذكره صاحب كشف الظنون وزاد على ما تقدم ان له كتاب «قضاة مصر» و«طبقات الشافعية».

محمد الفيروزابادى الشيرازي

هو مجد الدين ابو الطاهر محمد بن يعقوب ولد سنة ٧٣٠هـ (سنة ١٣٢٩م) في قارسين بقرب شيراز، وكان يسافر إلى الجزيرة والهند وبلاد العرب طلباً لتوسيع معارفه وإنشاء مدارس في مكة المكرمة والمدينة. واجتمع سنة ٧٩٠هـ (سنة ١٣٨٨م) بتيمورلنك التتري الشهير بمدينة شيراز فاكرمه تيمورلنك وتولى قضاء اليمن سنة ٧٩٥هـ سنة ١٣٩٢م)، وبقي متقلداً هذا القضاء إلى وفاته التي كانت سنة ٨٢٠هـ (سنة ١٤١٧م). وعلى رواية أخرى سنة ٨١٦هـ (سنة ١٤١٣م) وقد اشتهر بمعجمه الذي سماه «القاموس المحيط» و«القاموس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط». قال في خطبته وكنت برهة من الدهر التمس كتاباً جامعاً بسيطاً ومصنفاً على الفصح والشوارد محيطاً ولما اعياني الطلاب شرعت في كتابي الموسوم بـ«اللامع المعلم العجاب بين المحكم والعباب» غير اني ضمنته في

ستين سفراً يعجز تحصيله الطلاب، فصرفت صوب هذا القصد عناني، وألفت هذا الكتاب محذوف الشواهد مطروح الزاويد ولخصت كل ثلاثين سفراً بسفر وضمنته خلاصة ما في العباب والمحكم واضفت إليه زيادات منَّ الله سبحانه وتعالى عليَّ بها وأنعم، ولما رأيت اقبال الناس على صحاح الجوهري وهو جدير بذلك غير انه قد فاته نصف اللغة او اكثر، اردت ان يظهر للناظر بادئ بدء فضل كتابي هذا عليه. وإذا تأملت صنيعي هذا وجدته مشتملاً على فرائد اثيرة وفوائد كثيرة في حسن الاختصار وتقريب العبارة وتهذيب الكلام وايراد المعاني الكثيرة في الالفاظ اليسيرة. ومن احسن ما اختص به هذا الكتاب تخليص الواو من الياء، وذلك قسم يسم المصنفين بالعي والاعياء الخ... وقد طبع القاموس لاول مرة في المدينة المذكورة سنة ١٢٧٠هـ وفي تبريز سنة ١٢٧٧هـ وطبع في ثلاثة اجزاء باسكوادار من ضواحي القسطنطينية سنة ١٢٣٠هـ وطبع بمصر مراراً أحسن طبعاته هناك الطبعة المضبوطة بالشكل ببولاق في خمسة اجزاء من سنة ١٢٧٢هـ إلى سنة ١٣٠٣هـ. ضبطها نصر الهوديني وعلق على هوامشها شروحاً مفيدة أخذها عن تاج العروس وعن حاشية القاموس للقرافي، وطبع اخيراً في القسطنطينية سنة ١٣٠٤هـ. ووضع احمد فارس الشدياق اللبناني كتاباً سماه «الجاسوس على القاموس» طبع في القسطنطينية سنة ١٢٩٩هـ بين به ما في القاموس من الهفوات والخطأ. ولمحمد بن يحيى القرافي المشار اليه حاشية على القاموس وسمها بـ«القول المأنوس بتحرير ما في القاموس» وله ايضاً كتاب سماه «القول المأنوس بشرح مغلق القاموس». والكتابان لم يطبعا بعد والقرافي هذا ولد سنة ٩٣٩هـ (سنة ١٥٣٢م) وتوفي سنة ١٠٠٨هـ (سنة ١٥٩٩م)

وذكر صاحب كشف الظنون كثيرين ممن انتقدوا القاموس او شرحوه او ترادوا عليه، منهم جلال الدين السيوطي الذي قال في كتابه «زهر اللغة» ومع كثرة ما في القاموس من الجمع للنوادر والشوارد فقد فاته اشياء ظفرت بها في اثناء مطالعتي لكتب اللغة حتى هممت ان اجمعها في جزء مذيلاً عليه. وجمع عبد الرحمن بن علي الاماسي ما كتبه استاذه سعدالله بن عيسى في هوامش القاموس ودونّه في كتاب فصار حاشية على القاموس. (وتوفي عبد الرحمن المذكور سنة ٩٣٨هـ (سنة ١٥٧٥م) وكتب محمد بن مصطفى الشهير بداود زاده مختصراً سماه «درّ اللقيط في اغلاط القاموس المحيط». وللسيوطي كتاب الافصاح في زوايد القاموس على الصحاح» اي صحاح الجوهري. وللشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفي حاشية على

القاموس سماها القول المأنوس. ومن الحواشي عليه حاشية نور الدين عليّ بن غانم المقدسي المتوفي سنة ١٠٠٤هـ (سنة ١٥٩٥م) وحاشية محمد بن عبد الرؤوف المناوي المتوفي سنة ١٠٣١هـ (سنة ١٦٢١م) وله حاشية أخرى تسمى «القول المأنوس بشرح معاني القاموس» وحاشية مختصرة عن الحاشية السابق ذكرها. انتهى تلخيص كلام صاحب كشف الظنون.

البرهان البيجوري

ذكره السيوطي في كتابه حسن المحاضرة، وهو ابراهيم بن احمد ولد نحو سنة ٧٥٠هـ (سنة ١٣٤٩م) وأخذ عن الاسنوي ولازم البلقني ورحل إلى الاذرعي بحلب، وكان الاذرعي يعترف له بالاستحضار وشهد العماد الحسباني عالم دمشق بأنه أعلم الشافعية بالفقه في عصره، وكان يسرد الروضة حفظاً. وانتفع به الطلبة ولم يكن في عصره من يستحضر الفروع الفقهية مثله، ولم يخلفه من يقاربه في ذلك مات في سنة ٨٢٥هـ (سنة ١٤٢١م).

تقي الدين احمد بن علي المقريزي

هو تقي الدين احمد بن علي المقريزي البعلبكي الأصل المصري المسكن ولد سنة ٧٦٦هـ (سنة ١٣٦٤م) ونشأ بالقاهرة وتفقه على مذهب الحنفية ثم اتبع المذهب الشافعي، وما برح يضبط الوقائع ويكتب التاريخ إلى ان توفي بالقاهرة سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) وعن حسن المحاضرة للسيوطي انه ولد سنة ٧٦٩هـ (سنة ١٣٦٧م) وتوفي سنة ٨٤٠ (سنة ١٤٣٦م). وقال ابن إياس في تاريخ سنة ٨٤٥ فيها توفي الشيخ تقي الدين المقريزي المؤرخ، والأصح انه توفي سنة ٨٤٦هـ لا في السنة المذكورة. وله مؤلفات كثيرة منها كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» طبع ببولاق في مجلدين سنة ١٢٧٠هـ، وله كتاب «السلوك في معرفة دول الملوك» وهو تاريخ السلاطين من دولة المماليك بمصر والشام طبع في غوتنغن سنة ١٨٤٥م وله «تارخ الاقباط» طبع في المدينة المذكورة ايضاً تلك السنة وله رسالة في

النقود الاسلامية طبعت في روستك سنة ١٧٩٧م وفي القسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ وله رسالة اخرى في الأوزان والمكاييل الشرعية طبعت بروستك ايضاً سنة ١٨٠٠م. وله كتاب «امتاع الاسماع» في ستة مجلدات وكتاب «الخبر عن البشر» وكتاب «تاريخ مقفى» في تراجم اهل مصر والواردين اليها وكتاب «مجموع الفوائد ومنبع العوائد» وكتاب «شذور العقود» وكتاب «المقاصد السنّية في الاجسام المعدنية» وكتاب «البيان والإعراب بما بأرض مصر من الأعراب» طبع في غوتنغن سنة ١٨٤٧م وكتاب «التنازع والتخاصم في ما بين بني امية وبني هاشم» طبع بلايدن سنة ١٨٨٨. وله أيضاً كتاب «الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام» طبع بلايدن سنة ١٨٩٠م. وقد كتب العلامة دي ساسي الفرنسي ترجمة المقريزي بالعربية والفرنسية في كتاب سماه الانيس المفيد للطالب المستفيد طبع بباريس سنة ١٨٢٦. فهذه الكتب التي جاء ذكرها للمقريزي في كتاب اكتفاء القنوع بما هو المطبوع.

وقد ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، وعزا إليه عدا بعض الكتب التي قدمنا ذكرها كتاب «درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة». وربما كان كتاب تراجم أهل مصر والواردين اليها الذي ذكرناه آنفاً. وعزا إليه ايضاً كتاب «عقد جواهر الاسقاط من اخبار مدينة الفسطاط» و«اتعاظ الحنفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء» و«التاريخ الكبير» وغير ذلك مما جاء في كتاب كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون. صنف المقريزي «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» فأوعب وأجاد... وله «تاريخ ملوك مصر» وهو تاريخ كبير مقفى في تراجم اهل مصر والواردين إليها. قال صاحب النجوم الزاهرة لو اكمل هذا التاريخ على ما اختاره لجاوز الثمانين مجلداً. وله كتاب «عقد جواهر الاسقاط من اخبار مدينة الفسطاط» وكتاب «اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء» وهما يشتملان على ذكر من ملك مصر وما كان في ايامهم من الحوادث مذ فتحت إلى ان زالت الدولة الفاطمية. وألف «السلوك لمعرفة دول الملوك» في ذكر من ملك بعدهم من الاكراد والاتراك والجراكسة وما وقع في ايامهم. وقد وضع جمال الدين يوسف بن تغري بردي تلميذ المقريزي ذيلاً على كتابه السلوك وسماه حوادث الدهر. انتهى تلخيص كلام صاحب كشف الظنون الذي اوردناه على سبيل الشرح لبعض كتب المقريزي.

محمود العينيّ

ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة فقال هو قاضي القضاة بدر الدين محمود بن أحمد... العيني ولد في رمضان سنة ٧٦٢هـ (سنة ١٣٦٠م) وتفقه واشتغل بالفنون وبرع ومهر ودخل القاهرة وولي الحسبة مراراً وقضاء الحنفية، وله تصانيف منها «شرح البخاري» و «شرح الشواهد» و «شرح معاني الآثار» و «شرح الكنز» و «شرح المجمع» و «شرح درر البحار» و «طبقات الحقيقة» وغير ذلك، ومات في ذي الحجة سنة ٨٥٥هـ (سنة ١٤٥١م). وذكر صاحب كشف الظنون ان له كتاب «عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان» وقال انه اشتمل على تسعة عشر مجلداً. وعن كتاب «اكتفاء القنوع بما هو المطبوع» انه جمع فيه تاريخ الناس من بدء العالم إلى سنة ٨٥٠هـ (سنة ١٤٤٦م) مع «وفيات الاعيان». وقال ان هذا التاريخ لم يطبع بعد ولكن طبع كتابه «عمدة القارئ» في شرح صحيح النجارى في القسطنطينية سنة ١٣١٠هـ في احد عشر جزءاً، وطبع كتابه «شرح كنز الدقائق» لعبدالله النسفي (المتوفي سنة ١٣٠١هـ) ببولاق سنة ١٢٨٥هـ في جزئين، ويعول عليه في التدريس. وطبع كتابه «المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية» (اي ألفية ابن مالك) ببولاق سنة ١٢٩٩ على هوامش خزانة الادب. وله لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي. وعن كشف الظنون ان كتاب معاني الاثار الذي شرحه العيني كما مر هو لأبي جعفر الطحاوي في شرح الناسخ والمنسوخ وتأويل العلماء وكتاب الهداية لشيخ الاسلام برهان الدين المرغيناني الحنفي في الفقه. ولهذا الكتاب شروح كثيرة جداً غير شرح العيني وكتاب المجمع هو مجمع البحرين وملتقى النهرين في الفقه للامام مظفر الدين احمد المعروف بابن الساعاتي البغدادي الحنفي المتوفي سنة ٦٩٤هـ (وسنة ١٢٩٤م) وأما كتاب «درر البحار» فهو منظومة في الفروع نظمها ابن العيني في اربعة آلاف ومائة وستة وخمسين بيتاً ثم شرحها. انتهى ما لخصناه عن كشف الظنون. وقد أشرنا قبلا إلى المداعبة التي كانت بين العيني وابن الحجر.

ابو المحاسن ابن تغري بردي

ولد بمصر سنة ٨١٢هـ (سنة ١٤٠٩م) وتوفي سنة ٨٧٤هـ ٠(سنة ١٤٩٦م). وله كتاب في التاريخ سماه «النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة» ضمنه تاريخ مصر سنة ٣٦٠هـ (وسنة ٩٧١م) إلى سنة ٨٧٥هـ (سنة ١٤٥٣م) اي من دخول ابناء عبيد الله العلويين إلى مصر إلى ملك آل عثمان في القسطنطينية. وقد طبع كتابه هذا في لايدن سنة ١٨٥٢م وله ايضاً كتاب سماه «مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة». طبع في كمبردج سنة ١٨٩٢. وذكر صاحب كشف الظنون كتابه النجوم الزاهرة، فقال بدأ فيه بولاية عمرو بن العاص إلى الدولة الاشرفية. وهذا تاريخ كبير مرتب على السنين إلى زمانه، وذكر من ولي مصر من السلاطين والنواب في كل سنة مبسوطاً، وذكر ملوك الاطراف، والوقائع، ومن توفي من الاعيان والعلماء والملوك الخ... ولما فتح السلطان سليم الديار المصرية خبر هذا التاريخ واستحسنه فأمر بترجمته إلى التركية فترجم ولخص المصنف كتابه وسماه «تلخيصة الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة» وذكر انه اختصره لئلا يختصره غيره على تبويبه وفصوله.

تقي الدين الشمني

هو الامام تقي الدين ابو العباس الشمني ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة وبالغ في مدحه وأوصافه فقال هو قدوة عين الزمان وانسانها وواحد عصره في العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها وشجرة المعارف التي طاب اصلها فزكت فروعها وأغصانها ورياض الاداب التي فاضت ينابيعها وفاحت زهورها وتنوعت افنانها وغير ذلك من الاطراء ولد بالاسكندرية سنة ٨٠١هـ (سنة ١٣٩٨م). وقرأ الفنون على اعيان العلماء وانتفع به الخلق وصنف حاشية على المغني وحاشية على الشفاء وشرح كتابه النقاية في الفقه وشرح نظم النخبة لابيه وأرفق «المسالك لتأدية المناسك» وطلب لقضاء الحنفية فامتنع ومات في ذي الحجة سنة ٨٧٢هـ (وسنة ١٤٦٧م). وجاء في كشف الظنون ان كتاب «المغني» الذي وضع الشمني الحاشية عليه هو «مغني اللبيب عن كتب الاعاريب» لابن هشام

الانصاري النحوي، وسمى الشمني حاشيته عليه «المنصف في الكلام على مغنى ابن هشام». وأما كتاب «الشفاء» فهو للإمام الحافظ ابي الفضل عياض المتوفي سنة ٥٤٤هـ (سنة ١١٤٩م وعنوانه: «شفا في تعريف حقوق المصطفى» وسمى الشمني حاشيته عليه «مزيل الخفا في ضبط ألفاظ الشفا». واما كتابه «النقاية» فهو للإمام عبيد الله بن مسعود الحنفي المتوفي سنة ٧٤٥هـ (سنة ١٣٤٤م) وعنوانه «نقاية مختصر الوقاية» وقد أجاد الشمني وبالغ في ايجازها وشرحها، وسمى شرح ألفاظ الشفا «الدراية في شرح النقاية». ويظهر لي ان «نظم النخبة»، و«ارفق المسالك» كتابان لابيه كمال الدين محمد التميمي وقد رثى جلال الدين السيوطي تقي الدين الشمني بقصيدة طويلة من ابياتها:

رزء عظيم به تستنزل العبر ... وحادثٌ جلّ فيه الخطب والغيرُ

رزء مصاب جميع المسلمين به ... وقلبهم منه مكلومٌ ومنكسرُ

ما فقد شيخ شيوخ المسلمين سوى انـ ... ـهدام ركن عظيم ليس ينعمرُ

إذ كان في كل علم آية ظهرت ... وما العيان كمن قد جاءهُ الخبرُ

حياتك الحق في الدارين ثابتةٌ ... ما العالمون بأموات وإن قبروا

هم الأولى تشرق الدنيا ببهجتهم ... لا شمسها وابو اسحق والقمرُ

محمد السنحاوي

هو محمد بن عبد الرحمان السنحاوي الشافعي ولد بسنحا في ارياف مصر سنة ٨٣١هـ (سنة ١٤٢٧م) وتوفي سنة ٩٠٢هـ (سنة ١٤٩٦م) وهو من تلامذة ابن حجر العسقلاني وله من الكتب «التبر المسبوك في ذيل السلوك» وهو تتمة لكتاب المقريزي المعنون «السلوك في معرفة الملوك» وقد قدمنا ذكره. وشرع في نشره شارل كلياردو بك ملحقاً بمجلة مصر التي هو مديرها.

الشيخ شمس الدين القادري

هو محمد بن ابي بكر نجيب الانصاري القادري ذكره السيوطي في كتابه حسن المحاضرة واكثر من الثناء عليه. وممّا قاله ولد سنة ٨١٥هـ (سنة ١٤١٢م) واشتغل بالعلم على جماعة من الشيوخ مع ذكاء مفرط. وقال الشعر واكثر، وبرع في فنون الادب نظماً ونثراً، وهو الآن شاعر الدنيا على الاطلاق لا يشاركه في طبقته احد مات في جمادى الاول سنة ٩٠٣هـ (سنة ١٤٧٩م) وذكر من شعره قصيدة طويلة مطلعها:

شجاك بربع العامرية معهدُ　　به انكرت عيناك ما كنتُ تعهدُ

وقد غالى بها بمدح جلال الدين السيوطي الى ان قال

فخذها جلال الدين بالمدح كاعباً　　لها جيدُ حسن بالنجوم مقلَّدُ

ولا تبتئس من قول واشٍ وحاسدٍ　　فما برحت اهل الفضائل تحسدُ

ومن لحظتْ مسعاه عينُ عنايةٍ　　فطرف اعاديه مدى الدهر ارمدُ

بإخلاصهم لا الهجو يوماً يسوءهم　　ولا سرهم مدح الذي راح يحمدُ

وهذا اعتقاد المؤمنين اولي النهى　　فلا يكُ في هذا لديك ترددُ

وقد بالغ ابن اياس ايضاً بمدح القادري وقال انه شيخه واستاذه.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الخامس عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

عد ٩٤٣

بطاركة انطاكية في القرن الخامس عشر

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن الرابع عشر بذكر ميخائيل الذي كان في ايام تيمورلنك الغازي وقلنا انه يظهر من الجدول الذي وضعه العلام السمعاني لبطاركة انطاكية ان ميخائيل المذكور خلفه بوخوميوس ثم مرقس ث يواكيم، ولا نعلم غير ذلك من تاريخ هؤلاء البطاركة الذين كانوا في الثالث الاول من هذا القرن. بيد اننا نعلم علماً اكيداً ان دوروثاوس الاول البطريرك الانطاكي كان في ايام المجمع الفلورنسي الذي عقد سنة ١٤٣٣م واستمر إلى سنة ١٤٤٣م وناب عنه في هذا المجمع ايسيدوروس مطران كيوفيه ووقع على اعمال هذا المجم هكذا: ايسيدورس اسقف كيوفية وروسيا كلها بالنيابة عن دوروثاوس البطريرا الانطاكي الكلي القداسة. وقد ادعى مرقس مطران افسس الذي اعتزل عن المجم قبل نهايته وابدى الشغب المشهور انه كان نائباً عن البطاركة فيلاتوس الاسكندر ودوروثاوس الانطاكي ويواكيم الاورشليمي في نبذ ما تقرر في المجمع الفلورنسي على ان البطاركة الاسكندري والانطاكي والاورشليمي كانوا سنة ١٤٦٠ يودو الخضوع للكرسي الروماني، إذ روى يوحنا كوبالينوس في كتابه في اعمال البا

بيوس الثاني ان هؤلاء البطاركة اوفدوا إلى هذا البابا موسى رئيس شمامسة كنيسة انطاكية المشهور بعلومه اليونانية والسريانية مقرين بسلطة الحبر الروماني العامة وبمارسم في المجمع الفلورنسي، فقبل البابا سفيرهم بالتكريم واجاب البطاركة برسالة لاتينية وأمر ان تحفظ نسخة عنها في خزائن الكنيسة الرومانية.

وجاء في الجدول الفاتيكاني ان دورثاوس الاول خلفه مرقس اسقف صيدنايا وسمي ميخائيل. وجاء في جدول السمعاني اسم ميخائيل ومرقس فقال لكويان ان ميخائيل ومرقس واحد فذكر السمعاني مرقس بعد ميخائيل سهواً وذكر في الجدول الفاتيكاني بعد ميخائيل توادوروس الخامس ثم ميخائيل الرابع ثم دورثاس الثاني ثم ميخائيل الخامس ثم دوروثاوس الثالث. والذي في جدول السمعاني انه بعد ميخائيل ومرقس المار ذكرهما عنه ترقى الى الكرسي الانطاكي يواكيم ثم غريغوريوس ثم ميخائيل (هو الموصوف بالرابع في الجدول الفاتيكاني) ثم دوروثاوس (الثاني) ثم ميخائيل (الخامس) ثم دروثاوس (الثالث). فالفرق بين الجدولين ان الجدول الفاتيكاني لم يذكر مرقس ولا يواكيم اللذين ذكرهما السمعاني، ومن سمى توادروس في الجدول الفاتيكاني سماه غريغوريوس واتفق الجدولان في باقي من ذكر فيهما من البطاركة. وأما في اية سنة كان ترقي كل من هؤلاء البطاركة وفي اي سنة توفي كل منهم وما كانت اعمالهم، وإذا كانوا متحدين بالكرسي الروماني او مخالفين له، كل ذلك غامض لا نعلم شيئاً منه. وإذا كان العلامتان لاكويان والسمعاني لم يتيسر لهما ان ينبآنا بشيء من ذلك وهما بمكاتب اوربا المفعمة بالكتب من كل نوع وبكل لغة فأنّى لنا نحن الذين لاتصل يدنا إلا إلى قليل من الكتب ان نتحف قراءنا بما عزَّ على العلامتين المذكورين التوصل إليه، والذي نظنه ان البطاركة الذين اشرنا اليهم دبروا كنيسة انطاكية في هذا القرن وربما ادرك بعضهم القرن السادس عشر كما سوف ترى في تاريخ هذا القرن.

عد ٩٤٤

بطاركة اورشليم في القرن الخامس عشر

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن الرابع عشر في ذكر توافيلوس الثاني ابن روزيناوس. وجاء في كتاب دوروتاوس في بطاركة اورشليم (فصل ٣٣)

ان توافيلوس خلفه توافان، وإنه صير بطريركاً سنة ١٤٦٠ وإن بلسامون البطريرك الانطاكي كتب اليه جواباً. فبلسامون البطريرك الانطاكي كان قبل هذا العصر بمدة بمديدة ولم يكن في هذا العصر بطريرك في انطاكية يسمى بلسامون إلا ان يكون اصحابه سموه بلسامون تفاؤلاً بهذا الاسم الشهير، والذي كان يدبر كنيسة انطاكية حينئذٍ إنما دوروتاوس، وتعلم ان ميخائيل بلسامون رافق البطريرك القسطنطيني إلى المجمع الفلورنسي ووقع على مرسوم الاتحاد، ثم نكل عنه، لكن ميخائيل هذا لم يكن بطريركاً وقد يكون بطريرك انطاكية حينئذٍ من اسرة بلسامون.

وصير بعد توافان يواكيم بطريركاً على اورشليم وكان بطريركاً حين انعقاد المجمع الفلورنسي وناب عنه فيه مرقس وروزيتاوس اسقف بوغباسية كما يظهر من توقيع هذا الاخير على مرسوم الاتحاد، ولم يقبل يواكيم ان يكون التوقيع باسمه بل نبذ كل ما كان في هذا المجمع، واتفق مع بطريركي الاسكندرية وانطاكية وكتبوا إلى الملك يوحنا رسالة هددوه بها بالحرم ان لم يرعوِ عن الاتحاد وقد اثبت هذه الرسالة لاون الاتيوس باليونانية مع ترجمتها اللاتينية في ك٣ في اتفاق الكنيستين فصل ٤.

وخلف توافان الثالث يواكيم المذكور وقد ذكره لاون الاتيوس في المحل المذكور. وروى انه شهد مجمعاً عقد بالقسطنطينية لنقض الاتحاد الذي كان قد تقرر في المجمع الفلورنسي وتوقيع توافان ظاهر في اعمال هذا المجمع القسطنطيني. وذكر روزيتاوس هذا المجمع (في ك١ في تاريخه لبطاركة اورشليم فصل ٦)، وقال ان توافان خليفة يواكيم شهره، وصير بعد توافان ابراهيم ثم يعقوب الثالث ثم مرقس الثالث. ولا ذكر في كتب الروم لهؤلاء البطاركة الثلاثة ربما لمتابعتهم الحبر الروماني، ولكن ذكرهم بابيركيوس في مقدماته على المجلد الثالث من اعمال القديسين في شهر أيار، فقال انهم كانوا في القرن الخامس عشر نقلاً عن توادوريكوس باولي الذي كان في هذا القرن، وان ابراهيم كان شديد التعلق بالايمان القويم ورقي إلى بطريركية اورشليم في ايام البابا بيوس الثاني، وانتقل إلى دار البقاء سنة ١٤٦٨م وهو على ما أظن الذي اتفق مع بطريركي الاسكندرية وانطاكية فأرسلوا وفداً إلى بيوس الثاني رأسه موسى رئيس الشمامسة في كنيسة انطاكية، وأرسلوا اليه رسالة صرحوا بها انهم مذعنون لمراسيم المجمع الفلورنسي، وسألوه ان يعنى اللاتينيون بإنقاذ نصارى الشرق وقال في ذلك يوحنا كوبالينوس

(في كتابه ٤ في بيوس الثاني) ان هؤلاء البطاركة الاسكندري والانطاكي والاورشليمي وغيرهم من الامراء المسيحيين ارسلوا اولاً وفداً إلى البابا اوجانيوس في المجمع الفلورنسي وتابعوا الكنيسة اللاتينية على الاقرار بانبثاق الروح من الاب والابن وبالمطهر الخ.. ولكن لما كتب مرسوم الاتحاد نكلوا عن اقرارهم وأبوا قبوله بسعي زارعي الزوان ثم ارعووا وعادوا الى الصواب وتفاوضوا مع رعاياهم، وأرسلوا وفداً برئاسة موسى الانطاكي إلى الحبر الروماني فقبلهم بالترحاب. وترجم موسى المذكور رسائلهم إلى البابا إلى اللاتينية فأمر البابا ان تحفظ في خزائن الكنيسة الرومانية وصرفهم مسرورين شاكرين. انتهى ما رواه يوحنا كوبالينوس. وأما يعقوب الثالث فقال في حقه توادوريكوس باولى المذكور انه كان عالماً بالاسفار المقدسة وخلف ابراهيم المذكور وجدد كنيسة القبر المقدس باجازة من السلطان الذي كان حينئذ. وفي ايام هذا البطريرك اخذ سلطان الاتراك قسماً من بلاد العرب فأرسل البطريرك راهباً إلى اوروبا يجمع حسنات ليفي الجزية المضروبة على الاديار ولا سيما دير القديسة كاترينا في جبل سينا. ثم توفي هذا البطريرك سنة ١٤٨٢م. وأما مرقس الثالث فذكره توادوريكوس ايضاً بعد يعقوب وقال انه كان يوقع اسمه هكذا: «مرقس الكاثوليكي برحمة الله مطران بيت لحم وبطريرك اورشليم المقدسة وسورية والعربية وعبر الاردن. والظاهر من ذلك ان هؤلاء البطاركة الثلاثة كانوا كاثوليكيين خاضعين للكرسي الروماني.

وروى دوزيتاوس (في ك٧ من تاريخه فصل ٢٢) انه بعد ذلك صير غريغوريوس الثالث بطريركاً ودبر كنيسة اورشليم ستاً وثلاثين سنة. انتهى ملخصاً عن المشرق المسيحي للعلامة لكويان في كلامه على بطاركة انطاكية واورشليم.

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الخامس عشر

عد ٩٤٥

نوح البقوفاوي بطريرك اليعاقبة

وضع العلامة السمعاني ترجمة نوح هذا (في المجلد الثاني من المكتبة المشرقيه صفحة ٤٦٨) فقال ما ملخصه: « ولد نوح هذا سنة ١٤٥١م ببقوفا من قرى لبنان» (ترى اخربتها بين اهدن وبشري ويظهر انه لما أضل اليعاقبة بعض الموارنة من سكان هذه القرية كما سيجيء كان نوح في جملة هؤلاء) فصيره اليعاقبة اسقفاً على حمص وعلى سائر اليعاقبة المتوطنين بفينيقية، وفي سنة ١٤٩٠م جعله يوحنا برسيلا مفرياناً (جاثليقاً) في المشرق. ثم توفي يوحنا البطريرك المذكور فخلفه وصار بطريركاً على اليعاقبة سنة ١٤٩٤م.

ومن تآليفه كتاب اشتمل على ثماني وستين قصيدة سريانية مثبتة في الكتاب الخامس والاربعين من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية منها ثلاث قصائد في جبل لبنان، وثلاث قصائد في نفسه، وقصيدتان في مولده حيث يقول انه ولد سنة ١٧٦٢ لاسكندر توافق سنة ١٤٥١م كما ذكرنا، وثماني قصائد في رهبان جبل لبنان.

وكتب بالعربية ثلاث مقالات ذكرناها في كلامنا على يعقوب البردعي عد ٦٦٢ وابنا هناك اعتماداً على شهادة العلامة السمعاني في المكتبة المشرقية مجلد ٢ صفحة ٦٧ إن هذه المقالات ليست ليعقوب البردعي بل هي لكاتب متأخر عنه كثيراً، ولم يبين السمعاني في المحل المذكور اسم كاتبها لكنه صرح بذلك في كلامه على نوح هذا، فقال ان هذه المقالات الثلاث اولاها في تعليم اليعاقبة اي معتقدهم وثانيتها تقريظ لليعاقبة عنوانه خطبة في ايمان السريان وثالثها خطبة في

بشارة العذراء الطوباوية وهي لنوح البقوفاوي والذي جعلني اعتقد ذلك انما هو ما عثرت عليه في الكتاب الثلاثين من الكتب السريانية التي اتى بها اندراوس اسكندر الكاهن الماروني إلى المكتبة الواتيكانية حيث قال نوح عن نفسه في صفحة ١٣٣منه (ما ترجمته عن السريانية) كمل كما وجدت صلوا على حقارتي في يوم الثلثاء الحادي عشر من نيسان نحو الساعة التاسعة منه ١٨١٩ يونانية (الموافقة سنة ١٥٠٨م) بمدينة حلب كتبه نوح الخاطئ. «وقد كتب في صفحة ١٤٢ انه هو مؤلف الخطبة في بشارة العذراء وهذا ما كتبه بالعربية ميمر قاله نوح في الموصل سنة ١٨٠٣ يونانية (سنة ١٤٩٤م) من اجل معاندي مريم والدة الله ولم يعلموا عيد البشارة المجيد». وفاتحة هذه الخطبة : «بسم الآب البسيط والابن الوسيط والروح الفارقليط» وهذه الخطبة هي الخطبة نفسها المعزوة الى يعقوب البردعي في الكتاب الذي بمكتبة مدرسة الموارنة برومة، كما تأكدت بمعارضة الخطبتين. وعليه فلا صحة لنسبتها إلى البردعي. على ان النفس في هذه الخطبة وفي المقالتين الاخريين هو واحد والعبارة واحدة، وهذا يثبت ان المقالات الثلاث لنوح البقوفاوي نفسه. وقد أبنت ذلك هنا لاني في كلامي على يعقوب البردعي انكرت ان تكون هذه المقلات الثلاث له ولم أعين مؤلفها بل تركته نكرة، فصرحت الآن بما عثرت عليه حديثاً. انتهى تلخيص كلام السمعاني. وجاء في الكتاب الثلاثين المذكور من صفحة ١٣٨ فصاعداً تاريخ موجز لنوح المذكور ضمنه اخبار ما كان من الاحداث في الشرق ولا سيما في الجزيرة (ما بين النهرين) إلى ايامه اي إلى سنة ١٨٠٧ يونانية الموافقة سنة ١٤٩٦ للميلاد. وقد ذكر السمعاني في صفحة ٤٦٩ من المجلد المذكور تاريخ نوح هذا الموجز وذيل بعضه بحواش فمن شاء الوقوف عليه فليطالعه في المحل المذكور ولم ينبئنا السمعاني في اي سنة توفي نوح هذا ويظهر من تاريخه لكتابته تعليم اليعاقبة سنة ١٥٠٨ كما مر انه مات بعد تلك السنة.

عد ٩٤٦

الاخ (فرا) غريفون

نلخص ترجمة هذا العالم الفاضل عما كتبه الاب هنري لامنس اليسوعي الكاتب المجيد في مجلة «المشرق» في العدد الاول وما يليه من السنة الاولى لهذه

المجلة التي هي سنة ١٨٩٧م. لم يكن الاخ غريفون سورياً ولا شرقياً ايضاً لكنه كان فلمنكياً او بلجيكياً صرف سنين متطاولة في سورية ولبنان عند الموارنة خاصة، وله ايادي على الدين والعلم في هذه البلاد، ولا نعلم سنة مولده بالفلمنك ويقدر انها في اوائل هذا القرن الخامس عشر وقد انضوى الى رهبانية القديس فرنسيس الاسيزي في فرعها المعروف بالديريين، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره حاز في باريس رتبة الملفان في اللاهوت وأقام يدرس هذا العلم السامي في مدرسة باريس الكلية سبعة اعوام، فكسب من الشهرة ما راعه لتواضعه، فغادر هذه المدرسة ليتملص من المدح العالمي. وزار معابد رومة ثم طلب الانتقال إلى فرع آخر من رهبان القديس فرنسيس المعروفين بالاصغرين المحافظين ليقضي حياته بينهم خامل الذكر بعيداً عن العالم، ولكن حامل المسك لا تخفى روائحه فلم يعتم رؤساؤه واخوته الرهبان ان كشفوا عن كنز علمه فأمره رؤساؤه ان يدرس علم الكتاب المقدس فأذعن طائعاً وأتم ما عهد اليه به مدة قائماً به احسن قيام، لكنه كان هائماً بالسفر إلى فلسطين ومشاطرة اخوته بها اتعابهم وجهادهم. وكان في تلك المدة عقد المجمع الفلورنسي وغاية البابا اوجانيوس الرابع برد المشرقيين المنفصلين عن مركز وحدة الايمان اليه. وعرف غريفون باتحاد الروم في هذا المجمع وارسال الارمن وفداً للاعتراف بالايمان وارتجاع بعض اليعاقبة وإرسال البطريرك يوحنا الجاجي بطريرك الموارنة الاخ يوحنا رئيس رهبان القديس فرنسيس ببيروت ليطلب له التثبيت من لدن الحبر الروماني ويعرض له ان البطريرك وأمة الموارنة جميعاً يقرون بكلما يقرره المجمع، فزاد هيام الاخ غريفون بالتوجه إلى سورية فنال ما تمناه.

وفي اواخر سنة ١٤٤٢م او اوائل السنة التالية وصل غريفون إلى فلسطين وشرع يزور معابدها التي قد وضعها بكتاب وسمه بدليل الارض المقدسة، ثم اقام باورشليم بدير جبل صهيون وقد روى البطريرك اسطفانوس الدويهي مرات انه كان حينئذ في اورشليم جماعة من الموارنة. وقد جاء في كتاب روهريش (BOHRICHT) الالماني الذي زار اورشليم في تلك الايام، وذكر موارنة مقيمين في كنيسة القيامة (صفحة ٩٢ في كتابه المذكور) وكان الكرسي الرسولي قد عين في تلك المدة انطون طروبه من رهبان القديس فرنسيس وكيلاً او قاصداً له عند نصارى المشرق ولا سيما اهل جبل لبنان، فعاد انطون إلى رومة سنة ١٤٤٤م يصحبه وفد من الموارنة رحب بهم الحبر الروماني وأقام حينئذ الحبر الاعظم بطرس

دي فرارا من دير الفرنسيين في بيروت وكيلاً رسولياً لدى الموارنة والسريان. وفي سنة ١٤٥٠م نقل الاخ غريفون إلى اديار رسالتهم في جبل لبنان فأقام في بيروت مدة ويظهر انه كان رئيس ديرهم الذي كان بجانب كنيسة المخلص المبنية على اثار البيت الذي حدثت به آية الصليب التي ذكرناها قبلاً. ونظن ان هذا الدير هو ديرهم المعروف بهذه المدينة التي غادروها من سنوات قليلة، وأقاموا حيث هم الآن في حي الجميزة. ثم تخلى الاخ غريفون عن تدبير مهام الدير اليهم بالتعليم والارشاد ثم يمم لبنان ومعه الاخ فرنسيس البرشلوني، وكان بطريرك الموارنة حينئذ يعقوب الحدثي الذي توفاه الله سنة ١٤٥٨م. وكان الاخ غريفون قد تعلم اللغتين العربية والسريانية فكلفه البطريرك ان يعظ ويعلم عند الموارنة، فتفانى في الاجتهاد على ذلك. وقد غالى مرقس الاشبوني بذكر جهاد غريفون في انذار الموارنة حتى زعم انه صنع آية لم يصنع مثلها، وهي انه رد الشمس من الغرب إلى الشرق وبهذه الآية رد الموارنة إلى الايمان القويم. وتلك حكاية عدها العلماء بين الاقاصيص، وردها البطريرك الدويهي في كتاب رد التهم، والبطريرك بولس مسعد في الدر المنظوم، والاب لامنس ايضاً في ترجمة فرا غريفون ولا نراها تستحق العناية بالرد.

وبعد وفاة البطريرك يعقوب الحدثي صير بطرس بن حسان بطريركاً على الموارنة كما سيجيء، فأرسل فرا غريفون ومعه اثنان من رهبانه الاخ سمعان والاخ اسكندر إلى رومة وأصحبهم برسائل مشتملة على ابداء طاعته وطاعة امته للكرسي الرسولي وطلب تثبيته في البطريركية، فوصل فرا غريفون ورفيقاه إلى المدينة العظمى سنة ١٤٦٩م وكان الحبر الروماني حينئذ بولس الثاني ترحب بوفد الموارنة وأثبت البطريرك وكتب فرا غريفون من رومة إلى الموارنة رسالة سوف نثبتها بالملحق في تاريخ الموارنة المعلق بآخر هذا الباب، وعاد غريفون إلى لبنان حاملاً براءة التثبيت للبطريرك بطرس المذكور. ووهم بعض المؤرخين ان البابا صير فرا غريفون بطريركاً على الموارنة ورد الاب لامنس نفسه هذا الوهم بل انتقد ايضاً قول البطريرك الدويهي ان الاخ غريفون صير بطريركاً على اورشليم مبيّناً ان الكردينال ساريون الآتي ذكره كان حينئذٍ بطريرك اورشليم شرفاً ورجح الاب لامنس ان قول القائل ببطريركية غريفون على الموارنة ليس إلا مبالغة يراد بها فرط عنايته بالموارنة، وهذا رأي كوارسميوس (في كتابه وصف الارض المقدسة) او ان الحبر الروماني جعله نائباً رسولياً عند الموارنة وهذا هو الاظهر والامثل عندنا.

ورأى غريفون بين الموارنة شابين امتازا ذكاء وفضيلة اسم احدهما يوحنا والآخر جبرائيل القلاعي اللحفدي، فأدخلهما في سلك رهبان القديس فرنسيس وارسلهما إلى البندقية ثم لرومة لاقتباس العلوم البيعية، وعاد إلى الشرق ورقّى البطريرك سمعان الحدثي جبرائيل اللحفدي اسقفاً على الموارنة بقبرص، وأما يوحنا فاستأثرته المنية بعيد عودته. واعتمد لامنس في ذلك على تاريخ الدويهي وسوف نذكر ترجمة الاسقف جبرائيل القلاعي في تاريخ القرن السادس عشر.

وروى الاب لامنس ان غريفون رقي إلى الاسقفية، وانه بقي على ما كان عليه قبلها من الزهد والنسك والمحافظة على نذر الفقر سائراً على مثال القديسين، ولم تغفله فروض اسقفيته عن تأليف الكتب فصنف كتباً كثيرة وترجم عدة كتب ولم يبق من تآليفه إلا كتابان: الاول مدائح مريم والثاني وصف الارض المقدسة. وعزا اليه الدويهي ميمر في فتوح السلطان محمد الثاني القسطنطينية. ثم انّ طَعْن غريفون بالسن لم يوهن عزيمته، فلما رأى انتظام الحال في لبنان في هذه المدة عزم ان يسير إلى بلاد العجم إذ سمع ما كان يومئذ من المخابرات بين الكرسي الرسولي ودولة العجم في شأن نشر المذهب الكاثوليكي في تلك البلاد، وكان الاحبار الرومانيون قد تحققوا مخبرته بحالة الشرق وعادات اهله ومعرفته بلغتهم، فأوفده البابا سيستوس الرابع وسافر من بيروت بحراً ومعه الاخ فرنسيس البرشلوني المذكور، فأصابه مرض أرغمه على النزول في فماغوستا بقبرص، فقضي اجله في دير رهبانه بالمدينة المذكورة في ١٨ تموز سنة ١٤٧٥م.

عد ٩٤٧

الكردينال بساريون وتوادوروس غازا

ولد هذا العلامة المشهور في طرابيزند سنة ١٤٠٣، وفي رواية أخرى سنة ١٣٩٥م. وكان اولاً راهباً في رهبانية القديس باسيليوس ودرس العلوم وتفقه بالفلسفة خاصة في احد اديارهم بالمورة، ولما عزم الملك يوحنا باليولوغوس على العناية باتحاد الكنيسة اليونانية بالكنيسة اللاتينية استأتى بساريون من ديره وجعل بطريرك القسطنطينية يرقيه إلى اسقفية نيقية فرقاه اليها سنة ١٤٣٨م. وأخذه الملك بصحبته إلى ايطاليا ومعه عدة من العلماء، ولما حصل الاتفاق والاتحاد صيَّر البابا

اوجانيوس الرابع بساريون كردينالاً سنة ١٤٣٩ مكافأة لغيرته وعنايته بالاتحاد، ولما نكث الروم عهد اتحادهم واستمر بساريون متمسكاً به ابغضه الروم شديد البغض فلم يشأ العود إلى بلاده بل اقام بروما حيث كان محله موعد العلماء والادباء والفضلاء، واولاه البابا بيوس الثاني لقب بطريرك القسطنطينية. وفي رواية اخرى لقب بطريرك اورشليم سنة ١٤٦٣م. وبعد وفاة البابا نيقولاوس الخامس وبولس الثاني رشحه كثيرون من الكرادلة للحبرية العظمى، وقد عهد اليه الكرسي الرسولي بمهام كبرى باوروبا. وقد توفي في رافنّا في ايطاليا سنة ١٤٧٢م. وقد الف الكردينال بساريون كتباً كثيرة حسبها العلماء في جملة الكتب التي عاونت على احياء درس العلوم بعد اندراسها، وقد احيت كتبه الفلسفية بايطاليا الانصباب على درس فلسفة افلاطون فقد الف اربعة كتب رد بها مطاعن بعض العلماء بكتب افلاطون وطبعت هذه الكتب بباريس سنة ١٤٦٩م. وترجم إلى اللاتينية اربعة كتب لكسنوفون في سقراط طبعت بلوفان سنة ١٥٣٣م وله ترجمة لاتينية لكتب ارسطو في ما بعد الطبيعة طبعت بباريس سنة ١٥١٦م وله خطب في الانتصار لنصارى الشرق طبعت بباريس سنة ١٤٧٦م، وله مقالات لاهوتية لم تطبع. وقد طبعت له مقالة في سر الافخاريستيا في مكتبة الآباء وله رسائل وردود على بعض اساقفة الروم الذين كانوا يأبون اتحاد كنيستهم بالكنيسة الرومانية او نكثوا الاتحاد بعد صيرورته. وبالجملة كان بساريون من اشهر علماء القرن الخامس عشر وكان صديقاً ومحامياً عن كثيرين منهم، نخص بالذكر منهم جرجس الطرابيزندي وتوادورس غازا الآتي ذكره واندراوس التسالونيكي. ومن اللاتينيين بلوندس دفالر من قيترب، وليونر اداتين وغيرهما.

توادوروس غازا

ولد في سالونيك سنة ١٤٠٠م وسار إلى ايطاليا بعد ان اخذ الاتراك مدينتهم سنة ١٤٢٩م وعلم اللغة اليونانية في فلورنسا وفرارا وألف هناك منتدى علمياً. ثم استدعاه البابا نيقولاوس الخامس إلى رومة فانضم إلى الكردينال بساريون. ومن مؤلفاته غرامطيق اي كتاب نحو اللغة اليونانية بهذه اللغة انتشر كثيراً في القرن الخامس عشر واذاعه اراسموس مع ترجمة لاتينية له في بال سنة ١٥٢١م ثم في باريس سنة ١٥٢٩م وله ايضاً ترجمات لكثير من كتب شيشرون الخطيب الروماني الى اليونانية إلى غير ذلك من التصانيف.

الفصل الثالث

اخص الاحداث الدينية في هذا العصر
اتحاد كنيسة الروم بالكنيسة الرومانية

عد ٩٤٨
ما كان بهذا الشأن قبل القرن الخامس عشر

ذكرنا في تاريخ القرن التاسع الخلاف الذي كان بالقسطنطينية بين القديس اغناطيوس بطريرك هذه المدينة حينئذ وبين فوتيوس، وتغلب هذا على البطريركية خلافاً لاوامر الحبر الروماني، ونبذ فوتيوس الطاعة له، وتعليمه بعض ما يحالف تعليم الكنيسة الرومانية، وكان هذا مبدأ الانقسام إلى الآن. ولما ترقى البطريرك ميخائيل شيرولاوس إلى كرسي القسطنطينية في القرن الحادي عشر عظم الخلاف وانبسط الانقسام، ولكن لما ملك بلدوين القسطنطينية وتبعه غيره من الملوك اللاتينيين من سنة ١٢٠٤م إلى سنة ١٢٢١م خمدت جذوة الخلاف قليلاً، لكنها ما برح لها وميض، وحالما استرد الملك ميخائيل بالالوغوس القسطنطينية من الملوك اللاتينيين عاد الخلاف إلى ما كان عليه قبلاً، بيد ان هذا الملك رأى ان مملكته مشرفة على السقوط بايدي المسلمين فعزم ان يعتصم بموالاة اللاتينيين ويتفق معهم من جهة الدين ايضاً ليتحقق مناصرتهم له، فأوفد إلى البابا غريغوريوس العاشر يوحنا احد رهبان القديس فرنسيس وأصحبه برسالة صرح بها للحبر الروماني بأنه يرغب مع سورية في ان يرجعوا إلى الاتحاد بالكنيسة الرومانية والإقرار بايمان واحد. وكتب ايضاً إلى القديس لويس التاسع ملك فرنسة ليعاونه على هذا الاتفاق بين الكنيستين الرومانية والرومية. فالحبر الروماني لهيامه بهذا الاتحاد ارسل حالاً إلى الملك اربعة كهنة من قبله ليداولوه بما يريده من طريقة الرجوع وأرسل معهم دستور الايمان

الذي يلزم الملك واساقفة الروم ان يعترفوا به عند حصول الاتفاق، وعرض على الملك عقد مجمع لهذه الغاية وحرصه ان يشهده بنفسه او يرسل نواباً عنه. ولما اجاب الملك إلى ما يرغب البابا اعلن الحبر الروماني سنة ١٢٧٢م عزمه على عقد مجمع في ليون سنة ١٢٧٤م ودعا اليه اساقفة اللاتينيين وبطريرك القسطنطينية وسائر رؤساء الروم وعقد هذا المجمع في ليون سنة ١٢٧٤م وهو الرابع عشر من المجامع المسكونية والثاني في ليون وكان فيه من الاساقفة اكثر من خمسمائة اسقف عدا الكرادلة، وكان فيه بطريركان لاتينيان ويعقوب ملك راغون، ونواب كثيرين من الملوك والامراء اخصهم نواب الملك ميخائيل باليولوغوس ملك القسطنطينية ونواب فيلبس ملك فرنسة، ودعا البابا اليه ملفانين من اشهر ملافنة الكنيسة في ذلك العصر وهما القديس توما الاكويني لكنه مات في طريقه، ثم القديس بونا ونتورا وهذا رافق البابا في مسيره إلى المجمع وشهده وافتتح المجمع في السابع من شهر ايار السنة المذكورة بعد ان صام المجتمعون ثلاثة ايام. وفي المجلس الاول افتتح البابا غريغوريوس العاشر المجمع بالصلاة المعتادة ثم خطب في المجتمعين مبيناً انه تعمد بعقد هذا المجمع ثلاث غايات: الاولى العناية بانجاد النصارى في الأرض المقدسة، والثانية اتحاد الكنيسة الرومية بالكنيسة الرومانية، والثالثة وضع بعض فرائض لاصلاح التهذيب البيعي. وعقد المجلس الثاني في ١٨ ايار وكان فيه المفاوضة بوضع بعض فرائض دينية، ثم المجلس الثالث في السابع من حزيران واشتهرت فيه بعض مراسيم تتعلق بالايمان والتهذيب وتقرر في آخر هذا المجلس ان ينتظر وصول الروم إلى عقد المجلس الرابع.

ووصل مفوضو الروم في الرابع والعشرين من حزيران وكانوا كثيرين ومن علية الاكليرس واعوان الملك وفي جملتهم جرمانوس الذي كان بطريركاً على القسطنطينية، وتوافان متروبوليت نيقية، وأما يوسف بطريرك القسطنطينية فكان مقاوماً للاتحاد مصراً على الخلاف فحبسه الملك برأي الاساقفة في دير الى ان يعود المرسلون إلى المجمع. فإن وقع الاتفاق واستمر البطريرك مصراً على رأيه عزله الاساقفة والملك عن البطريركية واقاموا غيره. هذا ما رواه نطاليس اسكندر نقلاً عن رسالة الرؤساء الروم إلى البابا. ولما قرب وفود الروم من ليون خرج لملتقاهم كل من كان في المجمع من الاساقفة والرؤساء والنواب وصحبوهم بالاحتفاء إلى القصر الذي كان به البابا فقام لاستقبالهم وعلى جانبه الكرادلة وكثيرون من الاساقفة وبعد معانقة السلام

والسلم قدموا للحبر الروماني رسالة الملك ورسائل الاساقفة وعددهم ثمانية وثلاثون اسقفاً، ثم قالوا اتينا لنقدم إلى الكنيسة الرومانية الطاعة المتوجبة لها ونعترف بالايمان الذي تعترف هي به ونوافقها على المسائل الثلاث التي كان يعسر على اساقفة الروم الاقرار بها، وهي رئاسة البابا والاعلان باسمه في الصلوات، ورفع الاستغاثات إلى الكرسي المقدس. وكان الملك يصرح في رسالته باقراره بهذه المسائل الثلاث وبانبثاق الروح القدس من الآب والابن، ويسأل الحبر الروماني ان ينعطف إلى الترخيص للروم بان يتلوا قانون الايمان كما كانوا يتلونه قبل ابتعادهم عن الكرسي الروماني، وبأن يحفظوا طقوسهم التي لا تخالف الايمان ولا مراسيم المجامع. وكان عنوان رسالة الملك إلى البابا هكذا: «الى الأب الاقدس الطوباوي غريغوريوس الحبر السامي للكرسي الرسولي البابا العام وابي جميع المسيحيين من ميخائيل الملك الامين بالمسيح ومدبر شعبه المجلوس كومنانوس باليولوغوس ابن قداستكم الروحي».

وفي اليوم التاسع والعشرين من حزيران عيد القديسين بطرس وبولس اقام البابا قداساً احتفالياً في الكنيسة الكبرى بليون شهده الروم وكل آباء المجمع، وتلا فصلاً من رسالة القديس بولس وفصلاً من الانجيل باللاتينية واليونانية ثم خطب القديس بوناونتورا ثم ترنموا بقانون الايمان اولاً باللاتينية مع قولهم المنبثق من الاب والابن ثم ترنم به الروم باليونانية ومعهم من كان من اللاتين يعرف هذه اللغة والفريقان كررا ذكر انبثاق الروح القدس من الاب والابن ثم ترنم الروم بمديح للبابا واستمروا منتصبين في جانب المذبح إلى نهاية القداس فكان في ذلك العيد فرح لا يوصف عند اللاتين والروم.

وعقد المجلس الرابع في السادس من تموز وكان مدار الكلام فيه على اتحاد الروم بالكرسي الروماني فتلوا باللاتينية ثلاث رسائل مترجمة عن اليونانية: الاولى رسالة الملك ميخائيل، والثانية رسالة ابنه اندرونيكوس، والثالثة رسالة رؤساء الروم إلى الحبر الروماني. وقد ضمن الملك رسالته دستور الايمان الذي كان البابا قد ارسله اليه مع مرسليه المار ذكرهم واختتمها بقوله: «نحن نعترف بأن هذا الايمان صحيح وكاثوليكي وقويم ونعترف بذلك بقلبنا ونعلنه بفمنا ونعد بأن نحفظه دون خلل فيه ولا زيغان عنه»: وكانت رسالة رؤساء الروم على مثال رسالة الملك بالتصريح باقرارهم برئاسة كنيسة رومة وانبثاق الروح القدس من الابن والآب والمطهر وجواز التقديس على الفطير والخمير الخ.... واختتموها بقولهم ان بطريركهم اصر على

المخالفة فأقاموه بامر الملك في دير إلى عودهم، فإن وافقهم خضعوا له وإلا عزلوه وانتخبوا غيره. وبعد ان انتهت تلاوة الرسائل الثلاث نهض جيورجيوس الاكروبوليت اكبر اعوان الملك ونائبه في هذا المجمع وابرز اليمين التالية: «أنا اجحد الشقاق نيابة عن مولاي وبالاصالة عن نفسي واعتقد بقلبي واعترف بفمي بالايمان الكاثوليكي القويم الروماني واعد بأن احافظ على هذا الايمان كل وقت دون اي زيغ عنه البتة. وأقرّ برئاسة كنيسة رومة وبوجوب الطاعة لها واثبت كل ذلك بيميني وقسمي بنفس مولاي ونفسي». ثم جثا من في المجمع مترنمين بالتسبحة المعتادة او بدستور الايمان باللاتينية ثم تلاهم بالترنم بذلك جرمانوس بطريرك القسطنطينية قبلاً وتوافان متروبوليت نيقية. وأعادا مرتين ذكر انبثاق الروح القدس من الآب والابن. وأمر البابا بعد ذلك بتلاوة رسالة كان خان التتر قد ارسلها اليه وانفذ ستة عشر مفوضاً من قبله إلى المجمع لعقد معاهدة مع النصارى ضد المسلمين وعين البابا موعد عقد المجلس الآتي نهار الاثنين التاسع من تموز.

قد تأجل عقد المجلس إلى السادس عشر من تموز وفيه عند احد المرسلين من خان التتر لانه آمن مع رجلين من رفقائه وتلي في هذا المجمع اربعة عشر قانوناً موضوعها الايمان والتهذيب وعين البابا اليوم السابع عشر من تموز موعداً للمجلس الاخير من هذا المجمع.

ففي اليوم المذكور عقد المجلس الاخير من هذا المجمع وتلي فيه مرسوم المجمع ومما قيل فيه عن انبثاق الروح القدس:

«نعترف اعترافاً صحيحاً تقوياً ان الروح القدس ينبثق منذ الازل من الاب والابن لا كأنهما مبدآن بل مبدأ واحد. فهذا ما اعترفت به وعلّمته ونشرته إلى الآن وهذا ما تعتقده وتعلمه وتنشره الكنيسة الرومانية المقدسة ام جميع المؤمنين، وهذا هو الرأي الصحيح الثابت غير المتغير الذي علمه الآباء المستقيمو الايمان والعلماء اللاتينيون والروم». ثم خطب البابا خاتماً المجمع مسدياً لله الشكر على ما انعم من اتخاد الروم ومن اتخاذ الوسائل التي يرجى برحمته ان تكون نافعة للنصارى في الشرق ومن فرض رسوم تتكفل بإصلاح ما اختل من التهذيب، وترنموا بتسبحة الشكر لله وقد تفضل البابا بهدايا نفيسة على مفوضي الملك ورؤساء الروم وكتب إلى الملك ميخائيل يخبره بما كان في المجمع ويهنئه بنجاح المسعى.

وكتب مثل ذلك إلى ابنه اندرونيكوس وإلى رؤساء الروم، وأرسل مع الروم سفيراً إلى الملك عند وصولهم إلى القسطنطينية، واستمرار يوسف بطريركهما مصراً على رأيه اكرهه الملك على الاستقالة من بطريركيته وعني بإقامة يوحنا فيكوس احد مقدمي كهنة القسطنطينية بطريركاً مكانه وتشدد على من ابى الاتحاد من الاكليرس والعامة.

ثم توفي البابا غريغوريوس العاشر وخلفه اينوشنيسوس الخامس ثم ادريانس الخامس في مدة وجيزة، وقام بالحبرية العظمى يوحنا الحادي والعشرون سنة ١٢٧٦م فأرسل قصاداً إلى الملك ميخائيل يطالبه في ان يثبت الروم ما تقرّر في مجمع ليون وأقسم عليه مفوضو ورؤساء الروم، فعقد حينئذ في القسطنطينية مجمعان حيث اقرّ يوحنا فيكوس البطريرك ورؤساء الروم بالايمان على موجب الدستور المرسل اليهم من الحبر الروماني، وكتب الملك ميخائيل وابنه اندرونيكوس إلى البابا يهنئانه بحصول الاتحاد المبتغي على ان الملك كتب سنة ١٢٧٨م إلى البابا نيقولاوس الثالث خليفة يوحنا الحادي والعشربن المذكور يقول انه باذل قصارى جهده في الاستدعاء إلى الاتحاد، وان المؤامرات المنشئة عليه لذلك كادت تحطه عن اريكة ملكه. وسأل البابا ان يتسامح له إذا ابدى حسن التصرف مع مسوديه بسياسته. وكان الحاصل بعد ذلك ان الروم الا قليلين منهم عادوا إلى الابتعاد عن الكنيسة الرومانية والمخالفة لها في العقائد التي واثقوها عليها، واضطر البابا مرتينوس الرابع خليفة نيقولاوس الثالث ان يحرم الملك ميخائيل لنكثه عهد الاتحاد المقسوم عليه، وان يبقى الروم على ما كانوا عليه نحو مئة وستين سنة إلى ان عقد مجمع فرارا ثم نقل إلى فلورنسا كما ترى في الفصلين التاليين.

عد ٩٤٩

مجمع فرارا

لما رأى الملك يوحنا باليوغوس مملكته متداعية للسقوط والملوك العثمانيين العظام قد استحوذوا على قسم كبير منها ويهددونه بفتح القسطنطينية عاصمة ملكه، لجأ إلى الحبر الروماني مبدياً شديد رغبته في الاتحاد بالكنيسة الرومانية هو وشعب الروم، وكان البابا اوجانيوس الرابع هائماً بهذا الاتحاد فلبى دعوة الملك ونادى سنة ١٤٣٨م بعقد مجمع في فرارا احدى مدن ايطاليا، ودعا اليه الملك

يوحنا بطاركة الروم واساقفتهم واما الاساقفة اللاتينيون فكان بعضهم مجتمعين في مدينة بال (المانيا) فأمر البابا بانتقال مجمعهم إلى فرارا وحضر الملك يوحنا باليوغوس بنفسه إلى فرارا وصحبته البطريرك القسطنطيني وكثيرون من اساقفة الروم، واشهرهم بساريون رئيس اساقفة نيقية، ومرقس رئيس اساقفة افسس، وبلغ البابا اوجانيوس الرابع إلى هذه المدينة من السابع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٤٣٨م، واجتمع هناك الكرادلة وكثيرون من اساقفة الغرب، وأرسل البابا الكردينال نيقولاوس البركاتي لاستقبال ملك الروم في البندقية، فبلغ هذا الملك مع حاشيته إلى المدينة المذكورة في الثامن من شباط، ثم سار منها إلى فرارا، ووصل إليها في الرابع من آذار، ووصل بعده بثلاثة ايام البطريرك القسطنطيني والاساقفة وكانوا واحدا وعشرين اسقفاً، وكان معهم جمْ غفير من الأرشمندريتية وأعيان الاكليرس لا يقل عددهم عن سبع مئة. واتفق راي الفريقين على عقد المجلس الاول في التاسع من نيسان سنة ١٤٣٨م واجتمعوا ذلك اليوم في كنيسة القديس جيورجيوس الكبرى، وكان امام المذبح عرش عظيم وضعوا عليه كتاب الاناجيل ومفاتيح كنيستي القديسين بطرس وبولس اتوا بها من رومية، وجلس البابا تحت يمين المذبح على عرش ارفع من سائر العروش وبجانبه عرش عاهل المغرب فارغاً، وعن شماله المذبح القسطنطيني. وفي جانبي الكنيسة كراسي رؤساء الاساقفة والاساقفة وكان من جانب اللاتين الكرادلة ثم رؤساء الاساقفة والاساقفة عددهم نحو مئة وستين اسقفاً عدا رؤساء الاديار وكثير من باقي الاكليرس ونواب بعض الامراء والملوك، وكان من جانب الروم من ذكرنا آنفاً من تبعة الملك والبطريرك. وأعدوا بالقرب من كرسي بطريرك القسطنطينية محلاً لنواب باقي البطاركة الشرقيين الذين لم يتيسر لهم ان يأتوا إلى المجمع وكان اسيدوروس متروبوليت بروسيا نائباً عن بطريرك انطاكية مع مرقس مطران افسس، لكن اسيدوروس لم يصل إلا في شهر آب مع بعض اساقفة من قبيلته وكان نائباً عن فيلوتاوس بطريرك الاسكندرية انطونيوس مطران هرقلية وغريغوريوس معرف الملك، وعن يواكيم بطريرك اورشليم مطران سردومو ناميسيا في المورة على انه لم يكن في هذا المجلس إلا إذاعة براءة البابا بعقد هذا المجمع في فرارا وافتتاحه برضى ملك الروم بطريرك القسطنطينية لاتحاد الكنيستين والتنبيه للمدعوين بأن يأتوا إليه بمدة اربعة اشهر، او يبعثوا من ينوب عنهم ولم يشهد

يوسف بطريرك القسطنطينية هذا المجلس لانه كان مريضاً وعمره نحو ثمانين سنة لكنه بعث رسالة بين فيها انه موافق على كل ما يرسم فيه.

وبعد هذا المجلس الذي لا يعد إلا مقدمة للمجمع لم تعقد مجالس اخرى إلا إلى شهر تشرين الاول لسبب عصيان بعض الاساقفة الذين كانوا مجتمعين ببال على اوامر الحبر الروماني، وتوسط بعض امراء اوروبا لردهم إلى الطاعة بل كانت مفاوضات خصوصية بحث بها عن عقيدة المطهر وظهر منها ان الروم لا يأنفون من التسليم بذلك تتعذب في جهنم ويسلمون بانها تكفر عن آثامها بحزنها واقصائها عن مشاهدة الله، وان الصدقات وصلوات الكنيسة تفيدها بتخفيف عذابها وتقصير مدته، وفي الثامن من شهر تشرين الاول عقد المجلس الاول بالكنيسة الكبرى بل بالمعبد الذي في القصر الحال البابا به، لأن البابا كان متوعك الصحة. وعين للخطابة من جهة الروم مرقس اسقف افسس وايسيدوروس اسقف كيوف بروسيا وبساريون اسقف نيقية والحق بهم ثلاثة كهنة، وعين من جهة اللاتين الكردينال يوليانوس شلزاريني والكردينال القديس نيقولاوس البركاني وايسيدوروس ورئيس اساقفة رودس ويوحنا اسقف فورلي وراهبان ملفانان باللاهوت فخطب بساريون اولا خطبة ما برحت محفوظة برمتها اعرب بها عن السرور الذي شمل المؤمنين اجمعين لاملهم ان يروا عن قريب اتحاد الكنائس بعد ان تولاها الانقسام، واثنى على البابا وملك الروم وبطريرك القسطنطينية عاطر الثناء لما ابدوا من الغيرة على هذا الاتحاد، وحرضهم على متابعة سعيهم المشكور المبرور الى النهاية المبتغاة. واطال في كلامه واجاد واستغرق بخطبته الوقت المعين للمجلس كله، وأرجئ الاجتماع إلى يوم السبت المقبل. وكان في وسط الخطباء نيقولاوس ساكونديين يترجم ما يقال باليونانية إلى اللاتينية بسرعة وامانة يتعجب منها، فعقد المجلس الثاني في الحادي عشر من تشرين الاول وخطب فيه اندراوس رئيس اساقفة رودس في الموضوع نفسه الذي خطب فيه بساريون وبفصاحة اشبه بفصاحته، حتى لم ينجز خطبته قبل المساء ومع ذلك بحث الآباء قبل انصرافهم في النظام اللازم حفظه في الجدال وفي المواد التي يبحث عنها، وقرروا ان يكون بطريقة القياس للايجاز، وبث المسائل، وان يختار الروم مادة البحث في المجلس التابع.

فعقد المجلس الثالث يوم الثلثاء الرابع عشر من تشرين الاول وخطب فيه مرقس اسقف افسس وأحب ان يكون البحث عن زيادة كلمة والابن على قانون الايمان

ولمح إلى ان الكنيسة الرومانية ابطأت في اتخاذ وسائل الاتحاد الذي ترغب فيه الآن، وان هذا الاتحاد يتعذر حصوله ان لم تزل اولاً الاسباب الداعية الى الخلاف. واختتم كلامه طالباً ان تتلى مراسيم المجامع السابقة واقوال الآباء قبل الدخول في البحث والجدال، فاجابه اندراوس رئيس اساقفة رودس على خطابه فقال إنني لأعجب من تناسيكم اهتمام الكنيسة الرومانية لدى كل ملمة بالكنيسة الشرقية فلم تنشأ بدعة إلا وهبت الكنيسة الرومانية لمناصبتها واجهاد النفس في ايجاد الوسائل اللازمة لزوالها بانفاذ رسائلها وقصادها إلى غير ذلك من الوسائل، ولا يفوت علمكم ان البابا سليبسترس رأس مجمع نيقية، وغيره من احبار رومية رأس غيره من المجامع إما بنفسه وإما بقصاده، ولاعجب من ان بعض ملوك القسطنطينية عاونوا الاحبار الرومانيين احياناً على ذلك. وبعد ان انشقت العصا لم يفتر احبار رومية عن استدعاء الملوك الشرقيين إلى الوفاق فإن كنا لم نحفظ السلم فمتى طلبتموه انتم ولم نجبكم اليه؟ او متى سألتم عود الالفة وأبيناه؟ بل كم من مرة ناشدكم الأحبار الرومانيون ان تعودوا الى الائتلاف فأبيتم او وعدتم ثم اخلفتم وعدكم، او ما وقع رؤساء الروم على الاتحاد في مجمع ليون ونكثوا عهدهم، واما كون الكنيسة الرومانية تطلب الآن الاتحاد وتشتاق اليه فهذا ليس بمنكر له، واما ما سألته الآن من مراجعة مراسيم المجامع السابقة واقوال الآباء السالفين فأرى ان يضاف إلى ذلك بالاولى مطالعة اقوال الاناجيل المقدسة ايضاً.

فوافقه مرقس مطران افسس على محبة كنيسة رومة وعنايتها بالشرقيين، وقال ان هذا ايضاً يحملها على إزالة سبب الخلاف وهو الزيادة على قانون الايمان، فأجابه مطران رودس ليست هذه الزيادة سبب الخلاف لان الاتحاد استمر سنين متطاولة بعدها وقد حصل العود إلى الاتفاق مرات دون رفع هذه الزيادة، وقال انه سيبين امرين، الاول انه لم تكن زيادة والثاني انه وان سلم بالزيادة فتكون محكمة ولازمة ولا مناص منها.

وعقد المجلس الرابع في الخامس عشر من تشرين الاول واستغرق وقته البحث في طريقة انبثاق الروح القدس وعهد الاباء ببت هذا البحث إلى لجنة مؤلفة من ستة اعضاء ثلاثة لاتينيين وثلاثة روم. وعقد المجلس الخامس في السادس عشر من تشرين الاول فتليت فيه مراسيم المجامع النيقوي والافسسي والخلكيدوني وغيرها، وعُني الروم بأن ينتخبوا منها ان هذه المجامع حظرت كل زيادة على دستور الايمان

فأجاب الكردينال يوليانوس على كلام الخطيب الرومي، وقدم إلى المجمع نسخة قديمة جداً فأجاب الكردينال يوليانوس على كلام الخطيب الرومي وقدم إلى المجمع نسخة قديمة جداً من اعمال المجمع النيقوي الثاني وصرح فيها بانبثاق الروح القدس من الاب والابن طبق معتقد الكنيسة اللاتينية.

وفي المجلس السادس الذي عقد في العشرين من تشرين الاول خطب اندراوس رئيس اساقفة رودس خطبة مسهبة ابان فيها جلياً ان كلمة والابن في دستور الايمان ليست زيادة ولا تغييراً كما يزعم الروم بل هي تفسير ونتيجة لازمة لاعتقاد الكنيسة بانبثاق الروح القدس من الآب والابن، واثبت ذلك بشواهد كثيرة من اقول الاباء الروم ولا سيما يوحنا فم الذهب الذي قال كل ما هو للآب هو للابن ما عدا الابوة لان ابن الله صرح في انجيله بقوله كل ما هو للاب هو لي فالناتج عن ذلك نتجاً لازماً انه كان الاب مبدأ لانبثاق الروح القدس فيكون الابن بلا مراء مبدا له ايضاً. ثم قال الخطيب فليست إذاً كلمة الابن تفسيراً كما فسر المجمع النيقوي القوانين السابقة له بقوله مساوٍ للاب جوهراً بياناً للاهوت المسيح. وكما فسرت المجامع العامة المنعقدة بعد المجمع النقوي عقائد الدين المبحوث عنها فيها بزيادة كلمات. مثلاً زاد المجمع القسطنطيني الاول ما بين لاهوت الروح القدس خلافاً لمكدونيوس وزاد المجمع الافسسي ما بين ان في المسيح اقنوماً واحداً لا اقنومين خلافاً لنسطور، وزاد المجمع الخلكيدوني ما بين الطبيعتين في المسيح خلافاً لأوطيخا، إلى ان قال الخطيب انكم تجلون غريغوريوس بالاماس وهو يقول لا يؤخذ بالالفاظ بل بالمعاني، فإن اعتقدتم ان الروح القدس ينبثق من الاب والابن كما يتضح من الاناجيل ومن اقوال الآباء الشرقيين فما المضرة من التصريح بذلك في دستور الايمان، وكلمة من الابن تفسير لا زيادة. فللكنيسة السلطان ان تزيد. ونراها قد زادت في كل مجمع ما احتيج إليه لبيان العقيدة المبحوث عنها.

وعقد المجلس السابع في الخامس والعشرين من تشربن الاول فاستكمل رئيس اساقفة رودس اثبات عقيدة انبثاق الروح القدس من الابن مفنداً ما اتى به مرقس رئيس اساقفة افسس من الاعتراضات على هذه الحقيقة. وفي المجلس الثامن والتاسع اللذين عقدا في اول تشرين الثاني والرابع منه خطب بساريون رئيس اساقفة نيقية مدافعاً عن رأي الروم. وخلاصة كلامه ان تفسير عقائد الايمان ليس محظوراً لكن المحظور ان يراد شيء على دستور الايمان، وان المجمع الافسسي نهى

عن ذلك وانه ينبغي ان يجيبه اللاتينيون. أيختص هذا النهي بدستور الايمان؟ ام لا ففي المجلس العاشر الذي عقد في ٨ تشرين الثاني وقف يوحنا اسقف فورلي يرد على خطاب بساريون وبعد ان اثبت ان كلمة والابن ليست زيادة بل تفسير الحقيقة مقررة، قال ان الكنيسة كانت تقول في دستورها في ايام الرسل وأومن بالروح القدس ثم قالت في المجمع القسطنطيني الاول المنبثق من الاب فلم يحسب ذلك القول زيادة بل هو تفسير او شرح لاعلان تقرير العقيدة. وأما مرسوم المجمع الافسسي بأنه لا يجوز لاحد ان يستعمل او يكتب او يؤلف او يعتقد بدستور غير دستور المجمع النيقوي فمعناه الظاهر البديهي انه لا يحل لاحد ان يكتب او يعتقد بدستور مخالف للدستور النيقوي، وليس معناه انه لا يحل تفسيره بكلمة. وقد فهمت المجامع التابعة مرسوم المجمع الافسسي الذي فهمناه به إذ زادت بعض شروح على الدستور السابق، وما من شريعة في الكون يُنهى عن تفسيرها بمعناها الصحيح متى مست الحاجة إلى تفسير وانتم تسلمون بانه يسوغ لكل عالم ان يشرح او يفسر عقائد الايمان، فكيف تسلمون لفرد بما تنكرونه على مجمع مع ان المجمع الافسسي نهى الافراد عن ان يكتبوا او يؤلفوا دستوراً غير الدستور النيقوي، ولم تنهِ المجامع التابعة له عن ذلك، بل ليس له ان ينهاها عنه لان سلطانه وسلطانها سيان، وإذا حق هذا التفسير فسيان ان ذكر في الدستور او في رسوم المجمع او في غيرها بحيث ان يكون التفسير صحيحاً مطابقاً للمعتقد. وزاد الخطيب بياناً فقال ان المجمع الافسسي نهى عن الاعتقاد ايضاً بغير ما في الدستور النيقوي، فإذا سألكم احد اتعتقدون بان الله اولي فتجيبون بلا بد نعم. فيحق لكل ان يقول لكم على موجب رأيكم انكم محرومون، لأن هذا ليس من الدستور النيقوي وهلمّ جرّاً إلى غير ذلك من العقائد.

وعقد المجلس الحادي عشر في ١١ تشرين الثاني وخطب فيه الكردينال يوليانوس وأجاد وأحكم فافحم وأبكم حتى هنأه بساريون رئيس اساقفة نيقية على اجادته وأصالة رأيه، وأعلمه ان جواب الروم سيكون في المجالس التابعة. وفي ١٥ تشرين الثاني عقد المجلس الثاني عشر وخطب فيه مرقس اسقف افسس، وحاول ان ينقض او يضعف بعض الحجج التي حججهم بها الكردينال يوليانوس فلم ينجح، بل كشف الكردينال في جواب الروم عن تناقض ظاهر لا مفر منه، وهو انهم زعموا انه بعد المجمع الأفسسي كان يطلق لكل فرد من الناس ان يشرح ايمانه بما شاء من

الالفاظ مع استمساكهم بأن هذا المجمع نهى الاساقفة والاكليريكيين والعامة عن كل شرح او تفسير فكيف يوفق هذا التناقض او كيف يسوغ ذلك لكل فرد ولا يسوغ للكنيسة جمعاء.

وعقد المجلس الثالث عشر في ٢٧ تشرين الثاني وبذل مرقس الافسسي قصارى جهده في تأييد رأيه واطال كلامه كيلا يبقى وقت للرد عليه ففي المجلس الرابع عشر الذي عقد في الرابع من كانون الاول والمجلس الخامس عشر الذي عقد في الثامن منه اجاب الكردينال يوليانوس بإيجاز على كل فقرة من فقرات كلام مرقس الافسسي، واظهر في المجمع نسخة رسالة قديمة العهد كتبها البابا ليباريوس إلى القديس اثناسيوس، ومما اشتملت عليه هذه الرسالة ان المجمع النيقوي نهى عن ان يزاد او يحذف او يغير من قانون الايمان، ومن جسر على ذلك فان كان اسقفاً او إكليريكياً حط عن درجته، وان علمانياً او راهباً حرم. ولما كان مرقس الأفسسي والروم قالوا ان هذا النهي لم يكن قبل المجمع الثالث المسكوني احمرت وجوههم وكان ذلك بيّنة اخرى ناقضة لرأيهم وقد افحمت هذه البينة بساريون وأقنعته.

ولما رأى الروم ان اللاتين لا يعبأون بكثرة الكلام يئسوا من النجاح واخذوا يفكرون بالعود إلى اوطانهم، فحرضهم الملك على البقاء فطلبوا الجزم وبت هذا البحث. فاجابهم اللاتين لا بد من استقصاء كنه المسألة بالبحث هل ينبثق الروح القدس من الابن كما ينبثق من الاب لانه لا يمكن حذف كلمة من الابن من الدستور إلّا ان يثبت انها غير صحيحة وانها تجديف يخالف الايمان. وكان الروم يعلمون ما يحجهم به اللاتين من آيات الانجيل الواضحة ومن اقوال الاباء الشرقيين انفسهم فقال مرقس الافسسي احذفوها من القانون واثبتوها في مرسوم المجمع فأجابه الكردينال فلنفحص يا سيدي فلنفحص فإن ظهر أنّ كلمة والابن تجديف فلا يلزم ان تكون في الدستور ولا في المرسوم، وان ظهر انها مطابقة للايمان فيلزم ان تبقى ثابتة في الدستور والمرسوم وفي كل محل.

وقد اثبت لاباي (مجلد ١٣ صفحة ١٢٣٩) رسالة كتبها بساريون رئيس اساقفة نيقية إلى لاسكاريس تبين حالة الروم وافكارهم حينئذ. وإليك ترجمة قسم منها قد اورد اللاتينييون هذه الحجج وما اشبهها فلم يكن لنا ما يقال فيها فما الذي نقوله خلافاً لحقيقته ظاهرة جلية فلزمنا الصمت، اما اللاتين فبعد ان اثبتوا انه

يجوز زيادة كلمة او عبارة صحيحة على الدستور استعدوا ليثبتوا العقيدة نفسها اي ان الروح القدس منبثق من الاب والابن على ان جماعتنا رأوا انهم افحموا في المبحث الاول فخافوا ان يصيبهم كذلك في المبحث الثاني، وتذكروا ما قلته لهم من اول الامر ان لا يفتتحوا الجدال بهذه المسألة فجبنوا وعولوا على الانتزاح من المجمع والعود إلى اوطانهم، واكثروا من القول فيما بينهم فلنرجع فلنرجع. وإذ سألتهم لماذا ترجعون فلا يمكنهم ان يجيبوك فما نقول للّاتين ان سألونا لم ترجعون في وسط المباحثة او في بادئ بدئها لان كل ما جرى البحث فيه الى ذلك اليوم هو في زيادة كلمة «والابن» ولا يمس العقيدة بنفسها، فَلِمَ تعودون قبل ان تبتدئوا في ما اتيتم له. ولم يكونوا يعلمون ما يجيبون بل كانوا يقولون فلنعد. ويسرُّ بعضهم إلى بعض ان اللاتين مزمعون ان يوردوا اقوالاً كثيرة من كتب الاباء المشرقيين اثباتاً لانبثاق الروح القدس من الآب والابن. فَبِمَ نجيب عليها فلنعد ولم يمسكهم في المجمع إلّا خطاب القاه الملك فيهم.

وفي المجلس السادس عشر المنعقد في العاشر من كانون الثاني سنة ١٤٣٩م كان الوباء اشتدت وطأته في فرارا فعرض البابا اوجانيوس على ملك الروم وبطريرك القسطنطينية نقل المجمع إلى فلورنسا، فصرحا برضاهما فتليت في هذا المجلس براءة البابا في شأن نقل المجمع من فرارا إلى فلورنسا وبعد ستة ايام سار البابا إلى فلورنسا لتكملة المجمع فما كان في فرارا وفلورنسا مجمعاً يحسب واحداً وقد افردا الفصل الثاني للكلام في ما كان في فلورنسا.

عد ٩٥٠

اعمال هذا المجمع في فلورنسا

قد سار البابا من فرارا الى فلورنسا في ١٦ من كانون الثاني سنة ١٤٣٩م وسار بعده ملك الروم وبطريرك القسطنطينية وعقد المجلس الاول في فلورنسا وهو السابع عشر من مجالس هذا المجمع في ٢٦ من شباط في قصر البابا بحضرة الملك ولم يشهد بطريرك القسطنطينية هذا المجلس لانه كان مريضاً، فخطب الكردينال يوليانوس نائباً عن البابا مبيناً ان الفريقين اللاتين والروم اتفقا على الاسراع بنهاية المجلس، وانه يلزم عقد ثلاثة مجالس في كل اسبوع، وان تكون المباحثة في كل

مجلس ثلاث ساعات وان يعتمد الخطباء الايجاز بكلامهم. وقال ان من رأي جلالة الملك ان يبحث الاباء في وسائل الاتحاد قبل المفاوضة في المجالس العامة ووافق البابا على ذلك، لكن الروم لم يتفقوا فيما بينهم على طريقة الاتحاد وارادوا مواصلة البحث في العقائد فأمر البابا ان يختاروا الخطباء الذين يدافعون من جهتهم وان يختار اللاتين خطباءهم فكان كذلك.

فعقد المجلس الثاني في فلورنسا في العاشر من اذار وكان الخطيب فيه من جهة اللاتين الاب يوحنا من الجبل الاسود رئيس اقليم نومنديا على رهبان القديس عبد الاحد، وكان مشهوراً بعلومه الفلسفية واللاهوتية وكان موضوع كلامه عقيدة انبثاق الروح القدس من الآب والابن. فسأل الروم ما تفهمون بالانبثاق إذ تقولون ان الروح القدس ينبثق من الاب فأجابه مرقس الافسسي افهم بذلك ان الروح القدس يأخذ وجوده وكل ما يعرف به من الاب. فقال الخطيب احسنت وإليك البرهان من اخذ الروح القدس وجوده منه انبثق منه، والحال ان الروح القدس يأخذ وجوده من الابن، فاذاً ينبثق منه. فالكبرى هي قولكم نفسه فلا مشاحنة فيها الحق فهو يعلمكم كل حق وهو يمجدني لانه يأخذ مما هو لي ويبين لكم كل ما هو للآب هو لي، ولهذا قلت انه يأخذ من الآخر إلا بمعنى انه ينبثق منه لمساواة الاقانيم الالهية بالذات والقدرة والمعرفة، فذلك طبق قولكم انه يأخذ منه وجوده. ثم اورد الخطيب آيات الانجيل الناطقة بان الابن يرسل الروح القدس كقوله فإذا جاء الروح البارقليط الذي ارسله انا اليكم من الاب. (يوحنا فصل ١٥ عد ٢٦) وكقوله ان لم امض فلا يأتيكم البارقليط، وان انطلقت ارسلته اليكم. (يوحنا ١٦ عد ٧). وقال لا يقال في اللاهوت ان اقنوماً يرسل الآخر إلا بمعنى انه ينبثق منه لتساوي السلطة والأمر فيهم. وعليه ترى انه ورد في الاناجيل وغيرها من اسفار العهد الجديد متواتراً ان الاب ارسل الابن وان الابن ارسل الروح القدس، ولم يرد قط ان الابن ارسل الاب، وان الروح القدس ارسل الابن. وألحق الخطيب بذلك الآيات التي يسمى بها الروح القدس روح الابن كقول الرسول (غلاطية فصل ٤ عد٦) «ارسل الله روح ابنه في قلوبكم». وذلك على حد تسمية روح الاب بقوله في بشارة متى (فصل ١٠ عد ٢٠) لستم انتم بالمتكلمين لكن روح ابيكم يتكلم فيكم إلى غير ذلك من الآيات.

ثم انتقل الخطيب إلى ذكر اقوال الاباء الشرقيين ومما ذكره شهادة من القديس ابيفانيوس في كتابه الموسوم بالمرسى قال فيها متكلماً في الآب، واسمى ابناً من هو

منه (اي من الاب) واسمى روح قدس من هو وحده من كليهما اي من الآب والابن، ثم اورد شهادة اخرى من هذا القديس مأخوذة عن كتابه المذكور قال فيها كما اقول انه لم يرَ احد الاب إلا الابن ولا الابن إلا الاب. فكذلك اقول لا يعرف احد الروح القدس إلا الآب والابن الذي يأخذ منه وينبثق ولا يعرف احد الاب والابن إلا الروح القدس الذي يمجدهما ويعلم كل شيء وهو من الاب والابن. وأراد الاب يوحنا ان يستقري باقي شهادات الآباء فاعترض له مرقس الافسسي بشهادة من القديس باسيليوس فطولع كلام القديس باسيليوس فوجد في النسخ التي بيد اللاتين ان اونوميوس الذي كان باسيليوس يرد عليه قال لما كان الروح القدس هو الثالث في نظام الاقانيم لزم ان يكون الثالث في الطبيعة فقال باسيليوس في رد زعمه: اية حاجة إلى ان يكون الثالث في الطبيعة من كان الثالث في نظام الاقانيم فهو بحسب المقام الثاني بعد الابن لان له الوجود منه ويأخذ منه ويبين لنا ويتعلق تعلقاً مطلقاً بهذه العلة. فقال مرقس الافسسي نعم قال باسيليوس شيئاً بهذا المغني لكن قوله لان له الوجود منه إلى آخر الفقرة هو زيادة على كلام باسيليوس وفي القسطنطينية نسخ كثيرة من كتاب باسيليوس ولا شيء فيها من هذا الكلام الاخير وطال الجدال إلى ان احضر الاب يوحنا إلى المجمع نسخة يونانية من كتاب باسيليوس كان قد أتي بها حديثاً من القسطنطينية ويظهر من الرق المكتوبة عليه والحروف المكتوبة بها انها قد خطت من اكثر من ستمائة سنة ولا اثر فيها للحك او الزيادة وفيها نص باسيليوس كاملاً كما هو في النسخ التي بيد اللاتين وبعد الاطلاع عليها قال الاب يوحنا ان التاريخ واعمال المجامع انبأتنا ان ليس اللاتين هم الذين اعتادوا تحريف الكتب هذا ما رواه جامع اعمال هذا المجمع من الروم وكان حاضرا في المجمع قد اثبتناه نقلاً عن الكردينال منسي في كتابه مجموع المجامع (مجلد ٣١ صفحة ٧٦٧).

وقد استغرق هذا المبحث اوقات المجالس من الثالث إلى الثامن التي كانت في ٥ و٧ و١٠ و١٤ و١٧ اذار، وقد عثر الاب يوحنا في مدة هذه المجالس على خطبة للقديس باسيليوس في الروح القدس فوجد فيها نصاً يصرح بأن الروح القدس يأخذ اللاهوت نفسه من الابن حتى ابكم مرقس الافسسي عن الجواب، واكرهه على ان يقرّ بأن كلام القديس باسيليوس يمكن ان يكون له المعنى المقصود من الاب يوحنا. وفي المجلسين الثامن والتاسع اللذين عقدا في ٢١ و٢٤ من آذار اجاد الاب يوحنا

بايراد شواهد كثيرة من اقوال الآباء الشرقيين وقال إن كثيرين منهم صرّحوا بأن الروح القدس ينبثق من الآب والابن وانه لا فرق بين القول ينبثق من الاب والابن او ينبثق من الاب بالابن ومن قال منهم انه ينبثق من الاب لم ينف الابن. ولما كان بعض الروم يظنون ان اللاتين يعتقدون ان الروح القدس ينبثق من مبدأين اي الاب والابن فأوضح الاب يوحنا لهم صراحة ان الكنيسة الرومانية تعتقد بأنّ لانبثاق الروح القدس مبدأ واحداً او علة واحدة وهي الاب. فإن الابن له الوجود من الاب وله منه ايضاً بُثِقَ الروح القدس، فليس لبثق الروح القدس مبدآن او علتان لان كل ما هو للابن قد اخذه من الآب. قال جامع اعمال المجمع الرومي المذكور لهذا الكلام عند الروم وقع حسن، وخرجنا من المجلس مسرورين لاعتقاد اللاتين ان لانبثاق الروح القدس علة واحدة، ووقع الانقسام بين الروم فأحب فريق منهم الاتحاد ومن هذا الفريق كان الملك وبساريون رئيس اساقفة نيقية، وانكره فريق آخر ومنهم مرقس الافسسي واخذوا خطب الاب يوحنا ينقبون فيها. فقال مرقس ان فيها بدعة وقال بساريون يلزم ان نشكر الله لاننا وجدنا تعليم اللاتين مطابقاً لتعليم الاباء الروم القدماء، وامر بخطبة مثبتة في اعمال المجمع راي اللاتين في انبثاق الروح القدس، وفند اعتراضات الروم. واختتم كلامه بالحث على الاتحاد، وتابعه على ذلك جيورجيوس سكولاريوس احد اللاهوتيين الروم، وكان الملك اتفق مع البابا على تعيين لجنة من الفريقين تبحث في رسائل الاتحاد وتنشئ مرسومه، وبعد مشاحنات طويلة قر رأيهم على انشاء المرسوم بشأن انبثاق الروح القدس كما يأتي: «نحن اللاتينيون والروم نقرّ ونعترف ان الروح القدس منبثق منذ الأزل من الآب والابن وان انبثاقه منهما منذ الأزل من مبدأ واحد وبثقة واحدة ونعلن ان ما قاله بعض الملافنة والآباء القديسين من ان روح القدس ينبثق من الاب بالابن يفهم منه ان الابن هو كالاب ومع الاب مبدأ لبثق الروح القدس لان كل ما هو للاب اعطاه للابن ما عدا الابوة التي تميزه عن الابن وعن الروح القدس، وقد اخذ الابن من الاب منذ الازل قوة البثق التي بها ينبثق الروح القدس من الابن كما ينبثق من الاب. فتلي هذا المرسوم واثبته الفريقان ووقعوا عليه في اليوم الثامن من حزيران إلا مرقس رئيس اساقفة افسس، فإنه استمر مصراً مكابراً. وبعد التوقيع عانق الفريقان احدهما الاخر معانقة السلم والاتحاد واتفق رأيهم على ان يبحثوا ايضاً في باقي المسائل المختلف فيها كالمطهر ورئاسة الحبر الروماني وسعادة القديسين وجواز التقديس على الخمير والفطير.

وكان البطريرك القسطنطيني يرغب في ان ينشأ للحال مرسوم الاتحاد ليرى نهاية هذا الامر الخطير قبل موته الذي كان يشعر بأنه قريب، فقيل له انه يلزم ايضاً ايضاح باقي المسائل. وقد اعدت مواد البحث فيها بفرارا فلا تحتاج إلى وقت طويل. وفي ليلة التاسع من حزيران توفي البطريرك، والذي رواه ذووه انه دخل بعد عشائه الى غرفته واخذ ورقاً وقلماً يكتب ثم اعتراه ارتعاش ففاضت روحه، فأخذ الاساقفة الذين اجتمعوا حينئذ الرقعة التي كتبها فوجدوه قد خط بيده ما يلي: «انا يوسف برحمة الله رئيس اساقفة القسطنطينية رومة الحديثة والبطريرك المسكوني لما رأيت انقضاء حياتي وازماعي على وفاء الدين المحتوم على كل من الناس كتبت بنعمة الله ووقعت على رأيي الاخير مبيناً اياه بكل ايضاح ليكون معلوماً عند جميع اولادي الاعزاء، فأوضح اذاً ان كل ما تؤمن به وتعلمه الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرسولية كنيسة سيدنا المسيح رومة القديمة أؤمن به أنا وأقبل كل عقائد هذا الايمان، واعترف بأن البابا حبر رومة القديمة هو ابو الاباء المطلوب والحبر الاعظم ونائب سيدنا يسوع المسيح لتوطيد إيمان المسيحيين، وأؤمن ايضاً بمطهر النفوس. وبياناً لذلك وقعت على هذا الاقرار في ٩ حزيران سنة ١٤٣٩م. فعظم البابا حفلة جنازته وشهدها بنفسه مصلياً عليه في كنيسة دير رهبان القديس عبد الاحد.

ثم اجتمع الاساقفة يتباحثون في باقي المسائل وابتدأ بالبحث عن صحة تقديس الخبز الفطير فلم يمتنع اساقفة الروم عن التسليم بأنه يصحّ تقديس الخبز خميراً كان أم فطيراً، بحيث يكون الخبز من القمح، وأن يكون خادم السر كاهناً وبيَّن الخطيب حينئذ افضلية تقديس الخبز فطيراً اقتداء بالمسيح الذي قدس جسده بالفصح، وكان استعمال الخمير محظوراً فيه على اليهود. ولما كان قد قيل ان الروم يعتقدون ان صلوة الروح القدس التابعة كلام التقديس هي ضرورية لاتمام التقديس القى الخطيب خطبة اخرى بيَّن بها بشهادات الاباء والعلماء ان كلام المسيح الذي يتلوه الكاهن هو اللازم وحده لصحة التقديس، فأجابه متربوليت روسيا محققاً ان هذا معتقد الروم ايضاً.

وكان اباء هذا المجمع اقاموا وهم بفرارا لجنة تبحث في المسائل المختلف فيها فاعتمد على ابحاثهم المذكورة في الايمان بالمطهر فلم تكن صعوبة في هذا المجلس في الاتفاق على ان نفوس القديسين حازت السعادة في السماء وان نفوس الخطاة الذين لم يتوبوا قبل الموت عذاباً اليماً في الجحيم واما نفوس من اثموا وتابوا ولم

يفوا عن آثامهم او هفواتهم في هذه الحيوة فتتعذب في محل الى ان تطهر. ولا يحفل ببيان نوع العذاب ابنار هو ام بظلام او بطريقة اخرى وان جميع الناس سوف يقومون باجسادهم امام منبر المسيح يوم القيامة لتجزى كل نفس بما عملت.

وأما في رئاسة الحبر الروماني فكان بعض التردد عند الروم ولا سيما ان ملك الروم كان يريد ان يقر برئاسة الحبر الروماني، إلا انه ليس له ان يقبل الاستغاثة به من احكام البطاركة الشرقيين، ولا ان يأمر بعقد مجمع مسكوني دون رضى الملوك والبطاركة. وبعد بيان خطباء اللاتين رئاسة الحبر الروماني المطلقة على الكنيسة جمعاء بآيات الاسفار المقدسة وشواهد الاباء وردهم ما يحتج به على ذلك، وبعد الاتفاق بين الفريقين على ان يزاد في مرسوم المجمع قيد يصرح به بسلامة الحقوق والعوائد التي كانت للبطاركة الشرقيين اذعن الروم ورضي البابا بزيادة القيد المذكور، وعقدت عدة مجالس لانشاء صك الاتحاد. وبعد انشائه فحص عن كل عبارة وعن كل كلمة وبعد تقريره تلي وصادق عليه الفريقان وترى فحواه في براءة البابا الاتي ذكرها.

وعين الآباء ستة علماء من كل فريق لانشاء براءة البابا فاشتغل هؤلاء بذلك ثمانية ايام وكانوا يجتمعون لذلك مرتين كل يوم ثم تليث البراءة التي انشأوها بمجلس عام فعقد في ٤ من تموز بحضرة البابا اوجانيوس وملك الروم، فأثبتها جميع الحاضرين برضى عام وقرروا ان تذاع إذاعة احتفالية بعد يومين في آخر المجلس. ولم يذكروا في البراءة شيئاً بشأن صورة كلام التقديس لاقرار الروم امام البابا اجمالاً وافراداً انهم لا يخالفون الكنيسة الرومانية في ان كلمات الرب التي يتلوها الكاهن في التقديس إنما هي صورة تقديس القربان، ودعوة الروح القدس بعدئذ ليست من الكلمات اللازمة لصحة التقديس، فسر البابا لاقرارهم بذلك ايضاً. وفي اليوم السادس من تموز سنة ١٤٣٩م عقد المجلس الاخير بين الروم واللاتين وقدس البابا في الكنيسة الكبرى بفلورنسا واجتمع الملك وآباء المجمع في النظام الذي اشرنا اليه في الكلام على مجالس هذا المجمع بفرارا. وبعد نهاية القداس جلس البابا على عرشه وتلا الكردينال يوليانوس براءة البابا باللاتينية ثم تلا ترجمتها إلى اليونانية بساريون رئيس اساقفة نيقية. وهذا مختصر هذه البراءة.

اوجانيوس اسقف عبد عبيد الله للذكر المؤبد برضى ابننا العزيز بالمسيح يوحنا

باليالوغوس ملك الروم الكلي الشرف، وبرضى نواب اخوتنا المحترمين بطاركة الشرق وغيرهم من نواب الكنيسة الشرقية واطال البابا كلامه في بيان السرور الذي تولى قلبه من جراء اتحاد الكنيستين الرومية واللاتينية وفي وصف الحبور والبهجة اللذين كانا في السماء وسيكونان عند جميع المؤمنين في المعمور كله لزوال الانقسام والشقاق وتولي الاتفاق والاتحاد بين المسيحيين في كل صقع وبعد شكره الله على هذه النعمة الكبرى والمنة العظمى قال:

«قد اجتمع اللاتين والروم في هذا المجمع المقدس العام وجرى بينهم البحث المدقق بكل ما يمكن من الاسفار من التحري عن عقيدة انبثاق الروح القدس، فأورد الخطباء آيات الاسفار المقدسة وكثيراً من شهادات ملافنة الكنيسة المشرقيين والمغربيين فوجد ان بعضهم يقولون ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن، وغيرهم يقولون ينبثق من الآب بالابن ومرجع القولين إلى معنى واحد وان اختلفت الالفاظ، واثبت الروم انهم بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الاب لا ينفون ذلك عن الابن لكن كان يظهر لهم ان اللاتين بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الابن يعتقدون ان لانبثاقه مبدأين او علتين، فحقق لهم اللاتينيون انهم لا يعتقدون إلا مبدأ واحداً او علةً واحدة لبثق الروح القدس، ولا ينكرون ان الآب مبدأ اللاهوت كله ولا ان الابن يأخذ كيانه وبثقة الروح القدس من الاب. وعليه فيكون لانبثاق الروح القدس مبدأ واحد او علة واحدة وبثقة واحدة، ولذلك اتفق الفريقان واجمعوا على وضع القرار الآتي بسم الثالوث الاقدس الاب والابن والروح القدس، وبأثبات هذا المجمع المقدس المنعقد بفلورنسا تقرر ان المسيحيين اجمع يلزمهم ان يعترفوا بحقيقة الايمان هذه ويستمسكوا بها، ونحن نعترف بها وهي ان الروح القدس ينبثق منذ الازل من الاب والابن وان له ذاته وكيانه من الاب والابن، وينبثق منذ الازل من كليهما بما انهما مبدأ واحد له، وبثقته واحدة مقرين ان الاباء والملافنة القديسين الذين قالوا ان الروح القدس ينبثق من الاب بالابن لم يكن لقولهم معنى غير هذا المعنى، ويريدون بذلك ان الابن هو كالاب علة للروح القدس كما يقول الروم ومبدأ له كما يقول اللاتين. ومن حيث ان الاب اعطى ابنه الوحيد بولادته له كل ما هو للاب ما عدا الابوة، فاعطاه ايضاً ان ينبثق الروح القدس منه منذ الازل، وتقرر ايضاً ان كلمة والابن زيدت بكل صواب على الدستور ايضاحاً للحقيقة لحاجة مست إلى ذلك.

وتقرر ايضاً ان من جسد المسيح يتقدس حقيقة بخبز القمح سواء كان فطيراً ام

خميراً وانه بلزم كلاً من الكهنة ان يتبع في ذلك عادة كنيسته غربية كانت ام شرقية، وان نفوس من ماتوا تائبين حقيقة وحاصلين على محبة الله ولكن قبل ان يثمروا ثماراً صالحة للتوبة للتكفير عن آثامهم التي ارتكبوها بالفعل والاهمال يتطهرون بعد موتهم بعذاب المطهر، وتقيدهم في هذا العذاب افعال المؤمنين الاحياء الصالحة كذبيحة القداس والصلوات والصدقات وغيرها من المبّرات التي اعتاد المؤمنون ان يصنعوها لخير المؤمنين بحسب قوانين الكنيسة، وان نفوس من لم يرتكبوا اثماً بعد المعمودية ونفوس من تابوا عن اثمهم مكفرين عنه اما في حياتهم اما بعد موتهم في المطهر تدخل الى السماء حالاً وتشاهد الله وجهاً لوجه، ويقاس مجدها بمقياس استحقاقها. واما نفوس من برحوا من هذه الحياة وقد ارتكبوا اثماً مميتاً لم يتوبوا عنه وكانت عليهم الخطية الاصلية فتذهب للحال إلى الجحيم ولا يكون عذابها متساوياً.

وتقرر ايضاً ان الكرسي الرسولي المقدس والحبر الروماني الجالس عليه هو خليفة بطرس الطوباوي بولس الرسول وهو نائب المسيح ورئيس الكنيسة جمعاء وابو جميع المسيحيين ومعلمهم، وان سيدنا يسوع المسيح اعطاه بشخص بطرس الطوباوي السلطة التامة ليرعى ويسوس ويدبر الكنيسة كلها كما هو مصرح ايضاً في اعمال المجامع المسكونية والقوانين المقدسة، وتجدد الرسم بنظام الكنائس الاخرى البطريركية المبين بالقوانين بنوع ان يكون صاحب الكرسي القسطنطيني الثاني بعد الحبر الروماني الاقدس والثالث البطريرك الاسكندري والرابع البطريرك الانطاكي والخامس البطريرك الاورشليمي مع سلامة حقوقهم واختصاصاتهم.

أعطي بفلورنسا في المجلس الذي عقد باحتفال في الكنيسة الكبرى سنة ١٤٣٩م في السادس من شهر تموز وهي السنة التاسعة لحبريتنا.

ثم وقع البابا هكذا انا اوجانيوس اسقف الكنيسة الكاثوليكية وقعت مقرراً كذلك ربي انت عوني وعاضدي فلا تتركني يا إلهي. وكانت كلمات الزبور هذه شعاراً لاوجانيوس الرابع.

ويلي ذلك توقيع ثمانية كرادلة انا فلان اوقع على التقريرات السابقة وترى بعد اسماء الكرادلة توقيع الملك يوحنا باليولوغوس ثم معرفة جيورجيوس ثم ايسيدوروس متروبوليت كيوف وروسيا كلها، وعدة ميتروبوليتات واساقفة من الروم منهم مطارنة

هرقلية ودرابيزون ونيكومدية ومتلين وأما سياورودس ثم اغناطيوس مطران تورنوفو فصبة بلغاريا ودميان مطران مولدافيا والفلاخ ومن بعدهم كثيرون من الاساقفة اللاتينيين منهم ثمانية اساقفة من فرنسة. وبعد ذلك تقدم الملك يوحنا والاشراف الروم ونواب ملك الايباريين والمطارنة والاساقفة الروسيّين وغير هؤلاء وكانوا نحو خمس مئة شخص، وجثوا امام البابا وقبلوا يده. ثم اذاع البابا اوجانيوس الرابع مرسوم الايمان والاتحاد في كل صقع وكتب رسالة عامة إلى جميع الامراء والرؤساء في المعمور المسيحي يخبرهم بها عما اجمعت عليه الكنيسة الغربية والشرقية مبدياً سروره وآمراً بتقدمة الصلوات الخاشعة شكراً لله على ذلك. وتاريخ هذه الرسالة ٧ تموز سنة ١٤٣٩. وقد اثبتها لاباي في مجموعة المجامع مجلد ١٣. انتهى ملخصاً عن مجموعات المجامع لمنسى ولاباي وخاصة عن اعمال هذا المجمع التي جمعها احد علماء الروم باليونانية. وكان حاضراً في هذا المجمع وقد ترجمها إلى اللّاتينية العلامة الكردينال يوحنا منسي في تأليفه المذكور.

عد ٩٥١

ما كان بعد اتحاد الروم في هذا المجمع

ان البابا اوجانيوس الرابع اهدى إلى ملك الروم بعد تقرير الاتحاد كل ما كان وعد به من المساعدات، بل زاد عليه وسار الملك يوحنا باليولوغوس من فلورنسا في ٢٦ آب وصحبه ثلاثة كرادلة وكثيرون من الاساقفة إلى البندقية، وبلغ اليها في ٦ ايلول وسافر منها في ١١ تشرين الاول قاصداً القسطنطينية، ولم يبلغ اليها إلا في اليوم الاول من شباط سنة ١٤٤٠م وابقى البابا المجمع مفتوحاً وبقي فيه بعض اساقفة الروم. وفي ١٨ من كانون الاول سنة ١٤٣٩م رقي إلى مقام الكردينالية سبعة عشر كردينالاً منهم بساريون الشهير رئيس اساقفة نيقية الذي ذكرنا ترجمته، ثم ايسيدوروس متروبوليت كيوف رئيس اساقفة روسيا، وكان قد ولد بتسالونيك وانضوى في رهبانية القديس باسيليوس وصار رئيساً على دير القديس ديمتريوس في القسطنطينية إلى ان رقي الى رئاسة اساقفة روسيا، وباقي الكرادلة من اوروبا.

وفي شهر ايول سنة ١٤٣٩م بلغ إلى فلورنسا وفد من قبل قسطنطين بطريرك الارمن وكان هذا الوفد اربعة اشخاص احدهم اسقف يسمى يواكيم وثلاثة علماء

اسماؤهم سركيس ومرقس وتوما وبعد مقابلة البابا لهم مضوا إلى الملك يوحنا واخبروه بعزمهم على الاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية، فأظهر لهم ارتياحه الى ذلك وكانت رسالة البطريرك قسطنطين الى البابا مؤرخة في ٢٥ تموز سنة ١٤٣٨م ومما قاله فيها انه مرسل وفده إلى المجمع ابتغاء السلم والاتحاد بالكنيسة الرومانية كما كان بين القديس البابا سليبسترس والقديس غريغوريوس المنور، وبين الملك قسطنطين الكبير وتريدات ملك الارمن، وعين البابا بالاتفاق مع المجمع ثلاثة كرادلة وعدة من العلماء للمفاوضة مع الارمن، وكان البحث في ما يخالف الارمن به المعتقد الكاثوليكي واخصه اعتقادهم طبيعة واحدة في المسيح وانكارهم انبثاق الروح القدس من الابن. وبعد اثبات هذا المعتقد بآيات الكتاب واقوال الاباء القديسين اذعن الارمن واقروا بالايمان الكاثوليكي باسمهم واسم بطريركهم وامتهم. فأصدر البابا برأي المجمع براءته المعروفة بإرشاد الارمن مؤرخة في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٤٣٩.

وفي ٢٦ نيسان سنة ١٤٤١م أخبر البابا آباء المجمع أنه سيصل إلى المجمع عن قرب سفراء من قبل ملك الحبشة ابتغاء الاتحاد، وانه رغبة في تعزيز هذا المجمع ولدواع حميدة عزم ان ينقله من فلورنسا إلى رومة، ويعقد هناك بكنيسة لاتران. وفي شهر آب من السنة المذكورة وصل اندراوس رئيس دير القديس انطونيوس بمصر وبطرس الشماس نائبين عن يوحنا بطريرك اليعاقبة الاسكندري وعن قسطنطين زاداع يعقوب ملك الحبشة، وطلبا باسم الملك والبطريرك والشعب الخاضع لهما ان يُقبلوا بشركة الكرسي المقدس والكنيسة الرومانية. ومما كتبه البطريرك في رسالته: «انا الحقير يوحنا خادم خدام يسوع المسيح ومدبر كرسي القديس مرقس اي الاسكندرية العظمى ومصر كلها وليبيا والحبشة اجثو امامك ايها الاب الاقدس انت الحائز كمال الكهنوت والراعي الصالح جداً وامير الشرف والقداسة والقائد الورع لمن ساروا بطريق غربتنا هذه إلى سبيل الخلاص السيد اوجانيوس بابا رومة العظمى الراعي الرسولي لجمع الكنائس المسيحية والامير الوحيد للكنائس الاولى وللاباء ولكهنة المسيح، طبيب النفوس المعتلة. وتاريخ الرسالة ١٢ ايلول من القاهرة سنة ١٤٤٠م، فقبل البابا سفير الملك ونائب البطريرك في ٣١ آب في مجلس عام. ومما قاله سفير ملك الحبشة للبابا، إذا نظرت إلى عظمة قداستك وحقارتي تولاني الرعب فأنا انسان حقير تراب ورماد اتكلم امام نائب الله في ارضه وخليفة القديس بطرس وابي المؤمنين كافة ورئيسهم ومعلمهم الذي أعطي مفاتيح ملكوت السماء

ليفتح ويغلق لمن شاء، فأنت ملك الملوك واعظم الاسياد. وإذا تأملت في هذه الامور وما اشبهها ارتعت من ان اوجه كلامي الى قداستكم ولا سيما إذا راعيت مقدرتكم وحكمة اللاّتينيين الذين انصبوا من البدء الى الآن على درس الامور الالهية وتعليم يسوع المسيح، فاعتقدوا واستمسكوا إلى اليوم بما بلغه اليهم رئيسا الرسل بطرس وبولس الطوباويان. وأما الكنائس التي خلت من هذه الحكمة والنظام فأضاعت المبادئ الاساسية وانفصلت عن امها ومعلمتها فأسلمها الله لخزيها إلى غير المؤمنين، كما نرى في الروم والارمن وفينا نحن الاحباش اليعاقبة منذ انفصالنا من نحو تسع مئة سنة ولم تكن لنا الآن تعزية وسلوى من حزننا إلا بانه كما قبلتم الروم والارمن في وحدة الايمان الكاثوليكي تقبلوننا نحن ايضاً نظيرهم».

وفي الثاني من ايلول سنة ١٤٤١م اتى الى المجمع بفلورنسا وفد آخر من الاحباش ارسله نيقوديموس المتراس من قبل ملك الحبشة على الاحباش الذين في اورشليم، وتلا احدهم خطبة غرّاء معظماً شأن الحبر الروماني ومبيناً تعلقهم به وسرورهم بالانضمام إلى الكنيسة الرومانية ومعدداً المصائب التي اصابت من انفصلوا عن هذه الكنيسة، وموضحاً ان انفصالهم لم يكن عن خبث نية بل اوجبه البعد عن مركز الايمان وحرمانهم من رسائل او قصاد من قبل الحبر الروماني الى ان قال انهم لم يأتوا ليجادلوا البابا على حقيقة بل ليذعنوا لاحكامه. فأقام البابا لجنة تتفاوض مع الاحباش في عقائد الايمان ثم ابرز باثبات المجمع مرسوماً يتضمن ما يلزم الاحباش ان يعتقدوا به، وتلي هذا المرسوم في المجلس المنعقد في رابع شباط سنة ١٤٤٢م وأثبته لاباي في المجلد ١٣ من مجموعة المجامع، ووقع عليه وفود الاحباش من قبل البطريرك والملك ورئيس امتهم في القدس باسمائهم وبالنيابة عن الملك والبطريرك وملتهم، وأرجأ البابا الجواب إلى ملك الحبشة إلى ما بعد وصوله إلى رومة ولم يعثر احد على نسخة من هذا الجواب الى الآن.

وانتقل المجمع إلى رومة وكانت مجالسه تعقد في كنيسة مار يوحنا لاتران، وأتى اليه وفد من قبل اغناطيوس بطريرك السريان فانه ارسل باسمه واسم امته عبد الله رئيس اساقفة الرها سائلاً البابا ان يرسل اليه دستور الايمان الذي تعتقده الكنيسة الرومانية، فعين البابا بعض الاساقفة للمباحثة مع المطران عبد الله المذكور في مذهب البطريرك وشعبه، فوجدوا ان مذهبهم صحيح إلا في اعتقادهم ان الروح القدس ينبثق من الاب فقط، وان في المسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة

وفعلاً واحداً فبيّن اولئك الاساقفة للمطران عبد الله ما يلزم الاعتقاد به، فأبدى خضوعه وتسليمه من قبل نفسه وقبل بطريركه وشعبه بكلما تعتقد به الكنيسة الرومانية فأنشأ البابا مرسوماً يتضمن ما يلزم السريان اليعاقبة ان يؤمنوا به وتلي في المجلس الثلاثين من هذا المجمع واثبته لاباي في المجلد ١٣ من مجموعة المجامع.

ومن بعد ذلك ارسل البابا اوجانيوس اندراوس رئيس اساقفة رودس إلى المشرق لتثبيت الروم والارمن واليعاقبة في الاتحاد الذي جرى، واتى إلى قبرص ليرد الكلدان عن بدعة نسطور بان في المسيح اقنومين، وان العذراء لا تسمى والدة الله فوفق الله اندراوس المذكور إلى ان رد تيموتاوس متروبوليت الكلدان الى الايمان القويم مع شعبه، وأرسل الكلدان مطرانهم تيموتاوس إلى رومة ليقرر اتحادهم بالكنيسة الرومانية، وارسل ايليا مطران الموارنة كاهناً اسمه اسحق إلى البابا اوجانيوس الرابع ليجدد اقرار الموارنة بالايمان الكاثوليكي. وأتم تيموتاوس واسحق ما عهدا اليهما به شعباهما في اول شهر آب سنة ١٤٤٤م بمجلس عقده المجمع بلاتران، وأبرز البابا براءة بهذا الشأن مؤرخة في اليوم المذكور، وقد اثبتها لاباي في المجلد المذكور من مجموعة المجامع، وهذا جعل بعض المؤرخين يظنون ان نائب اسقف الموارنة ايضاً جحد ضلالاً كان الموارنة سكان قبرص ملوثين به، فلم يميزوا بين من ارعوى عن ضلال ومن جدد الاقرار بإيمانه. وهذا بيّن من براءة البابا اوجانيوس المذكورة نفسها وسنأتي على رد هذه التهمة للموارنة في الملحق الاتي في تاريخهم في هذا القرن.

على ان هذا الاتحاد الذي عُني به اوجانيوس الرابع كل هذه العناية ووقع عليه ملك الروم واساقفتهم واقسموا عليه لم يثبت ولم يقبله شعب الروم بدسائس مرقس رئيس اساقفة افسس لانه مذ عوده إلى كرسيه اخذ يختلق اكاذيب ومطاعن بحق المجمع واللاتينيين مظهراً انه كان بطل الكنيسة الرومية في مناصبتهم وانتصاره عليهم وعدم انقياده لرأيهم. ومتروفان الذي خلف يوسف بطريرك القسطنطينية الذي توفي في المجمع قد قاومه المعاندون ومات كمداً سنة ١٤٤٣م والملك يوحنا باليالوغوس كان واهن العزيمة، فلم يقوَ على مقاومة المخالفين واستمر كرسي القسطنطينية فارغاً ثلاث سنوات، وفي آخرها تجشم غريغوريوس خلف متروفان هذا العبء المحفوف بالمكاره وبذل مجهوده بالاتحاد ولكن مات الملك وخلفه قسطنطين الثاني عشر باليالوغوس لا ليملك بل ليشهد جنازة مملكة الروم التي قرضها السلطان محمد الثاني العثماني سنة ١٤٣٥م بفتحه القسطنطينية رغماً عن مساعدة البابا اوجانيوس

الرابع والبابا نيقولاوس الخامس على حفظ مملكة الروم فإن اوجانيوس الرابع جهز اسطولاً مؤلفاً من خمسين مركباً ووجهه إلى نحو البوسفور نجدة لملك الروم وجمع ملك بولونيا والمجر جيشاً كبيراً بايعاز البابا وعبر الدانوب ظافراً، وبلغ إلى صوفية عاصمة بلغاريا وانتصر بوقعتين على اعداء الروم. وكل ذلك لم يؤثر بمكابرة شعب الروم على مخالفة الكنيسة الرومانية بل تغلب رأيهم على دوام الانفصال عنها وجذبوا اليهم من كانوا وقّعوا على الاتحاد فاستمر هذا الانقسام الممقوت إلى اليوم.

وقد مر ان يواكيم بطريرك اورشليم قد نبذ كل ما كان في المجمع الفلورنسي واتفق مع بطريركي الاسكندرية وانطاكية وكتبوا إلى الملك يوحنا رسالة هددوه بها بالحرم ان لم يرعوِ عن الاتحاد، لكننا نعلم من جهة اخرى ان بطاركة هذه المدن كانوا سنة ١٤٦٠م يودون الخضوع للكرسي الرسولي، واوفدوا إلى البابا بيوس الثاني موسى رئيس شمامسة انطاكية مقرين بسلطة الحبر الروماني فقبل البابا سفيرهم بالتكريم واجاب البطاركة جواباً حسناً كما ذكرنا في عدد ٩٤٣ لكن هذا الاتحاد ايضاً لم يدم إلا قليلاً.

وقد كان نكث الروم عهد الاتحاد بالكنيسة الرومانية معثرة لغيرهم من الملل الشرقية فإن السريان اليعاقبة الذين كان بطريركهم اغناطيوس الثاني قد عادوا إلى ما كانوا عليه من البدعة واستمروا عليه إلى ان اهتدى إلى الايمان القويم اندراوس اخيجان الحلبي اليعقوبي على يد البطريرك يوسف العاقوري بطريرك الموارنة في اواسط القرن السابع عشر ودرس العلوم بمدرسة الموارنة برومة ورقاه يوحنا الصفراوي بطريرك الموارنة الى الاسقفية سنة ١٦٥٦م، وأرسله إلى حلب مع القس اسطفانوس الدويهي (وهو الذي صير بطريركاً على الموارنة سنة ١٦٧٠م) فرد بعض اليعاقبة إلى الايمان الكاثوليكي. ولما توفي اغناطيوس سمعان بطريرك اليعاقبة سنة ١٦٥٩م صير اندراوس بطريركاً على السريان سنة ١٦٧٨م وبه ابتدأت سلسلة بطاركتهم.

وكذلك الارمن فإنهم بعد اتحادهم في مجمع فلورنسا رجعوا إلى ضلالهم ولم يبقَ منهم على الإيمان الكاثوليكي إلا قلائل، وكانوا قد اتحدوا مرات قبل ذلك فنكلوا الى ان صير عليهم بطريركاً ابريهام العنتابي سنة ١٧٣٩م على كيليكيا، واتخذ السكنى بدير المخلص بالكريم بعمل كسروان، ثم خلفاؤه دير بزمار، وكذلك فعل الاحباش والقبط فانهم بعد اتحادهم في المجمع الفلورنسي نكثوا عهدهم ثم اتحدوا في ايام البابا غريغوريوس الثالث عشر في اواخر القرن السادس عشر، إذ

ارسل هذا البابا اليهم قاصداً فأدخلهم في طاعة الكنيسة الرومانية، ثم نكثوا إلى ان اقام البابا بناديكتوس الرابع عشر اسقفاً عليهم اتناسيوس القبطي اسقف اورشليم بموجب براءته المؤرخة في ٤ آب سنة ١٧٤١م هذا في القبط وأما الاحباش فرجع بعضهم من عهد ليس بمديد ويدبرهم نائبان رسوليان احدهما من اللعازاريين والاخر من الكبوشيين ويُناط امرهم بمجمع نشر الايمان المقدس.

اما الكلدان القبرصيون الذين اتحدوا كما مرَّ فقد غادروا الايمان الكاثوليكي ورجعوا الى غيهم، واثبت لاباي رسالة من البابا نيقولاوس الخامس إلى اسقف نيقوسية ونقلها عنه بارونيوس في تاريخ سنة ١٤٥٠م فحواها ان ينبه الكلدان المذكورين ان يعودوا إلى ما عهدوا به على انفسهم في ايام اوجانيوس، وان اصروا بفصلهم عن شركة المؤمنين فلم يرعووا انتهى.

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الخامس عشر

عد ٩٥٢

بعض مقدمي الموارنة في القرن الخامس عشر وما كان في ايامهم

كان حكام الموارنة في هذا العصر يسمون مقدمين وممن عرفنا شيئاً من اخبارهم في هذا القرن يعقوب ابن ايوب مقدم بشري، فقد ذكرنا قبلاً ان الملك الظاهر برقوق نصبه مقدماً على بشري. وروى البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخه انه بقي حاكماً إلى ان توفي سنة ١٤٤٤م وكانت مدة ولايته ٦٢ سنة وخلفه في المقدمية اولاده المقدمون سيفا وقمر ومزهر وزين وبدر على ما في تاريخ الدويهي المطبوع بيروت. ولكن في النسخة الخطية التي لدينا من هذا التاريخ: «سيفا وهو زين (اي الملقب بزين) وقمر وهو بدر ومزهر واجروا العدالة في حكومتهم. فاستراح اهل البلاد في ايامهم كما كانوا في ايام والدهم.

وأما اولاد المقدم يعقوب فبعد وفاة احدهم سيفا خلفه في المقدمية ابنه عبد

المنعم الاول ثم توفي سنة ١٤٦٩م فخلفه رزق الله ابن اخيه جمال الدين بن سيفا ابن يعقوب، ثم توفي رزق الله هذا سنة ١٤٧٢م وخلفه ابن اخيه عبد المنعم الثاني ايوب بن عساف ابن جمال الدين. هذا ما رأيناه في النسخة التي لدينا من تاريخ الدويهي. ونرى هذه الرواية اصح مما جاء في التاريخ المطبوع من ان وفاة رزق الله كانت سنة ١٤٦٢م دون ذكر ولايته ولا ولاية عبد المنعم الاول، ومع ذكر وفاته مرة اخرى سنة ١٤٧٢م. قال البطريرك الدويهي أنه في ايام هؤلاء المقدمين استتبت الراحة بلبنان وكثر العمران وانشئت الكنائس والمدارس حتى كان في قرية الحدث ستماية زوج بقر، وفي الحارة العليا من اهدن سبعون بغلاً. وقد احصينا اسماء من كانوا من النساخ في ذلك العصر ممن وقفنا على كتبهم فاذا هم ينيفون على مئة وعشرة نساخ. وفي ذلك الوقت اهملوا الخط الاسترانكالي المربع وتمسكوا بالسرياني المدور، ولما ظهرت اخبار ما ساد بلبنان من الامن والراحة قصده كثيرون من البلاد البعيدة للسكنى فيه مثل اولاد جمعه الذين تركوا عين حليا وتوطنوا في بشري، واولاد ايليا واخوهما الشدياق جرجس اولاد الحاج حسن انتقلوا من نابلس إلى حدشيت، والقس يعقوب ورفقاؤه هاجروا من الحبشة وترهبوا في دير مار يعقوب باهدن، ولذلك سمي دير الاحباش اضافة اليهم.

وفي سنة ١٤٧٨م وقع الشقاق في جبل لبنان بسبب المقدم عبد المنعم ايوب المار ذكره، فإن عبد المنعم هذا تعلم القراءة في ايام عمه المقدم رزق الله عند كاهن يعقوبي، ولما توفي عمه وخلفه في المقدميّة كان يتردد اليه تاجر اسمه موسى بن عطشه (كذا في نسخة تاريخ الدويهي التي لدينا، وكانت بيدي ذي الذكر الصالح البطريرك بولس مسعد مصححة بيده لا عطية كما في طبعة هذا التاريخ). وكان موسى المذكور مغوياً ببدعة الطبيعة الواحدة وقد اشعر ان المقدم كان فاتراً في دينه فأرسل اليه هدايا مع قسوس يعاقبة بفرصة عرسه، وهم اكثروا من الهدايا له والتودد اليه، فأحبهم وبنى لهم كنيسة بقرب داره على اسم برصوما. واتفق حينئذٍ ان اقدم من القدس القس نوح البقوفاوي (الذي ذكرنا ترجمته وسكن في الفراديس بأرض قرية بان واغوى بعض الاميين في عقائد الايمان، واستهواهم الى التعلم والرهبانية عنده، منهم عيسى وابن شعبان من حردين وموسى واخوه حنا ابنا ابراهيم ابن الحاج موسى من بقوفا، وسيما وابنه جرجس من لحفد، وموسى من قرية موسى، ودس فيهم سم بدعة اليعاقبة وسعى بارتقائهم إلى درجة القسوس على يد استاذه

ديوسقوروس اسقف بيت المقدس فصاروا يرسمون اشارة الصليب باصبع واحدة دلالة على الطبيعة الواحدة، ولا يذكرون في شملاية القداس إلا ثلاثة مجامع. ولما بلغ خبرهم إلى البطريرك بطرس الحدثي ارسل اليهم كهنة ورؤساء كهنة ينهونهم عن هذا الطغيان فلم ينتهوا وحمى جانبهم المقدم عبد المنعم والغرباء الذين قدموا من صفد ونابلس والحبشة، وعظم الشقاق في البلاد وتهدد المقدم عبد المنعم من اعترض لهم بالنفي من بلاده وضبط املاكه.

إلا انه في سنة ١٤٨٨م مل يعقوب اسقف اهدن واهلها من انذار القس يعقوب والاحباش القاطنين بدير مار يعقوب باهدن ليرعووا عن ضلالهم وعن بثه بين العامة فلم يقلعوا عن غيهم، فرَقّوا إلى درجة الاسقفية ابراهيم بن حبلص وانزلوه عليهم في الدير فلم يتحملوه ليحكم فيهم، فرحلوا إلى وادي حدشيت وجعلوا نفوسهم تحت حماية الشدياق جرجس ابن الحاج حسن، وأسكنوا في دير مار جرجس وسمي دير الاحباش اضافة اليهم، فشق امرهم على الشدياق جرجس الذي كان شيخ حدشيت وعلى المقدم عبد المنعم، ولما لم تكن لهم مقدرة على مناوأة اهل اهدن استنجدوا باولاد زعزوع مقدم بشناتا فجمع هؤلاء رجال الضنية وقصدوا اهدن في صباح الاحد، وعلم اهل اهدن بقدومهم فأقاموا لهم كميناً في حمينا، ولما نزل رجال الضنية من الجبل وثب عليهم الكمين فأهلك كثيرين منهم. وتتبع اهل اهدن من بقي منهم فيهم الى مرجة تولا ولما علم اليعاقبة بذلك ضربتهم ايدي سبا وتشتت شملهم، وفر بعضهم إلى حردين وبعضهم إلى كفرحورا وبعضهم ساروا الى قبرص، وارتحل القس يعقوب ورفقاؤه إلى دير مار موسى في البرية.

وفي سنة ١٤٩٣م عاد جبرائيل ابن القلاعي اللحفدي من اوروبا اذ كان قد انضوى إلى رهبانية القديس فرنسيس سنة ١٤٧١م وارسلوه إلى احد اديارهم لاقتباس العلوم، وعند عودته اخذ ينصح ويعلم من كانوا على غير هدى او امين، ويخاصم من زاغوا عن الايمان ويندد بهم بخطبه ورسائله واشعاره. ومنها قصيدة لأهل بشري يقول فيها مخاطباً هذه القرية:

وانـت مـن شـار عـلـيـك	حتى دخل يعقوب فيك
مـن تجديفه حـل عـلـيك	غـضـب الله فـي ذاك الآن
فـاذاً تـوبـي يـا حـره	واطـردي الـغـربـا إلـى بـرا

ويعقوب جسمه يتهرى   ومارون اقبليه في الاحضان

ثم كتب في سنة ١٤٤٩م كتاباً سماه مارون الطوباوي وأنفذه إلى البطريرك سمعان الحدثي واساقفته يثبت فيه اتحاد الملة المارونية في كل وقت بالكنيسة الرومانية، ويفند زعم من قال ان الموارنة فرقة من اليعاقبة.

وفي سنة ١٤٩٥م توفي المقدم عبد المنعم ايوب فظهر ان الله عاجله بالمنية كيلا يتأصل الشقاق في جبل لبنان، وتولى المقدمية على بشري بعده ولده جمال الدين يوسف، وكان راسخاً في الايمان القويم وامرأته اصلحت كنيسة مار حوشب في بقاعكفرا عندما خربت حنيتها.

وافادنا الدويهي ايضاً انه كان في العاقورة في اواسط هذا القرن خليل بن مقلد على العاقورة وبنى القبو الذي عند عين القرية وأقام فوقه برجاً.

عد ٩٥٣

بطاركة الموارنة في القرن الخامس عشر

فرغنا من الكلام في بطاركة الموارنة في القرن الرابع عشر بذكر البطريرك داود المسمى يوحنا، وقلنا انه توفي سنة ١٤٠٤م. قال لكويان ذكر الدويهي ان داود خلفه يوحنا العاشر وكان من جاج ولا يعلم هل خلفه بعد وفاته او فرغ الكرسي البطريركي زماناً طويلاً إلى ان انتخب يوحنا الجاجي المذكور. والمعلوم انه لما وصلت اليه رسالة البابا اوجانيوس الرابع للدعوة إلى المجمع الفلورنسي ارسل الاب جوان (يوحنا) رئيس رهبان القديس فرنسيس في بيروت الى البابا يحقق له طاعته للكرسي الروماني وخضوعه لكل ما يسنه المجمع ويلتمس درع الرئاسة وتثبيته في بطريركية انطاكية على الموارنة. قال الدويهي (فصل ١١ من كتاب رد التهم) ان هذا البطريرك كان قد تولى رئاسة الكرسي الانطاكي قبل انعقاد المجمع المذكور لكنه لم يستطع ان يستمد التثبيت من رومة بسبب ما كان من المخاوف والمخاطر على من يسافر بحراً ولعدم وجود من يحسن معرفة اللغات الفرنجية إلى ان حضر اليه الاب يوحنا المذكور، وأعلمه بنهاية مدة رئاسته وإزماعه على السفر إلى رومة فاوفده البطريرك الى الحبر الروماني ورفع اليه معه عريضة مشفوعة بعرائض اخرى

من الاساقفة واعيان الملة يجاهرون فيها تثبيتهم بعرى الايمان الكاثوليكي المقدس وباذعانهم لكل ما يسنه المجمع ويلتمسون تثبيت بطريركهم. قال المطران جبرائيل ابن القلاعي في الكتاب الذي رفعه إلى البطريرك سمعان الحدثي سنة ١٤٤٩م: «ان ايمانكم وخطوط ايديكم منذ مئتين وثمانين سنة وصاعداً محفوظة برومة وهي المرسلة على يد فراغريفون وفرا اسكندر وفرا سمعان ومن قبلهم على يد فرا يوحنا رئيس دير بيروت، ووكيل بطريرككم يوحنا الجاجي الى مجمع فلورنسة ومن قبله الخ» فثبّت البابا اوجانيوس يوحنا الجاجي في بطريركية انطاكية وأرسل اليه صحبة قاصده تاجاً ودرعاً. وقال المطران جبرائيل ابن القلاعي في ذلك:

يوحنا الجاجي كان بطريك اقتبل من البابا تاج وتبارك

بعث للمجمع ولم يتحرك وثبته لمارون في رعيان

ولما رجع قاصد البطريرك، انحدر الشعب الى لقائه في طرابلس بمسرة وابتهاج فتوهم نائب المدينة انه جاسوس من قبل الفرنج فقبض عليه وعلى رفقته وأودعهم السجن، وعرف البطريرك ذلك وكان قاطناً بدير سيدة ميفوق في وادي ايليج من اعمال البترون فأرسل قوماً من اعيان الملة ليوقفوا النائب على الحقيقة ويزيلوا ما توهمه فأخرجوا القاصد ومن كان معه من السجن بكفالة، فصعد فرا يوحنا الى دير ميفوق وبلغ البطريرك رسالة البابا والبسه درع الرئاسة ثم سار إلى بيروت فطلبه نائب طرابلس فلم يجده فحنق حنقاً شديداً وأرسل عسكراً في جلب البطريرك والكفلاء فانهزموا، فنهب العسكر الدير واحرقوا البيوت وقتلوا كثيرين، واخذوا البعض مقيدين بالسلاسل الى طرابلس ومنذ ذلك الحين هجر البطريرك دير ميفوق وأقام بدير قنوبين تحت حماية يعقوب مقدم بشري المار ذكره.

ثم دعا البطريرك احد رهبان القديس فرنسيس اسمه بطرس من فرارا وارسله الى البابا اوجانيوس في شهر آب سنة ١٤٤٠م، وكتب اليه معه رسالة ضمنها الشكر لتكرمه عليه بالتثبيت وتحقق طاعته وطاعة امته للكرسي الرسولي في كل وقت، والخبر عما جرى لهم عند وصول قاصده إلى طرابلس وما قاسوه من الاضطهاد لذلك، فأرسل اليه الحبر الروماني الجواب مؤرخاً في ثاني كانون الاول من سنة ١٤٤١م. وسنذكر رسالة البابا اوجانيوس هذه في محل اخر ثم توفي البطريرك يوحنا الجاجي في دير قنوبين سنة ١٤٤٥م وهو اول من سكن دير قنوبين

من بطاركة الموارنة. وخلفه يعقوب الثاني الحدثي. قال لكويان نقلا عن البطريرك اسطفانوس الدويهي في اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك يوحنا الجاجي اجتمع الاساقفة ورؤساء الاديار واعيان الشعب في دير قنوبين وانتخبوا يعقوب بن عيد من الحدث بطريركاً وكان منذ صغر سنه قد تربى في السيرة الملكية بمحبسة القديس سركيس شرقي دير مار يوحنا المعروف بدير مار ابون، وكان لرئيس هذه المحبسة الرئاسة على جميع الحبساء في جبة بشري. وبعد انتخابه ارسل قاصداً الى البابا اوجانيوس الرابع يسأله ان يمن عليه بتثبيته في البطريركية وبارسال درع الرئاسة. واتفق ان مات البابا اوجانيوس الرابع سنة ١٤٤٧ فارسل اليه البابا نيقولاوس الخامس براءة التثبيت وكانت محفوظة في دير قنوبين في ايام البطريرك اسطفانوس الدويهي، وربما هي اليوم باقية في الكرسي البطريركي، وربما كانت هي البراءة التي روى الدويهي في تاريخه ان البابا نيقولاوس الخامس ارسلها سنة ارتقائه الى الحبرية الى هذا البطريرك يطلب اليه ان يدعو له وان يوصي شعبه ليقتدوا باسلافهم في المحافظة على الاتحاد بالكنيسة الرومانية، وانه إذا احتاج الى شيء فليستشر اندراوس اسقف الافقسية بقبرص فهو نائبه بهذه الجزيرة ثم توفي البطريرك الحدثي في ٨ شباط سنة ١٤٦٨م.

ومن التعليقات على كتاب الاناجيل القديم الذي كان في بطريركية الموارنة وهو الان في المكتبة الماديشية ما نقله المطران اسطفان عواد السمعاني عنه في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة المذكورة وهو بحروفه: «لما كان تاريخ سنة ١٧٧٣ من سنين اسكندر (سنة ١٤٦٢م) اوقف البطرك يعقوب العصا البور للدير المبارك قنوبين، وعن الاب البطريرك بطرس اي من خرجها من الدير المبارك، او قالها انها له او يرهنها او يبيعها يكون محروم مفروز مغضوب ومسخوط من الله ومن كرسي مار بطرس ومن جميع الكراسي ومن حقارتنا». وورد ذكر هذا البطريرك في خط اخر على هامش الكتاب المذكور صفحة ١٩ وهو بحروفه «لما كان تاريخ سنة ١٧٧٢ من سنين اسكندر اليوناني سنة (١٤٦١م) اوقف الخوري جرجس والخوري هلال القاطنين في دير حوقا اوقفوا من تعبهم وعرق جبينهم للدير المبارك سيدة قنوبين الدست الكبير وجعلوه تذكاراً صالحاً عن نفسهم في الدنيا والاخرة ورحمهم الله آمين... وكان الوقف في ايام ابونا ومعلمنا ورئيسنا وتاجنا ومدبرنا البطريرك مار يعقوب الحدثي رحمه الله ويرحمنا في بركة صلاته آمين.

والناتج من هذين الخطين ان البطريرك يعقوب الحدثي استمر حياً إلى ما بعد

سنة ١٤٦٢م لانه توفي سنة ١٤٨٥م كما في تاريخ الدويهي المطبوع. وفي النسخة المخطوطة التي لدينا وأظن ان المرحوم البطريرك بولس مسعد اغتر لهذه النسخة حتى جعل وفاة البطريرك يعقوب الحدثي سنة ١٤٥٨م ومثله طابع تاريخ الدويهي. واظن ايضاً نقل كلامه عن الدويهي ومع ذلك عين لوفاته سنة ١٤٦٨م كما ذكرناها عنه وايد رأينا الخطان المذكوران.

وفي اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك يعقوب اجتمع الاساقفة والرؤساء والاعيان فانتخبوا الاسقف بطرس بطريركاً وعرفه الدويهي في تاريخه بانه بطرس ابن يوسف ابن يعقوب الشهير بابن حسان. وقال في الفصل ١٣ من الاحتجاج انه كان اخا البطريرك يعقوب المتوفي وأرسل البطريرك والأساقفة، وفرا غريفون الذي قدمنا ترجمته الى البابا بولس الثاني يلتمسون اثبات البطريرك ومنحه درع الرئاسة. هذا ما رواه الدويهي ونقله عنه لكويان واردفه بقوله ان في كتاب وصف الارض المقدسة لكوارزميوس (في اخر المجلد ٢) رسالة من البابا بولس الثاني الى هذا البطريرك مفتتحة: «بولس الاسقف عبد عبيد الله الى الاخ المحترم بطرس بطريرك الموارنة المسمى انطاكياً السلام والبركة الرسولية ان اله القوات القادر على كل شيء» إلى ان يقول: «ولما كنا لا نشك في انك مستعد لقبول هذه التعاليم وغيرها من الاوامر الرسولية بِدِعَةٍ وطيبة خاطر قد اردنا اقتفاء بآثار اسلافنا الصالحي الذكر اينوشنسيوس الثالث وأوجانيوس الرابع ان نثبت انتخابك ونسميك ونرقيك الى رئاسة كنيسة الموارنة الانطاكية وان نؤيد كل ما كان قبلاً ونثبت جميع الحقوق والعادات الممدوحة الآئلة لنفعك ونفع اسلافك وفائدة الطائفة المارونية... ونسلم اليك الاهتمام بهذه الطائفة في الروحيات والزمنيات.

اعطي برومة حذاء كنيسة القديس بطرس في شهر آب سنة ١٤٦٩م وهي الخامسة لحبريتنا.

ومن الخطوط المعلقة على كتاب الاناجيل المذكور خط علق على صفحة ٢٠ منه وهذا هو بحروفه. «لما كان تاريخ سنة ١٨٠٤ يونانية (سنة ١٤٩٣م) اوقف الاب البطريرك بطرس بن داود بن حسان من قرية الحدث البدلة الحمرا وايضاً العصاة والعكاز الفضة واوقفهم بعد موته عن نفسه لدير الست السيدة قنوبين فأي من يرهنهم او يبيعهم او يشتريهم او يخرجهم من الدير بغير رجعة تكون هذه

الحرومات المذكورة حالة عليه وعلى هامته، ويكون ممنوع محروم مفروز مغضوب مسخوط من الله تعالى ومن كرسي مار بطرس رئيس التلاميذ ومن جميع الكراسي ومن حقارتنا. وشهد على ذلك الاب المطران جرجس من جاج شهد بذلك الاب الخوري سمعان ابن عميد من قرية الحدث. شهد بذلك الاب الخوري يعقوب من قرية الحدث شهد بذلك العبد الحقير كاتبه دانيال.

قال لكويان توفي البطريرك بطرس في ١٢ شباط سنة ١٤٩٢م والذي في تاريخ الدويهي انه توفي في ١٢ تشرين الاول سنة ١٤٩٢م ولا تعلم اي الروايتين هي الاصح والظاهر من الخط المذكور انه لم يكن حياً سنة ١٤٩٣ لان البطريرك بن داود هو البطريرك سمعان الآتي ذكره لا بطرس بن يوسف الذي كان قد توفي قبلاً.

وفي اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك بطرس اجتمع الاساقفة وانتخبوا خلفاً له الاسقف سمعان الحدثي ابن داود بن يوسف بن حسان الحدثي وهو ابن اخي البطريرك بطرس، وبعد انتخابه بطريركاً ارسل يطلب تثبيته وفصل الدويهي ذلك في الفصل الخامس عشر من كتاب رد التهم عن الموارنة فقال ان هذا البطريرك لم يفتر بعد انتخابه بطريركاً من ارسال الرسائل إلى رومة يطلب تثبيته على يد الاب فرنسيس سوريانوس رئيس اديار القدس، ونائب الباباوات اسكندر السادس وبيوس الثالث ويوليوس الثاني ولاون العاشر، وعلى يد الاب ارسان والاب اسكندر من رهبان القديس فرنسيس اللذين كانا قد حضرا الى البطريرك، إلا انه لم يأته الجواب بسبب ما كان حينئذ من اخطار السفر بحراً، والحروب في بلاد الشام، وتعاقب الباباوات في مدة يسيرة. ففي سنة ١٥١٣م ارسل البطريرك كاهناً اسمه بطرس الى الاب مرقس رئيس رهبان القديس فرنسيس في بيروت يستلم منه عن وقت عود السفن الراسية في مرفأ بيروت الى اوروبا ليرسل معها رسالة يطلب بها التثبيت. فعند وصول القس بطرس إلى بيروت كانت تلك السفن متحفزة للسفر وقد رفعت اناجرها فاقنع الرئيس القس بطرس ان يسافر الى رومة مع تلك السفن ودفع اليه كتاباً الى البابا لاون العاشر اخبره به ان الامة المارونية هي من اقدم الايام مطيعة للحبر الروماني في كل شيء، وان بطريركها ارسل عدة دفعات يطلب التثبيت فلم يتيسر له نيله، وذكر له اضطرار سفير البطريرك ان يسافر بغتة. وسأل ولما لم يستطع ان يجيب البابا وآل مشورته عما سئل عنه ارجعوه إلى بيروت برسالتين احداهما

إلى البطريرك والثانية الى رئيس رهبان القديس فرنسيس في بيروت وانتخابهم البطريرك، وهل عندهم براءة او رسائل من الاحبار الرومانيين السالفين.

وفي بداية سنة ١٤١٤م عاد القس بطرس الى لبنان وأرسل البطريرك يخبر الاب فرنسيس سوريانوس والاب مرقس رئيس دير بيروت بما كان فسار الاب فرنسيس الى قنوبين وصحب معه ترجماناً فترجم رسالة البابا الى العربية وكتب البطريرك الجواب مشيعاً إلى البابا فترجم الى اللاتينية. قال الدويهي ونسخة هذا الجواب اللاتينية لم تزل مصونة عندنا إلى الآن وهي تتضمن اولاً الاقرار بأن الله واحد مثلث الاقانيم وان كلمة الله تجسد وتألم ومات وقام في الجسد الذي اخذه من مريم. ثانياً ان انتخاب البطريرك الجديد يكون باجتماع رؤساء الكهنة واعيان الشعب. ثالثاً انهم يقدسون الميرون على الطريقة القديمة. رابعاً شرح الرتب البيعية والحلل الكهنوتية وما تشير اليه. خامساً ان جميع البطاركة الذين سلفوا قبله كانوا خاضعين لصاحب الكرسي الروماني مع شعبهم كافة. سادساً طلب التثبيت لنفسه مع بدلة كاملة وصليب وخاتم واوجه للمذبح واربعة دروع للشمامسة على شبه التي ارسلها قديماً البابا اينوشنسيوس الثالث ثم اوجانيوس الرابع. سابعاً ان يرسل حيناً بعد حين رجالاً فضلاء علماء لافتقاد الموارنة وتوثيق عرى الاتحاد بينهم وبين الكنيسة الرومانية. ثامناً ان يمنع اسقف الفرنج في قبرص عن التعدي على اوقاف الموارنة في هذه الجزيرة. تاسعاً ان يوصي حكام قبرص من البنادقة ان يعاملوا بالرقة واللين من لجأ اليهم من النصارى. عاشراً ان يكتب رسالة الى المقدم الياس المدعو عساف بن يوسف من بشري لتكون له الغيرة على جماعته اهل لبنان. حادي عشر ان يمنح بعض الغفارين الكاملة للموارنة تنشيطاً لهم وانهاضاً لهمتهم في بناء الكنائس.

ثم بعث البطريرك مع قاصده إلى الحبر الروماني ست براءات من البراءات التي ارسلها اسلافه إلى بطاركة الموارنة اعني براءة البابا اينوشنسيوس الثالث الى البطريرك ارميا في سنة ١٢١٥م، وبراءة البابا اسكندر الرابع الى البطريرك شمعون سنة ١٢٥٦م، وبراءة اوجانيوس الرابع الى البطريرك يوحنا الجاجي سنة ١٤٣٩م، وبراءة البابا نيقولاوس الخامس الى البطريرك يعقوب الحدثي سنة ١٤٤٧م، وبراءة البابا كاليستوس الثالث الى البطريرك المذكور سنة ١٤٥٥م، وبراءة البابا بولس الثاني الى البطريرك بطرس الحدثي سنة ١٤٦٤م. وكانت عريضة البطريرك مؤرخة في ٨ من

اذار سنة ١٥١٥م. وكتب الاب سوريانوس ايضاً الى الحبر الاعظم مصادقاً على ما عرضه البطريرك من صحة عقيدتهم وثبوتهم في الايمان الكاثوليكي.

وسار القس بطرس راجعاً إلى رومة ورفع الى البابا لاون العاشر ما كان معه من الرسائل فسرَّ بها واجاب البطريرك في اليوم الاول من آب سنة ١٥١٥م ومما قاله في جوابه: «قد سررنا وطابت نفسنا بتلاوة رسائلك وسماعها وامتلأ فؤدانا طرباً لا يوصف، فترتب علينا ان نمجد الله تعالى ونشكره بمجموع قوانا على ما اولاكم من نعمه وسوابغ آلائه لانه اصطفاكم من بين كنائس المشرق لتعبدوه بايمان وصانكم في بهرة الكفر والبدع كما صين الورد بين الشوك ليتمجد اسمه بين غير المؤمنين، وقد تشبثتم بعادات الكنيسة الجامعة الرومانية وبرتبها بنقاوة لا ريب فيها ولم تزيغوا عن الايمان بالمسيح بسبب الضيم والضنك والاضطهاد الذي يلم بكم على ما علمنا من كتابكم، ورسالة الاب فرنسيس سوريانوس واثبته في البطريركية، وأرسل اليه مع القس بطرس المذكور درع الرئاسة وأوصاه ان يكون للموارنة مكان الراس وهم مكان الاعضاء، وامره ان لا يستعملوا في الميرون إلا الزيت والبلسم، كما تسلمت الكنيسة من الرسل الاطهار وكما تعهد قديماً البطريرك ارميا في ايام اينوشنسيوس الثالث ان يكون تقديس الميرون كل سنة يوم خميس الاسرار، وان يعتقدوا ان الروح القدس ينبثق من الاب والابن كمن مبدأ واحد، وان يتناولوا القربان الاقدس ولو مرة في الفصح. وأرسل تاجاً مرصعاً وغفارتين احداهما قرمزية والاخرى مخملية حمراء وبطراشيلين، وغطا للمذبح من مخمل احمر مزركش وستاراً للكرسي، وزناراً من حرير وقميصاً، وبعث ايضاً لشمامسته مدرعتين ممرعزتين ومدرعتين حمراوين مزركشتين.

ثم كتب لاون العاشر اليه رسالة اخرى في اول ايلول من السنة المذكورة اعلمه فيها انه ارسل كتاباً الى ليوندروس امير البندقية اوصاه فيه بالموارنة القاطنين بقبرص وكتاباً اخر إلى المقدم الياس الماروني يوصيه فيه بالغيرة على امور الدين وبالاجتهاد على نجاح طائفته، وكتاباً آخر الى مطران الافقسية ينهاه به بأمر الطاعة على الاعتداء. وكتب اعلاماً عاماً في ان الكنيسة المذكورة وسائر اوقاف الموارنة بقبرص يكون وليها بطريرك الموارنة، وان من اعتدى عليها يسقط بالحرم، وان كان المعتدي سقفاً فيكون مربوطاً. ثم منح غفراناً كاملاً مؤبداً لكل من يزور كنيسة الكرسي لبطريركي في عيد انتقال العذرا وعيد ميلاد يوحنا المعمدان وعيد الرسولين بطرس

وبولس وعيد ارتفاع الصليب إذا اعترف وتناول القربان الاقدس واحسن بشيء إلى الكرسي البطريركي، وفوض المعرفين ان يحلوا من الخطايا المحفوظ حلها للرؤساء وان يبذلوا النذور باعمال اخرى صالحة ما خلا نذري العفة ودخول الرهبانية. وعاد القس بطرس بهذه المنح الى البطريرك فكان ذلك موجباً للسرور والابتهاج للبطريرك والملة جمعاء.

وفي السنة المذكورة انتهت مدة رئاسة الاب يوحنا من رهبانية القديس فرنسيس على دير بيروت فتوجه إلى البطريرك سمعان الى قنوبين وأقام عنده بضعة ايام، فأرسل البطريرك معه إلى رومة الخوري يوسف وراهبين ليتعلما اللغة اللاتينية والعلوم وصحبهم برسالة الى البابا فبلغوا المدينة العظمى حين انعقاد المجمع اللاتراني الخامس فتليت رسالة البطريرك بالعربية ثم ترجمتها الى اللاتينية في المجمع، ودونت في اعمال المجلس الحادي عشر منه، وأمر البابا بأن ينزلوا عند الكردينال ستاكروس عند كنيسة مار اغوسطينوس، وعند ما طلب الخوري يوسف ان يقدس امر الكردينال بأن يفحص كتاب القداس فلم يوجد في رومة من يحسن اللغة السريانية إلا رجل اسمه تاسيوس امبروسيوس كان يعرف هذه اللغة بسبب مخالطته للعبرانيين. هذا ما رواه الدويهي في كتاب الاحتجاج وكان قد روى في تاريخه ان تاسيوس المذكور درس السريانية على قصاد البطريرك، والعبرانية على رجل يهودي حينئذ اخذ الاوروبيون يدرسون السريانية.

ولما توفي البابا لاون العاشر سنة ١٥٢١م وخلفه البابا اوربانوس السادس ارسل البطريرك شمعون اليه القس موسى العكاري رئيس دير حوقا والراهب الياس بن زرزور الحدثي ناظر املاك دير قنوبين، فحلّا برومة عند الكردينال برنردينوس سنتاكروس اسقف استيا، ثم رفعا الى البابا عريضة البطريرك فتقبلهما البابا بالبشاشة والاعزاز وارسل الى البطريرك الجواب مؤرخاً في ٢٢ تشرين الثاني ١٥٢٢م ومما قاله فيه انه تحقق صحة ايمانه وايمان شعبه ليس من رسالته فقط بل مما شهد به ايضاً القصاد الذين ارسلهم اليه البابا لاون العاشر، فانهم قرروا ان الموارنة لا يختلفون بشيء عن الكنيسة الرومانية ولذلك يشكر الله على ما انعم به على الموارنة ويسأله تعالى ان يباركه ويبارك مطارينه وأساقفته وكهنته وشمامسته وجميع الشعب الماروني الكاثوليكي، وارسل الى البطريرك مع قاصديه بدلتين واربعة دروع مزركشة وبطراشيلين وزندين مزركشين وكتونة بيضاء، وكفاً وبشخوناً وتاجاً مرصعاً بلؤلؤ

وغفارة ومعقداً من مخمل، وأوجهاً للمذابح مزركشة بتصاوير وغطاء كأس مذهباً، وزناراً بشماريخ، وخاتماً للبرشان وكتاب ناموس افرنجي. وبعد وصول القاصدين الى قنوبين رفع البطريرك عريضة الشكر للحبر الروماني ورقى القس موسى العكاري الى الاسقفية، فكان خليفته في البطريركية كما سترى. ثم توفي البطريرك سمعان الحدثي في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٥٢٤م وعمره نحو مئة وعشرين سنة.

ومن الخطوط المعلقة على كتاب الاناجيل المذكور ونقلها عنه المطران اسطفانوس عواد في كتابه فهرست الكتب المشرقية التي في المكتبة الماديشية خط علق على صفحة ١٩ من الكتاب المذكور وهو لما كان تاريخ سنة ١٨٢٧ يونانية (توافق سنة ١٥١٦م) ارسل البطريرك بطرس ܒܪ ܕܘܝܕ ܕܡܬܩܪܐ ܒܪ ܚܣܢ ܡܢ ܩܪܝܬܐ ܡܒܪܟܬܐ ܚܕܬ ܘܫܕܪ ܠܗ ܦܐܦܐ ܕܪܗܘܡܝ (أي بطرس ابن داود المسمى ابن حسن من قرية الحدث المباركة وارسل له بابا رومة) على يد رهبانه فرنسيسكو رئيس القدس وترجمانه اول الحوائج وجه المذبح وثانيهم كف وحذاء مزركش، ويعدها ما بقي مما ذكرناه من البدلات والغفارات والتاج إلى ان يقول ان من هدايا البابا جوختين ܠܡܩܕܡܐ ܕܡܪ̈ܘܢܝܐ ܕܡܫܬܡܗ ܐܠܝܐ ܒܪ ܝܘܣܦ (لمقدم الموارنة المسمى الياس ابن يوسف وكذلك عشر جوخ لصبيان الدير».

وعلق على صفحة ٢٢ من الكتاب المذكور خط آخر هذا هو بحروفه: «في سنة ١٨٠٦ يونانية (توافق سنة ١٤٩٥م) البطريرك بطرس بن داود بن حسن اشترى بقرية حدث لدير قنوبين من يوحنا بن يوسف بن ابراهيم من قرية عبدين حقلة فيها خمسين عرق زيتون وحدودها من الشرق: الدرب. من الغرب: العرقوب. من القبلة: كرم يوحنا المذكور. من الشمال: حقلة الجمال ومن يجاسر ويفسد هذا المشترى غضب والدة الله يحل عليه. شهد بذلك المطران جرجس، والخوري سمعان والخوري يعقوب». وهناك خط آخر: لما كان تاريخ سنة ١٨٢٢ يونانية (توافق سنة ١٥٢١م) انقطع حجر طاحون بقرية بان وانتقل إلى طاحون دير قنوبين وكلف ماية غرش بأيام ابينا بطرس (سمعان) البطريرك الانطاكي والمطارين يعقوب الحدثي وجرجس. والا يخفى على القراء ما في ذكر هذه الخطوط من الفائدة في اثبات بطريركية البطريرك سمعان المذكور وتعيين مدتها فضلاً عن الفكاهة بذكر هذه الامور القديمة.

عد ٩٥٤

من نعرفهم من مطارين الموارنة في القرن الخامس عشر

نعرف من هؤلاء الاساقفة

الاول: المطران بطرس ابن الخوري سمعان من اهدن كان مترئساً على هذه البلدة في سنة ١٤٠٤م ذكره البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخ هذه السنة.

الثاني: المطران سمعان من قرية مشمش من عمل جبيل ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٤٠م وقال انه سار مع البطريرك عند انتقاله من دير ميفوق الى دير قنوبين عندما جعل هذا الدير كرسياً لبطريركية الموارنة.

الثالث: المطران الياس أسقف الموارنة بقبرص ذكره كثيرون منهم الدويهي. وعند اتحاد الروم بالكنيسة الرومانية في المجمع الفلورنسي اوفد الكاهن اسحق نائباً عنه الى البابا اوجانيوس الرابع، فسار تيموتاوس اسقف الكلدان الذي كان قد ارعوى عن بدعة النساطرة إلى الايمان القويم، فأثبت تيموتاوس ارتجاعه إلى الايمان الكاثوليكي باليمين، وحلف اسحق نيابة عن مطرانه الياس اليمين التي يحلفها رؤساء الكهنة في الكنيسة الرومانية على صحة ايمانهم وخضوعهم للكرسي الرسولي، فتوهم بعضهم ان المطران الياس والموارنة الساكنين بقبرص كانوا هراطقة وارعووا عن ضلالهم. وسنفرد لرد هذه التهمة الفصل التالي.

الرابع: المطران يعقوب نائب البطريرك بطرس بن حسان الحدثي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٥٨م وقال انه كان قائماً بمعاضدة البطريرك المذكور، وهو غير المار ذكره في احد الخطوط المثبتة آنفاً.

الخامس: المطران داود ابن المقدسي حنا ابن الاسقف داود الحدشيتي ذكره الدويهي ايضاً في تاريخ السنة المذكورة، وقال انه كان بمعاضدة البطريرك المذكور. وروى عنه في تاريخ ١٤٦٦م حصول قحط ومجاعة بسبب امحال الزروع مدة سنتين لطول القيظ، وان كان ذلك في ايام الملك الظاهر خشقدم المار ذكره.

السادس: المطران بطرس مطران اهدن ذكر الدويهي وفاته في تاريخ سنة ١٤٧٢م، ولا نظنه المطران بطرس ابن الخوري سمعان الذي روي انه كان مترئساً على اهدن سنة ١٤٠٤م، بل هو بطرس آخر توفي سنة ١٤٣٧م.

السابع: المطران يعقوب ابن رئيس اهدن (كذا في النسخة المخطوطة وفي تاريخ الدويهي المطبوع). سكن بدير مار سركيس رأس النهر وهو الذي طرد الرهبان اليعاقبة الاحباش من دير مار يعقوب اهدن.

الثامن: المطران يعقوب اسقف بشري ذكر الدويهي وفاته سنة ١٤٧٣م ايضاً.

التاسع: المطران حزقيال وكان رئيساً على دير السيدة بحوقا، وورد اليه رسالة من البابا خوسطوس الرابع في تاريخ ١١ ايار سنة ١٤٧٤م وتوفي سنة ١٤٨٩م.

العاشر: المطران سمعان بن داود بن يوسف الحدثي رقاه عمه البطريرك بطرس الحدثي الى اسقفية العاقورة واليموني سنة ١٤٨٠م، وسكن بدير قنوبين ثم خلف عمه البطريرك بطرس كما مر.

الحادي عشر: المطران سمعان بن ظريفة، ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٢م وقال انه انتقل من المنيطرة الى العاقورة من جور المستراحية الذين تقووا بالمنيطرة وعزلوا اولاد قصاص من المشيخة.

الثاني عشر: المطران ابراهيم بن حبلص من اهدن ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٨م قائلاً: ان المطران يعقوب اسقف اهدن واعيانها سعوا بترقيته إلى الاسقفية وانزلوه على الرهبان الاحباش اليعاقبة المقيمين بدير يعقوب اهدن حتى رحلهم عنه.

الثالث عشر: المطران يوسف اسقف بشري، روى الدويهي في تاريخ سنة ١٤٩٨م انه توفي حزقيال اسقف بشري الذي قدمنا ذكره، وخلفه في هذه الاسقفية المطران يوسف.

الرابع عشر: المطران جرجس صدقني من مزرعة الحدث.

الخامس عشر: المطران يوحنا المسمى بالفرنجي.

السادس عشر: المطران تادروس العينطوري.

السابع عشر: المطران يوسف القبرصي.

ذكر الدويهي هؤلاء جميعاً في تاريخ سنة ١٤٩٤م وقال انهم كانوا مع المطارين يعقوب الاهدني وابراهيم بن حبلص ويوسف اسقف بشري وداود الحدشيتي المار ذكرهم رجال ديوان البطريرك سمعان اذ قدم لهم جبرائيل بن القلاعي كتابه في

ثبوت الموارنة الدائم على الايمان الكاثوليكي وروى ان المطران تادروس المذكور الذي كان مقيماً بدير السيدة بعنتورين توفي في ٢٩ من شهر اذار ١٥٠٠م وتسلم الدير تلميذة القس وهبه.

وقد عثرنا ايضاً على اسم المطران جرجس من جاج في الخطوط المعلقة على كتاب الاناجيل المحفوظ الآن في المكتبة الماديشية منها الخط الذي ذكرناه في الكلام على البطريرك سمعان الحدثي حيث ذكر من شهود وقفه لدير قنوبين المطران جرجس من قرية جاج. وكذلك جاء ذكره بمنزلة شاهد في الخط المنبيء بشراء هذا البطريرك الزيتون في الحدث سنة ١٤٥٩م، وفي الخط الاخر المؤرخ في سنة ١٥٢١م. وجاء في الخطوط المعلقة على صفحة ٢٢ من الكتاب المذكور ذكر شهادة المطران في وقف سركيس من سرعل بستاناً لدير قنوبين سنة ١٤٩٦م ولا تعلم اهو المطران سمعان بن ظريفه المار ذكره ام هو مطران آخر ؟

عد ٩٥٥

تفنيد رأي من زعم ان الموارنة واسقفهم الياس مطران قبرص رجعوا الى الايمان في ايام البابا اوجانيوس الرابع

قد مر في عد ٩٥١ ان البابا اوجانيوس الرابع ارسل اندراوس رئيس اساقفة رودس الى الشرق بعد نقل المجمع الفلورنسي من فلورنسا إلى رومة لتثبيت من اتحدوا بالكنيسة الرومانية في المجمع ودعوة من لم يتحدوا الى الاتحاد، وان اندراوس اتى الى قبرص فرد تيموتاوس مطران الكلدان من بدعة نسطور إلى الإيمان الكاثوليكي، فتلا دستور ايمانه بحضرة اندراوس المذكور، وان الياس مطران الموارنة في هذه الجزيرة تلا دستور ايمانه ايضاً، ثم سار تيموتاوس إلى رومة وارسل المطران الياس اليها كاهناً اسمه اسحق لينوب عنه لدى البابا اوجانيوس في تقرير ايمانه الكاثوليكي. وبعد وصولهما إلى رومة كررا تلاوة دستور ايمانها وحلفا على صحته سنة ١٤٤٤م بمجلس عقد في لاتران، فتوهم بعض المؤرخين ان المطران الياس والموارنة سكان قبرص وقتئذ كانوا ضالين ضلال مكاريوس بأن في المسيح مشية واحدة وفعلا واحداً فارعووا عنه حينئذ وجاوز بعضهم حد كل اعتدال وصدق، وتوسعوا من البعض إلى الكل، فزعموا ان الموارنة اجمعين اقلعوا في ذلك الحين عن

بدعة المشيئة الواحدة فنفنّد زعم هؤلاء مبرئين اولاً ساحة الملة المارونية من كل ضلال واقلاعهم عنه في ذلك الحين. ثانياً تبرئة ساحة الياس مطران قبرص الماروني وشعبه القبرصي من الضلال.

تبرئة الملّة المارونية من ذلك

قد رأيت في عد ٩٥٣ ان البطريرك يوحنا الجاجي الذي عقد المجمع الفلورنسي في ايامه ارسل الى البابا اوجانيوس الاب يوحنا رئيس دير رهبان القديس فرنسيس في بيروت مصحوباً بالرسائل منه ومن اساقفته واعيان شعبه يجاهرون فيها بتشبثهم بعرى الايمان الروماني وباذعانهم لكل ما يتقرر في المجمع المذكور ويلتمسون منح البطريرك درع الرئاسة والتثبيت، فتوجه بها الاب يوحنا المذكور وقدم الرسائل الى البابا اوجانيوس المذكور سنة ١٤٣٩م وهو في المجمع بفلورنسا، فأثبت البابا البطريرك وأرسل اليه مع قاصده درع الرئاسة وتاجاً، وعاد الاب يوحنا بذلك سنة ١٤٤٠م فاستقبله الموارنة باحتفال في طرابلس، فتوهم نائب المدينة ان القاصد جاسوس، فحبسه ومن كان معه، فكفله بعض ابناء الملة واخرجوه من السجن. ثم طلبه النائب فلم يحضر فارسل عسكراً إلى ميفوق حيث كان البطريرك فقتل ونهب ونكل فدعا البطريرك الاب بطرس من فرارا من الفرنسيسين وارسله إلى البابا في شهر آب سنة ١٤٤٠ مصحوباً يرسالة ضمنها شكره للبابا على ما انعم عليه به من التثبيت واخباره بما كان عند وصول قاصده الاب يوحنا، فاجابه البابا اوجانوس برسالة اثبتها برمتها البطريرك اسطفانوس الدويهي في الفصل الحادي عشر من كتابه رد التهم عن الموارنة ونحن نلخصها هنا عنه.

«اوجانيوس الاسقف عبد عبيد الله إلى الاخ المحترم يوحنا بطريرك الموارنة السلام والبركة الرسولية قد اطلعنا على ما كتبتموه لنا في شهر آب الفائت صحبة الولد العزيز الراهب بطرس من الاخوة الصغار ونظرنا فإذا نعمة الهنا وسيدنا يسوع المسيح معكم لقبولكم تعاليم ايمانه بكل رضى واختيار ولكم رجاء وطيد في الكرسي الرسولي وفي كل من يتولى، فالاله الضابط الكل يفيض نعمه عليكم وعلى الشعب الذي تحت طاعتكم، وكما كان الخضوع سبباً لانتظام الفضائل التي

تمدحون عليها فلتكن طاعتكم ايضاً لكل ما نكتبه اليكم لتمتلئوا حكمة ونعمة، ولا يكفي ان تسلكوا بها انتم وحدكم بل ان تقودوا ايضاً الشعب والامم الاخرى في تلك البلاد والاعمال القاصية الى الحياة الدائمة بامثال افعالكم. ولما لم يمكننا ان نبين لكم كل شيء في كتابنا هذا ارسلنا اليكم الولد العزيز الراهب انطونيوس من طورية من الرهبانية المعروفة بالاخوة الصغار (من رهبان القديس فرنسيس) وجعلناه رفيقاً لولدنا الراهب بطرس من فرارا وهما يشرحان لكم كل ما تعتقد به الكنيسة الكاثوليكية. ولا يكفي ان تقبلوها وان تكونوا متحدين بالكرسي الرسولي بل ان تقووا نفوسكم ايضاً على الثبات والمحاربة لاجل الايمان لتنالوا الاكاليل، ولم نقل ذلك لريبة لنا في ثباتكم وثبات ملتكم بل لاننا علمنا انكم استقبلتم قصادنا واظهرتم بهجة ومسرة زائدة حتى اغتصبتم اعداءكم عليكم فقبضوا على البعض من رؤساكم وقتلوا البعض وصبرتم على ذلك بشهامة كبرى وصح فيكم قول الرسول انكم صبرتم على نهب اموالكم بفرح عظيم ويتحتم علينا في مخاطبتنا لكم ان نبين ما تستحقون عليه من الثناء والثواب، وإذا فعلتم ما ذكرناه وكنتم مستعدين للعمل به استشعرتم في قلبكم بفرح جزيل من اجل الهبات العظيمة المنحدرة عليكم من لدن الله».

كتب بفلورنسة سنة ١٤٤١م لتجسد المخلص في اليوم الثاني عشر من كانون الاول وفي السنة الحادية عشرة من حبريتنا.

ثم ان الموارنة سكان اورشليم وفلسطين رفعوا عريضة إلى البابا اوجانيوس الرابع سنة ١٤٣٨م عصبة الاب البرتس من الفرنسيين ايضاً يبينون بها تشبثهم بعرى الايمان الكاثوليكي وخضوعهم لكل ما يرسمه المجمع المذكور فأجابهم البابا بالرسالة الاتية وقد اثبت البطريرك الدويهي ترجمتها برمتها في الفصل الثاني عشر من كتابه في رد التهم عن الموارنة ونقلناها عنه مصلحين قليلاً العبارة العربية.

من اوجانيوس الاسقف عبد عبيد الله إلى الابناء المحبوبين الموارنة المقيمين باورشليم وجوارها وسائر بلاد المشرق السلام والبركة الرسولية.

«المجد لله في العلا وعلى الأرض السلام والمسرة لبني البشر ذوي الارادة الصالحة. يحسن بنا ايها الابناء الاعزاء ان نهتف هتاف الفرح بنفس مبتهجة يختلط ابتهاجها بابتهاج الملائكة إذ نبشركم بالسرور غير الموصوف الذي شمل جميع

المسيحين، فان عقلنا ترطب بندى التعزية الالهية وفؤادنا تهلل بالرب ونرى نفسنا عاجزة عن وصف ما نشعر به من السرور وطمأنينة الخاطر، فنقتصر على ترديد اصوات التسبيح والحمد والشكر فان ما كنا نطلبه ونجدُّ في نيله ان نرقى الى ذروة هذه الرئاسة قد نلناه برحمة الله ألا وهو زوال ذلك الشقاق المديد المبيد الذي وقع مذ اربع مئة وخمسين سنة بين الكنيستين الغربية والشرقية، ونحن مع إننا بذلنا كل ما في وسعنا لاصلاح هذه الشؤون فينبغي ان نعزو ذلك كله إلى جودة الله غير المتناهية، فكل ما يكون بغير امداده ومعونته فهو باطل اننا منذ ارتقائنا إلى الحبرية لم نأل جهداً بل كنا ندأب ونكد حتى يسر الله اتحاد الكنيسة الشرقية بالغربية، فبعد ان وجهنا رسائل كثيرة إلى جهات مختلفة قدم الينا في العام المنصرم ولدنا المحبوب بالمسيح يوحنا باليالوغوس ملك الروم، واخونا ذو الذكر الصالح يوسف بطريرك قسطنطينية، ونواب بطاركة الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس، ورسل ملوك دربيزون واتيباريا والروس والفلاخ مع رؤساء كهنة واكليروس داراكته وخلق كثير، وهم مقيمون على نفقتنا إلى هذا اليوم ولارتياحهم إلى هذا الاتحاد المقدس عرضوا نفوسهم للمشاق الباهظة ومخاطر البحر وحضروا إلى هذا المجمع المسكوني، وسألونا ان يكون التئامه بايطاليا ليتيسر لنا ان نشهده بنفسنا، واقبلوا على البحث والجدال بغير خصومة، اهتممنا بأن نجمع من كل صقع علماء ضليعين بالشرائع الالهية والبشرية ليبينوا الحق لطالبيه. ولما حصحص الحق بمعونة الله بنصوص الكتب الالهية واقوال الآباء الاطهار الموثوق بكلامهم من اللاتين ينبثق من الآب والابن معاً، وسلموا بطيبة خاطر ان سلطان الكنيسة الرومانية والكرسي المقدس الذي احتقره بعض الناس وافتروا عليه هو الاجل الاعظم، واقروا ايضاً بباقي الحقائق كما واضح في المرسوم الموقع عليه المرسل اليكم مع الابن العزيز وكيلكم فرا البرتوس من الاخوة الصغار، وهو يخبركم عن كل ما كان مفصلاً، ويحق لنا ان نفتخر بالرب ونعلن انه قد جرى في عصرنا امر لم ترَ البيعة الكاثوليكية اعظم منه ولا افضل منذ تبشير الرسل، ولم تقف معجزات الله عند هذا الحد بل ان الله برحمته الغزيرة اطلع لنا سماء اخرى واسعة الارجاء ليتمكن شمس البر الذي ولد في الشرق من ان يبسط اشعته إلى ظلمة الكفر لينتشر خلاص الرب الى اقصى الارض، ويمجد الجميع بفم واحد وروح واحدة الهنا وابا ربنا يسوع المسيح. وها نحن متوقعون يوماً بعد يوم قدوم من وجهنا اليهم رسلنا، وبلغتنا البشرى ان طائفة كبرى من

الارمن اشرق عليها ضياء الحق وهم مستعدون لطاعة الكنيسة الرومانية والكرسي الرسولي بكل شيء والاذعان لسننه وتعاليمه من غير تردد. فالان ايها الابناء الاعزاء قد ترتب علينا ان نقدم لله سيد الجميع قربان التسبحة والابتهاج من اجل النعم الغزيرة التي نلناها من كرمه وما برحنا نرجو غيرها. وكما اشتركتم معنا بالفرح فاشتركوا معنا في اداء الشكر لجودة الله والتنافس بذلك امام كل مسيحي. والحمد على ما اولى من الخير واسألوه تعالى ان يتمم عمله الذي جعل يده على يدنا».

كتب بمدينة فلورنسا سنة ١٤٣٩م في السابع من حزيران وهي التاسعة من حبريتنا.

فمن يا ترى يصدق ان البابا اوجانيوس الرابع يكتب الى الموارنة مثل هذا الكلام إذا كانوا غير خاضعين له قبلاً او رجعوا حديثاً إلى طاعته حيث لا إشارة الى رجوعهم ولا إلى قبولهم بل اقتصر الى تبشيرهم باتحاد الروم ورجائه باتحاد غيرهم، وكلفهم ان يشكروا الله معه وان يذيعوا ذلك عند جميع المسيحيين فضلاً عن ان رسالته مؤرخة سنة ١٤٣٩م، وخصماء الموارنة يزعمون انهم رجعوا إلى الايمان الكاثوليكي سنة ١٤٤٢. فكيف يوفقون هذا التناقض؟

وقد مرَّ ان البطريرك سمعان الحدثي ارسل إلى البابا لاون العاشر صحبة قاصده ست براءات من اسلافه تبين تشبث الموارنة بعرى الايمان الكاثوليكي، ومن هذه البراءات براءة من اينشنوسيوس الثالث بتاريخ ١٢١٥م، واخرى من البابا اسكندر الرابع مؤرخة سنة ١٢٥٦م، يتبين منهما جلياً ان الموارنة كانوا خاضعين للكرسي الرسولي قبل اوجانيوس الرابع بأعصر بل كانوا دائماً كذلك. وهذه البراءات الست المذكورة وغيرها لم تزل الى اليوم محفوظة في خزانة بطريركية الموارنة، وهي تُخجل وتُفحم كل مكابر عنيد ولا حاجة إلى زيادة البيان في رد هذه التهمة لظهور بطلانها بما قدمناه، وفي مواضع كثيرة من هذا التاريخ وغيره، بل نأتي الى بيان انها لا تصدق ايضاً على الياس مطران الموارنة بقبرص وعلى رعيته فيها.

تبرئة الياس مطران قبرص والموارنة ساكنيها من هذه التهمة

لا ننكر ان البابا اوجانيوس الرابع كتب في براءته المفتتحة: «تبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح» المؤرخة في سنة ١٤٤٥م عن كلامه في اندرواس رئيس اساقفة

رودس ان اندراوس هذا هدى الى الايمان القويم تيموتاوس ومطران طرسوس الذي كان بقبرص وكان نسطورياً يعتقد ان في المسيح اقنومين وان العذرا لا تسمى والدة الله وانه رد الى الهدى الياس مطران الموارنة الذي كان مع جماعته بقبرص ملوثاً بضلال مكاريوس ان في المسيح مشيئة واحدة، وأنه جمع هؤلاء في كنيسة القديسة صوفيا كنيسة كرسي تلك الجزيرة فاقروا بالايمان الكاثوليكي جهاراً، ثم ارسل تيموتاوس المذكور والقس اسحق تلميذ الياس مطران الموارنة الى رومة فجحد تيموتاوس ضلال نسطور، واسحق ضلال مكاريوس في كنيسة لاتران برومة. ولا ننكر ايضاً ان المطران الياس جحد تعليم مكاريوس واقر بالايمان الكاثوليكي في كنيسة القديسة صوفيا بقبرص وكذلك فعل تلميذه القس اسحق برومة لكننا نقول ان اندراوس مطران رودس عند بلوغه إلى قبرص ومخاطبته تيموتاوس والياس الاسقفين ورؤيته انهما مستعدان للاقرار بالايمان الكاثوليكي انشأ لهما دستور الايمان الذي يلزم كلاًّ منهما ان يقرأ به جهاراً وباحتفال. ولما كان يعلم ان تيموتاوس نسطوري ضمن الدستور الذي اعده له جحود بدعة نسطور، ولعلمه من كتاب غوليلموس اسقف صور ان الموارنة كانوا يعتقدون المشيئة الواحدة ضمن الدستور الذي للمطران الياس الماروني جحود بدعة مكاريوس بطريرك انطاكية الذي كان مغوياً ببدعة المشيئة الواحدة، فتلا كل منهما في الكنيسة الدستور الذي اعده له اسقف رودس، وكتب الى البابا اوجانيوس انه هداهما إلى الايمان القويم، فاغتر البابا بما كتبه في براءته المذكورة. على ان اقرار المطران الياس لم يكن احداثاً لجحوده بل تقريراً او تجديداً له.

ولنا على اثبات ما قلناه ادلة بينة وحجج راهنة منها اولاً بدعة المشيئة الواحدة لم يبقَ لها من قرون قبل التاريخ المذكور قوام مستقل او انصار يقولون بها وحدها بل استمرت عند اليعاقبة لانها نتيجة لازمة من اعتقادهم الطبيعة الواحدة. وقد صرح بذلك السمعاني في مقالته في اصحاب الطبيعة الواحدة (مجلد ٢ في المكتبة الشرقية) وكثيرون غيره، وهؤلاء اليعاقبة يسمون مذهب الموارنة بدعة. تخص منهم بالذكر ابن العبري الذي قدمنا قوله بذلك، وقد صرح باعتقاده المشيئة الواحدة في المسيح فلا يعلم كيف امكن موارنة قبرص واسقفهم الياس ان يجددوا بدعة المشيئة الواحدة ويقولون بقول مكاريوس ان في المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة، وليس من قائل انهم كانوا يعاقبة. ثانياً اننا نعلم حق العلم ان الموارنة بقبرص كانوا متحدين

مذهباً بإخوانهم في لبنان وخاضعين لبطريرك الملة وقد رأيت تواتر المكاتبات بين الاحبار الرومانيين وبطاركة الموارنة في تلك المدة ولا نجد اثراً في تقليدات ملتنا او خبراً في كتب المؤرخين ان موارنة قبرص او اسقفهم زاغوا عن الايمان وخلعوا طاعة بطريركهم وقد ذكرنا في تاريخ القرن الرابع عشر نقلاً عن اعمال مجمع نيقوسية الذي عقده اليا رئيس اساقفة الكلدان في هذه الجزيرة سنة ١٣٤٠م ان جيورجيوس مطران الموارنة بقبرص كان في جملة من شهدوا هذا المجمع وكانوا جميعاً كاثوليكيين وأقروا في مجمعهم ان الكنيسة الرومانية هي ام جميع الكنائس ومعلمتهن، وان الاب الاقدس البابا بناديكتس الثاني عشر هو خليفة بطرس الطوباوي نائب المسيح في الارض. وقد ذكرنا ايضاً هناك يوحنا اسقف الموارنة بقبرص اعتماداً على خط نقله البطريرك الدويهي عن كتاب كان في كنيسة القديس سركيس بحدشيت وقد علق عليه انه نسخ سنة ١٣٥٧م في ايام البطريرك يوحنا مطران قبرص. وعليه فاسلاف الياس كانوا كاثوليكيين وهو لا نجد اثراً ولا خبراً يبين لنا انه جدد بدعة المشيئة الواحدة التي لم تبقَ إلا عند اليعاقبة، ولا يؤخذ قطعاً من براءة اوجانيوس المذكور انه كان يعقوباً.

ثالثاً قد روى هوراس يوستينيان في كتابه في اعمال المجمع الفلورنسي ان اوجانيوس الرابع امر ان ينقش على باب كنيسة القديس بطرس في صحائف من نحاس ذكر الامور الهامة التي جرت في ايامه، فنقش على تلك الصحائف: «هذا لذكر اوجانيوس الحبر الاثيل ونفسه السامية وعلمه المنيف ان الروم والارمن والحبش واليعاقبة امنوا على يده ايمان رومة العظمى». وكتب على قبره بكنيسة القديس بطرس المذكورة بعد وفاته. «بعنايته اتبع الروم والاحباش والارمن آثار الكنيسة الرومانية باسرار الايمان ثم السريان والعرب الى تخوم الهند، وهذه عظائم صغيرة بالنسبة الى نفسه السامية. ولا نرى في هاتين الكتابتين ذكر للموارنة بالعموم او لموارنة قبرص واسقفهم بالخصوص مع ان الملل المذكورة فيهما لم يرجع إلا قسم منها.

رابعاً الاب غريفون الشهير كتب سنة ١٤٦٩م رسالة من رومة الى الموارنة ومما قاله فيها: ان الموارنة الذين ببلاد الفرنج وردس وقبرص وطرابلس وبيروت والقدس الشريف ما برحوا منذ الزمان القديم إلى هذا اليوم يدخلون كنائس الفرنج ويقيمون القداس على مذابحهم ويلبسون حللهم ويستعملون قربانهم ويرفعون الجسد والدم مثلهم ويرسمون الصليب على وجوههم كما يرسمه الفرنج ويعترفون عند كهنتهم

ويتناولون من يدهم القربان الاقدس ويقبلون هداياهم كالتاج وغيره». وقال مثل ذلك الاب فرنسيس سوريانوس رئيس اديار القدس المذكور انفاً وكلاهما عهد اليهما عدة من الباباوات النيابة عنهم عند الموارنة وعاشراهم وعاشا بين ظهرانيهم سنين متطاولة بأثر ما كتب عن المطران الياس وموارنة قبرص، وقد صرّحا أن الموارنة فيها يعملون كل ما ذكراه منذ قديم الزمان أيسمح الفرنج في قبرص وكان حكامها حينئذ من امراء البندقية بأن يقدس كهنة الموارنة وهم هراطقة على مذابحهم، او جاز لكهنة الفرنج ان يناولوا من كانوا ملطخين ببدعة مكاريوس.

خامساً ان كثيرين من مشاهير المؤرخين الفرنج كبارونيوس ويوحنا مورينوس وغيرهما الذين كانوا انخدعوا بقول غوليلموس ان الموارنة ارعووا سنة ١١٨٢م عن الضلال اثبتوا انهم لم ينفكوا بعد ذلك البتة عن الاتحاد بالكنيسة الرومانية عامتهم وخاصتهم، ونخص بالذكر من هؤلاء القديس انطونيوس اسقف فلورنسا الذي كان معاصراً للبابا اوجانيوس الرابع لهذه الاحداث إذ توفي سنة ١٤٥٩م، فانه قال ان الموارنة جحدوا الضلال على يد ايميريكوس بطريرك انطاكية، وهم الى الآن متشبثون بالايمان الكاثوليكي ومتمسكون بتقليدات الكنيسة الرومانية بحرص بليغ. فلو كان المطران الياس وموارنة قبرص ملطخين في البدعة الى سنة ١٤٤٤م وعادوا إلى جادة الحق في أيام هذا الأسقف القديس لما أهمل ذكرهم ولما قال ان الموارنة متشبثون إلى الان بالايمان الكاثوليكي الخ...

سادساً ان الامثل والاقرب الى الصواب ان نقول ما قاله كثيرون من علمائنا الافاضل وهو ان اندراوس اسقف رودس لما رأى المطران الياس والموارنة القبارصة مستعدين للاقرار بالايمان الكاثوليكي، وتوهم انهم من اصحاب بدعة المشيئة الواحدة انشأ لهم دستوراً للايمان ليتلوه ويحلفوا عليه ففعل ذلك المطران الياس بقبرص فكتب اندراوس كما توهم الى الحبر الروماني وما كان إدراك ما كانت تلك الايام وجهل الشرقيين لغة الغربيين، وجهل اللغات الشرقية، فكتب البابا اوجانيوس الرابع ما كتبه مغتراً باخبار قاصده، ولم تكن هذه الدفعة الوحيدة التي ترى بها مثل هذا الوهم بل جرى مثل ذلك مع بطرس كردينال كنيسة القديس مرشُلوس عند ما رجع الروم على يده في طرابلس، وقدم الموارنة دستور ايمانهم حينئذ فتوهم انهم هراطقة ولم يميزهم عن الروم في ما كتبه الى البابا اينوشنسيوس الثالث فكانت براءته إلى بطريرك الموارنة سنة ١٢١٥م غير مميزة بينهم وبين الروم،

وكذلك جرى لموارنة القدس إذ جددوا اقرارهم بالايمان على يد ايميريكوس بطريرك انطاكية الى غير ذلك.

وقال الأب ايرونيموس دنديني اليسوعي في فصل ١٨ من كتاب بعثته إلى لبنان سنة ١٥٩٦م. «ان براءات الاحبار الاعظمين انما كتبت على النمط الذي نراها به من قبل الاخبار غير الصحيحة التي بلغتهم، وإذ كنت انا اعلم ذلك تحرَّيت هذا الامر وامعنت فيه ودققت في فحص كتبهم (اي كتب الموارنة) فرأيتها لا تضاد العقائد الكاثوليكية البتة. ولما لم يدقق غيري في فحص الكتب بالاجتهاد والامعان اللازمين كان لا بد من ان تعزى إلى الموارنة في براءات الاحبار الرومانيين اغلاط متنوعة. ولبيان الحقيقة بياناً جلياً يلزم أن تلاحظ أن جميع البراءات المعزو فيه أغلاط الى الموارنة نسخت حرفاً فحرفاً عن براءة اينوشنسيوس الثالث. وكلام البابا في هذه البراءة ليس على الموارنة وحدهم بل على الروم ايضاً، فانهم عادوا حينئذ في طرابلس إلى طاعة الكنيسة الرومانية وقدّم الموارنة في ذلك الوقت صك تمسكهم بطاعتها الى كردينال كنيسة القديس مرشلوس وهو بطرابلس اذ كان قاصداً رسولياً في الشرق فكان ذلك سبباً لنسبة اغلاط طائفة الى اخرى. وقال مثل هذا المقال غير دنديني من علماء اللاتين ومرهج ابن نيرون الباني في مقالته في الموارنة والسمعاني في المكتبة الشرقية. ويمكن القول بمثل ذلك براءة اوجانيوس الرابع المذكورة. ويؤيد ذلك قول العلامة البابا بناديكتوس الرابع في رسالته الى نيقولاوس لركاري المؤرخة في ٢٨ ايلول سنة ١٧٥٢م، وهو قد اثبت الموارنة انهم لم ينحرفوا قط عن محجة الدين الكاثوليكي ولم ينفصلوا عن الكنيسة، وزادوا على ذلك انهم كانوا جددوا اتحادهم بالكنيسة الرومانية وقتاً ما، فلا ينبغي ان يتأوّل ذلك بمعنى انهم غادروا الدين الكاثوليكي ثم عادوا اليه.

وجاء في كتاب اسطفانوس عواد السمعاني في محاماته عن يوحنا السرومي وهو يوحنا مارون، ان الياس مطران قبرص كان يروم التملص من سلطة بطريرك الموارنة والاستقلال بسلطته محتجاً بما خوله المجمع الافسسي (في عمل ٧ قسم ٢) لمطارنة قبرص من الاستقلال عن بطريرك انطاكية في ترقية اساقفتهم الى الاسقفية، فحسب منشقاً عن بطريركه ومتحداً مع تيموتاوس مطران النساطرة، فالجئ الى ان يتلو دستور ايمانه بحضرة اندراوس رئيس اساقفة رودس. ومهما يكن من امره فهو فرد ورعيته في قبرص فريق يسير من الموارنة، فمن لا يقنعه كلما اوردناه من الادلة

لا يسوغ له ان يعيب الملة كلها بعمل بعض افرادها، كما لا تعاب الكنيسة اللاتينية بالكثيرين الذين خرجوا عن طاعتها وعصوها.

لا نشاء ان نختم هذا الفصل دون ان نذيله بما كتبه العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢٣) متكلّماً في براءة البابا اوجانيوس الرابع في شأن اقرار تيموتاوس مطران الكلدان واسحق قاصد الياس مطران قبرص على الموارنة بالايمان حيث ذكر السمعاني فقرة من البراءة المذكورة قال فيها البابا: «لا يجسرنَّ احد من الشعب والاكليروس من الآن وصاعداً ان يدعو مطران الكلدان واسقف الموارنة المذكورين وشعبيهما واكليرُسهما هراطقة او ان يسمى الكلدان نساطرة، ومن خالف امرنا هذا نأمر اسقفه ان يحرمه الى ان يصنع الترضية الكافية أو يغرّم بجزاء آخر زمني يراه الاسقف». واردف السمعاني ذلك بقوله: انظر الى الفرق الذي وضعه البابا بين اسمي الموارنة والنساطرة. فلما كان الموارنة لم يأخذوا اسمهم عن مبتدع نهى عن ان يسموا هراطقة فقط. واما النساطرة فلما كانوا اخذوا اسمهم عن نسطور المبتدع نهى عن ان يسموا هراطقة ونساطرة، وهذا ما راعاه باجيوس إذ كتب عن الموارنة في تاريخ سنة ٦٣٥م عد ١٣ «بل ان تسمية هذا الشعب نفسها موارنة ينتج منها انهم لم يسموا بهذا الاسم نسبة الى مارون مبتدع، فإن العادة المستمرة في الشرق والغرب ان الهراطقة الذين يرجعون الى الايمان الكاثوليكي ان كانوا غربيين كاللوتاريين والكلونيين دعوا كاثوليكيين، وان كانوا شرقيين فإن كانوا يعاقبة دعوا سرياناً وان نساطرة تسموا كلداناً ويفهم بذلك انهم سريان كاثوليكيون وكلدان كاثوليكيون.... واما الموارنة فهذا كان اسمهم دائماً، والاحبار الرومانيون يسمونهم به من ايام البابا اينوشنسيوس الثالث او يسمى بطريركهم بطريرك الموارنة الانطاكي. والناتج من ذلك نتجاً لازماً ان هذا الاسم دل دائماً على شعب كاثوليكي». انتهى كلام باجيوس.

الباب السادس عشر

تاريخ سورية في القرن السادس عشر

القسم الاول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

فصل

ما كان من الاحداث الى ان فتح السلطان سليم سورية ومصر

عد ٩٥٦

الملك قانصوه الغوري

ختمنا كلامنا في تاريخ سورية الدنيوي بذكر فرار طومان باي وخلعه من السلطنة وتولية السلطان قانصوه الغوري، وكان الملك العادل طومان باي جعله دواداراً كبيراً، وسُمّي الملك الاشرف وهو الثالث والعشرون من ملوك الجراكسة. وقد اختاره امراء مصر للسلطنة لانه كان لين العريكة سهل الازالة اي وقت ارادوا عزله عزلوه، لانه كان اقلهم مالاً وأضعفهم حالاً واوهنهم قوة. ولما عرضوا عليه السلطنة قال لا اقبل إلا بشرط ان لا تقتلوني، فاذا اردتم خلعي فاخبروني وانا اوافقكم وانزل لكم عن الملك فعاهدوه على ذلك، فقبل وفرح العسكر بولايته. وكان كثير الدهاء ذا فطنة ورأي إلّا انه كان شديد الطمع كثير الظلم فانه اخذ

يلقي الفتنة بين الامراء ويأخذ هذا بهذا ويدس لهم السم في الطعام ونحوه حتى افنى كبراءهم ودهاتهم إلا قليلاً منهم، ثم اتخذ مماليك لنفسه جلباً وأعدهم جنداً فصاروا يظلمون الناس واظهروا الفساد، وصار هو يصادر الناس ويأخذ اموالهم قهراً. وكثر العياث في ايامه فكانوا إذا رأوا انساناً كثير المال وشوا به الى السلطان فأرسل اعوانه فاستنزف ماله وسلمه إلى من يعاقبه ليأخذ ما اخفاه فجمع مالاً كثيراً، لكنه قيل ما انتفع به ووقع اخيراً بيد اعدائه وهكذا كل ما يؤخذ بمثل هذا الاسلوب.

وفي سنة ٩٠٨هـ (سنة ١٥٠٢م) تولى نيابة حلب سيباي ونيابة دمشق قانصوه المحمدي، فظهر الى البقاع وانهزم منه ناصر الدين بن محمد بن حنش مقدم البقاع وكانت بينهما مناوشات ووقعت فتنة بين اهل دمشق ونائبها فاحرق الشاغور ونكل بهم وفي سنة ٩٠٩هـ (سنة ١٥٠٣م) جاء سيل عظيم ومطر دام سبعة وعشرين يوماً فكانت منه مضار لا تقدر فاخرب نهر بردى في دمشق بيوتاً وحوانيت كثيرة، واضر نهر العاصي بالنواعير والبساتين بحماة، وكذلك الانهر الجارية في لبنان اخربت المطاحن واقلبت الجسور القديمة التي كانت عليها، منها جسر نهر الكلب القديم. وفي سنة ٩١٤هـ (سنة ١٥٠٨م) وقع ثلج لم يعهد له نظير واستمر يتراكم خمسة عشر يوماً حتى قطعت الطرق في الساحل ايضاً ولم نعثر في ما لدينا من الكتب على امور تستحق الذكر من احداث السنين التالية إلى سنة ٩٢٢هـ.

ففي السنة الاخيرة الموافقة سنة ١٥١٦م للميلاد بينما كان سيباي بن بخت خجا نائب السلطنة بالشام وخاير بك بلباي نائب حلب وتمراز الاشرفي نائب طرابلس وجان بردي الغزالي نائب حماة، ويوسف نائب صفد منتقلاً اليها من نيابة القدس، ودولات باي نائب غزة وقد اضيف اليه نيابة القدس والكرك بلغ الملك الاشرف قانصوه الغوري ان السلطان سليم الاول العثماني عازم على ان يحمل على سورية ومصر لينتزعهما من ولاية ملوك الجراكسة، فأخذ الملك الاشرف يساعد للخروج إلى سورية، ثم خرج بالعساكر ومعه الخليفة ونواب القضاة الاربعة واستخلف بالقاهرة الدوادار طومان باي، ودخل الملك الاشرف دمشق يوم الاثنين ثامن جمادي الاول من السنة المذكورة فلاقاه الامير سيباي نائب الشام بالعساكر ودخل في موكب حافل وقدامه الخليفة والقضاة الاربعة وسائر الامراء وزينت له المدينة زينة حافلة ونزل بالمصطبة التي يقال لها مصطبة السلطان، واقام بدمشق

تسعة ايام ثم رحل عنها الى حماة فلاقاه نائبها جان بردي الغزالي محتفياً به ثم سار إلى حلب فدخلها يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة وكان لدخوله يوم مشهور.

وعند وصول السلطان الاشرف الغوري الى حلب قدم اليه وفد من قبل السلطان سليم بن عثمان اخص هذا الوفد ركن الدين قاضي عسكر ابن عثمان وقراجا باشا احد امرائه، فشرع الغوري يعتبهما على افعال ابن عثمان وما يبلغه عنه، فقالا فوض الينا استئذان امر الصلح، وقال كل ما اختاره السلطان افعلوه، ولا تشاوروني. وكان ذلك خدعة حربية لتخمد همة الغوري عن الاستعداد للحرب وكان السلطان سليم يقول له في كتابه اليه انت والدي واسألك الدعاء، لكن لا تدخل بيني وبين اسماعيل الصفوي الذي حملت عليه، فخلع الملك الاشرف على وفد السلطان العثماني الخلع السنية وارسل الى السلطان سليم الامير مغلباي الدوادار للمفاوضة بامر الصلح، فوردت الاخبار بان السلطان سليم قبض عليه ووضعه في الحديد وقصد شنقه فشفع به بعض وزرائه، وقصد ان يحلق لحيته وأمر السلطان سليم عساكره ان تسير نحو حلب فوصلوا الى عنتاب وملكوا قلعة ملطية وغيرها، فلما بلغت هذه الاخبار الملك الاشرف خرج من حلب وسير امامه النواب والعساكر وعاد اليه الامير مغلباي مهاناً وقص عليه ما انزل به السلطان سليم من التعزير والتهديد، ثم خلّى سبيله، وقال له قل لاستاذك ان يلاقينا الى مرج دابق فاضطرب الاشرف من ذلك. ويوم الاربعاء حادي عشر رجب رحل الاشرف إلى مرج دابق.

وفي الخامس عشر من الشهر المذكور اقبلت عليه جيوش السلطان سليم فصف الاشرف جيشه للقتال في الميمنة الخليفة امير الؤمنين المتوكل على الله، وعلى ميمنته سيباي نائب الشام، وكان على الميسرة خاير بك نائب حلب، والملك الاشرف في القلب اي الوسط واصطلت نار الحرب فقاتلت العساكر المصرية والشامية قتالاً شديداً وزحزحوا اولاً عساكر السلطان عن مواقفهم واخذوا منهم سبعة سناجق وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل، ولكن شاع بين المماليك القرانصة ان الملك الاشرف قال للمماليك الجلبان لا تقاتلوا ودعوا المماليك القرانصة يقاتلون وحدهم، ففترت عزيمة هؤلاء وقتل الاتابكي سودون العجمي، وسيباي نائب الشام فانهزم فريق كبير من العساكر في الميمنة وانهزم خاير بك نائب حلب من الميسرة، فانكسرت وظهر انه كان مخامراً على الملك الاشرف لانه هرب قبل العسكر،

واصبح الاشرف واقفاً تحت السنجق في نفر قليل واخذ ينادي هذا وقت المروءة هذا وقت النجدة فلم يسمع له احد قولاً، وغلت ايدي العسكر المصري عن القتال وشخصت أبصارهم، وتقدم الأمير تمر الزردكاش إلى السنجق فطواه وأخفاه وقال للاشرف مولاي ادركنا عسكر ابن عثمان فانج بنفسك وادخل الى حلب فعاجله فالج شل شفته وارخى منكبه، وركب فرسه فمشى خطوتين وانقلب عنه إلى الارض فخرجت روحه ومات من شدة قهره، ووثب عسكر ابن عثمان على من بقي من عساكر الغوري فقتلوا من ادركوه وشتتوا الباقين شذر مذر وغنموا ما كان في معسكرهم وكان في جملة القتلى سيباي نائب الشام وتمراز نائب طرابلس وطراباي نائب صفد واصلان نائب حمص وجماعة من امراء دمشق وحلب وطرابلس ومصر وكانت مدة سلطنة الغوري خمس عشرة سنة وتسعة اشهر وعشرة ايام ثم دخل السلطان سليم حلب فملكها دون معارض ولا منازع واتى اليه الخليفة امير المؤمنين المتوكل على الله فاكرمه وخلع عليه ودخل عليه ثلاثة من القضاة الذين كانوا مع الغوري فوبخهم على انهم لم يمنعوا سلطانهم من ان يظلم الناس، ودعا خائر بك نائب حلب قبلاً فخلع عليه وصار من جملة امرائه وابقى الخليفة والقضاة الثلاثة عنده وأقام بحلب اياماً حتى دبر الملك ووضع الرسوم العادلة، ثم توجه الى حماة فملكها والى حمص فاستولى عليها ثم قدم الى دمشق فخرج اهلها إلى لقائه وطلبوا منه الامان، فامنهم وضبط حصون المدينة ومهد امورها وسار منها نحو مصر، ولما بلغ إلى غزة عدل الى زيارة القدس الشريف والخليل بنفر قليل، وكذا استحوذ على سورية كلها واقام بها عمالاً من خواصه.

عد ٩٥٧

طومان باي آخر ملوك الجراكسة

بعد وفاة الغوري وعود من سلم من الامراء في وقعة مرج دابق إلى مصر اجتمع الامراء في القاهرة يتشاورون في من يلي امرهم وامرائهم ان يختاروا للسلطنة طومان باي الذي كان يدبر الملك في غيبة الغوري، وقد احسن تدبيره فامتنع هو من ذلك غاية الامتناع واستمروا هم يقولون ما عندنا سلطان إلا انت. ومن الاسباب التي كان يوردها لتمنعه ان خزائن بيت مال المسلمين ليس فيها درهم فمن

اين ينفق على العسكر، ومنها ان ابن عثمان ملك البلاد الشامية وهو زاحف ليملك مصر والامراء لا يطاوعونه على الخروج اليه، ومنها انه تسلطن فلا يبعد ان ينقلبوا عليه ويخلعوه من السلطنة ويقتلوه او يرسلوه الى السجن بالاسكندرية، فاحضروا مصحفاً شريفاً وحلف الامراء عليه بأنهم اذا سلطنوه لا يخامرون عليه ولا يغدرون به ولا يثيرون فتناً، فأذعن لهم فاستدعوا امير المؤمنين يعقوب والد الخليفة المتوكل على الله الذي كان ابن عثمان ابقاه عنده وحضر قضاة المذاهب الاربعة والامراء والعسكر، واظهر والد الخليفة وكالة مطلقة عن ولده المتوكل على الله فاثبتها القضاة فبايعوه بالسلطنة والبسوه حلتها وسُمّي الملك الاشرف، كما كان اسم الغوري سالفه وجلس على كرسي الملك.

فطومان باي هو الثاني والعشرون من الملوك الجراكسة عند من اسقطوا خشقدم وتمربغا من عديدهم والرابع والعشرون عند من لم يسقطوهما، وقال بعضهم انه كان ابن اخي الغوري، وقال غيرهم انه كان اخاه. والذي قاله ابن اياس في تاريخ مصر ان اصله من كتابية الاشرف قايتباي اشتراه الملك الاشرف قانصوه الغوري وكان يلوذ بقرابة، ولما تسلطن قانصوه الغوري رقاه في المراتب حتى الدوادارية الكبرى. ولما خرج على ابن عثمان جعله نائبه في غيبته فاحسن سياسة الرعية واطاعة العسكر الذي بقي بمصر فملكوه بعده على ان ابن اياس قال بعد ذلك ان الغوري عم طومان باي.

وروى بعضهم ان جان بردي الغزالي نائب حماة كان ممن خامر على الغوري في وقعة مرج دابق وانحاز إلى السلطان سليم. والذي رواه ابن اياس في تاريخ مصر انه عاد الى القاهرة وجعله طومان باي نائب الشام وتوجه بفريق من العسكر قبل الجميع الى غزة لمناوأة السلطان، ولما لم يكن معه من الجيش ما يكفي لمقاتلة جيش ابن عثمان جمع بعض العربان وقصد ان يقطع الطريق على عسكر السلطان سليم باشا واقتتلا قتالاً شديداً، فانكسر الغزالي ومن معه وقتل منهم كثيرون ومن سلم منهم عاد الى القاهرة باسوأ حال. ثم وردت الاخبار بان سنان باشا العثماني انتقم من اهل غزة وقتل منهم نحو الف شخص ثم زحف السلطان سليم بجحافله وبلغوا الريدانية فكانت هناك وقعة قتل فيها كثيرون من عسكر ابن عثمان واخصمهم سنان باشا، ثم انقسم العسكر العثماني إلى فرقتين فرقة جاءت من تحت الجبل الاحمر وفرقة صدمت المصريين في الريدانية فهزموهم وشتتوا شملهم، وثبت

الملك الاشرف طومان باي يقاتل بنفر قليل الى ان خاف القبض عليه فولى واختفى ودخل جماعة من العثمانيين الى القاهرة مستلين سيوفهم واحرقوا بعض الدور ونهبوا بعضها. وفي يوم الاثنين ختام سنة ٩٢٢هـ (سنة ١٥١٧م) دخل الخليفة المتوكل على الله الى القاهرة وصحبته وزراء السلطان سليم وجم غفير من العساكر العثمانية ونادوا بالامان والاطمئنان، وان لا احد من العسكر العثماني يشوش راحة الاهلين وان كل من عنده مملوك جركسي ولا يظهره يشنق. ولكن لم يلتفت بعض الجنود العثمانيين لهذه المناداة بل ظلوا ينهبون في القاهرة ثلاثة ايام وخطب يوم الجمعة باسم السلطان سليم خان على منابر القاهرة ومصر.

وفي افتتاح سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) امر السلطان سليم شاه بالانكفاف عن النهب واشخصوا لديه من قبضوا عليهم من الجراكسة فأمر بضرب اعناقهم، واكمل عسكره حز رأس كل جركسي وجدوه. وفي يوم الاثنين ٣ من المحرم دخل السلطان سليم شاه القاهرة في موكب حافل فارتفعت له الاصوات بالدعاء وكان قدامه الخليفة والقضاة الاربعة. وفي يوم الاربعاء خامس المحرم وثب الاشرف طومان باي على محلة السلطان سليم شاه واحتاطها بالعسكر فانتشبت الحرب ودامت الليل كله الى مغرب الشمس واستؤنف القتال في اليوم التالي فطرد العثمانيون المصريين من بولاق وجزيرة الفيل وقبضوا على بعض المماليك وطردوا المصريين من الناصرية الى قناطر السباع، وقسم طومان باي عسكره اربعة اقسام ارسل كل فرقة في جهة فلم ينجحوا واستمر القتال من يوم الاربعاء إلى طلوع الشمس يوم السبت ثامن المحرّم ولما ظهر لطومان باي امتناع انتصاره على العثمانيين هرب وتوجه نحو الصعيد. واما ما كان في هذه الحرب الطويلة من القتل والنهب واحراق الدور والفظائع فيعجز عن وصفه القلم وهرب الى طومان باي وهو في الصعيد كثيرون من المماليك والعسكر المصري والتف اليه جمع من العربان وارسل يقول للسلطان سليم شاه ان شئت اجعل الخطبة والسكة باسمك واكون انا نائباً عنك بمصر واحمل اليك خراجها وارحل انت عن مصر الى الصالحية وصن دماء المسلمين والا فاخرج إلى ملاقاتي في بر الجيزة ويعطي الله من شاءه النصر، فوجه السلطان سليم القضاة الاربعة الى طومان باي مع منشور الامان محلوفاً عليه ان جاء طومان باي خاضعاً. فأرسل طومان باي فقتل سفير السلطان سليم قبل ان يصل اليه مع القضاة فتيقن السلطان سليم ان طومان باي يأبى الصلح والخضوع فنهض اليه بعسكره إلى

بر الجيزة وقدم طومان باي إلى تلك الجهة فكانت موقعة اخرى هائلة تغلب في اولها المصريون ولكن دارت عليهم الدوائر في آخرها، وولى طومان باي منهزماً فلاقاه حسن بن مرعي في ضيعة اسمها البوطة وكان حسن المذكور صديقاً قديماً لطومان باي فنزل عليه ضيفاً بعد ان حلف له ان لا يخونه ولا يدل عليه، وإذا بالعربان احتاطوا عليه من كل جهة وهو لا يدري واعلموا السلطان سليم فارسل جماعة من عسكره فقبضوا عليه وغللوه واتوا به اليه فاقامه مقيداً عنده اياماً. وفي الحادي عشر من ربيع الاول سنة ٩٣٢هـ (سنة ١٥١٧م) شنقه على باب زويلة في القاهرة وكانت سلطنته ثلاثة اشهر واربعة عشر يوماً وانقرضت به دولة الجراكسة. وقد دامت مئة واحدى وعشرين سنة قمرية واول ملوكها السلطان برقوق واخرهم طومان باي واصبحت سورية ومصر منذ ذلك الحين الى اليوم في قبضة ملوكنا العظام وسلاطيننا الفخام السلاطين آل عثمان خان ادام الله ملكهم مدى الزمان ومتع رعاياهم بالتوفيق والنجاح والامان ما تتالى الملوان.

وقد اقتطفنا ما في هذين الفصلين عن تاريخ مصر لابن اياس وعن تاريخ الاسحاقي وعن تحفة الناظرين للشرقاوي وعن تاريخ البطريرك الدويهي.

وليكن هذا ختام هذا المجلد السادس من تاريخنا هذا ويليه المجلد السابع في تاريخ سورية في ايام السلاطين العثمانيين وكان النجاز من تصنيفه في اليوم الخامس من شهر نيسان سنة ١٩٠٢م تقبل الله تعبي فيه كفارة عن زلاتي وجعله ملخصاً لوجهه الكريم ونفع به قارئيه يمنه وكرمه فهو ارحم الراحمين آمين.







